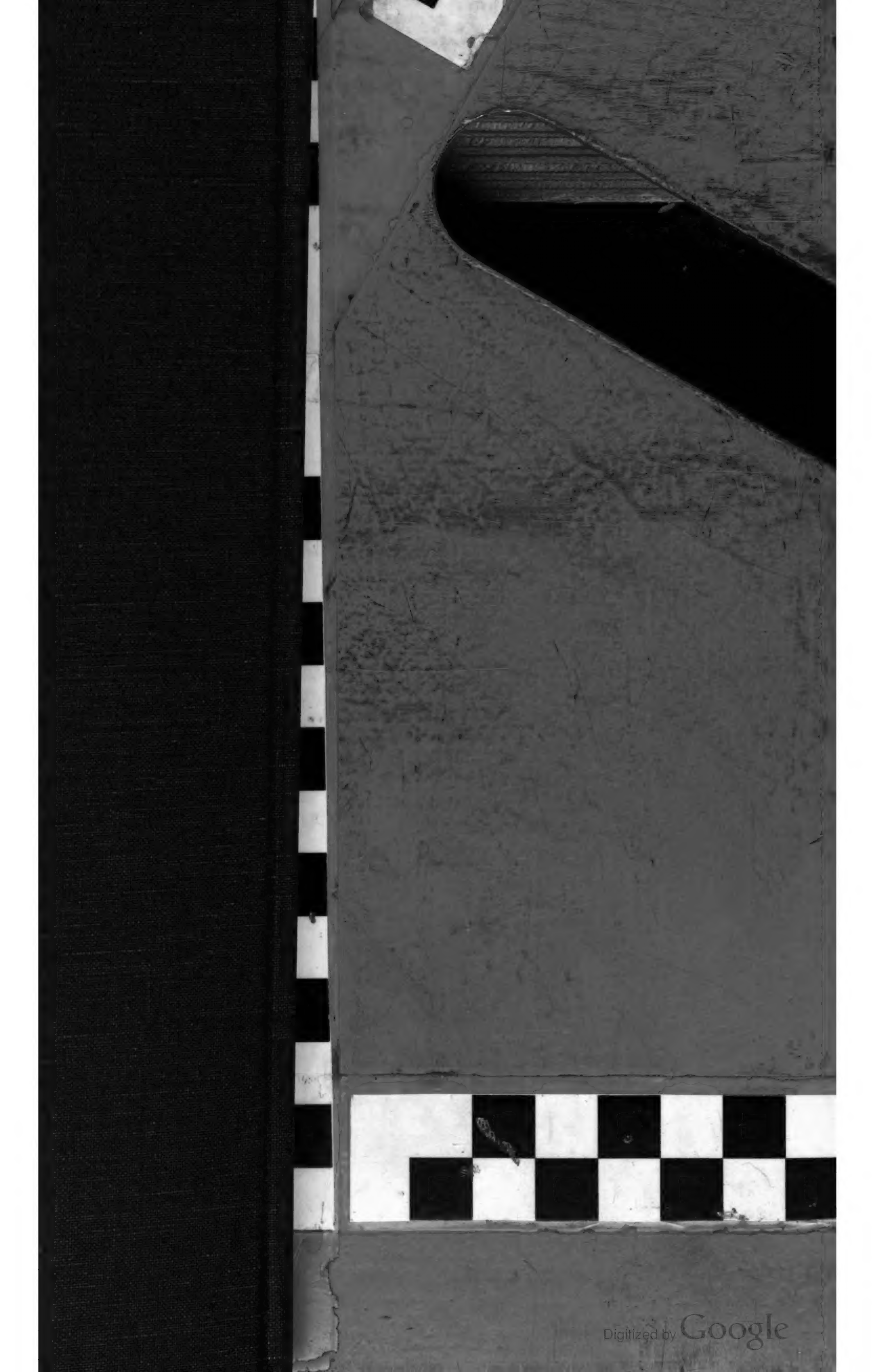
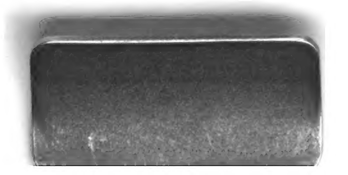


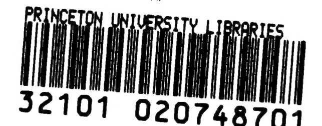









PRINCETON UNIVERSITY LIBRARIES
32101 020748701



كتاب الرحلة

al-Shidyaq, Aḥmad Fāris.

كتاب الرحلة

الموسومة

بالواسطة الى معرفة مالطة

وكشف المخبا عن فنون اوربا

تاليف

العالم العلامة والشهم الفهامة * الناخع البارع * وحائز
خصل السباق بلا منازع * فارس ميادين البيان
ومجلي مخدرات المعاني على منصان العرفان
من لم تزل صحائف افادته تجوب
الافاق * وينعقد على الاقبال عليها
نطاق الاتفاق * ابي العباس
الشيخ احمد فارس افندي
الشدياق * دام
بحفظ الباري
الرزاق

*

طبعة اولى

بمطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية

سنة ١٢٨٣

تنبيـــــه

يقول المكلف بطبع هذا التاليف الفريد انني كنت عزمت على اضافة بعض حواش اليه تاريخية وتفسيرية شرحا لما ورد فيه من الاسماء والالفاظ العجمية التي ليست مشهورة عند اهل العربية كاسم السسترس ومارس وغيرهما ورسمت في الاصل اعدادا بين هلالين علامة لما اردت ان احشي عليه ولكن لما استاذنت المولف كما كان من الواجب علي لم يستحسن ذلك مني ولم ياذن لي به بل اعلن انه شرع في شرح ما يلزم وانه ينشرها فيما بعد فعدلت عن عزمي ولم اتاسف لانني على يقين بانه هو اجدر بالتحشية على تاليفه ممن سواه * فالله المسئول ان يطيل بقاءه ويقدره على انجاز ما اكثر من ذلك افادة للجميع *



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي احصى كل شيء كتابا * واعد للمتقين جزآءً حسابا * والهم ابن آدم ان يضرب في الارض ويكدح لنفسه كدحا * ويجوب مناكب البلاد ويسعى ليدرك نجحا * والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي بهرت آيات فضله الناظرين * وبزغت شمس دينه فافل منها سها الكافرين * ونادى بالحق فزهق الباطل واحيى طلله * وانذر فارهب * وبشر فارغب * وطاب مقيله ومقوله ومقولة * خبر من دعا وامر * ونهى وزجر * ووعد فانجز وقال اطنب او اوجز * وارشد فهدى * واجدى من اجتدى * صلاة وسلاما دائمين متلازمين متلائمين * وعلى آله وعترته * واصحابه وعشيرته * ما سرى الساري * وطلعت الدراري *

اما بعد فان الاسفار طالما ذكرها الذاكرون * وبالغ في وصفها الواصفون * فمدحها من علت مروءته * وسمت همته * وذمها من قصر عنها * ولم يجن منها * فمنهم من شبه صاحبها بدر ان لم ينقل لم يكن في التيجان منضودا * وبهلال ان لم يسر لم يصر بدرا مشهودا * ومنهم من زعم انها الحاملة على الذل * المضيعة لحسب المرء والموقعة له في الضل * والخمول وعدم الشكل وان الشيء انما يرزن اذا كان في مستقره * حتى عرفوا الظلم انه وضع الشيء في غير مقره * ومعلوم أن محل العرب مباين لمحل العجم * فكان احد الفريقين اذا جاوز محله فقد ظلم * الى غير ذلك من تناقض العبارات والاعتبارات * كما جرت بذلك عادة البلغآء في المحاورات * اذ كل حكم وقضية من القضايا الجارية اطالوا فيها المقال * وجالوا فيها من حيث لا مجال * كاعتزال الناس والانفراد عنهم * والمخالطة لهم والاخذ منهم * فبعضهم

الامر الاول * وود ان يقضي عمره على قنة جبل * وبعضهم شبه الزحام * بمنهل عذب لذي الاوام * وامثال ذلك لا تحصى * ولا تقيد ولا تستقصى * فكان الركون الى ما قالوا * والمعول على ما فيه جالوا واطالوا * غير هاد وحده سبيلا قويما * ولا شاف كليما * الّا اذا امتحن الناقد اللبيب بنفسه اي الفريقين اصدق قيلا * واهدى سبيلا * واطلع على ماذا حملهم على الذم والقدح * والثناء والمدح * وماز المعلم من المهمل * والحالي من المعطل * فهو حينئذ خبير واي خبير * غير مفتقر الى ناصح منهم ومشير * والحاصل ان لكل امرئ شانا يعنيه * ومطلبا هو مقتفيه * وان ما قضى الله يكون * سوآء ذم الذامون او مدح المادحون * هذا وقد كنت في عنفوان شبابي * وجدة جلبابي * وازهار سني وازدهار ذهني * لهجا بالسفر والاغتراب * والترحل عن الوطن والاصحاب الى بلد ينضر فيه غرسي * وتطيب فيه نفسي * واقتبس فيه من مصابيح العلم قبسا * والقى اذ الدهر لي موحش خليلا يصادقني مونسا * حتى ادتني اعمال حابطة * الى جزيرة مالطة * فالفيتها لا كما املت * وكابدت منها ما لا يفي بما عنه ترحلت * فعن لى ان اظهر ما بطن منها * واكشف مخباها لمن رغب فيها او عنها * فالفت فيها كتابا سميته « الواسطة الى معرفة مالطة » . ثم لما رايت ان هذا الشرح لا يروي غليلا * ولا يشفي عليلا . لكونه مقصورا على وصف الجزيرة * وهي من الصغر بحيث لا تمكن الواصف من ان يطيل فيها من القول ماثورة * او يضيف اليه فوائد تاريخية خطيرة . ظل خاطري حائما على مورد التاليف * وقلبي هائما بسفر طريف * الى ان مكنتني التقادير الممكنة * بعد لبثي على تلك الصخرة الدرنة * نحو اربع عشرة سنة * من السفر الى بلاد الانكليز المتمدنة * فاغتنمت هذه الفرصة عجلا . وظننت اني ادركت املا * وعولت على ان اشفع تاليف الواسطة برحلة يعظم وقعها * ويعم نفعها * فصرت اقيد ما عن لي من الخواطر في وصفهم وسنح * وتارة انقل من الكتب ما ليس فيه للفكر مسرح * وللطرف اليه مطمح * فان شوونهم متشعبة * واحوالهم مستغربة * وانحاءهم شتى * ومقاصدهم تستغرق وصفا ونعتا * ويعلم الله اني مع كثرة ما شاهدت في تلك البلاد من الغرائب *

وادركت فيها من الرغائب * كنت ابدا منغص العيش مكدره * كمن فقد وطره * ولزمته معسره * لا يروقني نضار ولا نضرة * ولا نعمة ولا مسرة * ولا طرب ولا لهو * ولا حسن ولا زهو * لما انني كنت دائم التفكر في خلو بلادنا عما عندهم من التمدن * والبراعة والتفنن * ثم تعرض لي عوارض من السلوان * بان اهل بلادنا قد اختصوا باخلاق حسان * وكرم يغطى العيوب ويستر ما شان * ولاسيما الغيرة على الحرم * وصون العرض عما من هذا الصوب يذم * ثم اعود الى التفكر في المصالح المدنية * والاسباب المعاشية * وانتشار المعارف العمومية * والى اتقان الصنائع * وتعميم الفوائد والمنافع * فيحفل ذلك السلوان * واعود الى الاشجان * وكذا كانت حالة سيدي الاكرم المونس * امير الامرآء السيد حسين رئيس المجلس البلدي بتونس * فانه لبث في باريس مدة طويلة * وخواطره ببلاده ابدا مشغولة * فكان يلازمه الارق * والهم والقلق * حتى مكنه اليوم الباري تعالى من تحسين تلك الحاضرة * وامدادها بالمرافق الوافرة * فلله الحمد على بلوغ اربه * وحصول مطلبه * فان تنبيه الامصار الاسلامية * اشهى الي والله من كل امنية * كيف لا وعن المسلمين كان اخذ التمدن والفنون في الاعصر الغوابر * وكانوا قدوة في جميع المناقب والمفاخر * والمحامد والمآثر * وهذا التفكر والاسف * والتفكر المتسانف كثيرا ما حملني على الاضراب عن التاليف * لعلمي ان كلامي فيه لا يكون إلّا دون التاريف والتعريف * وانى لمثلي ان يدرك جميع ما عند اولائك الناس من الاختراع * والاحداث والابداع * إلّا ان رغبتي في حث اخواني على الاقتدآء بتلك المفاخر * هي التي مهلت علي هذا الخطب واطالت باعي القاصر * فامسكت القلم من بعد الغآئه مرارا * وتوكلت على الباري المعين ان يكشف لذهني ما عنه توارى * ويدني الى فكري ما شط عنه مزارا * وحررت هذه الرحلة وسميتها «كشف المخبا * عن فنون اوربا» وذلك لانى لم اقتصر فيها على شرح ما عند الانكليز وحدهم من الفنون * بل استطردت الى وصف غيرهم ايضا والحديث ذو شجون * وليكن معلوما عند القاري * والسامع والداري * اني في كل ما وصفت به الانكليز والفرنسيس وغيرهم

من اهل اوربا * لم يمل بي هوى ولا غرض بغضا او حبا * اذ ليس لي حذل مع احد منهم ولا ضاع * ولا انحراف ولا ميل ولا ضر ولا نفع * وانما رويت عنهم ما رويت * وحكيت ما حكيت * بحسب ما ظهر لي انه الصواب * فلا ينبغي ان يحمل قولي على ضغن او اغضاب * واعوذ بالله من ان ابخس الناس اشياءهم * فاتعمد القول فيما شانهم وساءهم * إلّا انه لا ينكر ان الانسان محل النقص والمعيب * وانه قل من ينظر الى نفسه بعين المصيب * وكذا كنت اقول للانكليز * فلم يكن احد منهم ينكر قولي او ينسبه الى التعجيز * ثم اني بعد الفراغ من تحرير الرحلة المشار اليها عرضت عوارض كثيرة * واحوال خطيرة * كحروب اميريكا وبولاند مثلا * وكزيادة في عدد سكان الممالك او في اعمالهم مما استعظمه الناس وصار لهم شغلا * من جملة ذلك ما جرى في الممالك الاسلامية من التحسين والتنظيم * والترتيب والتتميم * إلّا اني رايت ايداعها في الرحلة نصبا مستانفا * وشغلا لا ينتهي ولا يستوفى * فصرفت عنه صفحا * وصدفت كشحا * اذ حوادث الدهر اكثر من ان يحصرها ذكر * او يحيط بها ذبر * هذا ولما تم ما قصدته من الفوائد * التي جمعت منها في هذا المولف الصادر والوارد * والنادر والشارد * وابرزت فيه ما عند القوم من المذام والمحامد * كما سبقت اليه الاشارة * وافصحت به العبارة * هداني الجد الجديد * والطالع الرشيد * الى ان اخدم به حضرة حاتم اوانه * واحنف زمانه * المتوشح بالفضل والفضائل * والمتوج بالمحامد فكل في مدحه وظله قائل * سيدي رفيع الذرى * رحيب العرا * امير الامراء السيد خير الدين * ادام الله عليه العز والتمكين * فتقبله من حسن شيمه * واستجاده بحلمه وكرمه * واجازني عليه جائزة سنية * لا توجد إلّا في القصور الملكية * وهي خاتم من الماس الفائق * يتالق تالق مناقبه في المغارب والمشارق * فقلت فيه مترنما * وانشدت متنغما *

اذا كان خير الدين عني راضيا * فما ضائري ان اغضب الدهر والوسعا
هو البحر جودا والصباح صباحة * ونور الدجى نفعا ولطف الصبا طبعا
جلا فضله كشف الخبا في الورى * فلولاه لم يبرز بحليته طبعا

هو الاوحد الفرد الذي من نواله * يلاقي المرجى حين يقصده جمعا
كريم لو ان الدهر ابصر جـوده * لعاوده الاحسان واستهجن المنعـا
همام متى يوعد يعف وان يعـد * فغيث العطايا سابق برقه همعا
اذا رمت سعدا فارع مطلعه وما * عليك اذا ما كنت للنجم لا ترعى
وقل للذي ينحو سوى باب فضله * لعمرك قد ضيعت في غيره المسعى
تغربت بين العجم اطلب نده * فلم ار من ذا الضرب اصلا ولا فرعا
فعدت الى رايي القديم بانـه * علا كل من فوق الثرى بالندى فرعا
ومهما نجد في الارض مناي ومرتعا * فانا الى نادي نداه لنا الرجعى
تقر بمرآه العيون وتنجـلي * كما ان راوي مدحه يطرب السمعا
اذا حل في فيفاء ارض ركابـه * فياطيب ما ماوى ويا خصب ما مرعى
نصبت لواءً خافقا في مديحـه * فسكن من روعي واولاني الرفعا
اذا كنت لا ارجوه في معنيي رجا * فاني اذا لا اعرف الضر والنفعـا
تعودت منه الفضل في كل حالة * فما انا الا بابه قارع قرعـا
ولكنما جدواه تطوى سباسبـا * الي وابحارا فلا ابرح الربعـا
على انني منه لا اقنع بالرضـى * فكيف وعندي الماس يحكي اسمه لمعا
الا هـكذا من شاد مجدا موثلا * ومن صنع الاحسان اوحسن الصنعا
تنزه عن ذام سوى ان فرط مـا * حباني به اشقى حسودي ولا بدعا
رايت جميع الناس تقصد بابه * بما طاب من اقوالها وله تسعى
فالقيت دلوي مع دلاتهم فلـم * تكن نهزة حتى علي طفت ترعى
وخلت لغيري من نضار ومن جنى * وفوز واقبال كما نلته شرعـا
كساني فخرا ماسه وجوابـه * وشهرة ذا التاليف لا يقبل الخلعـا
فحق علي اليوم واجب شكـره * فشكر الايادي واجب ابدا شرعا

وهكذا برز الكتاب المذكور من زاوية الخمول * الى قنة القبول * ونشر مطبوعا في مطبعة تونس لتعميم فوائده * واطلاق عوائده * فالمرجو ممن تصفحه وتامله * وامعن النظر فيما اجمله وفصله * ان يغضي عما يراه فيه من الخلل * او ينسبه الى سقط الكلام والزلل * اذ قلما يخلو مولف من القصور *

وان يكن من اهل الصروح والقصور * فكيف بمن يولف وافكاره من عدم
وجود المشكل مكدره * وخواطره من هموم الغربة متحيرة * وشوونه
تتجاذبه يمينا وشمالا * وحسراته على قصور همم اهل بلاده تسد
عليه للقول مجالا * وتعسر عليه في التاليف مقالا *
جير لولا ان الباري تعالى اراد بهذا التاليف نفع
اخواني * لما قدرت عليه بسعة امكاني
فيجب علي والحالة هذه ان احمده عز
شانه على الختام * وان اعيد الشكر
والثناء على سيدي الامير المشار
اليه على نشر فوائده بين
الانام * ما سجع
حمام * ونجع
كلام *

كتبه العبد الفقير الى ربه الرزاق * احمد فارس الملقب بالشدياق
رئيس مصححي دار الطباعة السلطانية بالاستانة العلية
ومحرر الجوائب
في اواخر شهر رجب الاصب
سنة ١٢٨٣

الجزء الاول

* فصل في تخطيط مالطة معربا *

اعلم ان تخطيط مالطة هو في ٢٢ درجة و٤٤ دقيقة من الطول وفي ٢٥ درجة و٥٤ دقيقة من العرض اما موقعها في الكرة فان بعض الجغرافيين الحقوه بافريقية بالنظر الى المكان وبعضهم الحقه بجزائر ايطالية بالنظر الى عادات اهل مالطة واحوالهم وديانتهم والمراد بذلك انها من اوربا فممن الحقها بافريقية بتولومي وممن الحقها باوربا بلينوس وسطرابوس ودليلهما على ذلك كونها على بعد ستين ميلا من راس باسرو وعلى مائتين من كلبيمة ومينا اركولى والمحل الاول اقرب الى اوربا والثاني اقرب الى افريقية * قال فاما عرضها فاثنا عشر ميلا وطولها عشرون ودورتها ستون وقاعدتها الان هي المدينة المسماة ڤاليتة فاما في الاعصر السالفة فكانت نوتابيلي ويقال لها الان المدينة وموقعها في وسط الجزيرة في ارفع موضع منها وكان الجزيرة منقسمة بها الى شطرين احدهما يمتد جهة الشرق والاخر جهة الغرب والذي بنى ڤاليتة كان احد امرآء الافرنج وسماها باسمه وذلك سنة ١٥٦٦ وهي على ربوة بقرب البحر يقال لها شبراس * قلت زعم بعض المالطيين ان اصل هذه الكلمة شبر الراس وبعضهم انها جبل راس وعندي انها شعب الراس قال في الصحاح شعب الراس شانه الذي يضم قبائله اه وهو كناية عن اصل الشيء وبجتمعه كما ان قبائل الراس مرجعها الى الشعب ويحتمل انها سميت بشيب الراس لان اهل مالطة اذ ذاك كانوا يناصبون المسلمين الحرب والثار وكل فريق ملاق من فريقه هولا يشيب الراس * وذكر بولية المولف الفرنساوي ان قاعدة هذه الجزيرة سميت باسم الامير لاڤاليت رئيس طريقة الفرسان ولد في سنة ١٤٩٤ ومات في سنة ١٥٦٨ وكان شهيرا بالباس والاقدام واول ما استولى عليه من الجزيرة عند محاصرته المسلمين بها برج سنتالمو ثم قوى عليهم واخرجهم منها * قال المولف ثم خلفه باولو دل مونتي فاتم بناءها في الثامن عشر من ايار وذلك في سنة ١٥٧١ وقبل بنآئها كان مقام الولاة المنتسبين الى طريقة مار يوحنا في بوملة والبرغو

بشرقي ڤاليتة ويقال للثانية ڤيتوريوزا اي المنصورة لحرب انتصر فيها اهل مالطة على المسلمين وذلك في سنة ١٥٥٦ . قال وفي ضواحي هذه المدينة قرية اسمها الفلوريانة وهي اعمر جميع قرى الجزيرة وجملتها اربع وعشرون قرية وهي جديرة بان تسمى امصارا لكثرة سكانها وحسن بنائها وكنائسها . وعدد اهل الجزيرة كلهم نحو مائة وعشرين الف نفس . ولڤاليتة مرسيان احدهما كبير يعد من اعظم المراسي وذلك لسعته وعدة بوارج مع الامن ولكونه في وسط بحر الروم فمن ثم كانت الجزيرة بهذا الاعتبار اعظم محل للتجارة على ان تلك المخازن العديدة والشون الرحيبة المبنية عند هذا لمرسى تغري الظاعن والمقيم يتعاطى التجارة فيها والثاني صغير وهو مرسى المراكب التي ترد من البلاد المشوبة بالوباء ويقال له مرسا موشيطو محرفة عن مرسى الشط) اما هواء الجزيرة فالغالب عليه الاعتدال غير ان ارضها صخرة لا تستصلح من اصلها للحرث ومع ذلك فان السبلة الواحدة تخرج في تربتها التي ليست بالطيبة ولا الرديئة ست عشرة سنبلة او عشرين وفي عام الخصب ثماني وثلثين وفي الجيدة احدى وستين واخص اصناف غلالها التي يتجر بها القطن وقد يبعث منه الى جهات مختلفة في اوربا مقدار جزيل الا ان بخس ثمنه رغب الاهلين عنه الى غيره فصاروا يصرفون همتهم في تربية التوت فان فيه نفعا كبيرا وقد علم بالتجربة انه يتحصل منه حرير اعلى من حرير ايطالية — قلت وقد علم بالتجربة ايضا ان دود القز لا يعيش في هذه الجزيرة والمولف انما كتب هذا عند الشروع في تربية التوت . اه . قال وفي هذه الجزيرة تنمى الاشجار المثمرة لاصناف الفاكهة الطيبة كالرمان والتفاح والعنب والاجاص واعظمها الاترج . فاما عدد الاهلين الان بالنظر الى صغر الجزيرة فانه عظيم جدا ولم يعهد من قبل قط انها كانت تحوي هذا المقدار وانما يعلم انها كانت ماهولة باسرها الا ان بعض جهات منها خلت عن السكان كما يستدل على ذلك من الاثار الباقية وما وصل الينا من اسماء بعض قرى لا وجود لها وسبب ذلك فيما قيل ان المالطيين حين كانوا تحت ولاية الارجونيين وجدوا انفسهم

عرضة لغزو المسلمين المتتابع ولهجوم لصوص افريقية فجعلوا مقرهم شرقي المدينة صيانة لعرضهم ومالهم واخلوا الجهة الغربية * وذكر بعض الجغرافيين ان مالطة كانت تسمى في القديم هيبيرية وقال بعض انه لم يوجد في بلاد اوربا جزيرة عرفت بهذا الاسم وانما هو اسم مدينة قديمة في صقلية ثم عرفت اخيرا باسم كامرينة ولما استوطن الفينيقيون هذه الجزيرة سموها اوجاجية وسماها اليونانيون ماليتة واشتهر ذلك في سنة ٨٢٢ قبل الميلاد وسماها المسلمون مالطة ومعنى ميليسة او ميليتة في لغة اليونان النحل وزعم قوم انها سميت باسم ميليتة ابنة دوريس على جهة التعظيم وهو مشتق من ميلت في السريانية وهو اسم اله ويعرف في غيرها بجونوا ولا يبعد ان يكون ذلك ايضا في اللغة الفينيقية قال وروى بعض المورخين ان بناء مدينة نوتابيلي كان بعد الطوفان بنحو الف واربعمائة سنة واعظم ما فيه عبرة من مبانيها قبل تاريخ النصارى هياكل جونو وابروسربين وهركوليس وابولو . فموقع الاول هو بين فيتوريوزة وصنتانجلو ويحكى ان ملك نوميدية الذي كان دابه غزو مالطة كان قد اخذ منه قطعة بديعة من العاج واهداها الى استاذه ففرح بها اولا غاية الفرح ولكن لما علم انها اخذت من الهيكل ردها الى الملك والتمس منه ان يعيدها في محلها . وموقع هيكل ابروسربين في قلعة تسمى مطرفة وقد وجد فيه آثار . وموقع هيكل هركوليس في جهة الجزيرة الجنوبية بالقرب من مرسى سيروكو (اي مرسى الشرق) وهو من بناء الفينيقيين وقد وجد فيه آثار كثيرة . وموقع هيكل ابولو عند نوتابيلي وهو من بناء الاغريقيين وكان ذا رونق عظيم ويقال ان جملة ما انفق في بنائه بلغ سبعمائة وتسعين سستوسيا (١) وقد علم ذلك من وجود صنم نصب له مجلس عام ووجد ايضا آثار حمام في محل اسمه قرطين * وممن ذكر حكومة مالطة من الشعراء الاقدمين اوميروس واوفيديوس ويفهم من كلام الاول ان القبيلة التي يقال لها الفياكنس هم اول من استوطنوا هذه الجزيرة وكانوا ذوي قوة وباس ثم خلفهم الفينيقيون وهم من جهات صور وصيدا وذلك سنة ١٥١٩ قبل الميلاد وكانوا اهل سعي وكسب وتجارة

ولبثوا فيها نحو اربعمائة وخمسين سنة حتى تغلب عليهم الاغريقيون ثم سلموها للقرطاجنيين وذلك نحو سنة ٥٢٨ قبل الميلاد ثم جاء من بعدهم الرومانيون في سنة ٢٨٤ من التاريخ المذكور فاقروا فيها احكامهم وسننهم واعظم ما حدث في دولة الرومانيين مما لا ينبغي ان يهمل ذكره قدوم ماربولس وانكسار السفينة به وبمن كان معه وذلك سنة ٥٨ في عهد القيصر طيباريوس في موضع يقال له الان خليج ماربولس ومنذ ذلك الوقت تنصر اهل الجزيرة ثم بعد انقراض دولة الرومانيين منها استولت عليها قبيلة الفندلس ثم الغوت ثم تغلب على هولاء البليساريون وطردوهم منها والحقوها بحكومة البلاد الشرقية وبقيت كذلك الى سنة ٧٨٠ فاخذوا في هضم الرعية فقاموا عليهم وسلموا الجزيرة للمسلمين قلت ذكر في كتاب الجمع والبنيان في اخبار القيروان ان مالطة فتحت في ايام ابي الغرانيق محمد بن احمد ابن محمد بن الاغلب توفي سنة احدى وستين ومائتين وانما لقب بالغرانيق لانه كان مشغوفا بالصيد روي انه بنى قصرا في السهلين لصيد الغرانيق انفق فيه ثلثين الف دينار فكني بهذه الكنية وكان في غاية الجود الا انه غلب عليه اللهو والطرب والاكل والشرب ولم يزل مقيما على لذاته طول عمره * انتهى فعلى هذا فلا معنى لقول المولف وسلموا الجزيرة للمسلمين * قال ثم قام الامير روجر النورماني بعدها بمائتي سنة واسترد الجزيرة والحقها بصقلية فبقيت كذلك نحو سبعين سنة ولما تزوج القيصر هنري السادس سلطان جرمانية ولية عهد صقلية دخلت مالطة في حكومته وذلك سنة ١٢٦٦ وبقيت كذلك اثنتين وسبعين سنة وفي اثناء ذلك ولي اخولويس ملك فرنسا حكم صقلية ومالطة معا وبعد سنتين تغلب عليه الامير بطرس الاراجوني ثم آل امرها الى الملك كرلوس ملك صقلية فولى عليها الفرسان من نظام ماريوحنا برضى الاهلين واتفاق دول اوربا وكان قد جرى هذا النظام عندهم اولا ثم لما نبغ نابوليون واستولى على البلاد سلمت له الجزيرة على ان يرخص للاهليين في التصرف بحقوقهم الا ان الفرنصوية لم يلبثوا ان هتكوا بعض السنن القديمة

وانتهكوا حرمة الكنائس فتحزب عليهم المالطيون تحزبا لم يخل عن سفك
دم كثير منهم وعن تلف اموالهم الى ان اتت الانكليز فسلموها لهم وكان
ذلك في سنة ١٨٠٠ * قلت لما دخلها نابوليون وجد فيها الف ومائتي مدفع
ومائتي الف رطل من البارود واربعين الف بندقية وعدة بوارج و ٤٥٠٠ اسير
من المسلمين فاطلقهم وذلك في سنة ١٧٩٨ * قال فاما اخذ المسلمين لها فانه
كان من باب المصادقة اولى منه من المغالبة وعاملوا الاهلين اولا بالرفق
والمياسرة ووقروا سننهم واحكامهم وامتزجوا بهم للغاية حتى كأن الجيلين واحد
كما يتبين ذلك من بقآء لغتهم فيهم * قال اما لغة مالطة فذهب بعضهم
الى انها عربية فاسدة وذهب آخرون الى انها فينيقية لان اليونانيين
بعد ان فتحوا الجزيرة لم يخرجوا منها الفينيقيين بل ظلوا فيها آمنين
محافظين على لغتهم وما برحت مستعملة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليها
وانها لم تتغير في مدة القرطاجنيين لان لغة هولاء ايضا كانت فينيقية
ومع ان داب الرومانيين كان حمل الناس على التخلق باخلاقهم والسلوك
بسننهم اينما ملكوا فلم يجبروا الرعية هنا على التكلم بلغتهم والدليل على ذلك
ان الرومانيين الذين كانوا معماربولس (٢) سموا المالطيين بربرا ولم يكن
يطلق هذا الاسم إلّا على مَن جهل اللاتينية واليونانية قال ثم بقيت في
دولة المسلمين ايضا ولم تتغير وانما دخل فيها بعض الفاظ اجنبية ويويد
كونها فينيقية مشابهة بعض الفاظ منها للغتنا نحو بير وصيد فانهما في
الفينيقية بروصد وغير هذا كثير مما له لفظ واحد ومعنى واحد في كلتا
اللغتين والحاصل ان ماخذ اللغة المالطية من الفينيقية ارجح من ان يكون
من العربية وان كانت قريبة من هذه ايضا * قلت دليله هذا اوهى
من بيت العنكبوت فان البير والصيد ينطق بهما في لغتهم كما في لغتنا
سوآء ما عدا موافقتها في تصريف الافعال والاسمآء وفي الضمائر وغير ذلك
من اساليب الكلام كما سياتي بيان ذلك . ومن الغريب ان المولف لا
يعرف الفينيقية ولا العربية ولا المالطية وان كانت لغته ويتعرض للحكم
والاستدلال فكيف يحكم على الشيء وهو يجهله وكيف يقول اولا ان لغة

المسلمين بقيت في اهل مالطة لشدة الالتحام الذي كان بين الفريقين ثم يقول الان انها فينيقية لمجرد وجود كلمتين فيها وانما حمله على هذا بغضته وبغضة اهل بلاده للعرب وتبرئة انفسهم انهم ليسوا منهم بل من الفينيقيين اذ كان هولاء كما ذكر ارباب جد وتجارة والعرب عند اهل مالطة كناية عن الهمج وذلك لجهلهم التواريخ ولانهم لا يرون الان الّا صعاليك المغاربة والظاهر ان المسلمين الذين فتحوا مالطة لم يكونوا من اهل العلم والتمدن كالذين كانوا في صقلية وغيرها فاني لم اجد فيما قرات قط من كتب الادب والتواريخ قال المالطي والسيوطي رحمه الله لم يغادر في كتاب الانساب الذي سماه لب اللباب احدا من اهل العلم الّا وذكره ما خلا المنسوب الى مالطة * قال اما جزيرة غودش وتسمى بالافرنجية كوتزو فزعم بعض ان هذه اللفظة يونانية ومعناها مركب مستدير وهي كانها ذيل انقطع من مالطة وطولها اثنا عشر ميلا في عرض ستة واهلها نحو خمسة عشر الفا وجملة قراها ست ومدينتها تسمى الربط (كانه محرف عن الربض) وفيها اثار قلعة قديمة وبقول الجزيرة وفاكهتها طيبة جدا وكذا عسلها حتى ان الاقدمين كانوا يفضلونه على عسل جبل هبلا ويرد منها الى مالطة قوارب كثيرة مشحونة بالفاكهة والبقل والسمك وحكومتها ملحقة بمالطة وكذا كانت في الزمن القديم وزعم بعض ان مالطة وغودش وكمونة كانت في الاصل جزيرة واحدة وحدث لها من الزلازل ما فرقها *

(انتهى المنقول من كتاب مختصر الفه مكلف في تاريخ مالطة) *

واقول قد رايت جزيرة غودش غير مرة اما اسمها فاظنه محرفا عن لفظة الهودج سماها به المسلمون لشدة شبهها به كما سموا الجزيرتين الاخريين كمونة وفلفلة لصغرهما الّا ان اهلها ينطقون بها بالغين المعجمة لا بالمهملة كما ينطق به اهل مالطة ولا اعلم في لغتهم كلمة غيرها قلبت فيها الهآء غينا فاما قلب الجيم شينا فكثير اما ارضها فاحسن من ارض مالطة ولاسيما كون حقولها مكشوفة للنظر كحقول فرنسا وانكلترة لا كحقول اهل مالطة كما ياتي وهي ازكى ثمرا ونباتا واهلها اخلص طوية وفيها الحمير والبغال ضليعة

لكنها غير فارهة وربما بيع الحمار منها باربعين ليرة اما شجرها فان التفاح لا يكاد يكون اكبر من العليق في الشام وشجر التين منبسط على الارض وليس فيها من شجر الجوز سوى شجرة واحدة وفيها ايضا نخلة لكنها لا تثمر واسماء قراها ومواضعها كلها عربية محضة ومما اضحكني من خرق اهلها انهم يدرسون القمح على البهائم من دون نورج وذلك بان يربطوا مثلا كل زوج منها في قرن ويمشوهما على السنابل فيثور هذا ناحية وذاك اخرى وكذا هي في مالطة ومن غرابة ارض غودش ان جميع محالها مزروعة محروثة الّا ما قابل مالطة فكانه من قبيل مراعاة النظير اما كمونة فليس فيها سوى بيت واحد وكنيسة وارضها قليلة الجدوى *

* فصل في هوآء مالطة ومنازهها وغير ذلك *

انما قدمت هذا الفصل من كلامي لاهميته فان العافية خير ما ملك الانسان وان ارضا لتاكل من نازلها لجديرة بان لا يوكل منها فاقول قد تقدم فيما مر بك موقع هذه الجزيرة وبقي الان الكلام على هوآئها من حيث هو هو فان الهوآء لا يعرف غالبا من مجرد نسبة الموقع اما اشتقاق اسمها ان كان عربيا فمن م ل ط ومعظمه يدل على التجرد والخلو او التجريد والاخلاء فتكون قد سميت بذلك لخلوها عن الغياض والجبال والانهار وغيرها وفي القاموس ومالطة كصاحبة د (اي بلد) وكان عليه ان يذكر خصوص كونها جزيرة فانه كثيرا ما يتعقب الصحاح بمثل ذلك فاما قوله اولا ملط شعره حلقه ثم قوله بعد فاصل والاملط من لا شعر على جسده وقوله في اول المادة الملط الخبيث لا يرفع له شي الّا سرقه ثم قوله عند الاخر وامتلطه اختلسه فمن اختلاط الترتيب في التركيب وممن ذكر مالطة ايضا المطران جرمانوس فرحات في كتابه المسمى باب الاعراب عن لغة الاعراب قال ومالطة جزيرة عاصية متقاصية قرب صقلية سكانها لصوص البحر قلت لعل تاليفه هذا الكتاب كان قبل سفره الى رومية والّا لما قال متقاصية او انه جاء بها للمجانسة اما قوله سكانها لصوص البحر فينبي بما كان لاهلها حينئذ من الشهرة الذميمة عند اهل المشرق وكان هذه الصفة كانت غالبة عليهم حتى

انسته ان يقول لغتهم العربية ودينهم النصرانية فاما الصحاح فذكر ملطية في بلاد ارمنية والان تعد من البلاد التركية * اما هواء مالطة فلا يحمل سّن الف البرور الواسعة لانه كثير التقلب فيختلف في الليل والنهار عدة مرار فقد يكون في الصباح صحوا فلا تشعر إلّا والغيم قد طبق اعنان السمآء فيكفهر الجو ويهيج البحر وتثور الزوابع وتزمر الرياح فترتص لها الابواب بل قد يكون في النهار برد وفي الليل حر هذا في الشتآء فاما في الصيف فلا ترى في الجو لطخة سحاب ولا غادية اصلا وفصل الشتآء يبتدى فيها من شهر تشرين الاول وينتهي الى ايار والباقي صيف شديد وان وقع في خلال ذلك يوم معتدل فتاتي فيه نفحة من الريح باردة واخرى حارة او تكون النعور وهي من الرياح ما فاجاك ببرد وانت في حر او عكسه وفي الجملة فانها جديرة بان تسمى مخزن الرياح فهي لا تخلو منها باردة كانت او حارة واكثر رياحها في الصيف السافياء تاتي بغبار وتراب ودقيق تطير على وجوه الناس وتدخله في الديار من خصاص الزجاج * ومن الغريب ان الريح الشرقية التي تكون في الشتآء زمهريرا تصير في الصيف سموما فتتشقق بها اخشاب المنازل وهي مصبوغة وتصرصر بها روافد السقوف ويجف بها الزجاج ويتصلب فينكسر بادنى مس ويترمد بها الجلد والورق بل يتاثر بها الحديد والنحاس والعظم ونحوه وينثني شمع الشحم فتكون الشمعة في البيت كالجيفة وقد تبلغ درجات الحر فيها فوق المائة (٣) فيقضي الومد ح باللباس الخفيف من الكتان وبالنوم من دون غطاء واكثر اهل مالطة ينامون ليلا على السطوح لكون سطوح ديارهم غير مسنمة بخلاف ديار فرنسا وانكلترة واذا مشى الانسان خطوات في الصيف يعوم في عرقه ثم لا يلبث ان تلفحه لفحة من الريح فينبغي ان يكون احذر من غراب هذا ولما كانت ارض الجزيرة خالية عن الاجم والغياض والجبال والانهار اذ هي عبارة عن صحن في وسط البحر فمتى اصابتها الشمس مسحتها مسحا على السواء فلا ملطا فيها من شيء وربما زاد حرها ايضا بسبب النار التي تخرج من جبل صقلية ومع قربها من ايطالية فليس في

ديارها رخام كديار تونس وليس في شيء منها مياه جارية كديار الشام *
ومن جملة الاسباب التي تجعل شتآءها دائما مكروها كون بنائها من حجر
رطب لو جعل في مقداة بضع سنين لانحل وحين يستخرج اولا من مقطعه
يكون اخضر مائيا ولا يبيض الا اذا نصب للهوآء والشمس سنين ومن
خواصه انه قابل للنقش فلهذا ترى منه في الديار والكنائس صورات
شتى وقد يبعث منه على سبيل التجارة الى جميع البلاد وكثيرا ما تتوارى
الشمس في هذا الفصل فلا تطل فيه ولا من شباك فاين هذا من شتآء
مصر حين يترحب بالشمس طالعة وتشيع غاربة وفي الصيف يطفو نيلها
فيرطب الارض وينتظم به شمل الاحباب وعقود المسرات * واذا اتفق في
مالطة يوم صحو في الشتآء رايت الناس جميعا يعددون محاسنه ويصفونه
ويلهون عن سوء ايامهم الاخر حين اذ الرياح تاخذ بناصية السائر والمياه
تهطل من انف كل سحاب والزكام ملازم للانوف والسعال قابض على
الحلقوم واشد ما يسوء منها استمرار الرياح اياما متوالية من دون مطر فانه قد
ياتي عليها من السنين ما لا يغزر فيه المطر والرياح مع ذلك لا تهدا اصلا
وقد احتاجوا في بعض السنين الى الغيث غاية الاحتياج حتى فرض عليهم
اسقفهم دعآء للاستمطار في الكنائس مع الصيام والريح مع ذلك تزيد عصوفا
فقلت *

ولما لم يطق كانون قطرا * تولى وهو يحبق بالرياح
فيا قوم اغسلوا بالدمع فيه * وجوهكم وصوموا عن سفاح

وفي الجملة فان صيف مالطة وشتآءها شاقان جاهدان يهجمان بغتة فآخر
ذنب الشتآء معقود بناصية الصيف فليست كمصر والشام فان الانسان
فيهما يتعود على تخالف الفصول شيئا فشيئا وليس من علامات الربيع شيء
بمالطة سوى تكاثر البراغيث فهي آفة من الافات ولا من علامات
الخريف سوى تناثر اوراق الشجر المعدودات ومع ذلك فان كثيرا من
الانكليز ياتون اليها ليقضوا فيها الشتآء اما عدم المطر فيها في الصيف فسببه
قلة الشجر والغياض فان السحب اذا مرت فوقها لم تجد ما تجذب منه

رطوبة ولعل الادوية والعقاقير التي تبقى مدة طويلة في مالطة تفسد بالكلية ويزول ما بها من الخاصة فان التبغ والسوق والخمر اذا بقيت فيها زمانا يزول طيبها راسا لان مبلط الديار وحيطانها وسقوفها من حجر ندي كما مر فاذا وضعت مثلا ملحا في خزانة لا يلبث ان يندى كانه خلط بالماء وكذلك تعفن المأكولات والمشروبات اذا وضعت في مخدع من خشب مصبوغ فان النداوة تسري في الصبغ ولذلك كان البدل وهو داء المفاصل شائعا في مالطة وقل من يسلم منه وقد اصبت به اول سنة فكنت اقوم في الصباح موجع الاعضاء لا انشط الى شيء وما زال ذلك يتزايد بي حتى لزمت الفراش فلما عادني الطبيب وراى مبلط المنزل اخبرني بالسبب فعظم علي ذلك ثم لما سمعت بان اكثر الناس ممنيون به هان علي ما لاقيت وتناسيت بهم ودواء هذا الداء الاقامة في محل مواجه للشمس عند طلوعها وقد كان يعلو كتبي من اثر النداوة عطن يلتصق به بعض الورق ببعض ومن جعل مرقده قرب حائط فلا يامن غائلة صداع او وجع اسنان ومن يكن ذا علة في صدره فاعظم خطر عليه التعرض للريح بعد ان يكون في محل دفيء مع ان الغالب على اهل مالطة الشدة والقوة انهم ولدوا على هذه الحال فلا تؤثر فيهم رداءة المكان ولا الزمان ومما توصي به الاطباء هنا اتخاذ غلائل الصوف المسماة فلانلا صيفا وشتاء اما في الشتاء فللدفء واما في الصيف فلتنشيف العرق ومنعها ضرر الريح النافذة في المسام حتى انهم يخشون من الريح على الحيوانات فانهم اذا اوقفوا الحصان في سيره اداروا وجهه الى غير جهة الريح وقس على ذلك * اما ارض مالطة فانها ماطسة صخرة جرداء قليلة الثرى والشجر والنبات ودائرها كله صخر لا ينبت فيه شيء الا انه لشدة اجتهاد اهلها وفرط كدحهم ينبت فيها اكثر اصناف البقول والفاكهة لكن غلتها لا تكفيهم اكثر من اربعة اشهر والباقي يجلب اليهم من بلاد فيجلبون القمح والقطاني من مصر ومن بلاد الترك والروم ويجلبون الفاكهة والخمر من صقلية والبقر والضان والزيت من فريقية وهلم جرا وزعم بعض ان ترابها مجلوب في الاصل من صقلية وترى

شجر والخرنوب والصبار التي لا تتوقف على كثير من الثرى اعز من شجر
الجوز في الشام اما شجر الخرنوب فيكون لاصقا بالارض كانما هو ارز او مكببة
واما الصبار فتراه محوطا بالجدران العالية كانما هو حديقة وينوطون بكل
منها ورقة من الثوم منعا لاصابة العين مع انها مما تنبو عنه العين واذا
سالت احدهم عن قلة الغياض عندهم قال نحن معاشر الافرنج لا نصرف
همنا الا الى زرع الارض فما اقل ظلهم واكثر ظلمهم * واذا ضحيت الى
الخلاء وجدت بين كل حقلين جدارا عاليا لحجز رؤية ما دونه فاين هذا
من سهول فرنسا وانكلترة البادية للعين على نضرتها وريعها وعلى كثرة
ما فيها من اكاديس الغلال والعشب من دون ناطور يحفظها او حائط
يسترها * ويوجد في مالطة اكثر اصناف الاشجار المثمرة والبقول الماكولة
وفاكهتهم طيبة في الجملة الا الليمون الحلو وقصب السكر والخيار فاما الصبار
فاكثره نوى وكذا الرمان واكثر الفاكهة يباع فجا وقلما يدعونها تنضج
خوفا من اللصوص ان تسرقها وجميع اصنافها ارخص منها بمصر والتين على
اصناف متنوعة والعنب لا يدوم اكثر من ثلثة اشهر اما الاترنج فانه
يدوم نحو سبعة اشهر ويرسل منه الى بلاد الانكليز وغيرها كالطرفة فاما
ما ياتيها من التمر من صقلية فانما هو سداد من عوز وعندهم من الفاكهة
اصناف لا توجد في بلادنا منها صنف يقال له الفراولي وهو حب احمر صغير
بقدر ثمر العليق حامض يصلحه السكر وءاخر يقال له نصبلي وهو شبيه
بالمشمش او بعين البقر ونواه كبير وآخر اسمه زربي (٣) وهو اشبه بالزعرور
شديد الفجية يجعلونه اعذاقا كاعذاق التمر فينضج منه كل يوم حبات
ويدوم العذق بجملته اشهرا ولا يعرفون حفظ الفاكهة الى اوان الشتآء كما
يفعل في بلاد الافرنج فان العنب والتفاح في فرنسا وانكلترة لا ينقطعان
اصلا اما بقولهم فغير طيبة وذلك لكثرة مائيتها فاذا رايتها في السوق سرتك
نضارتها ولكن متى طبخت جآءت مسيخة حتى ان البصل والفجل وما
اشبههما مما طبعه الحرافة لا طعم له عندهم لا بل اذا جلبت من بلاد
اخرى يتغير طعمها وكذا الكرنب والباذنجان ونحوه ولا يكاد يبدو نوع منها

إلّا وبغاظ ونجبو ومن الغريب ان نباتها مع كونه بهذه الصفة فعسلها في غاية الجودة ومما لا يوجد عندهم من الخضرة الكوسى والقثاء والملوخية ومن غيرها اللبن والقشطة والسمن وانما يجلبونه نفاية هذا احيانا من طرابلس الغرب واهل مالطة جميعا يتقززون منه ويطبخون ادامهم بشحم الخنزير * اما مآوها فانه ماء المطر مخزونا في الابار غير سائغ فما شربه ذو تعب او ظما إلّا واصابه سعال وكثيرا ما يحدث عن شربة واحدة نفث الدم فشتان بينه وبين ماء النيل الذي يطيب شربه على التعب والظما ولا يزيد الشارب إلّا صحة ونماء جسم فلا ينبغي لاحد ان يشرب من ماء مالطة إلّا ترشفا ونقل عن ارسطو ان الماء الراكد الذي لا تقع عليه الشمس لا يكون إلّا ثقيلا وتتولد فيه مادة طينية * اما حدائقها فاشهرها حديقة صانت انطونيو مقر الحاكم في الصيف وهي التي نزل بها الامير بشير شهاب باهله اخلاها له الحاكم اجلالا لشانه وهي نضيرة حسنة الوضع إلّا انها في منخفض من الارض وليس فيها مقاعد او مواضع لياكل فيها المتفرج او يشرب وليس للمالطيين عادة ان ياخذوا الى مثل هذه المتنزهات طعاما لا في الاعياد ولا في غيرها اتباعا لعادة الانكليز اذ لا يمكن لهم الجلوس إلّا على كرسي فغاية حظهم من ذلك انما هو المشي او ان يضع احدهم ذراعه بذراع صاحبه ويمشيان الخيلاء او ان يمشي وحده وهو يصفر ويمكو وعلى تقدير وجود رصف عندهم او روضة فلا يعرفون كيف يبسطون عندهما سوى بالمشي واعرف رصفا يسمى البياتا انيقا جدا ولكن ليس فيه محل للقهوة ولا مثلوج ولا مطعم ولا آلة طرب ولا كرسي يجلس عليه ولو كان مثله في باريس او في مصر او الشام لرايته من اوله الى آخره مرصوفا بالكراسي والمتكآت ومشتملا على كل ما تطيب به النفس وفي الجملة فان الانكليز والمالطية جميعا لا ذوق لهم في مثل هذه الامور * ثم البوسكيت ومعناه الغيضة وهو على بعد ثلث ساعات من ڤاليتة وهو في المنحدر قليل الجدوى فانه عبارة عن شجرات معدودات وزهرات شعث لا صنعة في تنبيتها إلّا ان فيه قبوة فيها عين نضاحة وحولها مائدة ومقاعد من حجر يقعد عليها الآكلون *

فبهذا الموضع انزه موضع في الجزيرة وذاك الماء اعذب مآء بها . وبقربه برج كان في القديم سجن يعذب فيه من يخالف الكنيسة كما كانت العادة ايضا في اسبانية وغيرها * ثم المطحلب وهو انضر من البوسكيت وابعد لكونه عند اقصى مالطة طولا . وفيه بركة يعلو مآءها طحلب وكان الموضع سمي به . ونواعيرهم نحو نواعير الشام ومصر . واهل تونس وطرابلس يستعملون السانية وهي في اللغة الناقة يستقى عليها ويطلقونها على البستان * والحاصل ان جزيرة مالطة لا تعجب من الافرنج الّا القليل وذلك لانهم اذا جآوها لم يجدوا فيها شيئا غريبا لا يوجد في بلادهم فان كل ما فيها ان هو الّا نفاية ما عندهم . هذا وليس منهم من يرغب في علم اللغة المالطية اذ كانوا يعلمون انها عربية فاسدة وليس فيها من الصنائع والفنون ما يجهله اهل الرستاق منهم فضلا عن المتمدنين وانما هي مجاز يجوزون منها الى الشرق . نعم ان بعضا من المظلومين في ايطاليا وخصوصا صقلية ياتون اليها للاستئمان وانها لما كان موقعها بين عدة برور شرقية وغربية حصلت على هذه الشهرة ولا سيما الآن فانه قد يتعذر السفر الى بعض جهات الشرق من دون المرور بها . فاما العرب فربما لا تعجب منهم احدا وذلك لان اهل مالطة جميعا يكرهون جنس العرب والمسلمين على الاطلاق ومنتهى الذم عندهم ان يقولوا عربي بسكون الرآء على انها في جميع لغات الافرنج بالفتح . ولا يمكن ان يخطر ببالهم ان من العرب من هو ذو ادب وكياسة بل لا يكادون يظنون ان اللغة العربية يتكلم بها غير المسلمين . وحيث كانوا يعلمون ان الافرنج ينسبونهم الى العرب زادت بغضتهم له . فما احد ممن الف الحظ في الحمام والبساتين والغياض والمواسم والتانق في المطاعم يترك بلاده وياتي الى هذه الصخرة الصمآء . هذا ومن يكن من العرب ذا غيرة على لغته فلا يطيق ان يسمع الكلام المالطي على فساده ومع كون هذه الجزيرة قريبة جدا من تونس وطرابلس فما بها احد منهما سوى عابر طريق * قال الشاعر:

* واصعب ما يلقى الفتى في زمانه * اذا حل نجم السعد في برج نحسه *
* اقامته في ارض من لا يـــوده * وصحبته مع غير ابنآء جنســـه *

فصــــــل

في فاليتة قاعدة جــزيرة مالطة

هذه المدينة هي مقر الحاكم الانكليزي واعجب ما فيها حصانة اسوارها وحسن مرسييها . اما الاسوار فربما كان نصف احدها من صخر وتمامه مبني بناء . واما المرسى فقد مر ذكره . والغالب عليها الرونق والبهجة حيث كان بناؤها من الحجر كما مر وطيقانها مزججة ولاسيما اذا عرضتها من بعد . غير انها خالية من المناير ونحوها فهي بدونها كالهامة القرعاء . واحسن ما يستحسن من ديارها كونها مبنية من الحجر على صف مستو فلا ترى فيها دارا خارجة عن الخط اصلا غير انها متفاوتة الارتفاع وليست مرتبة في وضع الغرف والمساكن . فان الدار الكبيرة تكون عبارة عن علية واسعة طويلة ثم صف حجرات متنافذة المدخل فلا يمكن للانسان ان ينفرد بواحدة منها دون الاخرى . فاما الديار الصغيرة ولاسيما القديمة فهي خالية عن الترتيب اصلا ومنجورها يصبغ غالبا في كل سنة . وحيطانها ملبسة بالورق المنقوش كما في بلاد اوروبا . الا ان طاقاتها لا تفي بالمراد فان بين الاهلين حقوقا في المطال فلا يمكن فتح الطيقان في جميع الحيطان . وما عدا ذلك فان لها رواشن خارجة من الحائط موضوعة بحيث تمنع النور والهواء وهي عالية لا يمكن لمن يكون في الحجرة ان يرى منها شيئا الا اذا كان واقفا فيها او جالسا على كرسي وهي اشبه بما يسميه اهل الشام كشكا . ويقال ان وجود هذه الرواشن بمالطة هو احد الدلائل على كونهم عربا اذ هي لا توجد في بلاد الافرنج الا في ما فتحته العرب منها . وربما كان في الدار الواحدة ثلثة رواشن . وقل ان تجد دارا ذات ثلث طبقات صالحة للسكنى والاغلب اثنتان وان وجد فالثالثة انما تكون للوازم الدار وقل ان ترى فيها دارا مبلطة بالرخام حتى ان قصر الحاكم ليس فيه ولا بلاطة منه وانما المستعمل في ديار كبرائهم البلاط المعروف ولكن يدهنونه بالزيت مرارا بعد ان يكشط وجهه فيصير له لون كالكهرباء وكذلك قل ان ترى في الديار التي تكرى خزائن او مخادع او رفوف وانما يلزم شراء ذلك على حدته وليس فيها ولا

في غيرها فوارات ولا ساحات فسيحة كديار دمشق ولا اسطبلات ومن كان عنده فرس ربطه في الخارج واقل من ذلك المارات فانهم يشترون مونتهم يوما فيوما بل ربما اذا ادخروها فسدت كما تقدم ويرون ذلك تخفيفا للكلفة فان صاحب العيلة اذا ربى في منزله الحيوان وخزن المونة واتخذ الخبز كان له ولاهله شغل شاغل ولعل سبب ذلك في الاصل عدم انتقال الاسعار . ومما يقبح ذكره هنا ان اكثر البيوت الصغيرة ليس فيها مراحيض فيرفع اهلها اقذارهم في وعآء ويقذفون بها في الطرق ليلا فياتي الكناسون للطرق صباحا ويزيلونها . وقد كانت العادة من قبل ان المحبوسين لجرائرهم هم الذين ينظفون الطرق بان يخرج بهم شرطي وهم مقيدون والظاهر ان المالطيين قبل مجيء الانكليز الى جزيرتهم لم يكن عندهم مراحيض وانما كانوا يستغنون عنها بثقوب ينقبونها في اسفل الدار وكانوا غير محتاجين اليها اصلا كما قال الشاعر:

* من يكن عيشه كعيشك هذا * فلتكن داره بغير كنيف * (٥)

وقل ان توجد دار باثاثها وفرشها كما في مدن الافرنج ومن شروط الايجار ان يستاجر الانسان الدار على ثلثة اشهر فما فوق ذلك ويعطي الاجرة سلفا وقبل انقضآء المدة بايام يوذن المستاجر ربها بانه يريد ان ينتقل منها او يجدد استيجارها فاذا انقضت المدة ولم ينتقل لزمه اعطآء الاجرة غير انه لا يسوغ للمالك ان يرمي بامتعة المستاجر او يخرجه كرها وانما عليه ان يضرب له اجلا ولو شهرا واذا عرضت دار للكرآء كتب صاحبها ورقة توذن بذلك والصقها ببابها اذ ليس عندهم شيخ حارة تتجمع عنده المفاتيح كما في مصر . ومن استاجر دارا فلا بد وان يدخلها مبيضة مصبوغة الجدران وصبغ الخشب عادة جيدة فانه ابهى للنظر وابقى للخشب وقد تظهر به الدار بهية في الخارج وربما كان داخلها بخلاف ذلك وهي عكس العادة عندنا فان خارج ديار مصر والشام مظنة للهجية مع ان داخلها منقوش مزخرف وسبب ذلك ان الحكام في السابق كانت ايديهم ممتدة لاخذ اموال الناس فلم يكن احد من الرعية يتظاهر بالغنى لا في بنآء ولا في لباس . اما صنع

الزجاج في مالطة فغير مستعمل . ثم ليس على عزب اراد ان يسكن بين المتزوجين من حرج ولا حرج عليه ايضا في الصعود الى سطحه ولا يطلب منه ضامن من حيث ادبه وحسن تصرفه ولكن من حيث كونه قادرا على الاداء . وللديار آبار يجتمع فيها المآء من المطر فاذا نفذ التمس صاحب الدار من ناظر الاقنية فامله بمآء من عين جارية وسوآء في ذلك القريب والغريب . ومن لا بئر له استسقى من العين المشاعة . وكثيرا ما تجعل لمطابخ تحت الارض ولها خروق في سطح الطريق ليدخل منها الضوء فتكون سقوفها مساوية لسطح الطريق وكذا هي مطابخ لندرة غالبا . ولا تخلو كل دار عن فسحة صغيرة لقوارير الزهور ومن ذلك الزهور ما لا رائحة له ولا وجود له في بلادنا . وفي الديار الكبيرة ولا سيما التي يتبواها الانكليز اجراس صغيرة مدلاة باسلاك حديد نافذة في الغرف ويتصل بها شرائط من حرير فاذا اراد المخدوم احضار الخادم جبذ الشريطة فسمع الخادم صوت الجرس من كل جهات الدار وهذا اوفق من التصفيق باليدين وربما كتبوا على صفحة الباب اقرع الباب او اطن الجرس وكذا العادة في بلاد الانكليز ولكن ليس في الابواب هنا خروق لوضع المكاتيب كما في ديار لندرة * اما طريق المدينة فان الماشي فيها ابدا يصعد ويهبط كحيزوم السفينة في الامواج غير ان لها درجا يهون من صعبها ويمكن المشي على حافاتها تحت المطر ولكل طريق حافتان عن اليمين والشمال لممر الناس ومرور الخيل والعجلات في الوسط . وقد كانت جميعها سابقا مبلطة فكانت قرعة العجلات عليها لا تطاق فاقتلعت الانكليز بلاطها من الوسط وجعلوا بدله ترابا وحصى فقال اهل مالطة ان الانكليز دابهم ان يخربوا بلادهم كما خربوهم من قبل في اخذهم مدافع النحاس ووضعهم مكانها اخرى من حديد والحق يقال ان فرش الطرق بالتراب والحصى يجعلها في الصيف مثارا للنقع وفي الشتآء مناقع للوحل وانما فعلت الانكليز ذلك مراعاة لرضى بعض الاعيان الذين لهم عواجل فلنفع هولاء وخدمهم اغضوا عن نفع العامة وهذا دابهم من انهم يراعون خاطر العلية دون الجمهور والباقي من الحجر على الحافتين متى تصبه

الشمس في الصيف يصير مسدرا . هذا ولما كان اهل مالطة احرص الناس على
ملابسهم واحذيتهم كان خروجهم في الطرق ولا سيما في الشتآء قليلا فتبقى
الطرق دائما نظيفة فاما في لندرة فان النسآء يخرجن صيفا وشتآء ويلبسن
نحو قباقيب تقيهن من الوحل فلهذا تكون طرقها وسخة جدا . وقد رايت
كثيرا من الافرنج يعجبون بنظافة طرق مالطة ويفضلونها على كثير من طرق
المدن العظيمة باوروبا غير ان زوايا كل منها ممتلئة قذرا ونجاسة ومنها ما
لا يمكن لاثنين ان يمشيا فيه معا وفي كل زاوية فانوس مركوز على دعائم
من حديد يوقد الليل كله ومثل هذه الفوانيس لا يوجد في لندرة وباريس
إلّا في اضيق الطرق وارداها وقد بلغني بعد تحرير هذا الكتاب ان انوار ڤاليتة
تستعمل الان من الغاز * ثم لا يخفى ان الافرنج دابهم ان يشنعوا على العرب
والترك ان بلادهم غير نظيفة الطرق ولا مرتبة الاسواق وقد ملاوا الكتب
بذلك ولم ار منهم من مدح مدينة ما إلّا انهم قد افرطوا في ذلك فان اكثر
هولاء يذهب الى بلادنا مستوفزا ويرقد في الخانات فلا تمكن له مشاهدة ما
فيها من الديار الرحيبة والمنازه الفسيحة النضيرة فيتاذى مما عانى ويحمل
ذلك على مناكب البلاد جزافا ويغض النظر عن سيئات بلاده فان حوانيت
اهل الحرف والصنائع في ڤاليتة وغيرها ايضا متفرقة في جميع اطراف المدينة
فربما كان دكان الحداد تحت دار قاض او مطران ولا تزال اصوات المطارق
بالغة مسامعه وكذا الزواني ففي كل طريق هنا ترى منهن جملة حتى قدام
قصري الحاكم والمطران وكثيرا ما يتفق ان صاحب العيلة يستاجر دارا بجانب
زانية تكون اذ ذاك غائبة فلا يدري بها حتى اذا نبوا محله اقبلت تجر
ذيول عهرها فمتى قدمت البحرية سمعت لهم ولهن ضجيجا منكرا ولا
تزال تسمع سفلة اهل البلد هنا يغنون في الليالي ويزاطون ولا وازع لهم فهل
هذا يعد من الترتيب اما اصوات الاجراس من الكنائس فبلية كبرى
وبالجملة فانه قلما يتهنا الانسان هنا في سكنى دار . ثم انه ليس في ڤاليتة
حمام منظور يتطهرون به من نجاستهم فاذا اضطروا الى كشط الوسخ عن
ابدانهم استحموا في البحر . نعم انه يوجد محل اطلق عليه لفظ الحمام ولكنه

ليس في صفة الحمامات التي في بلاد المسلمين اذ هو عبارة عن مغطس فقط من دون تكييس ولا تكبيس ولا عرق على انه غالٍ جدا ونحوه حمامات سائر بلاد الافرنج من حيث الكيفية لا من حيث الغلاء والمتنكلزون من المالطيين يقلدون مواليهم في اتخاذهم مغاطس من قصدير او خشب في ديارهم ويدعون ان ذلك اسلم للجسم وانظف ولعمري ليس السبب في عدم الحمامات هنا الا رداءة الهواء فان من كان في محل دفيء وخرج منه مقابلا للريح لا يامن ان يمنى بداء وكنت قد ذكرت يوما لبعض الاطباء عاداتنا على الحمام وتنغصت لفقده فقال لي لو كان عندنا حمامات لما كان من يستحم فيها وقوله هذا يحتمل معنيين فاما ان يكون قد اراد ان المالطيين لا يستعملون ذلك او ان الحمام يميت الناس حتى لا يعود احد يدخله وهذا داب هولاء في الاعتذار عما لا يوجد في بلادهم فانهم يقولون انه غير نافع او غير موافق كجواب آخر وقد سالته عن وجود رفائين للجوخ (اي الملف) والشال الكشميري فقال نحن الافرنج لا نعنى بمثل هذه الصنائع !(٦١) مع انهم اعظم الناس اقتصادا وتوفيرا واكبرهم هنا يرقع سراويله من دبر ويمشي كذلك من دون رداء يستر رقعته . وليس في هذه المدينة كلها مصطبة يقعد عليها فلا يمكن للانسان الجلوس الا في بيته او في محل قهوة . نعم انه يوجد مصطبة عند قصر الحاكم ولكن لا يقعد عليها الا الاوباش فان القعود عند الانكليز على هذه الصفة عيب وتابعهم المالطيون على هذا . ويقال انه كان في المدينة سابقا عدة مصاطب فازالها الانكليز الحاقا لها بالندرة . فاما محال القهوة في فاليتة فانها عبارة عن مخازن مظلمة ليس فيها شباك يطل على البحر او على حديقة واذا اطلت الجلوس جاءك الساقي ومسح المائدة قدامك اشارة الى انه ينتظر غيرك او كانه يقول بلسان الحال لقد ابرمت بي فمتى تنفارق . ولا يمكن لاحد ان يقعد ناحية البحر ساعة واحدة لانها جميعها قذرة ولا يمكن له في المظال المرتفعة الكاشفة على البحر ان ياكل او يشرب او يدخن احتراما لنساء الانكليز . وفي شواطي البحر حيث يعوم الناس مدة خمسة اشهر لن ترى كنا او عرشا او خيمة وانما ينصب السابح

حر وجهه للشمس فيحترق قبل طلوعه من الماء . وفي الحقيقة فان الانكليز جعلوا مالطة خالية عن المنازه والمثابات السارة اصلا * ومن اعظم اسباب الحظ عند المالطيين الذهاب في القوارب ليالي الصيف ليغتسلوا في البحر فتذهب الرجال والنساء معا ويقضون هزيعا من الليل بالسباحة والغناء . والقوارب في مرسى فاليتة كثيرة جدا وكلها مصبوغ ظريف ولكن ليس فيها مقاعد كقنج مصر ولا زرابي او زخرفة كقوارب اسلامبول الا ان هلك خطر على راكبها فانها لخفتها تميد من ادنى شيء . ولقائل ان يقول ان المالطيين هم مثل الانكليز في كونهم لا يلاحظون في لوازمهم سوى مجرد المصلحة بقطع النظر عن الترفه والطلاوة فان متكآتهم ورواشينهم وكراسيهم وقواربهم وسروج خيلهم ليست مجعولة الا لقضاء الحاجة فقط . واغرب من ذلك حوانيتهم فان التاجر لا يزال واقفا من الصباح الى المساء وقل من كان عنده كرسي له او للمشتري وفي هذا الاخير خالفوا الانكليز . ويقولون للقارب « دعيصة » وكانه تصغير دعصة الرمل شبهوه بها لاستدارته وصغره وهذا داب العرب في انهم يسمون الاشياء الغريبة عنهم بما الفوه في بلادهم . فان قلت اذا كان هذا داب العرب فمن اين للمالطيين ذلك قلت لا ينكر احد ان اللغة المالطية هي عربية وان المسلمين حين استولوا عليها (اي الجزيرة) كما مر هم الذين سموا هذه الاشياء وانما لم يقولوا قاربا مع كونها عربية فصيحة لان في اللغة المالطية اشياء كثيرة عدل بها عن استعمالها الاصلي واستعير لها اسماء مشابهة لها او مجاورة فيقولون مثلا للقليل « فتيت » (بسكون الفاء وكسر التاء الاولى وسكون الياء والتاء الثانية) وللكثير « وسق » (بكسر الواو وسكون السين والقاف) وللحصان « زامل » بالامالة وهو ما كانه يظلع من الدواب لنشاطه وللقرية « رحل » (بل حل بفتح الحاء وسكون اللام) وهو في اللغة مسكن الرجل وما يستصحبه من الاثاث وغير ذلك * ومن ذلك اي الحظ عندهم التماشي امام قصر الحاكم حين يعزف بآلات الطرب العسكرية فيذهب الى هناك جميع المتشبعين المتكيسين فترنو الرجال الى النساء وتدل النساء على الرجال . ومن ذلك الاعياد الكنائسية وهي كثيرة

جدا فان لكل قديس عيدا مختصا به في زمن مخصوص ومكان معلوم فيرحل اليه عند اقترابه المتلهون ويقضون ما تيسر لهم من اللذات وسماع الموسيقى ورؤية لعب النار وما اشبه ذلك ولا بد للاوباش في هذه الاعياد ان يسكروا ويفحشوا ما امكن . ومن ذلك حلبة السباق وقد تكون في الخيل والحمير والقوارب والسابق يفوز بالخطر . ومن ذلك زحلوقة لهم يحضرها الوف من الناس وهي انهم يربطون خشبة طويلة كصاري المركب الى سفينة ويدهنونها بما تزل عنه القدم وينصبون امامها غرضا ثم يمشون اليه على تلك الخشبة فمن زل عنها وقع في البحر . ومن ذلك ثلثة ايام في المرفع (اي الكرنيفال وهي الاحد والاثنين والثلاثا يلبس فيها الرجل كالمراة والمراة كالرجل ويتزيون بهيئات متنوعة واشكال مختلفة ويغطون وجوههم بجلود على هيئة الوجه (او الحيوان) ويطوفون في المدينة حيارى سكارى . ويسمون هذا التشكل مسكرة وكانه محرف عن المسخرة ولا يتحاشون في هذه المدة شيئا من الخلاعة والقصف والمنكرات ويومئذ تغص الطرق بالناس والمواكب فاذا اصبح يوم الاربعاء ذهبوا الى الكنائس ونثروا الرماد على رؤوسهم اشعارا بالانابة ومن ثم يقال لهذا اليوم اربعاء الرماد وهذا الاسم باق عند الانكليز مع الغاء هذه العادة عندهم ومعنى الكرنيفال رفع اللحم اي ازالته (٧) . ومما جرت به العادة في هذه الايام ان الحاكم يولم وليمة فاخرة ويدعو اليها وجوه اهل البلد بتذاكر يرسم فيها بقدومهم بملابس مسخرية فيلبونه ويستاجرون هذه الثياب من الحوانيت فيقف لهم في غرفة في قصره وكلما قدمت عليه عيلة انحنت له فاحتفل بها فاذا انقضى السلام شرعوا في الرقص وكلما رقصت النساء قليلا اخذهن الرجال الى المائدة لياكلن او يشربن ما شئن ثم يعدن الى الرقص حتى مطلع الفجر فتتفرق الاصحاب . وربما اتخذ بعض جشعي المالطيين من تلك المائدة خبنة وهي ما يحمل من الطعام في الكم وكنت اذهب الى تلك الدعوى بزيي المالوف فيخالونني من الساخرين وكانوا يسالونني هل في بلادكم مثل ذلك فاجيب مغالطا ان لم يكن هذا فخير منه ولعمري قبيح بالرجل الفاضل ان يرى راقصا كالولد (٨) ومن اعظم مواضع الحظ واللذات

الملهى وهو المسمى عندهم بلفظة الثياطر او التياطرو (بسكون الطآء الثانية وليس في ڤاليتة كلها سوى ملهى واحد وجل اللاعبين فيه من ايطاليا ولكن ليسوا من الطراز الاول وسياتي الكلام بالتفصيل على ذلك ان شآء الله تعالى فاني التزمت ايجاز الكلام على هذه الامور في مالطة ليكون مناسبا لاحوالها اذ جميع ما فيها ان هو الّا مختصر من بلدان اوروبا والظاهر ان المسلمين كانوا يطلقون على هذا الموضع اسم الملهى فقد كتب عمرو بن العاص الى عمر ابن الخطاب ما نصه : اني فتحت مدينة المغرب ولا اقدر ان اصف ما فيها غير ان فيها اربعة آلاف حمام واثنى عشر الف بقال يبيعون البقل الاخضر واربعة آلاف يهودي يودون الجزية واربعمائة ملهى . اه . غير ان هذا القدر كثير على اي مدينة كانت فان باريس وما ادراك ما باريس لا تحوي ثلثين ملهى ويحتمل ان المراد بالملهى هنا كل موضع يكون للهو فيدخل فيه موضع الحكايات والمشي والاجتماع ونحو ذلك واما قوله بقال ففي القاموس في ب ق ل والبقال لبياع الاطعمة عامية والصحيح البدال ونحوه قوله في ب دل غير انه فسر القربق في باب القاف بانه دكان البقال فليحرر . ومن الغريب ان احد المشعوذين الطليانيين ابدى في ملهى ڤاليتة من التمثيل والتخييل امورا غريبة ثم اراهم ايضا منشورا من البابا بالرخصة له في هذه الحرفة فصدقه كل من رآه فهلا كان هذا المنشور ايضا من جملة شعوذاته * ومن المباني العظيمة في هذه المدينة الكنائس وهي حسنة البنآء متقنة مزخرفة بالنقوش والدمى والتماثيل والصور مزينة بالارجوان والاستبرق وادوات الفضة والذهب . وفيها عشرون كنيسة على هذا النسق واعظمها كنيسة صان جوان وهي مبلطة كلها بالرخام المنقش المصور عليه صور اعيان مالطة الاقدمين المدفونين فيها . وفي صدر الكنيسة تمثالان للمسيح ولصان جوان رافعا يده فوق راسه (اي راس المسيح) يعمده وهما من الحجر يراهما الداخل من الباب اكبر من الرجل الجسيم . وبخارج الكنيسة صفحة ساعة يعلم منها الساعات والايام والشهور والسنون واذا ضرب جرسها سمع صوته كل من في المدينة فيضبطون ساعاتهم عليها . وفي هذه

الكنائس من الذهب والفضة والتحف ما يغني جميع صعاليك مالطة ولكل يوم من الاسبوع بدلة للقسيس خصوصية وقس على ذلك ايام الاحاد والاعياد والاحوال الطارئة كالزواج والمعمودية والموت وفي الحقيقة فان كثرة الكنائس الحسنة في جزيرة مالطة على نحسها لما يعجب منه وفي كل قرية ترى ثلث كنائس فاكثر واول افتخار المالطيين انما هو بكثرة كنائسهم اذ ليس عندهم شيء آخر يتباهى به والتفاخر صفة قائمة في النفوس واذا سرت الى قرية ما متنزها فلا تكاد تصل إلّا وتحدق بك جماعة ليروك كنائسهم وجملة ما يصرف على الكنائس والقسيسين يبلغ ثلثين الف ليرة في العام ولا يعرفون ضرب الاجراس بالحبال كما يفعل الانكليز وانما يصعدون الى قبة الجرس ويحركون مطرقته باليد بما تنقبض منه النفس ويشمئز الطبع * ومن ذلك مدرسة جامعة يعلم فيها الفنون واللغات وفيها كنت أعلم اللغة العربية إلّا ان المالطيين يتعلمون كل شيء ما عدا لغتهم وفي مدة الصيف يعطل المعلمون نحو ثلثة اشهر واجرهم غير ممنون وعند انقضآئها يعين يوم لاجتماع التلامذة ومشائخهم في حجرة في المدرسة وفي الصدر مائدة عليها كتب ثم يقوم احد المشائخ وهو في الغالب صاحب المعاني والبيان فيلقى على الحاضرين خطبة ثم تقرا اسمآء من نبغوا في العلم من الطلبة ويعطون من تلك الكتب ما يليق بهم وربما حضر الحاكم بنفسه لهذا ولا بد من ان يعطى لكل معلم دفتر يكتب فيه اسمآء الطلبة وما يحصلونه من الفنون ويشترط عليه ان لا يعلم تعليما مغايرا للديانة الكاثوليكية الرومانية . ومن الغريب ان اهل مالطة مع كون لغتهم فرعا عن العربية فليس منهم من يحسن قرآتها والتكلم بها واذا شآء احد ان يفتح مكتبا بمالطة تمتحنه علمآء هذه المدرسة اولا فاذا راوه اهلا لذلك اعطى رخصته من الديوان فيه وجملة ما يصرف على هذه المدرسة وعلى مكاتب اخرى في القرى في كل سنة نحو ثلثة آلاف وثلثمائة ليرة * ومن ذلك دار كتب موقوفة باللغات الافرنجية فمن شآء ان يطالع كتابا منها ذهب الى هناك واستوعبه وان كان من الوجوه يحضره الى منزله وعدة ما فيها ثلثة وثلثون الف سفر وليس فيها من الكتب

العربية ما تحتمه طائل . وفي المدينة ايضا عدة حوانيت مشحونة باصناف الكتب ليس فيها خرم ولا نقصان ويمكن ان يقال ان الكتب باوروبا رخص ما يكون ولا جرم ان الولع عندهم بالعلوم مع سعة ذات اليد لاسعد الناس لانه اذا شآء ان يتعلم اي فن كان وجد له فيه شيخا ولان الكتب والادوات اللازمة لذلك الفن حاضرة عتيدة يجدها باهون سعي ولا يخشى في الكتاب خرما كما ذكرنا ولا تحريفا فكل كتبهم مصححة ولان المدارس الوقفية تعلم فيها العلوم مجانا او يعطى في مقابلة ذلك شيء زهيد فطالب العلم في مالطة يعطى في الشهر شلينين ونصفا وطالب اللغة شلينا واحدا ولعمري ان طالب العلم في لغتنا لو لم يصده عن المطالعة الا تعذر وجود نسخة صحيحة لكفاه ذلك عذرا فضلا عن نصبه وحرمانه وخموله * وفي فاليتة سبع مطابع احداها للميري تطبع فيها الاوامر والنواهي التى تصدر من ديوان الحكم والباقي للاهلين وفيها ايضا دار لصحف الاخبار الواردة من اوروبا وداران للصرف توضع فيها الاموال ومنارة فيها فانوس كبير لهداية السفن وعدة مكاتب للصبيان والبنات يعلم فيها القرآة والكتابة والحساب والتطريز والخياطة وغير ذلك غير ان الاولاد تغلب عليهم لغتهم وتمنعهم عن التكلم بغيرها اذ كانت هي اللغة الغالبة والى الان لم يعلم من نسآء مالطة من نبغت في المعارف والتاليف فغاية ما يتعلمن انما هو ان يقرأن بعض كتب كنائسية وقد كان في السابق دار معدة لتلقي الغول وتربيتهم وقد بطلت الدار وبقيت عادة الغول وعادة التبني من اليتامى وفيها ثلثة مستشفيات احدها للعسكر والثاني للرجال والثالث للنسآء ومن لم يكن لها ماوى تاوي الى هذا المستشفى وتمكث فيه ما شاءت . وبخارجها ايضا اربعة اخرى احدها للمجانين واكثر جنون اهل مالطة يكون عن وساوس في الدين وقد رايت فيه عجوزا تهزج وتقول اليوم عيد كما امر بذلك القسيس والثاني للمرضى من العساكر البحرية والثالث للفقرآء والرابع للطاعنين في السن العاجزين عن تحصيل معاشهم المادين لوداع الدنيا يدا والمغمضين عن درزها ونعيمها عينا قد اصبحوا من حبل الحياة على شفا جرف هار يعتبر بهم

اللبيب ويتعظ بهم المستهتر في حب هذه الدنيا الغرور اذ تراهم كالاغرار من الاولاد قد انحنت منهم القدود لما استوى عندهم داعي الاجل واظلمت منهم الابصار بعد ان اضاءَ فيهم صبح المشيب وانحلت منهم القوى بعد ان غلت منهم الافكار والنهى فثم يقضون ما بقي من ظمء حياتهم بكان وصار * وفي فاليتة عدة فنادق للمسافرين بهية ذات حجرات مفروشة عتيدة اجرة كل منها في اليوم نصف شلين في الاقل . وفيها من الذكور اكثر من اثنى عشر الفا وخمسمائة نفس ومن الاناث اكثر من احد عشر الفا وثمانمائة وسبعين جملة ذلك اربعة وعشرون الفا وثلثمائة وسبعون نفسا ومن القناصل اربعة عشر ومن القسيسين نحو مائتين وخمسين وسبعة اديار للرهبان والراهبات . وجملة ما في الجزيرة كلها من الكنائس الكبار سبع وسبعون ومن الصغار مائتان واربع واربعون ومن الاديار واحد وعشرون ومن الاطباء مائة وتسعة وعشرون ومن الدوائية والعقاقيرية تسعة واربعون ومن كتاب الصكوك والعقود مائة واربعون ومن اصحاب الموسيقى مائة وثلثة وستون ومن المعلمين في المكاتب مائة واثنان واربعون ومن المصورين مائة وثلثة وتسعون ومن المتوظفين في خدمة الميري خمسمائة وواحد وثلثون ومن المرتب لهم عمريات ولا شغل لهم ثلثمائة وستون ومن التجار ستمائة وستة وثلثون ومن السماسرة مائة واثنان وسبعون ومن اصحاب الحوانيت الفان وستمائة واربعون ومن المزارعين ثلثة آلاف وثلثمائة وستة وعشرون ومن الفلاحين ثمانية آلاف وسبعمائة وستون ومن صاغة الفضة والذهب مائتان واثنان وثلثون ومن النجارين الف ومائتان وثلثة وثمانون ومن الاساكفة الفان واربعمائة ومن الغزالين والغزلات ثمانمائة واربعون ومن النساجين والنساجات ثلثة عشر الفا وستون ومن الخياطين تسعمائة واثنان وثمانون ومن لفافي ورق التبغ تسعمائة وثلثون ومن الخدام ثلثة آلاف ومائة وعشرون ومن اصحاب القوارب ستمائة واثنان واربعون ومن الساعاتية ستة وعشرون ومن المتعلمين في المدرسة الجامعة وفي غيرها ثلثة آلاف وثمانمائة وثلثة وثلثون ومن الديار الكبار احدى وعشرون الفا ومائتان واثنتان وستون ومن البيوت الصغار

الفان ومائتان وواحد وسبعون ومن الحجرات على حدتها ثمانية آلاف وثلث واربعون ومن الدكاكين ثلثة آلاف وخمسمائة وعشرون ومن المخازن خمسمائة وستون ومن الشون للقمح خاصة مائة وسبع وعشرون ومن الذين لا عمل لهم من الاعيان ستة آلاف ومائتان وتسعة وستون ومن العامة نحو اربعين الفا ، وجملة من يزيد عمرهم على الثمانين سنة سبعمائة وثلثة وسبعون وجملة ما يولد فيها في السنة اربعة آلاف واربعمائة وجملة اهل الجزيرة نحو مائة الف نفس منهم احد عشر الفا وخمسون من الانكليز وسبعمائة وسبعون من الغربآء :

كثيرون ان عدوا قليلون ان رجوا * فهم دون عد العشر ان تنو خيرا (٩)
واقسم انني صرت للمال كارها * لان صار لي اسم المالطيين مذكرا

وجملة ما يرد اليها في السنة من المسافرين ثمانية آلاف ومائتان وستة عشر وما يصدر عنها تسعة الاف وخمسمائة وثلثون * وفي فاليتة سوق تباع فيها سائر اصناف الماكول فتجد فيها جميع انواع السمك واللحم كالبقر والضان والعجل والدجاج والطير . اما السمك فانه لذيذ جدا واما اللحم فاطيب انواعه الخروف الصغير يذبحونه وهو دون ثلثة اشهر فيكون الذ من لحم الطير . وهذه الطرفة النفيسة لا وجود لها في لندرة ولا في باريس . اما الطير فانه قليل جدا ولا عيب على من يشتري نصف دجاجة بل ربعها او جناحيها او راسها بل مصارينها كل ذلك من اقتصادهم فانهم اعظم الخلق خبرة به ولا عيب ايضا على من يذهب بنفسه ويشتري مونة يومه وان يكن قاضيا بل النسآء السيدات يفعلن ذلك ايضا ومتى اشترت شيئا تحمله احد الاولاد الذين مهنتهم الحمل وهم كثيرون وكذلك لا عيب على من يشتري من البقول والحليب ما قيمته فلس واحد فقط (١٠) . وليس في المدينة حمير فارهة للركوب كحمير مصر وانما يذهب الناس في عواجل وهي ليست كعواجل الافرنج وليس لسائقها مقعد فيها وانما يمشي بجانبها على رجليه الحافيتين ومتى راى اصحابها احدا مقبلا ازدحموا عليه ولا ازدحام حمارة مصر * وليس في مالطة كلها مصانع للساعات او الزجاج او الادوات الحربية والاقمشة

وغيرها فاشهر الصنائع عندهم النجارة والخياطة والسكافة والحدادة والنساجة
والصياغة واخص اعمال النجارين الكراسي والتكاآت والموائد والخزائن
والصناديق والاصونة ونحو ذلك وقد يحسنون ايضا انشاء المراكب وعمل
الحدادة مقصور على سرر النوم وما يلزم للبناء وعمل الصياغة من الذهب
انما هو الشنوف والخواتم والسلاسل والاسورة واشكال طيور وزهور والابازيم
والابر ونحوها ومن الفضة الملاعق والمغارف واباريق القهوة والشاي والاقداح
والاطباق والمسارج واوعية السكر ونحوه فاما النساجة فلا تتعدى شقق الفوط
واغطية الفرش وقلوع المراكب ومن هذا الاخير يبعث الى بلاد المسلمين
مقدار جزيل وليس من اهل هذه الصنائع من يصل الى درجة الانكليز
والفرنسيس في الجودة والاتقان الا ان عمل المالطية وثيق متين فاذا اشتريت
مثلا حذاء او ثوبا مخيطا بقي مدة لا يحتاج الى تصليح اما عمل الانكليز
منها فحسن في الظاهر لكنه لا يبقى على الاستعمال وعمل الفرنسوية ما
بينهما (١١) * ومن الرسوم الحسنة في مالطة انه اذا اراد احد شراء شيء
من الفضة والذهب ذهب الى قيم الصنعة وسأله عن قيمته فيزنه ويكتب
له تذكرة بذلك فاما الجعل فموكول الى التراضي والغالب في مشترى الجواهر
ان يكون انقص من التثمين * ومما يكره بمالطة كثرة المتسولين والحافهم
بالسؤال حتى انهم يقرعون الابواب وقت الغداء ويجرون مع الماشي ولا
ينزحون مستجدين حتى يفوزوا بشيء وهم يرون ان حقا على الموسرين ان
يواسوهم باموالهم واذا اعطيت احدهم مرة فكانما قد دون ذلك عليك في
الدستور فاينما يراك يلزمك . واول كلامهم في الاجتداء قولهم « عن روح
ميسيرك » اي ابيك او « عن ارواح البورغتوريو » اي المطهر (١٢) وكان بعضهم
يقول لي « عن روح الجيد نبيك » . والتوسل في باريس ولندرة ممنوع *
ومما يكره ايضا ما عدا طنطنة اجراس الكنائس المتتابعة اصوات الباعة الذين
يطوفون في الاسواق لبيع الفاكهة والبقول والسمك والحليب والملح فان فغر
افواههم ومط اصواتهم وفظاعة لحنهم على اختلاف معانيهم لمما يستعاذ منه .
كيف لا وهم يقولون للتفاح « تفيح » وللرمان « رمين » وللبطيخ « بتيخ » (ابدالهم الحاء

المهملة) وللخيار « خيار » (بالحاء المهملة ايضا) وللانجاص « لنجاس » (بكسر اللام وسكون النون) وللدلاع « دليع » وللخبز « حبس » وللماء « للما » (بكسر اللام الاولى وسكون الثانية وقصر الالف) وللخوخ « حوخ » (بالحائين المهملتين) وما اشبه ذلك . فلا يمكن للعربي استماع ذلك ولا سيما اذا كان في اليوم مرارا من اشخاص ذوي شراسة وفظاظة * وعلى ذكر الخوخ يحسن هنا ايراد ما قاله بعض الادباء « وفي الناس من يبدل الخاء المعجمة حاء مهملة فيقول في خوخ حوح وفي خلخال حلحال وهي مستحسنة من الغلمان والجواري وكذلك ابدال السين ثاء وعليه قول الشاعر :

« واهيف كالهلال شكوت وجدي * اليه بحسنه واطلت بثثي
وقلت له فديتك النفس مني * تجز في الثواب فقال بث » .

قلت هذه اللفظة ذكرها صاحب القاموس بالضم فقال « وبس بمعنى حسب » واهل مالطة يبدلون سينها زايا ويكسرون اولها واهل تونس وطرابلس لا يعرفونها ويستعملون بدلها لفظة « بركة » وهي قبيحة جدا . وقلت انا في مليحة مالطة :

بدت في الثياب السود والوجه زاهر * وماست بقد يخجل الغصن الغضا
لها منطق عذب على قبح لحنه * وفي حسن من تهواه عن لحنه اغضا

الا ان هؤلاء الباعة ليسوا من هذه الطراز ولا جرم ان النطق يؤثر في ذي الذوق السليم اكثر من الحسن وانه من خصوصيات الانسان والحسن يوجد في جميع المخلوقات . ولقائل ان يقول ان النظر الى ذي جمال رائع بغتة يدهش له ويتأثر به اكثر من استماع متكلم بليغ من اول وهلة قلنا هذا على اعتقاد الناطقية فيه فلو فرضنا ان الناظر يرى جيلا معتقدا انه اخرس وقبيحا منطيقا لتأثر بالثاني دون الاول * واشد ما يكره في هذه الجزيرة هو ان الاوباش والاوغاد يترددون حيث تتردد الخاصة وذوو الفضل فقلما رأيت مكانا خاليا منهم واذا لقوا احدا من الوجوه سلقوه بالسنتهم ولمزوه فعلى الكريم ان يجتنب محضرهم ويتباعد عن مثابتهم واسوا من ذلك ان الفصحاء يعتبرون هؤلاء الانجاس عند التحاق والتخاصم اعتبار الخيرين من الناس وهذا الذي

جراهم على التمادي في القبائح . وهولاء الاراذل اذا شربوا قدحا واحدا من الخمر طافوا الاسواق وهم زاتطون صاجون يظهرون بذلك طاقتهم على الانفاق وفي ليالي الاحاد والاعياد تغص بهم المسالك فلا يطيق احد سماع غنائهم ولغطهم ، هذا وكثيرا ما ترى الملاحين والبحريين سكارى في الاسواق حيارى واذا صرعتهم الخمر في الطريق يمر الناس بهم ولا يبالون وربما سرق منهم وهم على هذه الحالة ما بقى لهم من الحانة او جردوا عن ثيابهم وهم لا يشعرون وربما تقآي احدهم ثم عاد الى الشرب الّا ان منزلة السكارى من عسكر المدينة اجل من العسكر البحرية فان اولائك يجرورن الى مقامهم تجريرا وهولاء يغادرون صرعى عرضة للناهبين * ومما يحمد في مالطة عدم العقارب والحيات وسائر الهوام المضرة وان وجدت فلا سم لها واهل مالطة يزعمون ان ذلك من كرامة ماربولس حين القى الثعبان من يده في النار واخبرني ثقة ان الحيات في جزيرة جريد ايضا لا سم لها ، واهل ايطاليا يقولون ان ماربولس ازال السم من افواه الحيات فانتقل الى افواه اهل مالطة وزعم بعض من الانكليز ان ماربولس لم يمر بمالطة وانما كان مروره بملطية (١٣) الّا انه يكثر عندهم البق والذباب وهذا يوسخ كل شيء ابيض والعناكب تلقي لعابها بين كل شيئين اما العثة فانها لا تلحس الصوف لحسها كما يقول صاحب القاموس وانما تسترطه استراطا . وفي معنى العناكب قلت :

غدا بيتي كثير الفرش لما * تهلهل فيه نسج العنكبوت
فلا عجب اذا ما قلت يوما * لكيد الناس اني ذو بيوت

فصل

في عادات المالطيين واحوالهم واخلاقهم واطوارهم

عادة اهل مالطة المتشبعين في اللباس كعادة الافرنج الّا ان نسآءهم يلبسن وشاحا من الحرير الاسود وعلى روسهن غطآء منه ايضا من دون برنيطة واقبح شيء في الصيف روية هذه الثياب السود . وقد يحاكي بعضهن نسآء الانكليز في الزي ولكن متى ذهبن الى الكنيسة لبسن زيهن الاصلي

توهم ان اللون الاسود اليق بالكنيسة واولى بالقنوت وهو كوهم الجهلة من نصارى الشام ان من يلبس سراويل فوق ثيابه لا يليق به ان يتقدم الى محراب الكنيسة . اما اهل القرى فان الرجال منهم يثقبون آذانهم ويتقرطون باقراط من الذهب ويرخون سوالف بجعدة من افوادهم في طلاهم وهاتان صفتان من صفات الاناث ويلبسون طرابيش مختلفة الالوان مسدلة على اكتافهم وهي شبيهة بالاجربة ويمشون حفاة ويتحزمون باحزمة ومنهم من يتختم بعدة خواتم من ذهب ويجعل ازرار صدريته منه او من الفضة ويحمل عنتريه على كتفه ويمشي حافيا مشية الفراخ البطر وان الجزار منهم او الحمار ونحوهما ليخرج في الاعياد وفي اصابعه عشرة خواتم من الذهب ومثلها في سلسلة ساعته وفي صدريته ازرار كثيرة من الذهب او الفضة . اما النسآء فان من كان لها حذآء لا تلبسه الا اذا جآءت المدينة وهي معجبة به حتى اذا خرجت منها تابطته . وجميع الاعيان في مالطة يخرجون في الصيف من دون اردية تستر ادبارهم خلافا لعادة الافرنج في اوروبا والتكيس الغيساني منهم هو الذي يزنق سراويله على فخذيه واليتيه حتى لا يعود يمكنه التقاط شيء من الارض فاذا صعد في درج ونحوه استعمل الحيلة حتى لا تنقد من دبر واكثرهم يفخم فخذيه ومؤخره بحشو في السراويل ويستر كل عظم ناتيء في بدنه ويبدي ما ينبغي ان يستر فاذا مشى احدهم على هذه الصفة نظر الى عطفيه كالزورك والى سراويله وحذائه معجبا بما لديه . وللنسآء زهو وعجب اذا مشين اكثر من زهو الرجال فترى المراة تخطو كالعروس المزفوفة الى بعلها وهي ممسكة بطرف الوشاح باليد اليسرى وبطرف غطآء راسها باليمنى فتكون على هذه الحالة اشغل من ذات النحيين فمتى اوين الى بيوتهن لبسن اخلق ما عندهن من الثياب وسوآء في ذلك الفقرآء والاغنيآء والرجال والنسآء وهذا هو احد الاسباب التي حببت الى المالطيين تجنب المعاشرة والمخالطة وربما عدت المراة التي تبقى في منزلها بلباس حسن من المتبرجات . واذا زرت احدهم فلا يستحي ان يقول مهلا فان زوجتي تبدل ثيابها لتحضر بين يديك . ومنهن من تبقى في حشمها بغير حذاء ثم اذا

خرجت في يوم الاحد لبست جوارب من حرير وكفوفا منه وتبهرجت غاية ما يمكن فان المالطيين يتفخلون في الاعياد كل التفخل بخلاف الانكليز هنا فانهم يبقون على حالة واحدة ، وفي الجملة فان هم هؤلاء الناس كله مصروف في التفاخر بالرياش والظاهر شان حديث النعمة ، ومتى كانت احدى نساء مالطة حاملا مشت الخيلاء ورفعت بطنها ليراها كل من مر بها ومتى ابصرت ذا شوهة رسمت شكل الصليب على بطنها تعوذا من سريان الشوهة الى الجنين . واذا شمت في الطريق رائحة طبيخ وتوحمت عليه بعثت تستهدي منه . اما حلي النساء فالذهب غالبا للاغنياء والفضة للفقراء إلّا انه قل ان ترى امراة من دون حلي من ذهب واصنافه الحلي المشنوق ويقولون لها « سنالت » وفي لغة الغريب « صبالت » والاسورة يلبسنها فوق الاكمام والابر والخواتم والسلاسل والساعات ويندر جدا تحليهن بالجواهر النفيسة وانما تتحلى بها الخواتين في الرقص والولائم وقد يجزئ عنها الجزع وفي الجملة فليس لنساء مالطة ولا لنساء الافرنج جميعا كثير من الحلي كما لنساء مصر والشام وانما اعجابهن مقصور على نظافة الثياب واتخاذها بحسب الزي ، وكما ان لباس رجال الافرنج لا يخلو من اخلال بالحياء كذلك كان لباس نسائهم ادعى الى الحشمة والتصاون من لباس نسائنا ، فاما تغيير الزي عندهم فانه نافع لاصحاب التجارة ومضر بعامة الناس فانه يقضي بمصاريف حديثة غير ضرورية ومنشا هذا التغيير يكون في باريس فتطبع صورته على اوراق وترسل الى جميع البلاد وهذا داب الناس من انهم اذا رغبوا عن رذيلة اقبلوا على غيرها فان الافرنج لما رغبوا عن المزركش والمرقش من الثياب وعدوها من داب الصبيان اولعوا بتغيير الشكل . هذا ولما كان لباس الافرنج في الشتاء لا يتعدى اللون الاسود من الجوخ وغيره وفي الصيف لا يتعدى الثياب البيض لم يكن لاسواقهم ومواسمهم بهجة وليس ما تسر رويته إلّا ملابس العسكر وبعض النساء ولا شك ان حب الالوان الزهية طبيعي لانا نراه في الاولاد وهم يقولون ان الميل اليه من طبع الهمج : وانما ميلهم الى الالوان مقصور على فرش ديارهم واثاثها والحق يقال ان ملابس

الافرنج اوفق للعمل وادعى الى قلة المصروف فانها ما عدا كونها مزنقة وهو اصل في الاقتصاد فهي عارية عن كلفة الرقم والوشي وربما كانت ادعى الى النظافة ايضا . ومن عادة الانكليز هنا الاكثار من الثياب البيض والاقلال من الجوخ ونحوه فان الغني منهم لا يكون له اكثر من ثلث جبات او ارجع ولكن قد يكون له ستون قميصا وعشرون سروالا من الكتان وعشرون ملاءة للفرش وقس على ذلك : وقد رايت كثيرا من الاعيان هنا لهم جبب قد تلبد على ازياقها الوسخ والعرق لا سيما وان منهم لمن يرخي شعر راسه حتى يصل الى قذاله فتراه اذا نزع برنيطته تتطاير هبريته على كتفيه ومع ذلك فهم يحلقون شواربهم بدعوى النظافة . ومن الانكليز من يلبس كل يوم قميصا ويحلق في كل صباح وربما فعل ذلك في النهار مرتين وذلك مطرد سواء كانوا في البر او البحر . ومنهم من يجعل صدر القميص او طوقه واطراف كميه منفصلة عنه فيغيرها في كل يوم . ومما يحمد عند الافرنج استعمال النشا في الثياب البيض حين تغسل فانها تأتي بها جديدة . والغسلات في مالطة لا تغسلن الا بالماء البارد فان وضع اليد في الماء السخن ومقابلة الريح بعده يعقب ضررا . وصابونهم احسن من صابون فرانسا ودونهما صابون الانكليز . وعندي ان احسن صابون في بلاد اوروبا هو صابون قسطيلية في اسبانية والظاهر انه من صنعة العرب فان اهل تونس لا يزالون يصنعون شيئا منه على لونه وهيئته ولكن شتان ما بينهما واجرة غسل القميص بمالطة صلدي واحد وفي باريس ثلثة وفي لندرة لاربعة او خمسة * اما عادة المالطيين في الاكل فللموسرين الشوربة في الغداء واللحم والخضر والخمر وفي العشاء السمك والسلطة وافخر شيء عندهم لحم الخنزير الا انهم لا يكثرون منه ومن غيره كما يكثرون من اكل الخبز بخلاف عادة الانكليز . اما الفقراء فان احدهم لياكل رطلا من الخبز من ارطالهم بخمس حبات من الزيتون او بقطعة من الجبن او بصحناة . والرطل المالطي هو نحو رطلين من ارطال مصر وثمنه نحو قرش ولهذا كان المالطيون جميعا كثيري اللهج بذكر الخبز فاذا زارك احد مثلا وسالته عن اهله قال لك « كلهم

طيبون ياكلون الخبز » اوكان يقول الطبيب هو من ياكل الخبز . واذا اردت ان تشتري شيئا من احد التجار ولم توفه ثمنه قال لك انا قائم بمونة عيالة تاكل الخبز واذا رايت احدا ياكل بعيدا عنك رفع اليك ما في يده وقال « الك يعجبك » اي ان يك يعجبك وان كان يعلم ان اقترابك منه محال . ثم لا يخفى ان خبز الافرنج يكون كبيرا جامضا يقطعونه بالسكين والحكمة في ذلك الاقتصاد فان الآكل اذا قطع منه شيئا وابقى منه ما ابقى فلا يكون الحرص على الباقي عيبا وربما جيء بالفضلة منه الى المائدة مرات بخلاف عادة الشرقيين فان الرغيف اذا قطع منه شيء فلا يوتى به الى السفرة وهو ناقص فذلك يعد لوما وبخلا . غير ان جعل الرغيف كبيرا يوجب عدم نضج لبه فخبز اهل مالطة يكاد لبه وهو الجزء الاكبر منه ينعصر فلا يمكن اكله الا بعد يوم وهو اردا خبز في بلاد الافرنج فانه ما عدا كونه معجونا بالارجل حامض وغير مربوع غير انه فيما اظن ليس مخلوطا باجزاء كثيرة كخبز الانكليز . وعندهم نوع من الخبز مستدير مثل خبزنا يسمونه الفطاير وياكلونه على نوع التفكه وقد سالت عن سبب قلته وعدم بيعه في جميع الحوانيت فقالوا انه موجب لزيادة المصروف لطيبته وهم اذا جاعوا اكلوا منه ما يكسر الجوع فقط . وعامة المالطيين يطبخون الدم ويستبقون الى اكله وكنا اذا اردنا ان نذبح دجاجة اخذ الذابح دمها وهو لنا من الشاكرين وهم وجميع الافرنج ياكلون السلاحف البحرية وحيوانات اخر مما نتقزز نحن منه . وقد بلغني ان من المالطيين من اذا فجع بشيء فجاءة اكل فارا او ضفدعا لازالة الدهشة وكيف كان فان اخس الفلاحين بمالطة يعرف من انواع الطبيخ ما لا يعرفه اكبر تاجر في بلاد الانكليز فانهم يطبخون اللحم مع جميع البقول والغالب ان الافرنج لا نظافة لهم في الطبخ من حيث كانت خداماتهم ابدا مكشوفات الرؤوس فيتناثر شعرهن في الطبيخ ولانهم قليلا ما يبيضون آنية الطبخ حتى ان هذه الصنعة في مالطة تكاد ان تعد من المفقود واكثر آنية الطبخ عند الانكليز من الحديد وهو اسلم عاقبة . واهل مالطة مثل غيرهم من الافرنج في كونهم ياكلون المخنوق

وزادوا عليهم في اكلهم الميتة من الدجاج ونحوها واذا دعوت احدا منهم الى مادبة لم يكن منه في خلال التهامه ما بين يديه الّا الثنآء على نفسه بانه قليل الاكل وعلى ذلك قولي :

لئام اذا ما زرتهم في بيوتهم * كرام اذا زاروك ما امكن اللحس
ولو وسعت افواههم غير ما بها * لكان لكل بين انيابه فاس

وقلت ايضا :

لجاري ثغر للهم القـــرى * وذم الورى منتهى حـــلـه
فلا شيء اسهل من فتحه * ولا شيء اصعب من سده

وكلهم ياكلون الثوم والبصل نيئا فلا تزال رائحة افواههم منتشرة . اما مراقدهم فانهم يرقدون غالبا على سرر من حديد والمتنكلزون منهم يتخذون في الصيف سررا منه وفي الشتآء من الخشب وفرشهم متعددة وثيرة . وقد سمعت ان غير الاغنيآء يتخذون فرشا عالية ولكن لا يرقدون عليها وانما ينضدونها للمفاخرة والمباهاة . والاطبآء هنا يقولون ان الرقود على فرش القطن مضعف للجسم وان حبل الليف او التبن اذا نفش كان خيرا منه وفرش الاغنيآء من الصوف . وعامة المالطيين يجعلون اقذارهم في وعآء تحت السرير فلا طاقة لاحد على ان يدخل مراقدهم في الصباح ولابد من ان يرقد الرجل مع زوجته وان تقادم عليهما الزواج وهرما فيه واروحا . فاما الاوباش والسفلة فتراهم راقدين في الهاجرة على حافات الطرق كبا على وجوههم وقد جآء في الحديث نوم الشياطين على وجوههم . واذا زرت موسرا منهم بادر الى ان يريك ما عنده من الفرش والاثاث وقبل كل شيء يريك فراشه ولم تجر العادة عندهم ان يتخذوا فرشا للزائرين كما في بلادنا * ومما حرم منه اهل مالطة من اسباب الترفه والاستراحة الاستوآء على الارائك والزرابي الوثيرة فلا يقعدون الّا على الكراسي . نعم انهم يتخذون متكاءات من خشب ولكن من دون نمرقة عليها ولا حشية وناهيك بمَن يقعد يومه كله على كرسي خارج منزله او يظل واقفا كالتجار ثم ياتي منزله ليقعد على كرسي فكانما لسان حالهم يقول ما قال ابو نواس : « وداوني بالتي كانت هي الدآء » او

ما قال الاعشى : « وكاس شربت على لذة * واخرى تداويت منها بها »

او ما قال ابن دريد في مقصورته :

« حينا هي الدآء واحيانا بها * من دائها اذا يهيج يشتفى »

او ما قاله البحتري :

« تداويت من ليلى بليلى في الهوى * كما يتداوى شارب الخمر بالخمر »

فائدة يحسن استطارها هنا وهي : ان مداواة الشيء بنظيره لا بنقيضه ليس من مخترعات اطبآء النمسا كما شاع فقد ذكر العلامة الدميري في كتاب حياة الحيوان عند ذكر النحل ما نصه : « روى البخاري ومسلم والترمذي عن ابي سعيد الخدري رضه قال جآء رجل الى النبي صلعم فقال ان اخي استطلق بطنه فقال اسقه عسلا فسقاه ثم جآءه فقال يا رسول الله اني سقيته عسلا فلم يزده الّا استطلاقا فقال عليه السلام اسقه عسلا ثم جآء الثانية والثالثة والرابعة فقال عليه السلام اسقه عسلا فقال قد سقيته فلم يزده الّا استطلاقا فقال صلعم اسقه عسلا صدق الله وكذب بطن اخيك فسقاه فبرئ » قال الدميري : « اعلم انه قد اجتمعت الاطبآء في مثل هذا العلاج على ان تترك الطبيعة وفعلها فان احتاجت الى معين على الاسهال اعينت ما دامت القوة باقية واما حبسها فضرر عندهم واستعجال مرض » اه *

اما عادتهم في الزواج فهو ان يعاشر الرجل المراة قبل ان يتزوجها مدة طويلة وربما اقام على ذلك ثلث سنين فاكثر . وعندي ان الزواج من دون مشاهدة البنت ومعرفة احوالها من اضر ما يكون ولاسيما عند النصارى لعدم اباحة الطلاق عندهم غير ان طول العشرة ايضا لا خير فيه لان البنت لا تزال مع خطيبها على احسن الاخلاق حتى اذا تزوجت وعرفت ان لا فراق تخلقت بالاخلاق التي تعجبها . ولا يخفى ان النسآء في بلاد الافرنج هن اللواتي يمهرن الرجال فالاغنيآء من المالطيين يعطون الزوج نحو مائتي ليرة والذين هم من الوسط يوثثون له منزله من فرش وكراسي وموائد وآلات الطبخ وينقدونه شيئا من الدراهم والفلاحون يعطونه دجاجا وبيضا ونحو ذلك وعلى الزوج ان يهادي حماه باحذية . وعندي ان لكل من الغربيين

الذين يمهرون الزوج ومن الشرقيين الذين يمهرون المراة وجها وذلك ان الشرقيين ينهمون على الزواج وهم غير محنكين ولا مادة لهم فيحتاج ابو البنت الى ان ياخذ من الزوج مهرا ثقة بانه قادر على القيام بما تعرض له ولان الرجال هم قوامون على النسآء . اما الافرنج فلان رجالهم غالبا يتحاشون الزواج لما يعقبه من التكاليف الشاقة لان مونتهم غالية ونسآءهم متشبهات بالرجال اخلاقا ولاستغنآئهم عنه بكثرة الموجرات فوجب على المراة في هذه الحال ان تساعد الرجل * واهل مالطة اشد الخلق تهافتا على الزواج فان الرجل منهم ليتزوج وكسبه في اليوم قرشان (اي نصف ريال وتسعة نواصر) وهما لا يشبعانه خبزا واداما وانما يثق بان زوجته تساعده على الشغل وتكسب مثله . وآفة نسائهم حسن الخلق دون حسن الخلق فان المراة تجري ورآء من به صباحة دون مبالاة بالعواقب فلا يهمها كون الرجل فقيرا او جاهلا او شريرا غير ان النسآء هنا لا يحترمن ازواجهن فكثيرا ما تعارض المراة زوجها وتخطئه وتسفهه بحضرة الناس وكلهن اذا تكلمن يرفعن اصواتهن الى حد يبقى الغريب عنده مبهوتا . وكانت عادتهن في القديم ان لا يتبرجن للشبان ولا يخطرن في الطرق ولا يتعلمن القراة والكتابة ومتى خطبن احتجبن عن الاخطاب وربما كان الرجل يخطب بنتا بواسطة امه واخته من دون ان يراها اما الان فقد تخلقن باخلاق نسآء الانكليز في مخالطة الرجال ومماشاتهم والذهاب معهم الى المراقص والملاهي وكثيرا ما تهرب البنت من حجر والديها وتمكث مع من تهوى وكثير من النسآء الغنيات الطاعنات في السن يتزوجن الفتيان البطالين فيمكث الرجل مع زوجته طاعما كاسيا والذي عليه حكمة النسآء هنا ايثار الاقارب على الزوج فانهن يقلن ان الزوج اذا مات يعوض بمثله ولا كذلك الاقارب وهن كنسآء الانكليز في انهن لا يتزوجن الّا من كان في سنهن الّا انهن يخالفنهن في كونهن يتزوجن على صغر . واذا مشى الرجل مع زوجته مشيا متحاذيين لا متماسكين بالاذرع كالافرنج اذ لا بد للمراة ان تمسك ثيابها كما ذكرنا آنفا . وكثيرا ما تخرج الرجال وحدهم ويغادرون نسآءهم في البيوت . واكثر

اهل الحانات بمالطة متزوج واللبيب منهم من يتزوج حسناء لتسقي الشرب وتنادمهم فيجتمع عندها من العساكر البحرية والبرية زمر شتى . والفجار من اهل مالطة الذين دابهم كسب المال باي وجه كان يتظاهرون بانهم طالبون للاحصان حتى اذا حصلوا على المهر فروا به الى البلاد البعيدة . ثم ان المتعة او التسري امر مستفيض عند جميع اهل مالطة . وقد تترك المراة المتزوجة بعلها وتهفو في اثر من تهوى وكذا الرجال . واعرف كثيرا من العيال قد فارق منهم الزوج زوجته واقام مع اخرى واقامت هي مع آخر وتسرى ابوه بنساء واقامت بناته مع رجال او صرن بغايا . والبغايا في هذه الجزيرة لسن ذوات ثروة ولا جمال رائع الّا ما ندر فلا تجد لاحداهن دارا على حدتها او خادما لكنهن في الغالب غير واقحات ولا متهافتات على الرجال بل هن لعمري اصون لسانا من المتزوجات واكثر ماء وجه اذ لا يحدقن في الرجال كالمتزوجات ولا ينتقدن السحنة والزي ولا يتشبثن مثلهن بالنميمة ويترددن على الكنائس كثيرا وليس منهن من تريد ان تموت في الذنوب كما هي عبارتهن وحين ياتين الفاحشة يغطين وجوه صور القدسين التي في حجرهن او يقلبنها تادبا وتورعا . وفي الجملة فان اهل مالطة جميعا رجالا ونساء يغلب عليهم الشبق والسفاح * اما عادتهم في اداب الجنازة فكعادة الافرنج في انهم لا يقيمون الماءتم على الميت فلا تعرف ان احدا من الاهلين مات الّا من صحف الاخبار وهي عادة جيدة فان العويل والنحيب فضلا عن كونهما لا يحييان مائتا ولا يردان فائتا او كما قال الشاعر « ولم يرجع الموتى حنين المآءتم » يلقيان الهم والرعب في قلوب السامعين وانما يلبسون الحداد على الميت مدة طويلة ويدفنونه بعد اربع وعشرين ساعة . وربما ارسلت الجيران الى اهل الميت وضيمة كما في بر الشام . اما علية الانكليز هنا فلا يدفنون الميت الا بعد اسبوع في الاقل كما في بلادهم . واذا مات لاحد المالطيين طفل صغير اقبلت عليه الاصحاب تهنئه قائلين « نفرح لك بالجنة » . ومتى ولد لهم ولد وضعوا تحته التبن ليكون سقوطه عليه تشبيها بالمسيح . واذا مات احد من ضباط

العساكر شيعت جنازته وءالات الموسيقى معزوف بها وراءها والجند مصاحبة لها فاذا فرغوا من دفنها اطلقوا البنادق دفعة واحدة اشارة الى انه مات بعز دولته وسلطانه * اما خلق المالطية فالغالب عليهم السمرة والربعة في القوام وسواد الشعر والعيون وغلظ الحواجب وشدة البنية وهم في الغالب اجمل من النسآء . وكثير من النسآء هنا لهن شوارب او عوارض او عناقف ومنهن من تحلقها ومن الافرنج من يستحب ذلك فيهن . وقد اسلفت لك زهوهن وعجبهن بما يتحلين به من اللباس والحلي * اما اخلاقهم فالغالب على اعيانهم لين الجانب والبشاشة فاذا سالت احدا منهم عن شيء اجابك وهو باش بك مستانس اليك . ومن طبعهم جميعا الكدح والتدبير والاقتصاد فلا يتحملون ضنك العيش محافظة على عادات قديمة ضارة . ولا يتجشم احدهم استخدام نفر اظهارا لشانه ورفعته ولا النفقات الزائدة في الاعياد والزواج ولا تتقلد نساء الاغنيآء منهم قلائد من الماس ونحوه وان الماجد منهم يزور صاحبه بدون احتفال والغني يذهب الى السوق صباحا ويشتري مونة يومه وان الماجدة تزور صاحبتها ولا تلهي احداها عن الشغل وذلك بان تاخذ معها شيئا تشتغل به وهي التي تقوم بتدبير البيت فلا تكل اموره الى الخادمة واكبرهم من عنده خادم وخادمة . وقد شاهدت رئيس اطباء المستشفى غير مرة ينصب الحبال على سطحه وينشر عليها الثياب المغسولة قطعة قطعة ومتى نشفت الثياب حلوا الحبال ووضعوها في محل مصون ورايت ايضا بعض القناصل ينصب رايته بيده . والفقراء منهم لا يوقدون سراجا في الليالي المقمرة واكثر الرجال يسلمون مصروفهم بيد نسائهم حتى انهم يحتاجون بعدها الى ان يطلبوا منهن ثمن التبغ ونحوه . وجميع نسائهم مقتصدات ونشيطات الى العمل وقل منهن من تتعاطى التجارة * ومن طبعهم جملة وتفصيلا الفضول والتلهي بالاسفاف من القول والعمل فاذا اكب احد مثلا لالتقاط شيء من الارض ازدحمت عليه زمر ولا يزال احدهم يجري من جهة وءاخر من اخرى حتى تغص بهم الطريق ولا يبرحون ذاكرين للشيء يحدث اياما حتى يجد غيره ومتى جرى امر عرفت اصله ومبداه وغايته

من الجائين والذاهبين ولا بد لكل من طغامهم ان يقص قبل رقوده كل ما جرى له اثناء النهار وربما اخبر به غير مرة وزور ورقش حتى يخال نفسه بعد ذلك صادقا وان يتطلع وهو سائر في الطريق على كل من يمر به فتراه كانما يسلم على الناس ذات اليمين وذات الشمال ٠ وكثير منهم دابهم الحضور في المحكمة لاستماع الدعاوي فاذا خرجوا بثوها في كل موضع ٠ ولا يمكن ان ينقلوا حديثا الا ويزيدون فيه فاذا الم بعين انسان قذى قال انه عمي ويبدهون الرجل بان يقولوا له قد راينا زوجتك تنظر من الشباك او تحدث فلانا او فلانة ويقولون للمراة في حق زوجها مثل ذلك ٠ واذا اشتريت من احدهم شيئا يخبر اهلك به ومتى راوا غريبا نظروا اليه متفرسين وتنصتوا لاستماع كلامه ليعرفوا باي لغة يتكلم ويصفون حاله في وجهه بان يقول احدهم للاخر « هذا الرجل من بلد كذا وقد اطال المكث هنا ولعله لا يمكث بعد فانه كان اولا سليما وكانه الان مريض » فيقول الاخر « والى اين يذهب اصلاه يجد بلدا خيرا من بلدنا وقد صار مقصد الواردين والصادرين » وربما دعت احدى النساء صواحبها لرويته وهي تلكزهن وتومي اليه ٠ ولا تكاد تخاطب احدا في الطريق الا وترى زمرة قد احدقت بك ولا يكاد احد ياتي امرا الا وتتناقله الرواة ٠ ويسيئون الظن في متزوج عاشر عزبا او في عزب دخل دار متزوج ولا غرو فان هذا شان من لا يرى في بلده شيئا يشغل الخاطر من الامور الخطيرة ويكون محصورا في صخرة قرعاء راسبة في البحر فان حصر الفطن يكون من حصر العطن * ومن طبعهم التكشف وبث ما هم فيه من الاحوال والاستقصاء عن حال المخاطب فاذا صحبت منهم احدا لا يلبث ان يطلعك على كمية دخله وخرجه وكيفية عمله ويقول « ليت لي مالا فاتنعم به ولو كنت من المثرين لاكلت اطايب الماكول ولبست افخر الملبوس فيا سعد من عاش عيش المترفهين فاخبرني انت ما دخلك وكيف عيشك ومن اين تشتري ثيابك وحاجتك ومن يزورك » وهلم جرا * فاما حبهم لكسب المال فهو بحيث لم يغادر لشيء سواه قيمة ومنهم من يسافر الى البلاد الشاسعة ويعرض نفسه للامتهان والابتذال حتى

اذا احرز المال رجع الى وطنه متبذخا متشبعا يمرح في الاسواق مرح من ازدهته النعمة وابطره الحظ . ولا شيء يعجبهم في الدنيا مثل بلادهم ولا تزال تسمعهم يتبجحون بها وباحوالها واذا سالت احدا منهم عنها اجابك بلسان ذلق عما كانت عليه من الغبطة والسعادة وءالت اليه من سوء الحظ وهم في محبتها كاليهود في محبة صهيون . ومن الغريب مع هذا التفاخر انك اذا ذكرت لاحدهم افراد قومه لم تلقه راضيا عن احد منهم فاول نعت ينعته به قوله «هو ابله» او «هو شحيح» فكان قوله «نحن المالطيون شاننا كذا» يريد به وحدة نفسه * اما مفاخرتهم بالالقاب فاكبر لهم من اللباس فقل ان ترى احدا منهم ممن يقرا ويكتب الّا وله لقب طبيب او فقيه او «بارون» او «مركيز» او «دتور» (١٣) على انهم لا يملكون به مسكة من العيش * ومن طبعهم التعقب للزلات والتعنت والاغتياب فيتعقبون الناس في مشيتهم ولبستهم ولهجتهم وسحنتهم فلا يكاد يعجبهم شيء وما من خصلة حميدة الّا ويجعلونها قبيحة فاذا كان الانسان كريما قالوا انه مبذر وان كان مقتصدا قالوا انه شحيح . ولا يبرحون متبرمين على الانكليز ومتظلمين منهم ويدعون بانهم من بعد قدومهم الى جزيرتهم ضاقت عليهم مذاهب المعيشة وغلت الاسعار حتى اضطروا الى ان يهاجروا من بلادهم التي يصفونها بانها حنينة مع ان لدولة الانكليز في هذه الجزيرة عدة سفائن حربية نفقة كل منها في اليوم نحو مائتي ليرة وترى عساكرها لا يبرحون يخرجون من حانة ويدخلون اخرى حتى ينفقوا ءاخر فلس معهم حتى صار معلوما عند الجميع ان الاسعار انما تغلوا بوجود هذه السفن ثم اذا سافرت اخذ الذين الفوا البيع لها في الدمدمة والتسخط من كساد ما عندهم فان الاهلين كلهم لا ينفقون ما تنفق سفينة واحدة منها . هذا وان الانكليز قد انشاوا فيها جلة مصالح ومعالم لم تكن للمالطيين في حسبان فقد كان بعض اصحابي بالاسكندرية كلفني بان اسال ناظر الديوان عن تركة والده وقد توفي بمالطة وهل كان تحت حماية الانكليز او لا فلما سالته اجابني بعد البحث بان ديوان مالطة قبل قدوم الانكليز لم يكن له دفاتر مصححة يرجع اليها وانما كانت عبارة عن

اوراق يومية غير منظومة على ان المالطيين انفسهم يقرون بان حكامهم في القديم كانوا ينالون من عرضهم لانهم كانوا قد حرموا الزواج على انفسهم حتى انه تجمع في دار معدة للنغول نحو الف ولد يزن في كونهم اولادهم فكانوا يقولون فيهم انهم على قسيسين يورون بذلك ان الحكام المتشبهين بالقسيسين يكفلونهم لكونهم اباهم او ان الاولاد يصيرون قسيسين ولكن داب اهل الجهالة ان يستطيبوا الماضي على الحاضر ويطمعوا في ان الاتي يكون خيرا منهما * ومن ذلك كراهيتهم للغرباء ولاسيما العرب ولن يقدر احد ان يستخلص منهم عشيرا وما يكون له بين ظهرانيهم صديق الا اذا كان يربي جرو كلب . ولعمري لو ان مالطيا افترى على غريب وخاصمه لتالبوا على الغريب من كل اوب من دون ان يعلموا السبب . وهم مائلون بالطبع الى البطش والفتك وان كثيرا منهم لا يمشون إلّا ومعهم سكاكين يخفونها في ثيابهم . ومدخل العتاب بينهم مسدود فاول سبهم قولهم « يحرق دين القديس تيعك » ومن جهلهم انهم لايفهمون ما المراد بالدين هنا فان مرادفه عندهم في غير السب منقول من الطلياني والظاهر ان المسلمين حين ولايتهم عليهم كانوا يتلقونهم بهذه التحية فتداولوها هم من بعدهم . ومنهم قوم يتنصتون الى ما يجرى بين المرء وصاحبه او زوجته من الحديث فاذا صح لهم جر منفعة من ذلك انتهزوا فرصتها فورا واختلقوا عليه اكذوبة . وللمالطيين جميعا لهجة واحدة واشارات واحدة فالرجال اذا وقفوا يهزون افخاذهم من الورك الى القدم واذا وصفوا احدا بالتحول رفعوا السبابة واما لوها يمينا وشمالا واذا اشاروا الى امر معتدل سوي رفعوا الكف اليمنى ورجفوها واذا ارادوا الكثرة ضموا الاصابع على الابهام وحركوها عليه واذا ارادوا النفي امروا الانامل من تحت الذقن واذا اشاروا الى حسن امراة جمعوا الكف وامروها على الصدغ اشارة الى تجعيد سوالفها واذا ارادوا وصف شي بالطيبة ارخوا اليد اليمنى ونفضوها مرات واذا سالوا الرجل عن زوجته قالوا له « كيف المرة » واذا زار احدهم صاحبه فاول ما يحيي به صاحب المنزل ويجعل تحية الست الاخيرة واذا ذكروا اسم ولد صغير ذكروا اسم الله عليه واذا اوقدوا

الصباح في المسآء قالوا تحية المسآء والفلاحون لا يصرحون بعدد سني سنهم فيقولون مثلا اربعون وعشرة ولعل ذلك واصل اليهم من اليهود فان العدد عندهم فيما اعلم مكروه . ومن العجب هنا ان الناس يحبون التكاثر في كل شيء حتى في القبائح والرذائل إلّا في العمر ولا يتحاشى احدهم اذا زارك ان يجيء معه بواحد او اثنين جريا على عادة العرب ويبادرون الى تهنئة النفسآء حال وضعها وتزدحم عليها الجيرة حتى العذارى وتاتي اصحاب الالات ويعزفون امام البيت وهي آخذة في الطلق ويزاطون عندها كما يزاطون في الاعراس * اما تحمسهم في الديانة ففوق تحمس اهل ارلاندة وقد مر بك عدد الكنائس والقسيسين وثروتهم وملابسهم الكنائسية . وكما ان اهل ارلاندة يسكرون ويفحشون في عيد صان باطرك كذلك المالطيون يسكرون ويفحشون في عيد صان باولو بل في سائر الاعياد . واذا استاجر مالطي دارا كان قد سكنها يهودي فلا يدخلها إلّا اذا رش عليها القسيس المآء المبارك وكذا لو انتقل مثلا مركب ونحوه من ملك مسلم او انكليزي فلا بد وان يعمله وهم يعمدون ايضا اجراس الكنيسة جميعها وكذا الاجراس الصغيرة التي ينقس بها امام القربان ويقيمون لها كفلاء من الرجال والنسآء مما عرف بالاشابين . وقد عمدوا مرة جرسا في كنيسة صان باولو وكان كفيله الحاكم وزوجته لكونه كان كاتوليكيا . ويقولون ان دعوة الجرس مستجابة فاول ما يحدث رعد او برق يبادرون الى الضرب بها . ويعمدون المولود من اول يوم ولادته ولو كانت في شدة الزمهرير ولا بد من ان يكون ذلك في الكنيسة لا في البيوت . ومن يقف ينظر الى القربان وهم طائفون به من دون ان يسجد له فقد عرض نفسه للخطر وقيل انهم قتلوا مرة رجلا من بحرية الانكليز وكان قد مر بهم ولم يسجد له فتناولوه ضربا ووخزا فحمل قتيلا . ومرة اخرى وقف بهم احد ضباط العسكر وظل واقفا فهجم عليه قسيس ورمى بغطآء راسه فشكاه للحاكم فاخبر الحاكم الاسقف بذلك فحبس القسيس في داره مدة ثم اطلقه فذهب القسيس الى رومية فاكرمه البابا واعاده الى الاسقف وامره باعلاء درجته فلما بلغ الحاكم ذلك نفاه من البلد . ويقولون ان شكل

الصليب متحاوق في جثة كل انسان وذلك بان يبسط يديه وهو رافع راسه
وان اسم مريم العذرآء مرسوم ايضا في كل كف فان خطوط الكف الاصلية
تشبه حرف الميم باللاتينية ونحو من هذا ما وجدت في بعض الكتب
العربية من ان اسم النبي صلعم مكتوب في كل جثة فان الميم تشبه الراس والحآء
تشبه الصدر والميم تشبه الصرة والدال تشبه الساق * وفي ايام الصيام وفي
يومي الاربعآء والسبت لا تصرح باعة الحليب باسم ما يبيعونه وانما يقولون
«هون تا الابيض» ولفظة «تا» محرفة عن متاع بمعنى صاحب كما
يستعملها اهل تونس وطرابلس . وفي غير هذه الايام يقولون «حليب» ومع
شدة تحمسهم هذا فانهم يبيعون ويشترون ايام الاحاد والاعياد كما في غيرها
والدين منهم من يفتح فيها دكانه الى الظهر فقط . وقد رايت كثيرا من
مدن ايطالية ولم ار فيها تماثيل عديدة في الطريق كما يرى في مدينة
ڤاليتة . وقد كانت هذه التماثيل في الزمن القديم ملاذا يعتصم به اهل
الجنايات فكان القاتل اذا فر ولطي تحت تمثال منها ينجو من قصاص الشرع
وقد بطلت الان هذه العادة . وينبغي هنا ان نذكر ان المالطيين يانفون
من ان يطلقوا اسم النصارى على الانكليز واذا تزوج انكليزي مالطية على يد
قسيس انكليزي فان زواجه غير شرعي *

فصــــــل

في الانكليز وحكومتهم بمالطة

لما كانت هذه الصخرة البحرية عزيزة على الانكليز لموقعها في بحر الروم
كما لا يخفى كان لهم في حكومتهم بها من التساهل والتسامح ما لم يكن
في بلادهم ويمكن ان يقال ان الحكم هنا مالطي وان يكن الحاكم انكليزيا
فان القضاة وفقهآء الشرع وكتاب الصكوك والمتوظفين في الدواوين وشرطة
الديوان جميعهم مالطيون وليس على الناس مكس ولا ضريبة ولا يدفع مكس
في ديوان المكس الا على الحنطة والمسكرات والبهائم وهو قليل جدا . ومن
اقتنى مركبا او خيلا او استخدم خدمة فلا يودي على ذلك شيئا وكذا الذين
يبيعون بقول الارض وثمرها وليس لخزنة الدولة من ايراد هذه الجزيرة ولا

فلس واحد وانما يصرف جميعه في لوازمها وجملته تبلغ تقريبا مائة واربعة آلاف ومائتي ليرة وتفصيلها من ديوان المكس نحو خمسة وستين الفا وسبعمائة ومن الدكاكين الف وستمائة ومن المحاكم الفان وسبعمائة ومن المولك اي بسطة المكاتيب مائة وثمانون ومن تقييد الصكوك مائة وثلثون ومن خراج الارض ثلثة وعشرون الفا وسبعمائة ومن المزاد مائتان ومن المعتزل اي الكرنتينة ثلثة آلاف وثلثمائة وخمسون ومن المراكب ثلثة آلاف وتسعمائة ومن مصالح اخر الف وسبعمائة * يصرف منها مرتب وظائف وسنويات ثلثة واربعون الفا للحاكم منها خمسة آلاف ولجديقته اربعمائة ولكاتب سره وهو من الانكليز الف وللكاتب الثاني خمسمائة ولناظر الخزنة ثلثمائة وخمسون ولمدير الحسابات ستمائة ولمستوفي الاموال خمسمائة ولناظر ديوان المكس مثلها ولكبير القضاة ستمائة ولكبير الشرطة اربعمائة وخمسون ولناظر المرسى اربعمائة ولناظر المعتزل ثلثمائة ولقسيس الحاكم خمسمائة ولاسقف مالطة الفان وللمصروف على المستشفيات وغيرها من الافعال الخيرية اربعة آلاف واربعمائة وعلى المدرسة الجامعة وقد تقدم ذكرها الفان وسبعمائة وعلى المرتزقين والمتقاعدين ثلثة عشر الفا ومائتان وخمسون * اما مصاريف عسكر الانكليز وهم ثلث كتائب فمن خزنة الدولة وللعسكري في اليوم نحو شلين . ويقال ان ايراد مالطة منقسم الى ثلثة اثلاث الثلث الاول للميري والثاني للكنائس من الوقف والتسبيل والثالث لاصحاب الاملاك * فقد تبين لك رفق دولة الانكليز بحال المالطيين جير ولو ان جزيرتهم كانت اكبر مما هي الان بمائة مرة لما كان ايرادها كله مكافئا لمكس صنف واحد في انكلترة . وحسبك ان مكس الملح (١٤) وحده هناك ينيف على خمسة ملايين ليرة * ومن تساهلهم معهم انهم يرخصون لهم في التطواف بالقربان وتماثيل القديسين سواء كانت من خشب او جص او غير ذلك مع انه مغاير لعقائد كنيسة الانكليز لا بل يطوف معهم جوقة من العسكر وهم عازفون بآلات الطرب امام التمثال ولا غرو فان الدولة فرضت لصنم في بلاد الهند اسمه جوجرنوت ستة وخمسين الف

روبية وهي عبارة عن ستة وعشرين الف ريال ولغيره ايضا من الاصنام مرتب وافر ولكهان الهنود وظائف يرتزقونها من الديوان في كل عام * قيل ويوجد في الهند نحو اربعة عشر الفا وثمانمائة وواحد وخمسين محلا مخصصا لعبادة الهنود يبلغ مصروفها من طرف الدولة نحو خمسة وثلثين الف ليرة وقد صرف مرة على اقامة عيد من اعيادهم اربعون الف روبية معما لزم لهيكل الصنم (١٥) . وفي هذه الاعياد الكبار تطلق المدافع من السفن والقلاع ويمشي امام الصنم طائفة العازفين من الجيش . وفي عيد القآء جوز الكوكو في نهر الهند ينزل ذووا الامر والحكم من الدولة وياخذونه من الكهنة بعد ان يصلى عليه ثم يلقونه في النهر وحينئذ تنشر السفن راياتها المتلونة وتطلق المدافع منها ومن الابراج وكذلك يفعلون في الاهلة اظهارا لشعائر الاسلام . وكل ذلك دليل على ان الدولة لا تبالي بمباينة المذاهب والاديان في ممالكها اذا كانت هذه الاديان غير مانعة من ادآء ما يلزم اداؤه للخزنة من المال وللتاج من الطاعة . وقد حاول مرة حاكم مالطة وكان على مذهب البروتستانط ان يبطل عادة المسخرة يوم الاحد في المرفع على ما تقدم ذكره فان الانكليز يحترمون هذا اليوم غاية الاحترام كما ستعرفه واذا بالمالطيين جميعهم تالبوا عليه وماجوا يطوفون وهم يسبونه ويقبحون عليه بالقاب سمجة واشارات منكرة حتى ان بعضهم حاكاه في زيه وهيئته وجعل على راسه قرونا . ثم احدقوا بكنيسة الانكليز وهم عاكفون على العبادة وزاد ضجيجهم ولغطهم هناك حتى لم يسع الحاكم وحشمه غير الفرار الى حديقته خارج المدينة وما زالوا مذ ذلك الحين يلحفون في طلب حاكم من مذهبهم حتى صدر امر من الدولة بعزل الحاكم المذكور فجاءهم حاكم من اهل ارلاندة اكثر تحمسا منهم وهو الذي وقف شاهدا على معمودية الجرس * ومن سنن الانكليز في بلادهم ان تغلق جميع الحوانيت في يوم الاحد الا دكاكين العقاقرية والحانات التي تباع فيها الجعة والشراب الا ان هذه تغلق ايضا عند اقامة الصلوة فاما في مالطة فلا حرج على احد منهم ان يبيع ويشتري فيه اي شيء كان ثم اني لست ممن يتصدون الى تبديل القوانين

والاحكام ولا ممن يتحرشون بالاحكام مخافة ان يعزلوني عن ولاية فلمي
ولا يتاتى لرجل مثلي ان يصلح شريعة دولة قديمة ولا سيما شريعة الانكليز
فانها عندهم لا تقبل التبديل والتحريف وكل عادة من عاداتهم تقوم مقام
سنة إلّا ان بيدآء اصولهم واحكامهم تظهر لبصري الكليل القاصر في غاية
البعد عن الادراك اما اولا فلان قصاص كثير من الاساآت والجنايات يفتدى
عندهم بغرامة للميري فاذا افترى مثلا لئيم على كريم ولطمه بحضرة الناس
او هتر عرضه غرم شيئا من الدراهم للخزنة وخرج من بين يدي القاضي
على اشر خلق مما كان عليه فتكون مصلحة الحكام على هذا ازدياد الخصام
والشر بين الناس لان خيرهم انما هو من شر الطغام . فياليت شعري ما
نفع الكريم بعد ان يسب و يفترى عليه ان يرى غريمه موديا للميري ثمن
عرضه وشرفه ؟ وكيف تصح التسوية بين العباد والله تعالى لم يسو بينهم
بل فضل بعضهم على بعض فجعل اللئام يبذلون مآء وجوههم و يمتهنون انفسهم
في تحصيل معيشتهم وجعل ذوي الادب والعرض ينزهون انفسهم عن الشين
والمنكر ؟ فهل من العدل ان لا يجعل بينهما فرق في الاحكام والمعاملة ؟
وإلّا لزم ان نقول ان من يساوي بينهما وهو الحاكم ينبغي ان يكون مساويا
لمن فرض عليه الحكم . فلو تعمد رجل مثلا للطم الحاكم على وجهه وهو
جالس على كرسي الحكم افعساه كان يغرم دريهمات لخزنة الدولة ؟ وهل
من العدل ان ترى لئيما ينازع كريما على شيء هو ادنى من ان يخطر بباله
نعم تصح التسوية بين غريمين تجهل حالهما فاما الحاكم الشرعي الذي
يعرف بلاده و يخبر فاضلهم من مفضولهم فلا ينبغي له ان يسوى بين كل
مدع ومدعى عليه كما انه لا ينبغي ان يوزن الذهب في ميزان الخشب
وفضلا عن ذلك فان من ضرب مثلا مرة لا يصح ان يجرى عليه حكم من
دابه وديدنه الضرب وإلّا لزم ان نقول ان اهل اللغة اعقل واحكم من اهل
الشرع حيث فرقوا بين الضارب والضراب والضروب . هذا ولما كان الظاهر
من حكم الانكليز انه مبني على التسوية كانت الاوباش من اهل مالطة
مثل اهل الفضل منهم في انه لا يقبل للفاضل كلام على المفضول ولا يفضل

بين اللئيم والكريم منهم غير الشهود وان كان اللئيم معروفا بلومه وذالته وربما طلبت باعة الماكولات في شيء قيمته درهم عشرة دراهم فلا يمكن للمشتري ان يعارضهم بشيء واذا ابى ان يشتري لم يخل من تطاول البائع عليه وقس على ذلك اصحاب القوارب والحمالين وغيرهم من السفلة فاي انصاف هنا ان يرخص لهولاء في هذا التعدي والطغيان ثم يقال ان ذلك تسوية ؟ ثم اي انصاف ان يرخص للباعة في ان يخلطوا المواتع وان يضعوا السمك واللحم الذي نشم في الخموم في الثلج حتى يتطرى وفي ان يبيعوا الفج من الاثمار وان يجعلوا سعر الشيء الواحد متفاوتا على قدر تفاوت الساعات وان تطوف السكارى في الاسواق صاجين زائطين بالغناء واللغط ثم يقال ان ذلك حرية ؟ لعمري ان المحتسب في بلادنا خير من هذه الحرية لان الحرية انما تكون جيدة مفيدة ما اذا روعي فيها مصلحة عمومية على اخرى خصوصية لا بالعكس . إلا وتبا لحرية تفضي الى تسوية اللئيم على الكريم . وهذا الفساد الحاصل في البيع والشراء في مالطة هو بعينه في لندرة كما سنذكره في محله وسببه انه لما كان ذووا الاحكام هنا وهناك لا ياكلون سوى الطيب الماكول ولا يشربون سوى افخر المشروب غفلوا عن مصلحة الجمهور وظنوا ان سمنهم موجب لصحة جميع عباد الله * ومن فساد الاحكام هنا ايضا انه اذا كان لاحد حق على آخر واراد سجنه لزمه ان يقوم بمونته وان يكن المديون لصا او متعديا وكان المحق عادلا فاضلا . ولا يخفى ان في ذلك حظرا للثقة والائتمان لان حبس الغريم لا ينفع الدائن شيئا وان السجن لكثير من الاشقياء المناحيس خير لهم من خصاصهم . ولما كان هولاء السفلة مفرطين في القبائح والشرور على ما ذكرنا كان من اهم الاشياء على الحر ان يتجنبهم ما امكن وليس عليه ان يحترز من الاعيان وذوي الامر والنهي فانهم لا يتطاولون على احد لما يعلمون من قضية التسوية بخلاف العادة في البلاد الشرقية فان اصحاب المناصب هم الذين يخشى باسهم وشرهم . ومن فساد الاحكام ايضا ان القضاة تقبل شهادة اي شاهد كان سواء كان سكيرا او شريدا . كذا شهادة النساء والاولاد مقبولة فمتى قبل الشاهد الصليب

تحت شهادته والانكليز يحلفون على الانجيل (٦ أ) . ومتى اقيمت دعوى حشد الناس لاستماعها وان تكن من الامور التي كتمها اولى من اذاعتها وهنا ايضا انكر التسوية لانه اذا حدث مثلا امر مرة بين والد وولده او رجل وامرأته وكانوا من ذوي الفضل وافضى ذلك الى التحاكم لا ينبغي ان يجعل بمنزلة دعوى رجل على آخر بانه سرقه او شتمه . ثم ان من الاصول المقررة عند الانكليز ان كل من يدخل ارضا تحت حكومتهم يصير حرا وتجري عليه احكامهم . وقد جآء مالطة كثير ممن كان لهم عبيد وامآء فاجبروا على تحرير رقيقهم . ومن يقم خمس عشرة سنة ويعلم انه كان في خلال ذلك حسن التصرف والسلوك حق له ان يطلب الحماية الجنسية ولكن يلزمه اداء نحو عشرين ليرة وهذه الحماية هي انفع من حماية الانكليز التي تعطى من بلادهم كما سنبين ذلك . وللحاكم عشرة مشيرين من اعيان الاهلين يشاورهم في المصالح العائدة الى بلادهم . وفي كل خمس سنين يعزل وربما اقام اكثر اذا طلبت الرعية ذلك . وفي قصرة ستة عشر الف بندقية (مكحلة) وعشرون الف مزراق واربعة الاف درع والفا غدارية اي طبنجة * اما اخلاق الانكليز هنا فهي مغايرة لاخلاق جنسهم في بلادهم فلا يصح لمن رآهم ان يحكم بان جميع الانكليز مثلهم فان هؤلاء متكبرون صلفون مع البخل والشح - وبئس الكبر والشح اذا اجتمعا - وما احد منهم الّا ويظن بانه هو فاتح هذه الجزيرة بباسه وسيفه ولا سيما ضباط العسكر فانهم على قنة الصلف والتبذخ . واذا دخلت على احد من هؤلاء الفاتحين وهو ياكل فلا يتكلف ان يدعوك الى طعامه بل ربما غضب على جميع اهل داره على عدم منعهم اياك من الدخول كما قلت ———

اذا زرت ارحبهم دارة * توهم غولا قد اغتالها
يغلق ابوابه ان نوى * فطورا ويحكم اقفالها
ومن كان فيهم له خادم * يظن المعالي قد طالها
اذا تتبعوا كرسيه * وبئك من زوجه حالها
يرى انه محسن مفضل * وان المآثر قد نالها

واذا زرته واقمت عنده الى وقت غدائه واردت الذهاب فلا يدعوك الى الطعام معه . ومن طبعهم حب الانفراد والعزلة فان احدهم ربما اقام شهرا تاما من دون مشاهدة الناس استغناء عنهم برؤية ما عنده من فاخر المتاع وبقرآءة صحف الاخبار . اما عندنا فالاخبار لا تعرف الّا بالنقل والرواية فلم يكن لنا بد من الاجتماع ليلا . ومن سوء ادب بعضهم هنا انهم يجعلون في اعناقهم شريطة فيها زجاجة فكلما لمحوا امراة قرعوا الى الزجاجة ليستثبتوها بها . وفي ليالي الرقص عندهم ترقص بنت الرجل منهم مع عدة زيرة وهو ناظر الى ذلك بعين شكرى من الابتهاج ولا سيما حين يخاصرونها . وكما ان الرجال هنا ليسوا براموز حسن على اهل انكليترة كذلك كانت النسآء مخالفات لمن في بلادهن فانهن هنا بمعزل عن الحسن والجمال واكثرهن فقم وشوه . ومن الغريب انه مع ترفهن وركوبهن الخيل في كل يوم غالبا فلن يرى فيهن بادنة ولا فضيلة لهن الّا في كونهن يحسن القرآءة والكتابة ويوسسن العلم في اولادهن على صغر . فان الولد لا يبلغ هنا خمس سنين الّا ويكون قادرا على القرآءة اما عندنا فيذهب سن الصبا باطلا فمتى اخذ بعد ذلك في التعلم وجده بعيدا الماخذ صعب المرتقى . واشهد لو ان نسآء بلادنا يترشحن في المعارف على صغر لفضلن نسآء جميع الافرنج فضلا باهرا فانهن ارق اذهانا واسرع فهما . والحاصل ان الانكليز هنا رجالا ونسآء ليسوا من خيرة بلادهم وان كبرهم وعتوهم وجشعهم جعلهم مبغضين عند جميع المالطيين فما من مالطي تسنح له فرصة لاذى انكليزي الّا وينتهزها . فاما المتوظفون منهم في خدمة الدولة فانما هم راضون عن اصحاب السياسة لا عن افراد الانكليز المجاورين لهم *

فصل

في موسيقى اهل مالطة وغيرهم

قبل الدخول في هذا الباب الحرج ينبغي ان استاذن اصحاب اهل الفن في التطفل على هذا النحو وان كنت لا اعد من جملتهم غير اني علمت منه ما يمكنني ان اعرف المستقيم منه من غير المستقيم فاقول قال بعض الفلاسفة ان فن الموسيقى فضلة من المنطق اخرجها العقل بالصوت لما لم

يمكن اخراجها بالقياس فمن اول المنطق بالاصطلاحي قال معناه ان اركان
هذا الفن ذهنية بناءً على ان المتقدمين كانوا يتعاطونه بالسماع والذوق فيرسم
السامع ما يسمعه من الاصوات في مخيلته وذاكرته دون مشاهدته لدلائله
وهكذا يتلقاه التلميذ عن معلمه بالترسم عن ظهر القلب والاتباع مع الملكة
التي ترسخ في مخيلته تلك الترجيعات ولهذا كان المعول عليه في تحصيل
هذا الفن ملكة الذوق . اما الافرنج فقد جعلوا الان ترجيع الصوت وايقاعه
داخلا تحت حس المشاهدة فدلوا عليه بنقوش ورسوم معلومة كما دلت
الحروف على المعاني فلم يكن تحصيله متوقفا على ذاكرة وعظيم معاناة كما
في السابق . فمن كان منهم عارفا بمخارج النغم ورأى تلك العلامات امكن
له ان يخرج عليها اي صوت كان من دون ان تتقدم له سابقة فيه واذا
اجتمع منهم عشرون رجلا وكانت امامهم تلك النقوش رايت منهم متابعة
واحدة . ويرد على هذا التاويل انه لو كانت الموسيقى فضلة من المنطق
لكانت واحدة الاستعمال كما ان المنطق واحد الضوابط على ان الناس متغايرون
فيها تغايرا شديدا . فان الحان العرب لا تطرب غيرهم بل هؤلاء ايضا
مختلفون فان اهل مصر لا يطربون لالحان اهل الشام والحان الافرنج لا
تطرب احدا من هؤلاء . وعلى تاويل المنطق بالمعنى اللغوي وهو المراد هنا
فقد جاء في شرح رسالة ابن زيدون لسلطان المتادبين ابن نباتة ما
نصه : « النغم فضل بقي من المنطق لم يقدر اللسان على اخراجه فاستخرجته
الطبيعة بالالحان على الترجيع لا على التقطيع فلما ظهر عشقته وحن اليه
القلب » . اه . والمراد بالترجيع لا التقطيع ان يكون الصوت ممتدا ينحى
به لا متقطعا كاصوات الهجاء . فاذا كان فن الموسيقى والحالة هذه فضلة من
المنطق على هذا التاويل لزم ان نقول ان لكل جيل من الناس محاسن في
الغناء مقصورة عليهم فقط فان لكل لغة محاسن وعبارة لا توجد في غيرها والواقع
بخلاف ذلك فان لغتي الصين والهند مثلا تشتملان على محسنات لا توجد
في غيرهما الا ان انغامهم خالية من ذلك . اما الحان الافرنج فلا يطرب لها
هنا الا من الفها وهي عندهم على اربعة انواع الاول وهو احسنها ما يتغنى به

في الملاهي مثل الموشحات عندنا مع مد الصوت وترجيعه وخفضه ورفعه وترقيقه وتفخيمه وترجيفه وفيه تدخل حماسة وتحريض وتذمير . والثاني وهو يشبهه ما يرتل به في الكنائس ولا يكاد يكون به ترجيف . والثالث ما يغنى به في المحزنات والبث وفي هذا النوع يستعملون غناءً رقيقا اشبه بالنجوى فمن يسمعه يلحن ما المراد به وان يكن جاهلا باللغة كما اذا رايت شخصا مجهشا للبكاء فانك تعلم اجهاشه بالبديهة وان لم تعرف سببه . والرابع ما يتغنى به في المضحكات والمحاورات وهذا يقل فيه الترجيع ويكثر فيه النبر وتطريبه انما هو من حيث انهم يصلونه باشياء كثيرة وحركات مضحكة فيضحكون فيه ويقهقهون ويبكون ويتثاءبون ويعطسون ويحاكون به قيق الدجاج وصداح العصافير وغيرها . وفي كل من هذه الانواع يستعملون المساجلة وهي مطربة جدا واكثرها في النوع الاخير ويوفقون عليه الفاظا مولدة غريبة . وكما ان لهم غناء مضحكا كذلك لهم رقص يحمل الشكلى على القهقهة . اما العرب فانهم يقولون ان الرصد يشجي والسيكاه يفرح والصبا والبيات يحزنان والحجازي ينعش وينغش وهلم جرا . والفرق بين الفريقين من عدة وجوه احدها ان الافرنج ليس لهم صوت مطلق للانشاد من دون تنقييد بتلك النقوش فلو اقترحت على احدهم مثلا ان يغني بيتين ارتجالا كما يفعل عندنا في القصائد والمواليات لما قدر وهو غريب بالنسبة الى براعتهم في هذا الفن لان الانشاد على هذا النوع طبيعي وقد كان عندهم من قبل ان تكون النقوش والعلامات فياليت شعري كيف كانوا ينشدون قبل ان نبغ غويدو داريتسو في ايطاليا (١٧) . الثاني انه اذا اجتمع منهم عشرة مغنيين وارادوا اخراج موشح اخذ بعضهم في بعض اركانه من مقام وبعض في البعض الاخر من مقام غيره فان كانت الاغنية مثلا من الرصد غنى واحد جزءًا من هذا المقام بصوت جهير وآخر جزءًا من النوى بصوت رقيق واخر جزءًا من الجواب بصوت عال فيسمعه السامع من عدة مقامات ويسمى ذلك عندهم « هرموني » اي ان الاصوات تتالف على الغناء . وفي هذه الطريقة فوائد ومخاسر . اما الفوائد فلان السامع يسمع في وقت واحد موشحا واحدا

من عدة مقامات باصوات مختلفة فهو يصنع قصيدة واحدة من جميع بحور العروض . واما المخاسر فلان السمع لا يتمكن كل التمكن من ادراك جميع مخارج تلك الاصوات المتغايرة . وهذه الطريقة عندي على الالات احسن منها على الاصوات . الثالث ان غناء الافرنج هو مثل قراءتهم في انه لا يخلو من حماسة وتهييج فضلا عن التشويق والتطريب والترقيص . فغناء الحماسة والتهييج هو الذي يكون به ذكر القتال واخذ الثار والذب عن الحقيقة فاذا سمعه الجبان ولا سيما من الالات العسكرية هانت عليه روحه اما الغناء العربي فكله تشويق وغرامي واجدر به ان يكون جامعا لمعنى الطرب وهو خفة تصيب الانسان من فرح او حزن . فاذا سمع احد منا صوتا او آلة شغف قلبه الغرام فبدت صبابته وحنت نفسه كما يحن الالف الى الفه حتى يصير عنده آخر الفرح ترحا . ولا غرو ان صعد منه الزفرات واذرف العبرات فان السرور اذا تفاقم امره وتكامل بدره دب فيه محاق الشجن واختلط به الحزن حتى يستغرق صاحبه في بحر من الوجد ويشتعل بنار من الهيام وعلى ذلك ورد قولهم طربه وشجاه من الاضداد . الرابع ان الافرنج لا قرار لاصواتهم الا على الرصد . نعم ان جميع الانغام يوجد لها مقامات في آلاتهم بل توجد انصافها وارباعها الا مقامين منها لا انصاف لهما الا انهم لا يقرون الا على المقام الاول . وقد سمعت منهم الرهاوي والبوسليك والاصفهاني اما غيرها فلم اسمعه قط بل قد سمعت منهم بعض اغاني من اغانينا اوقعوها على آلاتهم فكانت كلها رصدا . وقد والله طالما وقفت السمع على ان اسمع منهم انغامنا فخبت حتى اعترتني الحيرة فاني من جهة كنت ارى آلاتهم بديعة الصنعة على كثرتها وافكر في ان العلوم انتهت اليهم والفنون قصرت عليهم وان عندهم في هذا الفن بدائع كثيرة فاتتنا على ما سبق ذكره ومن جهة اخرى ارى ان براعتهم كلها انما هي من مقام الرصد . نعم ان هذا المقام هو اول المقامات وانه يغنى منه في مصر وتونس اكثر مما يغنى من غيره الا ان فضل الصبا والبيات والحجازي لا ينكر ايضا . ثم اعود فاقول لا غرو ان يكون قد فاتهم ايضا بدائع في هذا

الفن كما فاتهم في غيره اشياء اخرى وذلك ككثرة بحور العروض عندنا وكبعض محسنات الكلام وكالسجع في الكلام المنثور اذ ليس عندهم سوى المنظوم وهو في الانشاء كالصوت المطلق في الغناء فان السجع مقدم على النظم وكعجزهم ايضا عن لفظ الاحرف الحلقية . وقد سالت مرة احد اهل الفن منهم فقلت ان المقامات موجودة عندكم وعندنا على حد سوى وكذا انصافها فبقي الكلام على استعمالها فانا لو استعملنا مثلا نصفا من الانصاف مع مقامه وانتم تستعملونه مع مقام اخر بحيث يظهر لنا انه خروج فمن اين تعلم الحقيقة ؟ فما كان منه الا ان قال ان هذا الفن قد وضع عندهم على اصول هندسية لا يمكن خرمها فلا يصح ان يستعمل مقام إلّا مع مقام آخر . على اني كثيرا ما سمعت منهم خروجا فاحشا على شغفي بالحانهم . وقد شاقني يوما وصف المادحين في سماع قينة بلغ من صيتها انها غنت في مجلس سلطان الروس فلما سمعتها طربت لزحامة صوتها وطول نفسها في الغناء الا اني سمعت منها خروجا بحسب ما وصل اليه ادراكي . ولو تيقن ان الحان الروم التي يرتلون بها اليوم في كنائسهم هي كما كان يتغنى به في ايام الفلاسفة اليونانيين لكان ذلك دليلا آخر على قصور الحان الافرنج فان انغام الروم مقاربة لانغامنا . الخامس ان اكثر اصحاب الالات عندهم لا يحسنون اخراج انصاف النغم وارباعها ما لم تكن مرسومة لهم في الالة الا صاحب الكمنجة . فاما الناي ففيه خروق شتى غير السبعة لكل اثنين منهما طباقة اذا سد منها منخر جاش منخر غير ان الصنعة في احكام سدها واستعمالها تقارب صنعة تغيير نقل الاصابع عندنا . وهذه الانصاف والارباع في النغم مثل الروم والاشمام في النحو . وفي الجملة فان للافرنج حركات في هذا الفن خارجة عن ذوقنا واخرى لا يمكن محاكاتهم بها . ومما مر تفصيله علمت ان انشادهم في الحماسة والفخريات غير معروف عندنا وان مطلق الصوت عندنا غير معروف عندهم . ومن الغريب انه مع كثرة ما عندهم من الالات والادوات فقد فاتهم العود على محاسنه والناي من القصب فان نايهم هو بمنزلة الزمر عندنا على ان اكثر العلماء قرر ان اصل الموسيقى ماخوذ

عن صوت الريح في القصب . وقال بعض انه عن صداح الطيور وغيره انه عن خرير الماء وآخرون انه عن اصوات مطارق طوبال قين . واول من ضبط اصول هذا الفن يوبال وذلك في سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد وكان اختراع الناي في سنة ١٥٠٦ ونسب الى هيجنيس (١٨) . وعلى ذكر مطارق القين فقد ورد في شرح مقامات الحريري في ترجمة الخليل ان اول من استخرج العروض وحصر اشعار العرب به الخليل بن احمد ابو عبد الرحمان الفراهيدي الازدي . وكان سببه انه مر بالبصرة في سوق القصارين فسمع الكدنيتق اي المطرقة باصوات مختلفة سمع من دار « دق » وسمع من اخرى « دق دق » وسمع من اخرى « دقق دقق » فاعجبه ذلك فقال « والله لاضعن على هذا المعنى علما غامضا » فوضع العروض على حدود الشعر الخ . واشجى آلة من الآلات الافرنجية هي « الكنشرتينة » وهي فرع من فروع الارغن ونحو من المنفخ يفتح ويطبق وهي من مخترعات ويتسطون (١٩) * ومن المعلوم انه كلما رقت طباع الناس ولطفت اخلاقهم كانوا الى المحاضرة في مضمار الطرب اسبق ولشذا عبيره انشق فان المولع بغرر المعاني ونكات الكلام لا يسمع الالحان الا ويتصور معها من الحسن ما يهيم به وجدا قبل ان يشعر الغبي بمجرد معرفة كونها غناء ولا سيما اذا كان الانشاد معربا والوقت معجبا وقد جاء في شرح لامية العجم للعلامة الصفدي « من لم يحركه العود واوتاره والربيع وازهاره فهو فاسد المزاج بعيد العلاج » * وقال افلاطون « من حزن فليسمع الاصوات الطيبة فان النفس اذا حزنت خمد نورها فاذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتعل منها ما خمد » . وقال اسحق بن ابراهيم الموصلي « شر الغناء والشعر الوسيط لان الاعلى منها يطرب والدني يضحك ويعجب والوسط فلا يطرب ولا يضحك » اه . ومن الغلط البين ان يقول احد اني لم اطرب لهذه الالحان لجهلي باللغة فان اصل الطرب انما يكون عن الصوت لا عن الكلام المتغنى به . اما اهل مالطة فانهم في الغناء مذبذبون كما في غيره ايضا فلا هم كالافرنج ولا كالعرب فاهل القرى منهم ليس لهم الا اغاني قليلة واذا غنوا مطوا اصواتهم مطا فاحشا تنفر المسامع منه فمضاهاتهم للافرنج

هي في اقتصارهم على الرصد وللعرب في انهم اذا اجتمع منهم طائفة للغناء لم يخرجوا اصواتهم إلّا من مقام واحد ويقوم احدهم ينشد ويرد عليه الباقي . اما الاعيان منهم فانهم يتعلمون الالحان الطليانية . واكثر العميان بمالطة صنعتهم العزف بالالات فمتى قدم احد من سفر او ولد له ولد او تزوج او عمد ولده او ترقى الى رتبة او كسب مكسبا جزيلا بادروا الى تهنئته . ولا يخفى عنهم شيء مما يحدث في بلدهم ويقال ان احدى بنات الاعيان فجرت مرة وكتمت حبلها عن اهلها ثم غابت اياما حتى وضعت ولدها فلما رجعت الى بيتها اقبلت زمرة منهم يعزفون امام الدار فسالهم ابوها ما سبب ذلك فاخبروه بوضع ابنته ففطن حينئذ لغيابها . والذي يظهر لي ان الانغام التي كان يتغنى بها في ايام الخلفاء كانت اشبه بغناء المغاربة الان منها بغناء المشارقة واللازمة التي تستعملها المغاربة في غنائهم هي « دي دي » كقول اهل مصر والشام « ياليل » وكقول الترك « امان » وفي القاموس: « ما كان للناس حذاء وضرب اعرابي غلامه وعض اصابعه فمشى وهو يقول « دي دي دي » اراد يا يدي فسارت الابل على صوته فقال له « الزمه » وخلع عليه فهذا اصل الحذاء » اه . واسماء الانغام عند المغاربة مخالفة لاسمائها عندنا وهم يزعمون انهم نقلوا هذا الفن عن اهل الاندلس واهل تونس اكثر ترسلا منهم . والظاهر ان المواليا من خصوصيات اهل مصر والشام وكذلك الناي والقانون والغالب في من غنى صوتا واجاد ان يظن ان لم يبق ذو اذن واعية إلّا وسمعه واذا لم يجد الفتى لنفسه عذرا وذلك بان يتنحنح او يسعل فيحيل القصور على شيء طرا عليه . هذا اذا كان المغني غير متخذ الغناء له صنعة فاما من درب فيه فقل ان يعرض له خروج لان الصوت كالالة كلما زاد استعمالا زاد جلاء . وكما ان غناء اهل مصر اطرب واعلى من غناء جميع العرب كذلك كان غناء الطليانيين اعلى من غناء سائر الافرنج وذلك لكثرة ما في لغتهم من الحركات فهي مثل لغتنا صالحة للغناء والعروض ولكون اصواتهم صادرة عن صدورهم . اما لغة الانكليز فلكثرة السواكن فيها لا تطاوع على الغناء الذي فيه مد وترجيع إلّا بتحويل الالفاظ

عن وجهها وخرم قواعد النطق بها وانما يحسن بها الاغاني المضحكة . واصواتهم كلها من ازوارهم وكان المغني منهم يغني وقد غص بلقمة . وجميع الافرنج يقولون ان غناء العرب من خياشيمهم وعلى فرض تسليم ذلك فما يكون منافيا للاشجاء والتطريب فان اللغة الفرنساوية لا يتكلم بها الّا مع الغنة وهي مع ذلك اشجى لغات الافرنج جميعا وربما طرب لها من سمعها اول مرة من عمره . وقد رايت من الافرنج من كان يطرب للانغام المصرية ولكن غب طول مكث فيها وكان في اول امره يانف منها ويقول انها محزنة ولا يخفى ان للعادة تاثيرا في جميع الاحوال وخصوصا في المنطق والالحان . وناهيك ان الاطفال عندنا وعند الافرنج ترقد على الغناء فتعتاد عليه مذ الصبى فاذا امتزج بامزجتها كان سماع غيره ضد المالوف . واهل مالطة يرقدون اطفالهم على ما هو اشبه بنواح الندابات في بلادنا . ولولا العادة لما عجزت الافرنج مع حكمتها عن النطق باحرف الحلق وهي التي وفت حق نسائهم جزافا وبخست نساءنا حقهن *

فصل

في لغة اهل مالطة

اعلم صانك الله عن الزلل وسددك الى صواب القول والعمل ان اللغة المالطية فرع من دوحة العربية وشيصة من تمرها وهي يتكلم بها في جزيرتي مالطة وغودش وسواء في ذلك العامة والخاصة . غير ان هولاء يتعلمون ايضا الطليانية والانكليزية لاحتياجهم الى الاولى في المعاملات والتجارات وكتب الشرع وغيره ولتنافسهم في الثانية لكونها لغة ارباب الحكم . وذلك لان اللغة المالطية لم تدون فيها علوم ولم يشهر فيها كتب فهي عبارة عن الفاظ يتداولونها فيما هو من مقتضيات الاحوال الساقطة دون ان تفي بحاجتهم فيما يقصدونه من وصف او نسيب او وعظ . فاذا ارادوا ذلك فزعوا الى الطليانية وهو دليل على سفالة طبعهم حيث لم يحافظوا من اللغة الّا على المبتذل . واذا اخذوا من الطليانية ما مست الحاجة اليه ملطوه والحقوه بتركيب لغتهم كقولهم مثلا « ما يريبيشيش » اي ما يوافق

و« كونشيته » اي عرفته فهي الاول يآ المضارعة والشين التي يزيدونها بعد النفي وفي الثانية ضمير المتكلم والغائب وكقولهم « عندي بياشير » اي سرور فيجعلون الظرف خبرا مقدما والمجلوب وهو نكرة مبتدا موخرا فهو جار على قواعد العربية وقد قلت فيها في الصبى

نبا لها لغة بغير قرآءة * وكتابة عين بلا انسان
تبلبل الالباب في تركيبها * ويكل عنها كل حد لسان
اذنابها ورؤوسها عربية * فسدت واوسطها من الطلياني

فان قيل ان الاذناب والرؤوس هنا كناية عن اوائل الالفاظ واواخرها كاداة المضارعة وال التعريف ونون الوقاية وهذه باقية على الاصل فلم وصفتها بالفساد قلت ان اداة المضارعة مكسورة عندهم على كل حال وكذا اداة التعريف والضمير غير ظاهر فانهم يلفظون به كالواو . ويحتمل ايضا ان يكون «فسدت» دعآ في المعنى ومع كثرة ما بقي عندهم من مفردات العربية وجلها وتاليفها ولا سيما في الامور المتعارفة كما ذكر فقد ذهب عنهم مرادف الاب وانما يقولون « مسار» بالامالة وكانها محرفة عن « موسيو» بالفرنساوية فان حق التلفظ بها ان يكون « مونسيور» . وكذلك ذهبت عنهم كلمة التحية صباحا ومسآء فيقولون « بن جرنو عليك » ولعل سبب ذلك ان المسلمين لما افتتحوا جزيرة مالطة كانت تحيته بينهم « السلام عليكم » وكان استعمالها مقصورا عليهم كما هو في بلادنا فلم تعرف بين الاهلين . وليس هذا باعجب من ذهاب تحيات العرب العاربة عن المستعربين وقولهم الان «صباح الخير» الظاهر انه مولد . ومن الغريب ان بعض اعيان المالطيين يحاكون الافرنج في اطوارهم وهيئاتهم حتى اذا انطقوا بلغة انفسهم زال عنهم ذلك الرواء وانجلى ذلك الابهام واذا تكلموا خلطوا جملة ايطاليانية باخرى من لغتهم لكن هذه هي الغالبة فانها لغتهم في الطفولية . وقد اخبرني احد فضلائهم انه اقام مدة طويلة في ايطالية فكان حينئذ يقدر خواطره وافكاره بلغة اهلها ثم لما رجع الى مالطة لم يلبث ان عاد الى تقديرها بلغته . فصدق عليه قول الشاعر «كل امرء راجع يوما لشيمته * وان تخلق اخلاقا الى حين » *

واغرب منه ان المالطيين يانفون من تعلم العربية بسبب المثلية بينها وبين لغتهم وهو عين السبب الذي يوجبه عليهم لكونهم والحالة هذه لا يعانون في تعلمها مشقة وعناء . ومع ان المالطيين الذين يعاملون اهل العربية كثير والقاطنين في بلادهم هم اكثر فما احد منهم يهمه ان يتعلم لغتهم قرآة وكتابة على انك تجد في جميع بلدان اوروبا افرادا يدرسونها حق دراستها . ثم ان ارآء الناس لما كان من شانها التفاوت والتباين في جلاء الحقائق ولاسيما اذا كان محل البحث غير منتسق على وتيرة واحدة وكانت اللغة المالطية تشتمل على الفاظ من لغات مختلفة اختلفت فيها الاقوال والاحكام . فزعم بعضهم انها فينيقية لوجود كلمتين فيها منها وهما « البير والصيد » كما مر بك في اول هذا الكتاب وزعم آخرون انها حبشية لوجود لفظة واحدة فيها وهي « المنبر » فان معناها عندهم الكرسي الذي تلد عليه المراة كما هو في الحبشية وهو وهم على ما تحققته من اهل اللغة المذكورة وعلى فرض صحة ذلك فلا ينكر احد ان كثيراً من الكلام العربي الذي بقي في اهل مالطة تستعمل بطريقة المجاز اما بذكر اللازم وارادة الملزوم واما بتخصيص العام وتعميم الخاص كقولهم مثلا « وحلت » للوقوع في الامر الصعب واصله الوقوع في الوحل خاصة . ونحو « الطلاب » للمتكفف وهو اسم فاعل للمبالغة من طلب في كل امر ونحو « مغلوب » للنحيف وهو اسم مفعول من غلب وهو لازم له غالبا و « فتيت » اي قليل وهو من فت الشيء اذا كسرته وصغرت جرمه واشباه ذلك مما لا يحوج الى برهان . فيكون المنبر على هذا مما عدل به عن وجه استعماله تجوزا كما انه عدل به ايضا في العربية الفصحى من التعميم الى الخاص فان معنى النبر في اللغة الارتفاع فالمنبر على هذا آلة الرفع او محله ثم خصص عند قوم بمحل الخطبة وعند غيرهم بكرسي الولادة . وانما قلت آلة الرفع او محله فقد قال الامام الخفاجي على شرح درة الغواص ما نصه : « هذا تحقيق بديع لما فيه من الفرق بين اسم الالة التي تتناول باليد وغيرها فيتعين كسر اول الاول الّا شذوذا فيفتح بعض من الثاني كمرقاة او منارة لانه من وجه آلة ومن وجه مكان وهو فرق

لطيف قل من تنبه له او نبه عليه » اه . والحاصل انه لا شك في كون المالطية عربية ولكني لست ادري اصل هذا الفرع اشامي هو ام مغربي فان فيها عبارات من كلتا الجهتين والغالب عليها الثانية . غير ان الالفاظ الدينية من الاولى فيقولون مثلا « القداس » و « القديس » و « التقرين » و « الاسقف » وما اشبه ذلك مما لا يفهمه اهل المغرب . ومن المالطيين من يقر بان لغتهم غير فينيقية ولا حبشية ولكن لا يكادون يقرون بانها فرع العربية مكابرة وعنادا . ولا يخفى ان كل لغة في العالم لا بد وان يدخلها بعض الفاظ اجنبية اما للحاجة اليها او لتقارب اهل اللغتين واختلاطهما كالعرب والفرس مثلا والرومانيين واليونانيين في الزمن السابق . وهذه اللغة العربية مع سعتها وغزارة موادها وكثرة تصاريفها لم تخل عن الفاظ بعضها من الفارسية وبعضها من اليونانية وبعضها من الحبشية والهندية والسريانية والعبرانية ولم يقل احد ان العربيه فرع عن هذه اللغات . فكيف لعقلاء مالطة ان يقولوا ان لغتهم فينيقية بسبب وجود كلمتين منها فيها ؟ واقبح من ذلك انهم يظنون ان فساد لغتهم وانعكاسها عن اصلها العربي ليس من العيب في شيء قياسا على ان الطليانية انفسخت عن اللاتينية واستقلت بصيغ خاصة بها دون الاصل وهو مدفوع بان العربية لما تنقص دولتها بعد كما انقضت اللاتينية حتى تستقل المالطية بقليل موادها وبان المالطية لم يولف فيها شيء الى الان من كتب العلم والادب ولم يتكلم بها اقوام فالفرق واضح . والحاصل انهم لا يرون فسادها ولا يشعرون بقبحها ضرورة انهم لم يطلعوا على محاسن اصلها الذي حلئوا عنه . نعم ان اهل الشام ومصر والحجاز وغيرهم قاصرون عن اللحاق باهل العربية الفصحى ولكن ما منهم إلّا من يشعر بقصوره عنها ويدري عظم التفاوت بين الطريقين وكل يود لو يصل الى درجة الكمال في معرفتها . وكنت ذات يوم سائرا مع جماعة منهم فاخذ احدهم يصف لغتهم وجعل من محاسنها اجتماع الالفاظ العجمية فيها كانه يقول انها انتقت ما شاق وراق فمثلها مثل العجوز التى رات زوجها يزنى * ولشدة تعصب المالطيين على اهل العربية

وتشنيعهم عليهم اذ كان منتهى السب عندهم ان يقولوا «عربي» كان الانكليز وسائر الافرنج اقرب منهم الى تعلمها غالبا ولو كان عند اولئك ركن منها عظيم . وذلك ان المالطي العنيد اذا سمع في العربية مثلا لفظة «خرج» وكانت عادته منذ نطق ان يقول «حرج» فلا يرى في ذلك كبير فرق ولا يرى ان نقطة صغيرة تقوم المعنى او تفسده بخلاف من يتعلم من اول الامر ان يقول الكلمة على حقها . وكانوا اذا سمعوني وصاحبي نتكلم قالوا ليس من فرق كبير بين اللغتين الّا عجمة في لغتهم يعنوننا ولا يخطر لهم ببال ان لغة لم تضمن بطون الاوراق ولم تضبطها الاحكام النحوية لا تكفي النوع الانساني . وقد تصدى مرة احد مولفيهم الى تاليف كتاب نحو فيها فكتب بعد طالعته «الف بتو اللغة المالطية» ثم ذكر العين بعد الالف فكان خلفا لان جميع اللغات التى تبتدي ابجديتها بهذا العنوان تكتب فيها البآ بعد الالف فلما وقفت على ذلك كتبت له : «يا قائلا الف بتو وبعدها الف عين * ان كان ذا البدء مينا فكل ذا النحو مين» . ويقال ان جميع اللغات القديمة والحديثة تبدا بالالف الّا الحبشية فانه فيها الحرف السابع عشر والظاهر من ترتيب حروف المعجم في العربية والسريانية والعبرية انها اي العربية لا ارتباط بينها وبينهما . ثم ان اهل مالطة يلفظون الغين اينما وقعت عينا والخآ حآء والفلاحون منهم يلفظون القاف همزة ويشمون الالف في نحو قال وباع الضمة وهو غريب فان هو ايضا عند الهمج من الشام وينطقون بالضاد دالا وبالطآء تآء ولا يلفظون العين اذا كانت متطرفة اصلا فيقولون «تلا» اي طلع و «سما» اي سمع ويقال انهم كانوا في القديم يلفظون الثآ على حقها . ومما يضحك منه ان الفلاحين اذا خدموا اهل ڤاليتة غيروا لهجتهم فلفظوا الغين عينا والخآء حآء توهم ان لغة هولاء هي الفصحى . واهل غودش يميلون الالف في نحو فيها ومنها والجميع ينطقون بالجيم نطق اهل الشام الّا في قولهم «جدي» فانهم يلفظونها كاهل مصر . والظاهر ان حق النطق به ان يكون قريبا من مخرج الشين كما في لغة اهل الشام . ففي المزهر في الفائدة الخامسة في النوع التاسع وهو معرفة

الفصيح ما نصه : « قال الشيخ بهآء الدين في عروس الافراح قالوا التنافر يكون اما لتباعد الحروف جدا او لتقاربها فانها كالطفرة والمشي في القيد نقله الخفاجي في سر الفصاحة عن الخليل بن احمد ونعقبه بان لنا الفاظا حروفها متقاربة ولا تنافر فيها كلفظ الشجر والجيش والفم وقد يوجد البعد ولا تنافر كلفظ العلم والبعد ثم راى الخفاجي انه لا تنافر في البعد وان افرط بل زاد فجعل تباعد الحروف شرطا للفصاحة » اه . وقال الاشموني عند ذكر الابدال : « الشين ابدلت من ثلثة احرف الكاف والجيم والسين فالكاف نحو اكرمتك قالوا اكرمتش وهي كشكشة تميم كما تقدم والجيم كما في قوله اذ ذاك حبل الوصال مدمش اي مدمج قال ابن عصفور ولا يحفظ غيره وسهل ذلك كون الجيم والشين متفقين في المخرج » اه . إلّا انه يظهر ايضا ان الجيم كثيرا ما تبدل من القاف والكاف مما يويد مذهب اهل مصر . فمن ابدالها من القاف قولهم قف العشب و « جف » والمقذاف « والمجذاف » وقلمه و « جلمه » والقشم و « الجشم » وشق و « شج » والقرقس و « والجرجس » وقص و « وجز » وتلقف الحوض و « تلجف » والشرق و « الشرج » ونظائر ذلك كثيرة . ومن ابدالها من الكاف قولهم كد و « جد » وكهد و « وجهد » واكن و « اجن » وكرع و « جرع » وكلبة الزمان و « جلبته » والمكالحة و « المجالحة » وعكر به و « عجر » والركس و « الرجس » وما اشبه ذلك . فعلى هذا يكون استعمال اهل مصر له صحيحا ويويده ما ورد في المزهر في النوع الرابع عشر « المهمل على ضربين ضرب لا يجوز ائتلاف حروفه في كلام العرب البتة وذلك كجيم تولف مع كاف او تقديم كاف على جيم وكعين مع غين او حآ مع هآ » اه . وايضا فانهم يعربون مرة بالجيم واخرى بالقاف مثال الاول « الديزج » و « النبريج » ومثال الثاني « الرستاق » و « الفرزدق » وربما ابدلت من الحرفين معا كقولهم « سهجه » و « سهكه » و « سحقه » والذي يظهر لى ان ذلك لغة لبعض العرب غير ان اهل الصعيد والمغاربة واهل الحجاز ينطقون بها كاهل الشام * ثم ان اهل غودش ينطقون بالاحرف الحلقية على حقها إلّا انهم يكسرون ما قبل الواو الساكن فيقولون

« قاعد » وهلم جرا ويقولون « منكم » و « عليكم » بكسر الكاف وهي لغة ربيعة وقوم من كلب كما في المزهر في النوع الحادي عشر وتسمى الوكمة ويقولون « منهم » و « بينهم » وهي ايضا لغة كلب * ومن سفهاء المالطيين من يدعي النظم بلغتهم هذه الفاسدة ويقال عندهم « التقبيل » فمن ذلك قولهم : « ين حنينا ساير نسافر * ساير نسافر ما نحدكش معي * مروهيا بالسلامة * الله يظمك في المحبة تيعي » * وبقي هنا حل ما اعجم من الالفاظ قوله « ين » بمعنى انا و « حنينا » بمعنى حبيب منادى محذوف منه حرف النداء ومن الغريب هنا ان المنادى اذا كان عظيما خطيرا يدخلون عليه اداة النداء من الطليانية فيقولون « اوْمولاي » واذا كان حقيرا اعملوا اداة النداء في العربية فيقولون « يا تفاح » « يا عنب » وقوله « ساير نسافر » هي مثل قول عامة مصر والشام « رايح اسافر » وما الطف هنا عبارة الامام الزمخشري في شرحه لامية العرب اذ قال : « واما المستقبل وان كان معدوما في الحال ولكن هو صار الى الوقوع » والنون في « نسافر » علامة للمفرد المتكلم لا الجمع فانه « نسافرو » وهي لغة اهل المغرب والشين في « ناحدكش » لازمة عندهم بعد النفي والاستفهام كما في العربية الدارجة ومن اهل الشام من يراها ايضا لازمة ولو بعد الجملة فيقولون « ما هو كتيرش » فكان ابرازها ضربة لازب و « ميعي » اصله معي و « مور » فعل امر من « مار » اي ذهب وهو في اللغة كذا و « هيا » اسم فعل بمعنى اقبل وذكره صاحب القاموس مكررا وفسره بانه زجر وهو غريب ولا يبعد ان يكون اصله حي * ويطربني ما روى عن ذلك الاعرابي الذي سمع رجلا يدعو آخر بالفارسية يقول له « زوذ » فقال لاصحابه ما يقول قالوا يقول عجل فقال الا يقول « حي هلك » وعلى حي هلك تخرج الحجية بديعة و « يظمك » اصله اما « يزمك » او « يضمك » وما قبل الضمير المنصوب مضموم وهذا من بعض اثار محاسن العربية القديمة في هذه البلاد والباء من « المحبة » مفتوحة فتحة مشبعة وكذا هي في كل مكان به علامة التانيث نحو « طيبة » و « كبيرة » وهي ايضا من تلك الآثار واحسن من الامالة . فاما « تيعي » فقد خبط فيها بصراؤهم خبط عشواء وذلك لانهم

يدخلون بين المضاف والمضاف اليه لفظة تا فيقولون مثلا « الدار تا الطبيب» فمنهم من زعم انها من الطليانية فان المضاف فيها يفصل من المضاف اليه بلفظة « دي » ومنهم من زعم انها من السريانية فانها فيها كذلك ثم اذا اضافوا تا الى الضمير برزت معه العين فيقولون « تاعنا » فلهذا لم يدركوا اصلها والصحيح انها محرفة من « متاع » فان اهل المغرب يدخلونها كثيرا في الاضافة و يبتدئون بالميم ساكنة على عادتهم من الابتداء بالساكن وتقصير اللفظ وربما قالوا « نتاع » بالنون ساكنة ايضا . فاما العين فان المالطيين لا يكادون ينطقون بها اذا وقعت آخر الكلمة فيقولون « تلا » و « قلا » في طلع وقلع كما ذكرنا آنفا ويحذفونها ايضا فيما اذا اتصل به ضمير فيقولون « طليت » و « قليت » و « وقيت » جريا على حذفها بغير اتصال الضمير . وقلب العين الفا او همزة من اساليب العرب كما في « تنفصى » و « تفصع » و « اقنى » و « اقنع » و « الشما » و « الشمع » و « نكاكا » و « تكعكع » و « زقآء الديك » و « زقاعه » و « قرا » و « قرع » اي « منع » و « زازا » و « زعزع » اي « حرك » و « بدا » و « بدع » و « امراة خباة » و « خبعة » اي تختبى تارة وتبدو اخرى و « الخبآء » و « الخباع » و « الخب » و « الخبع » ونظائر ذلك كثير حتى قلبوها ايضا متوسطة كما في « تارض » و « تعرض » و « دام الحائط » و « دعمه » . فاما تليين الهمزة الفا فاشهر من البينة عليه . وممن حرف ايضا لفظة « متاع » اهل مصر فقلبوا الميم « بآع » وهي لغة لبعض العرب كما في درة الغواص * واعلم ان فصل المضاف عن المضاف اليه باداة اسلوب حسن يفيد التنصيص وذلك ما اذا كان المضاف منعوتا بنعت صالح لان يعود على المضاف اليه ايضا كما في «عذاب الله العظيم» . بخلاف ما لو كان بينهما فاصل والارجح رجوعه الى المضاف كما في المغني * ومن نظم المالطيين ايضا وهو معنى حسن ولكنه مكسو قبيح اللفظ والسبك :
« المحبوب تا قلبي سافر * ليلي ونهاري تبكيح * جعلتلو بدموعي البحر * وبالتنهيدات تا قلبي الريح » . وهو يشبه قول لسان الدين الخطيب :
« والبحر قد خفقت عليك ضلوعه * والريح تبتلع الزفير وترسل »

ومثله قول القاضي الفاضل : « كان ضلوعي والزفير وادمعي * طلول وريح عاصف وسيول » . وقول ابراهيم بن سهل الاشبيلي :

« اذا انست ركبا تكفل شوقها * بنار قراه والدموع بورده »

ومثله ما ذكره علي بن ظافر في بدائع البداءة لابن حير : « شراعها من فوادي وبحرها من دموعي » . وبقي هنا اصلاح فاسد اللفظ : فنقول قد مر شرح « تنا » انها تكون بين المضاف والمضاف اليه و « نبكيح » الحآ مبدلة من الها وهي لغة للعرب ايضا فيقولون « اهرف الرجل » و « احرف » و « الهاضوم » و « الحاضوم » و « المده » و « المدح » و « تاه » و « تاح » و « شقه النخل » و « شقحها » وقوله « البحر » جار على القياس من ان الاسم الثلاثي الذي اوسطه حرف حلق يجوز الفتح فيه نحو « شعر » و « شعر » و « نهر » و « نهر » . قال الامام الخفاجي في شرح درة الغواص : قال ابن جني في المحتسب قرا سهيل بن شعيب السهمي جهرة وزهرة في كل موضع محركا ومذهب اصحابنا في كل حرف ساكن بعد فتح لا يحرك إلّا على انه لغة فيه كالنهر والنهر والشعر والشعر ومذهب الكوفيين انه يجوز تحريك الثاني لكونه حرفا حلقيا قياسا مطردا كالبحر والبحر وما ارى الحق إلّا معهم » اه .

ومما انشدنيه احدهم بحضر جماعة :

« ينا اشتقت نجي فوق سدتك * نجي شبيهه تا عصفور
نطفي المصباح بجوانحي * نعطيك بوسه ونرجع نمور » .

فقلت له : لو قلت ناخذ بوسه لكان اولى لان من ياخذ هنا خير ممن يعطي فلم يفهم واستعادنيها فاعدتها عليه فلم يفطن لها لا هو ولا هم ايضا لان العاريض والمطارحات عندهم في كساد عظيم . والمراد بالسدة عند المالطيين نفس الفراش وهو في اللغة باب الدار وعندي ان قدمآء المالطيين كانوا همجا يرقدون على الابواب فسموا كل مرقد سدة تجوزا كما انهم سموا كل مكنسة مسلحة وهي في الاصل آلة للسلخ ولكذا كانوا يستعملونها ثم اطلقوها على كل ما ينظف به المكان ولهذا نظائر كثيرة . إلّا ان اهل طرابلس الغرب يستعملون السدة ايضا بمعنى الفراش . وقد ذكرت يوما لاحد ممن يتوسم فيه

الادب من اهل مالطة سعة العربية في البديع وخصوصا التورية فقال وكذا هي المالطية وذكر هذه الجملة وهي « عندك تينا تا اللحم » فقال « تينا » هنا يحتمل ان تكون مضارعا من « تيته » يريد من آتيته او اعطيته و « تا اللحم » يحتمل ان يكون معناها ما يخص اللحم اي ثمنه و « عندك » هنا اغرآء وعلى المعنى الثاني يحتمل ان تكون لفظة تينا مفرد التين وتا اللحم مضاف اليها اي « تينة لحم » والمعنى « عندك تينة لحم » كناية عن الاست واغرآوهم بعند ليس على القياس فانهم يدخلونها على الافعال خاصة . ومن توريانهم ايضا قولهم « علاه من غيرما » يوهمون به من غلاء السعر . ومما بقي عندهم من فصيح العربية قولهم « دار نادية » وحقها ندية ولكنها افصح من قول اهل مصر والشام ناطية و « قابلة » اي داية و « خطر » و « مخاطرة » اي رهان و « غرفة » اي علية وقولهم في الدعآء « عمروا وتمروا » و « بدا لي » اي عن لي و « تطاول » و « يشرف » و « صديد » و « بطحآء » و « تجالدوا » وهو افصح من تعاركوا و « زفن » اي رقص و « بوقال » وهي افصح من قول اهل الشام « شربة » او « نعارة » و « يماري » اي لا يقنع بالحق و « يشرق بالمآء » و « يستقصي » و « فرصاد » للتوت و « سفود » واهل الشام يقولون « سيخ » و « شيش » وقد ورد في كلام النابغة الذبياني بقوله « سفود شرب نسوه عند مفتاد » و « تنفزز » تباعد من الادناس و « عسلوج » للقضيب و « جلوز » وهو البندق الذي يوكل . ولكن هذه الالفاظ كلها مستعملة في الغرب وبهذا يترجح ان اصل المالطيين من المغاربة . ومن ذلك ضمهم آخر الفعل المضارع احيانا نحو « يحسبك » و « يبدلك » وقولهم « وعدة » و « وزنة » وهما اسمان من وعد ووزن لا مصدران ولذلك سلم فآوهما كما قال الحماسي « واذا اتى من وجهة بطريفة * لم اطلع مما ورآء خبآئه » قال الشارح ومن روى من وجهه فمعناه من سفره الذي توجه اليه ويروى لم اطلع ماذا ورآء خبائه ومعنى البيت لم اعرض نفسي عليه متعرفا ما جآء به من سفره ليشركني في طرفه يجعلني اسوة نفسه * ومما يضحك من كلامهم قولهم هذا رجل من الكلاب

وامراة من الحميريعنون ذكرا وانثى لانه ليس عندهم لفظ مرادف للذكر فيضطرون الى هذا التعبير القبيح ويقولون « عمل اللحية » اي حلق وجهه وكذلك اذا حلق شعر جانبه ايضا . ويقول احدهم للاخر عند الابانة والافصاح « نكلمك بالمالطي » اي ان هذا الكلام قد بلغ من البيان بحيث لا يبقى للسامع محل للشك فيه . ويكثرون من جملة قال لي يكررونها في اثناء الكلام مرارا . واذا قصدوا توكيد خبر كرروا اللفظ خمس مرات فاكثر فيقولون « ما رايتوش قط قط قط قط قط » و« ما كان ليش فلوس خلاف دا بز بز بز بز بز » اي بس و« جاده كله كله كله كله » و« ما يسوى شي شي شي شي شي » ونحو ذلك . ومن اوزان كلامهم فاعلة للمصدر فيقولون « عماته بالواقفة » او « بالقاعدة » . قال شارح الشافية : « اعلم ان مجيء المصدر على وزن فاعلة اقل من مجيء المصدر على وزن مفعول كالعافية نحو « عافاه الله عافية » والعاقبة نحو « عقب فلان مكان ابيه عاقبة » وكالباقية كقوله تعالى « فهل ترى لهم من باقية » اي بقاء وكالكاذبة كقوله تعالى « ليس لوقعتها كاذبة » اي كذب » اه . واهل الشام يقولون « يطلع بالطالع . و« ينزل بالنازل » . ومن وزن فعل نحو « سدد » و« حرر » وهو نادر والاسماء الثلاثة التي اوائلها ضمة يتبعونها ضمة اخرى نحو « عمر » و« شغل » وهو ايضا جار على القياس وكذلك التي اوائلها كسرة نحو « عجل » و« رجل » . ومن قبيح عادتهم في الكلام هم وسائر الافرنج توجيه ما يسوء من القول للمخاطب بدون محاشاة فيقولون مثلا « اني احبك ما دمت حيا » و« هذا الحر يقتلك » و« هذا النبات يقطع لك مصارنك » اي مصارينك و« هذا التراب يعميك » و« اذا مت جاء الطبيب وشرح جسمك عضوا عضوا » او يقول لك العائد « لا تله عن دائك فانه قتال » وغير ذلك مما يقتضي فيه الاطلاق . الا ترى ما قاله سيد الفصحاء والبلغاء « حبك الشيء يعمي ويصم » ولم يقل « يعميك ويصمك » وان يكن المعنى عليه ? فاما امالة صوتهم عند الكلام وهي التي تسميها الافرنج « امفازس » فغريبة على من لم يتعود سماعها . فان لهم مدا في الصوت وانخفاضا غير مالوف لاهل العربية حتى ان الانكليز المولدين

الادب من اهل مالطة سعة العربية في البديع وخصوصا التورية فقال وكذا هي المالطية وذكر هذه الجملة وهي « عندك تينا تا اللحم » فقال « تينا » هنا يحتمل ان تكون مضارعا من « تيته » يريد من آتيته او اعطيته و « تا اللحم » يحتمل ان يكون معناها ما يخص اللحم اي ثمنه و « عندك » هنا اغرآء وعلى المعنى الثاني يحتمل ان تكون لفظة تينا مفرد التين وتا اللحم مضاف اليها اي « تينة لحم » والمعنى « عندك تينة لحم » كناية عن الاست واغرآوهم بعند ليس على القياس فانهم يدخلونها على الافعال خاصة . ومن توريانهم ايضا قولهم « علاه من غير ما » يوهمون به من غلاء السعر . ومما بقي عندهم من فصيح العربية قولهم « دار نادية » وحقها ندية ولكنها افصح من قول اهل مصر والشام ناطية و « قابلة » اي داية و « خطر » و « مخاطرة » اي رهان و « غرفة » اي علية وقولهم في الدعآء « عمروا وتمروا » و « بدا لي » اي عن لي و « تطاول » و « يشرف » و « صديد » و « بطحآء » و « تجالدوا » وهو افصح من تعاركوا و « زفن » اي رقص و « بوقال » وهي افصح من قول اهل الشام « شربة » او « نعارة » و « يمارى » اي لا يقنع بالحق و « يشرق بالمآء » و « يستقصي » و « فرصاد » للتوت و « سفود » واهل الشام يقولون « سيخ » و « شيش » وقد ورد في كلام النابغة الذبياني بقوله « سفود شرب نسوه عند مفتاد » و « تنغزز » تباعد من الادناس و « عسلوج » للقضيب و « جلوز » وهو البندق الذي يوكل . ولكن هذه الالفاظ كلها مستعملة في الغرب وبهذا يترجح ان اصل المالطيين من المغاربة . ومن ذلك ضمهم آخر الفعل المضارع احيانا نحو « يحسبك » و « يبدلك » وقولهم « وعدة » و « وزنة » وهما اسمان من وعد ووزن لا مصدران ولذلك سلم فآوهما كما قال الحماسي « واذا اتى من وجهة بطريفة * لم اطلع مما ورآء خبآئه » قال الشارح ومن روى من وجهه فمعناه من سفره الذي توجه اليه ويروى لم اطلع ماذا ورآء خبائه ومعنى البيت لم اعرض نفسي عليه متعرفا ما جآء به من سفره ليشركني في طرفه يجعلني اسوة نفسه * ومما يضحك من كلامهم قولهم هذا رجل من الكلاب

وامراة من الحميريعنون ذكرا وانثى لانه ليس عندهم لفظ مرادف للذكر فيضطرون الى هذا التعبير القبيح ويقولون « عمل اللحية » اي حلق وجهه وكذلك اذا حلق شعر عانته ايضا . ويقول احدهم للاخرعند الابانة والافصاح « نكلمك بالمالطي » اي ان هذا الكلام قد بلغ من البيان بحيث لا يبقى للسامع محل للشك فيه . ويكثرون من جملة قال لي يكررونها في اثناء الكلام مرارا . واذا قصدوا توكيد خبر كرروا اللفظ خمس مرات فاكثر فيقولون « ما رايتوش قط قط قط قط قط » و « ما كان ليش فلوس خلاف دا بز بز بز بز بز » اي بس و « حاده كله كله كله كله » و « ما يسوى شي شي شي شي شي » ونحو ذلك . ومن اوزان كلامهم فاعلة للمصدر فيقولون « عماته بالواقفة » او « بالقاعدة » . قال شارح الشافية : « اعلم ان مجيء المصدر على وزن فاعلة اقل من مجيء المصدر على وزن مفعول كالعافية نحو « عافاه الله عافية » والمعاقبة نحو « عقب فلان مكان ابيه عاقبة » وكالباقية كقوله تعالى « فهل ترى لهم من باقية » اي بقاء وكالكاذبة كقوله تعالى « ليس لوقعتها كاذبة » اي كذب » اه . واهل الشام يقولون « يطلع بالطالع . و « ينزل بالنازل » . ومن وزن فعل نحو « سدد » و « حرر » وهو نادر والاسماء الثلاثة التي اوائلها ضمة يتبعونها ضمة اخرى نحو « عمر » و « شغل » وهو ايضا جار على القياس وكذلك التي اوائلها كسرة نحو « عجل » و « رجل » . ومن قبيح عادتهم في الكلام هم وسائر الافرنج توجيه ما يسوء من القول للمخاطب بدون محاشاة فيقولون مثلا « اني احبك ما دمت حيا » و « هذا الحر يقتلك » و « هذا النبات يقطع لك مصارنك » اي مصارينك و « هذا التراب يعميك » و « اذا مت جاء الطبيب وشرح جسمك عضوا عضوا » او يقول لك العائد « لا تله عن دائك فانه قتال » وغير ذلك مما يقتضي فيه الاطلاق . الا ترى ما قاله سيد الفصحاء والبلغاء « حبك الشيء يعمي ويصم » ولم يقل « يعميك ويصمك » وان يكن المعنى عليه ؟ فاما امالة صوتهم عند الكلام وهي التي تسميها الافرنج « امفازس » فغريبة على سن لم يتعود سماعها . فان لهم مدا في الصوت وانخفاضا غير مالوف لاهل العربية حتى ان الانكليز المامدين

بمالطة يجرون هذه الامالة في لغة انفسهم انعداماً من المالطيين وقد يعد هذا النوع عند الافرنج من لوازم الفصاحة ولكن ليس كالذي يجريه المالطيون فانهم فيه مشطون . وهو يكاد ان يكون في العربية مفقود الاسم والمسمى او لعله هو « اللهجة » . وقد لاحظت في اثنآء قرآة المشايخ انهم كانوا يمدون صوتهم عند التباس المعنى ترويا فيما يستقبلونه فكان هذا المد ضرب منه . ومما يضحك منه ان للمالطيين لازمة في الكلام يكررونها وهي « سميتس » محرفة عن « سمعت » فعلا ماضيا والشين لازمة بعد الاستفهام كما هي بعد النفي . ولما كان الانكليز يسمعونها منهم مرارا اطلقوها علما على من يجهلون اسمه عند النداء كقولك « فلان » ثم سموا بها الولدان الذين يرصون السفرة وجمعه « سميتشيات » ثم ان بقآء اللغة العربية في جزيرة مالطة ولو محرفة مع عدم تقييدها في الكتب دليل على ما لها من القوة والتمكن فيمن تصل اليه من الاجيال . الا ترى ان مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون اهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتهيا لهم وثبتوا محافظين على ما عندهم منهم خلفا بعد خلف ؟ وهولاء الانكليز يزعمون ان لغتهم ستكون اعم اللغات جميعا واشهرها وما كان لهم ان يعمموها عند المالطيين . نعم ان الخاصة منهم يتعلمونها ولكن ليسوا عليها بمطبوعين فان مكالماتهم ومحاوراتهم بين اهليهم انما هي بالمالطية لا غير . وليس الطبع كالتطبع ولا الكحل كالتكحل . ويقال ان الذي تحصل عند اهل مالطة من العربية مما هو مانوس الاستعمال وغير مانوسه يبلغ عشرة الاف كلمة . مع ان الذي جمع ذلك جرى على طريقة الافرنج من انهم يقيدون في كتب اللغة جميع الالفاظ المشتقة كاسم الفاعل والمفعول والالة والاسم المنسوب . والّا لكان هذا القدر كافيا في المحاورات للافصاح عما في الخاطر . فاما في الكتب فلا . ولا احسب الكلام المستعمل الان في بر مصر والشام يزيد على هذا القدر . غير ان اهل الشام فيما اظن اكثر مواد من اهل مصر كما ان هولاء احسن منهم نسق عبارة والله اعلم *

تم الجزء الاول

المسمى بالواسطة الى معرفة مالطة

الجزء الثاني

المسمى «كشف المخبا عن فنون اوربا»

في الساعة العاشرة من صباح السبت الموافق لثاني يوم من ايلول سنة ١٨٤٨ سافرنا من مالطة وبعد نحو ساعتين غابت عنا ارضها ولكن لم اقل كما قال الشريف الرضى :

« وتلفتت عيني فمذ خفيت * عنها الطلول تلفت القلب»

وبعد خمس ساعات ظهرت لنا ارض جزيرة صقلية وفي نحو الساعة الثامنة من صباح الغد ارسينا في مرسى مسينى . وكان فيه يومئذ بوارج ملك نابولي لحصار البلد فكانت تطلق المدافع عليه وياتيها جوابها من القلعة . فلذلك لم نقم بها الّا بعض دقائق . ويقال ان سكان صقلية الاقدمين كانوا من اسبانية وكان يقال لهم سيكاني . ثم قدم اليها الاطروسكان من ايطالية في سنة ١٢٩٤ قبل الميلاد . ثم استوطنها الفينيقيون واليونانيون . ثم جاء القرطاجنيون واستولوا على الجزيرة كلها الى ان اخرجهم منها الرومانيون . وفي سنة ٨٢١ (للميلاد) فتحها المسلمون وجعلوا مقر الحكومة في بالرمو ولبثوا فيها مائتي سنة الى ان اخرجهم منها الامير روجر النورماني . وفي تاريخ الرومانيين لغيبون انها فتحت في زمن المامون في سنة ٨٢٣ . وزعم بعض المورخين انها كانت متصلة بالارض ففصلتها الزلازل المتتالية . وفي نحو الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين بلغنا نابولي . وهي مدينة ظريفة مشهورة بكثرة العواجل والملاهي والحظ والمتنزهات الزهية والفاكهة الرخيصة الطيبة . وفيها عدة كنائس حسنة . واحسن طرقها حيث الحوانيت العظام الطريق المسمى توليدو . ولولا ان مملكة نابولى عرضة للزلازل لكانت احسن بقاع الارض لخصبها وهوائها . ثم سافرنا منها في ذلك اليوم فوصلنا الى شيفتا فكية في صباح الثلاثا فاقمنا فيها ساعات . وليس فيها شيء يقر العين . ثم سافرنا منها يوم الثلاثا وقد تزودنا بعض فاكهة فوصلنا الى ليكورنه في صباح الاربعاء . وظاهر هذه المدينة للناظر دون ظاهر نابولي لكنها

بمالطة يجرون هذه الامالة في لغة انفسهم انعدآءً من المالطيين وقد يعد هذا النوع عند الافرنج من لوازم الفصاحة ولكن ليس كالذي يجريه المالطيون فانهم فيه مشطون . وهو يكاد ان يكون في العربية مفقود الاسم والمسمى او لعله هو « اللهجة » . وقد لاحظت في اثنآء قرآة المشايخ انهم كانوا يمدون صوتهم عند التباس المعنى ترويا فيما يستقبلونه فكان هذا المد ضرب منه . ومما يضحك منه ان للمالطيين لازمة في الكلام يكررونها وهي « سميتس » محرفة عن « سمعت » فعلا ماضيا والشين لازمة بعد الاستفهام كما هي بعد النفي . ولما كان الانكليز يسمعونها منهم مرارا اطلقوها علما على من يجهلون اسمه عند النداء كقولك « فلان » ثم سموا بها الولدان الذين يرصون السفرة وجمعه « سميتشيات » ثم ان بقآء اللغة العربية في جزيرة مالطة ولو محرفة مع عدم تقييدها في الكتب دليل على ما لها من القوة والتمكن فيمن تيصل اليه من الاجيال . الا ترى ان مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون اهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتهيا لهم وتبوا محافظين على ما عندهم منهم خلفا بعد خلف ؟ وهولاء الانكليز يزعمون ان لغتهم ستكون اعم اللغات جميعا واشهرها وما كان لهم ان يعمموها عند المالطيين . نعم ان الخاصة منهم يتعلمونها ولكن ليسوا عليها بمطبوعين فان مكالماتهم ومحاوراتهم بين اهليهم انما هي بالمالطية لا غير . وليس الطبع كالتطبع ولا الكحل كالتكحل . ويقال ان الذي تحصل عند اهل مالطة من العربية مما هو مانوس الاستعمال وغير مانوسه يبلغ عشرة الاف كلمة . مع ان الذي جمع ذلك جرى على طريقة الافرنج من انهم يقيدون في كتب اللغة جميع الالفاظ المشتقة كاسم الفاعل والمفعول والالة والاسم المنسوب . والّا لكان هذا القدر كافيا في المحاورات للافصاح عما في الخاطر . فاما في الكتب فلا . ولا احسب الكلام المستعمل الان في بر مصر والشام يزيد على هذا القدر . غير ان اهل الشام فيما اظن اكثر مواد من اهل مصر كما ان هولاء احسن منهم نسق عبارة والله اعلم *

تم الجزء الاول

المسمى بالواسطة الى معرفة مالطة

الجزء الثـاني

المسمى «كشف المخبا عن فنون اوربا»

في الساعة العاشرة من صباح السبت الموافق لثاني يوم من ايلول سنة ١٨٤٨ سافرنا من مالطة وبعد نحو ساعتين غابت عنا ارضها ولكن لم اقل كما قال الشريف الرضى :

« وتلفتت عيني فمذ خفيت * عنـا الطلـول تلفت القلب»

وبعد خمس ساعات ظهرت لنا ارض جزيرة صقلية وفي نحو السـاعة الثامنة من صباح الغد ارسينا في مرسى مسينى . وكان فيه يومئذ بوارج ملك نابولي لحصار البلد فكانت تطلق المدافع عليه وياتيها جوابها من القلعة . فلذلك لم نقم بها إلّا بعض دقائق . ويقال ان سكان صقلية الاقدمين كانوا من اسبانية وكان يقال لهم سيكاني . ثم قدم اليها الاطروسكان من ايطالية في سنـة ١٢٩٤ قبل الميلاد . ثم استوطنهـا الفينيقيون واليونانيـون . ثم جآء القرطاجنيون واستولوا على الجزيرة كلها الى ان اخرجهم منها الرومانيون . وفي سنة ٨٢١ (للميلاد) فتحها المسلمون وجعلوا مقر الحكومة في بالرمو ولبثوا فيها مائتي سنة الى ان اخرجهم منها الامير روجر النورماني . وفي تاريخ الرومانيين لغيبون انها فتحت في زمن المامون في سنة ٨٢٣ . وزعم بعض المورخين انها كانت متصلة بالارض ففصلتها الزلازل المتتالية . وفي نحو الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين بلغنا نابولي . وهي مدينة ظريفة مشهورة بكثرة العواجل والملاهي والحظ والمتنزهات الزهية والفاكهة الرخيصة الطيبة . وفيها عدة كنائس حسنة . واحسن طرقها حيث الحوانيت العظام الطريق المسمى توليدو . ولولا ان مملكة نابولي عرضة للزلازل لكانت احسن بقاع الارض لخصبها وهوائها . ثم سافرنا منهـا في ذلك اليوم فوصلنا الى شيفتا فكية في صباح الثلاثا فاقمنا فيها ساعات . وليس فيها شيء يقر العيـن . ثم سافرنا منها يوم الثلاثا وقـد تزودنا بعض فاكهة فوصلنا الى ليكورنه في صباح الاربعاء . وظاهر هذه المدينة للناظر دون ظاهر نابولي لكنها

من داخل اكبر (١) وطرقها اوسع وبناّوها من الاجر المحكم وديارها شاهقة
إلّا انها ليس لطرقها ممشى على الجوانب للناس وكذا هي مدينة نابولي
ومرسى لينكورنة حسن وفيها ملهى وعدة اعلام ومدارس لليهود هو اعظم من
سائر مداريسهم في اوربا ومكتبة موقوفة . وهي ذات اشغال وتجارة واهلها
ستة وسبعون الفا . وفي القرن الثالث عشر لم تكن إلّا قرية حقيرة . ثم
سافرنا منها الى جينوى فبلغناها فجر الخميس . وهذه المدينة مشهورة بكثرة
البروج العالية والديار الشاهقة جدا . وفيها قصور كثيرة من المرمر وبساتين
ناضرة وفاكهة طيبة . وهي في نجوة من الارض متفاوتة الوضع وطرقها
اضيق من طرق ليكورنه ولهذا كانت عواجلها اقل من تلك . إلّا ان الشمس
لا تستحكم في مسالكها لكثرة شرفات الذيار المائلة . فكانها مبنية من اصلها
لحجب الشمس . وفيها حوانيت بهيجة ولاسيما حوانيت الصاغة ولها قنطرة
قديمة شاهقة جدا اذا نظرت منها الى الحضيض هالك ارتفاعها . وفيها الفاكهة
الطيبة والخبز النظيف ومحل قهوة في غيضة مايجة وهي في الحقيقة نزهة
للناظرين وما اشبهها إلّا بدمشق . وليس على مَن يدخلها ان يدفع شيئا .
كان تأسيسها في سنة ٧٠٧ قبل الميلاد وكانت في زمن دولة الرومانيين حافلة
غناء . وفي القرن الحادي عشر امتدت تجارتها بحرا وبرا وفي مدة الحروب
الصليبية صارت مضاهئة لفينيس (اي البندقية) في الغنى والثروة حيث
كانت موردا للعساكر التي كان يراد تجريدها الى البلاد المشرقية . ثم وقع
فيها من الفتن والتحزب ما اضعف دولتها فدخلت في حماية دولة فرنسا
ثم في عهدة شارلكان (اي كارلوس الخامس الشهير) فاستخلصها من الفرنساوية
وصارت تتحزب مع اسبانيا عليهم . وفي سنة ١٧٩٦ استولت عليها الفرنساوية
وفي سنة ١٨٠٠ حاصرهم فيها الانكليز والروس وعساكر اوستريا حصارا شديدا
فاضطروا الى تسليمها ثم رجعت الى عهدة فرانسا . وفي سنة المهادنة وهي
سنة ١٨١٤ سلمت لملك سردينية * ثم سافرنا منها يوم الخميس بعد الظهر فبلغنا
مرسيلية في الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة . ولهذه المدينة مرسى عظيم
يسع الفا وماتتي سفينة ولا يزال مشحونا بالسفن النارية ولكثرة ورود المراكب

اليها قطعوا خليجا من البحر ووصلوه به . وفيها عدة مدارس وملهى يعد من احسن ملاهي اوربا وبستان للنباتات ومكتبة موقوفة ومصرف فسيح وفي ضواحيها اكثر من خمسة آلاف دار لها تجارة واسعة مع المشرق وافريقية واميركا وانكلترة والبحر الاسود كان تاسيسها في سنة ٥٩٩ قبل الميلاد وكانت في الزمن القديم ملحقة بولايات الرومانيين ومنها توصلوا الى فتح فرنسا . وفي هذه المدينة محال عظيمة للقهوة مغشاة حيطانها وسقوفها بالمرايا والنقوش والتماثيل وامامها مصاطب يقعد عليها الناس وان لم يشتروا شيئا منها . واهل المدينة يصرفون فيها اكثر اوقاتهم كل طبقة منهم تنتاب محلا خاصا بها . وفي بعضها ترى قيانا حسانا يغنين وهن كاشفات الصدور . وعند ملهاها عدة ديار تسكنها المومسات يستدعين بالغادي والرائح . وهي وسخة الحارات والاطراف لكنها بهية الحوانيت والديار مبلطة الطرق وليس في ديارها مراحيض وانما يجمعون اقذارهم في وعاء الى ان ياتي رجل معه عجلة وعليها برميل كبير فيناولونه الوعاء فيفرغه في البرميل وما يجمعه فيه فانه يبيعه لتدميل الارض . ولا اعرف مدينة اخرى بهذه الصفة . ومنهم من يقذف بالاقذار امام البيوت ليلا فلهذا يشم الماشي في اكثر طرقها رائحة كريهة . وماؤها في بعض الديار اجاج ولعدم الاكتفاء به نهروا اليها نهرا كبيرا من مسافة نحو ستين ميلا . فاحوج ذلك الى ان ينقبوا له بعض الجبال . ثم بنوا عليه جسرا عظيما يشتمل على نحو ثلثة صفوف من القناطر بعضها فوق بعض وفي كل صف خمسون قنطرة . وارتفاع علياها من الحضيض نحو مائة وعشر اذرع وعرض الماء الجاري فيه تسع اذرع ونصف في علو مثلها . وجميع احجار هذا الجسر ضخمة جزيلة . وبعد اجراء هذا النهر كثرت عندهم الحياض والعيون ووفرت الفاكهة والبقول وصارت بساتينها في غاية الريع والنضارة . وفي هذه المدينة عدة عرصات محفوفة بالشجر يتمشى فيها الناس وتضرب فيها آلات الطرب العسكرية . وفي احد هذه الماشي حوانيت تفتح خمسة عشر يوما في السنة تجمع اليها جميع التحف والطرائف واكثر البائعة فيها بنات حسان فاذا مررت بحانوت حرت بين ان تنظر الى البائعة

او الى البياعة . وفيها يوجد ايضا محل للعب والغناء واللهو ومشاهدة غرائب الاشياء مصورة على خارج المحل دليلا على وجود اعيانها . وقد اخبرني من يوثق به انه شاهد فيها امراة ورجلا قد عصب على عينيها بمنديل لكيلا تبصر الحاضرين ثم جعل ياخذ من بعضهم خاتما ونحوه ويجعله في كفه مطبقة عليه ثم يسال المراة عما بيك فتجيبه ولا تخطي . وانه اخذ درهما قيمته عشرون فرنكا وسالها فقالت في يدك درهم قيمته عشرون فرنكا فقال ويحك ليس في هذه البلاد درهم على هذا الضرب فقالت انه من ضرب الصين وكان كذلك . وسالها مرة اخرى عن درهم فرنساوي فاجابته بانه يساوي كذا وانه ضرب في عام كذا . فلما سمعت ذلك اعظمته لما انه كان اول مرة طرق مسمعي . ثم لما شاهدته عدة مرار مراى العين في باريس ولندرة سقط اعتباره من بالي اذ تحققت ان مع السوال الذي يلقيه الرجل على المغمض العينين ينبهه على نوع ذلك الشي المسئول عنه بلحن من القول لا يدركه الّا هو وعلى كل حال ففي التلقين والتلقن حذق ودربة . وفي الجملة فان مرسيلية انما يستحسنها من قدم اليها من البلاد المشرقية لا من باريس ولندرة . ثم سافرنا من هذه المدينة في الساعة الرابعة يوم الاحد في سكة الحديد فكان البحر عن شمالنا والجبال والغياض عن يميننا فلم يكن منظر ابهج منه . واظن ان بلاد فرنسا اكثر بلاد الدنيا غياضا وحدائق . وكثيرا ما كنا نسير في المجد نحو ساعة بين الاجم . والسبب في تكثيرها احتياجهم الى الوقيد بخلاف بلاد الانكليز فان اكثرها سهول لاستغنائهم عن الحطب بفحم الحجر . وفي فرنسا الجنوبية تنبت جميع الاشجار المعروفة عندنا وذلك كالتين والاترنج والعنب والزيتون والليمون مما هو معدوم في بلاد الانكليز غير ان كروم العنب عندهم لا تبلغ في النمو والكبر كروم الشام . وفي مسافة الطريق دخل الرتل في قبوة مظلمة منقورة في الصخور فسار فيها نحو عشر دقائق فكان امرا عظيما لمن لم يرمثله من قبل . ثم بلغنا مدينة ليون بعد سفر نحو اربع ساعات لم يغب فيها عن ابصارنا ذلك المنظر البديع . وهذه المدينة هي وسخة الطرق والازقة غير انها حسنة الموقع وحوانيتها واسعة

عظيمة وفيها معامل لثياب الحرير والقماش والاولى لا يعلو عليها شيء . فاما الشريط ونحوه فانه يصنع في صنت اتيان . ولها مماش حسنة وملهى عظيم ومدارس عديدة ومدرسة سلطانية ومحكمة جليلة هي من فاخر البنآء ومكتبة موقوفة ومتحف وبستان للنباتات وعدد اهلها ثلثمائة وثلثون الفا . وفيها يجتاز نهران احدهما يقال له «دون» والثاني «صون» تسير فيهما سفن النار مشحونة بالبضائع وتمر على جملة مدن من بلاد فرنسا . ثم يلتقيان ويصيران نهرا واحدا ممتدا الى بحر مرسيلية . ولا تكاد تمضي سنة من دون ان تزخر شواطئه على الارضين * وقد طغى في هذه السنة حتى كانت الناس تسير في شوارع المدينة في قوارب . فهدم كثيرا من البيوت والجسور واهلك كثيرا من الماشية والناس واتلف الغلال فيما جاوره . فانتخى سائر سكان فرنسا الى امدادهم واغاثتهم واقتدى بهم الانكليز ايضا . وعلى هذا النهر جسور من حديد وحجر وعدة مغاسل للنسآء . ثم سافرنا منها في الساعة الرابعة من يوم الثلاثا في المجد المعروف بالدلجانس فبلغنا برجا في الساعة السادسة من اليوم الثاني . ومنها سافرنا في سكة الحديد الى باريس فوصلنا اليها في الساعة الرابعة من صباح الخميس . وسيأتي وصف هذه المدينة بعد فراغي من وصف انكلترة ان شآء الله . ولما وصلنا اليها كانت السياسة بيد الجمهورية اذ كانوا قد خلعوا الملك لوي فيليب عن الملك ففر بنفسه واهله الى بلاد الانكليز ملجا الفارين ومامن القارين . ومعما حصل فيها وقتئذ من الشغب وسفك الدمآء فلم يكد الانسان يتميز المغبوط من اهلها من المبتئس فلم تزل منتزهاتها لم تزل حافلة بالناس . ثم بعد ان لبثنا يومين في باريس سافرنا في سكة الحديد الى كالي او كالس وذلك في الساعة الثانية بعد الظهر يوم الاربعاء الواقع في السابع والعشرين من ايلول فبلغناها في الساعة السابعة ونصف مسآء وكالي هذه احدى مدن فرنسا المقابلة لانكلترة وهي دون بولون وكانت سابقا تحت استيلاء الانكليز ايام حروبهم مع الفرنساوية وبقيت في ايديهم مائتين وثلث عشرة سنة . ثم استرجعها الفرنساوية في عصر الملكة ماري سنة ١٥٥٨ . فلما بلغها الخبر اظهرت الحزن الشديد ما قيل انه كان سبب موتها وقالت :

« اموت وفي قلبي اسم كالي مكتوبا » . فكانت كالي عندها اخت حتى عند القرآء وبقيت نورماندي وانجو وميين وطورين و بواتو وبريتاني وغيرها نحو سنة ٢٩٢ . واوفق لنا ان وجدنا سفينة النار معدة للسفر الى لندرة فركبنا فيها وسارت ماخرة بنا واول ما دخلت في نهر تامس انحجبت عنا الشمس واكتسى الجو سحابا وكان يوما ماطرا مظلما يقضي بالاسف على شمس فرنسا . وهذا النهر يختلط بالبحر الملح وتسير فيه السفينة نحو خمس ساعات الى لندرة والسفر فيه بهيج من جهة ان السفينة تسير فيه سيرا خفيفا لا اضطراب فيه وترى فيه من سفن النار الصاعدة والمنحدرة ما يشغل الخاطر . ويحكى عن الملك جامس الاول الذي الحق حكومة مملكة سكوتلاند بانكلترة انه لما نقم على اهل لندرة اشيآء انكرها اراد ان ينقل ديوانه منها فقال له ضابط البلد الذي يسمونه « مير » اذا كان لابد من ذلك فلا تنقل نهر التامس معك . وهو كلام بليغ يشير الى ان اهل المدينة ربما يستغنون عن الملك بوجود هذا النهر لانه من اعظم الاسباب الميسرة للتجارة ولولاه لما حصلت لندرة على هذه الثروة والنعمة . والماكول والمشروب في هذه السفن التي تنقل الركاب من فرض بلاد فرنسا الى بلاد الانكليز غاليان جدا . فان قنينة الشراب في تلك الفرض تساوي فرنكا وفي السفن ستة فرنكات . ثم لما بلغنا لندرة اخذت اثقالنا الى ديوان المكس وفتشت فلم يجدوا فيها ما يوجب الادآء . إلّا انا ادينا على كل صندوق وكل حاجة مستقلة نحو خرج وغيره نصف شلين . ثم تبوانا محلا في احدى الديار وبعد ان استرحنا سافرنا منها في سكة الحديد الى بلدة « وير » بقصد المسير منها الى القرية التي يسكن فيها دكطور « لي » الذي اعتمدته الجمعية لان يكون معارضا ترجمتي بالاصل الذي اترجم منه . وكان للمذكور شهرة عظيمة عند الانكليز في معرفة اللغات الشرقية . وكان في مبدا امره نجارا لكنه اكب على العلم وقد فات الثلاثين سنة فحصل معلومات غير يسيرة غير انه لم يتمكن من اللغات التي حاولها وسياتي ذكره بعد هذا . وحيث كان اسم القرية المذكورة مكتوبا على اثقالنا فلما بلغ الرتل اليها وضعوها في الموقف ونحن لم نشعر بذلك وبقينا

سائرين فيها حتى اذا وقف مرة ثانية وسالنا عنها اخبرنا باننا تجاوزناها بنحو ثلثة اميال . فرجعنا اليها مشاة فوجدنا حاجاتنا سالمة . فسرت في طلب شيء للاكل فلم اجد فيها مطعما فقلت لاحد الوقوف : الا نجد طعاما هنا؟ قال : هلم معي . فاخذني الى الجزار وذلك لان مرادف لفظة الطعام عندهم تستعمل غالبا في اللحم . قلت : اني اريد شيئا اأكله . فدلني على حانوت بقربه فتوجهت فلم اجد إلَّا الخبز . قلت : ما الخبز وحده اريد . فدلني على دكان آخر فذهبت فوجدت به الفطير فقط . فعدت خائبا ولقيت بعض الشرطة فقلت له : الا تهديني الى محل للاكل؟ فدلني على موضع زعم انه شهير يقصده جميع المسافرين . فتوجهت فوجدت صاحبته امراة ضخمة فظة تحاول اظهار السيادة والامارة في وجه قاصديها . فسالتها : هل عندك ما يوكل؟ قالت : ما عندي سوى البيض . فتبلغنا بما عندها ورجعنا الى الموقف حتى جاء الرتل الذي يسير الى « رويستان » وهي قرية جامعة . وقد ذكرت هذه الحادثة هنا دليلا على ما يرى من الفرق بين بلاد الانكليز وبين فرنسا فان القرى الحافلة في هذه ولاسيما التي يقف فيها المسافرون يوجد فيها كل ما يشتهي الانسان من الماكول والمشروب وحين كنا نسافر فيها ويقف العجل كنا نرى النساء يتسابقن الينا حاملات لاطباق الفاكهة الطيبة ويعرضنها على السفر . وكنا نجد ايضا في المطاعم كل ما تشتهيه الانفس ثم سرنا الى رويستان ومنها الى قرية « باولى » وهي على بعد ثلثة اميال منها . فبلغناها في الساعة الحادية عشرة ليلا فتوجهت الى دار دكطر لي فوجدته مستعدا لتلقي الاحلام السعيدة . فقال لي قد كتبت الى الجمعية تخبرني بقدومك فينبغي ان تذهب الليلة لتبيت في حانة القرية . فبتنا فيها وفي الغد كتب المذكور الى الجمعية يخبرهم بانه اكرم مثواي وعني بانزالي منزلا مريحا فشكروه على عنايته . وكانت مدة سفري من مالطة الى هذا المنفى في ثمانية وعشرين يوما *

ثم قبل الشروع في الترجمة وفي ذكر شيء من احوالي ينبغي هنا ان اقدم كلاما في احوال انكلتيرة على وجه الاختصار فان تفصيل ذلك مرجعه الى

كتب التاريخ والجغرافية فاقول ان الرومانيين كانوا يسمونها «بريتانية» وفي اللاتيني المتعارف تسمى «انكليا» وفي لغة اهلها «إنكلاند» وحين يذكرون بريتانية فانما يعنون بذلك انكلترة ووالس وارلندة وهي منقسمة الى اثنين وخمسين «كونتي» اي ولاية منها اثنتا عشرة ولاية هي الاصول واشهر مدنها دوفر ونرويش وهل وثيوكاستل وليفوربول وبرستول وفلهوث وبليموث وبورتسموث واكسفورد وبرمنغهام ومنشستر وشفيلد ونتنغهام وكمبريج ويورك وباث وجلتنهام . وهي كثيرة معادن الحديد والفحم والقصدير والرصاص والنحاس وحيواناتها ضليعة حسنة الصورة وبها مراع واسعة ومروج نضيرة وفيها نحو خمسين نهرا تصلح للسفر اشهرها التامس وجبالها قليلة لا يبلغ اعلاها اكثر من مائة ذراع وطول الجزيرة لا يزيد على ثمانمائة ميل وعرضها ثلثمائة في بعض الجهات وفي بعضها اقل . وقبل فتح الرومانيين لها لم يكن عنها خبر يعتمد على صحته وقد غزوها مرتين وذلك في سنة ٢٦ قبل الميلاد وكان عدد اهلها ح نحو مليون وفي سنة ١٨٥١ بلغ عددهم سبعة وعشرين مليونا واربعمائة واثنين وخمسين الفا ومائتين واثنين وستين نفسا منهم ثلثة عشر مليونا وثلثمائة وتسعة وستون الفا واربعمائة وثماني واربعون نفسا ذكور واربعة عشر مليونا واثنان وثمانون الفا وثمانمائة واربع عشرة نفسا اناث . وعن غيبون ان الرومانيين كانوا يحسبون بريتانية مغاصا للولو وهو الذي دعاهم الى فتحها وبعد حرب اربعين سنة سلم ليدهم اقصى اطراف الجزيرة . وعدد من ولد فيها وفي والس في سنة ١٨٥٤ بلغ ستمائة واربعة وثلثين الفا وخمسمائة وست انفس وعدد من مات مائتين وثمانية وثلثين الفا ومائتين وتسع وثلثين . وفيها الجد عشر الفا وسبع وسبعون ابرشية . ويقال انها كانت في الزمن القديم متصلة بارض فرنسا *

ثم اني اخذت في ان اذهب الى دكطر لي في كل يوم لا ترجم التوراة ثم اعود الى منزلي ملازما له . فلم تمض علي ايام حتى عيل صبري لان هذه القرية التي قدر الله ان اسعد الناس بترجمتي فيها كانت من انحس قرى الانكليز على ان جميع قراهم لا تليط بقلب الغريب لما سياتي . ولم يكن فيها

للاكل غير اللحم والزبدة المخلوطة بالجزر والخبز والجبن واللبن المذيق والبيض والكرنب وذلك يغني عن ذكر ما هو معدوم فيها على ان هذه اللوازم انما كانت نفاية ما يوجد في المدن . ومن عادة الانكليز ان يكون لهم بالقرب من القرى بليدة يباع فيها ما يلزم لهم من الماكول والمشروب والملبوس والاثاث فيذهب اليها الفلاحون مرة في الاسبوع ويشترون ما يلزمهم وقد يمر على البيوت ليلا رجل ينفخ في البوق تنبيها على ذهابه الى تلك المدينة فمن شآء ان يشتري شيئا كلفه به وجزاه على ذلك وقد يمر ايضا تجار بعجلات فيها نحو البن والشاي والسكر او يكون معهم راموز هذه الاشياء ليبعثوا منها للمشتري من حوانيتهم وبمثل هذه الاسباب المتنوعة والصعوبة المبرحة يحصل الانسان ما لا بد له لقوام عيشه . اما محار البحر والسرطان والانكليس وهذا الذي يسمونه «لبستر» وهو اطيب ما يوكل عندهم وهو في شكل البرغوث واكبر من السرطان فلا وجود لها البتة . واما السمك فلا يرد منه إلّا مرة في كل ثلثة اشهر على ان جميع اصناف سمكهم منبجة إلّا صنفا منها يقال له «سمن» وهو ايضا بالنسبة الى سمك بلادنا لا طعم له . وقد يضعونه في الثلج ليلا ويعرضونه للبيع نهارا فربما كان عمر السمكة بعد صيدها اطول منه قلبها . ولكن ريب الثلج هذا لا وجود له إلّا في المدن . ومن قدم الى لندرة وراى فيها تلك الحوانيت العظيمة والاشغال الجمة والغنى والثروة حكم على جميع الانكليز بانهم اغنيآء سعدآء ولكن هيهات فان اهل القرى هنا كاهل القرى في الشام بل هم اشد قشفا . وكثيرا ما نقرا حكايات تدل على بوسهم وقشف معيشتهم مما لا يقع في بلاد اخرى . فمن ذلك حكاية عن حائك شكا حاله الى احدى النسآء المخدومات فقال: «يا سيدتي انني حائك وان لي امراة وثلثة اولاد بقوا من عشرة فجعت بهم ودخلي من كدي الليل والنهار لا يزيد على سبعة شلينات في الاسبوع ولكن علي ان اعطي منها شلينا واحدا لاجل النول واربعة في الشمع الذي اسهر عليه» فقالت له: وكيف تعيش على هذا الدخل القليل؟ قال: على قدر الامكان يا سيدتي الا وقد مضى علينا ستة اشهر لم نشترفيها رطلا واحدا من اللحم ولا نقدر على مشترى الحليب

إلّا بالجهد فجل طعامنا انما هو الشعير وحساء الماء وقد يكون لنا في بعض ايام الآحاد ادام من البطاطة اما انا فلا ابالي فاني قد الفت البوس والضنك ومذ سنين عديدة لم اعرف شيئا من الدنيا سوى الكد والكدح المبرح على قلة الاجرة ولكن همي بالاولاد و بامهم النحيفة» . اه . فقوله انه لم يقدر على شراء الحليب مع كونه في الريف ارخص الاشياء بالنسبة الى غيره يغنيك عن مزيد البيان فيما يكابده هولاء الناس . وكثيرا ما نقرا ايضا في صحائف الاخبار عن اناس تركوا اولادهم من الاملاق او ماتوا من الجوع والبرد او النوم على الاماكن القذرة او اعتقدوا فماتوا جوعا . نعم انه يوجد مستشفيات وملاجئ يقوم بها الاهلون امدادا للفقراء إلّا انها ربما كان عدد من فيها لا يقبل الزيادة او كان اللبث فيها ضنكا او الدخول اليها صعبا ونحو ذلك . وقد يبلغ من فقرهم انهم يتركون اطفالهم بغير معمودية لئلا يعطوا القسيس مصروفها . واعرف في القرية المذكورة اولادا كثيرين لم يتعمدوا مع انهم من رعية الكنيسة المتاصلة التي توجب المعمودية ولا تاذن لمن مات غير معمد ان يدفن في مدافن النصارى فتنزله منزلة المنتحر . وسبب فرط فقر الفلاحين هنا هو كون الارض قد دحاها الله تعالى لان تكون ملك الامراء والاشراف فقط فيستاجرها منهم اناس مامونون ويستخدمون بعض الفلاحين في حرثها واستغلالها . فلهذا لن تجد في القرية احدا ذا رواء ورياش إلّا مستاجر الارض . وقسيس القرية المسمى دكطرا على انه لا يلي شيئا من امور اولاده الروحيين سوى الخطبة فيهم يوم الاحد لانه يستخدم تحت يده قسيسا يعطيه نحو ثمانين ليرة في السنة ويلقي عليه احمال الكنيسة وهذه الوظيفة هي دون وظيفة طباخ الاسقف في بلاد الانكليز . فعلى هذا القسيس ان يعمد اولاد الرعية وان يدفن الموتى منهم ويزوج احداثهم ويعود مرضاهم وغير ذلك . وعدد ملاك الارض في انكلتيرة نحو ستين الف عيلة لا غير . وقلما يذوق هولاء المساكين اللحم فجل اكلهم الخبز والجبن . فجزار القرية لا يذبح شاة او بقرة إلّا مرة في الاسبوع ولا يبيع من اللحم الا نصف رطل او ربعه . واذا ذبح شاة فلا يسلخها و يجزر لحمها إلّا بعد يوم والبقرة بعد يومين او ثلثة . نعم انه قد يربي احدهم خنزيرا في

دويرته ويذبحه ويتخذ لحمه كالقورمة التي تتخذ في بر الشام ويطعم منه في ايام الآحاد . ومن كان ذا يسر قليل اشترى قطعة لحم في السبت وطبخها وتبلغ بها عامة الاسبوع باردة . وليس تسخين الطعام مالوفا عندهم فهم احرى ان ياكلوه بائتا مذ ايام من ان يسخنوه . ولما طلبت من المراة التي كنت نازلا عندها تسخين طعام بقي لي من الغدآء لم تكد تفهم مني الّا بعد شرحٍ وتفسير وراح كل منا يتعجب من صاحبه . وليس في القرى مواضع للهو والحظ واذا ارادوا اللهو عمدوا الى اجراس الكنيسة يضربونها فتقوم عندهم مقام آلات الطرب * ومن الحظ عندهم ان يجلس الرجل مع امراته ينظران الى الخنانيص التي يربيانها او الى ما يزرعانه من خسيس البقول . فان لكل منهم في الغالب بضع اذرع من الارض امام بيته يزرع فيها نحو الفجل والكرنب وما اشبه ذلك ولولا ذلك لكانت عيشتهم شرا من عيشة البهائم . وقد ترى في القرية دكانا فيه نفاية ما يباع من الشمع والصابون والسكر والبن والشاي وبيتا حقيرا يباع فيه شيء من البصل والبطاطة والحلويات السخيفة والتفاح الردي تنظرها من طاقة البيت ولو اشتريت ذلك جمعية لما بلغت قيمته عشرين قرشا . وفي اوان الشتآء لا يمكن للانسان ان يخرج من منزله لاستنشاق الهوآء وذلك لكثرة الوحل في الطريق فقد يمكث عدة ايام رهين بيته . وليس في القرى خيل او حمير او بغال او عواجل تكرى فليس الا مركوب النعل . وقد يكون لبعض المتشبعين عجلة يحركونها بارجلهم اذا ارادوا ان يذهبوا من قرية الى اخرى فتجري بهم من دون حصان ولا حمار وبعضهم يكون له عاجلة صغيرة مفتوحة يجري بها حصان صغير فمثل ذلك لا يدفع عليه شيء للميري . وكنت كلما اضطررت الى المونة ذهبت الى البلدة ماشيا ومرة اضطررت الى ان اذهب في التابوت الذي ينقل فيه الزبل لكنه كان فارغا . وعلى فرض ان يسكن غني احدى هذه القرى فلا يمكنه ان يتنعم بغناه اذ لا يجد فيها الّا ما يجده الفقير الّا ان يجلب مونته من لندرة وغيرها . ويعلم الله اني مدة اقامتي في تلك القرية المشئومة لم يكن لي هم الّا بتحصيل لوازم المعيشة فكنت اجلب بعض

القطاني من كمبريج وبعض النقل من رويستان والمزر من لندرة في سكة الحديد . ولكن لما وجدته غاليا اقتصرت عن جلبه فاستولى علي ضعف المعدة ووهن في ركبتي لم احس به في عمري قط . فان مزر القرى ردي اذ ليس منه الّا ما ينبط بالمنبطة دون المرعى في زجاج وهو كالدوآء سوآء الّا انه غير نافع . وقد غشي علي مرة في دار دكطر لي وانا اترجم فامر خادمته بان تتداركني بكسرة خبز مشوية * اما الصيف فانه وان يكن غير مزهق الا انه منغص لعدم وجود البقول المرطبة فيه ولندور الفاكهة كما ستعلم ولاسيما ان اكثر شرب اهل الريف انما هو من مناقع من مآء المطر واكثرها يعلوه الطحلب فاذا نشفت عمدوا الى الآبار وهي قليلة يدخرونها الى الحاجة وهي ايضا من المطر . الا ان الانكليز قلما يشربون المآء فانهم يستغنون عنه بالجعة . وقد مضى علينا في الصيف نحو شهرين لا نذوق فيهما شيئا من الفاكهة والخضرة الا ما ندر . وفي شهر نيسان انقطع عنا المذيق الذي كنا نشتريه لاجل القهوة لانهم كانوا يسقونه الخنازير ولا يبيعونه فاضطررنا الى ان نتوسل باحدى النسآء لتشفع فينا عند صاحبة البقرة في امدادنا كل يوم بما يكفي للقهوة فقط . ففعلت ثم جآءت مبشرة لنا بقبول خالص شفاعتها في المذيق وان صاحبة البقرة رضيت بان تبيعنا كل يوم بنصف بني تفضلا وتكرما فاوسعناها شكرا وثنآء ومطاطاة راس وانحآء . وفي هذا الشهر المبارك لم يكن يوجد شيء من الفاكهة ولا من البقول وكانت البصلة الصغيرة تباع ببني . الا ان الحقول كلها كانت ناضرة زاهية فالمار فيها هو كراكب البحر وهو ظامي . واكثر ما يزرع الانكليز في حقولهم انما هو القمح والشعير واللفت والبطاطة واصل جلب هذه اليهم من اميريكا في سنة ١٥٨٦ . فاما البقول فيزرعونها في عرصات الديار لمونتهم فقط وهي قليلة جدا . ولما كان جل علف البقر من اللفت كان لحمها ولبنها لا يخلوان من طعمه . واذا زرعوا البقول فلا بد وان يضعوا معها شيئا من الملح والجير ويكثرون من تدميلها فلهذا لا تكون زكية الا انها تنمو نموا فاحشا فان الفول قد يعلو مقدار قامة الربعة . وكذا اللوبيآء والقمح والشعير والرشاد يبلغ الطول من

ذراع . ونحو ذلك الخس والنعناع والبسباس . وقد تبلغ الكرنبة قدر الجرة الكبيرة وتكون التفاحة او الاجاصة نحو البطيخة الصغيرة . وقس على ذلك البصل والكراث حتى ان الحيوانات البرية والبحرية تكبر عندهم غاية الكبر . فان السرطان يكون في قدر راس الادمي . وقد وزن مرة ديك جبشي فبلغ اربعين رطلا وكان ارتفاعه ثلث اقدام . واصل جلب الجزر الى هذه البلاد كان من هولاندة ولم ينبت هنا قبل سنة ١٥٤٠ ولكنه لم يكن اولا في هذا الكبر . واصل جلب القنبيط كان من جزيرة قبرس وكان منذ ستين سنة يرسل منه من هنا الى بلاد البورتوغال على سبيل الهدية والطرفة . ويحرثون على الخيل والبقر جميعا وحين يزرعون القمح وغيره يمدون خيطا من اول الحقل الى آخره حتى تاتي الاتلام مستقيمة . وفي كثير من البقاع يخافون عليه من آفة تعرض له من الدود فيزرعون بينه حشيشا سميا ليقتل الدود فاذا حصدوا القمح حصدوا معه الحشيش ايضا وباعوه على حدته . وربما اغفل فبقي مختلطا بالقمح وطحن معه فقد قرات في كثير من صحف الاخبار ان كثيرا ماتوا من الخبز . وهذا هو ايضا سبب وضعهم الملح مع البقول فاعجب لقوم يطبخون طعامهم بلا ملح ويملحون مزروعاتهم ويسمونها ؞ ومما لا ينبت عندهم شجر الاترنج والليمون الحلو والحامض وقصب السكر والموز واللوز والفستق والتين والمشمش والخوخ والدراق والصنوبر والتمر والرمان وهذا الاخير لا يعرفون ماهيته والصبار والاس والزيتون والقثاء والباذنجان والباميا والملوخية والحمص والعدس والماش . وقل وجود الخرشف والخيار والسفرجل . وشجر التوت لا يرى الا للفرجة . والطيب من فاكهتهم انما هو الاجاص والتفاح وقد يكبران حتى تملا الواحدة منهما الكف . وهذا الاخير يدوم الشتاء كله في المطامر ولكن يباع في القرى على قلته . واصل جلبه اليهم كان من بر الشام وذلك في سنة ١٥٢٢ وكذا الزنبق . فاما الاترنج فيرد الى المدن الكبيرة من اسبانيا وبرتوغال وكذا العنب . وقد يربون شجرهما في بيوت من زجاج ويسخنونها بالنار لان حرارة شمس قطرهم لا تكفي لانباتهما ولكن يكون سعره اغلى من سعر المجلوب اليهم . وما

ينبت في غير هذه البيوت من العنب فانه يبقى حثرا وهو ما لا يونع ويبقى حامضا صلبا . وعندهم ثلثة اصناف من الثمار او اربعة كحب الاس عندنا وهي قليلة الجدوى ولاسيما كونها لا تقوى على الرياح فاقل نسمة تذهب بها . وكذلك عندهم اصناف ثلثة او اربعة من البقول لا توجد عندنا وهي ايضا تافهة . ويحق لي ان اقول بعد الاختبار والتحري ان جميع ما ينبت في بلاد الانكليز هو دون ما ينبت في فرنسا في الطيبة والزكاء وجميع ما ينبت في هذه هو دون ما ينبت في بر الشام . وما ارى العلة في ذلك سوى كثرة السرقين في الارض وقلة الحرارة في السمآء . نعم ان جميع ما ينبت عندهم هو اكبر جرما مما ينبت عندنا كما تقدم ولكن شتان ما بين الكبر والطعم الا ان الانكليز يتنافسون في كل شيء ضخم * اما انواع الرياحين والزهور والاشجار غير المثمرة فكثيرة عندهم وعنايتهم بها اشد من عنايتهم بالبقول الماكولة على ان جل ازهارهم لا عرف له . غير اني رايت عندهم جملة انواع من الزهور ذكية الرائحة مما هو في مالطة لا رائحة له اصلا . وكثيرا ما يذكرها المولفون في كتبهم وتلهج بها النسآء في محاوراتهن حتى ان احداهن سجنت مرة فكانت صواحبها يهادينها بباقات من الزهر . وفي اعياد ميلادهن يطرفن به فيغني ذلك عن طرف القماش والجواهر . فهي في الواقع صلة الرحم وسبب الوداد . واذا رقصت امراة في ملهى واعجبت الحاضرين نقطوها بباقة . وعلى ذكر التنقيط يعجبني قول ابن المعتز في مليح جدر:

« يا قمرا جدر لما استوى * فزاده حسنا فزدنا هموم »

« كانه غنى لشمس الضحى * فنقطته طربا بالنجوم »

قلت واهل اللغة اهملوا هذا الحرف بهذا المعنى والضمير في زاده يرجع الى التجدير المفهوم من الفعل وهو رد على الحريري حيث منع ان يقال ذلك لانه ليس للتكثير * اما ارض انكلترة فكلها سهل محروث مزروع تشبه ارض البقاع في الشام فلن ترى فيها بقعة بوار . فكانها جميعها لرجل واحد ذي عيال في كونها لا يغادر منها محط قدم من دون منفعة . فلا ترى الا غياضا وجقولا ومروجا وديارا . والظاهر ان بلاد الانكليز اعظم حرثا واعمر من بلاد

فرنسا . وكل شيء فيها من نام وحيوان تراه في غاية الريع والنمو . وكنت قبل حضوري اليها احسبها كلها جبالا لما كنت اسمع من شدة بردها فاذا هي قاع صفصف . وقرات في بعض الاخبار ان قيمة ما تحصل من غلالها في سنة ١٨٤٧ بلغت اربعة وخمسين مليون ليرة وقس على ذلك سائر السنين . واحسن بقعة في الارض يغادرونها مرعى للضان ومسرحا . ومع شدة عنايتهم بتربية الماشية فانهم يحتاجون الى جلب الجلود من الروسية والغرب الاقصى . وثمن ما يجلبونه منها يبلغ في السنة خمسة عشر مليونا يذهب نحو نصفها في عمل الاحذية والباقي في غير ذلك . وفي بعض الصحف ان في كل من انكلترة وفرنسا يربى نحو خمسة وثلثين مليونا من الغنم ومن كل من العددين يحصل قدر من الصوف متساو الّا ان غنم فرنسا يحصل من لحمها اقل مما يحصل من تلك . وقد يبلغ الحاصل من اقليم شستر من الجبن ما قيمته مليون ليرة . وما يحصل من لبن البقر في فرنسا يبلغ مليون ليتر ثمن كل ليتر نحو عشرة من الصنتيم (٢) . وما يحصل من لبن البقر في انكلترة يبلغ ضعفي هذا القدر ويباع بضعفي قيمة ذلك . والانكليز يربون ثمانية ملايين من الماشية في احد وثلثين مليون جريب والفرنساوية يربون عشرة ملايين في ثلثة وخمسين مليون جريب . وجزاروا فرنسا يذبحون في السنة غالبا اربعة ملايين من الماشية تبلغ خمسين مليون كيلوغرام والانكليز يذبحون مليونين ولا يذبحون من العجل قدرما يذبح عند اولائك . والحاصل في فرنسا من الحليب مائة مليون فرنك ومن اللحم اربعمائة مليون ومن الحرث مائتا مليون . والحاصل في انكلترة من اللبن اربعمائة مليون فرنك ومن اللحم خمسمائة مليون فيكون الحاصل من كل بقرة في انكلترة من الحليب واللحم فقط اكثر من الحاصل من البقرة في فرنسا من اللبن واللحم والحرث معا . ومع خصب ارضهم وكثرة غلالهم كما بيناه آنفا فانهم يجلبون كثيرا من الماكول والمشروب من البلاد الاجنبية . فقد قرات انه في مدة ستة اشهر جلبوا من البقر اثنى عشر الفا ومائتين وسبعة وثلثين راسا ومن الغنم تسعة وعشرين الفا ومائتين وثمانية وستين ومن البيض ستة وخمسين

مليونا واربعمائة واربعة وخمسين الفا وسبعمائة وخمسا واربعين بيضة . وفي سنة ١٨٥٠ جلب من الجبن سبعة وعشرون الف طن . وفي سنة ١٨٤٦ جلب من ارلندة من البقر واحد وثمانون الفا وخمسمائة واثنان وتسعون راسا ومن الغنم مائة الف وثلثمائة وستة وستون راسا ومن الخنزير ثلثمائة واحد وثمانون الفا وسبعمائة واربعة واربعون راسا . وقيمة ما جلب من البطاطة في العام الماضي بلغ نحو عشرين الف ليرة وقس على ذلك الزبدة والفاكهة والقطاني وبهذا يتبين لك ما يلزم لاعالي هولاء القوم واسافلهم . وفي الحقيقة فان انكلترة قد ضاقت باهلها ولهذا يهاجر منها في كل سنة نحو مليونين وخمسمائة الف نفس (٣) . وفي سنة ٥٦ هاجر منها ومن ارلندة مليونان وثمانمائة الف . واحسن اقاليمها في النضارة والريع اقليم «كنت» وفي كثرة اشجار الفاكهة «دفنشر» واذا دخلت حمى «شنشر» فهرول *

اما حيواناتهم فعلى نسق بقولهم من الكبر والضخامة منها الخيل وهي نوعان ضليع ضخم وهو ما يستعمل في جر الاثقال فيكون كالبرج المرصوص ويحمل اربعمائة رطل من ارطالهم وثمنه مائة ليرة . والثاني خفيف ممشوق وهو للركوب والسباق او لجر عواجل العظمآء وربما مشى في الساعة ثمانية عشر ميلا . ويقولون ان خيلهم اعتق من خيل العرب وان سلالة بعضها من تلك . ويقال انه في زمن الملكة اليصابت لم يكن في جميع مملكة انكلترة اكثر من الفي فرس . وبقرهم تعظم في عظم جواميس مصر ولحمها طيب إلّا انه كثير الدم وهي حسنة الخلقة والشكل وكذلك غنمهم تسمن سمنا فاحشا وهي ايضا مليحة ولكن ليس لها الايا كغنم الشام ولعلها هي النوع الذي يقال له القهد . والهر عندهم ظريف وهو احرى بان تحلق الحواجب على فقده من هر قدمآء المصريين . اما الحمير فانها قبيحة وغير فارهة على قلة وجودها ولا وجود للبغال عندهم وندر روية المعزى . ومما من الله به على هذه البلاد ان ليس فيها حيات ولا عقارب ولا رتيلا ولا سوام ابرص ولا ابن آوى يعوى في الليل ولا نمر ياكل الدجاج ولا بعوض يمنع من النوم ولا براغيث في الربيع إلّا نادرا . ويكثر عندهم الجرذان تسمع شقشقتها وهي تجري تحت

مخشب البيوت وكذا البق لكثرة الالواح في منازلهم . قال في ابجدية الاوقات : هذا الجرذ الاسمر الذي يسمى جرذ نوروي غلطا هو اعظم رزيئة في ديارنا واصل مجيئه الينا كان من بلاد العجم وبعض البلاد الجنوبية في اسية كما هو الظاهر من كلام بالاس وغيره حيث قال انه في سنة ١٧٢٩ زحفت اسراب جرذان لا تحصى من البوادي الغربية الى اسطراخان حتى لم يمكن ردهم بوجه ما وفي اوسط القرن السادس عشر زحفوا حتى دنوا من باريس إلّا ان كثيرا من جهات فرنسا لم يزل خاليا من هذه البلية (٤) *

فائـدة في عمر الحيوان

زعم بعض ان الحصان يعمر من ثماني سنين الى اثنتين وثلثين سنة والثور عشرين والبقرة ثلثا وعشرين والحمار ثلثا وثلثين واصل نتاجه في بلاد العرب والبغل ثماني عشرة والشاة من الغنم عشر سنين والكبش خمس عشرة والكلب من اربع عشرة الى خمس وعشرين والخنزير خمسا وعشرين والعنز ثماني سنين والقط عشرا والحمامة ثماني والوزة ثماني وعشرين والببغا من ثلثين الى مائة واليمامة من خمسين الى مائتين *وقال بعضهم الدب يعيش عشرين ونحوه الكلب والذئب والثعلب من اربع عشرة الى ست عشرة والاسد نحو سبعين والقط في الجملة اربع عشرة والارنب سبع سنين والفيل قد يعيش اربعمائة سنة والخنزير ثلثين والكركدن عشرين والحصان من خمس وعشرين الى ثلثين والجمل نحو مائة والبقرة خمس عشرة والضان قلما يجاوز العشر سنين والوعل يعمر طويلا والدلفين ثلثين والنسر قد يعيش مائة واربع سنين والغراب مائة والسلحفاة مائة وسبعا والبطة ثلثمائة وستين ونوع من الحيتان اسمه والس يعيش الف سنة (٥) *

اما بناوهم فمن الاجر الاحمر او الابيض وقد يصبغون خارج الديار او يكلسونه ثم يرسمون عليه خطوطا تبديه كانه حجارة لا يدركه إلّا من دنا منه وترسمه ويبقى على ذلك سنين بخلاف بيوت لندرة فانها لما كانت هدفا للدخان والضباب لم تلبث ان يسود كما سنذكر ذلك ان شاء الله . ولهم في تجديد الابنية مهارة غريبة وذلك انهم اذا ارادوا مثلا

هدم دار هدموا اولا اسفل جدرانها واسندوا القائم منها بعضائد ثم بنوا الاسفل فربما نجز الهدم والبناء في وقت واحد . وبعض البيوت يبنون خارجها كالسفينة من قطع خشب يعارضون بعضها ببعض ثم يطينونها وربما كانت تلك الاخشاب قديمة . وفي الجملة فان بيوت الفلاحين حسنة مهندمة غير ان منها ما يكون اصغر من سطحه . فان السطوح عندهم على ثلثة انواع الاول من الواح الكتاب وهي للديار الكبيرة والثاني من الخزف وهو للبيوت الوسط والثالث من التبن . فهذا يكون قبيح المنظر وهو يرقع كما يرقع الثوب . ويقولون انه احسن من غيره شتاء وصيفا فانه في الشتاء يمنع البرد ويرد الثلج وفي الصيف يمنع الحر . ولا يكون السطح عندهم الا مسنما والفاصل بين الواح الزجاج في الشبابيك اكثره قضبان رصاص بدلا من الخشب وربما كان الزجاج مربعا او مخمسا فيكون للعين انيقا . وحيث كان في تلك السنة مكس للميري على الطيقان اذا زادت على ثمانية كان الناس يتحاشون من مجاوزة هذا الحد ولكنه الان ابطل وقام مقامه مكس آخر تمتعا بنور الله وهوائه . وكل بيت لابد وان يكون فيه عدة مواقد للنار . واسرتهم كلها من خشب لا من حديد . والغالب ان ارض منازلهم تكون مفروشة باللبد او البسط من الزرابي واثاثهم بين بين . وقل ان ترى عندهم من الصور الا صورة كبير العائلة وصورة الخيل في السباق او صورة ارانب وكلاب . اما بيوت الاغنياء والمترفين فلا شيء اجمل منها لاحكام مبانيها وحسن ترتيبها وحيطانها من داخل مغشاة بالورق الفاخر المنقش وطيقانها محكمة كبيرة قطع الزجاج وهو يقارب البلور في الصفا والبريق ودرجها وارضية مساكنها من الخشب المتين ولهم اسراف زائد في الاثاث فان اسرتهم وموائدهم وكراسيهم وخزائن كتبهم كلها من الخشب المسمى بالماهيكون وقد تبلغ قيمته في الجملة نحو خمسمائة ليرة . ومع ذلك فلن ترى لسيدة الدار حليا من الماس او شالا من الكشميري وهي عكس عادتنا . ومن اسرافهم ان يغطوا الدرج بالجوخ المنقوش والزرابي الفاخرة وفوقها الكتان النفيس يدوسون عليه . ومراحيضهم في غاية النظافة والترتيب حتى ان الفرنسيس

اذا ذكروا مرحاضا على هذه الصفة. قالوا انه مرحاض انكليزي . وكنت مرة ضيفا لاحد نجلائهم فلما اصبحت طلبت الكنيف فدللت عليه واذا هو في غاية الزخرفة والاحكام حتى اني احجمت عن فتحه واستعماله وخطر ببالي حينئذ ما قاله بعض الظرفا في نجيل انفق على كنيف له سبعمائة درهم قد استدانها « ليت شعري ما الذي يريد ان يخرا فيه » واجارة المسكن للغريب انما تكون بالاسبوع ولا بد ان يخبر اهل المنزل قبل خروجه باسبوع افاذا علموا ذلك تهاونوا في خدمته . واذا استاجر احد مسكنا في دار من مستاجر الدار وفرشه وكان المستاجر لا يودي غلة الدار الى مالكها حق للمالك ان يستولي على كل شيء في الدار . واعلم ان البناء في الاصل كان من الخشب والطين ثم من الاجر ثم من الحجارة غير المهندمة فلما تمدن الناس وتبحروا في الصنائع صار من المرمر . والبناء من الحجر عرف عند اهل صور من القديم ثم شهر عند جميع الاجيال ولم يعرف في انكلترة قبل سنة ٦٧٠ وكان المحدث له راهبا اسمه بناديكت . واول جسر بني منه في هذه البلاد كان في سنة ١٠٨٧ . اما البناء من الاجر فانما عرف عن الرومانيين وفي سنة ٨٨٦ امر به الفرد ملك الانكليز وفي سنة ١٥٩٨ استحسن تعميمه وكان بناء لندرة اذ ذاك من الخشب غالبا . واما الزجاج فيقال ان اول من تعلم صنعته هم اهل مصر فانهم اخذوها عن هرمس . وقال بلينيوس بل كان كشفه في سورية وكان له معامل في صور من القديم . وقد ذكره الرومانيون عهد طيبيريوس . وعلم من انقاض بومباي ان الزجاج وضع في الطيقان سنة ٧٩ قبل الميلاد (٦) واول ما شهر استعماله في اوربا كان في ايطاليا ثم عرف في فرنسا ثم في انكلترة وفي سنة ١١٧٧ استعمل في ديار بعض الاعيان ولكنه كان مجلوبا . ويفهم من كلام فلتير ان اول من شهره في بلاد الانكليز رجل من فرنسا وذلك في سنة ١١٨١ . وفي سنة ١٥٥٧ انشيء له معمل وفي سنة ١٦٣٥ اكسب رونقا وصفاء وفي زمن وليم الثالث انتهى الى الغاية *

ومن سوء التدبير في بلاد الفلاحين انه لا يقام في القرية من الشرطة الا واحد فلذلك يكثر فيها الحريق والسرقة . فان اهل القرية اذا لم يستخدمهم

مستاجر الارض يبقون معطلين مترعين الى ارتكاب كل شر فيعمدون الى احراق اكاديس القمح والحشيش المكدسة في الحقول في ليلة ذات ريح فتسري النار الى بعض البيوت وليس من يطفئها ثم لا تلبث ان تلاشيه بالكلية وتسري الى غيره فربما احترقت القرية كلها في ليلة واحدة . وفي مدة شهرين من اقامتي بتلك القرية وقع خمس عشرة حريقة في اكداس الغلال وكان سبب ذلك هولاء المعطلون عن الشغل تشفيا من غيظهم من مستاجر الارض . ورايت آثار قرية كانت تشتمل على خمسين بيتا احترقت باجمعها في ليلة واحدة . بل ان كثيرا من هولاء الفجار ينهبون الكنائس وقد يدخلون الديار من مداخن المواقد النافذة الى السطح ويسرقون ما قدروا عليه . وفي كل ليلة قبل النوم توصي المخدومة خادمتها باطفآء النار والنور . اما العاجزون والسقط فانهم يمكثون في المستشفى ويقوم بنفقتهم القادرون من الرعية فان الميري لا ينفق شيئا على المستشفيات ولا على تصليح الطرق ولا على ترتيب الشرطة ايضا . إلّا ان اكثر الناس يستنكفون من المكث في المستشفى لقشف المعيشة فيه . وقد تقرر عند الانكليز جميعا ان التصدق على الفقرآء يحملهم على الكسل والتواني فما يعطون فقيرا اذا مروا به ولو كان عريانا . ويمكن ان يقال ان اكثر فقرهم هو من انهماكهم في شرب المسكرات فانك ترى منهم فقرآء كثيرين باخلاق من الثياب ومهما يكسبوه ينفقوه في الجعة ولا يزالون يكرعون منها حتى تجحظ عيونهم وتنعقد السنتهم عن الكلام . ولا يزالون يلهجون بذكرها فهي عندهم في الشتآء للتسخين وفي الصيف للترطيب . ومع ذلك فهم بالنسبة الى اهل المدن الجامعة اصحى واعف كما انهم اسخى منهم واكرم . وهذه خطة عامة في جميع البلاد فان اهل المدن لما كان احتياجهم الى اسباب المعيشة والرفاهية اكثر كان الكرم فيهم اقل . وذكر بوخان انه عرف في زمانه نسآء بعن اولادهن بالجعة (٧) * ثم ان الانكليز طالما افتخروا بهنآء العيش داخل ديارهم وهو عبارة عن امرين احدهما التمتع بكل ما يلزم للانسان في معيشته والثاني ترتيب وضع الاشيآء المتمتع بها وهو ان يكون لكل شيء موضع خاص

به ولكل موضع شيء فمن غسل يديه مثلا في طست على مائدة ثم تناول المنشفة من جانب المائدة من دون ان يغادر موضعه ويفتش عليها فقد اتصف بانه متهني وقس على ذلك . والحق يقال ان الانكليز في ذلك اعظم الناس ترتيبا واحكمهم وضعا للاشيآء وكانهم انما ورثوا هذه الخلة كابرا عن صاغر ومن تعود على هذه الحال عندهم فلا يمكنه ان يتهنا في معيشته في البلاد الاسلامية ولا يوما واحدا . قالوا وعلى هذا الاصل بنيت بيوتنا بحيث اذا تبواها احد لا يحب ان يخرج منها ولاسيما وضع مواقدهم فانها تسع من الفحم ما شيئت وبذلك يحصل لهم الدفء في الشتآء وهو من الزم ما يكون . وعندهم نحو ثمانمائة الف بيت مفرد يقال لها « كوتاج » قالوا لا يمكن لغيرهم من الناس ان يعيش في مثلها حالة كونها منفردة . فاما دعواهم بان مباقلهم مريعة غضة بحيث تكفي لكل ما يلزم لهم وان اثاثهم وادواتهم وافية بالمراد حتى لا يمكن للشهواني ان يقترح شيئا زائدا عليها فليست في محلها . فقد مر بك ان كثيرا من البقول والفاكهة لا ينبت عندهم فاما من جهة الاثاث فان جميع سكان اوربا المتمدنين مشتركون فيه على انهم محرومون من كثير من الملاهي والفرج * هذا وكما ان ارض انكلترة كلها محروث عامر كذلك كانت شطوطها باجمعها مرصعة بالمناير والاعلام لهداية السفن . فان في سواحلهم مائتي منارة لا تزال انوارها متقدة الليل كله وجملة المناير التي في سواحل فرنسا الشمالية والغربية تسع وثمانون والتي في هولاندة ست وعشرون . ومصاريف منايرهم توخذ من رسم يجعل على السفائن المشحونة التي تمر بها وهو يختلف . وقد يبلغ في السنة مائتين وخمسين الف ليرة ينفق نحو ثلثيه في لوازمها ويدخر الباقي لاجل ترميمها . واعظم منارة بنيت في انكلترة مما يجدر بان يعد من عجائب الدنيا منارة ارسطون وذلك في سنة ١٦٧٠ . ولكن طم عليها المآء في احدى السنين فاباداها راسا فلم يبق منها سوى قطعة سلسلة من حديد . واول منارة عرفت في الزمان القديم المنارة التي بنيت على صخر فاروس قبالة الاسكندرية وكانت من المرمر الابيض العجيب الصنعة وذلك في عهد بطليموس فيلادلفوس ملك

مصر سنة ٢٨٢ قبل الميلاد فكانت النار توقد في قنتها دائما لهداية السفن الى مرسى المدينة المذكورة حتى قيل انها كانت ترى من مسافة مئة ميل وهو مظنة للانكار (٨) ويقال ان مصاريفها بلغت ثلثمائة الف ليرة انكليزية بحساب ان الدراهم كانت من ضرب مصر . وقد عدت من عجائب الدنيا السبع وبلغت من الشهرة والعجب حتى ان اسمها اطلق على كل منارة بنيت بعدها الى يومنا هذا تقريبا * قلت وفي تاريخ مصر لعبد اللطيف البغدادي ان بعض ذوي العناية ذكروا ان طولها مائتا ذراع وخمسون ذراعا وان بعضهم قاسها فوجدها مائتي ذراع وثلاثا وثلثين ذراعا وهي ثلث طبقات الطبقة الاولى مربعة وهي مائة ذراع والطبقة الثانية مثمنة وطولها احدى وثمانون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وطولها احدى وثلثون ذراعا ونصف ذراع . قال «: وفوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر اذرع » . قلت وعجائب الدنيا فيما عده بعضهم ما عدا ما ذكر هي اهرام مصر والموزليوم وهي قبر بنته ارطميسيا لموزولوس ملك قاريا وهيكل ديانة ابنة جوبيتر في افسوس واسوار مدينة بابل وحدائقها المتدلية وصنم الشمس من نحاس في رودس ويقال له قولوسوس وصنم جوبيتر . وقيل ان جوبيتر هو هبل عند جاهلية العرب . قلت ومن العجب في هذه العجائب انهم لم يعدوا منها سد الصين فقد قال فلتير ان دورته مسافة الف وخمسمائة ميل مرتفعا على جبال شامخة ومنحدرا في اماكن وعرة المرتقى وعرضه في جميع هذه المواضع عشرون قدما وارتفاعه اكثر من ثلثين وهو اعظم من اهرام مصر في القدر والمنفعة بناه اهل الصين حاجزا بينهم وبين التتر وذلك في سنة ١٣٧ قبل الميلاد * وبقي لي هنا ان الاحظ معنى في الجنة المذكورة في القرآن فاقول الظاهر انها على صفة جنان بابل لانه يقول « جنات تجري من تحتها الانهار» وكون تحت في جميع هذه المواضع بمعنى في على الاستعارة التبعية فيه غرابة والاولى ان يقال ان المراد تحت قصورها . وفي مشارق الانوار ان الجنة في السماء كما دل عليه قوله صلعم ان سقفها عرش الرحمن وهو فوق سبع سماوات * اما هواء انكلترة فانه كثير التقلب يختلف في اليوم الواحد

مرات وبينما يكون الجو مصحيا والسماء نقية ساطعة اذا بالغيم قد طبق الافق وتراكم حتى تحسب انها لم تكن قط . وقد يبلغ درجات الهواء في يوم ثلثين وفي غده خمسين ومع ذلك فلا يصح ان يحكم عليه بانه وخيم ولاسيما على من الفه فان الغالب على بنية الانكليز الصلاعة والشدة وان كثيرا منهم يعمرون فوق المائة سنة . وفي مدة ثلث سنين مات في انكلترة ووالس ٢٦٦ شخصا وعمرهم من المائة فصاعدا ومات رجل في خط « هولي وود » وقد بلغ من العمر مائة وثلث عشرة سنة وبقي متمتعا بجميع حواسه واوصى وصية بينة ولم يعرف المرض الّا قبل موته بساعة واحدة * ومتى تم لهم صحو يوم تام رايت الناس جميعا يلهجون بمحاسنه ويذكرون بهجته فهو عندهم عيد وموسم . وفي الحقيقة فانه اذا انجلى الغيم وظهرت الشمس في الجو لم يكن شيء ابهج من ذلك فان بلادهم كلها مروج وغياض كما ذكرنا سابقا وقد ترى في الاشجار المتصادفة الوانا مختلفة وترى الحقول كانها بسط من سندس اخضر . ولا يخفى ان هواء الرستاق والريف اصح واسلم من هواء المدن الكبار التي يكثر فيها الدخان والعفونات والاقذار الّا انه لا يمكن الخروج في الريف شتاء حين تكون المسالك وحلة فلهذا يمكن ان يقال ان اهل المدن اكثر حركة ورياضة من اهل الارياف وبذلك تحصل الموازنة ما بين طيب هواء هولاء ووخامته عند اولائك وقد سبقت الاشارة اليه . فاما من ابتلى بالسل والربو وضيق الصدر فلا يصح له مكان من هذه البلاد ايا كان . وكما ان لياليهم في الشتاء تكون طويلة جدا فان النهار اذ ذاك عبارة عن ثماني ساعات كذلك تكون في الصيف قصيرة جدا فان النهار في شهر حزيران يكون ست عشرة ساعة ونصفا فيكون الليل كله كالشفق الّا ان يلبس الغيم والدكنة * ولنذكر لك جملة من الكلام على الهواء هنا لتتخذها قانونا تقيس عليه فاقول انه في الثاني عشر من شهر تشرين الاول احوج البرد الى ايقاد النار وكنا نرى اهل القرية كلهم يصطلون فحذونا حذوهم وبقيت الشمس اياما عديدة لا نرى الّا لمحا وكانت تطلع في الساعة السادسة وتغرب في الخامسة ولا

يكاد يكون بعد غروبها شفق . وفي الواقع فان النار عندهم تقوم مقام الشمس فانهم ينشفون عليها الثياب ويتلذذون بالنظر اليها ولاسيما اذا كانت ذات لهب . وقد بلغت منهم الفتهم بها حتى انهم اذا جلسوا في الصيف حين يستغنون عنها يطوفون بالموقد وآثروه على الجلوس عند الشبابيك . الّا انه من يجلس عند الموقد فلا بد له من ان يغسل يديه ووجهه في اليوم مرارا حتى ان غلالته تتسخ من تحت ثيابه . وفي الرابع والعشرين من الشهر المذكور كانت الشمس تطلع في الساعة السابعة وتغيب قبل الخمسة . وفي السادس من تشرين الثاني كانت تطلع عند الثامنة وتغيب بعيد الرابعة . وفي هذا الشهر يكثر وقوع الضباب فياخذ بالكظم اذ المشي فيه لا يخلو من بعض اذى يلحق البصر ويسمون هذا الشهر « نحار الاعناق » لكثرة الانتحار فيه . وقبل عيد الميلاد كان صحو عظيم فكانت الشمس ترى عامة النهار ولم يكن البرد يحوج الى الاصطلاء وانما كنا نوقد النار لمجرد الارتياح الى رويتها كما هي عادتهم . وفي السنة الثانية قبل العيد المذكور اصحت السماء مدة يومين كاملين فظهرت الشمس فيها من ساعة شروقها الى غروبها ولكن وقع برد شديد جمدت منه المياه حتى في الانية فلم يكن كب السلحفاة كما قال صاحب القاموس مانعا له . وكانت الاولاد تطفر على المناقع والبرك كما تطفر على الصخرة الصماء واذا كسرتها تشققت عن الواح كلوح الباب . والتزحلق على الجليد عادة شائعة عند جميعهم حتى ان البرنس البرت زوج الملكة يطفر مع خواصه في موضع خاص به . وحين يتزحلقون يلبسون نعالا كالقباقيب وهو عندهم من الامور الرياضية * وكنا نرى الصقيع على وجه الارض كانه ملح مرشوش وكان الماء يجمد على زجاج الطيقان واذا القيت منه على الارض لم يلبث ايضا ان يجمد * اما المطر فلم يقع الى وقت الميلاد الّا رذاذا وقلما ينزل سحا كما ينزل في بر الشام ومالطة . واذا انقطع عنهم شهرا فاكثر لا يستسقونه بالايدي كما يفعل المالطيون لان ثراهم لا يزال نديا من المطر السابق . واكثر وقوعه في الخريف والربيع . فاما الرعد فقد مضى الشتاء كله ولم نسمع له قصفة وانما سمعناه

في ايار والشمس حارة . وكان شهر نيسان ابرد من اذار وفي اواسطه سقط ثلج وبرد عارم . وكان آخر اذار ابرد من اوله فقد احتجبت فيه الشمس اياما متوالية . وللانكليز في محاوراتهم وكتبهم لهج عظيم بمحاسن شهر ايار وبهجته لانكسار حدة البرد فيه إلّا انه في الواقع من انحس الشهور وذلك لانقطاع الفاكهة والبقول فيه إلّا ما ندر . وفي اوله تدور الصبيان والبنات يغنون ويجتدون من اهل البيوت ومن المارين في الطريق . وكان قدماء الانكليز يرقصون فيه في الحقول والمزارع ويجعلونه يوم مسرة وطرب حتى انه الى الان يعيده الاوباش في لندرة فيتخذون نحو شجرة ويرقصون حولها في الشوارع . وفي اواسط شهر شباط يطوفون وهم يغنون لفالنتين وهو عندهم يوم تزاوج الطيور وفيه يتهادى العاشقون والعاشقات بالرسائل والاشعار على طروس مزخرفة (٩) . وفي اوائل العام الثاني غطى الثلج وجه الارض والسطوح وروس الشجر ولم يكن البرد شديدا كما يكون عند سقوط الصقيع ويقال ان كثيرا يهلكون في الطريق حينئذ اذا لم يكونوا خبيرين بها فيقعون في مهواة على حين غفلة فيعطبون . وربما سقط على الشاء في الحقول فتضل الطريق . وقد سمعت ان امراة سقط عليها الثلج وهي تحت شجرة تستذري بها فلم يمكنها التحول من موضعها فلبثت هناك بضع ايام والثلج متساقط عليها حتى جاء من اخرجها منه وقد سقطت اصابع يديها ورجليها وبقيت بعد ذلك حية . ويقال ان بقاء الثلج في المزارع اياما ينمي الزرع ولا يضره . ولا شي اشق على الماشي من المشي عليه حين يذوب بخلاف ما اذا كان متلبدا . ومن اول شهر حزيران الى العشرين منه حصل حر يقرب من حر مالطة وكانت الشمس تبدو من اول النهار الى آخره . ثم اكفهر الجو ودهم البرد ووقع المطر الغزير . وحين اشتداد الحر يبلغ ثمانين درجة والبرد عشرين . وابرد الرياح عندهم هي الشرقية ثم الشمالية اما الغربية فلا تكاد تاتي من دون مطر . والغالب حينئذ ان تنكسر سورة البرد ويعقبه دفء مغر بالكسل والعجز حتى يود الانسان ان تعود الريح الباردة وان طارت عنه الثياب . وبما مر بك من تقلب حال الهواء تعلم انه لا يحسن

مليونا واربعمائة واربعة وخمسين الفا وسبعمائة وخمسا واربعين بيضة . وفي سنة ١٨٥٠ جلب من الجبن سبعة وعشرون الف طن . وفي سنة ١٨٤٦ جلب من ارلندة من البقر واحد وثمانون الفا وخمسمائة واثنان وتسعون راسا ومن الغنم مائة الف وثلثمائة وستة وستون راسا ومن الخنزير ثلثمائة واحد وثمانون الفا وسبعمائة واربعة واربعون راسا . وقيمة ما جلب من البطاطة في العام الماضي بلغ نحو عشرين الف ليرة وقس على ذلك الزبدة والفاكهة والقطاني وبهذا يتبين لك ما يلزم لاعالي هولاء القوم واسافلهم . وفي الحقيقة فان انكلترة قد ضاقت باهلها ولهذا يهاجر منها في كل سنة نحو مليونين وخمسمائة الف نفس (٣) . وفي سنة ٥٦ هاجر منها ومن ارلندة مليونان وثمانمائة الف . واحسن اقاليمها في النضارة والريع اقليم « كنت » وفي كثرة اشجار الفاكهة « دفنشر » واذا دخلت حمى « شِشر » فهرول *

اما حيواناتهم فعلى نسق بقولهم من الكبر والضخامة منها الخيل وهي نوعان ضليع ضخم وهو ما يستعمل في جر الاثقال فيكون كالبرج المرصوص ويحمل اربعمائة رطل من ارطالهم وثمنه مائة ليرة . والثاني خفيف ممشوق وهو للركوب والسباق او لجر عواجل العظمآء وربما مشى في الساعة ثمانية عشر ميلا . ويقولون ان خيلهم اعتق من خيل العرب وان سلالة بعضها من تلك . ويقال انه في زمن الملكة اليصابت لم يكن في جميع مملكة انكلترة اكثر من الفي فرس . وبقرهم نعظم في عظم جواميس مصر ولحمها طيب الّا انه كثير الدم وهي حسنة الخلقة والشكل وكذلك غنمهم تسمن سمنا فاحشا وهي ايضا مليحة ولكن ليس لها الايا كغنم الشام ولعلها هي النوع الذي يقال له القهد . والهر عندهم ظريف وهو احرى بان تحلق الحواجب على فقده من هر قدمآء المصريين . اما الحمير فانها قبيحة وغير فارهة على قلة وجودها ولا وجود للبغال عندهم وندر روية المعزى . ومما من الله به على هذه البلاد ان ليس فيها حيات ولا عقارب ولا رتيلا ولا سوام ابرص ولا ابن آوى يعوى في الليل ولا نمر ياكل الدجاج ولا بعوض يمنع من النوم ولا براغيث في الربيع الّا نادرا . ويكثر عندهم الجرذان تسمع شقشقتها وهي تجري تحت

سخشب البيوت وكذا البق لكثرة الالواح في منازلهم . قال في ابجدية الاوقات : هذا الجرذ الاسمر الذي يسمى جرذ نوروي غلطا هو اعظم رزيئة في ديارنا واصل مجيئه الينا كان من بلاد العجم وبعض البلاد الجنوبية في اسية كما هو الظاهر من كلام بالاس وغيره حيث قال انه في سنة ١٧٢٩ زحفت اسراب جرذان لا تحصى من البوادي الغربية الى اسطراخان حتى لم يمكن ردهم بوجه ما وفي اوسط القرن السادس عشر زحفوا حتى دنوا من باريس الّا ان كثيرا من جهات فرنسا لم يزل خاليا من هذه البلية (٤) *

فائـدة في عمر الحيوان

زعم بعض ان الحصان يعمر من ثماني سنين الى اثنتين وثلثين سنة والثور عشرين والبقرة ثلثا وعشرين والحمار ثلثا وثلثين واصل نتاجه في بلاد العرب والبغل ثماني عشرة والشاة من الغنم عشر سنين والكبش خمس عشرة والكلب من اربع عشرة الى خمس وعشرين والخنزير خمسا وعشرين والعنز ثماني سنين والقط عشرا والحمامة ثماني والوزة ثماني وعشرين والببغا من ثلثين الى مائة واليمامة من خمسين الى مائتين * وقال بعضهم الدب يعيش عشرين ونحوه الكلب والذئب والثعلب من اربع عشرة الى ست عشرة والاسد نحو سبعين والقط في الجملة اربع عشرة والارنب سبع سنين والفيل قد يعيش اربعمائة سنة والخنزير ثلثين والكركدن عشرين والحصان من خمس وعشرين الى ثلثين والجمل نحو مائة والبقرة خمس عشرة والضان قلما يجاوز العشر سنين والوعل يعمر طويلا والدلفين ثلثين والنسر قد يعيش مائة واربع سنين والغراب مائة والسلحفاة مائة وسبعا والبطة ثلثمائة وستين ونوع من الحيتان اسمه والس يعيش الف سنة (٥) *

اما بناوهم فمن الاجر الاحمر او الابيض وقد يصبغون خارج الديار او يكلسونه ثم يرسمون عليه خطوطا تبديه كانه حجارة لا يدركه الّا من دنا منه وترسمه ويبقى على ذلك سنين بخلاف بيوت لندرة فانها لما كانت هدفا للدخان والضباب لم تلبث ان يسود كما سنذكر ذلك ان شآء الله . ولهم في تجديد الابنية مهارة غريبة وذلك انهم اذا ارادوا مثلا

هدم دار هدموا اولا اسفل جدرانها واسندوا القائم منها بعضائد ثم بنوا الاسفل فربما نجز الهدم والبناء في وقت واحد . وبعض البيوت يبنون خارجها كالسفينة من قطع خشب يعارضون بعضها ببعض ثم يطينونها وربما كانت تلك الاخشاب قديمة . وفي الجملة فان بيوت الفلاحين حسنة مهندمة غير ان منها ما يكون اصغر من سطحه . فان السطوح عندهم على ثلثة انواع الاول من الواح الكتاب وهي للديار الكبيرة والثاني من الخزف وهو للبيوت الوسط والثالث من التبن . فهذا يكون قبيح المنظر وهو يرقع كما يرقع الثوب . ويقولون انه احسن من غيره شتآء وصيفا فانه في الشتاء يمنع البرد ويرد الثلج وفي الصيف يمنع الحر . ولا يكون السطح عندهم الا مسنما والفاصل بين الواح الزجاج في الشبابيك اكثره قضبان رصاص بدلا من الخشب وربما كان الزجاج مربعا او مخمسا فيكون للعين انيقا . وحيث كان في تلك السنة مكس للميري على الطيقان اذا زادت على ثمانية كان الناس يتحاشون من مجاوزة هذا الحد ولكنه الان ابطل وقام مقامه مكس آخر تمتعا بنور الله وهوائه . وكل بيت لابد وان يكون فيه عدة مواقد للنار . واسرتهم كلها من خشب لا من حديد . والغالب ان ارض منازلهم تكون مفروشة باللبد او البسط من الزرابي واثاثهم بين بين . وقل ان ترى عندهم من الصور الا صورة كبير العائلة وصورة الخيل في السباق او صورة ارانب وكلاب . اما بيوت الاغنيآء والمترفين فلا شيء اجمل منها لاحكام مبانيها وحسن ترتيبها وحيطانها من داخل مغشاة بالورق الفاخر المنقش وطيقانها محكمة كبيرة قطع الزجاج وهو يقارب البلور في الصفا والبريق ودرجها وارضية مساكنها من الخشب المتين ولهم اسراف زائد في الاثاث فان اسرتهم ومواقدهم وكراسيهم وخزائن كتبهم كلها من الخشب المسمى بالماهيكون وقد تبلغ قيمته في الجملة نحو خمسمائة ليرة . ومع ذلك فلن ترى لسيدة الدار حليا من الماس او شالا من الكشميري وهي عكس عادتنا . ومن اسرافهم ان يغطوا الدرج بالجوخ المنقوش والزرابي الفاخرة وفوقها الكتان النفيس يدوسون عليه . ومراحيضهم في غاية النظافة والترتيب حتى ان الفرنسيس

اذا ذكروا مرحاضا على هذه الصفة. قالوا انه مرحاض انكليزي . وكنت مرة ضيفا لاحد نجلائهم فلما اصبحت طلبت الكنيف فدللت عليه واذا هو في غاية الزخرفة والاحكام حتى اني احجمت عن فتحه واستعماله وخطر ببالي حينئذ ما قاله بعض الظرفا في نجيل انفق على كنيف له سبعمائة درهم قد استدانها « ليت شعري ما الذي يريد ان يخرا فيه » واجارة المسكن للغريب انما تكون بالاسبوع ولا بد ان يخبر اهل المنزل قبل خروجه باسبوع افاذا علموا ذلك تهاونوا في خدمته . واذا استاجر احد مسكنا في دار من مستاجر الدار وفرشه وكان المستاجر لا يودي غلة الدار الى مالكها حق للمالك ان يستولي على كل شيء في الدار . واعلم ان البناء في الاصل كان من الخشب والطين ثم من الاجر ثم من الحجارة غير المهندمة فلما تمدن الناس وتبحروا في الصنائع صار من المرمر . والبناء من الحجر عرف عند اهل صور من القديم ثم شهر عند جميع الاجيال ولم يعرف في انكلترة قبل سنة ٦٧٠ وكان المحدث له راهبا اسمه بناديكت . واول جسر بني منه في هذه البلاد كان في سنة ١٠٨٧ . اما البناء من الاجر فانما عرف عن الرومانيين وفي سنة ٨٨٦ امر به الفرد ملك الانكليز وفي سنة ١٥٩٨ استحسن تعميمه وكان بناء لندرة اذ ذاك من الخشب غالبا . واما الزجاج فيقال ان اول من تعلم صنعته هم اهل مصر فانهم اخذوها عن هرمس . وقال بلينيوس بل كان كشفه في سورية وكان له معامل في صور من القديم . وقد ذكره الرومانيون عهد طيبيريوس . وعلم من انقاض بومباي ان الزجاج وضع في الطيقان سنة ٧٩ قبل الميلاد (٦) واول ما شهر استعماله في اوربا كان في ايطاليا ثم عرف في فرنسا ثم في انكلترة وفي سنة ١١٧٧ استعمل في ديار بعض الاعيان ولكنه كان مجلوبا . ويفهم من كلام فلتير ان اول من شهره في بلاد الانكليز رجل من فرنسا وذلك في سنة ١١٨١ . وفي سنة ١٥٥٧ انشئ له معمل وفي سنة ١٦٣٥ اكسب رونقا وصفاء وفي زمن وليم الثالث اتقن الى الغاية *

ومن سوء التدبير في بلاد الفلاحين انه لا يقام في القرية من الشرطة الا واحد فلذلك يكثر فيها الحريق والسرقة . فان اهل القرية اذا لم يستخدمهم

مستاجر الارض يبقون معطلين متزعين الى ارتكاب كل شر فيعمدون الى احراق اكاديس القمح والحشيش المكدسة في الحقول في ليلة ذات ريح فتسري النار الى بعض البيوت وليس من يطفئها ثم لا تلبث ان تلاشيه بالكلية وتسري الى غيره فربما احترقت القرية كلها في ليلة واحدة . وفي مدة شهرين من اقامتي بتلك القرية وقع خمس عشرة حريقة في اكداس الغلال وكان سبب ذلك هولاء المعطلون عن الشغل تشفيا من غيظهم من مستاجر الارض . ورايت آثار قرية كانت تشتمل على خمسين بيتا احترقت باجمعها في ليلة واحدة . بل ان كثيرا من هولاء الفجار ينهبون الكنائس وقد يدخلون الديار من مداخن المواقد النافذة الى السطح ويسرقون ما قدروا عليه . وفي كل ليلة قبل النوم توصي المخدومة خادمتها باطفآء النار والنور . اما العاجزون والسقط فانهم يمكثون في المستشفى ويقوم بنفقتهم القادرون من الرعية فان الميري لا ينفق شيئا على المستشفيات ولا على تصليح الطرق ولا على ترتيب الشرطة ايضا . إلّا ان اكثر الناس يستنكفون من المكث في المستشفى لقشف المعيشة فيه . وقد تقرر عند الانكليز جميعا ان التصدق على الفقرآء يحملهم على الكسل والتواني فما يعطون فقيرا اذا مروا به ولو كان عريانا . ويمكن ان يقال ان اكثر فقرهم هو من انهماكهم في شرب المسكرات فانك ترى منهم فقرآء كثيرين باخلاق من الثياب ومهما يكسبوه ينفقوه في الجعة ولا يزالون يكرعون منها حتى تجحظ عيونهم وتنعقد السنتهم عن الكلام . ولا يزالون يلهجون بذكرها فهي عندهم في الشتآء للتسخين وفي الصيف للترطيب . ومع ذلك فهم بالنسبة الى اهل المدن الجامعة اصحى واعف كما انهم اسخى منهم واكرم . وهذه خطة عامة في جميع البلاد فان اهل المدن لما كان احتياجهم الى اسباب المعيشة والرفاهية اكثر كان الكرم فيهم اقل . وذكر بوخان انه عرف في زمانه نسآء بعن اولادهن بالجعة (٧) * ثم ان الانكليز طالما افتخروا بهنآء العيش داخل ديارهم وهو عبارة عن امرين احدهما التمتع بكل ما يلزم للانسان في معيشته والثاني ترتيب وضع الاشيآء المتمتع بها وهو ان يكون لكل شيء موضع خاص

به ولكل موضع شيء فمن غسل يديه ...
المنشفة من جانب المائدة من دون ...
اتصف بانه متهني وقس على ذلك . واخص ...
الناس ترتيبا واحكمهم وضعا للاشيآء وكانهم انه ...
صاغر ومن تعود على هذه الحال عندهم فلا يمكنه ان ...
الاسلامية ولا يوما واحدا . قالوا وعلى هذا الاصل بنيت ...
تبواها احد لا يحب ان يخرج منها ولاسيما وضع مواقد ...
الفحم ما شيئت وبذلك يحصل لهم الدفء في الشتآء ...
يكون . وعندهم نحو ثمانمائة الف بيت مفرد يقال لها «كوتج» ...
يمكن لغيرهم من الناس ان يعيش في مثلها حالة كونها منفردة . ...
بان مباقلهم مريعة غضة بحيث تكفي لكل ما يلزم لهم وان اثاثهم ...
وافية بالمراد حتى لا يمكن للشهواني ان يقترح شيئا زائدا عليها فليست ...
محلها . فقد مر بك ان كثيرا من البقول والفاكهة لا ينبت عندهم فاما من
جهة الاثاث فان جميع سكان اوربا المتمدنين مشتركون فيه على انهم
محرومون من كثير من الملاهي والفرج * هذا وكما ان ارض انكلترة كلها
محروث عامر كذلك كانت شطوطها باجمعها مرصعة بالمناير والاعلام لهداية
السفن . فان في سواحلهم مائتي منارة لا تزال انوارها متقدة الليل كله وجملة
المناير التي في سواحل فرنسا الشمالية والغربية تسع وثمانون والتي في
هولاندة ست وعشرون . ومصاريف منايرهم توخذ من رسم يجعل على السفائن
المشحونة التي تمر بها وهو يختلف . وقد يبلغ في السنة مائتين وخمسين
الف ليرة ينفق نحو ثلثيه في لوازمها ويدخر الباقي لاجل ترميمها . واعظم
منارة بنيت في انكلترة مما يجدر بان يعد من عجائب الدنيا منارة ارسطون
وذلك في سنة ١٦٧٠ . ولكن طم عليها المآء في احدى السنين فابادها راسا
فلم يبق منها سوى قطعة سلسلة من حديد . واول منارة عرفت في الزمان
القديم المنارة التي بنيت على صخر فاروس قبالة الاسكندرية وكانت من
المرمر الابيض العجيب الصنعة وذلك في عهد بطليموس فيلادلفوس .

مصر سنة ٢٨٢ قبل الميلاد فكانت النار توقد في قنتها دائما لهداية السفن الى مرسى المدينة المذكورة حتى قيل انها كانت ترى من مسافة مئة ميل وهو مظنة للانكار (٨) ويقال ان مصاريفها بلغت ثلثمائة الف ليرة انكليزية بحساب ان الدراهم كانت من ضرب مصر . وقد عدت من عجائب الدنيا السبع وبلغت من الشهرة والعجب حتى ان اسمها اطلق على كل منارة بنيت بعدها الى يومنا هذا تقريبا * قلت وفي تاريخ مصر لعبد اللطيف البغدادي ان بعض ذوي العناية ذكروا ان طولها مائتا ذراع وخمسون ذراعا وان بعضهم قاسها فوجدها مائتي ذراع وثلاثا وثلثين ذراعا وهي ثلث طبقات الطبقة الاولى مربعة وهي مائة ذراع والطبقة الثانية مثمنة وطولها احدى وثمانون ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وطولها احدى وثلثون ذراعا ونصف ذراع . قال « : وفوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر اذرع » . قلت وعجائب الدنيا فيما عده بعضهم ما عدا ما ذكر هي اهرام مصر والموزليوم وهي قبر بنته ارظميسيا لموزولوس ملك قاريا وهيكل ديانة ابنة جوبيتر في افسوس واسوار مدينة بابل وحدائقها المتدلية وصنم الشمس من نحاس في رودس ويقال له قولوسوس وصنم جوبيتر . وقيل ان جوبيتر هو هبل عند جاهلية العرب . قلت ومن العجب في هذه العجائب انهم لم يعدوا منها سد الصين فقد قال فلتير ان دورته مسافة الف وخمسمائة ميل مرتفعا على جبال شامخة ومنحدرا في اماكن وعرة المرتقى وعرضه في جميع هذه المواضع عشرون قدما وارتفاعه اكثر من ثلثين وهو اعظم من اهرام مصر في القدر والمنفعة بناه اهل الصين حاجزا بينهم وبين التتر وذلك في سنة ١٣٧ قبل الميلاد * وبقي لي هنا ان الاحظ معنى في الجنة المذكورة في القرآن فاقول الظاهر انها على صفة جنان بابل لانه يقول « جنات تجري من تحتها الانهار » وكون تحت في جميع هذه المواضع بمعنى في على الاستعارة التبعية فيه غرابة والاولى ان يقال ان المراد تحت قصورها . وفي مشارق الانوار ان الجنة في السماء كما دل عليه قوله صلعم ان سقفها عرش الرحمن وهو فوق سبع سماوات * اما هواء انكلترة فانه كثير التقلب يختلف في اليوم الواحد

مرات وبينما يكون الجو صحيا والسماء نقية ساطعة اذا بالغيم قد طبق الافق وتراكم حتى تحسب انها لم تكن قط . وقد يبلغ درجات الهواء في يوم ثلثين وفي غده خمسين ومع ذلك فلا يصح ان يحكم عليه بانه وخيم ولا سيما على من الفه فان الغالب على بنية الانكليز الصلاعة والشدة وان كثيرا منهم يعمرون فوق المائة سنة . وفي مدة ثلث سنين مات في انكلترة وويلس ٢٦٦ شخصا وعمرهم من المائة فصاعدا ومات رجل في خط « هولي وود » وقد بلغ من العمر مائة وثلث عشرة سنة وبقي متمتعا بجميع حواسه واوصى وصية بينة ولم يعرف المرض الا قبل موته بساعة واحدة * ومتى تم لهم صحو يوم تام رايت الناس جميعا يلهجون بمحاسنه ويذكرون بهجته فهو عندهم عيد وموسم . وفي الحقيقة فانه اذا انجلى الغيم وظهرت الشمس في الجو لم يكن شيء ابهج من ذلك فان بلادهم كلها مروج وغياض كما ذكرنا سابقا وقد ترى في الاشجار المتصادفة الوانا مختلفة وترى الحقول كانها بسط من سندس اخضر . ولا يخفى ان هواء الرستاق والريف اصح واسلم من هواء المدن الكبار التي يكثر فيها الدخان والعفونات والاقذار الا انه لا يمكن الخروج في الريف شتاء حين تكون المسالك وحلة فلهذا يمكن ان يقال ان اهل المدن اكثر حركة ورياضة من اهل الارياف وبذلك تحصل الموازنة ما بين طيب هواء هولاء ووخامته عند اولائك وقد سبقت الاشارة اليه . فاما من ابتلى بالسل والربو وضيق الصدر فلا يصح له مكان من هذه البلاد ايا كان . وكما ان لياليهم في الشتاء تكون طويلة جدا فان النهار اذ ذاك عبارة عن ثماني ساعات كذلك تكون في الصيف قصيرة جدا فان النهار في شهر حزيران يكون ست عشرة ساعة ونصفا فيكون الليل كله كالشفق الا ان يلبس الغيم والدكنة * ولنذكر لك جملة من الكلام على الهواء هنا لتتخذها قانونا تقيس عليه فاقول انه في الثاني عشر من شهر تشرين الاول احوج البرد الى ايقاد النار وكنا نرى اهل القرية كلهم يصطلون فحذونا حذوهم وبقيت الشمس اياما عديدة لا ترى الا لمحا وكانت تطلع في الساعة السادسة وتغرب في الخامسة ولا

يكاد يكون بعد غروبها شفق . وفي الواقع فان النار عندهم تقوم مقام الشمس فانهم ينشفون عليها الثياب ويتلذذون بالنظر اليها ولاسيما اذا كانت ذات لهب . وقد بلغت منهم الفتهم بها حتى انهم اذا جلسوا في الصيف حين يستغنون عنها يطوفون بالموقد وآثروه على الجلوس عند الشبابيك . إلّا انه من يجلس عند الموقد فلا بد له من ان يغسل يديه ووجهه في اليوم مرارا حتى ان ذلالته تتسخ من تحت ثيابه . وفي الرابع والعشرين من الشهر المذكور كانت الشمس تطلع في الساعة السابعة وتغيب قبل الخمسة . وفي السادس من تشرين الثاني كانت تطلع عند الثامنة وتغيب بعيد الرابعة . وفي هذا الشهر يكثر وقوع الضباب فيأخذ بالكظم اذ المشي فيه لا يخلو من بعض اذى يلحق البصر ويسمون هذا الشهر « نحار الاعناق » لكثرة الانتحار فيه . وقبل عيد الميلاد كان صحو عظيم فكانت الشمس ترى عامة النهار ولم يكن البرد يحوج الى الاصطلاء وانما كنا نوقد النار لمجرد الارتياح الى رويتها كما هي عادتهم . وفي السنة الثانية قبل العيد المذكور اصحت السماء مدة يومين كاملين فظهرت الشمس فيها من ساعة شروقها الى غروبها ولكن وقع برد شديد جدت منه المياه حتى في الآنية فلم يكن كب السلحفاة كما قال صاحب القاموس مانعا له . وكانت الاولاد تطفر على المناقع والبرك كما تطفر على الصخرة الصماء واذا كسرتها تشققت عن الواح كلوح الباب . والتزحلق على الجليد عادة شائعة عند جميعهم حتى ان البرنس البرت زوج الملكة يطفر مع خواصه في موضع خاص به . وحين يتزحلقون يلبسون نعالا كالقباقيب وهو عندهم من الامور الرياضية * وكنا نرى الصقيع على وجه الارض كانه ملح مرشوش وكان الماء يجمد على زجاج الطيقان واذا القيت منه على الارض لم يلبث ايضا ان يجمد * اما المطر فلم يقع الى وقت الميلاد إلّا رذاذا وقلما ينزل سحا كما ينزل في بر الشام ومالطة . واذا انقطع عنهم شهرا فاكثر لا يستسقونه بالايدي كما يفعل المالطيون لان ثراهم لا يزال نديا من المطر السابق . واكثر وقوعه في الخريف والربيع . فاما الرعد فقد مضى الشتاء كله ولم نسمع له قصفة وانما سمعناه

في ايار والشمس حارة . وكان شهر نيسان ابرد من اذار وفي اواسطه سقط ثلج وبرد عارم . وكان آخر اذار ابرد من اوله فقد احتجبت فيه الشمس اياما متوالية . وللانكليز في محاوراتهم وكتبهم لهج عظيم بمحاسن شهر ايار وبهجته لانكسار حدة البرد فيه إلّا انه في الواقع من انحس الشهور وذلك لانقطاع الفاكهة والبقول فيه إلّا ما ندر . وفي اوله تدور الصبيان والبنات يغنون ويجتدون من اهل البيوت ومن المارين في الطريق . وكان قدمآء الانكليز يرقصون فيه في الحقول والمزارع ويجعلونه يوم مسرة وطرب حتى انه الى الان يعيده الاوباش في لندرة فيتخذون نحو شجرة ويرقصون حولها في الشوارع . وفي اواسط شهر شباط يطوفون وهم يغنون لفالنتين وهو عندهم يوم تزاوج الطيور وفيه يتهادى العاشقون والعاشقات بالرسائل والاشعار على طروس مزخرفة (٩) . وفي اوائل العام الثاني غطى الثلج وجه الارض والسطوح وروس الشجر ولم يكن البرد شديدا كما يكون عند سقوط الصقيع ويقال ان كثيرا يهلكون في الطريق حينئذ اذا لم يكونوا خبيرين بها فيقعون في مهواة على حين غفلة فيعطبون . وربما سقط على الشآء في الحقول فتضل الطريق . وقد سمعت ان امراة سقط عليها الثلج وهي تحت شجرة تستذري بها فلم يمكنها التحول من موضعها فلبثت هناك بضع ايام والثلج متساقط عليها حتى جآء من اخرجها منه وقد سقطت اصابع يديها ورجليها وبقيت بعد ذلك حية . ويقال ان بقآء الثلج في المزارع اياما ينمي الزرع ولا يضره . ولا شي اشق على الماشي من المشي عليه حين يذوب بخلاف ما اذا كان متلبدا . ومن اول شهر حزيران الى العشرين منه حصل حر يقرب من حر مالطة وكانت الشمس تبدو من اول النهار الى آخره . ثم اكفهر الجو ودهم البرد ووقع المطر الغزير . وحين اشتداد الحر يبلغ ثمانين درجة والبرد عشرين . وابرد الرياح عندهم هي الشرقية ثم الشمالية اما الغربية فلا تكاد تاتي من دون مطر . والغالب حينئذ ان تنكسر سورة البرد ويعقبه دفء مغر بالكسل والعجز حتى يود الانسان ان تعود الريح الباردة وان طارت عنه الثياب . وبما مر بك من تقلب حال الهواء تعلم انه لا يحسن

ان يترجم الى لغتهم قول الشيخ ناصيف اليازجي من قصيدة يمدح بها الملكة وهو:

« تلوي الرياح مثاني الرمل عاصفة * حتى تصيب اراضيها فتعتدل »

وهو نظير قول المتنبي:

« اذا انتها الرياح الهوج من بلد * فما تهب بها إلّا بترتيب »

اذ لا اعتدال فيها ولا يوما واحدا . وقلت انا من قصيدة طويلة:

ما ان يحيل حوول في هوائهم * هوى نفوسهم عن مذهب الخير

اشارة الى ان تقلب الهواء عندهم لا يغير طباعهم عن فعل الخير. و« الخير» بالكسر الكرم والشرف والاصل والهيئة. وقول الشيخ ناصيف « فتعدل » هو كقول الحطيئة « يريد ان يعربه فيعجمه » اي « فهو يعجمه » وفي الحقيقة فانه عند شدة البرد هنا لا يفكر الانسان إلّا في الاصطلاء ولا تزال تسمع من كل من تلقاه لفظة البرد واذا تفوه بها فرك يديه وتافف ليدل على صدق ما يقول ولاسيما النسآء . حتى انهم ربما قالوا ذلك في يوم لا برد فيه فكان السنتهم مرنت على ذلك . وكثيرا ما تقرا ذلك ايضا في كتبهم . ويسمون المراة « رفيقة الموقد » والاضافة بتقدير « عند » . وما احد يحرك النار عندهم إلّا من كان من اهل البيت او من طالت الفته وقدم العهد بمعرفته . وفي الجملة فان النار لا يستغنى عنها مدة ثمانية اشهر في السنة . فلو كان سكان اهل هذه البلاد مسلمين لما راوا في وصف الجنة نعيما لان الانسان اذا كان مقرورا لا يشتهي ان يسمع بذكر المياه تجري والظلال تمتد وان تكون الجنان مدهامة وما اشبه ذلك بل كانوا يقولون تلك الجنة نيرانها مضطرمة . ومواقدها محتدمة . وحضبها معتد . وحطبها منضد . وفحمها موبد . ومسعرها مخلد . فهنيئا للمصطلين . وطوبى للمستدفئين . وما احد ينكر ان عبادة النيران في بلاد الفرس نشات عن البرد . قال ابو صارة في المعنى:

« احل لنا ترك الصيام بارضكم * وشرب الحميا وهو شيء محرم »

« فرارا الى نار الجحيم فانها * ارق علينا من شلير وارحم »

« لئن يك ربي مدخلي في جهنم * ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم »

واعلم ان اهل البلاد الحارة يكونون اسرع فهما واذكى ذهنا من اهل البلاد
الباردة إلّا انهم لا يكون لهم جلد على الاعمال الشاقة لغلبة الترهل
عليهم ولا عظيم همة لمباشرة المساعي الخطيرة ولا يمكن ان يلحقوا اهل البلاد
الباردة في العز والغنى إلّا ان يكون لبعض البلاد مزية خاصة بوجود المعادن
وغيرها كبلاد الهند مثلا . اما سكان البلاد الباردة فيتحملون مشاق الاعمال
ويستطيعون على ادمان السعي ويعمرون اكثر ولهذا كان جل الفاتحين
والغازين من الشمال . وكان جزيرة العرب مستثناة من هذا الحكم . إلّا
ان ايامهم في الشتآء تكون قصيرة جدا فلا يمكنهم ان يعملوا فيها على حسب
تحملهم فيضطرون الى العمل ليلا . وربما كنبت ايديهم من شدة البرد .
وفي كتاب منسوب الى ارسطو ان اهل البلاد الحارة يعمرون اكثر من اهل
البلاد الباردة لان الحرارة الطبيعية يتاتى حفظها في الاولى اكثر من الثانية
ولا ارى قوله مطابقا للواقع الا ان يحمل قوله البلاد الباردة على معنى المفرطة
في البرودة والبلاد الحارة على معنى المعتدلة في الحرارة . ولنختم كلامنا على
الهوآء بفائدة لا باس بذكرها فنقول : ان اصل اختراع ميزان الهوا فيما علم
كان في ايطالية . وفي سنة ١٦٢٦ طبع صنقوريا الطبيب في بادوة كتابا
ادعى فيه انه هو الذي اخترعه وادعى هذه الدعوى ايضا رجل هولاندي
اسمه كرنيليوس دربيل وبعد البحث والتدقيق علم ان الاول وان يكن
قد سبق الى الدلالة على استعماله إلّا ان الثاني هو الذي عرف خواصه
من قبل ان سمع شيئا من ذلك . اما معادن الانكليز فاشهرها القصدير
والصفر والحديد والفحم وهذان الاخيران اقنى وانفع لهم من سائر المعادن
النفيسة اذ لولاهما لم يتات لهم انشآء الوف من سفن النار وسكك الحديد
والغاز وغير ذلك . وليس كل البلاد التي فيها معادن الذهب والفضة باغنى
من غيرها فان من المعادن ما تقوم نفقة استخراجه بفائدته فلا يحصل منه
نفع إلّا مجرد الافتخار بوجوده وانما العمدة على سهولة استخراجه وقلة
مصروفه . واكثر ما يوجد الذهب في افريقية ويافان وفي جنوب اميريكة (٩)
وفي هذا الاخير عثر عليه الاسبنيول في سنة ١٤٩٢ . ومن ذلك التاريخ

الى سنة ١٧٣١ جلب منه الى اوربا ستة آلاف مليون شذرة قيمة كل منها ثمانية ريالات . ويكثر وجوده ايضا في جبال اورال بالروسية ويوجد منه معدن في كورنوال بانكلترة وفي وكلو بارلندة . واكثر ما ياتي الانكليز من الذهب فانما هو من اوستراليا وكاليفورنيا قيل انهم يجلبون منه في كل سنة عشرين مليون ليرة . واول من كشفه في الاولى ادورد هركافس وذلك في سنة ١٨٥١ فاطلع ارباب الحكم بذلك طمعا في الجائزة فاجازوه . وولوه خولية ارض الميري . ومن جملة ما وجد فيها قطعة ذهب ابريز وزنت مائة وست ليبرات . ووجد في محلين منها الى غاية تشرين الاول سنة ١٨٥٢ مليونان وخمسمائة واثنان وثلثون الفا واربعمائة واثنتان وعشرون اوقية انكليزية او مائة وخمسة اطنان وبلغت قيمة الذهب الذي بعث منها الى الخارج الى ذلك التاريخ ثمانية ملايين وثمانمائة وثلثة وستين الفا واربعمائة وسبع وسبعين ليرة ومن ذلك الوقت تتابع وروده الى هذه البلاد ويحتمل ان في اوستراليا معادن اخرى وكنوزا جزيلة لم تنكشف الى الان فمتى كشفت تكون داعية لعجب اهل الدنيا وهذه الجزيرة هي اكبر جزيرة في المسكونة واصغر ارض قارة فانها دون اميريكا بنحو ستة اضعاف وكان استعمار الانكليز لها بعد انفصال تلك عن بلادهم وفي سنة ٥٤ بلغ عدد اهل اوستراليا مائتين وستة وثلثين الفا وسبعمائة وثماني وتسعين نفسا وهي اقل بلاد الدنيا اناثا * اميريكا * واول من كشف اميريكا رجل من جينوى اسمه كريستوفر كولمبوس وذلك في سنة ١٤٩٢ . قيل اذا صارت مملكة الدول المستجدة في اميريكا ماهولة كهولاندة فتكون تسع تسعمائة مليون من الناس وهو نصف سكان المسكونة (١٠) واهلها الان سبعة وعشرون مليونا وقيمة ثروتهم من نقود واملاك ثلثة بلايين (١١) ولما كان الانكليز يبنون مجلس المشورة بلندرة انشا الاميريكانيون في بلادهم سبعة وعشرين الفا وخمسمائة ميل لسكة الحديد كلفت نحو ثلثمائة مليون ليرة . وفي غضون ذلك انشا الانكليز تسعة آلاف ميل كلفتهم نحو المبلغ المذكور . والذي ورد الى خزنة الدولة في سنة ١٨٥٧ من جميع موارده بلغ نحو ثمانية وعشرين مليون ريال

ونصف مليون . والمبلغ الذي كان فاضلا فيها نحو عشرين مليونا . وبلغت مصاريف الدولة سبعين مليونا . وكانت حال البسطة فيها في سنة ١٨٢٧ سبعة آلاف وفي سنة ١٨٣٧ احد عشر الفا ومائة وسبعة وسبعين وفي سنة ٤٧ خمسة عشر الفا ومائة وستة واربعين وفي سنة ٥٧ ستة وعشرين الفا وخمسمائة وستة وثمانين وكان طول مواضع البسطة في سنة ٢٧ مائة وخمسة آلاف وثلثمائة وستة وثلثين ميلا وفي سنة ٣٧ مائة واحد واربعين الفا ومائتين واثنين واربعين ميلا وفي سنة ٤٧ مائة وثلثة وخمسين الفا وثمانمائة وثمانية عشر ميلا وفي سنة ٥٧ مائتين واثنين واربعين الفا وستمائة ميل وميل وفي بلاد الدول المتحدة تسعة آلاف زنل لسكة الحديد وهو عبارة عن زنل واحد لكل ثلثة اميال . ثم وجدت في بعض الصحف ان طول سكك الحديد في اميريكا كان في سنة ٥٧ اربعة وعشرين الفا واربعمائة وستة وسبعين ميلا وانه في اول سنة انشائها عندهم وهي سنة ١٨٢٨ لم يكن عندهم إلّا ثلثة اميال فانظر الى هذا الفرق * فاما ما خرج من كاليفورنيا فانه بلغ في السنة خمسة ملايين ليرة وبلغت قطعة الذهب فيها الى خمس وعشرين ليرة فكان الرجل يسعد من شغله وقميصه لم يتسخ . وقيل ان الدول المتحدة لما بلغها خبر وجود الذهب في ذلك الاقليم بعثت حاكما اليه فما كان بعد وصوله إلّا ان حمل المعزقة واقبل يحفر عن الذهب . وكان كشف كاليفورنيا في سنة ١٥٣٥ وكانت في سنة ١٨٤٦ من اعمال مكسيكو تابعة لاسبانيا ثم استولت عليها الدول المتحدة . وكان كشف الذهب فيها في سنة ١٨١٧ وقيل انه كان معروفا قبل ذلك التاريخ لبعض اشخاص ولكنهم كتموه . وهذه اللفظة محرفة عن لفظتين من اللغة الاسبنيولية معناهما الاتون الحامي ولا يبعد ان يكون ذلك عربيا فان كالى محرف عن قالى من قليت اللحم ونحوه وفورنيا من الفرن وانما خطر ببالي ذلك لان اللغة الاسبنيولية مشحونة بالالفاظ العربية * قال في ابجدية الاوقات اما معادن انكلترة فكثيرة غنية وان طاخيطوس عد من جلتها الذهب والفضة . وفي عهد الملك جامس الاول كشف في « كاركانشير » (١٢) معادن رصاص كثيرة

تستخرج منهـا الفضة ويوجد في « كورن وال » اكثر من خمسين معدنا للنحاس . واعظم معادن هذا الجوهر معدن فحلن في سويدن (١٣) * ونقلت من بعض صحف الاخبار ولست منه على ثقة ان جملة ما خرج من الذهب من بلاد لانكليز من سنة ١٨١٦ الى سنة ٤٦ بلغ خمسة وتسعين مليونا . اه * وعن صاحب الابجدية ان اول ما ضرب الدنانير في بلاد الانكليز كان في سنة ١٢٥٧ واول ما ضربت الدنانير الرائجة المحكمة كان في سنة ١٣٤٤ وكان ضرب الجيني (١٤) في سنة ١٦٧٣ ومبلغ ما ضرب من النقود في زمان الملكة اليصابت كان خمسة ملايين وثمانمائة واثنين وثلثين ليرة وفي زمان جامس الاول مليونين وخمسمائة الف وفي زمان جورج الثاني احد عشر مليونا وتسعمائة وستة وستين الفا وخمسمائة وست وسبعين وفي زمان جورج الثالث اربعة وسبعين مليونا وخمسمائة الف والف وخمسمائة وست وثمانين وفي زمان جورج الرابع عشرة ملايين وثمانمائة وسبعة وعشرين الفا وستمائة وثلث وستين وفي زمان الملكة وذلك من سنة ١٨٣٧ الى سنة ٤٨ تسعة وعشرين مليونا وثمانمائة وستة وثمانين الفا واربعمائة وسبع وخمسين ليرة . وعنه ايضا ان ضرب الدراهم والدنانير من مخترعات اهل ليديا (من بلاد الاناطول) وذلك في سنة ٨٦٢ قبل الميلاد . ولهم ايضا استنباطات اشياء اخرى . اما الفلوس فذكرها اوميروس في سنة ١١٨٤ قبل الميلاد . اه * قال والذهب الانكليزي فيه اثنان وعشرون قيراطا من الذهب وقيراطان من النحاس . ويقال ان حبة الذهب يمكن تقسيمها الى ثمانية عشر مليون جزء ظاهرة للعين ويمكن ايضا تطريقها ومدها حتى تصير خمسا وستين اصبعا مربعة . وان الورقة منها تصير الى جزء من ثلثمائة من اجزاء الاصبع . ويذهب بها حتى الى جزء من عشرة ملايين (١٥) . واول استعمال خيوط الذهب كان في ايطاليا سنة ١٣٥٠ * واعلم ان جوهر الذهب هو الين الجواهر واصفاها ولذلك لا يستعمل إلّا مخلوطا بالصفر او الفضة . وكان انشاء السكة التي تضرب بها النقود بالبخار في لندرة في سنة ١٨١١ ويقال انه في سنة ١٨٤٨ كان مبلغ الذهب المتداول في الدنيا كلها ستمائة مليون

ليرة وان الامداد السنوي كان من ثمانية ملايين الى تسعة . وانه لاجل كشف كاليفورنيا واوستراليا صار الذهب المتداول الان يبلغ ثمانمائة وعشرين مليونا . فمن كاليفورنيا خرج من سنة ٤٩ الى سنة ٥٣ خمسة وستون مليونا وتسعمائة الف ومن اوستراليا خمسة وثلثون مليونا وذلك من سنة ٥٤ الى سنة ٥٦ وخرج ايضا منهما ما عدا ذلك نحو سبعين مليونا * وحكى كاتب جرنال التيمس في ٢٥ حزيران سنة ١٨٥٢ ان مبلغ نقود الذهب والفضة في الدنيا باسرها قيمته اربعمائة مليون ليرة منها مائتان وخمسون مليونا فضة والباقي ذهب * اما الفضة في بلاد الانكليز فتوجد مختلطة بغيرها من الجواهر * وفي سنة ١٦٦٠ كشف معدن فضة في لاياز (١٦) وكان من حسنه يقطع كالبلور . وفي سنة ١٧٤٩ ارسلت قطعة منه الى اسبانية فبلغت ثلثمائة وسبعين رطلا . وحفر عن قطعة في معدن بنوروي وارسلت الى متحف كوبنهاكن فكانت زنتها خمسمائة وستين رطلا وقيمتها الفا وستمائة وثمانين ليرة . وكانت آنية الفضة في سنة ١٣٠٠ نحو الاقداح والملاعق تعد في بلاد الانكليز من الاسراف * اما معدن الحديد فيستخرج منه في كل سنة اكثر من ثمانمائة الف طن . ويقال انه اول ما عرف وجود الحديد كان على جبل ايدي (١٧) في سنة ١٤٣٢ قبل الميلاد . وزعم اليونانيون انهم اول من عثروا عليه كما ان اهل فينيقية اول من عثر على الزجاج . إلّا انا نعلم من التوراة ان طوبال قاين هو اول من قان الحديد وقال آخر: « ان تجارة الحديد في بلاد الانكليز كما هي الان من ابداع هنري كورت من كوسبورت . لانا قبل سنة ١٧٨٣ كنا نجلب جل لوازمنا من الحديد المصنوع من سواحل البالطق ولم تكن طريقة لصنع هذا الجوهر الذي يصدق عليه ان يسمى جوهر الجواهر سوى تطريقه بالمطارق الضخمة الثقيلة بعد احمائه في فرن الفحم وهو اسلوب قديم يجري مع قِدم ايام الخرافات وما عدا ما كان يتبعه من التعب والكلال فكان يلزم له اجم كثيرة لتفي بالوقود اللازم لاحمائه . وحيث لم يكن عندنا منها ما يكفي كان لابد لنا من استجلابه من الروسية وسويدن حيث الاجم كثيرة والحديد

يسهل صنعه فيها بالنسبة الى هذا الصقع والى سعره فيه فكانت معادننا الجزيلة تبقى معطلة لا تنفع إلّا لتعريضها للبيع في البلاد الاجنبية الى ان قام هنري كورت المذكور واعمل فكره الثاقب في ابتكار طريقة جديدة تكثر بها منافع هذا المعدن وتقل الصعوبة في صنعه . فاداه الاجتهاد والتجرد الى احداث فرن هواء بواسطة لهيب النار المنبعث من فحم الحجر فبذلك يحمى الحديد النيء ويصفى ثم يجعله قضبانا مسبوكة بدون فحم ولا مطرقة . ولكن لم يتهيا له اتقان ذلك إلّا بعد ان انفق عليه عشرين الف ليرة ومذ ذلك الوقت استغنينا عن حديد سويدن ونوروى . ثم لم تمض اربع عشرة سنة حتى صار ما يصنع منه في بلادنا قدر ما كنا نجلبه من البلطق ثم صار ما يصنع منه على هذا المنوال موازيا لمائتي الف طن منها خمسون الفا ترسل الى الخارج . وهذا القدر هو ما كنا نفتقر الى جلبه سابقا من البلاد الاجنبية . وفي سنة واحدة من هذه السنين المتاخرة صنع منه في معمل واحد في والس اكثر مما كان يصنع منه في المملكة كلها بضعفين . فاعظم به من اختراع يعد من اعظم الاسباب الموجبة لثروة اهل هذه البلاد واستقلالهم باشغالهم . لان استعمال الحديد في انشآء السكك والمراكب وغيرها لا تحصر منافعه . فهو لنا بمنزلة ابرة المغنطيس لكشف الدنيا الجديدة . فليت شعري كيف كان يتهيا انشآء السكك لولا هذا الاختراع . فما اجدر بان يحسب هذا المخترع من انداد واط (١٨) وما اخلق بلادنا بان تظهر كونها ممنونة له على الدوام » الى ان قال : « ومع انه انفق في هذا العمل الجليل عشرين الف ليرة ومهد لبلادنا طريقة فاقت بها على جميع الممالك لم تجازه على ذلك بل عاملته بالكنود . وقد تحقق ان ما اكسبها من الفوائد باختراعه هذا تبلغ قيمته ستمائة مليون ليرة وافاد مونة ستمائة الف نفس من الصناع » اه . وقد كان الرومانيون في الزمن القديم يصفحون قعور سفائنهم بالرصاص وكان ثمنه اذ ذاك اغلى مما هو الان باربعة وعشرين ضعفا . واحسن صبغ للشعر هو ما اتخذ من الرصاص وهو في نفس الامر سم * اما الفحم الحجري فذكر في ابجدية الاوقات ان اهل بريتانية الاقدمين كانوا يستعملونه وان لم يذكره الرومانيون فيما ذكروا

من احوال هذه الجزيرة . واول كشفه كان في نيوكاستل بانكلترة سنة ١٢٨٤ .
وزعم بعض انه قبل هذا التاريخ . وكان اولا قد منع من استعماله بدعوى
انه مضر بالصحة حتى ان الحدادين كانوا لا يوقدون الا الحطب . وفي
سنة ١٣٨١ اتخذ كانه صنف للتجارة فصارت الناس تجلبه من المحل المذكور
الى لندرة ثم عم استعماله فيها وذلك في سنة ١٤٠٠ . فاما في جميع انكلتيرة
فلم يعم قبل سنة ١٦٢٥ . وفي نورثمبرلند معدن منه في سهل فسيح امتداده
سبعمائة وثلثة وعشرون ميلا مربعا ونحو منه سائر الاماكن . والموجود منه
في جنوب والس فقط يكفي انكلترة على المعدل الذي ينفق منه الان الفي
سنة . والنافد منه في بريتانية في كل سنة خمسة وعشرون مليون طن .
وفي سنة ٥٧ وصل الى مرسى لندرة الف واربعمائة واربعة واربعون
سفينة مشحونة بالفحم وبلغت كمية ما ورد بحرا وبرا من هذا الصنف اربعة
ملايين وثلثمائة وثمانية وستون الفا وسبعمائة وثمانية اطنان * والمستخرج
منه من درهام ونورثمبرلند يبلغ في السنة اربعة عشر مليون طن يصرف
منها ستة ملايين في لوازم لندرة ومليونان ونصف للوازم البلاد الخارجية وقدر
ذلك لاجل الغاز والباقي في مهمات اخرى (١٩) . ويوجد في انكلترة وارلندة
اربعة آلاف ميل مربع تحتوي على معادن الفحم مما لم يحفر بعد ومسافة
جريب واحد سمكه ثلث اقدام يوازي ما يخرج من الف وتسعمائة
واربعين جريبا من الاجم والغياض * ومعادن الفحم المفتوحة الان في دربي
تبلغ مائتين واربعين معدنا يعمل فيها عشرون الف نفس . وفي يوركشير
ثلثمائة وثلثة واربعون معدنا مفتوحا * وقيل ان اول استخراج الفحم كان
في باجيك في سنة ١١٩٨ ثم عرف في انكلترة بعده بقليل . ويخرج من هذه
خمسة مقادير من الفحم اكثر مما يخرج في غيرها من اي ارض كانت
ويقال ان الحاصل من مسافة الف ومائتين وخمسة وسبعين كيلومتر مربع
من فحم الحجر في باجيك يبلغ خمسة ملايين طن والحاصل في فرنسا من
مسافة الفين وخمسمائة كيلومتر مربع لا يزيد على الاربعة ملايين وستمائة
الف طن . وفي سكوتلاند ايضا معادن كثيرة منها محفور ومنها غير محفور .

وكان المصروف من الفحم في فرانسا في سنة ١٧٨٠ اربعمائة الف طن وفي سنة ١٨٤٥ بلغ ستة ملايين * اما القصدير فوجوده في بلاد الانكليز من قديم الزمان واول من تاجر فيه معهم اهل فينيقية لانهم اول من عرف خاصية ابرة المغنطيس . وقبل ان غزا يوليوس قيصر هذه الجزيرة كان الرومانيون واليونانيون يسمعون بوجود جزيرة في جهة الشمال توجد فيها معادن هذا الصنف وكانوا يسمونها «كستيريدس» اي جزائر القصدير . وبقيت هذه التجارة مقصورة على الفينيقيين احقاباً عديدة . فكان اليونانيون كثيرا ما يبعثون اليهم جواسيس ليعرفوا اي بر ينزلون فلم يقدروا . والذي يبعث من هذا الصنف الى البلاد الخارجية يبلغ في السنة الف وخمسمائة طن غير مصنوع . وثمن المصنوع والصفائح يبلغ اربعمائة الف ليرة * ولنختم الكلام على المعادن فنقول: انه وجد في معدن الماس في برازيل حجر زنته الف وستمائة وثمانون قيراطا وارسل الى ديوان البورتوغال فقوم بمائتين واربعة وعشرين مليونا (من الريال) وقومه بعضهم بخمسة وستين مليونا لا غير . وزنة حجر الماس الذي هو عند سلطان الروسية مائة وثلثة وتسعون قيراطا ويبع لملك فرانسا حجر زنته مائة وستة قراريط . وفي سنة ١٨٥٠ جلب الانكليز حجرا من الهند زنته ثمانمائة قيراط الا انه لجهل الفينيسي الذي قطعه نقص حتى جاء مائتين وتسعة وسبعين قيراطا شكله كالبيضة وقيمته مليونا ليرة ثم قطع مرة ثانية . وفي هذه الايام الاخيرة جلب حجر من برازيل زنته مائتان واربعة وخمسون قيراطا وثلث قيراط يذهب نصفه في القطع * اما استعمال ابرة المغنطيس في هداية السفن فلا يعلم في اي عصر ابتدا . وانما يعلم ان خاصيته في جذب الحديد والفولاذ كانت معروفة لقدماء اليونانيين وان استعماله في السفر كان معروفا لاهل الصين من عهد بعيد . فانهم كانوا يهتدون به في اسفارهم الى يابان والهند وجزيرة العرب . ولا يبعد ان اشتهاره في اوربا كان كاشتهار صناعة الطب والحساب في كونه اخذ عن العرب لانه لم يعرف شانه فيها الا بعد ان فتحوا شوتى في اسبانية . ولكن لم يكن العلم به تاما . ويحتمل انهم هم اخذوه عن اهل الصين . ويقال

ان معرفة هولاء به في ارجح الظن كانت في سنة ٢٦٣٤ قبل الميلاد . وهنا
محل للبحث إلّا ان اليسوعيين الذين جعلوا دابهم التنقيب والتنقير عن علوم
اولئك القوم وعن عاداتهم وكذا كلابروت النمساوي العالم البارع
ومستر داقس كلهم حكوا العبارة التى تدل على استعمالهم هذا الحجر في التاريخ
المذكور . ولما كانت الافرنج تسافر الى بلاد المسلمين في الحرب الصليبية كانوا
يذكرون وجود هذا السر الغريب في تلك البلاد . ومن جملتهم الكردينال
ڤتري وڤنسنت ديوڤاي . وكانت العرب تهتدي به في البر . ولم تشهر معرفة
استعماله في اوربا إلّا في سنة ١٢٦٩ . فاما الانتفاع به فلم يشهر إلّا في القرن
الرابع عشر . واول من اجرى ذلك فلاڤيوجيويا من نابلي * وقال آخر
لم يشهر ذكر المغنطيس في كتب الانكليز قبل ايام ادورد الثالث وكان
يسمى حجر السفر . وفي سنة ١٣٣٨ سافرت سفينة بهدايته . وقال الاول:
اما رسم النقط فلم يعلم مخترعه . وزعم الفرنساوية انه من مخترعاتهم وان رسم
النقط الاربع الاصلية انما هو رسم عما يقال له « فلور دليي » اي زهر السوسن .
ولكن هنا بحث فان زهر السوسن انما هو رسم عما يسمى بالعربية موسالا
(لعلها مسلة) وكانت العرب تستعملها لدلالة الابرة * وقال بعضهم ان
اول من اخترع الكمباس البحري (٢٠) مركوس بولوس من ڤينسيس (اي
البندقية) وذلك سنة ١٢٦٠ . وبعضهم نسبه الى فيلا ڤيوجيويا المذكور . وزعم
بعض انه كان معروفا في الصين سنة ١١١٥ قبل الميلاد والظاهر ان ذلك سهو .
نعم انه كان عندهم آلة تتحرك بنفسها مصوبة الى الشمال لهداية المسافرين
بحرا وبرا فظنها الناس انها هي الالة المعروفة . ثم ان جيويا هو الذي
استنبط تعليق هذه الابرة كما نراها الان وذلك سنة ١٣٠٢ . فاما وضع الصندوق
لها وكيفية تعليقها به فهو من مخترعات وليام باولو احد قسيسي الانكليز
وذلك في سنة ١٦٠٨ * اما مصلحة انشاء سكك الحديد في بلاد الانكليز
فهي اعظم المصالح التي شغلت خواطر الاغنياء والمحترفين وذوي الاستنباط
فان مجموع راس المال الذي وضع فيها يبلغ مائة مليون ليرة ومجموع راس
المال الذي وضع في اشغال القطن يبلغ اربعين مليونا وفي اشغال الصوف

ثمانية عشر وفي الحديد احدا وعشرين وفي الحرير ستة عشر * ويحكى عن رجل في بلاد الانكليز انه كان في الاصل بزازا خاملا فتعاطى اشغال هذه السكك ونجح وما زالت حاله ترتقى فيها حتى استغنى غنى لم يذكر مثله في تواريخ العالم قط فيقال انه صار يتولى اشغال خمسين الفا من الصناع يعملون تحت يده . واشهر من ذكر بالغنى في التواريخ القديمة كاسيليوس ازيدوروس في رومية قيل انه لما مات ترك اربعة آلاف ومائة وستة عشر عبدا وثلثة آلاف وستمائة ثور ومائتي الف راس من البهايم وثلثة ملايين من الليرات ولكن حيث تسمع بان واحدا من الناس غني جدا فاحكم على كثيرين بانهم فقرآء جدا (٢١) * ثم انه لما نشم الناس في انشآء سكك الحديد ولهج بها المحترفون لم يكن احد يصدق انها تصل الى ما وصلت اليه . فقد كتب في بعض صحائف الاخبار منذ عشرين سنة ما نصه : اما هولاء الذين يخيل لهم ان ينشئوا سكك الحديد في جميع اقطار المملكة حتى يستغنى بها عن الفلك والعجلات والعواجل والمحامل وغيرها مما يركب الناس فيه بحرا وبرا فانا ننزلهم وتصوراتهم هذه التى هي اضغاث احلام منزلة ما هو غير جدير بان يشغل به الخاطر * واول سكة وضعت في هذه البلاد كانت في جهة نيوكاستل في اوائل القرن السابع عشر ولكن كانت قضبانها من خشب وكان المقصود منها نقل الفحم عليها الى المرفا . ثم انشئت سكة من حديد في هوايت هافن وذلك في سنة ١٧٣٨ . واعظم سكة وضعت بعدها كانت في كلبروك دال في سنة ١٧٨٦ . ثم كان اعظم السكك واطولها سكة ليڤربول ومنشستر بدي بها في سنة ١٨٢٦ وفتحت في سنة ١٨٣٠ . ومذ ذلك الحين شرعت جماعات كثيرة في انشآء سكك شتى في انكلترة وفرنسا وبلجيك وغيرها . وفي سنة ١٨٢٤ كان صنف من الارتال يسمى « الناقل » يسافر ستة اميال في الساعة . وفي سنة ١٨٢٩ سافر صنف آخر يسمى « الشاروخ » خمسة عشر ميلا في الساعة . وفي سنة ١٨٣٤ سافر صنف يسمى « طيار النار » عشرين ميلا في الساعة . وفي سنة ١٨٣٩ سافر صنف آخر يسمى « نجم الشمال » سبعة وثلثين ميلا . والآن صار الناقل

يسافر سبعين ميلا في الساعة . وكان ينفد عليها في مبداها من الفحم اكثر مما ينفد الان بخمسة اضعاف وقس على ذلك سائر المصاريف . وقد علم من خلاصة مجلس المشورة الذي مرجع اقرار هذه المصلحة منوط به ان الحصص الاصلية وما يلحقها من الإستقراض الخاص بجميع جماعات سكك الحديد الكائنة في بريتانية بلغ ثلثمائة وستة وثلثين مليون ليرة . وبلغ عدد المسافرين في انكلترة وارلندة وسكوتلاندة في مدة ستة اشهر خمسة ملايين وثلثمائة وسبعة وستين الفا واربعمائة مسافر تحصل منهم ومما اخذ ايضا على البهائم والمكاتيب خمسة ملايين واربعمائة واربعة وعشرون الفا وستمائة وخمس ليرات وعدد مجموع سكك الحديد في بريتانية مائتان واثنتان وعشرون سكة تجري اسلاك الموحي في ثلثيها . وفي سنة ١٨٥٠ تحصل من ايراد سكك الحديد في جميع اوربا ثلثة وعشرون مليون ليرة وثلثمائة الف . وكان نحو نصف المبلغ ايرادا من سكك انكلترة وارلندة وسكوتلاندة . وهذا جدول اطوال السكك المعروفة في الدنيا (٢٢):

في بريتانية ميل ٧٨٠٣ الى سنة ٥٤	في بلجيك ميل ١٠٩٥ الى غاية ٤٨
في اميريكة « ٣٨٠٠ « غاية ٤٨	في فرنسا « ٢٢٠٠ « « «
في ايطالية « ٠١١٥ « « «	في كوبا « ٠٨٠٠ « « «
في الدنيمرك « ٠١٠٦ « « «	مستعمرات الانكليز ١٠٠٠ « « «
في جرمانيا « ١٥٧٠ « « «	في الروسيا « ٠٠٥٢ « « «
في هولاندة « ٠٢٠٠ « « «	في الهند الشرقية ٠٥٠٠ « « «

ثم وجدت بعد ذلك في صحف الاخبار ان طول سكك الحديد في مملكة بروسية بلغ في سنة ٥٩ ثلثة آلاف ومائة واثنين وستين ميلا وان راس المال الذي عين لذلك بلغ اربعة واربعين مليونا وثمانين الف ليرة فتكون كلفة كل ميل ثلثة عشر الفا وتسعمائة واربعين ليرة وبلغ عدد المسافرين في السنة المذكورة ما عدا العساكر تسعة عشر مليونا ومائتين وتسعة وسبعين الفا وستمائة وثمانية وستين مسافرا ومقدار البضائع التى نقلت فيها احد عشر بليونا وتسعمائة واربعة ملايين وسبعمائة واحد وستون الفا واثنى عشر طنا ومقدار

ما تحصل منها خمسة ملايين وثلثمائة وتسعة وتسعون الفا واربعمائة واربعون ليرة اعني الفا وسبعمائة وسبع ليرات من كل ميل * وفي سنة ٥٦ امتدت سكك الحديد في بريتانية وارلندة الى ثمانية آلاف واربعة وخمسين ميلا انفق فيها مائتان وستة وثمانون مليون ليرة ومنها اكثر من خمسين ميلا تحت القبو . ومساحة هذه الاميال خمسمائة وخمسون ياردا مكعبا (٢٤) ولهذه السكك خمسة الاف مزجية وهي التي يقال لها «انجن» . وفي كل سنة تسير الارتال ثمانين مليون ميل . ومصروف المزجيات في كل سنة من الفحم مليونا طن . وفي خدمة الجماعات القائمة بهذه المصلحة تسعون الفا ما بين رئيس ومرووس . وفي سنة ٥٤ سافر في سكك الحديد احد عشر مليونا من الناس واستفيد منهم ثلثون مليونا ومائتان وخمسة عشر الف ليرة وهو نحو نصف ايراد الدولة تقريبا . وبلغ الحاصل من جميع سكك الحديد في مملكة بريتانية اربعة وعشرين مليون ليرة وكان راس المال ثلثمائة مليون (٢٥) . والحاصل في سنة ٥٧ ثلثة عشر مليونا وهو عبارة عن فائدة اربعة في المائة في العام . ويصرف في كل سنة على تبديل القضبان وتصليح الادوات عشرون الف طن حديدا ويقطع نحو ثلثمائة الف شجرة لاجل ما ذكر . وكل رتل يحمل في مجمل الحساب مائتي شخص . وصرف نحو سبعين مليون ليرة لاصحاب الاراضي تعويضا لهم عما رزئوا في اموالهم في انشآء السكك . واسلاك الموحى ممتدة سبعة الاف ومائتي ميل يلزم لها ستة وثلثون الف ميل من السلك الحديد . وعدد المستخدمين في المواحي ثلثة الاف وكل واحد من خمسين من اهل انكلترة متوقف معاشه ومصلحته على سكة الحديد * وقد سمعت من غير واحد ان اعظم سكة في انكلترة هي التي يسافر بها من لندرة الى برستول . فانه انفق في انشائها نحو ستة ملايين ليرة وايرادها في كل شهر مائة وخمسون الف ليرة والرتل الذي يقف في عدة مواضع يسير في الساعة نحو عشرين ميلا . فاما الرتل المخصوص فانه يسير في الغالب اكثر من خمسين ميلا وهو يمر كالبرق الخاطف فاذا رايته هالك مره وربما وقفت له الارتال البطيئة خشية المصادمة .

والمحسوب ان جعل كل ميل في المحل الاول ثلثة بنس وفي الثاني اثنان وفي الثالث واحد . ومنشئوا هذه السكك هم جماعات يخرجون مالا من ملكهم كل على قدر طاقته ويتشاركون في دخلها وخرجها فاذا اراد احد ان يبيع سهمه فيها اشتراه اخر . ولباس المستخدمين فيها كلباس الشرطة او العسكر بل احسن . وفي طول السكة يقيمون رجالا يتعهدون القضبان ويحافظون على تنظيف الطرق . فقد يتفق ان بعض الاعداء يقطع قضيبا منها فيكون في ذلك هلاك نفوس شتى . ومما ينبغي ان يلاحظ هنا ان الارتال الفرنساوية اقل عرضة للصادمة والخطر من الارتال الانكليزية . فيكل يوم تسمع في بلاد الانكليز عن عطب عرض لاحد الارتال وقل حدوث ذلك في فرنسا . ولهذا كانت الشيوخ والعجايز من الانكليز يانفون من السفر فيها ويوثرون السفر في بعض مراكب البر على قديم عادتهم . وسبب كثرة هذه الاخطار عندي هو ان مباشري آلة النار من الانكليز هم كغيرهم من ابناء جنسهم في الانهماك في شرب المسكرات فيشربون وهم مباشروا الالة حتى يغرب عنهم الرشد والصواب . ففي سنة ٥٦ هلك في بريتانية في هذه السكك ٢٨١ نفسا واصيب ٣٩٤ وذلك ما بين مجروح وارب . وقس على ذلك خطر السفن . ففي السنة المذكورة تلف لهم على سواحل بريتانية الف وتسعمائة وتسع وخمسون سفينة . والمعروف في مجمل الحساب انه يفقد لهم في كل شهر مائتا سفينة . والظاهر ان الانكليز اذا عملوا شيئا فانما يراعون فيه وجه التكسب والمصلحة فقط والفرنساوية يضيفون الى ذلك راحة المسافرين ورونق المحل وكسب الثناء . فان المحل الثاني في الارتال الانكليزية لا يكون الا مقاعد من خشب فاذا قعد عليها الانسان بضع ساعات الم غاية الالم ولاسيما في الشتاء . فاما عند الفرنساوية فانها تكون شبه الاريكة يقعد المسافر عليها ما قعد ولا يمل . وقس على ذلك سفن النار . ومواقف الارتال في فرانسا احسن منها في انكلترة وابهج . وفي بعضها تكون مطاعم عظيمة يجد الانسان فيها كل ما يشتهي بخلاف مواقف الانكليز . فان كل ما يكون فيها للاكل والشرب فانه كريه رديء

ولاسيما القهوة فانها عبارة عن حسا القطاني . ولذا كان اكثر المسافرين من الانكليز يتزودون من بيوتهم ما يلزم لهم مدة السفر وياكلون وهم قاعدون في العواجل وقل منهم من يتغدى في المطعم . وما ارى الحق إلّا معهم فان تلك الطاعم فضلاً عن غلائها ربما اورثت الاكل هيضة تمنعه عن السفر . وفي كل من هذه المواقف يكون محل للحاجات التي ينساها المسافرون هناك للعجلة او الذهول فتبقى هناك محفوظة حتى اذا علم صاحبها ردت عليه في الحال وإلّا ابقيت سنتين ثم تباع ويفرق ثمنها على خدمة الموقف ولاسيما الذين اصيبوا في ابدانهم . واتفق مرة لرجل ان نسي كواغد مالية بمائة وست وخمسين ليرة ولما عرف اسمه ردت عليه . واتفق ايضا لي اني كنت نسيت خرجا في كالس ولما استقر بي المقام في بلاد الفلاحين نقدته وشعرت بانه بقي هناك فكتبت الى مدير الموقف فيها اخبره بذلك فلم يلبث ان ارسله الي * ويحسن هنا ان نذكر ما يناسب المقام مما اورده البخاري في باب اللقطة من صحيحه قال : حدثني محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن سلمة قال سمعت سويد بن غفلة قال لقيت ابي بن كعب رضي الله عنه فقال اخذت صرة فيها مائة دينار فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال عرفها حولا فعرفتها فلم اجد من يعرفها ثم اتيته فقال عرفها حولا فعرفتها فلم اجد من يعرفها ثم اتيته ثلثا فقال احفظ وعآءها وعددها ووكآءها فان جآء صاحبها وإلّا فاستمتع بها . ويروى «استمتع بها» بحذف الفآء * قال ابن مالك في التوضيح فيه : «حذف جواب ان الاولى وحذف شرط ان الثانية وحذف الفآء من جوابها فان الاصل» فان جآء صاحبها اخذها وان لا يجيء فاستمتع بها» والتعريف ذكر الضالة واللقطة وطلب من يعرفها . انتهى ملخصا من شرح شواهد التحفة الوردية للعلامة عبد القادر بن عمر البغدادي * فيكونوا مديروا المواقف على هذا آخذين بسنة النبي صلعم غير ان في الامر بتعريف الضالة من الفضل والكرم ما فاتهم * امـــا خلق الانكليز فالغالب على الرجال الشقرة وتوسط القامة مع الصلاعة والقوة وشدة العصب وزرقة العيون وصغر الانوف . والظاهر ان الشقرة لا تتوقف على البرد وحده

وانما اخص بواعثها الدم . فان اهل جبل لبنان ليس لهم صفآء هذا اللون الذي يرى في هذا الجيل . والغالب في عليتهم امتداد القامة والرشاقة . ثم ان الحسن في الرجال هنا منقسم الى ثلثة اقسام الاول في العسكر فانهم ينتخبون ممن حسن وجها واعتدل قدا ويلحق بهم الشرطة . الثاني في خدام الكبرآء والامرآء فان السيدات يتنافسن في الغساني ولا يتناولن شيئا الّا من يد مليح . الثالث في الكتاب الذين تستخدمهم التجار المثرون واصحاب الصرفات والمثابات الحافلة حيث يكثر تردد الخواتين اشرآء ما يلزمهن فان ذلك ادعى الى جاههن على الاسراف . وما عدا هذه الانواع الثلثة فقل ان تبصر مليحا . فاما في باريس فلم الحظ ذلك الّا في دكاكين اللحامين حيث تنتاب الخوادم لشراء اللحم . والذي يظهر لي في الجملة ان رجال الفرنسيس احسن من رجال الانكليز ونسآء هولاء اجمل من نسآء اولائك . ومن العجيب ان الانكليز قد يبلغ احدهم السبعين ولا يخطه الشيب لا في راسه ولا في عارضه وانما يغلب عليهم في هذه السن الدرم والدرد وهو سقوط الاسنان . والظاهر ان اعظم اسباب الشيب هو الهم والاصر والخوف من ظلم الولاة وذوي السيادة كما هو الواقع في بلادنا وكذا في كل بلاد يقل فيها الامن والسلامة . فان احد الانكليز اذا كان يملك مثلا مليون ليرة لم يخش من ملكه او اميره ان ينفسا عليه بذلك بل يعتقد ان غناه وغنى امثاله موجب لغنى دولته فيتباهى به ما شآء . ولا يخشى ايضا ان يتطاول عليه في حقوقه احد ممن هو اعلى منه . فان الجميع في الحقوق متساوون وان القاضي والجرنال عتيدان لكل من الغني والصعلوك والنبيه والخامل . فقد قرات في بعض الاخبار ان بعض باعة الخبز اقام دعوى على دوك كمبريج وهو ابن عم الملكة فما وسعه الّا الحضور بين يدي القاضي * ثم الغالب عليهم ايضا الكلوح والعبوس ولاسيما اهل القرى الصغيرة وان يكن جوهم اصفى من جو اهل المدن . وذلك لان في المدن كثيرا من الملاهي والملاعب ومن العازفين بآلات الطرب فمتى سمعت الام الموسيقى اخذت طفلها حالا ورقصته او غنت له فيدرب بذلك فيغرس فيه حب السماع والخفة والبشاشة .

فاما البلاد الخالية من ذلك فلا بد من ان ترى وجوه اهلها عابسة باسرة وطباعهم بليدة * اما النسآء فلونهن البياض المشرب بحمرة وعيونهن شهل او زرق وشعرهن في الغالب اسود وان اشتهر خلافه إلّا في حواجبهن . واسنانهن احسن مما يظن في من روي من لداتهن في غير البلاد . وقد زين بشطاط القوام والذلف (اي صغر الانف) والبلج وامتلاء الساعدين ولطف اليدين ومشق الاصابع وبالعنق ورقة الشفتين واسالة الخد . وشعر اهدابهن وحواجبهن لا كثير لا قليل . ولا مزية لهن في الصلوتة على غيرهن وهن احسن نسآء الافرنج جميعا صفآء لون ونعومة بشرة واعضادا وترائب واعناقا . وقد ذاكرت كثيرا من الغربآء في ذلك فكلهم فضلهن على سائر النسآء اللاي شاهدوهن في غير البلاد . غير انهن جد وطويلات الاقدام وغير سود الاجفان واحداقهن غير مركبة فوق زئبق كما اشار اليه ابو الطيب . وسبب الاول عندي تعرضهن للبرد في الصغر . وفي الجملة فلم ار شيئا يصدق على نسآء هذه البلاد اكثر من قول صاحب القاموس « الشوهآ الجميلة والعابسة ضد » وفي ذلك نظر . وجميع الانكليز يعجبون بحسن الاسنان واول ما يذكرونها من صفات الحسن ويشبهونها كما نشبهها نحن بالدر . وممن ابدع في تشبيه الاسنان بالدر ابن النبيه بقوله من قصيدة يمدح بها السلطان العادل :

« وما كنت ادري قبل لولو ثغرها * بان نفيسات اللاءلي صغارها »

وكرر هذا المعنى بقوله :

« ولم ار قبل مبسمه * صغير الجوهر الثمن »

ولكن لا يخصون الفلج بالاستحسان ولا يشبهون العيون بالسيوف بل بالماس ولا الجيد بجيد الغزال وانما يصفونه بالامتلاء والاستدارة . ولا يتغزلون بالخال على ان النسآء يصنعنه احيانا ولا بالهزمة في الخد وانما يستحسنون النونة في الذقن . ولا يشبهون المراة بالشمس والقمر بل بالنجم وعندي ان اشوق شيء في الوجه الفم والعينان لانهما يتحركان ولا ارى الحق مع من قال « احب منها الانف والعينانا » ولعل الرواة بدلوا الفم بالانف . ولاحسن

ما قاله الآخر « ياليت عيناها لنا وفاها » . والنسآء في بلاد الانكليز هن اللاتي يباشرن خدمة الديار غالبا اما الرجال فلا يكونون الا عن الكبرآء . وكثيرا ما ترى جارية حسنآء تامة الاوصاف تخدم سيدة لها من السعالى . واذا طرقت باب احد وخرجت الجارية لتفتح الباب ظننتها هي المخدومة وادهشك جمال وجهها عن وجه ما تسالها به . وللنسآء في بلاد الفلاحين خصلة ذميمة وهي انهن يشرقن بنخاعهن ولا يزال ذلك داب المراة حتى تنام . وهذه تتقابل خصلة نسآء فرنسا وهي انهن يلحسن اصابعهن بعد اكل الحلوآء ونحوها ويقابلها من خصال اهل بلادنا التجشو وهو كناية عن حباق المعدة . وخصلة الفرنساوية اقل اذى لانها لا تكون الّا عقب الاكل ومدتها لا تطول . وكل الخوادم اللاتي استخدمناهن في تلك القرية كن يلمسن شعورهن ووجوههن وايديهن وسخة . ويغسلن وجوههن واعناقهن ويمسحنها بالخرق التي يمسحن بها آنية المطبخ . والخصلة الاولى عامة رايتها في لندرة ايضا . وقد سمعت ان نسآء فرنسا المتظرفات لا يغسلن وجوههن بالصابون لئلا تجل بشرتهن وانما يغسلن بمآء النخالة وهو مطرد مع ان صابون فرنسا احسن من صابون الانكليز * واول من عمل الصابون في اوربا اهل الغال وكان الناس من قبل ذلك يغسلون ثيابهم بالمآء فقط اما بان يدعكوها بايديهم او بارجلهم ولم يعمل في لندرة الّا في سنة ١٥٢٤ . والمحسوب ان كل واحد من سكان بريتانيا يلزم له سبعة ارطال من الصابون في العام فعلى هذا يلزم لاهل لندرة وحدهم تسعمائة طن . وجميع الافرنك (٢٦) لا يغسلون ايديهم بعد تناول الطعام غير ان الكبرآء منهم يغمسون اصبعتهم في صحاف صينية يضعها الخادم امامهم على المائدة ثم ينشفونها من دون صابون وربما تمضمضوا والقوا المآء فيها من افواههم بحضرة الضيوف وكذلك تفعل النسآء وهو اقبح من عدم الغسل . ومما يكره في النسآء تربية اظفارهن حتى تاخذ حدها في الطول وترك شعورهن في القفاء منفشة مشعثة . فمتى نزعت احداهن غطا راسها رايت شعرها كشعر القشعر . وان احداهن لتاعب بكلب او جرو بحضرة الناس وربما نزا عليها ولحس ترائبها

ووجهها وهي تلمس عليه بيدها . ونسآء الاكابر يستصحبن كلابهن في العواجل وعندهن صنف من الكلاب يقعدنه في احضانهن ويسمى كلب الحضن . واحد من نسآء الافرنج عموما ومن نسآء الانكليز (٢٧) خصوصا انهن لا يستعملن الصبغ ولا التزجيج فكما خلقهن الله يبدون ولا يتباهين بكثرة الحلي والجواهر وغاية تصنعهن انما هو في تصفيف شعورهن وتغيير ملابسهن بحسب الزي المستعمل . ونسآء الفرنساوية اكثر زهوا وعجبا من نسآء الافرنج جميعا . وقد كانت النسآء هنا يرخين سوالف بجعدة على طلاهن تفعل ذلك منهن الطويلة الشعر زهوا وعجبا فصرن الان يسوينه منسرحا على افوادهن اقتدآء بالملكة الا ما ندر ومثل هذه العادة في العلة عادة المرافد . وللنسآء على الرجال مزيتان علوية صيفية وسفلية شتوية فالاولى اتخاذهن الظلل وقاية لهن من الشمس او لبرانيطهن ان تنصل الوانها فانها عبارة عن ظلل والثانية اتخاذهن القباقيب في الشتآء فتراهن يخضن بها الوحول والثلوج وهي مصلصلة تحت احذيتهن . وغطآء روسهن هي البرنيطة وذلك مطرد في جميع البلاد بخلاف نسآء فرنسا فان لكل نسآء اقليم فيها غطا مخصوصا . واكثر ما يهمهن من اللباس الجوارب والاحذية فاما الثياب فالغالب انها من الشيت (٢٨) ومع ذلك فاذا كان للمراة اربعة قفاطين منه فهي الحظية . والحق يقال ان نسآء الانكليز على غاية ما يكون من التقشف والقناعة فان اقل شيء من الملابس يرضيهن ومن المطاعم يكفيهن ولا يستعملن الدخان ولا النشوق كبعض نسآء الفرنساوية ولا هن مثلهن ايضا في كونهن ينكرن مزية الرجال على النسآ فمهما تكن المراة شريفة من الانكليز تعترف بان الله تعالى خلق الرجال قوامين عليهن . واذا اهديت احداهن منديلا او حذآ ونحو ذلك استعظمت الهدية وبالغت في وصف محاسنها وكررت الثنآء عليك حتى تتوهم انك صرت رابعا لحاتم الطاي وهرم بن سنان وكعب بن مامة . فاما اذا نظرن شيئا من الجواهر النفيسة سوآء اتحفن به او لا فيا للعجب ويا لمنتهي الارب . واستعظام الهدية ولو قلت صفة عامة لعليتهم وسفلتهم فقد كانت سيدة تكرمت علي بست ثمرات من الخرشف فلما قابلتها في اليوم

الثاني شكرتها على ذلك فقالت انني وزوجي اهدينا اليك ذلك فكانهما قالت عليك ان تشكره ايضا كما شكرتني . والحق يقال ان ذلك في اكثر الاحوال اولى من سكوت العرب عن نطق كلمة واحدة تفصح عن الشكر. وقد كنت ارى من النسآء العبل الحسان ذوات البشر الناعم والفصاحة الرائعة من تنصب حر وجهها لحر الشمس في الصيف بان تعزق في الحقول وتحمل الاحمال الثقيلة وتحصد وتبذر وتجمع الحصود وتحطب وما اشبه ذلك . وفي شهر حزيران حين يقطع الحشيش ترى نسآء كثيرة يجمعنه وحين يحصدن الزرع لا يعملن بنص التوراة في سفر الاحبار فانهن يحصدن الارض من تحت السنابل . ومع هذا الشقآء فلا تزيد اجرة المراة على نصف شلين في اليوم وهو بالنسبة الى غلا هذه البلاد بقيمة نصف قرش عندنا . فكنت اقول في نفسي ما ارخص الجمال في هذه البلاد وما اقسى قلوب الرجال الذين يحوجونهن الى هذا الابتذال او لعلهم يريدون صبغ هذا البياض النقي بورس الشمس او سحمة الضباب . —

فلو برزت سواعدهن يوما * لشاعرنا لانشد من ذهول

بربات الحقول يحق لي ان * اشبب لا بربات الحجول

ولو برزت ترائبهن ليلا * لصدر الدولة القرم الجليل

لقال خذوا حطايا الكرج عني * فدى الصلفات عند ذوي الخمول

وفي الجملة فلا شيء ارخص من الجمال في هذه الديار . ثم انه لما كان لون البياض عاما في الرجال والنسآء في هذه البلاد كانت المراة السمرآء محببة الى الرجال جدا وكان الرجل الاسمر ايضا محببا الى النسآ جدا . وهذه الطائفة المعروفة عندهم باسم الجبسى وهم صنف من نور بلادنا وعجر مصر لولا دنآءتهم لكانت علية الانكليز تصاهرهم وذلك لسمرة لونهم وسواد عيونهم . وقد كانت احدى نسآ دكطرلي من هولاء الجبسيات رآها مدة فاحبها لسمرتها واحبته هي لبياضه فوعدها بان يتزوجها بشرط ان تتهذب في مذهب النصرانية فاجابته الى ذلك فتاهل بها . — ومن الغريب ان هذا الجيل يعيش في هذه البلاد عيشة النور في بر الشام سوآء حيث ليس لهم مقر معلوم للاقامة فمرة

يسكنون الغياض ومرة الخصاص وبعضهم ياوي الى نحو هودج يجره حصان فيجعل فيه رحله واثاثه وهكذا يطوف في البلاد . واليهم تنسب سرقة الدجاج والخيل او في الاقل اذنابها والانباء عن البخت ولهم لسان خاص بهم ويقال لشيخهم ملك الّا انهم يخالفون نورنا بكونهم غير مولعين بالغناء والرقص وما ذلك الّا لكونهم مولودين تحت رقيع الانكليز الكالح ولما كان هولاء يعتنون في السكنى تنصر منهم كثير . فان قلت كيف يبصرون البخت والانكليز لا يعتقدون بهذه الامور قلت ان عامة الانكليز على غاية من الجهل فعندهم من التشاؤم والتفاول ما عند عامة بلادنا كما سابين لك بعد . — قال في الابجدية : « هولاء الجبسس هم احدى عشائر مصر الذين خلعوا عنهم نير الخضوع للترك حين غزوا بلادهم ولما فشلوا تفرقوا في الارض . واول ظهورهم كان في جرمانية وذلك نحو سنة ١٥١٧ . وحيث كان الناس اذ ذاك على جانب عظيم من الوساوس والاضاليل وظنوا بهم علم بصير البخت رحبوا بهم في كل مكان . وقد نفوا من فرنسا في سنة ١٥٦٠ ومن غيرها ايضا الّا انهم لم يزالوا موجودين في كل مملكة . وفي ايام شارلس الاول قتل ثلثة عشر شخصا من الاهلين لمخالفتهم القانون في اختلاطهم بهم واخرب ماواهم في نورورود في سنة ١٧٩٧ وعوملوا معاملة البطالين التائهين . وقبل سنة ١٨٠٠ كان منهم في اسبانية اكثر من مائة وعشرين الفا ولم يزل منهم في هذه البلاد جماعات كثيرة . ومع اختلاطهم بغيرهم من الاجيال فانهم باقون على عاداتهم واطوارهم وسحنهم فهم اشبه باليهود » اه . وقال آخر ان اصلهم من الهند وانهم يتكلمون بلغة من لغاتها وان حقيقة اسمهم زنكانيون او جنكانيون . — واعلم ان تحقق الحسن في السمر او السود في عين الرائي لا يمكن الّا من قريب فاما البيض فاذا رايت صفا منهم عن بعد توهمتهم كلهم ملاحا لان البياض كما قيل شطر الحسن . وروي عن عائشة رضي الله عنها انها قالت : « البياض نصف الحسن » وروى ابن عساكر عن خالد بن سفيان انه قال : « عمود الجمال الطول وبرنسه سواد الشعر ورداؤه البياض » . قلت فعلى هذا فقد تجتمع في مونث هذا الجيل العمود والبرنس والرداء . وقد تحمل بعضهم لان فضل السود بقوله :

« رب سوداء وهي بيضاء عندي * فهي مسك ان شئت او كافور »
« مثل حب العيون يحسبها النا * س سوادا وانما هي نور »

وقال ابراهيم بن سبابة :

« يكون الخال في وجه قبيح * فيكسوه المهابة والجمالا »
« فكيف يلام عاشقها على من * يراها كلها في العين خالا »

وهذه كلها من مغالطات الشعراء والحق ما قاله البها زهير :

« اسمع مقالة ناصح * وكن بحقك عنوني »
« ان المليح مليح * يحب في كل لون »

وقول الاخر :

« قالوا تحب السواد قلت لهم * احبه في الشعور والحدق »
« قالوا وتهوى البياض قلت لهم * في الوجه والمعصمين والعنق »

ثم لا يخفى انه لما كانت اسباب الفساد في القرى الصغيرة صغيرة لم تكن النساء هنا مائلات الى الفواحش والفسق كما هو شان نساء المدن الحافلة . ولهذا كان عيش المتزوج في بلاد الفلاحين من هذا القبيل اهنا من عيش المتمدنين . والذي اتحققه ان المتزوجين من الانكليز في كلا الموضعين وان لم يكونوا يحتفون بازواجهم ويكرمونهن امام الناس كما تفعل الفرنسوية الا انهم اكثر منهم احصانا لفروجهن واوفر مودة ووفاء لهن في الحضرة والغيبة . هذا في حق الازواج فاما في شان النساء مطلقا فالفرنساوية ارفق واحفى فان احدهم ليوثر راحة المراة ايا كانت على راحة نفسه . فاذا تبوا مثلا مقعدا في سفينة او رتل ودخلت امراة ولم تجد لها محلا فاضطرت الى القيام قام من موضعه واجلسها فيه . وكذا لو وقع منها نحو منديل وغيره بادر حالا الى مناولتها اياه . وعندهم كلمة مخصوصة لمثل هذه الافعال . اما الانكليز فلا يبالون بذلك . وكنت كثيرا ما ارى رجالا منهم يضغطون النساء والاولاد حتى يسبقوهن الى موضع يتبوونه فاذا دخلت النساء ظللن قائمات وحين يسافرون في الارتال او الحوافل يتخيرون احسن المقاعد وربما اداروا ظهورهم للنساء غلاظة وسوء ادب . نعم ان نساء الفرنساوية اكثر تدللا

وكياسة في الظاهر من نسآء الانكليز الا ان هولاء جديرات به من عدة وجوه وفضلا عن ذلك فقد يقال ان زيادة كياسة اولئك اصلها من زيادة الاكرام لهن وانما هي خشونة غريزية في طبع الرجال حتى ان النسآء اعتدن عليها ولا يرين فيها نكرا الا اذا عاشرن الاجانب . وهذا هو معنى قول الانكليز انهم هم خير من غيرهم ازواجا وغيرهم خير منهم عشاقا . والفرنساوية يصفون نساء الانكليز بانهن عسر اي يعملن باليد اليسرى تعريضا بكونهن لسن صنعا كنسآء فرانسا . وهذا القول باعتبار صنعتي القلم والابرة حق فان عامة النسآء هنا لا يحسن الخياطة ولا التطريز ولا الكتابة واذا كتبت احداهن رسالة تشحنها بالغلط والخطا مع ان اللغة الانكليزية هينة المأتى بالنسبة الى غيرها . ولكن هن معذورات في ذلك اذ ليس يوجد في القرى مدارس جيدة او معلمون ماهرون . وربما اجتزي عن المدرسة بان يتعلمن في الكنيسة يوم الاحد شيئا من اصول الدين وشيئا من القرآة مما لا يعبا به . وفضلا عن ذلك فان الولد اذا ادرك وهو تحت حجر والديه لم يستغنيا عنه لانهما اما ان يستصحباه معهما الى المزرعة ليعينهما على عملها واما ان يبقى في البيت ليهيئ لهما طعامهما ويحفظ رحلهما وغير ذلك . فان يكن والحالة هذه من لوم على النسآء فانما هو على قاطنات المدن والقرى الجامعة . بل الرجال في هذه الاماكن لا يريدون اعتكاف نسائهن على القرآة والكتابة لئلا يشمخن عليهم كما هو داب نسآء فرنسا . وما احسن ما قيل « ان المراة الفاضلة هي التي اذا قرات خلتها لا تحسن العمل واذا عملت خلتها لا تحسن القراءة » * يذكر في التيمس انه « في سنة ١٨٥٥ تزوج ثلثة ملايين ومائة وخمسون الفا والف وسبعمائة وسبعون نفسا فوجد من كل مائة امراة اربعون قد وضعن علامة الصليب بدل اسمائهن ومن كل مائة رجل تسعة وعشرون رجلا على تلك الصفة » اه . قلت والذين يعرفون ان يكتبوا اسمآءهم ينبغي ان تسقط ثلثهم من بين ذوي الدراية فان كثيرا منهم وان كتبوا اسمآءهم لا يحسنون كتب رسالة . وهنا ينبغي ان يلاحظ ان عامة الانكليز يقراون التوراة والانجيل بلغتهم ولكن قل منهم من يفهمهما . وقد جرى مرة ذكر ذلك بحضرة جماعة ادعوا بانهم لا

يفوتهم شيء من فهم الكتاب الاول وان سعادة بلادهم وغبطة احوالهم انما تسببت عن ذلك . فقلت لهم : اما السعادة والغبطة فلست اباحثكم فيها ولا اسلم لكم بانكم اسعد من غيركم فاما الفهم فما اخالكم تفهمون كل ما تقراون في التوراة . قالوا : سلنا عن شيء منه . فقلت : على شرط ان لا يسوكم . قالوا لا تخش من الاساآة فان هذه البلاد بلاد الحرية . قلت : ما معنى الغرلة حين طلب شاول من داود ان يمهر ابنته بمائة غلفة من اهل فلسطين فمضى داود وقتل منهم مائتين وجاء بغلفهم الى شاول ؟ فقالوا : لا ندري . قلت : بل لا تدرون ايضا كيف ان الرجل يمهر المراة وعادتكم بخلاف ذلك . قالوا : بين لنا ذلك . قلت : ههنا نساء واخاف ان افسر لكم معنى اللفظة فتنقبض النساء . قالوا : اذا كان ذلك كلام الله فلا حرج . ففسرت لهم حينئذ معناها . فما كان من احدى النساء المتفصحات الا ان اخذت الكتاب ورمت به الارض وقالت : « معاذ الله ان يكون هذا الكلام كلام الله » * اما الخياطة والوشي فلما تقدم من ان نساء الفلاحين لا يلبسن سوى الشيت فلا حاجة الى تطريزه . وكل واحدة منهن خياطة لنفسها . واذا خطن تحت يد تاجر فقلما توفي اجرتهن . وما عدا ذلك فان كثيرا من الالات التي اخترعتها الانكليز صارت تغني عن اليدين . فاما الطبخ فلا يتفننون فيه فاحب شيء اليهم منه انما هو الشواء . فطباخهم انما هو النار وحيث كان وقتهم كله مصروفا في العمل وتحصيل الكسب فلا يرون ضرورة لصرفه في تعدد الوان الطعام . وفي الجملة فان الانكليز يحق لهم ان يقولوا ان بلادهم منبت النساء ومعدن الازواج بمعنى ان من تزوج احداهن فقد هناه العيش وقرت عينه بما يراه من نظافة منزله مع الاقتصاد في النفقة وراحة البال من الاسباب الباعثة على الغيرة * اما اخلاق الانكليز وعاداتهم فالواجب ان امهد للقول فيها مقدمة وجيزة لازالة الالتباس فيما يرد من بيان ذلك . فاقول ان هذا الجيل ينقسم الى خمس طبقات . الطبقة الاولى : الامراء والوزراء والاشراف والنبلاء وذوو المناصب السامية ويلحق بهم الاساقفة . الطبقة الثانية : الاعيان وهم الذين يعيشون من ارزاقهم

واملاكهم لا من معاطاة شغل او حرفة وليس لهم جلاء . الطبقة الثالثة : العلماء والقضاة والفقهاء ويلحق بهم القسيسون والتجار ذووا المراسلات . الطبقة الرابعة : التجار اصحاب الدكاكين والكتاب وهم الذين يحتاجون الى تحصيل معاشهم بالاحتراف والاصطراف ولكن من دون ابتذال ماء الوجه . الطبقة الخامسة : اهل الحرف والصنائع والعملة والفلاحون وهم الجمهور الاكبر * فعادات اهل الطبقة الاولى مباينة بعض المباينة للثانية ولكن ليس بينها وبين الاخيرة من مناسبة اصلا لما سياتي . وعادات اهل الطبقتين الثالثة والرابعة متساوية لا اختلاف فيها الّا ما ندر. اما اهل الطبقة الثانية فان بهم من وجه نزوعا الى الاولى بالنظر الى العز والاستبداد ومن وجه آخر ينزعون الى الباقي بالنظر الى الجنسية والالفة . والغالب على جميع هذه الطبقات حب الوطن والمباهاة بما عندهم من الصنائع والاحكام والاذعان للقوانين التي بنيت عليها معاملات دولتهم ودواوينهم . وحيث كان اصحاب الطبقة الاخيرة هم الجمهور الاكبر كما ذكرنا وهم الحريون بان يقال فيهم بريتانيون او انكليز لكونهم بقوا على قديم شؤونهم واطوارهم ولم يعرفوا غيرهم من الاجيال لا بالمعاشرة ولا بالمطالعة وجب ان نقدم ذكرهم اولا فنقول : ان اول خلة يراها الغريب فيهم هي عدم اكتراثهم له ونفورهم منه وابتعادهم عنه فلا يفرحون لفرحه ولا يحزنون لحزنه بل لا يعني احد منهم بشان جاره ولا يهمه امر غير امر نفسه . وكل ذي حرفة يقتصر على الاشتغال بحرفته مدة حياته ولا يتطالل الى معرفة شيء غيرها . فالفلاح مثلا لا يعرف شيئا الّا ما آل الى الحرث والزرع . والقين لا يدري مما يحدث في بلاده سوى ما اختص برواج سعر الحديد والطلب على الادوات المصنوعة منه . وهلم جرا الى المهندس والطبيب . واذا استراح الرجل منهم ساعة قضاها بذكر ما عمل وما سوف يعمل . ويقال ان بهذه الخصلة استتب عز دولة الانكليز وعظمت شوكتها لان الرعية لا تعترض ذوي الامر والنهي في تدبيرهم ولا يتطاولون الى معرفة ما تقضيه سادتهم واهل شوراهم فلذلك قلما يحدث عندهم شغب او فتنة . بخلاف اهل فرنسا فان كلا منهم يتطفل على اولياء

الامر وهذا هو السبب في كثرة العساكر هناك وقلتها هنا . فان جميع ما في بلاد الانكليز من العساكر لا يزيد على خمسة وعشرين الفا فاذا قسمتها على عدد الاهلين وهو سبعة عشر مليونا ونيف كان كانه قطرة من بحر . وانا اقول ان لذلك سببا آخر وهو فقرهم المانع لهم من الاشتغال بغير ما يكسبهم القوت الضروري . فان هولاء النحل العسالة في خلية الاجتماع الانساني انما يعملون كما قال بعضهم لتسمين الزنابير البطالة . وهم اطوع خلق الله لاولياء امورهم فلو نهوهم عن ان يناموا مع ازواجهم لانتهوا . ويمكن ان يقال ايضا انهم لعدم اختلاطهم بغيرهم من الناس يحسبون انفسهم وهم في هذه الحالة اسعد خلق الله وان جميع رسومهم واحوالهم مستغنية عن التبديل والتغيير . وكيف كان فان شقاءهم موجب لسعادة الدولة وفقرهم زائد في غناها فان مصاريف العسكري الواحد هنا تبلغ في السنة مائة وسبعين ريالا وفي بروسية اثنين وستين وفي الروسية ثمانية وستين وفي اوستريا تسعة وسبعين وفي فرنسا مائة وثلثة عشر وفي أيالات النمسا على انواعها اكثر من بروسية اما في اميريكا فتبلغ مائة واربعة وثمانين ريالا (٢٩) * فائدة : اكثر ما تجهز من العساكر عند الدول في الاعصر السالفة ما كان فيه لدولة اسبانيا مائة وخمسون الفا ولبريتانية ثلثمائة الف وعشرة الاف ولبروسية ثلثمائة وخمسون الفا وللدولة العثمانية اربعمائة وخمسون الفا ولاوستريا خمسمائة الف وللروسية خمسمائة وستون الفا ولفرنسا ستمائة وثمانون الفا وهي في هذا العصر اكثر . واول من كان عنده جنود قائمة كما يرى الان شارلس الثامن ملك فرنسا وذلك في سنة ١٤٤٥ . وبه اقتدى شارلس الاول ملك الانكليز وذلك في سنة ١٦٣٨ . وحسب ذلك اولا عند الانكليز غير شرعي * وبلغ مجموع العساكر الانكليزية في سنة ١٨٥١ مائة وثمانية وسبعين الفا وستمائة وخمسة واربعين نفرا وبلغت مصاريفهم ثلثة عشر مليونا وسبعمائة واحد وعشرين الفا ومائة وثماني وخمسين ليرة * ويقال انه يلزم لكل نفر من عساكر فرانسا وانكلترة رطلان وربع من الطعام في كل يوم منها نحو ثلثة ارباع خضرة والباقي لحم وخبز فيبلغ ذلك في السنة ثمانمائة رطل

فاذا اضفت الى ذلك مشروبه من الماء والقهوة والشاي والمسكرات بلغ الفا وخمسمائة رطل . وكانت العادة قبل هذه الحرب الاخيرة (٣٠) ان يستخدم العسكري الانكليزي طول عمره وكان كثير منهم يفتدون انفسهم وبعد خمس عشرة سنة يدعون بان لهم حقا في التسريح والآن فرض على المشاة اثنتا عشرة سنة وعلى الفرسان عشرون . وفي عساكر الانكليز سبعة آلاف وثلثة وتسعون ضابطا بجامكية وافية وللنفر من حرس الملكة نحو شلينين في كل يوم ولكل من الفرسان شلين وثمانية بنس وللمشاة شلين . وثمن رتبة امير الالاي في الحرس تسعة الاف ليرة . ومصاريف العساكر البرية تبلغ سبعة ملايين ليرة والبحرية نحوها ومصاريف ديوان المهمات الحربية ثلثة ملايين * ومن طبعهم الرث وهو البلادة وقلة الفطنة فلا تكاد احداثهم تفهم شيئا من الغريب . بل الكهول ايضا لا يعون ما يلقى عليهم الا بعد الروية والتامل وشتان ما بينهم وبين الفرنساوية فان الحدث من هولاء يبتدر الى الجواب كانما قد درسه ودراه من قبل سوالك اياه . ولو قلت ان البريتاني القح ليس له من نوعي العقل سوى المكتسب ونصف الغريزي لما اخطات . وتلك صفتهم من القديم فقد روي عن شيشرون (٣١) انه قال ان ابلد الاسرى الذين جيء بهم الى رومية هم الذين اخذوا من بريتانية والتمس من صديقه اطيقوس الا يشتري فيما بعد منهم احدا وذلك لبلادتهم وعدم اهليتهم لتعلم الموسيقى وغيرها من الفنون . وروي ايضا عن قيصر انه قال: ان اهل بريتانية جيل جاف متوحش اكثر ما يكون وان معظمهم لم ينظر الحنطة في عمره قط وان قوتهم اللحم واللبن لا غير ولباسهم جلود الحيوانات . اه . قلت ليس معنى قوله قوتهم اللحم انهم كانوا يطبخونه بل انما ياكلونه نيئا مملوحا كما يظهر من رواية اهل التاريخ فانهم قالوا انه علم من دفتر مصروف حاكم نرثمبرلاند الخامس سنة ١٥١٢ ان اهل البارون كانوا يقتاتون باللحم المملوح فكان جل طعامهم . وكذلك حشمه لم يكونوا ياكلون طول السنة سوى اللحم الملح وندر معه البقول والحبوب . فمن ثم غلط من زعم ان « البيف ستك » (شواء البقر المشرح) كان مستعملا في

انكلترة من القديم فان هذا الغذاء المري لم يعهد من قبل شارلس الثاني لانه كان يحب الشواء من ظهر الحيوان . اه . قلت والى الان هم يحبون هذا الشواء غير ناضج وربما قطر دمه في الصحفة ويستطيبونه على سائر الوان الطعام ولكن من راى اهل جبل لبنان يقطعون الهبر من الضان وياكلونه نيئا فلا يلوم الانكليز . ومع تكرر ذكر مدن بر الشام على مسامعهم من المنابر في كل يوم احد ومع كثرة قرآتهم للتورات والانجيل فلا يكادون يعرفون اين موقع دمشق مثلا من الاسكندرية ولا يتذكرون شيئا عن صور وصيدا وبيروت وجبل لبنان مع انها مكررة في التوراة بما لا مزيد عليه . والظاهر ان مصر اشهر عندهم وعند الفرنساوية من بر الشام وقد سالني مرة في اكسفورد رجل له سمت وروآ فقال « من اي البلاد » فقلت « هو » ? اي مَن؟ اريد مَن تعني؟ فقال : « آ؛ من هو » ! معتقدا بان هو اسم البلاد ثم قال: « اتعرف فيها فلانا » ? فقلت : انا لست من مدينة هو وانما انت سالت سوالا مبهما يصلح لان يخاطب به اي انسان كان فاذا اردت الان ان تعرف اسم بلادي فهي سورية . فقال احد الجلوس بعد طول تامل « هل سورية مدينة كبيرة » (٣٢) ? الا ان بلادتهم هذه مقرونة بشيء من سلامة الصدر وخلوص النية كما ان فطنة الفرنسيس مقرونة بالمكر والمحال وكما ان عامة الفرنساوية يحسبون كل غريب فيهم من اسبانية ولاسيما اذا كان اسمر اللون كذلك عامة الانكليز يحسبون كل متغرب بينهم فرنساويا سواء كان اسمر او اسود او كان على راسه طربوش (٣٣) او طرطور . هذا ولما كانت خلة الجهل ابدا ملازمة للفظاظة والخشونة كان لهولاء القوم الحظ الاوفر منهما فانهم قد يحدقون في وجه الغريب ثم يتبعونه بقهقهة ويسخرون منه ولاسيما اذا لم يكن يحسن النطق بلغتهم على انهم هم انفسهم لا يحسنون النطق بها فكلامهم كله لحن وخطا . اما غناوهم فلا يمكن لذي ذوق ان يطرب به . وقد سمعت اغاني الفرنساوية وسائر الافرنج فوجدت كثيرا منها يشجي لان فيها ترجيعا ومدا . فاما اغاني الانكليز غير التي يتلقونها من الطليانيين والفرنساويين في الملاهي فكلها نبر ودرج * ومن طبعهم انهم

لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض . وكيف يسهرون وهم انما يرقدون في الساعة التاسعة ويقومون صباحا في الرابعة كل ذلك حتى ياكلوا الفقع ويشربوا الفقاع ! وربما اقام الرجل سنين ولا يعرف جاره . وكذا اهل المدن . وغاية محاورتهم اذا تلاقوا في الطريق ان يقول احدهم « طيب بطرس » فيقول الاخر « طيب يوحنا » وكنت اذا مررت باحد منهم يقول لى « صباح حسن » فاقول له « صباح حسن » وكنت احسب ذلك تحية لان تحية الصباح عندهم « صباح طيب » فظننت انهم يقيمون لفظة مقام لفظة حتى سالت دكطرلي فقال لى : « ليس ذلك من التحية في شئ وانما هو مجرد اخبار عن الصباح » واذا اجتمع المتعارفان منهم وتسالا فلا بد وان يبتدي احدهما اولا بوصف الهواء وصحوه او برده ثم يخبره بما عرض له من وجع في كتفه او ثالول في رجله او اختلاج في عينه فيقول السامع « يحزنني ذلك » ومتى اجتمعوا للمنادمة ـ وذلك لا يكون غالبا الّا في القرى الجامعة ـ ملاوا كوبا كبيرا من الجعة وجعل كل منهم يكرع منه كرعة ويدخن في قصبة من الطين ثم يبصق فيملاون المكان بصاقا وقذرا . وفي خلال كل محاورة يجددون وصف الهواء ولا يكاد احدهم يضحك ضحكا طبيعيا وانما هو عبارة عن قهقهة بلا ادب ثم يعقبها العبوس وما كان الضحك منهم الّا قوة من القوى فهم يكتمونه ما امكن مخافة ان تخرج منهم * ومن طبعهم ان لا يحترموا الشيخوخة من حيث هي شيخوخة ولا تهاب الاولاد والديهم كما يهابون عندنا ولا يحن الوالدون ايضا على اولادهم كما عندنا ولذلك يقع كثيرا ان الاب يقتل ولده والولد يقتل اباه وامه كما ياتي بيان ذلك وقد يحدث عندهم ايضا مضاجعة الاب ابنته ولكن لم يبلغني ان ولدا ضاجع امه وفي المدن الجامعة قد تتواطا الام وابنتها او الاخت واختها على الفحش والفساد * ومن منكر عاداتهم التي لا يمكن ان يحولوا عنها مع علمهم بان جميع سكان اوربا قد خالفوهم فيها حلقهم لحاهم وشواربهم حتى ان عساكرهم لم تتحل بها الّا في هذه الحرب الاخيرة التي وقعت بين دولة الروسية وغيرها . فليت شعري كيف يرى وجه الجندي محفوفا منتوفا كوجه المراة . ثم ليت شعري

اي حسن للشاب اكثر من الشوارب واي حلية وفضل وكمال للشيخ اكثر من اللحية؟ واغرب من ذلك ان قضاتهم واولي الامر منهم اذا جلسوا لفصل الامور وضعوا على روسهم شعرا ابيض عارية وارخوا منه نحو ذنب معقود على قذلهم . فاخبرونا ايها الناس كيف يكون الحسن والهيبة في ذنب ولا يكونان في لحية؟ لعمري ان الشيخ بلا لحية وشوارب اشبه بالقرود منه بالانسان وان الشاب بلا شوارب اشبه بالانثى او الخنثى منه بالرجل فانها من علامات الرجولية ومما خلقه الله من المحاسن الطبيعية . وان يكن من عذر للعامة في حلق لحاهم فلا ارى للقسيسين وغيرهم من اهل الكنيسة عذرا . فان المسيح ورسله كانوا كلهم ملتحين وكانوا يشربون عين الكاس التي يشربها هولاء فكيف كانوا يفعلون (٣٤) ؟ غير اني لا اقول بترك اللحية على حالها فالاحسن ان تتحوف حتى تكون مستديرة بالوجه . قال الامام الشريشي: « وكان النبي صلعم ياخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسواء وكان عبد الله بن عمر يقبض على لحيته وياخذ ما زاد منها على قبضته » . قال الحسن بن المثني: « اذا رايت رجلا له لحية طويلة ولم يتخذ لحية بين لحيتين كان في عقله شي » . قال الشاعر:

« اذا عظمت للفتى لحية ٭ فطالت وصارت الى سرته »
« فنقصان عقل الفتى عندها ٭ بمقدار ما زاد في لحيته »

ونظر يزيد بن مزيد الشيباني الى رجل ذي لحية عظيمة وقد تلففت الى صدره واذا هو خاضب فقال له: « انك من لحيتك في مئونة » فقال: « اجل » ولذلك اقول:

لعمرك لو يعطي الامير على اللحى ٭ لاصبحت قد ايسرت منذ زمان
اذن لشفتني لحية من عصابة ٭ لهم عنده الف ولي مائتان
لها درهم للدهن في كل جمعة ٭ وءاخر للحناء يبتدران
ولولا نوال من يزيد بن مزيد ٭ لصوت في حافاتها الجلمان

وقال يعقوب الكندي لجارية كان يهواها: « اني ارى فرص الاهتياضات من التوقعات على طالبي المودات موذنات بعدم المعقولات . فنظرت اليه

لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض . وكيف يسهرون وهم انما يرقدون في الساعة التاسعة ويقومون صباحا في الرابعة كل ذلك حتى ياكلوا الفقفع ويشربوا الفقاع ! وربما اقام الرجل سنين ولا يعرف جاره . وكذا اهل المدن . وغاية محاورتهم اذا تلاقوا في الطريق ان يقول احدهم « طيب بطرس » فيقول الاخر « طيب يوحنا » وكنت اذا مررت باحد منهم يقول لي « صباح حسن » فاقول له « صباح حسن » وكنت احسب ذلك تحية لان تحية الصباح عندهم « صباح طيب » فظننت انهم يقيمون لفظة مقام لفظة حتى سالت دكطرلي فقال لي : « ليس ذلك من التحية في شيء وانما هو مجرد اخبار عن الصباح » واذا اجتمع المتعارفان منهم وتسآلا فلا بد وان يبتدي احدهما اولا بوصف الهواء وصحوه او برده ثم يخبره بما عرض له من وجع في كتفه او ثالول في رجله او اختلاج في عينه فيقول السامع « يحزنني ذلك » ومتى اجتمعوا للمنادمة ـ وذلك لا يكون غالبا الّا في القرى الجامعة ـ ملاوا كوبا كبيرا من الجعة وجعل كل منهم يكرع منه كرعة ويدخن في قصبة من الطين ثم يبصق فيملاون المكان بصاقا وقذرا . وفي خلال كل محاورة يجددون وصف الهواء ولا يكاد احدهم يضحك ضحكا طبيعيا وانما هو عبارة عن قهقهة بلا ادب ثم يعقبها العبوس وما كان الضحك منهم الّا قوة من القوى فهم يكتمونه ما امكن مخافة ان تخرج منهم * ومن طبعهم ان لا يحترموا الشيخوخة من حيث هي شيخوخة ولا تهاب الاولاد والديهم كما يهابون عندنا ولا يحن الوالدون ايضا على اولادهم كما عندنا ولذلك يقع كثيرا ان الاب يقتل ولده والولد يقتل اباه وامه كما ياتي بيان ذلك وقد يحدث عندهم ايضا مضاجعة الاب ابنته ولكن لم يبلغني ان ولدا ضاجع امه وفي المدن الجامعة قد تتواطا الام وابنتها او الاخت واختها على الفحش والفساد * ومن منكر عاداتهم التي لا يمكن ان يحولوا عنها مع علمهم بان جميع سكان اوربا قد خالفوهم فيها حلقهم لحاهم وشواربهم حتى ان عساكرهم لم تتحل بها الّا في هذه الحرب الاخيرة التي وقعت بين دولة الروسية وغيرها . فليت شعري كيف يرى وجه الجندي محفوفا منتوفا كوجه المراة . ثم ليت شعري

اي حسن للشاب اكثر من الشوارب واي حلية وفضل وكمال للشيخ اكثر من اللحية ؟ واغرب من ذلك ان قضاتهم واولي الامر منهم اذا جاسوا لفصل الامور وضعوا على روسهم شعرا ابيض عارية وارخوا منه نحو ذنب معقود على قذلهم . فاخبرونا ايها الناس كيف يكون الحسن والهيبة في ذنب ولا يكونان في لحية ؟ لعمري ان الشيخ بلا لحية وشوارب اشبه بالقرد منه بالانسان وان الشاب بلا شوارب اشبه بالانثى او الخنثى منه بالرجل . فانها من علامات الرجولية ومما خلقه الله من المحاسن الطبيعية . وان يكن من عذر للعامة في حلق لحاهم فلا ارى للقسيسين وغيرهم من اهل الكنيسة عذرا . فان المسيح ورسله كانوا كلهم ملتحين وكانوا يشربون عين الكاس التي يشربها هولاء فكيف كانوا يفعلون (٣٤) ؟ غير اني لا اقول بترك اللحية على حالها فالاحسن ان تتحوف حتى تكون مستديرة بالوجه . قال الامام الشريشي : « وكان النبي صلعم ياخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسواء وكان عبد الله بن عمر يقبض على لحيته وياخذ ما زاد منها على قبضته » . قال الحسن بن المثني : « اذا رايت رجلا له لحية طويلة ولم يتخذ لحية بين لحيتين كان في عقله شيء » . قال الشاعر :

« اذا عظمت للفتى لحية * فطالت وصارت الى سرته »
« فنقصان عقل الفتى عندها * بمقدار ما زاد في لحيته »

ونظر يزيد بن مزيد الشيباني الى رجل ذي لحية عظيمة وقد تلففت الى صدره واذا هو خاضب فقال له : « انك من لحيتك في مئونة » فقال : « اجل » ولذلك اقول :

لعمرك لو يعطي الامير على اللحى * لاصبحت قد ايسرت منذ زمان
اذن لشفتني لحية من عصابة * لهم عنده الف ولي مائتان
لها درهم للدهن في كل جمعة * وءاخر للحناء يبتدران
ولولا نوال من يزيد بن مزيد * لصوت في حافاتها الجلمان

وقال يعقوب الكندي لجارية كان يهواها : « اني ارى فرص الاحتياطات من التوقعات على طالبي المودات موذنات بعدم المعقولات . فنظرت اليه

وكان ذا لحية طويلة فقالت: « ان اللحى المسترخيات على صدور اهل الركاكات محتاجات الى المواسي الحالقات » * وكان المامون جالسا مع ندمائه ببغداد مشرفا على دجلة وهم يتذاكرون اخبار الناس فقال المامون: « ما طالت لحية انسان قط إلّا ونقص من عقله بمقدار ما طال من لحيته وما رايت عاقلا قط طويل اللحية » . فقال له بعض جلسائه: « ولا يرد على امير المومنين قد يكون في طول اللحى ايضا عقل » فبينما هم يتذاكرون هذا اذ اقبل رجل كبير اللحية حسن الهيئة فاخر الثياب فقال المامون: « ما تقولون في هذا الرجل ? » فقال بعضهم: « رجل عاقل » وقال آخر: « يجب ان يكون هذا قاضيا » فقال المامون لبعض الخدم: « علي بالرجل » . فلم يلبث ان اصعد اليه ووقف بين يديه فسلم فاجاد السلام فاجلسه المامون واستنطقه فاجاد النطق فقال المامون: « ما اسمك » ? فقال: « حدويه » . قال: « والكنية ? » قال: « ابو علويه » . ثم قال: « ما صنعتك ? » قال: « انا فقيه اجيد مسائل الشرع » . فقال له: « نسالك مسالة » فقال الرجل: « سل ما بدا لك » فقال له المامون: « ما تقول في رجل اشترى شاة من رجل فلما تسلمها المشتري ضرطت فخرج من استها بعرة ففقات عين رجل فعلى من توجب دية العين ? » قال فنكت باصبعه في الارض طويلا ثم قال: « تجب على البائع دون المشتري » . فقال المامون: « وما العلة التي اوجبت الدية عليه دون المشتري ? » قال: « انه لما باعها لم يشترط ان في استها منجنيقا » قال فضحك المامون حتى استلقى على قفاه وضحك كل من حضر من الندماء وانشد المامون يقول:

« ما احد طالت له لحيته * فزادت اللحية في حليته »

« إلّا وما ينقص في عقله * اكثر مما زاد في لحيته »

وكانت عايشة رضي الله عنها تقسم وتقول « لا والذي زين الرجال باللحى » وجاء انه قسم الملائكة . قلت: وانا اقسم واقول: لا والذي زين النساء بعدم اللحى * انتهى الكلام على اللحية غير انه علق بي منها شيء وهو انه ورد عن النبي صلعم انه قال: « احفوا الشوارب واعفوا اللحى » . وفي الصحاح

ما نصه : « وفي الحديث انه امر ان تحفى الشوارب وتعفى اللحى . فكيف التوفيق بين هذا القول وبين قول الشريشي ان النبي كان ياخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسواء » * ومن الانكليز من يرد خصلا من شعر راسه فوق اذنيه فترى اعينهم بارزة بين قرني شعر وقذالهم يشبه جبهة الثور الناطح * فاما اتخاذ العارية من الشعر الابيض فاصله فيما قيل ان لويس الرابع عشر كان ردي الشعر فاتخذ له عارية يستر بها عوار راسه وكان اذ ذاك شيخا فاقتدت به اماثل البلاد . وسرت هذه العادة الى الانكليز وهم في اكثر الاشياء مقلدون للفرنسيس . وقد وهي استعمالها الان بالنسبة الى الاول الا في دواع معلومة واحوال خصوصية . منها يوم مبايعة الملك او تبريكه او تهنئته . ففي ذلك اليوم تتحلى كبراء دولته بهذه العارية ويقابلونه بها . ومنها وقت جلوس القاضي على كرسي القضاء لتنفيذ الاحكام الشرعية كما مر . وفي محال اللعب والملاهي حين يحاكي اللاعبون واللاعبات من سلف من الملوك والملكات ترى هذه العارية على روس الاحداث من الرجال والنساء وكانها تزيد الحسن حسنا فكانها مصداق على قول الشاعر « كل شي من المليح مليح » ثم لما اخذت هذه العادة في العقم نتج عنها ذرو الرماد الابيض على روس خدمة الاشراف والعظماء . واصل هذه ايضا فيما قيل ان بعض المغنين كانوا يغنون في موسم صان جرمان بخارج باريس وبهم قرع فكانوا يبيضون روسهم ليضحكوا الناس . ثم انتقلت هذه العادة كغيرها من العادات من العامة الى الخاصة وذاع استعمالها في سنة ١٦١٤ . وفي سنة ١٧٩٥ جعل عليها ضريبة وكانت حينئذ قد بلغت التناهي فجعل على كل راس جيني (٣٥) ولم يزل الى الان . والحاصل ان اعظم الاسباب التي تبقي استعمال هذه العادات السخيفة هو حصول النفع منها لخزنة الدولة فانه حيثما وجد الربح وجد السداد والرشاد ولو ان الديوان ضرب طسقا على اللحى والشوارب لما وسع الناس الا ان يقولوا ان يد الرب على قلب الملك * ومن عادة العامة الملاكمة ويقال لها « البوكس » وفي محفوظي ان الشيخ رفاعة ذكرها في قلائد المفاخر بلفظة « البوكسة » وذلك اذا تخاصم اثنان او تكافيا

ينزع كل منهما رداءه ويشمر عن ذراعه ويصوب الى وجه قرنه جمع كفه ويأخذان في اللكام حتى يغلب احدهما . وحينئذ ينهض الغالب المغلوب ويأخذ بيك ويشربان الشراب كالمتحابين . والملاكمة للعامة بمنزلة المسايفة للعلية غير ان هذه محظورة يجب فيها الحد وتلك مسكوت عنها . وقد كانت سابقا بمنزلة الملهى في اجتماع الناس للتفرج عليها وفي اواخر القرن الماضي كانوا يتعلمونها في المدارس * ومن طبع الانكليز عموما التهافت على الشهرة والنباهة بين اقرانهم باي سبب كان ولاسيما في اسباب المعارف والعلم . فان من يعرف منهم مثلا بعض كلمات من اللغة العربية ومثلها من الفارسية او التركية فاذا الف كتابا بلغته ادرج فيه كل ما يعرفه من غيرها ليوهم الناس انه لغوي وما عليه ان كتب تلك الالفاظ على حقها او اخطا فيها . وفي عنوان كتابه تعلق عليه جلاجل من الالقاب لا تحصى . فيكتب له من اعضاء جمعية كذا . وملخص كتاب كذا . ومحرر نبذة كذا وخطيب مثابة كذا وهلم جرا . ولو عصرت كتابه كله لما بللت منه صدى مسالة . واقبح من ذلك انهم لا ياخذون اللغات عن اهلها ولا يتحرجون من ان ينسبوا اليها ما ليس منها . انظر الى ريشردسون الذي الف كتاب لغة في لغته ولغتي العرب والفرس . فاقسم بالله انه كان لا يدري من لغتنا نصف ما ادريه انا من لغته . بل سولت له نفسه ايضا الى ان ترجم النحو العربي فخلط فيه ولفق ما شاء فمثل للاضافة بقوله « قدح فضة » و « ملك كسرى » و « راس امان » و « الغالب عجم » و « غالب عجم » و « كتاب سليمان » و « نصرا عقبه » وفسرها بانها مثنى مضاف الى العقبة و « نصروا عقبه » و « النصرا عقبه » و « النصروا عقبه » . واورد حكاية من كتاب الف ليلة وليلة عن ذلك الاحمق الذي قدر في باله ان يتزوج بنت الوزير ذلها وصل الى قوله « ولا اخلي روحي الا في موضعها » ترجمها بقوله : « لا اعطي الحرية لنفسي اي لزوجتي الا في حجرتها » . وقوله ايضا « ولا ازال كذلك حتى تتم جلوتها » صحف « جلوتها » بجلدتها فقال « ولا اكف حتى يتم ذلها » وعند قوله « حتى يقول جميع من حضر » كتب في الحاشية

« حظر » وحضرة بمنزلة السمو في الانكليزية . وقس على ذلك * واذا ترجم احدهم كتابا رقعه بما عن له وسبكه في قالب لغته . فقد قرات كثيرا مما ترجموه من كلامنا الى كلامهم واذا به مسبوك في قوالب افكارهم مما لم يخطر ببال المولف قط . وقرات ترجمة منشور صدر من السلطان في الحض على الجهاد من جملته « ليس لعباد النبي من خلاص في هذه الدنيا ولا في الاخرة الا بجهاد الكفار » فانظر ان كان المسلمون يقولون النبي « معبود » ! وما رايت احدا تحرج من هذا التلفيق والافتراء والترقيع غير مستر صال الذي ترجم القرآن ومستر لان الذي ترجم حكايات الف ليلة وليلة ومستر برسطون الذي ترجم خمسا وعشرين مقامة من مقامات الحريري . اما الاول فقد ذكر ڤلتير انه مكث بين العرب سنين مديدة واخذ عنهم علم العربية حتى تهيا له ترجمة القرآن . ولست من ذلك على ثقة اذ الظاهر من مقدمته للقرآن انه لم يخالط العرب وكيف كان فهو من المحققين . واما الثاني فانه لبث في مصر وعاشر علماءها وادباءها . واما الثالث فانه كان قد سار الى الديار الشامية واستصحب منها الشيخ (٣٦) امين الشميل النحوي الاديب . وما عدا هولاء الثلثة فكما قال عقيل بن علقمة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما :

« خذا بطن هرشى اوقفاها فانه * كلا جانبي هرشي لهن طريق »

فان احدهم لا يبالي بان يودي معنى الترجمة باي اسلوب خطر له فلو قرا احدهم سبا في كتبنا نحو « يحرق دينه » ترجمه ان دينه ساطع متلهب من حرارة العبادة والقنوت بحيث انه يحرق جميع ما عداه من المذاهب اي يغلب عليها فهو الدين الحقيقي كما ورد ان الله نار آكلة . وهكذا فليس لعمري علم لغتنا عندهم سوى سبب يتوصل به الى غيرها كالعبرانية والسريانية فان هاتين عندهم اهم وانفع . وناهيك ان دخل مدرس العبرانية في كمبرج الف ليرة في السنة ودخل مدرس العربية سبعون فقط . ومتى عرف احدهم شيئا من لغتنا طابقه على غيره من تلك واستخرج منه فائدة تختص بالمطابق عليه . وقد جرى مرة بحضرة دكطور لي ذكر احد النمساويين فقلت انه ذو

دعوى كونه نظم ابياتا في لغتنا وشهرها في كتاب مطبوع وكلها لحن وزحاف ولو كان ذا ادب لما تكلف للنظم من دون معرفة قواعده وهو بعيد عليه بل على جميع الافرنج الذين لم ياخذوا عن العرب . قال: «كيف ونحن ننظم الشعر في اليونانية واللاتينية ولم نخالط اهلهما ؟» قلت: ههنا فرق عظيم وهو ان هاتين اللغتين لكم كالاصل للغتكم فتتعلمونهما على صغر اما العربية فهي اجنبية عنكم . قال: «ان الرجل ليمكنه ان يتعلم اي لغة شآء كما يتعلمها الطفل» قلت: اما انا فما هذا مذهبي واني اعطي كتبي كلها لاي افرنجي كان اذا كان ينظم بالعربية بيتين صحيحين بليغين . قال: «انا انظم لك الليلة ثلثة ابيات» . فلما قابلته في الغد اذا به قد ادى الي رقعة كتب فيها :

«الم تر يا صاح بهذا علامة * بان صار الاجنبي يجري كرامة »
« وان لم يكن هذا عروضا مصححا * فلا تعطه اجرا اسفارك عامة »
« فان كان ذا اذا صحيحا وسالما * ستسلمه اجرا اسفارك رامة »

فلما قراتها قلت له : فيها زحاف وخطا سابينهما لك . فسكت ساعة ثم قال: اتدري ما الالف التي في «قفا» من قول امرء القيس «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» ؟ قلت: هي الف التثنية عند البعض فان الشاعر خاطب صاحبين له وذلك مستفيض في كلامهم وعند غيرهم انها مقلوبة عن نون التوكيد . قال: «هذا كله تمحل وتعسف وانما هي مقلوبة عن الهآء من العبرانية فان اليهود يلحقون الهآء بفعلي الامر والنهي دلالة على الطلب والتوسل» . ثم بينت له بعد ذلك خطا ابياته فما كان منه الّا ان قال ان لغة العرب ليست مطبوعة كسائر اللغات بل هي لغة مصنعة متكلف فيها كثرة القواعد والضوابط بخلاف لغات اوربا وطفق يبين انه يجوز في اللغة اللاتينية ان تقام الحركة الطويلة مقام القصيرة نحو ان تجرى لفظة «ماد» مجرى «مد» ونحو ذلك ثم سالني بعد ذلك : «كيف تفعلون بال في قولك «الدين» فانه اجتمع فيها ثلثة سواكن وانت تقول انه لا يجتمع في العربية ساكنان» ؟ فقلت: اين السواكن الثلثة هنا ؟» قال: «الالف واللام والدال» . وقال لي يوما : «اتدري من اين

اشتقاق الزنا » ? فقلت : لا ادري قال : « من العبراني فان زنى فيهما بمعنى باع فكان الزانية تبيع نفسها للرجل » . وسالني مرة اخرى : « اتدري ما اصل المدة في نحو قولك آمن » ? فقلت : لا ادري من امرها شيئا سوى انها علامة . فقال : « هي كالالف في السرياني » . وقرا يوما « قوما بطالين » فقال : « البطال عند الصوفية في ثاني مرتبة العابد » . فقلت : قل البطل اذا . وقال ايضا ان « يومنا » في قول العرب الى « يومنا هذا » من السرياني وهو « يومان » * وذكطرلي هذا كان استاذ العربية في كمبرج وكان ذا اجتهاد لا ملل معه . فكان يقعد على الكرسي للمطالعة اربع ساعات ولا يتحلحل عنه . وما اخال احدا غيره اشتهر بما اشتهر به هو في علم اللغات المشرقية . وتوظفه في كمبرج هو السبب الذي حداني الى الحضور الى هذه البلاد لان الجمعية لما استاذنت حاكم مالطة بواسطة وزير الامور الخارجية في احضاري لاجاور دكطرلي ظننت ان مكثي يكون في تلك المدينة . وهي وان تكن لا تشوق احدا للسكنى فيها غير من يقصدها للتفقه في الفنون الا انها على كل حال احسن من القرى . وذلك كنت ادريه من قبل الا ان البواعث الحالية والدواعي الكونية اوجبت على دكطرلي ان يعدى عن وظيفته تلك وان يكون قطع انف عرفجة يوم الكلاب سببا في سجن مستملي جان بن بشر قاضي بغداد (٣٧) . ولم يكن شيء يسليني في تلك القرية سوى ترقب الشهر الذي يسافر فيه الدكطر المذكور الى برستول لاسافر معه حيث قدر علي ان اكون معه في كل مكان وزمان . غير ان المذكور توفي وانا في باريس واعفاني الله من السفر معه الى تلك الديار فرحمه الله بمنه وكرمه * ثم اني لما سرت الى اكسفورد قصدت ان ارى خزانة الكتب فسالت بواب المدرسة عن شيخ العربية ليهديني لها . فاخذ يطالع في فهرسة المعلمين فلم يهتد الى اسمه. فقلت له : كيف وانت ملازم لهم لا تعرفهم ? فقال ان شيخ العربية لا يعلم ولا يدرس ولكن له قاري فاذا قرا القاري شيئا ياخذ الشيخ في شرحه اي في توجيهه الى وقائع تاريخية تتعلق بذلك الموضوع وفي مطابقته على بعض اللغات كما سابين لك عن

قريب . ثم بعد طول معالجة وبحث اهتديت الى دار الشيخ فتوجهت اليه وسالته ان يريني المكتبة تفضلا وتكرما . فاجاب الى ذلك وسرنا معا . واول كتاب فتحه كان بالخط الكوفي واذا في اول الصفحة لفظة « الا » فقراها « الآ » وفسرها انها الله . فتعجبت كيف انه انخدع لسمعه لانهم جميعا يلفظون اسم الجلالة هكذا . وسالني مرة استاذ آخر: « اتعرف لم دلت « في » على الظرفية » ؟ فقلت: لا ادري . قال: « بل انا ادري وذلك لاشتقاقها من الفم الذي اصله فوه » . ولا باس ان اذكر لك مثالا على علم هولاء الاساتيذ وعلى تطفلهم على ما ليس لهم به من خلاق فتصور مثلا ان قارئا يقرا على الشيخ قول ابي تمام:

« همة تنطح النجوم وجد * الف للحضيض فهو حضيض »

فيقول الشيخ بلغته ان « النطاح » مختص بالحيوانات التى لها قرون كالثور والتيس والوعل ونحوها ويمكن ان ينسب ايضا الى ما ليس له قرن منها . فقد روى ليناوس الذي قسم جنس الحيوان الى سبعة اقسام ان الحيوانات الجماء تتناطح بجباهها . وقد اطلقت العرب اسم الكبش على آلة من آلات الحرب لما انها تنطح الجدار . و « النجوم » معروفة وقد كانت العرب تهتدي بها في اسفارهم قبل ان عرفت خاصية ابرة المغنطيس . ولما كانوا مشتغلين بالعلوم الفلكية والطبية لم يكن في اوربا من يشم لها رائحة . ولما فتحوا اسبانية او جزيرة الاندلس(٣٨) وذلك في نحو سنة ٧٥٠ اخذ عنهم العلوم بعض من اهل البلاد ومنهم سرى في سائر بلدان اوربا وكان انقراض الخلافة من قرطبة سنة ١٠٣١ بعد ان دامت العرب اصحاب الامر والسيادة فيها نحو مائتين وخمس وسبعين سنة . اما الالف واللام التى في النجوم فهي اداة التعريف وهي في الطليانية والاسبنيولية والفرنساوية « ال » للمذكر و « لا » للمونث . واللغة اللاتينية ليس لها اداة تعريف فاما اليونانية ففيها عدة ادوات . ويوجد في لغتنا الفاظ كثيرة مبدوة بهذا الحرف منها ما هو عربي وذلك نحو « الكنا » (اي الحنا) و « الكحل » و « القائد » و « الجبرة » (الحبر) و « القرآن » و « القلي » و « القرثيم » او « الكرزيم » ومنها ما هو لاتيني . فاما

اللغة الاسبنيولية ففيها من هذا النوع الفاظ لا تعد . فاما عدم لفظ اللام في النجوم فهو لكون النون من الحروف الشمسية . واول من قرر طريقة سير النجوم حول الشمس وسير القمر حول الارض ونسبة بعضها الى بعض وعلة المد والجزر والنور والجذبية الفيلسوف اسحاق نيوطون ولد سنة ١٦٤٢ ومات سنة ١٧٢٧ وكان ذا جد ومثابرة على العلم لا تنظر . اما قوله «جد الف للحضيض» فالحضيض معناه هنا الارض فهو من تسمية الكل بالجزء وفحوى البيت انه ذو عناية بالارض اي بحرثها واحيائها وانشآء المدن فيها وتسوية الاحكام بين اهلها حتى انه اي الممدوح صار ارضا وخصبا لقاصده . فاما ان كان هذا الشيخ قد تلمذ لشيخنا الاكسفوردي المشار اليه فانه يقرا «الحديد» بدل الحضيض فيكون تاويله وجد اى حظ او اب الف لاستعمال السلاح وقهر العدو . وهكذا يمشي على انعكاس المعنى بهذا القصد هو وتلامذته وبعد انقضآء نحو ساعة ونصف على تاويل هذا البيت يقومون وهم سامدوا الروس عجبا وفخرا ويظنون ان شيوخ الجامع الازهر والزيتوني والاموي هم دون هذا النحرير الذى عرف مولد نيوطون ووفاته واستيلاء المسلمين على الاندلس . وقد استبد هولاء الاساتيذ بهذه الدعوى بحيث انهم لا يوظفون الغريب في هذه المدارس وانما يسمحون له بان يعلم اشخاصا على حدتهم فلا هم يتعلمون حق التعلم ولا ياذنون لغيرهم في ان يعلموا حق التعليم . وهذا الداء فاش ايضا في مدارس فرنسا مع استتباب المصالح فيها . ولا بد لشيخ العربية من ان يكون عالما باللاتينية حتى اذا جهل شيئا من تلك عمد الى هذه فقور منها رقعة * واعلم ان كمبرج واكسفورد هما مدينتان في بلاد الانكليز كل منهما تحتوي نحو عشرين مدرسة والفي طالب . ففي الاولى تعلم الهندسة والرياضيات والالهيات وفي الثانية علوم الادب والفقه والمنطق والفلسفة . ولا يمكن التعلم فيهما إلّا بنفقة زائدة وما احد يقصدهما إلّا اولاد الكبراء والاغنيآء ولاسيما اكسفورد فهناك ترى طالب العلم شامخا بانفه مصعرا خده كانما هو طالب ملك الصين والهند . واكثرهم يصرف همه في ركوب الخيل واللذات وينبذ العلم ظهريا . فمتى حان يوم الامتحان

عرف ما يريد الشيخ ان يمتحنه به من المسائل اذ هي محصورة معدودة فيجتهد في حفظها وترسمها . فاذا سردها عليه واحسن سردها اجازه بصك يذكر فيه انه نال مرتبة المعلمين وهي عندهم متنوعة . ولكل من هذه المدارس اوقاف يعيش منها القسيسون الملازمون لها ويقال لكل منهم « فلو » وربما كان ايضا من غير القسيسين . فان كل من نبغ في علم من العلوم اجري عليه الرزق من الوقف فمنهم من له مائتا ليرة في السنة ومنهم من له اكثر ولكن بشرط ان لا يتزوج . فمتى تزوج انقطع عنه رزقه إلَّا انهم لا يتزوجون غالبا إلَّا بعد ان يحصلوا على معيشة من خدمة احدى الكنائس . وفي كل سنة من يوم معلوم منها يحصل نزاع ولكام بين طلبة العلم وبين الاهلين وربما غلبت فيه الطلبة على قلتهم . ويسمونه يوم « اكثون والتون » (٣٩) وذلك لان الطلبة يلبسون ثوبا اسود كالقفطان ويقال له « كون » والبلد عندهم يقال له « تون » . وفي كل من المدينتين مكتبة عربية غير ان كتب اكسفورد اكثر وفيها في سائر اللغات نحو ثلثمائة الف كتاب . واعظم ما سرني فيها هو نزولي في محل كان يسكن فيه شكسبير (٤٠) كذا قيل لي والله اعلم * وفي مدة اقامتي كلها في كمبرج وهي اكثر من سنة لم ار من اللهو إلَّا قردا وقرادا يلاعبه وكان القرد يضرب بالدف والنساء والاولاد والرجال يجرون وراءه ولم ار احدا منهم اعطاه شيئا . ورايت مرة اخرى امراتين تعزفان بآلة الطرب فرميت لهما من الشباك بنصف شيلين فاستكثرتاه (٤١) . ثم القائم بخدمة اصحاب هذه المدارس نساء واغلبهن حسان فتاتي المراة في الصبح الى محل احدهم وهو في فراشه لتوقد له النار وفي الليل تحضر له الشاي . وكنت مرة عند احدهم فاقبلت امراة كانها البدر الطالع وقالت له : « هل دعوتني يا سيدي ؟ قال : لا . ثم دعاها لتحضر الشاي . فتاملتها على النور واذا هي نور ثان . وقد ذكرت ذلك لبعض المتورعين من اهل المدارس فاقر بانه غير لائق وانما جرت به العادة ولاسيما ان هولاء النساء متزوجات ولا يذهبن الى ازواجهن إلَّا عند نصف الليل . وفي هاتين المدينتين عادة قبيحة في البيع والشراء وذلك ان الباعة يبيعون الطلبة نسيئة ويتقاضونهم

ما هو فوق القيمة فاذا اراد غريب ان يشتري شيئا اقتضوه قيمة النسيء الا ان يكون الشاري عارفا باحوالهم فيقول « انما شراءي بالنقد » وقل من يذكر له ذلك . وحيث كان هولاء الطلبة من ذوي الايسار والترفه كانت هاتان المدينتان اغلى من سائر بلاد الانكليز * اما ما عندهم من الطيرة والتفاول فقد ذكر صاحب الجرنال المسمى اخبار العالم عدد ٦٨٤ ان الانكليز يتطيرون من لقآء المراة الحولاء ما لم تبادر بالكلام فحينئذ تزول الطيرة — ومن السفر يوم الجمعة — وان يكون المدعو في عيد الميلاد رابع عشر شخصا — وان يُعارض سكينان وقت الغداء — وان يمشي احد تحت السلالم — وان تبقى اغصان الميلاد في البيت بعد عيد « كندلماس » والّا فان ابليس نفسه ياتي وياخذها . قلت اغصان الميلاد هي اغصان يقتطعونها ويزينون بها الغرف والبيوت ليلة عيد الميلاد ويقال لها « ميزلتو » وهي عادة قديمة من عادات اعياد « الدرويدس » وهم حكماء اهل بريتانية سابقا وسياتي ذكرهم . قال واذا رمي بنعلين باليتين خلف من فصل عن المنزل كان ذلك فالا بنجاحه وتوفيقه . وهذا تستعمله خصوصا علية الناس في بعض البلاد ولاسيما عند الاعراس — واذا قص الانسان شعره مدة نمو القمر نمى وجثل — ويتطيرون ايضا من روية الهلال من شباك او زجاج ونحوه فاذا رايته في الفضآء فاقلب ما في جيبك من الدراهم او الفلوس وتمن خيرا في الشهر القابل تنله — وان يضع احد ملحا في صحفة غيره — وكذا لو قلب احد وعآء الملح على المائدة . واصل ذلك ان بعض المصورين الطليانيين صور العشآء الاخير (٤١) ويهودا مبددا للملح . قلت عادة اهل بلادنا اذا ابصروا الهلال ان يبرزوا له دينارا ويقولوا «جعلك الله شهرا مباركا» . فاما قلب الملح فانه عند العرب كناية عن الغدر والخيانة وحفظه كناية عن حقوق المودة والعشرة وقسمهم بذلك لتعظيمه . قال الامام الخفاجي « وعليه قولي في خائن الاخوان :

« لا يعرف الخبز ولا الملح اذ * ياكل في غيبته لحم اخيه »

كذا نقلته ولعله قال «ياكل لحم الاخ في غيبته» ليتزن البيت — واذا انقلب الكرسي برجل عزب كان دليلا على ان الرجل لا يتزوج في تلك السنة وهو

غريب فانهم شبهوا المراة بالكرسي وهو عين ما عنته العرب بقولهم « قعيدة الرجل امراته » — واذا تاجج لهيب النار وسمع له حس استدل بذلك على نزاع ونقار يقع بين اهل البيت — واذا طارت جمرة من النار ووضعتها عند اذنك وسمعت لها طنينا دل ذلك على قبضك دراهم — واذا قطرت الشمعة الموقدة كان دليلا على الموت — واذا بدا حباب في القهوة ونحوها كان علامة على قبلة او قبض دراهم(٤٢) — ورؤية نحو عكر متقسم الى اجزاء في قدح دليل على سفر طويل ومشاق — ووقوع سكين على الارض دليل على قدوم غريب — واذا عزم انسان على سفر واكل نصف بصلة وترك الباقي كان دليلا على عدم توفيقه — وحك العين اليمنى دليل على البكاء واليسرى على سرور غير متوقع ومعه ضحك — واذا اختلجت الشفة العليا واحكت كان ذلك علامة قبلة — او الذقن فعلى اكل لحم طري(٤٣) — او الزور فعلى اتخاذ منديل — او الاذن اليسرى فعلى مدح يثني عليك به احد — وبعكس ذلك الاذن اليمنى — او الانف فعلى شيء يغيظك ويهيجك — او الكف اليمنى فعلى قبض دراهم — او اخمص الرجل كان علامة على مخاطبتك رجلا اجنبيا — او الكوع فعلى رقودك في غير فراشك — ووضع مفتاح البيت على مائدة ونحوها موذن بالشوم فالاولى ان يعلق في مسمار او وتد — واذا مات احد ويبست اعضآؤه حتى لم يمكن ليها كان الموت مفردا والّا فلا بد من ان ياتي على آخر — ونباح الكلب تحت شباك دليل على الموت — وكذا اذا حاولت هرة ان تدخل من الشباك او دبت الخنافس على الموقد او وقفت الساعة بحيث تكون نظيفة الالات — واذا عزم احد على ادارة مصلحة وهبت الريح في غد يومه من الشمال فقد فاز ونجح — واذا كسب دينارا كسبا هنيئا بصق عليه ووضعه في كيسه — وكذلك يبصق عليه اذا كان اول دينار مكسوب صبيحة يومه — واذا اهدى محب الى محبوبته سكينا او مقصا فلا يلبثان ان يفترقا فلا تقبل ذلك منه الا ان يضعه على مائدة ونحوها او ان تعطيه في مقابلة الهدية فلسا — ووضع المنفخ على كرسي او مائدة مورث نزاع — وازدهار النار مسآء دليل على قدوم صاحب المنزل مسرورا — ونثار

انسان وهو صاعد في الدرج يدل على الزواج — والاكثار من الضحك داعية للبكآء — وصرف دينار بدراهم من دون قبض قطعة من الذهب دليل على صرفها عبثا — وسقوط مشاطة شعر النسآء في المآء يورث تساقط الشعر بخلاف ما لو وقعت في النار — والنظر في المرآة ليلا مكروه إلّا عند الاضطرار وهو مشهور عندنا ايضا — وابتلال ثياب المراة وهي تغسل تطير بان زوجها يكون سكيرا — والشامة في العضد تيمن بالحظ والسعادة — واذا احمر وجه انسان كان علامة على ان احد محبيه يذكره — واذا شرق(٤٤) احد بشيء قالوا له في معرض الكلام «قد ارتكبت سرقة او خيانة» ونحوهما وهذا مستعمل ايضا عند اهل الشام وهو امر طبيعي — وتاويلهم للاحلام قريب من تاويلنا فالحلم بكلب دليل على صديق وبحية امارة على عدو وبامراة سيئة دليل على مصيبة وقس على ذلك * وفي اول ليلة من تشرين الثاني (نومبر) تشتري البنات جلوزا ويشوينه ثم يكسرنه فاذا خرجت اول جلوزة مزوجة استبشرن بالزواج في تلك السنة يفعلن ذلك ثلث مرات وإلّا فلا . ونحو منه انهن يشترين رصاصا ويذوبنه في ملعقة حديد ثم يفرغنه منها ضمن حلقة مفتاح الى انآء فيه مآء وكيفما تهيات قطعة الرصاص في الانآء استخرجن منها فالا على حرفة من يخطبهن . وفي تلك الليلة يملأن افواههن مآء ومعه شيء من حب شبيه بالحمص ويمتنعن من الضحك لئلا يخرج المآء ثم يخرجن الى الطرق واول اسم يطرق مسامعهن فهو اسم الشخص الذي يقدم على الزواج وحينئذ يمججن المآء . واذا شآء احد ان يعرف اخلاص قلب انسان عليه يضع مفتاحا في الانجيل ثم يربط الانجيل بخيط على شكل الصليب ويجعل حلقة المفتاح بارزة منه ثم يتلو الايتين السادسة عشرة والسابعة عشرة من الفصل الاول من سفر راعوث فاذا دار المفتاح كان ذلك دليلا على اخلاص قلب الشخص المضمر وإلّا فلا . والزواج في شهر ايار شوم . واذا اراد احد ان يفتح دكانا او يتعاطى مصلحة مهمة فلا يبدا به (٤٥) يوم الجمعة بل يوم الخميس او السبت وهذا التطير فاش عند جميع روسآء المراكب . وفي السنة الكبيسة تلبس النسآء ثوبا احمر تحت القفطان . وكلما استكثروا

من اصناف الحلواء في راس السنة زاد استبشارهم بخيرها وبركتها . وفي عيد الميلاد يصنعون نوعا مخصوصا من الحلواء يسمونه «كرسمس بودن» ويبقون منه شواية في الصوان تبركا بها . واذا مضى عليهم هذا العيد من دون هذه الحلواء اوجسوا النقص والقلة سنتهم كلها . واذا كانوا غائبين عن بلادهم ولم يقدروا على اتخاذها بعثوا الى اهلهم يطلبون لماظة منها فيبعثون لهم في كتاب بمثل قلامة الظفر . وفي ليلة ذلك العيد يوقدون شموعا كثيرة ونارا متاججة ويزينون الغرف بتلك الاغصان التي تقدم ذكرها ويظهرون الفرح والابتهاج واذا مشت امراة من تحتها حق للرجال ان يقبلوها . وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر ايلول ويسمونه «ميكلمس» اي عيد ميكال ياكلون الوز . وفي السادس من كانون الثاني يصنعون كعكا مخصوصا يسمونه كعك اليوم الثاني عشر (٤٦) . ومن اوهامهم ايضا الاعتقاد بظهور روح الميت عند قبره . وهذا الوهم فاش حتى عند عامة سكان المدن فقد كنت ارى في كل ليلة جمعا عظيما واقفين عند احدى المقابر بلندرة لما شاع عندهم من ان روحا ترآى فيها لبعض المارين في هيئة بشر بلباس ابيض . فاوجب انحشادهم هذا احراق وجه المقبرة بالجير لنفي تردد الروح . او لعله كان حيلة في منع اجتماع الطغام لانهم حيثما اجتمعوا اجتمع الشر . وفي لندرة موضع يسمى «هاتن كاردن» فيه عين مآء يزعمون انه يجري منها دم في كل يوم عند نصف الليل ولها قصة طويلة لا يمكن سردها هنا (٤٧) . ومن ذلك اعتقادهم بانه اذا احتضر شخص حضر في منزله روح يسمونه رصد الميت فيسمع له قرع على الباب او الحائط او صوت نحو صوت جر السلاسل او طنين الجلاجل فان سمع ذلك منه ثلث مرات كان الموت بعدها لا محالة * ومن النوادر هنا ان رجلا كان يماشي زوجته في بستان وهما يتحدثان وفيما كان يكلمها احست بكرب وانقباض فقالت له : «تنح بنا عن هذا الموضع فاني اظنه محضورا» . فتنحى عنه ثم سال بعد ذلك عنه فعلم انه عند تحادثهما كان بالقرب منهما رجل يقتل نفسه . وقتل رجل ولدا صغيرا فقضي عليه بالموت ولما سئل عن سبب قتله اياه قال : «كنت اريد ان اتخذ من جمجمته

مصباحا ساترا حتى ادخل البيوت ولا يراني احد » . واتفق في بعض السنين ان ظهر في السماء نور ابيض امتد من المشرق الى المغرب خفيف المر وكان كانه هباء ثم انتشر في عنان السماء كله وظهرت عقب ذلك حمرة في الافق ثم كثر وعظم فطفق اهل الدار التى كنت فيها يبكون ويضجون ويستغيثون فسالتهم عن سبب ضجيجهم فقالوا انها آية على المعامع والحروب فقلت « كلا بل هي آية على فساد البطاطة » فانقلب بكاوهم ضحكا . وهذه السنة كانت رابع سنة مشئومة على غلة البطاطة في ارلندة فكان الناس في هاجس عظيم لذلك لان جل طعام اهلها بل طعام الانكليز ايضا انما هو منها . ثم اعقب تلك الافة حميات ووباء فمات اناس كثيرون ورثى لهم كثير من الدول فجاءهم امداد منها وامدهم مجلس المشورة بلندرة بعشرة ملايين ليرة * واعلم انه قد يتشآم الانسان من مكان او زمان ويتفآل بغيرهما ويكون ذلك بمجرد وهم مثاله ان يكون في محل لم ينتفع فيه إلّا بوعود واماني فيمل منه وينتقل الى آخر فتتحقق فيه امانيه فيرى ان ذلك من يمن الانتقال مع انه لو بقي في المحل الاول لصحت له * وفي بلاد الفلاحين بل في المدن الجامعة ايضا نساء يدعين علم المغيبات بطرق مختلفة منها بالتاليف بين اوراق اللعب المزوقة وذلك بان تصف منها ثلثة صفوف كل صف يشتمل على سبع ورقات ثم صفا رابعا من خمس او خمسة صفوف كل منها يشتمل على خمس ورقات ثم صفا آخر من اثنتين وتضمر ان احدى المزوقات الحمر كناية عن امراة واحدى السود كناية عن رجل اسمر وتنسب لكل من الورقات المنقطة خاصية البخت وضده وتقابلها بتلك المزوقات التى وقع عليها الاضمار ثم تستخرج من تلك المقابلة دلائل على ما يحدث بعبارة لا تخلو من الابهام والتوجيه . وقد اتفق لي وانا مقيم في بيت قسيس من فضلاء الانكليز ان حضرت امراة من هولاء فقال لي « ها هي الشيطان » وذكر الاسم بالعربية فقالت: « كلا ما انا شيطان بل مبصرة البخت » فسالتها ان تبصر لي بختي فالفت بين تلك الاوراق ثم قالت: « ستكون سببا في تسفير رجل اسمر الى بلاد بعيدة وان زوجتك تاخذ في سفر طويل ويكون حديث في شانك

بعد مدة وتحصل على هدية من الماس وتذهب الى جماعة عظيمة ويدعوك رجل من سادة الناس فتسافر اليه ويحصل توفيق لولدك وينال هدية وان سيدة سمراء تساعدك على نوال اربك وان رجلا اسمر يستدعيك اليه وتعدل زوجتك عن السفر ويحدث لك سفر غير متوقع مع رجل ابيض وزوجتك تاخذ هدية وان رجلين اسمر وابيض يشتركان في تسفير امراة وان سيدة زهراء يكون لها مداخلة في امرك ولك صديقة من النسآء سمراء . وقد حصل ذلك كله إلّا هذه الثلث الاخيرة فاني لم اتحققها * وكثيرا ما تذهب النسآء المتهنات بالخدمة والممتحنات بالعشق الى هولاء العرافات ويسالنهن عن احوالهن ويثبنهن نصف ما ملكت ايديهن . واتفق ان امراة سافر عنها زوجها وانقطع خبره عنها مدة طويلة ثم بلغها خبر وفاته فتزوجت آخر فلقيت عرافة فقالت لها العرافة « تعالي اخبرك بما لا تعلمين » ثم ذكرت لها من جلمة كلام ان زوجها الاول حي وانه عازم على الرجوع . فدخل الرعب في قلب المراة فالقت نفسها في النهر . وقدر لها ان بصر بها رجل كان على الشاطئ فبادر اليها وانجاها من الغرق . واخرى جنت من تهويل عرافة عليها فكانت تقول في حال جنونها « مبصرة البخت الورق مبصرة البخت الورق » . ومنهن ايضا من تبصر البخت برؤية الكف . وقد رايت كتبا مطبوعة في علم الكف والهيئة فيها من الاحكام نحو ما في كتبنا . ومنهن من تدعي احضار الغائب وتشخيصه لعين السائل في مرءاة ونحوها كما في مندل مصر . وفي اخبار العالم عدد ٦٩٤ « من شآء ان يعلم ما يجرى عليه في المستقبل من الشغل او السفر او الزواج او تعاطي مصلحة فعليه ان يسال المنجم داود ستلا المقيم في « ادورد ستريت مادن لان » بحيث يوقفه على يوم ميلاده وعلى جنسه ويرسل اليه اثنين وعشرين طابعا (٤٨) فانه ينبئه بالتفصيل عن كل شيء سواء كان بالمكاتبة او مشافهة » . وفيها « وكذلك المنجم ملقيل وجوابه عن المسائل يكون نظما وعلى السائل ان يرسل اليه اثنى عشر طابعا » . وفيها « من كان دابه الشغل ومعه بعض شلينات ورام ان يتعلم في اسبوع واحد حرفة مكسبة فعليه بالمنجم كورنثي فانه يهيئ له وجها للعمل بما عنده

من القليل حتى يمكنه ان يكسب بعد ذلك من ثلث ليرات الى عشر وهو على هيئته وهذه الحرفة هي من اكرم الحرف وقد باشرها المنجم منذ سنين وغبط بها فلذلك يعرضها على الطالبين بحيث يحرز ثلاثين طابعا » . وفي بعض صحف الاخبار ما نصه : « قد صار اهل لندرة الان جديرين بان يكونوا ضحكة لاهل الريف لاعتقادهم بالسحر والشعوذة ولم يبق من حاجة الى الذهاب الى بلاد الفلاحين لنستمع ان النسآء اللواتي لا عيب فيهن سوى الفقر والهرم يستطعن على ان يمنعن البقرة عن الحلب ويعطلن المزارعين عن اعمالهم ويجررن الراقد من فراشه من غير ان يحس به فان هولاء المدجلات المدلسات يوجدن الان في لندرة التي هي معدن المعارف والنور وليس المترددون عليهن من سفلة الناس . وحسبك دليلا ما جرى منذ ايام في ديوان كلنهال (٤٩) حيث احضر بعض الشرطة امراة من هولاء لكونها كتبت رقاع وعيد وتهديد الى بعض التجار ذوي الشان قال « ولما دخلت حجرتها وجدت عندها اربع نسآء متزديات باللباس الفاخر احسبهن من بنات التجار فلما سالتها عنهن قالت انما اتين الي لعلمهن بانني ابصر البخت» اه . وقال آخر « شكا بعض الناس الى قاضي صري بان احد معارفه يسمع في الليل ضجيجا وعجيجا وضرب مطارق فلا يقدر ان ينام . قال « فلما سرت اليه سالته عما يقاسي فقال ان الناس يفيضون في حديث فلانة امراة فلان . قلت: « وما بينك وبين زوجها » ؟ قال « لا شي الا كلمات دارت بيننا منذ سنة » قلت « وما يصنع بك الان؟ قال « يبعث اناسا يضربون بالمطارق ويضجون ويزاطون الليل كله فما يدعني اهجع ولا احدا من الجيران ينام » قلت « اتعرف اسماهم ؟ قال « نعم ولكن زوج المراة هو الذي يغريهم بهذه الاذية » قال فاحضرت الزوج واخبرته بشكوى الرجل فقال « جزاء واقل جزاء » قلت « كيف ؟ قال « لانه ياتي كل ليلة الى بيتي ويخطف امراتي من الفراش ويخرج بها من الشباك ويضبطها عنده الى الساعة الرابعة بعد نصف الليل ثم ياتي بها منهوكة مدهوكة » قلت « الا تخجل من ان تقول هذا الكلام وانت شيخ واني لما لقيتك

آخر مرة قلت لي انها عليلة فهل افاقت الان ؟ قال « لا ما دام الرجل يخطفها فلن تفيق ابدا » قلت « قل لي ما يفعل وعلى عقابه » قال « واي عقاب لمن له تسعة اعمار كالهر » ؟ قلت « هل رايته عيانا ياخذ امراتك » ؟ قال « لا لاني اكون راقدا » قلت « هلا ربطت يديها الى عنقك حتى تستيقظ عند ذهابها » قال « لن ينفع في هولاء الناس حذر » قلت « ما السبب الذي حملك على سوء الظن بهذا الرجل » ؟ قال « ذلك الرجل المبارك الذي اراني وجهه » قلت « من هو » ؟ قال « هو الذي شفاها بعد ان عجزت عنها الاطبآء » قلت « كيف اراك وجهه » ؟ قال « اخذ نعل فرس واحماها حتى صارت كالجمر ثم اغلق الشباك ووضع النعل في مآء قذر وقال لي اي وجه ترى في الدخان واشهد انه كان وجه زوج المراة » الخ *
فاما ما يحدث في بلاد الانكليز من تسميم الازواج ازواجهن والوالدين اولادهم وقتلهم وبالعكس ومن الانتحار (وهو قتل الانسان نفسه) فامر يهول وشرحه يطول . نعم ان الانتحار يحدث ايضا في غيرها واعظم اسبابه العشق والحرمان الا انه بالنسبة الى هذه البلاد لا يذكر . ولنورد لك نبذة من ذلك لتقيس عليها * حكى صاحب اخبار العالم ان رجلا ذبح ثلثة اطفال له بالموسى في وقت واحد وكان اصغرهم رضيعا ثم ذبح نفسه . فلما سئلت زوجته عن ذلك قالت « اني غادرته مع الاولاد سليما معافى فلما رجعت وجدتهم ثلثتهم جثثا مطرحة وزوجي الى جانبهم ولا اعلم سبب ذلك » وزعم بعض معارفه انه قتلهم خوف الاملاق . ومنها ان امراة اشتكي عليها بانها قتلت اصغر اولادها وعند الامتحان علم انها قتلت من قبله سبعة وانه كان الثامن مع انها كانت تتظاهر بالصلاح والتقوى وتذهب الى الكنيسة في كل يوم احد وتلازم دراسة التوراة ولما سئلت عن ذلك قالت « قد قتلتهم خوف الاملاق » . ومنها ان رجلا كان له امراة واربعة اولاد منها وكان الرجل واولاده داخلين في جمعية من اصولها انه اذا مات احد من اعضائها يدفع لوارثه خمس ليرات فطمعت المراة في الدراهم حتى سمت زوجها وكان ابن خمس وخمسين سنة وقبضت المال ثم سمت ابنها الاكبر وهو ابن ست

وعشرين سنة فمات وقبضت المال ثم سمت الثالث وله احدى وعشرون
سنة فمات وقبضت المال ثم سمت الرابع فمرض واستدعى بالطبيب فلما
اتى علم انه مسموم وعند ذلك حصل البحث والتفتيش ونبشت جثث
اخوته وشرحت فتحقق انهم ماتوا كلهم مسمومين . ومنها ان بنتا سمت
امها حتى تستولي على امتعتها ثم احرقتها ولما كانت باركة على صدرها جعلت
امها تناشدها ان تبقي عليها فقالت لها البنت « لقد عشت اكثر مما يليق
بك ان تعيشي » . ومنها ان قسيسا من اهل الكنيسة المتفرعة اسمه فوستر
في بلدة دكنهام كان يقضي الفرائض الدينية عند احدى النساء المخدومات
من الاعيان فلما راته غير اهل لوظيفته صرفته فمرض فاخذ الى المستشفى
ثم شفي ورجع الى بيته وكان له امراة وولد سنه نحو ست سنين فقامت
المراة صباحا لتهيء له الفطور وتركت الولد مع ابيه في الفراش ثم بعد قليل
رات زوجها قد خرج الى الطريق فلما ابطا عليها ذهبت لتنظر ولدها واذا به
مذبوح بموسى . ومن ذلك ان رجلا من شستر ذبح ابنته وواراها في
حفرة ثم ذبح اخاها وواراه ايضا وظل ياكل بذلك السكين الذي ذبح به
ولديه مدة ثم علم امره ولما قضي عليه بالشنق فرح جدا . ومن ذلك
ان امراة من لمبث قتلت طفلا لها وله ثلث سنين ونصف واخته وهي بنت
سنة ونصف . ومنها ان امراة ذبحت ابنها فلما سالها القاضي قالت
« انما قتلته صغيرا لينال سعادة السماء » وهذا كاف * ومن العجيب ان
مجلس المشورة بلندرة اصدر امرا بعدم اذى الحيوان غير الناطق وبتاديب
من يرتكب ذلك او تغريمه وبلغ الذين اذوا الحيوانات في العام الماضي
اربعمائة واربعة وستين شخصا وبلغت غراماتهم نحو خمسمائة واربعة
وسبعين ليرة وارسل منهم عشرة انفار الى دار التاديب من دون ان تقبل
منهم غرامة . وروي مرة رجل من نبلاء الفرنساوية يغري كلبه بمطاردة
هرة فغرمه الحاكم عشرين شلينا . ومع ذلك فلم يهمه خطر بيع السم منعا
لهذا الشر المتفاقم على الحيوان الناطق . وان الولد اذا اخذ حاجة ليرهنها
وهو دون البلوغ او دون خمس عشرة سنة لا يقبلها منه المرتهن واذا ذهب

آخر مرة قلت لي انها عليلة فهل افاقت الان ؟ قال « لا ما دام الرجل يخطفها فلن تفيق ابدا » قلت « قل لي ما يفعل وعلى عقابه » قال « واي عقاب لمن له تسعة اعمار كالهر » ؟ قلت « هل رايته عيانا ياخذ امراتك » ؟ قال « لا لاني اكون راقدا » قلت « هلا ربطت يديها الى عنقك حتى تستيقظ عند ذهابها » . قال « لن ينفع في هولاء الناس حذر » قلت « ما السبب الذي حملك على سوء الظن بهذا الرجل » ؟ قال « ذلك الرجل المبارك الذي اراني وجهه » قلت « من هو » ؟ قال « هو الذي شفاها بعد ان عجزت عنها الاطباء » قلت « كيف اراك وجهه » ؟ قال « اخذ نعل فرس واحماها حتى صارت كالجمر ثم اغلق الشباك ووضع النعل في ماء قذر وقال لي اي وجه ترى في الدخان واشهد انه كان وجه زوج المراة » الخ *

فاما ما يحدث في بلاد الانكليز من تسميم الازواج ازواجهن والوالدين اولادهم وقتلهم وبالعكس ومن الانتحار (وهو قتل الانسان نفسه) فامر يهول وشرحه يطول . نعم ان الانتحار يحدث ايضا في غيرها واعظم اسبابه العشق والحرمان الا انه بالنسبة الى هذه البلاد لا يذكر . ولنورد لك نبذة من ذلك لتقيس عليها * حكى صاحب اخبار العالم ان رجلا ذبح ثلثة اطفال له بالموسى في وقت واحد وكان اصغرهم رضيعا ثم ذبح نفسه . فلما سئلت زوجته عن ذلك قالت « اني غادرته مع الاولاد سليما معافى فلما رجعت وجدتهم ثلثتهم جثثا مطرحة وزوجي الى جانبهم ولا اعلم سبب ذلك » وزعم بعض معارفه انه قتلهم خوف الاملاق . ومنها ان امراة اشتكي عليها بانها قتلت اصغر اولادها وعند الامتحان علم انها قتلت من قبله سبعة وانه كان الثامن مع انها كانت تتظاهر بالصلاح والتقوى وتذهب الى الكنيسة في كل يوم احد وتلازم دراسة التوراة ولما سئلت عن ذلك قالت « قد قتلتهم خوف الاملاق » . ومنها ان رجلا كان له امراة واربعة اولاد منها وكان الرجل واولاده داخلين في جمعية من اصولها انه اذا مات احد من اعضائها يدفع لوارثه خمس ليرات فطمعت المراة في الدراهم حتى سمت زوجها وكان ابن خمس وخمسين سنة وقبضت المال ثم سمت ابنها الاكبر وهو ابن ست

وعشرين سنة فمات وقبضت المال ثم سمت الثالث وله احدى وعشرون سنة فمات وقبضت المال ثم سمت الرابع فمرض واستدعى بالطبيب فلما اتى علم انه مسموم وعند ذلك حصل البحث والتفتيش ونبشت جثث اخوته وشرحت فتحقق انهم ماتوا كلهم مسمومين . ومنها ان بنتا سمت امها حتى تستولي على امتعتها ثم احرقتها ولما كانت باركة على صدرها جعلت امها تناشدها ان تبقي عليها فقالت لها البنت « لقد عشت اكثر مما يليق بك ان تعيشي » . ومنها ان قسيسا من اهل الكنيسة المتفرعة اسمه فوستر في بلدة دكنهام كان يقضي الفرائض الدينية عند احدى النساء المخدومات من الاعيان فلما راته غير اهل لوظيفته صرفته فمرض فاخذ الى المستشفى ثم شفي ورجع الى بيته وكان له امراة وولد سنه نحو ست سنين فقامت المراة صباحا لتهيء له الفطور وتركت الولد مع ابيه في الفراش ثم بعد قليل رات زوجها قد خرج الى الطريق فلما ابطا عليها ذهبت لتنظر ولدها واذا به مذبوح بموسى . ومن ذلك ان رجلا من شستر ذبح ابنته وواراها في حفرة ثم ذبح اخاها وواراه ايضا وظل ياكل بذلك السكين الذي ذبح به ولديه مدة ثم علم امره ولما قضي عليه بالشنق فرح جدا . ومن ذلك ان امراة من لمبث قتلت طفلا لها وله ثلث سنين ونصف واخته وهي بنت سنة ونصف . ومنها ان امراة ذبحت ابنها فلما سالها القاضي قالت « انما قتلته صغيرا لينال سعادة السماء » وهذا كاف * ومن العجيب ان مجلس المشورة بلندرة اصدر امرا بعدم اذى الحيوان غير الناطق وبتاديب من يرتكب ذلك او تغريمه وبلغ الذين اذوا الحيوانات في العام الماضي اربعمائة واربعة وستين شخصا وبلغت غرامتهم نحو خمسمائة واربعة وسبعين ليرة وارسل منهم عشرة انفار الى دار التاديب من دون ان تقبل منهم غرامة . وروي مرة رجل من نبلاء الفرنساوية يغري كلبه بمطاردة هرة فغرمه الحاكم عشرين شلينا . ومع ذلك فلم يهمه حظر بيع السم منعا لهذا الشر المتفاقم على الحيوان الناطق . وان الولد اذا اخذ حاجة ليرهنها وهو دون البلوغ او دون خمس عشرة سنة لا يقبلها منه المرتهن واذا ذهب

الى دواءٍ ليشتري سمًّا او منبتًا باعه على ان بيع السم في مالطة وفرنسا محظور على اي كان إلّا باذن من الطبيب فكان العجماوات انفع للدولة من بني آدم . وما ادري لذلك سببًا سوى هذا الاصل الفاسد الذي يعبرون عنه بقولهم حرية المتجر او كما قيل لزوم السم للفلاحين في قتل الهوام كما مر ذكره . إلّا ان مراعاة الجانب الاقوى في الامر الذي يكون منه مفسدة ومصلحة الزم واهم . وهذه الحرية في المتجر هي التي سهلت للناس ان يغشوا كل شيءٍ من الماكول والمشروب وكل ما يصح فيه البيع والشراء كما سيأتي بيانه . حتى ان صاحب الذوق السليم يوثر المقام في بلاد الهمج بحيث يذوق شيئًا مما تنبته الارض على حاله على ان يمكث بين قوم يعلمون عدد نجوم السماء ورمل البحار وهم مع ذلك ياكلون ما يضر البهائم فضلًا عن البشر . وكل شيء جاوز القدر اضر . واقبح من ذلك انه كثيرًا ما يحكم القضاة او الجوري على مرتكب القتل بالجنون اعفاءً له من القصاص فتذهب الحكمة في « ولكم في القصاص حياة » او « القتل انفى للقتل سدى » .

و « الجوري » هم اثنى عشر رجلًا يقع عليهم الاختيار فيجتمعون مع القاضي لفصل الدعاوي وهم على قسمين خاص وعام . فالخاص يولف من الفقهاء وذوي الوجاهة لفصل الدعاوي الخطيرة وكل منهم ياخذ ليرة على كل دعوى والعام مولف من اصحاب الدكاكين والحرف لفصل الدعاوي الحقيرة ولا ايراد لهم . وقيل ان كلًا منهم ياخذ ثلثي شلين بحسب ما تقرر في السابق ومن يمتنع منهم عن الحضور لزمه غرامة . واصل الجوري عرف في ايام الصكصونيين (٥٠) وذلك انه كان حدث مرة نزاع بين انكليزي ووالسي فعين ستة نفر من الانكليز وستة من الوالسيين للنظر في امرهما . ثم اثبت اقامة الجوري في المجلة التي يسمونها « مكنا كارتا » كانها من اعظم اسباب العدل والحرية . وللقاضي ان يثبط الجوري عن الاكل والشرب وان يمنعهم النور الى ان يتواطاوا على حكم . وقد غرم بعضهم لمجرد وجود فاكهة في جيبه من دون ان يثبت عليه اكلها . وقد اتفق مرة ان بعض المسافرين في سكة الحديد طلب ارشا فحكم الجوري بان يعطي ربع بني فانكر عليهم

القاضي هذا الحكم فاعلاهم الى النظر فيه فعادوا ولم يتفقوا حتى مضى عليهم اربع وعشرون ساعة لم يطعموا فيها شيئا وبعد ذلك خرجوا وهم يتظلمون من الجوع . قال صاحب التنبيهين «وليس من العدل ان يترك الانسان اشغاله وياتي لسماع ما يحدث بين الرجل وامراته من التناقر والتهاتر» فقد عرفت ان هولاء الذين ياتون لاجرآء العدل هم انفسهم مظلومون . وقد يكون حكم هولاء الجوري زائغا واذا كان للمدعى عليه خصم من افراد الجوري فله ان يستبدله . فاذا تواطاوا جميعا على الحكم بقتل احد ودونوا ذلك في صك قال القاضي للمحكوم عليه «قد حكم عليك الجوري الذين هم من اهل بلادك بانك مستوجب للقتل فبموجبه شرع هذه المملكة توخذ من هنا ويجعل في عنقك حبل وتنشنق الى ان تخرج روحك ثم تدفن مع امثالك» (٥١) ويوم شنق المقضي عليه يكون فرجة للنسآء فيهرعن صباحا من بيوتهن الى مشاهدته حتى تغص بهن الطرق وهو دليل على شدة قلوبهن وجراءتهن . وقتل القاتل عندهم لا يكون الا بهذه الصورة . وفي احوال كثيرة يقوم التغريب مقامه كما مر . واذا اذنب احد في بلاد الفلاحين حبسه الشرطي الى ان يمر القاضي بذلك الصقع فيقيم هنالك مدة وترفع اليه الدعاوي وفي انكلترة ووالس ستون قاضيا ونحو ستمائة دار للقضآء وثلث وثلثون خزنة او بيت مال . ومن يوم استتبابهم وذلك من سنة ١٨٤٧ صرف على ذوي الوظائف في هذه المحاكم خمسة عشر مليون ليرة . ومنع القصاص بالقتل في بعض الجرائر كان مما قرره سر روبرت بيل (٥٢) في سنة ١٨٢٤ . ثم منع على اي جريرة كانت في سنة ١٨٣٧ . قال العلامة كولدسميث في كتابه «فكر اف وكفيلد» (٥٣) انه «يوجد في بلادنا من المجرمين المحكوم عليهم في سنة واحدة اكثر مما يوجد في نصف اوربا فلا ادري هل بسبب ذلك كثرة قوانيننا او تعدي اهل بلادنا ولعل ذلك مسبب عنهما كليهما فان احدهما ينتج الاخر» انتهى . وفي بعض صحف الاخبار «انا نرى الجرائر الان قد تكاثرت وسبب ذلك الدفع بالشبهات فان الذين يثبت عليهم القتل ونقب الديار يعاقبون بالنفي لا غير فاذا انقضت مدتهم رجعوا شرا مما كانوا من قبل» . ويبلغ

المصروف على تغريب هولاء المنفيين في كل سنة نحو اربعة وخمسين الف ليرة . وعدد اصحاب الجرائر التى دربوا فيها من نحو قتل وسرقة ويسجنون لاجلها يبلغ نحو ثمانين الفا وهو اكثر من عدد العساكر ومصروفهم ضعفا مصروف هولاء . واعلم ان شريعة الانكليز هي اطول الشرائع احكاما واكثرها قيلا وقالا واوسع من علم العربية قلبا واعلالا . فقد يستمر بعض الدعاوي التى تستدعي فيها دهاء الفقهاء خمسين سنة فاكثر . ومرة صرف على دعوى رجل اسمه بالمز سبعة آلاف وخمسمائة واثنتان وثلثون ليرة . وقد وقع بعض تحرير هذا الكتاب ان اقيمت دعوى على شاب من الاغنياء بعدم رشده عن التصرف في املاكه فلزم لاثبات ذلك احضار شهود من الروسية وغيرها فكان مصروف كل ساعة عليها مائة وستين ليرة وبعد ان بلغ المصروف نحو ستين الف ليرة خرج الحكم برشده . ويمكن تقسيم شرعهم الى اربعة اقسام : الاول ما تناقلوه من احكام الرومانيين والنرمانديين والصكصونيين الذين فتحوا بريتانية . ويدخل في ذلك امور من قبيل السنة والعادة وجل عاداتهم من قبيل الفرض والسنة . وما اجدرهم بان يكون لهم لفظة توافق الدين عندنا فانها بمعنى الديانية والعادة فارى ان اخلعها عليهم سواء قبلوها ام لا : الثاني ما بني على العدل والانصاف ومراعاة المصالح مما لم يرد فيه نص ولم يجر فيه حكم فاذا حدث امر من ذلك احيل على محكمة العدل فيحكم فيه القاضي والجوري بالراي بحسبما يترجح عندهم انه الاصلح : والثالث احكام مجلس المشورة وهي غير متناهية : والرابع احكام ديوان الكنيسة الا انه ليس في شيء من هذه الاحكام ذكر الطاهر والنجس وما يوكل وما لا يوكل او ذكر حيض المراة ونفاسها وحدادها وعدتها وما اشبه ذلك مما لا بد من ذكره في كتب الفقه الاسلامية ومع ذلك فيمكن ان يقال انه ليس امر من الامور المتعارفة إلّا وهو مقيد بحكم من هذه الموارد الاربعة . حتى انهم يكتبون في المناصع « اصلح ثيابك قبل الخروج » اشارة الى انه لا يزرر سراويله في الطريق: او « لا تعريفات تلصق هنا » . بل اصحاب المطاعم ايضا ينبهون الى وضع شيء من الاحكام فتجد

احيانا كتابة على لوح معناها التسليم عند التسلم اي نقد ثمن الاكل عند وضعه بين يدي الآكل : او «لا يسمح باستعمال الدخان هنا» وما اشبه ذلك ومثل هذا لا يرى في باريس اصلا . واذا كانت جريرة الجاني صغيرة اجري عليه الحكم في الحال واذا كانت بين بين حبس الى ان ينظر فيها وحينئذ يرخص المذنب في ان يستعين بكفلاء يكفلونه فيخرج من السجن ويتعاطى اشغاله ثم يعاد عند فصل الحكم . لان الدعاوي الكبيرة لا تفصل إلّا في مدة اربعة اشهر او خمسة فان لم يجد كفلاء فيبقى في السجن . وقد يكون حكم الجوري زائغا فيحكمون على امراة سرقت «هاف كرون» (نصف دورو انكليزي) اول مرة بالحبس مدة اثنى عشر شهرا في الاعمال الشاقة . وفي التيمس ان «امراة اسمها اليصابت جان وود عليها طلعة الحشمة والاعتبار وعلى ذراعها طفل رضيع احضرت للفحاص الاخير حيث اشتكي عليها بانها سرقت هاف كراون في احدى العواجل فثبت عليها الذنب وحكم عليها بحبس ستة اشهر مع الاعمال الشاقة» . وفيه ان «امراة طاعنة في السن ثبت عليها انها سرقت ساعة وسلسلة قيمتها خمس ليرات فحكم عليها بحبس ثلثة اشهر مع الاعمال الشاقة» * ومما يرى منكرا من احكامهم اجازة شهادة الاولاد دون البلوغ حتى على والديهم . إلّا ان القاضي يستحلفهم اولا وينبههم على خطر اليمين والشهادة . هذا اذا كان في الدعاوي التي لا توجب القصاص بالقتل . والويل ثم الويل لمن وقع في يد احد من فقهاء الشريعة فانهم ادهى خلق الله ولا يعجزهم ان يصيروا الظلام نورا والنور ظلاما . وهاك مثالا واحدا على صدق ذلك وهو : ان بعض الناس الذين يدلون بجمالهم دون مالهم عشق بنت احد الاغنياء وحيث كان يعلم ان الغنيات للغنيين والمقلات للمقلين خشي من ان يخطبها من ابيها فيسفه فتوسل الى ذلك باحد هولاء الفقهاء ووعده بصلة حسنة . فقال له «ساتروى في امرك فاذهب واتتني غدا» فلما كان الغد اتاه الشاب فقال له الفقيه «ارايتك لو شاء احد ان يقطع انفك ويعطيك عشرين الف ليرة اكنت ترضى به» ? قال «كلا ولو اعطيت ضعفيها» فانطلق الفقيه الى ابي البنت وسول اليه

ان يزوج ابنته من الرجل فقال له «كيف اناسبه وهو فقير وليس له غير جاهه »؟ قال «بلى وعنده ايضا جوهرة اعطي فيها بحضرتي عشرين الف ليرة فابى ان يبيعها » وما زال به حتى اغراه بزواج ابنته . والبارع من هؤلاء الفقهاء لا يباشر دعوى من الدعاوي الخطيرة إلَّا اذا قبض في كفه ثلثمائة ليرة . فاما كتاب الصكوك فلما كان جعلهم بحسب السطور كان نفسهم مملا غاية الاملال . مثاله : «باع زيد بن بكر داره الفلانية لخالد بن عمرو بكذا وكذا بيعا خاصا مطلقا واقر زيد بن بكر بان داره الفلانية التي باعها بكذا وكذا لخالد بن عمرو قد انتقلت من ملكه انتقالا مطلقا وصارت في حوز خالد بن عمرو فصارت دار زيد بن بكر في تصرف خالد بن عمرو ملكا مطلقا خاصا » . وفي احكامهم يقع كثيرا مثل هذا التعبير الاتي : «اذا اخذ شخص او اشخاص شيئا او اشيآء من محل كذا او محال كذا وجب القصاص على ذلك الشخص او اولئك الاشخاص الذين اخذوا ذلك الشيء او تلك الاشيآء من ذلك المحل او تلك المحال » . وهو ضد عبارة كتب الفقه الاسلامية فانها اخصر ما يكون . وفي بعض البلاد الاسلامية يرى هذا التكرار في انشآء كتاب الصكوك والفقهآء الذين يتعيشون من كتابتهم * فاما كلامهم فانه لما كان مورده اصطلاح اللغة وعرف التخاطب رايت من الواجب ان اذكره بالتفصيل في فصل على حدته اجعله خاتمة لهذا الكتاب ان شآء الله وانما اقتصر منه هنا على نبذة فاقول : ان تحيتهم هي ان يقولوا صباح طيب او مسآء طيب ثم يردفونها بقولهم «هودو يودو» وترجمتها «كيف تعملون انتم تعملون» وهو سمة تنبي عن مزيد ميلهم الى العمل دائما حتى انه يوجد في لغتهم نحو عشرة الفاظ تدل على العمل وهو اكثر ما عندهم من المترادف . ولا يخاطبون بضمير المفرد إلَّا الباري تعالى او في الشعر . اما الفرانسوية فانهم يستعملونه في مخاطبة الادلال كان يكلم المحب محبوبه او الوالد ولده . وتحية هؤلاء بعد صباح الخير «كيف انتم تحملون انفسكم» قال فلتير «وكلتا التحيتين لا معنى لهما » ومتى خاطبت احدا من فلاحي الانكليز وهو مصغ اليك ابدى همته عند كل جملة وهي قوله «هم» فكانها

عندهم حرف بمعنى نعم . وعند كل فقرة تنقضي بالاعتبار يقول « اه » . واذا
هم خاطبوك نفضوا روسهم ولا يكادون يشيرون بالايدي . وليس للهجتهم
مطلقا نغمة مطربة سوآء تكلم بها جاهل او عالم او امراة او ولد اذ ليس فيها
مد ولا حركات طويلة وصوتهم من ازوارهم بخلاف اللغة الفرنساوية فانها
مستحبة من الجوارى والغلمان جدا وربما طرب لها من ليس يعرفها وان
يكن صوتهم من خياشيمهم . ومع ان لغة الانكليز من اللغات المستجدة ولم
تشهر الّا واعقبها التمدن والطبع فلكل اهل صقع في بلادهم كلام ولهجة
خاصان بهم فلا يكاد احدهم يفهم من اهل الصقع الاخر . ومن عادة النسآء
اذا كلمن احدا من الخاصة ان ينحنين له عند كل سوال وجواب . وعادة
الغلمان ان يضعوا ايديهم على روسهم . وكذا هي عادة الخادم مع مخدومه عند
كل سوال وجواب حتى القسيسون ايضا يرتاحون الى هذه الدغدغة . واذا
خاطبوا احدا بكلام توبيخ وغيظ قالوا له « سر » وهي بمعنى سيد حتى انهم
يقولونها عند طردهم كلبا ونحوه فيقولون مثلا « اخسا يا سيد » . وقد يستعملونها
ايضا لتعظيم المخاطب واجلاله . والرجل يقول عن زوجته « معلمتي » والمراة
تقول عنه « معلمي » واذا خاطب زوجته احد من الخاصة بلفظة « مادام »
كان ذلك اشارة الى تنافرهما فخطاب الرضى انما هو ان يقول لها « يا محبتي »
او « ياعزيزتي » وربما قالوا « يا قلبي » ولا يكادون يفهمون يا روحي وياعيني
ويكثرون من ذكر الشيطان في حالتي التعجب والاستفهام فيقولون « اين
الشيطان كنت » وكذلك يضيفون لفظة « مان » اي الرجل الى كل شي
فيقولون « واطرمان » اي رجل المآء و « بورك مان » اي بايع لحم الخنزير
و « بوسط مان » وهلم جرا (٥٣) . ومن عادتهم في المكاتبة اذا اراد احد من
الاعيان ان يكتب الى شخص يجهله ان يقول « فلان يسلم على فلان ويطلب
ان يستخبره عن امر كذا » وفي المرة الثانية يكتب له « سر » وفي الثالثة او
الرابعة « ديرسر » اي سيد عزيز واذا خرق حجاب الكلفة بينهما كتب له
« مي ديرسر » اي سيدي العزيز واذا استحكمت الالفة كتب له « عزيزي
الخواجة فلان » واذا طالت كتب « عزيزي فلان » ولهم عادة قبيحة حين

يكتبون اسمآءهم في اخر الكتاب مما عرف بالامضآء وذلك انهم يكتبونها مشبجة معماة بحيث لا يقدر احد على قرآتها الّا من مرن عليها . فعلاج ذلك لمن يجهل الاسم ان يقطعه من الكتاب ويلصقه على ظهر المغلف ويرسله اليه حتى يبينه في المرة الثانية . واصل ذلك ان من يكتب عندهم خطا حسنا يزن بانه معلم للصبيان او كاتب عند تاجر او في ديوان فاما من يعيش من املاكه فلا يلزمه ذلك . ويقابل عندنا قبح عادة الذين يمضون اسمآءهم ويهملونها عن الاعجام . ولا ادري ما سبب هذه العادة الذميمة الموجبة للابهام والالتباس . والظاهر ان منشاها الكبر ايضا فان المكاتب يظن ان اسمه قد بلغ من الشهرة والتنويه بحيث لم يحتج الى اعجامه . والدليل على ذلك انهم يكتبون تحت اسمائهم حرف الميم كناية عن معروف . وبما ذكرت لك آنفا من اصطلاح الانكليز في افتتاح رسائلهم عرفت انهم لا ينعتون المكتوب اليه بالاجل والماجد والاكرم والمفخم وغير ذلك الّا انهم يطيلون غالبا في الامضآء فيكتبون «انا باق ياسيدي عبدك الاحقر المطيع» فلان . وقد تكون احيانا نوعا من التهكم وذلك اذا كان الكتاب يشتمل على التوبيخ او المناقشة . والعرب بخلاف ذلك فانهم يسهبون في افتتاح الرسالة ويوجزون في الامضآء فاذا كتبت مثلا «الداعي» فلان او «عبدكم» فلان كفى * وكما اختلفت عادتنا وعادتهم في المكاتبة والخطاب كذلك اختلفت في الزيارة واللقآء فانك اذا دخلت على احد من اهل البلاد المشرقية احتفى بك غاية الاحتفآء وان لم يكن بينكما صلة او معرفة وعند الانصراف لا يزيد على ان يقول لك «في امان الله» وربما لم يقم لك . واذا دخلت على افرنجي اراك انه مشغول عنك بما هو اهم من الزيارة وسالك ان تسرع في عرض حاجتك وعند انصرافك من عنده نهض لك ورافقك الى الباب . وعند الفرنساوية لابد من ان يكلمك هناك بكلام يوجب وقوفكما ولو دقيقة اشارة الى انه لم يمل منك . ومآل العادتين واحد وهو الاختصار في الابتداء والاطالة في الختام . وفي الجملة فليس من الافرنج من يصدق عليه اذا طرقه طارق قول الشاعر:

« فقلت له اهلا وسهلا ومرحبـــــا * رشدت ولم اقعد اليه اسائله »

او قول الاخر:

« سلي الطارق المعتر يا ام مالك * اذا ما اتاني بين قدري ومجزري »

« ايسفر وجهي انه اول القـرى * وابذل معروفي له دون منكري »

قال النمري « المعروف هاهنا القرى والايناس وما شاكلهما والمنكر هاهنا ان يساله عن اسمه ونسبه وبلده ومقصده كل هذا مما يجلب عليه حياء »

ثم ان ما عبت الانكليز به من الاخلاق والعادات مبني على اعتبار ما وصل اليهم من الفنون والعلوم وعلى كثرة ما عندهم من الوسائل الجديرة بان تصفي طباعهم عن غلاظة اسلافهم وتتقدم بهم الى الكمال . فان ما يطبع عندهم من الكتب وصحف الاخبار وما يلقى عليهم في الملاهي والملاعب لحري بان يهذب اخشن الاجيال في اعظم المحامد . فاما من لم تصل اليه هذه الوسائل وبقي على الهجية والامية فاحرى ان يرثى لحاله وباله من ان يلام عليهما .

قال الشاعر المخزومي :

« العيب في الخامل المغمور مغمـور * وعيب ذي الشرف المذكور مذكور »

« كفوفة الظفر تخفى من حقارتها * ومثلها في سـواد العين مشهور »

وقال اخر في المعنى :

« قد تخفض الرجل الرفيع دقيقة * في السهـو فيهـا للوضيع معاذر »

« فكبائر الرجـل الصغيـر صغائـر * وصغائر الرجل الكبير كبائر »

وللامام الخفاجي :

« كم من عيوب لفتى عدهـا * سواه زينا حسن الصنـــــع »

« فنكتة الياقوت مذمومـــــة * وهي التى تحمد في الجـــذع »

وكل ما انكرته عليهم وافقني عليه من جال منهم في البلاد الشرقية وتطبع بطباع اهلها . فكلهم يقر بان هذه الاحوال التى اتصف بها عامة الانكليز في هـذا العصر عصر التادب والتكيس شين — واي شيـن . وانا اختم هذا الاقرار بان اقول ان عامة الانكليز بالنسبة الى عامة فرانسا في معزل عـن المعارف والادب . وكما ان جزيرتهم منقطعة عن جميع بـلاد اوربا كذلك

هم انقطعوا عن اخلاق اولائك * واقول في الجملة انه معما يظن ان دول الافرنج تبغي تعميم المعارف لدى جميع رعاياها فليس هذا الظن سديدا اذ ليس من نفع الدولة والكنيسة ان تكون العامة متكيسة ولاسيما عامة فرنسا فان معارفهم سبب الى انكار جهل الدولة عليهم * ويعجبني منهم خلال منها انه ليس عندهم فضول وتكليف على الدخيل فيهم بل ولا على من هو منهم فلا يزورونه في غير وقت الزيارة ولا يستعيرون منه ولا يتعرضون لما يأتيه . فلو راوه مثلا مضطجعا على قارعة الطريق لم يسالوه لاي سبب تفعل ذلك . بل ربما حسبوا ان اهل بلاده جميعا يضطجعون مثله وان في ذلك مصلحة له . واذا زارك احدهم وراى عندك امراة او نسآء لم يهمه ان يسالك عن سبب معرفتك بهن مما لا بد منه في بلادنا . وكذا لو راوك تماشي امراة في الطريق فكل منهم مشغول بهمه ومهموم بشغله . ويمكن ان يقال ان هذه الخلة صنو اول خلة ذكرتها من معايبهم في كون كل واحد منهم لا يهتم إلّا بشانه . ولا غرو ان يكون بعض الخلال ممدوحا من وجه ومذموما من وجه آخر * ويلحق بذلك الجد في المساعي وعدم الشماتة وكراهية العبث الموجب للتنافر والعداوة او لنكاية الخصم في الكتابة على يد البريد وغيره . ولو كان البريد عندنا على الصفة التي هي عندهم لكنت ترى في كل يوم اهاجي واحاجي تلقى في الموك ويبعث بها كما يبعث بالرسائل . نعم ان عندهم يوما مخصوصا في السنة يتراسل فيه المعارف برسائل مزحية ولكن ليس منها اذى ولا يعقبها تبعة * ومن ذلك عدم التهافت على الحسد فاذا راوا عندك مثلا متاعا نفيسا لم يكن عندهم مثله او دونه لم ينفسوا عليك في جدارة احرازه ولا يقولون يا ليت كان لنا مثله . وخصلة النفاسة والحسد قلما يخلو منها في بلادنا جسد * ويلحق بذلك انهم يصبون على ما بهم فلا يتظلمون ولا يجدفون اي يستقلون عطا الله ويقولون ليس لنا وليس عندنا . فكل واحد منهم يريك انه مستغن عنك ولا تكاد تسمع خادما يطعن في مخدومه او خادمة تعيب مخدومتها وان كانا يكابدان عندهما . فاما في بلادنا فقلما تجد خادما راضيا عن سيده بل

يعتقد انه هو اولى بالسيادة او ان شرف مخدومه متوقف على بقآئه عنك * ومن هذا القبيل عدم بخس الناس حقهم فاذا نبغ احدهم مثلا في فن او صنعة لم يجد من يتصدى لتجهيله وتخطئته حتى يوقفه عن تقدمه ويطفي جذوة قريحته «ورب دوحة نشات عن فرع» بل بالحرى يجد من ينشطه وييسر له اسباب العلم . اما في بلادنا فاول ما ينبغ احد في شي يبادره حاسدوه بقولهم «هو مدع . هو حمار . هو متطفل» * ومن ذلك كلامهم في الغالب بصوت منخفض وهي صفة تكاد ان تكون من خصوصيات نسآئهم وفي بعض البلاد تسمع للنسآء زعيقا كاصوات الجن * ومن ذلك انهم لا يتشبثون باعقاب الاقاويل ولا ياتون النميمة والغيبة الا قليلا . فاذا سكن بينهم غريب وسمعوا عنه ما يكرهونه منه فلا ينقلون اليه ما سمعوا عنه بل لا يهمهم ما قيل فيه وانما يعاملونه بما يظهر لهم من حسن سيرته خلافا للفرنساوية فانهم مثلنا في التعلق بقال وقيل * ولما كنت في باريس اجتمعت مرة بالكونت دكرانج رئيس تراجمين الديوان فصرت اتردد عليه لما كان عنك من البشاشة بالغريب ولين الجانب وكان هو ايضا يتردد علي اذا لزمه ترجمة او انشآء رسالة بلغتنا . ولما كنت اكلمه ذات يوم في مصلحة عرضت لي قال لي «انني يعجبني حسن تصرفك فينا ونزاهة نفسك وذلك مما يدعوني الى اجابة سوالك غير انني اكره منك خلة عرفت عنك في بلدنا» قلت «ما هي حتى اتجنبها» قال «ان الناس يقولون انك قدمت الينا جاسوسا من طرف الانكليز فاذا كان ذلك حقا فلا يسعني اسعافك بحاجتك» قلت «بودي لو كنت جاسوسا اذن ما كنت لاكلف احدا بشي فان جاسوس الانكليز يستغني برزقه عن ان يتوصل باحد الى نوال اربه» . ولا اشك في ان الموما اليه سمع عني ذلك فان من طبع الفرنساوية ولاسيما شرطة الديوان ان يتجسسوا احوال الغريب بينهم فاذا راوا انه يعيش بلا حرفة يتعاطاها حكموا بانه اما ان يعيش برزقه او بسبب آخر . وحيث كانوا يعلمون انني لم اكن اتعاطى حرفة ولست غنيا استنتجوا من هاتين المقدمتين انني جاسوس . ومثل ذلك لا يشغل به احد من الانكليز

باله فغاية ما يرومونه من الغريب هو ان يحسن تصرفه ويقضي دينه .
إلّا ان من يسكن عندهم في القرى الصغيرة يلزمه من باب المجاملة
والمخالقة ان يذهب الى الكنيسة في يوم الاحد وان نام فيها فاما في المدن
الجامعة فلا يلزمه ذلك * ومما يدل على عدم اشتغالهم بما لا يعنيهم ما ذكر
مرة في بعض صحف الاخبار من ان الملكة اهدت الى احد الجند الذين
كانوا في الحرب منديلا قد كف بكف ابنتها الجليلة ولم يعبا بهذا الخبر احد
ولا ظن بها احد سوا ولو كان في بلادنا شهر امر مثل ذلك عن اميرة لبقي
على السنتهم اشهرا عديدة * ومن ذلك حسن الترتيب في الاشغال والمصالح
والتوقيت للعمل فلكل شيء عندهم وقت ولكل وقت شغل . فاذا اتفق ان
زارهم احد حينئذ فلا يتحاشون من ان يقولوا له مثلا « قد انسنا بك ولكن
علينا قضآء ما لا بد منه من المصالح فلا تواخذنا فينصرف عنهم عاذرا لا
عاذلا لانه هو ايضا يعاملهم بمثل ذلك . وعندنا ربما تعطلت مصالح
الانسان بكثرة زواره حتى يضطر اخيرا الى ان يحمل وسادته ويقول « شفى
الله مريضكم » وهذه الصفة اي حسن الترتيب احرى ان يتصف بها اهل
الرئاسة والادارة منهم فان رجال الدولة اذا ارادوا ان يباشروا المساعي
الجسيمة فانما يباشرونها بغاية الاحكام والضبط بحيث لا توجب تغييرا ما
في الاحكام ولا ازعاجا بشيء على الرعية . فاذا اضطرت في وقت الحرب الى
تجنيد جيوش وتجهيز سفاين وذخائر فلا يكون ذلك موجبا لاضطراب
الناس وتغيير احوالهم او لانتقال الاسعار . واذا شآءت ان تضرب على
الرعية ضريبة لسد مصاريف الحرب احالت ذلك على مجلس المشورة النائب
عن الجمهور . ومعلوم ان الانسان ليهون عليه ان يودي شيئا على يد نائبه
اكثر من ان يوديه على يد غالبة قاهرة . وفي بعض البلاد اذا شرعت الدولة
في تجهيز العساكر للحرب رايت جميع الناس يموجون في الاراجيف
ويخوضون في الاهوال فيظلم اذ ذاك القوي الضعيف وياخذ المرء بثاره من
خصمه وتختل اسباب التجارة ويعدم الامن بين المتعاملين فتكون غائلة
الحرب مشعورا بها في داخل المملكة اكثر من خارجها . وقد كانت اقامتي

في هذه البلاد قبل حرب الروس مع الترك وفي خلالها وبعدها فلم يتبين لاحد فرق في شيء ما اصلا * ويلحق بذلك ان تحصيل لوازم المعاش يكون في الصيف والشتاء شرعا فلا يتعذر وجود شيء منها باحد الموانع . وفي غير البلاد متى دخل الشتاء وهطلت الامطار تعطلت الطرق وانقطع المجلوب من الطعام وغيره . فترى كل واحد منجحرا في بيته الى ان تتيح له فرصة الخروج فاذا لم يكن الانسان قد اتخذ مونة في داره هلك جوعا * ومن اعظم ما يوول الى تنظيم الامور ترتيب المولك وضبطه ففي سنة ١٨٤٨ بلغ عدد المكاتيب التي وضعت فيه ووردت اليه ثلثمائة وتسعة وعشرين مليونا ولعل القدر في هذه السنة ضعفان . وفي سنة ١٨٥٥ وضع في مآلك لندرة وحدها ستة واربعون مليونا . وارسل اليها من مآلك المملكة في سنة واحدة مائة مليون كتاب وسياتي ذكر ذلك باكثر تفصيل عند وصف لندرة . ولم يسمع الى الان ان كتابا واحدا ضاع منها . وجعله اذا وضعت عليه طابعا بني واحد ولا فرق في بعد المسافة . واذا بعثت بمالكة الى احد ولم يجده البريد بحث عنه فاذا علم انه منك رد عليك والّا ابقي في المولك مدة ثم يحرق . واذا شئت ان تبعث كاغد دراهم فيه ذهبت الى كاتب المولك واخبرته به فيجعل على الظرف طابعا آخر انذارا للبريد من ان يطمع فيه فيفتحه . وهناك طريقة اخرى لارسال الدراهم وهي ان تسلمها للكاتب وتاخذ منه حوالة على المولك الثاني او ان ترسل كواغد المصرف تقسمها انصافا وتبعث في كل مرة نصفا ضمن الكتاب . فاذا جاءك علم بوصولها بعثت الانصاف الثانية فيلصقها المبعوث اليه بالاولى ويصرفها . واذا اشتريت من تاجر ما قيمته نصف شلين فقط وناولته كاغدا بخمس ليرات صرفه لك . وتقليل اصناف النقود اي كون النقود تقتصر على ثلثة انواع او اربعة من الاسباب الميسرة للمعاملة * ومن ذلك عدم التعنت على النساء فيما لا يكون به مثلبة للعرض فاذا كان الرجل مثلا غائبا وجاء منزله فوجد زوجته تحادث رجلا لا يتناولها بالهراوة او القبذع ويقول لها « يا فاجرة يا خائنة لا يجمعني واياك مكان» من قبل ان يعلم سبب زيارة الرجل

فاما اذا عرف منها الخيانة فلا رحمة بعدها ولا اعذار وهما خطتا اما سكين واما سم . وكثيرا ما سمعت السيدة تقول للضيف بحضرة زوجها « خذ يا عزيزي من هذا » * ومن ذلك الامن للمسافر في بلادهم فان الانسان يمكنه ان يسافر فيها ليلا وهو في الامن حال واصفى بال مما لو سافر في بلادنا نهارا وترى الولد يمشي في المدن الكبار وحده ليلا ولا يخشى شيئا . ولا هيبة لذوي المراتب منهم او للعساكر او الشرطة عند المارين بهم . وان البنت التي لم تبلغ العشر سنين لتسعى بعد نصف الليل وتمر بالشرطة كانها مرت على بعض اقاربها فتسالهم ويجاوبونها وتسترشدهم بغير حشمة ولا انقباض فيرشدونها ويذهبون معها . وليس للشرطي حق ان يدخل بيت احد واذا كان غريم محقوقا فانما ياخذه من الطريق لا من منزله . وفي البلاد الشرقية حرسها الله اذا كلمت المراة احد الشرطة او العسس ليلا لم يلبث ان يمد اليها يده ويهتك حجابها وهيهات ان ينتقم منه منتقم . وعندي ان عدم الهيبة والخوف على صغر هو الذي يورث جيل الافرنج جميعا الاقدام والجرآة على الامور والكلام ويزيدهم بسطة في الجسم والعقل ويبطئ بهم عن الشيب والهرم . فان القآء الرعب في قلب الصغير كلوامح الرياح العاصفة على الغرس فمتى تمكن منه جعله بعد ذلك غير صالح للمساعي الجليلة . وما عدا خوف الحكام والظلام وروسآء الديانة عندنا فان الامهات يزرعن في قلوب اطفالهن الخوف من العفريت والروح الشرير والظلام وغير ذلك فتثبت العادتان . ولولا ان اهل الشرق وخصوصا المسلمين من طبعهم التسليم للمقدور لما رايت منهم احدا تصدق عليه صفة الرجولية . وقد صار الان كتاب الاخبار هنا يلومون ارباب السياسة على قلة الامن للماشين ليلا في طرق لندرة وسبب ذلك رجوع الملتك المنفيين كما ذكرنا الّا ان هذا عارض يرجى زواله . وكذلك فشا اللوم على خيانة البريد بعدم تسليم الرسائل الّا انه ايضا من الامور الطارئة * ومن ذلك اختصارهم الكلام مع المخاطب اذا اعتمدوه بشيء فاذا احتاج الصغير الى الكبير في شيء قال له « اني ارجو ان تكون من المحسنين الي بتنويل طلبتي فاكون لك من الشاكرين »

فهذا يغني عن قولنا « يا بدر الكمال . ويا بحر النوال . يا من يلتجي اليه الغافون ويحج الى كعبة فضله العائذون . ويا من صيته طار في الافاق وملأ الالسن والاوراق . ويا من . ويا من » فيكون جواب الكبير له بغير ملث «سابذل جهدي في مصلحتك واخبرك» وهذا يغني عن قولنا «لا بد على الراس والعين . الخير مشترك . ونفعك من نفعي» . والحال واحد حالة كون النية غير منعقدة على العمل . واذا راى المسئول نفسه غير قادر على احساب سائله ونفعه قال له علانية «ان سولك فوق طاقتي فاقصد غيري» ولكن متى وعد فلا بد من ان ينجز وعده فلا محال ولا مطال . ولكن لا ينبغي ان تفهم من هذا ان الامور الخطيرة عندهم تبت في الحال . فان لها من التوقيت والتعيين ما يعيا به صبر المنتظر اذ لا يبرم عندهم امر من اول وهلة . فعلى قدر ما يهون عليهم ارتجال المقال يصعب عليهم ارتجال الفعال . حتى ان ديوان المشورة لا يبت شيئا في الحال . وانما المراد انهم لا يعدون بشيء لا نية لهم على وفائه كما يحدث في بلادنا . فيبقى الموعود رهين الاماني يطعم الملث ويسقى الوعود . ثم لا يحصل من ذلك على طائل فينتج منه التكذيب من قبل الموعود والتنكيد من قبل الواعد . وفي الجملة فليس بين الانكليز عرقوب ولا اشعب وهذا الاختصار هو عندي في احوال كثيرة اساس المصالح ووسيلة للنجاح . وانا اورد لك مثالا واحدا لتعلم صحة ما اقول وهو انه اذا كان مثلا احد معطلا عن الشغل وطلب وظيفة من احد الانكليز فانه يكتب اليه كتابا ويذكر له الشروط فاذا اعجبه ذلك اجابه حالا الى سوله والّا قال له لا يمكنني فيسعى الرجل في تحصيل وسيلة اخرى . اما عندنا فاذا طلب احد وظيفة قال له المطلوب اليه « يا حبذا انك جدير بها وقد انصفت في الطلب ولكن امهلني ريثما اقضي وطرا لي » فيربطه بهذا الوعد ثم تمضى مدة والرجل راكن الى ما وعد به فاذا ساله مرة اخرى مطله بحيلة اخرى الى ان يقول له اخيرا « قد استخدمت غيرك » . الّا ان الانكليز قد فرعوا من هذا الاصل فروعا لا تناسبه منها انهم يعاشرون من يكون لهم اليه مصلحة شهورا وسنين فاذا انقطعت اسباب المصلحة

إنقطعت العشرة اصلا وفرعا * ومنها انك اذا اشتريت من احدهم مثلا بالف ريال دفعة واحدة فاذا رآك في الغد في غير حانوته لم يلتفت اليك * ومن ذلك اي من الخصال المحمودة الحرص على ما يوتمنون عليه فاذا اعطيت احدهم مثلا طرسا فانه يصونه عنك بمنزلة كنز حتى اذا استرجعته بعد سنين اعاده عليك كما اخذه بل ربما ازال منه الوسخ وسلمه اليك نظيفا وقال لك وهو معتذر « قد تجاسرت على ان ازلت الطبع من الطرس وارجو اني لم اسيء فيما فعلت » وقس على هذا سائر ما تأتمنهم عليه . وينضم الى ذلك احترامهم للرسائل فلا يفتح احدهم كتابا جاءه باسم آخر بل يبذل جهده في ايصاله اليه او رده الى المولك . واذا زارك منهم زائر لا يمد يده ولا طرفه الى ما بين يديك من الصحف . واذا اراد ان يقرا كتابا لم يلمسه إلّا بعد ان يستاذنك . اما في بلادنا حرسها الله فاذا اعرت احدا كتابا اعاره هو الى آخر والاخر الى آخر وهلم جرا . فربما لم يعد اليك منه لا عين ولا اثر بل يرى نفسه اولى به وان لم يستفد منه اما لعدم قدرته على فهمه او لكثرة اشغاله . بل القسيسون ايضا لا يتورعون من هذا فاما اذا شرفك بزيارته فاول ما يلمح ورقة على مائدتك او بين يديك مد يده وقراها فكانما هو جاسوس جاءك ليطلع على اسرارك لا ليانس بحديثك * ومن ذلك ان اصحاب المراتب عندهم لا يقبلون المصانعة والرشا من احد لتنويل اربه وان علم من احدهم انه ارتكب ذلك اقتص منه كما يقتص من السارق ولم ينفعه ان يودي الرشوة التي اخذها مضاعفة . ولكن يقابل ذلك من المذام ان المراتب هنا تعطى غالبا بالمحاباة والاستحباب لا بالاستحقاق فان الشريف اذ نوه بشخص من معارفه او اقاربه عند ذي امرة فلا بد من ان تنفذ كلمته عنك . ولو ان شخصا متصفا باحسن الاخلاق والشيم ومتحليا بالعلم والفضل حاول ان ينال تلك الرتبة بنفسه لم يلتفت اليه * ويلحق بذلك ان النفر من العسكر لا يمكن ان يرقى في مرتبة الضباط وان ابدى من المهارة والبراعة ما يقصر عنه قائد الجيش فهو نفر منذ اكتتابه الى زمن خروجه من الخدمة او الحياة . وبعد ان يقضي خمسا وعشرين سنة في

خدمته يعفى منها ويعين له نحو اربعة غروش في كل يوم . والامير امير
من يوم ينزل من ظهر ابيه الى ان يركب ظهر النعش ثم يدوم ذكره
كذلك الى ابد الابدين . فكان ترتيب اصناف الناس عندهم بمنزلة
ترتيب اعضآء الجسد بمعنى ان لكل عضو خاصية لا يتعداها ولا تتعداه .
فالراس لا يزال راسا وان سرى فيه الخرف والفند والعور والصمم والدرد .
والقدم لا تزال قدما وان هي انجته وانجت الجسم كله . * وهذا التخصيص
من وجه اخر سديد رشيد فان ناظر الامور الخارجية عندهم مثلا ليس له
حق في ان يدمق على ناظر الامور الداخلية في شيء وناظر مجلس المشورة
ليس له جدارة بان يحكم على احد الباعة بشيء من محراب صرحه وقس
على ذلك . فاما في بلادنا فان ناظر المدابغ جدير بان ينظر في جلود بني
ءادم ويصبغها بلون الدرة او السوط او يسبر ما هي عليه من الطراوة والنعومة .
والمحتسب خليق بان يزن اعمال العباد واموالهم في بيوتهم ويروز ما في
عياب صدورهم من الخواطر والافكار . وللحاكم ان يسقط حق المحق لحرف
اسقطه في الكلام . وللضابط ان يبيت الناس في مضاجعهم . وللشرطي ان
يقبض على اي كان . ولضابط العسكر ان يخترط سيفه على اي عنق سنحت
له . وللمطران ان يحرم اي شخص كان من رعيته حتى لا يعود لاحد من
اقاربه واهل بلدته استطاعة على مخاطبته ومبايعته . والى من المشتكى
واين النصير . فيا ليت شعري متى نصير نحن ولد ءادم بشرا كهولاء البشر .
ومتى نعرف الحقوق الواجبة لنا وعلينا . اتخال ان التمدن معناه ان يكون
الناس في مدينة وفيها ذئاب وسباع . كلا ثم كلا جير ان اجتماع الخروف
والذئب في مرعى واحد ليوجب على اليهود ان يومنوا بمجيء المسيح * ومن
ذلك تنشيط اولادهم الى الاشغال وتمرينهم على ما يكسبهم واياهم الرزق
الكافي والمواظبة على الاعمال والصبر على ما يتعاطونه جل او حقر . فانهم لا
يملون من السعي ولا يرون في الكسل راحة ولا يقول احدهم اني كبرت
عن تعلم شيء فلا يزالون دائبين كالنمل ما دامت فيهم نسمة تتحرك . ومع
كل هذا التجلد والتحمل فمتى ضيم احدهم او سقط شرفه فاهون شيء عليه

نحو عنقه وذلك عندي من بعض الافعال المتناقضة في الطبع البشري * وجل سعيهم في شبابهم هو لتحصيل ما يهنئهم في شيخوختهم حتى يمكن لهم تربية اولادهم فلا يحتاجوا الى التكفف او الى ملازمة المستشفيات والملاجي المعدة للعاجزين . وكل منهم يعمل بقول الشاعر:

« قليل المال تصلحه فينمى * ولا يبقى الكثير على الفساد »

فاما قول عروة بن اذينة:

« لقد علمت وما الاسراف من خلقي * ان الذي هو رزقي سوف يأتيني »
« اسعى له فيعنيني تطلبه * وان اقمت اتاني لا يعنيني »

فانه يعد عندهم من الاماني الفارغة الباعثة على التواني . غير ان حب التناهي غلط فان تعليق العبد توفيقه بالكلية على سعيه وكده لا يخلو من ازراء بعناية المولى . وفيه من وجه آخر تقسية للقلب فان الانسان والحالة هذه يهون عليه ان يفارق وطنه وسكنه لاجل المال . وهذا الداء فاش ايضا عند المثرين والموسرين هنا اذ الغني منهم قد يكون له ابن وحيد فيبعثه الى الهند او غيرها طالبا لوظيفة سامية ثم بعد قليل يفجع به . وهذا يعد من وجه انه ناشي عن كبر همة وسمو مطمح ومن وجه لك ان تعله من الحرص والطمع فوفق بينهما ان استطعت * ويلحق بذلك ان الشيخ الفاني منهم اذا اراد ان يبني بيتا او ياتي امرا فانما يجعل همة في تحصيل المنفعة منه في المستقبل اكثر من الحاضر. وفي غير البلاد لا يبالي الا بالمنفعة الحالية . ولا يكاد يتجه لهم امر يرجى منه نفع او صلاح الا وتتجرد له جماعة فتجريه على وجه مرغوب ونحو مطلوب . وكلما اخترع احد شيئا في البلاد الاجنبية قصد به احدى هولاء الجماعات ايثارا لهم على اهل بلاده لعلمه انهم يوفون اجرة العامل فاعانوه على اجراء مرامه بما فيه نفع لهم وله * ثم انه وان يكن قد غرس في طبع كل انسان ان يحب وطنه ويفضله على غيره ولاسيما اذا سافر الى بلد هو دون بلده في طيب الهواء ورغد العيش حسن الاحكام الا ان هذه الصفة تكاد ان تكون من خصوصيات الانكليز فهم ايان يتغربوا يظلوا لهجين بذكر بلادهم وما فيها من المحاسن واللذات

وقد رايت كثيرا ممن سافروا الى بلادنا والى مصر والغرب وباريس فاثنوا على تلك البلاد بشيء وافق طباعهم منها إلّا انهم عند ختم الكلام يقولون « لا شيء كمثل انكلترة القديمة » وانما يصفونها بالقدم لعدم تحول احوالها وتغير عاداتها كما ان اهل باريس يقولون « ليس إلّا باريس » . ومع ذلك فانك لا تزال ترى الانكليز طوافين في جميع البلاد وراكبين متني البحر والبر معا . ولكن لا تكاد ترى احدا منهم يسافر الى البلاد الاجنبية لاجل ان يعلم التصوير او الموسيقى او الرقص والغناء كعادة غيرهم من الافرنج وانما جل ضربهم في الارض للتجارة . فاما الامراء والاغنياء فانهم يسافرون للتنزه واحيانا لاجل تخفيف المصاريف فانهم مهما يصرفوا في غير بلادهم فلن يبلغ ذلك نصف ما يصرفونه وهم في اوطانهم . ورب وليمة واحدة عندهم ينفق فيها اكثر من مائتي ليرة . فترى منهم في كل قصبة من بلاد اوربا الوفا . ومتى رجع الانكليزي الى بلاده قال مع الشاعر:

« فبشرت امالي بملك هو الورى * ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر »

ولا شيء يعجبهم مثل ان تمدح بلادهم وعاداتهم * هذا وان من طبع الناس عموما اذا احتاجوا اليك ان يعزوك ويحتفوا بك ويروك اهلا لكل مكرمة واذا انت احتجت اليهم استخفوك وراوا فيك العجز والذل . إلّا ان هذه الخلة غالبة على الانكليز جملة وتفصيلا فمن رام ان يكرم نفسه عندهم فليظهر لهم انه مستغن عنهم ولا يعرض لهم في طلب شي ولا في استعارته . وبناء على ذلك يصاحبون من يصاحبون اياما وشهورا وسنين ولا يسالونه عن مقدار دخله وخرجه ولا يريدون ان يسمعوا ذلك منه اذا ذكره ومتى حللت هذه العقدة انقطع الحبل فذلك عندهم من السر الذي لا ينبغي افشاوه إلّا عند الضرورة . وكذلك لا يسالونه عن معتقده ومذهبه وعندنا متى تعرف احد بذي مقام فاول ما يشنف سمعه به من المسائل هو ان يقول له « من اي ملة انت » . فاذا لم يكن المسئول من ملة السائل يسقط من عينه الشريفة او يبقى فيها كالقذى ان بقي محتاجا الى عشرته . فاما مسائل الاخوان والعشراء فاولها « كم دخلك » وثانيها « كم خرجك » وثالثها

« كم مرة تعترف في السنة » ورابعها « هل تاكل البيض يومي الاربعآء والجمعة » الى اخره * ومن طبع الانكليز انه متى وثق احدهم بانسان وعرف منه الجد والاستقامة والامانة يائتمنه على زوجه وعلى بناته فيذهبن معه ليلا ونهارا بلا مانع . ومن يحضر الى بلادهم بوصاة من عند معارفهم احتفلوا به وعدوه من بعض اهليهم وصموا آذانهم بعد ذلك عن سماع ما يقال فيه ولكن بشرط المحافظة على ذلك الاصل وهو اظهار التشبع والاستغناء . فاما اذا كان ذا بسطة في الجسم ومسحة جمال في الوجه فلا يشينه شائن . ومتى دخل احد تحت حماية امير منهم فقد دخل في ذمة السموول وفي حمى كليب فهو يحامي عنه بكل ما اطاق . فهذا الداب من جهة يعد من المناقب ومن جهة اخرى لا يخلو من ذام . وذلك ان من اعتقد منهم بصدق الموصى به ثقة بالموصي ولم يغير فيه اعتقاده وان سمع عنه ما يشينه فقد ترجم بفعله هذا عن عصمته ومحالية وقوع الغش عليه فيما قرر عليه رايه حتى لا يحتاج بعده الى ناصح ينصحه ومنبه يرشده فاسترسل في هواه الى ما يعرضه لطعن الغائبين وفقد المنكرين . واللبيب من الناس من لا يركن الى هواه بل يشك في نفسه ويستريبها حتى يوديه هذا الشك الى الاهتداء لليقين . وبعد فهب ان ذلك الشخص الموصى به كان جديرا بالمراعاة والاجادة وهو في بلاده فقد يحتمل انه عند مشاهدته الانكليز على هذه الاحوال التي لم تكن تخطر بباله قط تتغير اخلاقه ويتلبس بصفات لا تشاكله . فقد عرفت كثيرا ممن قدم اليهم من البلاد الشرقية وعليهم سمت الاستقامة والنزاهة فلما راوهم على هذه الحال من التشوف الى معرفة بلادهم ومن ائتمانهم الغرباء على بناتهم واكرامهم الغريب من اجل الوصية التي قدموا بها وغير ذلك اتخذوا لهم ريشا غير الذي جاءوا به وانتحلوا لانفسهم صفات ومآثر لم يحلموا بها من قبل قط . فبعضهم قام في الناس خطيبا يحكي ما عرفه من احوال بلاده وبعضهم طمح الى ان يتزوج من يكون عندها من المال ما يشري به املاك اهل بلدته او قريته وبعضهم اخذ في التاليف وحشر نفسه في زمرة علمائهم وكلهم ظن ان الانكليز طعمة للملتهم ولقمة للملتقم .

واول ما يخطر ببال الدخيل فيهم اذا كان عزبا انما هو ان يتزوج احدى بنات الاعيان الاغنياء ويستغني برزقها عن الهم والنصب . وفي الحقيقة فقد صدق فيهم ما قاله مولف حاجي بابا وهو ان الانكليز اذا تعرفوا باحد غريب فلا بد من ان يرفعوا شانه لئلا يلحقهم من تعارفهم به وصمة تشينهم فربما انتحلوا له لقب امير او سيد حتى يتوهم الرجل انه في الواقع كذلك * ومن طبع الانكليز ولاسيما كبراوهم ان ينفروا من الرخيص وان يكن نفيسا ويتهافتوا على الغالي وان يكن خسيسا . وعلى ذلك ورد في بعض الاخبار ان رجلين كانا يتحدثان في هذا المعنى فقال احدهما لصاحبه « الا اني فاعل بهولاء القوم امرا يسخر منه كل من سمع به » ثم عمد الى كيس وجعل فيه دنانير من ذهبهم وقعد على قارعة الطريق وجعل ينادي « من اعطاني شلينا اعطيته دينارا من هذه الدنانير بدلا منه » فجعل المارون يتضاحكون منه ويقولون « لعمر الله ما قصد بذلك الّا غبننا » فطفق يصرخ باعلى صوته ويقول « يا ايها الناس هاوكم الذهب بدل الفضة وعليكم بالجهبذ » فلم يكترث له احد * واعرف بعض الجهلة كان يقرا النحو على رجل من ذوي القناعة والنزاهة ثم يعلم جماعة من الانكليز ويتقاضى كلا منهم على تعليم ساعة واحدة نصف ليرة . فكان الناس يهرعون اليه ويعرضون عن معلمه لانه كان يتقاضاهم ربع هذا المبلغ تذمما وتورعا . واذا كان احد متوظفا مثلا في وظيفة عالية وقصدوه ان يقضي لهم حاجة اعطوه اضعاف ما يعطونه من ليس له شغل الّا قضاء تلك الحاجة بعينها . ومن كان يعيش من حرفة له وان كانت تلك الحرفة عقلية لا يدوية فليس له عندهم مقام من ليس له حرفة وان كان خرقا . وعلى هذا قال العلامة كولد سميث « ان الناس من شانهم ان يستخفوا بالمعارف التي يكون منها معاش صاحبها » . وقد يتفق ان يكون مثلا طبيب نطاسي واخر متطبب فاذا كان لهذا عاجلة ودار رحيبة وخدم اقبلت عليه جميع الامراء والعظماء واعرضوا عن ذلك لكونه ممن يمشي على رجليه ما لم يولف كتابا ويظهر فيه براعته . فكم من ملكات نفيسة تبقى في زوايا الخمول بسبب هذا الترجيح الزائغ . وسياتي ذكر تهافتهم على

الالقاب . والحق يقال ان زيادة شلين واحد ونقصه في ثمن المتاع عندهم يوجب فرقا عظيما إلّا انه ليس من العدل ان تقاس الناس بالبياعات فكم من عالم وليس عنك كتاب وجاهل ولديه اضابير من كتب نفيسة * ومن طبع الخاصة منهم ان يتجنبوا معاشرة العامة ما امكن . ولذلك سببان احدهما وهو المشهور عند الناس عظم الفرق الحاصل بين الفريقين في الاطوار والاخلاق . فان العامة في هذه البلاد ما برحوا متسكعين في مهامه الجهل والفظاظة كما مر بك . ولا تكاد خلائقهم وعاداتهم ترضي احدا من البشر ممن كان ذا ذوق سليم وطبع مستقيم . فالاوباشية ظاهرة عليهم في كلامهم وحركاتهم وتخيرهم للالوان وفي تصرفهم وغنائهم وضحكهم . ومعلوم انه من يكون قد قرا ودري يستنكف من امثال هولاء الرعاع . والسبب الثاني وهو ما خطر لي ان علية الناس هنا اصلهم من اجيال مختلفة . فان الذين فتحوا هذه الجزيرة انما كانوا من فرنسا وشمالي اوربا . ومعلوم ان هولاء الفاتحين هم الذين استولوا على الارض وعلى المراتب والالقاب الشريفة وان الانكليز بقوا بينهم مسودين مرووسين وبقي هذا الفرق في اعقابهم . قال ڤلتير « انه بعد وفاة الفريد ملك انكلترة وذلك في سنة ٩٠٠ اختلت امور المملكة وتضعضعت اركانها فكان القتال مستمرا بين الصكصونيين وهم اول من غزوها وبين الدانيزيين (٥٥) ولما كان هولاء اعز واقوى من الانكليز لم يكن لهولاء بد من ان يودوا اليهم ثمانية واربعين الف ليرة لينصرفوا عنهم وذلك في حدود الالف . ثم ان كانوت ملك الدنيمرك جار في حكمه على الانكليز وبغى وطغى وفي سنة ١٠١٧ اعناهم تحت حكمه وعاملهم معاملة الاسرى فكان الدانيزي اذا مر بالانكليزي يقف هذا الى ان يمر ذلك . فلما انقرضت ذرية المذكور عادت الى الانكليز حريتهم فملكوا عليهم ادورد الصكصوني وكان يلقب بالقديس المعترف وانما قيل له ذلك لانه اعتزل زوجته كراهة ولم يعقب . فلما توفي قام وليم ديوك نورماندي يدعي بان له حق الولاية عليهم مع انه لم يكن له حق بولاية النورماندي . الا ان حقوق الولاية والملك حينئذ لم تكن في اوربا كما هي الان . وكان ممن

دعواه انه قال « اني لما سافرت الى جزيرة انكلترة اجتمعت بالملك ادورد فجعلني وصي عهده واني انقذت الملك هرلد من سجنه فوعدني ايضا بان ينقل الملك الي » . ولما عرض ما نواه على اهل نورماندي وقع بينهم الخلاف في شانه فمنهم من ابى ان يمده ومنهم من راى في ذلك صلاحا . ومن جملة هولاء ديوك يقال له فتزاثبورن فانه جهز معه اربعين سفينة وامده ايضا حموه الكنت فلاندر بمال وكذلك البابا اعانه وحرم كل من يمانعه فسافر حتى بلغ ساحل صاسكس فلقيه هرلد ملك الانكليز بالجيوش ونشبت الحرب بين الفريقين فقتل هرلد واخوه وانهزمت الانكليز امام وليم فزحف بجيشه نحو لندرة وهو ناشر علما كان قد باركه له البابا فدخلت الاساقفة في طاعته واقبلت اليه القضاة بالتاج (٥٦) . فلما استوى على سرير الملك اذل الدانيزيين واهل الجزيرة وقهرهم اي قهر ولطف باهل نورماندي الذين اعانوه ووهب لهم ارزاقا واقطعهم اقطاعات جمة . فمن ثم كثرت هناك عيال النورمانديين الذين لم تزل ذراريهم او اسمآؤهم معروفة بين الانكليز وكان دخل هذا الملك اربعمائة الف ليرة وهي تبلغ بحساب قيمة الدراهم في زماننا هذا خمسة ملايين من ليرات الانكليز . قال: « والظاهر ان في هذا المقدار مبالغة فان دخل انكلترة وسكوتلاندة وارلندة الان هو دون هذا اذا اسقطنا ما يدفع في مقابلة دين الامة » . قال: « ثم ان الملك المشار اليه ابطل شرائع الانكليز وامر باجرآء احكام النورمانديين مكانها واجبر اهل الدعاوي على ان يتداعوا بلغة قومه . وكذا كتب الصكوك والاحكام فبقيت لغته مستعملة الى عهد ادورد الثالث . وكانت تلك اللغة فرنساوية مختلطة بالدانيزية بعيدة عن الفصاحة بائنة عن البيان . وكان مما سنه الملك على الانكليز اطفآء مصابيحهم في الساعة الثامنة من الليل وذلك عند سماعهم صوت الجرس الّا ان هذه العادة كانت جارية عند غيرهم من سكان البلاد الشمالية وكان البادي بها اهل الكنيسة » اه . فقد علمت مما تقدم ان علية الانكليز هم من الغربآء الذين فتحوا هذه البلاد . فان قلت « اذا كان ذلك كما قيل فما بالهم يخالفون علية فرنسا والدنيمرك في الطباع

وفي كونهم كما سبقت الاشارة اليه كالزيت لا يختلطون بغيرهم انفة وتكبرا . قلت: وما بال جو الانكليز لا يشبه جو فرنسا وغيرها . افينكر احد ان للهوآء تاثيرا في الخلق والخلق سوآءٌ كان في الحيوان الناطق او غير الناطق . فلو جئت ايها الهش البش الطلق المحيا الباسم الضاحك المقهقه الى هذه البلاد وبقيت فيها شهرين وثلثة لا تبصر الشمس الّا من ورآء حجاب لاغناك الخبر عن الخبر * وحيث قد ترفعت الكبرآء من الانكليز عمن هو دونهم من اهل بلادهم وصار ذلك دابا لهم وطبعا يرثه الولد عن والده والخلف عن سلفه جروا على ذلك ايضا مع الغربآء ما لم يتبين لهم انهم نظرآؤهم في الهمة والمعالي . فمتى اعتقدوا ذلك منهم لم يانفوا من معاشرتهم . والحق يقال انه لا مناسبة بين علية الانكليز وسفلتهم بخلاف سائر الناس . فلان الامير عندنا مثلا لا يفاضل الناس الّا بامارته لا باخلاقه وآدابه ومعارفه . فان جميع الناس في ذلك متساوون غير ان عامة الانكليز لا خلاق لهم من ذلك راسا . وايضا فحيث كانت القاب الشرف عندهم قديمة وعزيزة كان لها عندهم اجلال وتعظيم يفوق الحد حتى ان اعظام اللقب هنا اكثر من اعظام الملقب به . فان الشريف اذا مشى مثلا في الشوارع مع عامة الناس لم يكترث له احد ولم يقم له قاعد وقد يسوغ الطعن فيه والتنديد بمعايبه ولكن لا يسوغ ازدراء منصبه وجلالته لا بالنطق ولا بالكتابة . وما احد من الانكليز ينكر انه بمجرد اتصاف الانسان بجلالة يجب له التعظيم والتكريم . ومن اعظم شاهد على ذلك نصب ضابط البلد فانه قد يكون من اهل الحرف والصنائع فمتى حصل على هذا الجلاء صار مساويا للاشراف والسادة حتى ان سائر الوزراء والامراء يتغدون عنده ويجانسونه وما ذلك الّا لمراعاة جلالته ومقامه ومتى عزل رجع الى حاله ولم يتغد عنده احد منهم ولو جآء بالمن والسلوى . والكلام على كيفية نصبه سنذكره في وصف لندرة ان شآء الله تعالى * وما احد هنا يرتقي الى درجة سامية عن صفة الّا هذا الضابط فاما الوزراء ورجال الدولة فكلهم اشراف او من جلة الناس بخلاف بعض الدول فان صبي الحلاق والجزار في البلاد المشرقية ربما صار في مرتبة

وزير * والشاهد الثاني ان بعض حمر بلادنا او غيرها يقدم عليهم وعليه برذعة لقب فيكرمونه غاية الاكرام ويبوونه بدل الاسطبل مبوا اسنى ومقاما اعلى وهو مع ذلك لا يدري ان ينهق بمدحهم ولا بهجوهم * اما الفرنساوية فانهم يكرمون اللقب اذا كان يليق بالملقب ومَن كان ذا معارف وصفات حيدة عندهم اغناه ذلك عن حلس الجلاء . ولا شك ان الفضل بغير جلاء خير من الجلاء بغير فضل * وقد كنت ترجمت نبذة من نحو لغتنا وبعض محاورة لاجل ان يطبعها بعض الدراقين فلما انتهى طبعها كتب في صفحة العنوان انها من تاليف فلان مدرس اللغة العربية بمالطة سابقا ومترجم جميع اسفار التوراة والانجيل ومولف كتاب الفارياق الى اخره . فقلت له « ما الموجب الى ذلك كله » فقال « ان الانسان هنا انما يعتبر بالقابه لا باتعابه وخلوا من تعديد الالقاب لا يباع الكتاب» * ولكل عيلة شريفة من هولاء الروس لباس مخصوص بخدمتهم وخدمتهم ولهم لهجة مخصوصة فيها لجلجة في الكلام او كما يقال رخاوة حنك حتى ان اللاعبين في الملاهي يحاكونهم ويسخرون منهم . ولهم ايضا تنطس زائد في مراعاة جانب العرض فانهم لا يقبلون في مجالسهم من علم انه عائش مع امراة على وجه المتعة او السفاح وعند الفرنساوية لا حرج فيه . وكذا في الصدق ايضا فانهم اذا عرفوا من احد الكذب ولو مرة واحدة سقط اعتبار بشريته من اعينهم وهم مع ذلك اكثر الناس عرضة للتدجيل * ومنها ان معاشرتهم لازواجهم اشبه بمعاشرة الاجانب فلا يانس احد بشيء من الدالة بينهما . فبينهما من التحشم والتكاف ما بين الغريب واحدهما . ولا يمكن للسيد ان يقول عن امراته « زوجتي او قرينتي قالت كذا » بل يقول « قالت السيدة » ولا يفتح رسائلها التي ترد باسمها ولا يتطالل الى معرفة احوالها . واذا اتاها زائر رجلا كان او امراة جلس معها من دون مشاهدة السيد . واذا كانت في حجرتها لم يدخل عليها إلّا بعد ان يقرع الباب . واذا ارادت الخروج فلا تستاذنه . ولها ان تستخدم مَن شاءت وان تذهب الى بعض الملاهي مع احد من معارفها سواء كان السيد صحيحا او عليلا في الفراش . واذا زارهم احد من

معارفهم او اصحابهم يأتمنونه على بناتهم ونسائهم فيخرج معهن ليلا ونهارا والغالب ان يكون خروجهما اولا الى الكنيسة ليفتح لها كتاب الصلوة والانجيل والتوراة ثم يعقبه الخروج الى الملاهي ليفتح لها باب المخدع ثم الى المتنزهات ليفتح لها باب الطريق او باب العاجلة . وهكذا تتوالى الفتوح . وليست هذه الخصلة عند الفرنسيس فانهم لا ياتمنون على اناثهم ذكرا وقلما تخرج المخدرة هناك وحدها او تركب الخيل وتسابق الرجال كما تفعل مخدرات الانكليز . ولعل ذلك هو بعض الاسباب الذي من اجله تراهن ممشوقات مهفهفات فقل ان ترى فيهن بادنة . هذا ما عدا كشف صدورهن في الولائم ورقودهن في النهار دون الليل الذي جعله الله سكنا وراحة للبدن *

واذا تزوج رجل امراة وكان عليها دين قبل الزواج وجب عليه الاداء ولكن يكون ولي مالها وملكها . واعلم ان الرجل في عرف الشرع هنا هو ولي امر المراة ولا يصح لها ان تتعاطى امرا خطيرا من دون اجازته الا ان عرف العادة والاستعمال يوجب للمراة كثيرا من الحقوق والامرة على الرجال فان اخضاع النسآء في كل مكان وزمان امر صعب ولاسيما في المدن الكبار التى يباح لهن فيها الخروج والزيارات فلا يسع الزوج الا المياسرة والملاينة لامرأته *

وعادة النسآء عند السلام اول مرة ان لا يسلمن باليد بل باشارة من الراس وفي المرة الثانية تمس الانامل فقط وفي الثالثة بنصف الاصابع وهلم جرا . وينبغي لمن اكرمه الله عز وجل بزيارة احد هولاء الامجاد والماجدات ان لا يذهب إلّا في وقت الزيارة المعلوم وهو في الغالب بعد الضحى وان يكون دائما بجملا باللباس الفاخر نظيف الثياب حالقا شعر وجهه باردا اظافيره ماسحا نعليه بالارندج ساترا كفيه بجلد ابيض . فان قولنا « المرء باصغريه » و « لا تكلمك العبآة وانما يكلمك صاحبها » و « رب حر ثوبه خلق » لا محل له من الاعراب عندهم . ولا يحدق فيما يراه من المتاع والاثاث ولا يمسه باصبعه فان كل ما يكون بمجلسه حرم . ولا يبتدره بالخطاب ولا يكن سائلا فاذا كلمه مولى الدار ثلث كلمات اجاب بثلث وان زاد فليزد . ولا يلزه في الجلوس وان مس كوعه فصلوة الاستغفار . ويستحب المشي على بساطه قدرا . ومن

العيب ان يذكر الانسان بحضرتهن اسم رجله او ساقه او ظهره . واقبح من كل قبيح ان يقول بطني حتى ان لفظة البطن بلغتهم مستهجنة ومثله الفخذ حتى من الحيوان وفي بعض البلاد قد تقول المراة اذا دعوتها للاكل بطني ملان ولا تستحي . ولا ينبغي له ان يحك بحضرتهن موضعا من جسمه ولا يبصق ولا يسعل ولا يمخط ولا يفنخر ولا يتجشا ــ والعياذ بالله ــ ولا يتنحنح وان لا يشم منه رائحة التبغ . واعرف سيدة كانت اذا شمت رائحته في ثياب زوجها مما دخن هو او غيره اجبرته على نزعها * وقد كان دعاني بعض فصلائهم الى ان ازوره وامكث عنده اياما وقال لي « قد جئتك من مكان سحيق قصد ان تنزل عندي لاسمع منك الكلام العربي ولك علي كل ما يرضيك » فقلت له لكن ينبغي ان تعلم اني اتعاطى الدخان وان نسآء الانكليز لا يسمحن به » فقال « ان حول الدار بستانا فمتى اردت ان تدخن تمضي اليه » فقلت في نفسي هذا اول المباحث على العنت ثم قلت له « اذا طلبته في الليل فهل اقوم من فراشي واحمل لحافي الى البستان » قال « بل تدخن في حجرتك وتفعل ما تريد » . فاجبته الى ذلك وسافرنا معا فلما بلغنا منزله سلمت علي زوجته فكان اول ما خاطبتني به ان قالت لي « طب نفسا من جهة تعاطي الدخان فانا ننظف الحجرة منها كل يوم فلا اذى منه » فاستدللت من ذلك انه كتب لها قبل سفرنا في هذا الامر الجليل * واذا زارهم احد اول مرة ولم يكن من معارفهم فلا بد من ان يعطي الحاجب تذكرة مكتوبة باسمه فيناولها الخادم سيده في صحفة من الفضة او البلور . ولا يكاد ان يدخل عليهم زائران في وقت واحد . وقد يكون عند البواب دفتر يكتب فيه اسمآء الزائرين في كل يوم * وفي الجملة فان معاشرة هولاء الروس تتعب الراس والرجل وتضيع كثيرا من الوقت والمال وربما دعاك احدهم الى غداء فقام عليك ذلك الغداء ثمن عشرة اغدية * ومما يحمد من هولاء الاشراف انهم لا يضعون في ارديتهم سمات الشرف ويطوفون بها في الطرق تهويلا على العامة كما تفعل اشراف فرنسا وانما يلبسونها في اوقات معلومة . وكذلك الخواتين لا يتحلين بالحلي والجواهر

إلّا في الولائم والسهريات ونحو ذلك . ومن ذلك خطابهم خادميهم بالرفق واللين وان اظهروا عليهم العجرفة والعنجهية فالمخدومة تقول لخادمتها اذا امرتها بان تناولها شيئا «هات هذا الشيء ان اعجبك» وبعد ان تاخذه منها تشكرها . وربما تباخلت عليها في الاكل والشرب وارضتها بمثل هذا الكلام الطيب فيطيب خاطرها . ومع هذا الرفق والملاطفة فلا تزال المخدومة بعيدة عن خادمتها مظهرة لها فرق المقامين وتباين الشانين فلا تدل عليها بشيء . واذا غضبت عليها فلا تكلمها بكلام يشف عن سفاهة وخروج عن حد الادب كان تقول لها مثلا «يا فاجرة - يا بنت الكلب» كما تقول نساء بلادنا او ان تحرق عليها اسنانها . والعادة عندنا بخلاف ذلك فان المخدومة تلعن الخادمة وتشتمها بحضرة الناس ثم تلقمها وتعلفها وتنبسط معها في الكلام * ويحمد ايضا من عاداتهم انهم اذا استخدموا شخصا لسنة وارادوا صرفه لغير ذنب نبهوه من قبل صرفهم بثلاثة اشهر . وعند الفرنساوية ينبهونه قبل بثمانية ايام . كذا في غلنياني . فاما اذا كان مشاهرة فينبهونه قبل صرفه باسبوع واحد أو ادوا اليه اجرة الشهر . ومن يستخدم في الميري او عند جمعية وابلى في خدمته كان على ثلج من ان يزاحمه عليها آخر ولو باجرة اقل . وكل هذه المحامد معدومة في بلادنا فان المخدوم يطرد خادمه بلا ذنب ولا مكافاة * ولكبراء الانكليز طبع غريب لا ادري الى اي شيء انسبه وهو انه اذا باشر لهم احد عملا لم يخطر بباله ان خدمته له انما هي عن حاجة الجاته الى اخلاق ديباجيته فياتي عليه حين من الدهر من غير ان يساله هل انت محتاج الى الدراهم او لا . ولكن اسمح لي ايها المخدوم الاعز ان اترجم لك عن هذا الطلياني الذي يعلمك الالحان وعن ذاك الفرنساوي الذي يعلمك الرقص والتصوير وعن ذلك النمساوي الذي يعلمك فلسفة اللغات . فاني اخشى ان الاول يضيف الى كل كلمة من لغتك حرف علة والثاني ينقص منها الحرف الصحيح والثالث يبدل ويقلب فانه يرى ان لغتك فرع عن لغته فلا يبالي كيف يودي اليك المعنى . بل دعني ان اكلمك بلسان عربي مبين حتى يكون كتابي كله من نفس واحد وما

على صماخك اللطيف من حروفه الحلقية من باس . فاقول « اي لذة ترى لعملك منهم في مجيئه اليك تحت المطر والثلج من مسافة ساعة فاكثر فيحوج الى اداء شلين جعل الحافلة (٥٧) والى ان يضغط بين القاعدين فيه ثم بعد ان يخرج منه سالما يمشي ربع ساعة فيوسخ الوحل نعليه وتكسر الريح ظلته ثم ياتي فيقرع الباب فيخرج الخادم اليه وينظر اليه كالمستخف به اذ يرى نعله قد ابتلت وظلته مفتوحة فانه قد نقل عنك بالاسناد ان كل من يعيش بيديه ويمشي على رجليه لا يكون « جنتل مان » اي متخصصا متصفا بصفات الخاصة - ثم يعرض عليك ما اقدمه اليك من دون ان يذكر اسمه وانما يذكر صفاته وحينئذ تامره بان ياذن له في الدخول . فامعن النظر هداك الله يتبين لك ان من كانت هذه حالته كان جديرا بان ياخذ اجرته وحق عرق جبينه او قرقرة امعائه من البرد في غاية الشهر . لعمري ليس هذا داب جيرتك الفرنساوية فانهم وان لم يؤدوا اجرة العامل لهم كما تؤدي انت إلّا انهم لا يغفلون عنه فيعرضون عليه ما يلزمه قبل اللزوم او عند وقته » * واقبح من ذلك انه اذا سال العامل المعمول له من هولاء السادة اجرته انقبض منه واقشعر ولاسيما اذا كان المبلغ قليلا * وهنا ينبغي ان اذكر ان الناس ما زالوا يروون عن الانكليز انهم اذا استخدموا مثلا معلما او عاملا لا يسالونه عن اجرته اولا وانما يسالونه اخيرا ويؤدونها اليه كما يطلب وانهم يوفونها اكثر من سائر من عداهم . وان العامل اذا اشتغل لهم بشيء ما ساعة من النهار اغنته عن التعب يوما او يومين فينبغي ان تعلم ان الانكليز كانوا من قبل اختراع سفن النار انخى واسخى منهم الان . فان مجيء الغربآء الى بلادهم كان نادرا فكانوا يحتاجون الى ان ياخذوا عنهم ما ليس عندهم منه . وكثير ممن جآءهم في ذلك الوقت مخرق عليهم ولبس فرجع غانما . فاما الان فما برحت الغربآء تتوارد اليهم من كل فج وصاروا هم ايضا يجولون في كل البلاد ويطلعون على احوالها ويشهرون معلوماتهم فيها في الكتب وصحف الاخبار . فاصبح لا يخفى عنهم ما يناله الغريب في بلاده واصبحوا يشارطون ويستحطون من الطلب ويشتغلون . وصار عندهم

كثيرون من الفرنساوية وغيرهم وربما رضي احدهم بان يأخذ على شغل ساعة شلينا واحدا وما بين ذهابه وايابه يضيع ساعة فاكثر * وهذا الطمع في الاستغناء من الانكليز قد غر كثيرا من الناس فاستفزهم من ديارهم حتى قاسوا في هذه البلاد من الجهد والعناء ما رضوا به من الغنيمة بالاياب . حتى ان اهل ارلندة مع قربهم من الانكليز ومخالطتهم لهم يتركون بلادهم ويقصدون احدى مدن الانكليز وعمدتهم تلك الاماني الفارغة * ويحكى عن احدهم انه جاء لندرة على نية ان يصيب فيها الحظوة والسعادة وكان فقيرا جدا . فاتفق يوم دخوله ان عثر بدينار مرمي في الطريق فالتقطه ووضعه في جيبه ثم لم يلبث ان اعترضه فقير وساله شيئا فاعطاه الذهب وقال « خذه فاني لارجو ان اجد من ضربه كثيرا » * ولاهل ارلندة حكايات كثيرة متناقضة يرويها عنهم الانكليز تهكما عليهم منها : ان امراة قالت لرجل اراد ان يقعد على كرسي « لا اقدر ان استغني عن واحدة من هذه الكراسي الفارغة لانها جميعها مشغولة » * وسال رجل منهم رجلا آخر « هل رايت انحل من هذه المراة قط » . فقال « كيف لا وقد رايت واحدة لو انها جعلت مع هذه ومع اخرى معها لكانت انحل منهما معا » * واشترى رجل ساعة بثمن غال فساله بعض اصحابه عن ذلك فقال « ان لهذه الساعة فوائد عظيمة منها اني اذا اردت ان اقوم في الليل جذبت حبلها فتطن فاسمع صوتها » (٥٨) * وقيل مرة لرجل « قد اخترع كانون يخف به نصف المصروف من الفحم » قال « اذا اشتري كانونين ليخف المصروف كله » * ويحكون عن اهل ارلندة حكايات كثيرة مضحكة تدل على حمقهم وسخافة عقولهم * ويلحق بما تقدم ان احدهم - اي احد هولاء العلية - قد يكون مثلا مديونا لشخص فيسافر الى بلاد بعيدة من غير ان يؤديه حقه . وقد يكون له وكيل او صديق ولا يوكله عنه في قضاء حقه . فاذا سال الرجل وكيله عن سبب سفره قال « قد كان يريد ان يراك قبل ذهابه ولكن العجلة اضطرته الى ذلك وقد صعب عليه ما جرى » . وهذه الخصلة اعرفها منهم في مالطة ايضا ليست ناشئة عن طمع في اكل الدين اصالة وانما هي عن عدم مبالاة

واكتراث وعن اعتماد على صدقهم ووفائهم وعلى مقتضيات «الجنتلمانية» ولكن ما معنى «صعب عليه» هنا او «حزن» او «كمد» او «اكتاب» او «ترح» او كل مرادفها وهو لا يدري متى يعود من غيبته والرجل محتاج الى اجرته او ثمن حاجته * ومن طبعهم ايضا ان لا يسمعوا تظلم الغريب من احدهم ولاسيما اذا كان المتظلم دون المتظلم منه وان كانوا يعلمون لهذا سابقة في الشطط على بعضهم . واذا استلحوا من الشكوى نورا يريهم ان كل بشر مظنة للخطا والقصور فانما يكون ذلك في جهة الشاكي لا المشتكى عليه وهذه الخصلة من جهة هي صنو تلبثهم في اللوم على ما تقدم ومن جهة اخرى هي من قبيل التعصب والزيغ * ولهولاء الكبراء حب للسمعة يفضي الى قسوة القلب فان احدهم قد يهون عليه مثلا ان يعطي الجمعيات الدينية ثلثمائة ليرة في السنة واكثر وان كان لا يعلم باي وجه من وجوه البر تصرف او لاي مقصد تستعمل واذا مرت به امراة فقيرة حافية تحمل رضيعين وعلى وجوههم سمة الذل والجوع لم يختلج قلبه لان يجود عليها بدينار واحد حيث يعلم ان المراة لا دفتر لها تكتب فيه اسمه وتنشره على الملا كما تفعل الجمعيات * ومن طبعهم وطبع العامة ان لا تذكر لهم عيوبهم وشين عاداتهم ومنكر احوال بلادهم وانما ينبغي ان تنتظرهم حتى يخوضوا هم في ذلك . ولا شيء اسوا لهم من ان يفصل الغريب عن بلادهم وفي قلبه شيء عليهم . وللسيدات هنا نفوذ كلمة بليغ ولاسيما في الامور التي يشم منها رائحة الديانة . والذريعة الى امالتهن وارضائهن لمن حاول ذلك هي ان يقول لهن «لله ما اعجب ما ارى من احوال نسآء هذه البلاد المباركة وما هن عليه من حسن الاخلاق والفضائل الباهرة فان نسآءنا يجهلن القرآة والكتابة ولا يعرفن ما يجب عليهن لله وللعباد فمن اجل ذلك لا يحظين عند بعولتهن فعيشة الرجل مع زوجته عندنا عيشة خصام ونقار ونغص وكمد الا ليتكن تتعطفن عليهن وتنشئن لهن مدارس لتربيتهن وتهذيبهن فتكسبين بذلك الثواب من الله والثنآء من الناس» وما اشبه من الكلام الحامل لهن على الاعتقاد بافضلية انفسهن . فينظرون الى ذلك

القائل نظر الشفيق الرفيق وينزلنه منزلة رسول من الله لانقاذ نسآء بلاده من ورطة الغمه والجهل ويعتقدن انه متى رجع الى وطنه اذاع بين الناس محامدهن . وهو قائل في نفسه «الا ما اهون خدعتكن علي مع وجود اضابير كتب متنوعة في خزائنكن . ان جميع ما عندكن من التحف والاسفار لا ينفعكن من دهآئي شيئا فلن الدهآء ملكة غريزية في الانسان لا تؤخذ عن الكتب » . وهكذا ينوهن باسمه ويصبح عندهن معززا مكرما تدعوه واحدة للصبوح واخرى للغبوق . وكذلك لو القى مثل الحديث على احد من اهل الكنيسة فان بين القسيس والمراة لا يعدم الانسان هنا ان ينفذ محاديعه واذا اجتمعا له كان ذلك من سعده . واذا كان في خلال اطرائه هذا يتنهد ويزفر وتغرغر عيناه بالدموع كان انجع وابلغ . ثم ما عليه بعد ذلك ان يقهقه او يخبش فان للضحك وقتا وللبكآء وقتا . وهذا التدجيل لا يغني عند الفرنسيس نقيرا *

مطلب في الكبر

هذا واني سمعت من كل من عاشرته وقد عاشر الانكليز ان يصفهم بالكبر والعجرفة ولكن قبل اثبات هذه الدعوة ينبغي ان نعلم ان الكبر على انواع : الاول ان يكون ظاهر سحنة الانسان منفرا عنه ناظره لعدم طلاقة وجهه فيظن الناظر اليه انه لا يتكلف لمخاطبة . ومنها عدم قبوله النصح والافتتات برايه وقوله . ومنها ان يكون طلق المحيا لين الجانب يرغب في مجالسة الناس ولكن لاول ما يبسط بساط الحديث بينك وبينه يفطق يعدد عليك فضائله وفواضله ومآثره ومناقبه فاذا كان ثريا قال «اني انفق في الشهر كذا - واتصدق على الفقراء بكذا - وكنت بالامس مارا في طريق كذا فسالني فقير شيئا وحيث لم يكن معي فلوس بذلت له دينارا - واني لا يبلى عندي شيء مما البسه فاني اخلعه على هذا وذاك - وان عندي من المتاع كذا - وكل يوم آكل كذا واضيف اناسا واقريهم الطرف التي يعز وجودها في هذه البلاد فان لي عمالا في البلاد الخارجية يبعثونها الي في كل عام » . وان كان جميلا قال «ان فلانة هامت في هواي وتركت اهلها حبا

بي والت لتصبحنني او تموت - وان زوجة فلان اهدت الي من التحف كذا وارسلت الي من الرسل والرسائل كذا - وان ابنة فلان دعتني الى ان اخطبها وهي تملك كذا ولم اجبها ولا ادري كيف ينتهي الحال بها واني مشفق من ان يلم بها عارض من الجنون فاكون انا سبب ذلك » وهو مع كل هذا الافجاس والجزاف بكذا مقبل عليك ويزيدك ادناءً من جنابه لكيلا يفوتك شيء من هذه الفوائد التي يلقيها عليك . واذا كان قد قرا بعض اشعار وسمع من اهل العلم مثلا ان الشعر منقبة سنية تصدى الى نظم اي كلام كان . فاذا راى طائرا في الجو نظم فيه قصيدة واذا توفي احد في بلده قال «قد غاض بحر الكرم ودكت اركان المعالي وذوت ازهار الفضائل وافل نجم الهدى وخسف بدر المجد وكسفت شمس الفضل » ثم لا يزال يطلع في عجلة النبي الياس حتى يصل الى الفلك الاثير ويعدد جميع ما هنالك من النجوم وينتزع منها كفنا لمرثيه وما ذلك الّا حتى يقال عنه انه شاعر . ومنهم من اذا حفظ نادرة او حكاية او مسالة تراه يتشدق بها في كل مقام ويضغطها بين كل مورد ومصدر حتى يقال عنه ما شآء الله . ومنهم من اذا اطلعته على غلطه اوما اليك براسه وقال «قد فهمت قد فهمت » فتقول له « كيف تكتب المرة الاتية » فيقول « لا اكتب غلطا » فتقول « ولكن بين لي كيف تجتنبه » فيقول « اكتب ما يكون صحيحا » فتقول « ابلغنيه » فيقول « حين اكتب اعرف ما يقال » ولا يزال يحاولك بمثل هذا استكبارا وعنادا حتى تمل منه . ومنهم من يزورك واول ما يستقر به المكان ياخذ في ان يشكو من كثرة معارفه ويتافف من كثرة ما يدعى الى ولائمهم ومراقصهم ويتسخط على الولائم والمولمين مع انه لم يحصل على معرفة هولاء المعارف الّا بعد استعمال وسائط لا تحصى وهو يقول في قلبه « ادام الله هذه المآدب واعلى شان الادبين فانني اذهب اليهم وانال من اطايب طعامهم وشرابهم واتخرق عليهم فتارة يضحكون من خزعبلاتي وتارة يحبذونني فارجع الى بيتي خالي البال متناهي الامعآء » . ومنهم من يكون له قفص خدام فيدعوه الى ان يجور به ويلبسه نعله بحضرة الناس وان يحمل قلنه ودواته وجبته

وعصاه و يمشي ورآءه كانما هو حمار محمل وذلك حتى يقول الناس ان السيد ذو خدم وحشم . ومنهم من يتواضع لجليسه وسامعه بان يقول « لا تواخذني يا سيدي بما تسمع مني من اللحن فاني لم اخذ العلم عن احد قط ولم يطاوعني الوقت على ان اتعلم اللغة كما يجب وانما عرفت ما عرفت بالدربة والممارسة » وهو عند ذلك ينتظر من سامعه ان يقول له « حاش لك ان تلحن في شيء وانت العلم المشار اليه بالعلم والبيان وتالله انه لم يطرق مسمعي شيء ابلغ من كلامك فانت قس الفصاحة وسحبان البلاغة وانت الذي تروى عنه نوابغ الكلم وتوخذ عنه جوامع الحكم فيا ليت لنا في بلادنا نفرا ياخذون عنك هذه البدائع كيلا يضيع العلم من بيننا فادام الله وجودك ومتعنا ببقائك آمين » . ومنهم من يقول « ان شاني يا جماعة الخير ان لا ارى علي لاحد دينا او لوما او منة ولو بت وعلي لاحد دينار واحد لم تاخذني سنة ولا نوم وقد حاولت ان اغير طبعي هذا بطبع من طباع الناس فلم اقدر » وهو مع ذلك يترقب جماعة الخير ان تقول له « نعم هذا الطبع - لله سجاياك ما اكرمها وخلائقك ما اعظمها فيا ليت الناس جميعا يقتدون بك » . ومنهم من اذا كتبت اليه كتابا تساله عن شيء ضن عليك بجوابه اذ يراك غير اهل له . ومنهم من اذا راك قد فتحت فاك للحديث معه او مع جليس آخر ابتدر الى قطع حديثك المفيد بان يحكي عن نفسه او عن اهله وخادمه حكاية سخيفة . ومنهم من يماريك في الحق الصريح ولا يذعن لبرهانك وان كان يعلم انه دونك في الجدال وآخر الكلام بينك وبينه هو ان يقول لك « هكذا كان رايي وهذا هو قصدي » فيوهمك بذلك انك انت كنت من الزائغين . ومنهم من يجادلك فيما لا يورثه فخرا ولا يكسبه ذكرا ولكن لمجرد اظهاره اياك غالطا فاذا سالك مثلا « كيف انت » وقلت له « بخير وعافية » قال لك « ما اراك تدري ما العافية فاني لا ارى اثرها عليك » فتقول له « كيف واني والحمد لله متمل بصحتي ويمرئني ما اكل واشرب ويهنئني منامي وجلوسي » فيقول « ما هذا معنى العافية عند المحققين وانما هي ان تمشي منتصبا غير لاو على شيء تراه عن يمينك وشمالك موازنا لخطواتك شامخا

بانفك » الى آخره - ولو جئته بجالينوس والفيروزابادي ليطلعاه على حد العافية وتعريفها لم يقنع منك . ومنهم من اذا غاب يوما عن وطنه قال لمن يجهل نسبه « ان ابي كان رئيس المنشئين في الديوان وعمي كان وزير الامير وخالي سميره واني انما قدمت بلدكم للتنزه والتفرج » وما اشبه ذلك . ومنهم من اذا لم يجد مجالا في نفسه للمدح والمباهاة افتخر بابيه او جده او عمه او بداره او ببلدته . وقد سمعت مرة واحدا من هذه الزمرة يقول « قد جرحت اصبعي بالامس فخرج منها دم قان اعجب جميع الحاضرين » . ومنهم من يروعك بعظمته الشديدة فتظن ان المكان تزلزل منها او بتجشئه الذي تسمع له صدى . ومنهم من اذا حييته في الصباح شخر وزجر وفتل شاربيه وزفر . وقس على ذلك من يزكي حرفته ويفتخر بصنعته الى ما لا نهاية له *

فاذ قد تقرر ذلك فاعلم ان كبرياء علية الانكليز انما هي من النوع الاول وهو انك تنظر فيهم الانفة وكلوح الوجه ولكن متى خاطبت منهم احدا تبين لك انه لا فخور ولا فياش . ومن كان دخله منهم في العام مليون ليرة يوهمك انه مثلك اذا كنت مثلي ذا هم في معيشتك ونصب . ومن يكن عنده الفا كتاب فاذا قلت له مثلا ما اكثر كتبك قال لك « لعلي مسرف في شرائها وما كان ينبغي لي هذا » مع انه لو قال لك « اني قادر على شراء ضعفيها » لكان من الصادقين . ومن كان منهم يحكي البدر جمالا كقول شعرائنا لن ينبس بكلمة تدل على انه فتن امراة بحسنه . ومن يكن مضطلعا بالعلوم والفنون فاذا سالته عن شيء لم يجبك الا بعد التروي ولا ينسب اليه حل المشاكل واستخراج المجهول . واذا سالته عن شخص يدعي العلم ويولف ما لا يرضى به العلماء قال « لعله استعجل فيما الفه ولم تمكنه مراجعته وقد يكون مع المستعجل الزلل » ولا يعيا عن ان يجد له عذرا يستر به عيبه . ومن يكن في اعلى المراتب لم يستنكف ان يجيب من يساله ايا كان . فقد تبين لك ان كبر الانكليز انما هو في وجوههم اكثر منه في السنتهم وقلوبهم وان وسم الناس اياهم بالعجرفة مطلقا ليس في محله . الا

آنّي لا آنفي عنهم الاتصاف بعزة النفس وترفيعها عن ان تذل لاجد وهي من الخلائق المحمودة . فاما كبر السفلة فهو ابداء العبوس ايضا مضافا اليه عدم التادب في الكلام والحركات ونبرهم في الخطاب وسوء الضحك واللقآء والمنصرف وهلم جرا . ثم انه كما شهر عن الانكليز الكبر كذلك شهر عنهم الصدق ولكن ينبغي ان تعلم ايضا ان الكذب على انواع احدها نيء مائع وهو الذي اتصف به اهل البلاد المشرقية - كان يعد الانسان بالحضور في الساعة الفلانية ثم يخلف - او يعدك بقضآء حاجة وفي قلبه ان لا يقضيها - او ان يسافر الى اسلامبول ويقول ان مولف كتاب الساق على الساق قد ضغط بين عاجلتين فمات - او ان تكون قد ارسلت له كتابا فينكر وصوله - او ان يقول لك « قد اطريت عليك البارحة عند فلان فهو يبلغك السلام ويدعوك الى منزله » حتى اذا سرت اليه وجدت الامر بالعكس - او ان يقول « نويت السفر غدا الى المشرق » ثم يسافر الى المغرب وغير ذلك مما لا يجدي نفعا ولا يوصل فائدة . والثاني كذب مطبوخ جامد وهو ما تستعمله الافرنج وخصوصا تجارهم فيكتبون مثلا على بضائعهم انها من انفس الاشيآء وانها صنعت باختراع آلات جديدة احدثت عن طول تبحر في علم الهندسة - وان لحمة هذا الثوب من الهند وسداه من الصين - او انه سلطاني او ملكي او اميري او مولوي او وزيري ونحو ذلك . فهذا الشعار لا تانف الانكليز ان تتردى به لجر منفعة به اليهم وهو المراد عندهم من التمدن . ومتى علموا ان جيلا امهر منهم في شيء نسبوا اليه. ذلك الشيء الذي يصنعونه هم ويريدون بيعه . والثالث كذب متبل محرق وهو التغرير والنميمة والافساد بين محبين او خليلين لوما وحسدا وهو يكاد ان يكون من خصوصيات الشرقيين . ثم ان الغني وان يكن شانه ان يجتذب اليه قلوب الناس في جميع الامصار والاعصار وان التجمل باللباس يورث المرء هيبة وجلالا حينما كان - وعلى ذلك قول بعضهم « لقد اجتهدت في ان انظر الى الغني بالعين التي انظر بها الى الفقير فلم اقدر » - او كما قال العلامة كولدسميث ان الغني مرادف الحرية في كل مكان - الّا ان الغني عند الانكليز شعار على

الجدارة والاستحقاق لكل شيء . فالغني عندهم يمكن له ان يرفع دعواه الى مجلس المشورة ويطلق امرأته لعلة الزناء حقيقة او ادعاء والفقير لا يمكنه - وله ايضا جدارة بان يكون ضابط البلد - ومن اعضاء مجلس المشورة المولف من نواب الاقاليم - وان يشتري وظيفة من الديوان في العساكر البرية فيكون قائد مائة او الف او عشرة آلاف - وان يدخل في المنتديات اي الاكلبس (٥٩) وهناك يجتمع بالعظماء وذوي الشرف - فاذا راوه على تلك الحالة لم يلبثوا ان يدعوه الى منازلهم - فان كان عزبا خطب اليهم احدى بناتهم او اخواتهم او كان متزوجا زوج ولدًا منهم او من بناتهم - فاستقطر بانبيق ديناره دمهم الشريف في دن نسبه - ويا لها من غبطة - وله ان يتوسل الى نجي صاحب الملك بالهدايا والطرف فيستنزل له وعل جلاء شريف من شرفه ولو كان يهوديا - وله استطاعة على ان يستعمل امهر فقهاء الشريعة في تبرئته ان كان معيبا او مدعى عليه او استخلاص حقه ان كان مدعيا فيصيرون له النور ظلاما والظلام نورا - وان يستخدم كتاب الحوادث فيشيدون بذكره وينوهون بمناقبه - وان يستخدم احذق الاطباء لحفظ صحته العزيزة - وان يحضر طعامه وشرابه من جميع البلدان القاصية انهاءً في بدنه وتصفية لذهنه - وان يضع اولاده في احسن المدارس الى غير ذلك من المنافع التي لا يستفيدها الغني في بلادنا . ومن ليس له غنى في هذه البلاد فلا يحسبن نفسه من الناس . هذا وقد جرت العادة في كل مكان بان السعيد الغني لا يزال يبدوا للناس فتى فاذا مات وهو ابن خمسين سنة مثلا اسفوا عليه وقالوا « واخسارتاه فقد مات صبطة ولعل بعض حساده قد سمه » وكذا لو تزوج في ذلك السن او سافر استحسنوا فعله ولو انه لحمقه كان يصيف في مشتى ويشتو في مصيف مدة طويلة ثم جعل المصيف مشتى والمشتى مصيفا لقال الناس « ان راي هذا السعيد ما زال رشيدا فان الزمان قد انقلب والحال حال » فكل شيء يليق به . بخلاف الفقير الشقي فانه اذا مات وهو كهل قالوا « لا بد لمثله ان يموت » واذا سافر او تزوج عرض نفسه لاستهزاء الناظر والسامع به . ثم ان ما قلته في منافع الغني هنا

لا ينفي منافع العلم على الاطلاق فان من برع عندهم في علم وان كان وضيع النسب فلا يعدم ان يرى من يرفعه من خوله ويستفيد بعلمه . غير ان العلم عندهم لا يكون بمعرفة قواعد النحو والصرف او بنظم قصائد وانما هو مطالعة اللغتين اليونانية واللاتينية ومعرفة ادبهما ومعرفة التاريخ والفلسفة والهندسة والرياضيات . فمن حصل ذلك فقد قبض على مفتاح الرزق ومن اخترع شيئا مفيدا فقد استغنى به وذلك اما ان يبيعه لاحد من الاغنيآء بجعل وافر واما ان يستبد بصنعه . فلذلك كان العلم في اوربا دائما مورد الاستنباط والابتكار . بل كثير منهم يحرزون به لقب الشرف * ومن عادة الشرفآء والنبلاء ان لا يورثوا جلاءهم واملاكهم الّا للابن البكر فان شآء اعطى اخوته وان شآء حرمهم . ففي هذه الحالة يلتزم الاهلون بان يقوموا بكفايتهم واذا كان البكر مسرفا فبذر اموال ابيه اشترى له اصحابه او اهل البلاد ولاخوته وظائف من العيلة او تبعثهم الدولة الى البلاد الخارجية (٦٠) . والحكمة في توريث البكر دون غيره هو ابقآء الجلاء في العيلة وصون ناموس البيت . واذا تقدم الابن بنت بقي له حق اللقب والوراثة . هذا اذا كان التراث عقارا فاما اذا كان حصص مضاربة مثلا او اشيآء متنقلة قسم بين الاخوة . ومما يحمد من الشرفآء ومن ذوي المراتب السامية هنا انهم لا يتداخلون في التجارة . ومن منكر عاداتهم انه اذا دخل احد على جماعة من هولاء العلية ولم يكن يعرف منهم غير واحد فقط لم يسلم الّا عليه ما لم يعرفه بهم صاحبه ويقول له في شان كل منهم هذا فلان . الّا ان هذا التعريف لا يلبث ان يصير تنكيرا فان من تعرفه في المجلس لا يلتفت اليك اذا رايته في الغد في محل آخر . فاما اذا دخل على قوم ولم يكن يعرف منهم احدا فلا يحيي مطلقا . بخلاف عادة الفرنساوية فان من يدخل على جماعة ايا كانت يضع يده على راسه او ينزع برنيطته احتراما لهم . وكذلك اذا خرج وان لم يكن يعرفهم . ومن تعرف عند الانكليز باحد افراد العائلة مثلا وتردد عليه فان لم يعرفه بابيه وامه واخوته فلا يسلم عليهم اذا رآهم داخلا فلا يلام على تركه ولا يحمد على فعله . واذا استخدم احد جارية ولقي اباها وامها لم

يسلها عليه . وقد تقدم ان الغني يمكن له ان يطلق امرأته برفع دعواه الى مجلس المشورة فان الطلاق من الامور الصعبة هنا ولا يمكن رفع دعوى مثل هذه الّا بمصاريف وافرة لا تنقص عن اربعمائة ليرة . الّا انه بعد تحرير هذا الكتاب ابيح الطلاق للعامة من دون مصاريف فان مجلس المشورة راى ذلك اصلح للرعية وهو الراي الاسد * وبقي هنا ان نقول ان روية الزوج زوجته مع رجل اجنبي في حجرتها تكفي عندهم في اكثر الاحوال لاثبات الزنآء من دون « روية الميل في المكحلة واربعة شهود عدول » كما يقتضيه شرع المسلمين . وهذا من هذا الوجه سديد فان التطليق لما كان في الشريعة المحمدية مباحا ضيق على الرجل في اثبات الزنآء على زوجته وحيث كان محظورا في شرع النصارى الّا لاجل الزنآء فسح للرجل في اثبات الزنآء عليها بمجرد خلوتها مع الرجل . ومن الغريب هنا انه قد جرت العادة عند العامة بان يبيعوا نسآءهم بيعا لعدم امكان طلاقهن وصورته انه اذا شعر الرجل بان زوجته تحب آخر عرض عليها الانتقال اليه . فاذا تراضيا اخذها وباعها لعاشقها بحضر شهود وقبض منه ما يوذن بصحة البيع وتخلص بعد ذلك من تبعتها . وفي اخبار العالم ما نصه : «رجل باع زوجته في حانة لرجل بخمسة شلينات ونصف وقبض الثمن بحضرة شهود وذهب بها المشتري فلما كان الغد ندم زوجها على ما فعل واستقال في البيع فلم يقل (في ١١ ت ٢ سنة ١٨٤٩ عدد ٣٢٠ صفحة ٢ جدول ٥ تحت اسم يورك شيرا) * وذكر ايضا فيه « ان توماس داي تزوج امرأة في سنة ١٨٤٩ فاسآء عشرتها فتركته وعلقت برجل من سكوتلاندة اسمه روبرتسن ففاوض زوجها على ان يشتريها منه فاجتمعا ذات يوم في حانة وباعها له الزوج بحضرة شهود بنصف « بنت » من الجن (٦١) تقاسموه جميعا » * وفيه ايضا « ان توماس ميدلطون باع زوجته ماري ميدلطون لفيليب روستنسن بشلين وربع من الجمعة وتراضيا على الافتراق الدائم ما داما حيين شهد بذلك س: *: سطون - في ورشستر » . وهذه العادة وان تكن غير مباحة في احكام الدولة الّا انه مسكوت عنها كما سكت عن اباحة الزنآء للمومسات فان الزنآء

هنا معلوم لارباب الاحكام لكنه غير مباح . وكثيرا ما يقوم السم مقام هذا البيع فان التخلص من الازواج به اكثر منه بالطلاق او البيع * ومن عادتهم في الزواج ان البنت لا تتزوج الّا مَن كان مساويا لها في السن او كان اكبر منها بسنتين او ثلاث وفي ذلك شطط اذ لا يخفى ان المراة متى بلغت الاربعين سنة لم يبق فيها من القوة والنشاط ما يبقى في الرجل ولاسيما اذا كانت مشتاقا (٦٢) نعم ان النسآء هنا لا يعجل فيهن الهرم فان مَن يكون سنها ثلاثين سنة تبدو كمَن سنها عشرون في بلادنا غير ان هذه الصفة تراعى في جهة الرجال ايضا . وفي بلادنا لا تثريب على مَن بلغ الاربعين ان يتزوج بنت عشرين وهذا يندر هنا جدا الّا لسبب عظيم . وذلك كان يكون الرجل اشرف من المراة واغنى فترغب فيه لتشاركه في شرفه وغناه اذ كانت هاتان الصفتان عند الانكليز افضل من جميع المناقب ولاسيما اذا روعي في ذلك مصلحة تربية الاولاد . وفي هذه الحالة فلا مانع ايضا من ان يكون الزوج شيخا فحلا لعلمها ان حرارتها لا تلبث ان تذهب ببرودته فتستولى على الميراث . واذا خطب احد امراة ثم بدا له ان يعدل عن الزواج لغير موجب شرعي غرم لها مبلغا عظيما . ولا حرج على اليهود ان يتزوجوا من النصارى . وللاب ان يجبر ابنته على الزواج بمَن شآء اذا لم تبلغ حد الرشد وهو عندهم احدى وعشرون سنة وبعده ليس له عليها من امرة الّا بالمعروف والنصيحة . ولكن كثيرا ما تهرب البنت من تحت حجر ابيها وتتزوج مَن شآءت وان حرمها من الميراث . واذا خرجت من حجره بعد بلوغ رشدها لم يبق لوالديها استطاعة على ردها . ووصية الموصي قبل بلوغ ذلك السن لا يعمل بها . وللذكر ان يعقد الزواج عند بلوغه اربع عشرة سنة وللبنت عند اثنتي عشرة . وما دام الولد دون سن الرشد فعلى الوالد ان يقوم بنفقته وبعد ذلك لا يلتزم بها وسن الرشد عندهم احدى وعشرون سنة . وعندي ان اصل ذلك هو ان عدد السبعة عند جميع الاجيال والامم كان يعتبر عددا تاما وعلى ذلك عدت الايام سبعة وكذا السماوات والارضون والكواكب السيارة واقاليم الارض والبحار والانغام . وعدد الثلثة

ايضا كان مانوسا به ولعل اصله من تثليث الزوايا في الشكل البسيط ومن تثليث الاقانيم عند النصارى . فاذا ضربت الثلاثة في السبعة حصل احد وعشرون هذا ما خطر بالبال . واذا تزوج الولد قبل هذا السن فلابيه ان يحرمه من ميراثه . ومتى تزوجت المراة انتقل جميع ملكها الى حوز بعلها ولكن لها ان تستدين على اسمه ويجبر هو على وفآء دينها . ولا يحل للرجل ان يتزوج اخت زوجته . وقد كان لرجل زوجة وله منها عدة اولاد فلما حضرها الموت اقسمت على زوجها ان يتزوج اختها بعد موتها لتربي اولادها فتزوجها فلما علم ذلك في ديوان الحكم فرق بينهما . فسالت من اخبرني بذلك عن سبب هذا الحظر لانه غير مبني على مصلحة وقلت « ان كان تحريمه ورد في التوراة فقد ورد فيها تحريم امور كثيرة استحلتها النصارى فلاي سبب اضربتم عن تلك وتمسكتم بهذه فقط . فقال : « المصلحة في ذلك هو ان لا يتوصل رجل واحد الى احراز جهازين من بيت واحد » فقلت . ولكن الفقراء يتزوجون من غير جهاز ولا ميراث . » فقال : « ان الشرع هنا ملحوظ فيه مصلحة الكبرآء » ولا بد من ان تشهر الخطبة في الكنيسة ثلث مرات متوالية في ايام الاحاد واذا مست الحاجة الى الزواج بدون اعلانها غرم الرجل ضعفي النفقة وهي في الغالب خمس ليرات (٦٣) . اما في سكوتلاندة فان الزواج يتوقف على شاهدين فقط . فلذلك كان كثير من الانكليز يذهبون الى هناك ليتزوجوا ثم يرجعوا . ويقال ان مجلس المشورة يهم بان يعين اقامة احد وعشرين يوما هناك قبل الزواج تقليلا من استعمالها . ومن تزوج امراة زوجها حي غرم ونكل . والمراة المتزوجة عند الانكليز احترام اكثر من غيرها وان تكن اصغر سنا من غير المتزوجة . فاذا خرجن من مجلس الى موضع الاكل مشت المتزوجة قبل تلك واجلست في احسن موضع . ولا بد للمتزوجة ان تلبس خاتم الزواج في بنصر يدها اليسرى . ومن لم يكن لها خاتم لم تحسب متزوجة وان كان لها خمسة بعول . ومن الغريب انه عند عقد الزواج يلقن القسيس الرجل ان يقول للمراة حين يضع الخاتم في اصبعها . « بهذا الخاتم اتزوجك وبجسمي اخدمك » ولا معنى للبآء في قوله

«بهذا» لان الخاتم ليس آلة للزواج . ولفظة «اخدمك» لا يفهمها احد من العامة بهذا المعنى . وعند تناول طعام العرس تلبس العروس ثيابا بيضا . وتتقعد النسآء على المائدة وعليهن برانيطهن (٦٤) . وعادة الاغنيآء منهم ان يعتزل الرجل بعروسه بعد عقد الزواج فيقيم معها شهرا في خلوة عن الشغل والعمل والاصحاب وتسمى هذه المدة عندهم «قمر العسل» . ولا يكاد الفقري يتزوج الّا مغرية مثله . واذا تزوج الرجل امراة ووضعت عنده بعد شهر الزم بتبني الولد وتربيته وان يكن من غيره . وكذا لو علم انه عاش مثلا مع مومسة وولدت ولدا . ومتى ثبت عليه انه افتض بكرا فولدت منه اجبر على ان يؤدي اليها في كل اسبوع شلينين ونصفا في الاقل الى ان يبلغ الولد تسع سنين . اما الافتضاض قسرا فيعاقب عليه بالتغريب والنفي . وكان يعاقب عليه في عهد وليم الاول بسمل العينين وفي عهد السكسونيين بالموت . ومن العجيب ان الوالدين من الانكليز اذا كانا قبيحين تاتي اولادهم حسانا فاذا دام هذا الاستاع حقبة فلا يرى فيهم بعد من قبيح . والظاهر انهم احسن تربية للاولاد من غيرهم فانهم يغسلونهم بالمآء البارد في كل يوم اذا كانوا اقويآء او بالفاتر اذا كانوا ضعفآء ولا يقمطونهم حتى يمتنعوا من الحركة كما يفعل في بلادنا وانما يشدونهم بحزام فقط وبعد نصف سنة يعودونهم على الاكل الخفيف مع اللبن فلا تاتي سنة على الطفل الّا وهو يلتقم كل شيء . ولا يكاد طفل يحدث في ثيابه او يفحم من البكاء كما يكون عندنا غير اني كثيرا ما رايت الامهات هنا يسقين اطفالهن المزر او شرابا غيره لينمنهم ويطعمنهم الفاكهة والدسم ويدخلن بهم في الزحام واماكن الخصام والنكام . ومما يحمد من تربيتهن انهن يكلمنهم بالكلام المتعارف من دون لثغة ولا كسر لا كما تفعل نسآؤنا . بل ربما حكين لهم حكايات وهم لا يعقلون ويخاطبنهم بما يخاطبن به من يفهم ويلقنهم اشيآء كثيرة تعودهم على الفهم من صغر . والذي ظهر لي ان اطفال الانكليز اذكى وازكن من اطفالنا وبعكس ذلك المراهقون . وفي الحقيقة فان الام في بلاد الفلاحين لا تربي الّا ولدها البكر والباقون تربيهم اخوتهم الاكبر فالاكبر .

وفي الجملة فان نسآء الانكليز مناتيق جداً . واتفق ان امراة ولدت اثنى عشر تواماً وثمانية فذوذ * قال في ابجدية الاوقات « قد لحدث غير مرة ان امراة تلد اربعة اولاد بطناً واحداً فاما ولادة خمسة فلم يحدث الا مرتين احداهما في اوسترليا سنة ١٧٧٣ والثانية في لندرة سنة ١٨٠١ » قال « وفي سنة ١٧٠٠ جعل شبه ضريبة على ولادة الاولاد فكان على الدوك اداء ثلثين ليرة وعلى احد العامة اداء شلينين » اه . ويعجبني لطف الاولاد هنا ولاسيما حين تكون ثيابهم قصيرة وسيقانهم ظاهرة في اوان البرد * وعادتهم في الجنازة ان يبقوا الميت اسبوعاً في البيت قبل دفنه وعند اخراج جنازته يشيعها رجال يلبسون على روسهم مناديل سوداً معقودة فوق برانيطهم (٦٥) . ولكل ميت حداد معلوم ولكل دفنة سعر ولكن لا يخمشون عليه وجهاً ولا يشعثون شعراً . واذا ابقيت الجنازة في محل عند المقبرة ليلة واحدة ادى عليها خمسة شلينات زيادة على الرسم المعتاد . فقلت لمن طلب مني ذلك ان الحي يرقد على الفراش وثير ليلة ويوسخه ولا يودي اكثر من شلين واحد فكيف تطلب على طفل في تابوته خمسة . فقال « ان بين الحي والميت فرقاً » . اما الكبراء فانهم يبقون جنازتهم اكثر من اسبوعين اشارة الى انه غير جدير بان يفارق هذه الدنيا . ومن الغريب انه اذا مات احد منهم غريباً فلا بد من ان يعيدوه الى وطنه ليدفن فيه . فيا ليت شعري ما نفع الميت لبلاده او ما نفع بلاده له . ولا يدفن ميت الا بشهادة الطبيب الذي عالجه او اجهز عليه وذلك لكثرة ما يقع عندهم من القتل بالسم . والواقع ان الفرنساوية اكثر احتراماً للجنازات من الانكليز فانهم يمشون وراءها ايا كانت وهم خاشعون حاسرو الروس وحين تكون في البيت يوقدون حولها الشموع ليلاً ويجعلون لها حارساً (٦٦) * ومن عادتهم في العيادة ان يستطلعوا داء المريض لاجله ايا كان ويلقوا في قلوبهم الرعب بقولهم مثلاً « ان فلاناً مضني بهذا الداء منذ ايام فمات فانه داء معضل ولاسيما في هذه الايام » . فكنت كثيراً ما اتذكر ما حكي عن ذلك الرجل وقد مرض فعاده بعض اصحابه وقال له « ما تشتكي » قال « وجع الركبة » قال « انها والله كانت علة ابي

فمات منها » . واذا اصيب احد بما يخاف منه العدوى فلا يعودونه اصلاً .
وقد كان لي طفل اصيب بالسعال فلما كنت اذهب الى منزل دكطر لي على
عادتي كانت زوجته تتجنب مواجهتي . فساءني ذلك اولا حيث لم يكن
يخطر ببالي ان السعال يحمل من المبتلي وينتقل الى صدور الجيران فلما
علمت عموم ذلك هان علي مع ان الدكطرية المذكورة كانت على غاية من
التدين والورع . والظاهر ان جميع الافرنج يجزعون عند المصيبة ولا يفوضون
امرهم الى الله وان تلبسوا بالعبادة واتصفوا بالجرأة على انهم لا يكادون يفجعون
بموت احد الّا ويتناسونه . فالاستسلام لقضاء الله انما هو من خصوصيات
المسلمين وكفى بلفظ الاسلام دليلا عليه . وفي هذه القرى لا يوجد اطباء ولا
عقاقيرية وانما يكون ذلك في بعض البلدان المجاورة لها حتى ان ما يوجد
هناك منهم ان هو الّا نفاية . فلو سكن احدهم في احدى المدن الجامعة لما
نال بعلمه رغيفا * وعادتهم في المادب ان تجلس الضيوف على المائدة وتجلس
سيدة الدار في الصدر وتاخذ في ان تقطع لهم شرائح اللحم رقيقة وتناول
الصحفة للخادمة فتضعها الخادمة امام الآكل . ولو حصل لك خمس حصص
من تلك الشرائح لما شبعت . والاكثار من اكل الخبز عندهم مظنة الهجية -
وقد ادبت مرة عند احد اعيانهم فلما جلسنا على المائدة اخذت الفوطة
ووضعتها على حجري وكانت كسيرة الخبز مخباة فيها فوقعت وانا لا ادري
واستحييت ان اطلب غيرها وهم ظنوا اني تنكرت في بلادهم . فلما تحركنا
للقيام اذا بالكسيرة لاصقة بنعلي فتذكرت حينئذ قصة ذلك السائل الذي
طرق باب بخيل فرمى له بكسرة خبز اخت كسرتي هذه التي انتعلتها
فاخذها وتاملها ثم طرق الباب مرة اخرى فقال له صاحب الدار « قد
اعطيناك فلم لا تنصرف » قال « قد اعطيتموني هذا الدواء ولم تقولوا لي
كيف استعمله » . واذا كان على المائدة لونان من الطعام او ثلثة كان يكون
مثلا شواء من البقر ودجاج خيرتك السيدة ايهما تريد . فاذا تناولت من
لون سقطت شفعتك من الثاني . وندر ان تعطيك منهما كليهما . ولا يمكن
ان تعطيك شيئا او بالحرى من شيء الّا اذا استطاعت رايك فيه اولا . ولا

يمكن للمدعو ان يمد يده الى زجاجة الخمر و يصب منها في قدحه بل لا بد من ان ينتظر السيد او السيدة ان يعرضا عليه . وكذلك سائر الماكول والمشروب . ويحزنني ان اقول اني كثيرا ما رايت صاحب المنزل يقطع للضيوف اللحم ثم يستكثره عليهم فيضع في صحفته ما استكثره فربما امتلات من تلك القطع . وكنت ارى المدعوين معي يتكلفون للاكل تكلفا ويتبلغون بما لا يكاد يكفي الصبي فيبقى ثلثة ارباع الطعام كما هو . واذا برد عندهم اللحم المطبوخ فلا يانفون من اكله كذلك اسبوعا . فلهذا ترى المحضر على المائدة كثيرا بالنسبة الى مقدار الاكلين وكمية اكلهم . وقد سالت يوما المراة التي كنت نازلا عندها فقلت لها « نشدتك الله الّا ما صدقتني هل انا من الاكالين المفرطين » قالت « لا » قلت « قد دعيت غير مرة ورايت المدعوين معي جميعهم لم ياكلوا قدر ما اكلت انا مرتين » فقالت لي « ان المدعوين ياكلون في بيوتهم قبل ان يحضروا المادبة » فاخذني العجب من ذلك وطفقت افكر في مخالفتهم لعادتنا فان المدعوين عندنا كلما اكثروا من الاكل زاد سرور الداعي بهم لاعتقاده انهم احبوا طعامه . هذا عند الوسط من الناس فاما عند العظماء والزعماء فان الخادم يطوف على الحاضرين بآنية الشراب ويخيرهم اي نوع يشربون وربما شربوا المزر اولا ثم قليلا من الخمر حتى اذا فرغوا من الاكل قامت النساء وانفردن في مقصورة وبقيت الرجال على المائدة وحينئذ تداول كوس الشراب والمناقلة على النقل بغير محاشاة . وربما قضت الرجال ساعة او ساعتين على الشرب والنقل وساعة من قبلها على الطعام . وانما تقوم النساء خوف ان ينهمك احد الجلوس في الشرب فينطق بما لا يليق . ولا بد في الموائد الحافلة من وضع السمك المسلوق اولا فاما الشوربة فهي عبارة عن حسا الفلفل . وقد رايت على هذه الموائد البطاطة ياتون بها في صحاف مفضضة وتحتها فوط من الكتان الرفيع فلم ادر ما المراد بهذا الاحتفال والتنطس فان الخسيس خسيس حيثما كان « والكلب كلب وان طوقته ذهبا » . واذا فرغ الاكل مما لديه ولم يرد الزيادة وضع السكين والشوكة متوازيين . واذا شرب الشاي وضع الملعقة في

الفنجان . وعند صف ادوات الشاي تقوم السيدة ايضا وتجلس في الصدر
وتسال من حضر «هل تريد ان تشرب شايا» فيقول «نعم ان شئت» فتقول
«اتشربه مع السكر» فيقول «نعم ان شئت» فتقول «ومع الحليب» فيقول
«نعم ان شئت» فتقول «وتاكل نصف هذه الكعكة» فيقول «ان شئت»
فتقول «وربع هذه الفالوذة» فيقول «ان شئت» وكلما اكرم باحدى هذه
المركبات قال «اني اشكرك» . وبالجملة فان الدعوة عندهم ضرب من
الاسر * وقد ادبني او ادب طربوشي احد الوجوه في كمبرج الى ان اشرب
الشاي معه فقال «هل لك في ان تشرب الشاي معنا في احدى الليالي
ولكن بعد ثلثة اسابيع» قلت «نعم» حتى اذا سرت اليه لم اجد على المائدة
غير الصنف المعتاد منه مع اني كنت اظن ان توقيت تلك المدة انما كان
لجلبه من بعض البلاد * واذا كانوا مجتمعين في مجلس وارادوا الخروج الى محل
المائدة اخذ الادب بذراع زوجة غيره واجلسها على الكرسي واخذ غيره بذراع
زوجة الادب . واذا بقيت واحدة بغير زبون كان ذلك داعيا لخجلها *
ومن عادة النسآء على الموائد ان يكشفن عن صدورهن واكتافهن وانصاف
اعضادهن وهذه المواضع احسن ما يرى فيهن . ومن عادة العجائز ان يتزين
بما لهن من الحلي والجواهر والشعر العارية وليس ذلك من عادة البنات
قبل زواجهن . فترى البنت الباهرة بجنب امها السعلاة عطلا وتلك متبججة
بالقلائد والخواتم والاسورة والسلاسل الا انهن في غير الولائم والسهريات لا
يتحلين بشيء . ومن الادب عندهن ان ياكلن واكفهن مستترات بالجلد
الابيض (٦٧) ويمضغن ما ياكلنه مضغا خفيا فان فتح الفم للالتقام وشدة لوك
الملتقم من اكبر العيوب . والذي يظهر لي ان نسآء الريف بالنسبة الى
برودة قطرهن وصحة ابدانهن قليلات الاكل جدا ومع ذلك تراهن عبلا
سمانا بخلاف نسآء لندرة . وقلما تاكل احداهن شيئا من دون شراب معه
او تشرب من دون اكل . وربما تغدى احدهم بغير شراب فاذا فرغ شرب
الشراب وحده . وعامة الانكليز يطبخون طعامهم بلا ملح وانما يملحونه عند
الاكل ويكثرون من الابازير منتهى الاكثار ولاسيما الفلفل والخردل فان

احدهم ليضع في صحفته ملعقة من كل منهما . والفلاحون ياكلون الحلوآء قبل الطبيخ فهم في ذلك كالترك ويشربون الحليب بالملح والفلفل وبعضهم يخلط الدقيق بقليل من السكر وياكله * وقد دعاني بعضهم الى ان اشرب معه القهوة وكان ياكل معها فجلا ورشاد . فعرض علي فابيت فتعجب من ذلك . ومع افتقار هولاء الفلاحين وشدة احتياجهم الى اشيآء كثيرة للدفء مما نستغني عنه في بلادنا وكذلك كايقاد النار للاصطلاء مدة ثمانية اشهر في السنة وكلبس الجوارب والشعار من الصوف فقد الفوا شرب الشاي الفة شديدة حتى لم يعد ممكنا لهم ان يستغنوا عنه . فيقال ان مصروفهم منه في العام يبلغ نحو ثلاثين مليون رطل ومصروف جميع الممالك يبلغ نحو اثنين وعشرين مليونا . وقد جاب منه في العام الماضي سبعة وثمانون مليون رطل .

مطلب في الشاي

واول ما عرف هذا النبات في اوربا كان من اهل هولاندة فانهم جلبوه من الهند وذلك في سنة ١٦١٠ . وكان استعماله اولا في غاية الندرة فكان يباع الرطل منه من ست ليرات الى عشر . ثم لما استقرت جمعية الهند في تلك البلاد صاروا يجلبونه منها فرخص سعره وكثر استعماله . وضرب المكس عليه في اميريكا حين كانت ملحقة ببلاد الانكليز كان من بعض الاسباب التي هيجت الاهلين الى النزاع والحرب . وقد حاول الافرنج تنبيته في بلادهم فلم يتهيا لهم . وجميع الاطبآء يقولون ان شرب الشاي غير نافع بل مضر ضررا بليغا بمن في عصبهم استرخآء . ولا شيء اقر لعين صاحبة العيلة من الانكليز من ان تشرب الشاي مع اولادها بقرب الموقد ولاسيما اذا كانت مغلاة المآء تغلي ويسمع لها نشيش والبخار صاعد من بلبلتها . وهذا هو اوفر الهنآء الذي يعبرون عنه بلفظة « كمفورت » * ثم ان الانكليز عموما يفتخرون « بالهسبيتاليتي » وهي قري الضيف وبر الغريب . والحق يقال انهم في ذلك اكرم من الفرنسيس وخصوصا اهل الرستاق دون اهل المدن الجامعة فان همهم بتحصيل الكسب شاغل لهم عن الكرم . إلّا ان مآدبهم منغصة بكثرة التحشم والتكلف الذي لا معنى له كما تقدم * وقد جرت العادة في

المآدب الحافلة ان يشربوا الشراب على ذكر مشاهيرهم وزعمائهم او كما يقولون «على صحتهم» او بالحرى يشربون صحتهم . قال فلتير الظاهر انا نشرب الشراب لاجل صحتنا لا لاجل صحة غيرنا . وكانت عادة اليونانيين والرومانيين ان يشربوا ويقولوا كلاما يكون داعيا لان يشرب غيرهم معهم لا ان يقولوا «انا نشرب على صحة فلان» وكانوا يشربونه في الاعياد تذكارا لاحدى الخطايا . ومن هنا جرت العادة عند الانكليز الذين يحبون تجديد كثير من عادات الرومانيين ان يشربوا على ذكر احدى الخواتين . ويقال لها «طوست» وقد يقع الجدال بينهم والمناقشة هل تلك السيدة جديرة بذلك او لا . ومن الامور المهمة عندهم ان يشربوا على ذكر ولي العهد الذي له حق في الملك فان ذلك دليل على كون الشاربين من حزبه . قال برون اسقف كورك وكان ممن يكرهون الملك وليم : «بودي لو كنت اسد جميع تلك الزجاجات التي شربت لمجد هذا الملك» . وفي سنة ١٧٠٢ كتب منشورا الى اهل ارلندة يعلن فيه بان الشرب على ذكر الملوك معصية كبيرة ولاسيما بعد موتهم لان ذلك مناقض لامر المسيح بقوله «اشربوا هذا لذكري» . وكذلك يراين البرسبيتاريان (٦٨) الف كتابا كبيرا نهى فيه عن الشرب على ذكر احد المسيحيين . وحذا على حذوه كثيرون من اهل انكلترة وفرنسا غير ان مولف يوحنا غزى (٦٩) في هذا الباب لا يعلو عليه مولف . قال «وذلك كله من العبث» . اه . قلت وكانت العادة انهم اذا شربوا على اسم امراة طرح الشارب شيئا من ثيابه فيلتزم جميع الحاضرين ان يفعلوا فعله . فلما كان ذات يوم شرب احد الامراء على اسم محبوبته وطلب من الحلاق ان يقلع له ضرسا نخرا فاضطرت اصحابه ان يقتدوا به (٧٠) . وفي بعض صحف الاخبار حكاية عن رجل فرنساوي انه قال «قد حضرت انا ورفيقي الى الغداء ان صح ان يقال لتلك الصحاف غداء اما اولا فلانه لم يكن معه شوربة . ثم ترادفت علينا قطع من لحم البقر وقدر من لحم الضان . ثم وضعت البطاطة امامنا على طبعها وعلى حالها وعوضا عن التوابل . وكان لكل من الجلوس صحفة فيها سمن مسلي فشق علي هذه الحال التي

رايتها اول دخولي بلاد الانكليز وقلت في نفسي الا ان هؤلاء القوم لحميون ما يعرضون إلّا اللحم . ثم جالت الافكار والخواطر في راسي وقلت ليت شعري ما سبب تفردهم بخصال لم يشاركهم فيها غيرهم من النفخة التي تظهر فيهم ومن عدم دربهم في الرقص وغلاظة اصواتهم في الغناء والتخاطب وكلوح سحنتهم الناعسة وعن ذلك كله كنت اقول في الجواب « انما هو لحم بقر - انما هو لحم ضان » قال : ثم دعيت الى لون من الطعام نوهوا به باسم « بست لك » وهو اسم طالما طرق مسامع اهل بلادنا . وكنت متشوقا الى ان اعرفه فلما كشف الغطاء عنه ونظرت اليه اذا هو لحم مشرح شرائح رقيقة ومتبل بالبصل فصرخت متعجبا لعمري ان هو إلّا الذي نسميه « بفتك » فلما قلت هذا تضاحكت الجلوس ولاسيما واحدة من الخواتين كانت تتكلم بلغتنا ثم قالت ان اسم هذا اللون معناه « بخت آكله » تفننا في التسمية لا في الماكول » . اه (٧١) . وقال آخر « ما شيء باعجب من روية ولائم الانكليز التي تذكر الناظر بالولائم التي ذكرها اوميروس اذ ترى قطعا جزيلة جدا من لحم البقر المشوي وشاة باسرها على طبق وحيتانا ضخاما على مائدة طويلة ملانة من القناني والاقداح والظروف فتجلس الضيوف وعليهم الثياب السود وهم رزان ساكتون متحلمون كانهم حول جنازة ووراء الزعيم رجل يقال له « طوست ماستر » وهو الذي عليه ان يفتتح الكلام حتى اذا ناجاه الزعيم قال بصوت جهير « ايها الكرام اني عمدت الى طوست ولا اشك انكم تنعمون بقبوله » فتتحرك الجلوس من صمدتهم ويقومون باجمعهم كما تحرك شيئا بآلة ويجيبون دعوته فاذا شربوا برز ثلاث جواري كاشفات عن ترائبهن من وراء حجاب وياخذن في العزف بالبيانو . ولا يزال الطوست يدور ويعاد الى ان يحل محله » (٧٢) * ومن العجيب ان جيلا متقدما في المعارف والصنائع كالانكليز لا يعرفون ان يطبخوا اللحم بالبقول وانما يطبخون كلا منها على حدته . اما البقول فانما يسلقونها سلقا وهي عبارة عن اللفت والكرنب والجزر وشيئا آخر من هذه النباتات الريحية . وسلطان المائدة انما هو البطاطة اذ لا تتم آدابهم إلّا بها . وربما اجتزا الفلاحون

بها عن كل ما عداها حتى عن الخبز . وقد يحشون بها رقاق الخبز ويطبخونها في الفرن فتسد مسد كل شيء . واهل ارلندة يتخذون منها خبزا . اما اللحم فاحب شيء اليهم منه الشواء . وهذا من وجه يصلح لمن الف الاسفار لان المسافر حيثما كان في الارض يجد لحما ونارا . بخلاف من سافر منا وقد الف الوانا شتى من الطبيخ فلا يزال لهجا بهذا وذاك فيتنغص عيشه وعلى ذلك قولي:

كأني انا والفيل صنوان فرقا * سوى انني ضرب وذلك بادن
فان له نابا يحين لاجله * واني لسني كل حين لحائن

الا ان اللوم موجه على المستوطنين واصحاب المطاعم والفنادق الذين يجهلون من انواع الطبخ ما يعرفه افقر الناس في البلاد المشرقية حتى انهم لا يعرفون ان يقلوا البيض بالسمن ولا يطبخون العدس ولا الحمص ولا الفول ولا غير ذلك من القطاني الا الرز فانهم يسلقونه سلقا ثم يصبون عليه الحليب . واكثرهم يتقزز من الزيت ولا يدري ما طعمه على انهم ياكلون الدم مخلوطا بالشحم ويتخذون منه ايضا نوعا من القصيد * ومن العجيب انهم لا يعافون من اكل اللحم المنتن وغيره فان الارنب والغزال لا ياكلونهما الا بعد خنقهما بنحو ثلاثين يوما . وقد دعيت غير مرة الى موائد الموسرين وشممت فيها جخر الارنب . وعلى ذلك قولي من قصيدة

ويأتون بالارنب المسبطر صحيحا كما كان يطمر طمرا
بآذانه وباسنانه وباظفاره وهو يثغر ثغرا
وفي وجه كل الضيوف له * ذنب شائل فوق دبر تعرى
ووالله بالله تالله انني * شممت له جخرا ليس حزرا

وكذلك الفراخ والطيور لا يطبخونها الا بعد خنقها بايام ويقولون انها اذا بقيت اياما كثيرة بعد خنقها يزيد لحمها مراءة وطيبا . والدليل على ذلك ان الاكل منها يكفيه قليل بخلاف ما لو اكلت وهي طريئة . والحق يقال ان لحم البقر عندهم لا يوكل الا بعد ذبحه بيوم او يومين وذلك لكثرة دمه . ولا حرج على بيع المنتن من اللحم والسمك والفج من الاثمار والفاسد من كل

شيء وعندهم صنف من الجبن يستطيبونه على غيره لكونه مدودا . وكنت ذكرت يوما لاحد فضلائهم قضية اكلهم الارنب منتنا فقال « لا تعد تذكر لفظة منتن فانها قبيحة تشمئز منها المسامع » فقلت ما دمتم انتم تاكلون المنتن ولا تشمئزون منه فلست بمنفك عن ان اذكره وهذا كتحشمكم من ان تذكروا في كتبكم ضخم ارداف المراة مع ان نسآءكم النحيفات يعظمن عجائزهن بما لا مزيد عليه من الحشايا والمرافد مما لو فعلته الفواجر عندنا لخجلن فانتم حييون من الاسم ووقحون على الفعل ان هذا لغريب » . وقالت لي مرة احدى النسآء المخدومات « ما اطيب العيش في بلاد النمسا لولا اني اكره شيئا من طبخهم » فقلت ما هو وقد توقعت ان تقول اكلهم الارنب منتنا واذا بها قالت «انهم يطبخون الفراخ بعيد ذبحها» . وشكوت ذات يوم لسيدة طول استمراري على صنف واحد من الطعام فارسلت الي خادمها في اليوم القابل يقول ان سيدتي تدعوك الى الغداء . فلما توجهت قالت لي « اني سمعتك بالامس تشكو من الطعام فصنعت لك اليوم ما يعجبك » فلما هيئت المائدة قدم عليها ارنب بآذانه وذنبه وانيابه منتن ذفر يملا ذفرة الخياشيم . فتعوذت بالله وقلت ما قال ذلك الظريف « ان عمر هذا الحيوان بعد موته اطول منه في حياته » (٢٣) . والظاهر ان الانكليز يحبون اكل الارنب وصورته ايضا فقد دخلت مرة دار الصور في كمبرج مع دكطر لي فكان اول ما وقع نظري عليه صورة ملكة من ملكات اسبانية على هيئة الاضطجاع عريانة وثمنها اربعة آلاف ليرة والى جانبها صورة ارانب وصياد . فجعلت انظر الى صورة الملكة وجعل هو ينظر الى صورة الارانب ويستدعيني الى ذلك * ثم انه ما عدا جهل الانكليز بالطبخ واقتصارهم على لونين او ثلثة من الطعام فان الانسان لا يجد عندهم شيئا من الطعام والشراب خالصا . اما الخبز فانهم يخمرونه بنوع يستخرجونه من المزر ويخلطونه بالبطاطة والرز والفول والهرطمان والذرة والشب وفي كل رغيف يوجد نحو عشرين حبة من الشب وبملح الصفر وبالطين وجبس باريس وبسحيق العظام وبجزئيين آخريين . وفي بعض صحف الاخبار ان رجلا اكل جبنا

فمرض فاستدعى بالطبيب فلما حضر عرف ان الرجل مسموم وان الجبن كان ملونا بالاناتو وهذا الاناتو خلط بشيء من القرمز وهذا ايضا خلط بالسيلقون (٧٤) ، واما القهوة فيخلطونها بالهندبا والقمح والهرطمان ودقيق البطاطة والفول وبحرق السكر وعكر القهوة واللفت وجذر الفوة وبجزئين آخرين . واما السكر فمخلوط بالرمل والطين ودقيق القمح والبطاطة والنشا وباجزاء اخرى من جملتها هامة يقال لها «اكارى» . واما الحليب فنصفه او ثلثاه ماء كذا وجده دكطر هلياك وملون بالاناتو المذكور . وهذا الصنف موكب من القلي وملح الصفر والملح والبرنج وبستة اجزاء اخرى . وعند تدقيق النظر فيه ترى فيه مخ الشاة والجبس والدقيق والنشا وعصير اللوز والصمغ وجزئين آخرين . واما المزر فمخلوط بخمسة وعشرين جزءا من جملتها الافيون والملح والرب والسكر والفول وملح الطرطير وحرق قشر الاترج والزنجبيل والافسنتين والعسل وملح الحديد وملح الكبريت وحرق السرطان واما الخمر فمخلوطة باكثر من خمسة عشر جزءا من جملتها الماء والعرق وروح القمح وشراب التفاح وعود برازيل وحرق السكر والرصاص . واما التبغ فمخلوط بالزيت والملح والرب والسكر والماء والراوند والبطاطة والكرنب والنطرون والرمل وبستة وعشرين جزءا اخرى بعضها لطعمه وبعضها للونه . واما البيض فينقعونه في الصيف حين يكون ثمنه رخيصا في برميل يملأ جيرا وماء ثم يخرجونه في الشتاء ويبيعونه بسعر الغريض فياتي مسيخا ويتولد فيه طعم جيري . وعلامة المنقوع منه ان يكون ابيض ناصعا لكنه خشن الملمس . واما اللحم فينقعونه في الدم . وقس على ذلك النشوق والخردل والزيت والصابون والخل مع ان هذا الاخير يستقطر من نوع من الشجر وقيل من المزر . فهولاء الناس الذين حكمهم كحكم سائر الناس في كونهم «ترابا والى التراب يعودون» قد خالفوهم في انهم ياكلون التراب ويشربونه «فحيا الاله عصا المحتسب» . وهذا الطمع لقنهم ان يتخذوا نبيذا من جميع الفواكه من اشهره نبيذ التفاح . وقد كان عندهم في السابق بمنزلة الخمر في التنافس فيه فكانوا يسقونه الضيوف كما تسقى الصهباء * ثم

اعود فاقول انه لا غرو ان يستطيب هولاء القوم ما الفوه فان « العادة - كما يقال - خامس طبيعة » اوليس ان هنود لويزانيا ياكلون نوعا من التراب الابيض بالملح بدل الخبز وهنود ارنوكوكو (٧٥) ياكلون ايضا نوعا من الطين اللزج الابيض والزنج يستطيبون نوعا من الثمر على الخبز . اما الامراء والاغنياء من الانكليز فانهم يستخدمون طباخين فرنساويين ويتلذذون بانواع من الالوان . ويعجبني من ماكلهم طبخ الفاكهة الطريئة واليابسة في العجين وذلك غير معروف لاهل مصر والشام وهو من بعض ما تعلمته الانكليز من الفرنسويين حتى صار عاما لغنيهم وفقيرهم . واكثر اسمآء الطبيخ عندهم منقول من اللغة الفرنسلوية . وعندي ان اشتهار الاطعمة الفاخرة في الشام انما عرف في زمن معاوية فانه كان يتانق في الطعام ثم نقلت اليهم الوان كثيرة من العجم كما يظهر ذلك من بقآء اسمآئها عندهم * ثم ان من رسوم الكنيسة المتاصلة ان تقام الصلوة فيها يوم الاحد ساعتين في الصباح وساعة ونصفا في المسآء وان لم يحضر فيها غير ثلثة نفر . فتسمع في خلال ذلك من تكرير الادعية والابتهالات ما يذهب بالصبر وبعد ذلك يقوم القسيس ويخطب فيهم . واكثر الفلاحين يذهبون الى الكنيسة حيآء من جيرتهم او خوفا من القسيس لان قسيسي هذه الكنيسة لهم سطوة نافذة على الرعية . ومتى قامت الصلوة نعسوا او تناعسوا . وقد بلغني ان احد هولاء الخطبآء لما شرع مرة في الوعظ التفت فراى الناس نائمين فغضب لذلك وقال « بئس السامعون انتم لكلمة الله انكم ان لم تسمعوها فتحسون بها » ثم رفع التوراة من امامه وضرب بها بعض النائمين حتى انتبهوا . وفي يوم الاحد لا يعملون ادنى عمل حتى ان اكثرهم لا يطبخ . ومنهم من يتحرج من حلق شعره فيه او من كتب رسالة . وقد اردت مرة ان انزل في بيت عجوز فاول ما اشترطت علي به كان عدم الطبخ يوم الاحد . وعندي ان اصل ذلك البخل منعا للزيارة والاجتماع . ويحكى عن رجل انه سرق بقرة فثقف يوم الاحد فقال للشرطي « لولا حرمة هذا اليوم لما اعياني التملص من يدك » . وهذا اليوم في جميع البلاد الكاثوليكية الرومانية هو يوم الحظ والتزاور وفي هذه

البلاد هو يوم الانقباض والكآبة . وهو في سكوتلاند اكثر قبضا وكآبة . ولا بد من ان يكون في كل بيت توراة وانجيل وكتاب صلوات فيقعد رب البيت ويحمل بعض اولاده على القراءة منها . ويقضون النهار كله في القراءة والترتيل من الزبور وغيره وفي سماع الصلوة في الكنيسة . ولا يكاد صاحب عيلة يجلس على المائدة للطعام من دون ان يصلي اولا او يجعل بعض اولاده يتلو صلوة ما . وكذلك عقب الطعام . ومن امكنه ان يستعمل في هذا اليوم آنية وظروفا غير التي يستعملها في سائر الايام عد ذلك من الاحترام والتوقير . والغالب على الانكليز عموما مراعاة الفروض الدينية اما عن تعبد او لمصلحة . فان الطبيب مثلا اذا علم منه انه لا يحضر الصلوة او ليس عنده كتب دينية في بيته او كان قليل الاحترام لاهل الكنيسة فضلا عن كونه يجادلهم قل اعتباره عند ذوي الوجاهة وقل نفعه من حرفته . وجل المولفين من الانكليز يستشهدون بكلام من التوراة والانجيل ترويجا لبيع الكتاب حتى ان المولف « بلير » (٧٥) بنى معظم اساليب البلاغة والبيان في كتاب المعاني على عبارات من التوراة . وهذا الرياء والتدليس قل ان يوجد في الفرنساوية فان من كان منهم قليل الدين انقطع عن الكنيسة اصلا . والمولف منهم اذا كان غير ذي اعتقاد لا يستشهد بها في شيء ولا يكون ذلك باعثا لبوار حرفتهما * اما اهل الكنيسة المتفرعة فهم اشد تحمسا وتصلبا من اولئك فقد يعظون الناس في الطرق والحقول ويوزعون في البيوت كتبا ورسائل دينية . وكذلك يفعلون في المدن الغناء . وربما منعتهم الشرطة من الوعظ علانية لئلا تجتمع عليهم الاوباش فيكون من اجتماعهم ما يوجب النزاع . ويذهبون الى كنائسهم ثلث مرات في يوم الاحد ولا يعوقهم عن ذلك برد ولا ثلج ولا مطر . والقاطنون منهم في اماكن منفردة يقصدون الكنائس القريبة . وجميع القسيسين في بلاد الانكليز يكلفون خدمتهم وضيوفهم الى حضور الصلوة في ديارهم صباحا ومساء . وقبل تناول الطعام وبعده لابد من تلاوة صلوة او دعاء وان غاب القسيس قامت امراته في ذلك مقامه * واعلم ان الكنيسة المتاصلة مولفة من مطرانين احدهما مطران

كنتربوري ودخله في العام خمسة وعشرون الف ليرة . وهو ثاني صاحب الملك في الرتبة والمنزلة . والثاني مطران يورك ودخله خمسة عشر الفا (٧٦) ومن خمسة وعشرين اسقفا وظيفة كل منهم من اربعة آلاف ليرة فصاعدا . ومتى عجز احدهم عن القيام بخدمته رتب له الف ليرة . وقد كان لاسقف برهام ستة عشر الف ليرة فلما انزوى في قصره عين له نصف المبلغ . وتحت ذلك مراتب متعددة الاولى « تنشانصلر » (٧٧) ثم « الدين » ثم « الارشديكن » اي رئيس الشمامسة ثم « البريبندري » ثم « القانوني الاكبر والقانوي الاصغر» ثم « الڤيكار» ثم « الركطر» وعدتهم بموجب آخر تعريف بلغت اثني عشر الفا وثلثمائة وسبعة وعشرين . وعدة كنائس البروتستانط بلغت في سنة ١٨١٨ احد عشر الفا وسبعمائة واثنتين واربعين . وفي القرن السابع كان للاكليروس كلمة نافذة حتى على الملك . وفي سنة ١٨٥٤ بلغ ما جمع لنفقة كنائس انكلترة وحدها في سنة واحدة ثلثمائة الف والفا وخمسمائة واربعين ليرة ولمساعدتها مائة واربعة وستين الفا وسبعمائة واحدى وسبعين فتكون الجملة اربعمائة وستة وستين الفا وثلثمائة واحدى عشرة ليرة * وفي سنة ١٦٠٤ استعفى منهم الفان من وظائفهم كراهية ان يمضوا اسماءهم على كتاب الصلوات المشتمل على تسع وثلثين عقيدة (٧٨) * ولهذه الكنيسة حق ان تاخذ العشر من سائر الكنائس بل من اليهود ايضا . وطالما تظلم اهل الكنيسة المتفرعة من اداء العشر لها فلم يجد ذلك نفعا . ولا يسمح للكنيسة المتفرعة او لغيرها بوضع اجراس . واذا اضطر احد من المتفرعين الى زواج مثلا او معمودية او غير ذلك من الفرائض الدينية وطلب من قسيس المتاصلة ان يقضي له ذلك حالة كون قسيسه غائبا لم يجبه الى مطلوبه * وقد بلغني ان رجلا مات وكان حال حياته مذبذبا في عقيدته فتنازع قسيسا الكنيستين على ايهما يدفنه وطال ذلك بينهما حتى اروح الميت * ويمكن ان يقال ان الكنيسة المتاصلة هي ديوان من بعض دواوين الميري فان كلمة وكطر القرية ابلغ نفوذا وفاعلية من كلمة ضابط البلد . وليس شرطي الديوان في قريته الا من بعض اتباعه واذا زاره احد الفلاحين

فلا يأذن له في الجلوس فهو على هذا جدير بان يقال له دهقان القرية او شيخ البلد . وربما بلغ دخله الف ليرة فترى له احسن الديار وعنده خدمة وعاجلة فاخرة وخادما يسوقها وعلى برنيطته شريطة من ذهب كخدمة الامراء . ثم اذا صعد المنبر وعظ المساكين المحتاجين الى القوت الضروري بالزهد في الدنيا وتجنب شهواتها * ولا يمكن اقامة دعوى في ديوان احد الاساقفة إلّا بمصروف وافر . فلهذا يتأتى ان يعيش الرجل مع امراة عيشة المتعة والسفاح إلّا اذا صدر له حكم من ديوان الاسقف من دون نفقة وذلك نادر * وهذه الكنيسة هي مثل الدولة في انها لا تروم تغيير شيء من رسومها وتراتيبها واحكامها . فان قسيسيها يتلون فيها كتاب الزبور وبعض فصول التوراة والانجيل وهي مخالفة لما في ايديهم الان منها وذلك لان كتاب الصلوات جرى استعماله عندهم قبل ترجمة التوراة فلما شرعوا في ترجمتها وجدوا ان ما ادرج فيه كان مخالفا للاصل فابقوه على خلله . ومن يوم شرعوا في التاليف تجد اسم يسوع على نسق واحد في جميع كتبهم وكلامهم وهو « جيسس » إلّا في موضع واحد من كتاب الصلوات المذكور فانه فيه « جيسو » فكانه في اللاتينية مجرور . وكلما طبعوا نسخة من هذا الكتاب حذفوا السين في ذلك الموضع * ولا بد من ان يكون في كل قرية في بلاد الفلاحين كنيسة للمتاصلة وان لم يكن فيها دكان لبيع اهم ما يكون من الماكول والملبوس * ولا بد ايضا من ان يكون لها برج يلزقها لوضع الاجراس فمنها ما يكون له اربعة ومنها ما يكون له ستة او اثنا عشر جرسا . وضربهم بها مطرب ولا سيما على بعد . وهم يدعون بانه ليس من يجاريهم في هذه الصنعة فانهم اتقنوها غاية الاتقان حتى انها تكاد ان تعد من فنون صنعة الايقاع * واكبر جرس في الدنيا جرس «كرملين» او «كرميلان» وهي قلعة مدينة المسكوب (اي موسكو) زنته اربعمائة وثلثة واربعون الفا وسبعمائة واثنان وسبعون رطلا وقيمة جوهره ستة وستون الفا وخمسمائة وخمس وستون ليرة ولما شرع في سبكه تبرع كثير من الناس بالفضة والذهب فخلطا معه . ثم يليه جرس كنيسة صانت ايفان في المدينة المذكورة زنته مائة وسبعة

وعشرون الفا وثمانمائة وستة وثلثون رطلا . وجرس كنيسة رومية زنته ثمانية عشر الفا وستمائة رطل وسبعة ارطال وجرس قصر فلورانس زنته سبعة عشر الف رطل ونحوه جرس اكسفورد . وزنة جرس كنيسة صان باول بلندرة احد عشر الفا واربعمائة واربعة وسبعون رطلا . وفي هذه السنة وضع جرس في برج مجلس المشورة بالمدينة المذكورة زنته ستة وثلثون الف رطل (٧٩) * قال فلتير « ان بلاد الانكليز هي بلاد المذاهب والنحل فالانكليزي يذهب الى السماء من اي طريق شاء . ولكن وان يكن ممكنا لكل واحد منهم ان يعبد الله ويخدمه على الوجه الذي استحسنه الا ان دين الدولة هو الوسيلة للتمول ونوال الوظائف والمراتب السامية فلا يمكن لاحد ان ينال وظيفة في انكلترة وارلندة ما لم يكن على مذهب الكنيسة الاسقفية . وهذا الحظر جعل جل ذوي الوجاهة والنباهة من حزبها . ثم ان اكليروس هذه الكنيسة قد اقتدوا بالكنيسة الكاثوليكية في سنن كثيرة وخصوصا في اخذ العشر من الرعية وفي النهم الى التامر عليهم . لان ركطر القرية ان هو الا بابا لو استطاع . اما في اخلاقهم وادابهم فانهم اكثر حشمة وعفة من قسيسي فرانسا واخص اسباب ذلك هو كونهم يتربون في اكسفورد وكمبرج بعيدين عن فساد المدن الكبيرة » . قلت لعله حين كتب ذلك كان اكليروس فرنسا على غير ما نراهم عليه في هذا العصر فانهم الان قدوة في الفضائل والمحامد . وكذا يوجه قوله « بعيدين عن الفساد » فان هاتين المدينتين الان فيهما من البغايا ما يكفي اهلهما وغيرهم معهم . ولو قال ان اخص اسباب ذلك هو كون قسيسي الانكليز يباح لهم الزواج لكان اولى . قال « ولا ينتدبون الى رتب الكنيسة الا اذا بلغ احدهم من العمر ما لا يكون له فيه نهم » قلت حد القسيس ان يكون بالغا من العمر اربعا وعشرين سنة ومتى عرف فضله وعلمه بعد ذلك يرقى الى درجة الاسقفية من دون تعيين سن * وهنا فليفرح الوادون وليكمد الشامتون فان دكطر لي عزم على التوجه الى برستول ليقضي فيها وظائفه الكنائسية مدة شهرين ولكن ليس بعمد ما نعيته الى القارئين والسامعين (٨٠) ومن ثم

وجب علي ان الحق به . ففصلت من تلك القرية المشئومة الى لندرة ومنها الى المدينة المذكورة فبلغتها في نحو خمس ساعات في خلالها وقف الرتل في عدة مواقف . وكان قد اخبر صاحبة المحل بقدومي وحالي واوصاها بان تطبخ لي طبيخا فرنساويا اي ان يكون كثير البقول قليل اللحم . فلما كان المساء احضرت لي طعاما مطبوخا من دون ملح على عادتهم لكنها احتفلت بي غاية الاحتفال حتى استحييت من ان اذكر لها الملح . وفضلا عن ذلك فان فرحي برؤية الاسواق والديار والعواجل انسانيه . ثم لما قابلت دكطر لي في الغد سالني عن الطعام فقلت له انه كان بغير ملح قال « كيف الم تحضر لك ملحا على المائدة فلم لم تملحه انت فانها خشيت ان تضع فيه ما تعافه » فقلت « لو احضرت لي اللحم نيئا لكنت اطبخه بانفاسي واملحه بدموعي وكان خيرا من عاداتكم هذه المنغصة » قال « لا باس بين لها المرة الثانية قدر ما تريك من الملح تفعل » ثم لمت صاحبة المنزل على طبخها الطعام غير مملوح فقالت « هذا دابنا - ارايت تلك الثقفة التي اكلتها البارحة - لو انك اعطيت زوجي خمسين ليرة لما اكلها مع انها كانت خسا بالخل » . ثم بينما كنت ذات يوم جالسا معهم على المائدة اذ دخل طفل لها وهو وسخ الثياب والطلعة فقال لها زوجها « لم تغادرين الولد وسخا هكذا » فقالت « قد غسلته هذا الصباح ولكن طبعه ان لا يدع شيئا من ثيابه نظيفا » . ثم لجا في الكلام فما اشعر إلّا والسيدة قامت وجاءت بالمكنسة لتضرب زوجها فهرب من قدامها فاقبلت تجري وراءه وهو هارب فلما لم تلحقه غشي عليها من شدة الغضب فتداركها الرجل بالعرق وبغيره حتى افاقت مع انها كانت من اهل الصلاح وكان زوجها بمنزلة نصف قسيس * ثم ان برستول هي من المدن القديمة لا بهجة لها ولا رونق وهي ضيقة الطرقات قذرتها . وليس لها مماشي رحيبة ولا ساحات فسيحة ولا مقاعد ولا منتزهات ولا محال للقهوة او الحظ سوى ملهى واحد وعدد اهلها مائة وخمسون الفا . وقل فيها وجود غريب . وبيوتها الجديدة حسنة فاما القديمة فلا تصلح لشيء فان صفحها شبه زاوية منفرجة يبدو

منه تسنم سطوحها . وتجد بين البيت والبيت من فوق خلاءً تنبو عنه
العين . ونسآؤها يشبهن نسآء الفرنساوية في استدارة الوجه . ولها نهر
صغير فيه مراكب نار وغيرها مسافته نحو سبعة اميال يانيه الجزر والمد
في اليوم مرتين ومنه تسافر سفن النار الى والس وقد شرع في بنآء جسر
عليه من حديد ولم يتم لكثرة مصروفه . وعند هذا الجسر كانت محلة
للرومانيين لما افتتحوا جزيرة بريتانية . وقد بقي من آثارهم حائط كانوا
يتترسون به . قال مولف ابجدية الاوقات « كان بنآء برستول في سنة ٣٨٠ قبل
الميلاد وكانت تعد من المدن المحصنة واسمها في القديم « كاير بريتو » اي
مدينة البريتانيين » (٨١) * واتفق بعد نزولي في المحل ان قدم القاضي
ونزل فيه وفي الغد حضر نحو اربعين رجلا من شرطة البلد واصطفوا لدى
الباب ووقف اثنان ينفخان في ابواق من فضة . ثم جآء ضابط متديا
بلباس احمر وكان القاضي قد لبس ايضا لباسا احمر وعلى راسه شعر عارية
ابيض فدخلا في عاجلة نفيسة وقف عليها رجلان لابسان كسوة مزركشة
بالذهب كما هي عادة خدام الامراء . ثم دخل معهما رجل حامل سيفا
طويلا في كعبه صورة تاج . وله ثلثمائة ليرة في العام لحمل هذا السيف .
ثم ذهبوا الى دار الحكومة وكان عن شمال العاجلة ثمانية من الشرطة
يحملون عصيا من فضة روسها كالمباخر واثنان يحملان مزاريق قد غشيت
اعاليها بالفضة . وفي كل سنة يحتفلون به هذا الاحتفال فان القاضي لا
يستقر في البلدة وانما ياتي اليها اربع مرات في السنة لفصل الدعاوي
الخطيرة في ايام معدودات وفي مدة غيابه ينوب عنه اناس في فصل غير المهم *
وفي برستول كنيسة للطائفة المعروفة بالكويكرس - والسين علامة الجمع -
وهم صنف من النصارى إلَّا انهم لا يعتقدون بالمعمودية ولا بالقربان ولا
يقراون الانجيل في كنائسهم ولا صلوات معينة وليس لهم شعائر معلومة ولا
قسيسون كما للنصارى وانما انقياؤهم هم المتقدمون فيهم ومعابدهم عبارة
عن بيوت لا فيها فرش ولا محاريب ولا مذابح ولا كتب ولا صور ولا منابر
ويقولون ان التدين لله لا يكون مرضيا إلَّا بالروح دون التعبد بالبدن

فجميع الرسوم والتكليفات والفرائض عندهم لغو . ويقولون ان المسيح نفسه كان كويكرا وانه لا يجب تادية العشور لروساء الكنائس ويبقون ساكتين الى ان يوحى الى احد منهم في زعمهم فيلقي ما اوحي اليه في بضع دقائق وهو واقف فاذا فرغ قعد واستراح * وقد ذهبت مرة الى معبدهم فاجتمع فيه نحو مائة وعشرين نفسا جلست النسآء في الجانب الايمن على دكك عليها زرابي وجلست الرجال على الايسر على دكك متقابلة من دون زرابي وجلس في صدر المحل اربعة رجال وثلث عجائز على دكة عالية وجلس دونهم خمس عجائز وثلثة رجال وبقوا كذلك صامتين نحو ساعة . ثم قام رجل من اصحاب الدكة العلياء الذين كانوا اقرب الى الوحي والقى على الناس كلاما وجيزا نحو خمس دقائق معناه ان رضوان المولى هو بان يكون عقل العبد منجذبا اليه وانه ستاتي ايام يعين فيها بعض الناس بعضا بالارشاد والهداية وان جزاء كل انسان منوط بعمله وما اشبه ذلك ولم يذكر في كلامه اسم المسيح ولا اسم روح القدس . وبعد نحو ربع ساعة قامت عجوز من اصحاب الدكة الثانية فقام جميع الحاضرين وحسرت الرجال عن روسهم فانه لا حرج على من ظل مقلنسا في المعبد واخذت تصلي بصوت مرتعش مختلج نحو خمس دقائق فذكرت اسم المسيح ولم تذكر روح القدس ثم انفضوا * وشعار هذه الطائفة هو ان رجالهم يلبسون جببهم مثنية على اعناقهم من دون اطواق وان النساء يلبسن برانيط طويلة من قدام حتى تغم وجوههن وخصوصا العجائز . وهي غالبا من الحرير وثيابهن بهيم اي من لون واحد . ومن مذهبهم انهم يجتنبون مواضع الحظ واللهو والسكر وان لا يحلفوا يمينا ما ولو في مجلس القاضي . ولا يرون في الحرب خيرا وحسبك بالسفراء الذين ذهبوا منهم الى سلطان الروس عند ابتداء الحرب دليلا . ومن شانهم الاقتصاد في النفقات وان يساعد بعضهم بعضا . وقد كانوا في الزمن القديم عرضة للاضطهاد والطرد ولكنهم الان آمنون . ولهم بعض خصائص منها اذا تكلموا مع شخص ايا كان خاطبوه بلفظ المفرد بخلاف عرف اللغة . واذا حضر احدهم مجلس الملك

حضر بكسوته الاعتيادية من دون وضع شعر عارية ولا ينزع برنيطته بيك وانما ينزعها عند آخر . ويخاطبون كل واحد بلفظة يا صاحب او يا حبيب ولا يتنافسون في الالقاب والنعوت ولا يجودون بها على احد ولا يحدون على ميت . وعندهم ان النسآء في الفضائل والمناقب كالرجال . وعدد هذه الطائفة في برستول اكثر من عشرة الاف نفس ولا يكاد يوجد بينهم فقير *
قال الفيلسوف ڤلتير لطائفة الكويكيرة معابد كثيرة في لندرة اعظمها الموضع المسمى « منيومنت » (٨٢) زرته مرة مع مضيفي فاجتمع فيه نحو اربعمائة رجل وثلثمائة امراة وكانت النساء ساترات وجوههن وعلى روس الرجال برانيط كبيرة والجميع سكوت فجزت بينهم ولم يرفع احد طرفه للنظر الي . وبعد صمت نحو ربع ساعة قام احدهم وحسر عن راسه ثم بعد ان ابدى بعض زفرات بعضها من فيه وبعضها من منخريه القى على الحاضرين جملا مشوشة مضطربة زعم انها من الانجيل . فلا هو ولا احد غيره فهم منها شيئا فلما فرغ من ذلك انصرفت الجماعة فسالت مضيفي « ما بال حكمائكم يرضون بهذا الهذيان » فقال « انا مضطرون الى ان نرخص فيه لاننا لا ندري هل الشخص الذي يقوم للخطبة يكون قيامه بوحي من الروح او الحماقة فنصغى الى ذلك ونحن صابرون مرتابون بل نرخص ايضا للنساء في الكلام وقد يتفق ان يوحى الى اثنين او ثلثة في وقت واحد فمن ثم يقع ضجيج ولغط في بيت الله » فقلت « اليس فيكم اذا قسيسون » قال « لا وانا لنجد انفسنا بدونهم في حال احسن » ثم تلا من كتاب ما معناه ان الله تعالى لم يرض ان نخصص احدا لقبول روح القدس في ايام الاحاد اخراجا لسائر المومنين منه ثم قال « الحمد لله على انا نحن دون سائر الناس لا قسيسين لنا ولم نترك ولدنا عند مرضع اذا كان عندنا لبن يغذوه » . قال الفيلسوف المذكور « وانتشار مذهبهم كان في انكلترة سنة ١٦٤٢ وذلك عند ما ظهر فيها ثلثة مذاهب او اربعة اضرمت فيها نار الحرب بين الاهلين تعبدا لله تعالى فقام اذ ذاك رجل اسمه جورج فوكس من كورة يقال لها « ليسستر » وكان ابن رجل نساج للحرير فاخذ يعظ الناس وهو ابن خمس وعشرين

سنة وكان اميا حميد السيرة لكنه كان معتوها فكان يلبس جلدا من راسه الى قدمه ويطوف من قرية الى اخرى مقبحا على الحرب وعلى اهل الكنيسة ولو انه ذم العسكر وحدهم لما لقي ما يخاف منه إلّا انه لما كان ذمه موجها الى روساء الدين لم يلبث ان قبض عليه واحضر بين يدي قاضي دربي وهو على ذلك الزي وقلنسوته الجلد على راسه فبادره احد الجند بلكمة على خده وقال له « قبحا لك الم تعلم انه ينبغي لك ان تحضر بين يدي القاضي حاسر الراس » فادار له فوكس خده الثاني والتمس اليه ان يلكمه لكمة اخرى حبا بالله . ثم تقاضاه القاضي يمينا قبل ان يساله فقال «اني لن اتخذ اسم الله بالباطل ابدا » فغاظ ذلك القاضي حتى ارسله الى دار الجانين في دربي ليجلد فسار وهو يحمد الله على ذلك فلم يال المامورون بجلده جهدا فكان فوكس يتضرع اليهم ان يزيدوه من هذه النعم لصلاح نفسه فما ردوا طلبته ولكنهم عجبوا منه فاخذ يعظهم وينذرهم فتضاحكوا منه اولا ثم اصغوا اليه وارتاحوا لقوله وصدقه كثيرون منهم . ثم لما اخرج من السجن جعل يطوف في البلاد ومعه اثنا عشر رجلا ممن تمذهبوا بمذهبه وهو يذم اهل الكنيسة فعرض نفسه ايضا للجلد مرة بعد مرة . فلما اخذ يوما الى موضع النكال القى على الحاضرين خطابا بغاية الحماسة فهدى منهم الى مذهبه خمسين نفرا واستمال الباقين الى محاماته حتى انقذوه من تلك الورطة وجعلوا بدله القسيس الذي تسبب في معاقبته . ثم استمال ايضا بعضا من جند كرومول(٨٣) فانكروا الحرب وابوا اليمين فامر بان يقبض عليهم اذ لم يكن يريد فرقة من الناس لا تحضر على القتال فقبض عليه وملئت السجون من حزبه . إلّا ان شان الاضطهاد ان يزيد في عدد الدخلاء فزادوا ثباتا في معتقدهم وآمن لهم السجان ايضا . والذي زاد في هذه الشيعة فضلا عما ذكر هو ان فوكس كان يعتقد بان له سرا يمكنه من التكلم بما يخالف عادة البشر فاخذ يرجف ويرتعش ويتلوى ويكظم نفسه ويتنفس الصعداء فلم يلبث ان صار له دربة بالوحي عظيمة حتى لم يعد يقدر على الكلام إلّا به . وكانت هذه اول منحة افادها لتلاميذه فاسرعوا في محاكاة امامهم في تغيير

السحنة والارتعاش عند هبوط الوحي عليهم جهد المستطيع ومن ثم سموا « كويكرس » اي مرتعشين . واتفق مرة ان قال فوكس لاحد القضاة جهرا بحضرة جمع كبير « احذر لنفسك يا صاح فان الله يعاقبك سريعا على اضطهادك الاطهار » وكان هذا القاضي مولعا بالشراب وكان يسكر في كل يوم فاعتراه بعد يومين فالج اودى به وكان يهم اذ ذاك بان يمضي حكما بحبس بعض الكويكرس . فخلج قلوب الناس ان موته كان مسببا من اضطهاده الرجل الطاهر لا عن ادمانه على الشرب فصار هذا الموت الفجائي سببا في اجتذاب كثير من الناس الى مذهب الرجل اكثر من الف موعظة والف لية . فلما راى كرومول عددهم يتزايد في كل يوم رغب في ان يستميلهم اليه فعرض عليهم المال فابوه فقال يوما « لعمري ان هذا الدين هو الدين الوحيد الذي لم نستطع ان نغلبه بالمال » . ثم صاروا ايضا عرضة للاضطهاد في عهد كرلوس الثاني ليس لاجل الدين ولكن لامتناعهم من اداء العشر للاكليروس ولخطابهم القضاة والحكام بانت ولامتناعهم من اليمين التي يوجبها الشرع . وفي سنة ١٦٧٥ قام رجل من اهل سكوتلاندة اسمه روبرت باركلي وقدم للملك معذرة عن الكويكرس وهي من احسن ما كتب في هذا الباب اذ لم يرتكب فيها شيئا من التمجيد والاطراء على الملك وانما اودعها الكلام الحق والنصح السديد وكتب في آخرها « انك قد ذقت الحلو والمر والنعيم والبوس فانك طردت من البلاد التي ملكت فيها وشعرت بثقل الظلم فكان ينبغي لك ان تعلم ان الظلم مقت عند الله والناس فان كان قلبك لا يلين بعد تلك المحن والخيرات ونسي الله الذي لم ينسك في بوسك فان اثمك يكون اعظم وهلاكك اشد فاياك من الاصغاء الى ما يطريك به اهل ديوانك بل اصغ الى صوت الضمير الذي ليس من شانه الاطراء ولا التمليق . من صاحبك الامين واحد رعيتك روبرت باركلي » . واعجب من ذلك ان هذه الرسالة مع كونها صدرت من رجل خامل الذكر فقد نجعت في قلب الملك حتى كف الاضطهاد عنهم . وفي هذه الاثناء ظهر وليم بن النبيه وبث مذهب الكويكرس في اميريكا الى ان قال « وليس

لاهل هذا المذهب في انكلترة ان يكونوا من اهل مجلس المشورة ولا ان يتولوا المناصب العمومية لامتناعهم من اليمين مما لا بد منه في الامرين فجل كسبهم المال انما هو من التجارة . وحيث كان جاه الاولاد انما هو من كد والدهم فقط كان لهم مطمح الى كسب الشرف والازرار والقفازين ويستحيون من ان يقال لهم كويكرس فيذهبون مذهب البروتستانط ليكونوا في عداد اهل السمت والطراز» الخ (٨٤) * وفي برستول ايضا كنيسة لليونيتاريين ومعناها الموحدون يعتقدون بوجود اله واحد فقط وان عيسى المسيح انما كان بشرا وانه انما قيل له ابن الله من قبيل التعظيم كما قيل ايضا لسليمن ابن داود وهم في البلد اصحاب وجاهة وثروة . وفيها ايضا زمرة تسمى شيعة سويدنبرغ اعتقادهم ان الله واحد احد وانه ظهر في انسانية المسيح وان جسم المسيح هو المراد بقولهم الابن وان اللاهوت هو الذي يقال فيه انه الاب الخالق وبالجملة فان المسيح هو عندهم الابن وروح القدس ومظهر اللاهوت . ومنشي هذا المذهب رجل نمساوي ظهر منذ ستين سنة تقريبا (٨٥) . ومن شططهم انهم يوولون كل لفظة وردت في التوراة بمعنى غير الظاهر منها فيوولون لفظة سورية مثلا بالعلم والمعرفة وخيل مصر بالمنعة والجبل بالحماية وقد الف سويدنبرغ في ذلك مولفا ضخما لا يكاد القاري يختمه في بضع سنين * ومن كلامه لما كان للكلمة استعمالات كثيرة وكان المسيحيون الاولون سذجا يفهمون كل شيء على ظاهره فرقوا اللاهوت فجعلوه ثلثة اقانيم فاعتقد به كذلك من خلفهم الى ان يقول لانه ما احد يدخل السمآء وهو يعتقد بثلثة آلهة * وفي برستول مرقب فيه مقصورة عالية مظلمة لها كوة في اعلاها مرآة يقع عليها نور الشمس فترتسم به ضواحي المدينة وما فيها على مائدة لها قرص مجوف فيرى الناظر فيها النهر والشجر والرجال والنسآء والماشية فيخيل له انه بينهم . وقيل ان رجلا راى في هذه المائدة زوجته تماشي رجلا وهو يقبلها فعرفها فلما رجع الى داره خاصمها خصاما اوجب الفراق بينهما * وكانت صاحبة المحل الذي نزلت فيه مولعة بالمزمرية وهي امرار اليد على وجه انسان حتى يغيب عن الادراك . وهي نسبة الى

رجل نمساوي اسمه مزمر فاشتقوا منه فعلا يقال مزمره اي عالجه بامرار اليد وذلك انهم يعتقدون ان في بعض الاجسام خاصية تؤثر في غيرها على مقتضى ما ينويه المؤثر . وقد سمعت من السيدة المذكورة ان بعض الاطباء مزمر خادمة لها حتى خثرت نفسها ثم لمس من راسها مبعث الانفة والمدافعة وقال لها انت دميمة » فقالت « لا بل انا احسن خلق الله وجها » ثم لمس مبعث الكرم فقالت « بالباب مسكين خذوا هذا الدرهم واعطوه اياه » ثم لمس مبعث الغضب فجعلت تهيج وتشعث شعرها . فاراد ان يرجعها الى حالتها وارتاب في استطاعته على ذلك فلم يقدر . وبقيت الجارية كذلك هائجة مضطربة . وذلك لانك اذا اثرت في شخص واحلته عن حالته ثم شئت رده اليها لزمك ان تعتقد اعتقادا يقينا بانك مستطيع عليه . فلما تبين له عجزه استدعوا بطبيب آخر فحاول ان يخرجها من قوة تاثير الاول بواسطة الامرار فلم يتم له ذلك بالكلية وانما اضعف منها اثر الاول اضعافا فباتت على تلك الحالة . فلما اصبحت خف ما بها ثم شفيت . ويقال انه اذا امر الشخص المؤثر فيه بقتل انسان قتله او بقضاء حاجة قضاها دون تلبث حتى انه ليفعل ما فيه ضر نفسه . وانه يدل على اشخاص واماكن لم يكن رآها من قبل ويسميها كما هي * واتفق ان جارية السيدة المذكورة اصابها ورم في وجهها عن وجع ضرس فاجلستها على كرسي ومزمرتها حتى غشيها سبات ويبست جوارحها فاخذت سيدتها تنفخ عليها وما زالت بها حتى شفتها بالمرة . ومرة اخرى اجلستها امامي ثم لوت يديها الى صدرها ثم امرت يديها على وجهها فما لبثت ان غمضت عينيها . فامرتها ان تمشي من ذلك المحل الى غرفة فمشت وعيناها مغمضتان وسيدتها ممسكة بها خيفة ان يصدم راسها شيء . فلما وصلت قالت المخدومة « اين تريدين القعود على الكرسي ام على الاريكة » فقالت « بل على الكرسي » فقالت لها « لك ذلك » فجلست . فسالتها عن اي شيء اشتغل به انا اذ ذاك فقالت « هو ناظر الى ساعته » قالت « كم الساعة الان » قالت « الحادية عشرة وربع فنقلت اصبعها الى موضع آخر من دماغها وقالت « اخطات » فقالت « بل

خمس دقايق بعد الظهر » . ثم امرتها بالغناء فغنت ثم بالضحك فضحكت
ثم سالتها عن خادمة لها كانت قد ذهبت صباح ذلك اليوم الى امها ماذا
تصنع فقالت « انها الان تكلم امها في شانك وتطلب منها ان تكلمك
لتعيفيها من المزمزة وانها تتمنى ان تراك مرة تمزمزين احدا » فلما رجعت
الخادمة في الغد سالناها عن ذلك فاجابت بما ذكر . ثم انها نفخت
عليها وامرت عليها يديها صعدا فافاقت * وهذه الخاصية قد شهرت في
فرنسا جدا واشد الناس انكارا لها اهل الكنيسة والاطباء . فان الاعتقاد بها
يوجب الشك في النبوة ويصدف المرضى عن الاطباء . وساذكر في وصف
باريس ما جرى بيني وبين احدى هولاء النساء وفي هذا القدر الان
كفاية (٨٦) * ثم سافرت من برستول قصد ان ارى بعض جبال والس
فينشرح صدري لان بلاد الانكليز كلها كما ذكرت سابقا عبارة عن حقول
ومروج وهي وان تكن ناضرة إلّا انه لا شيء يبعث على ادارة الفكر
واجالة الخاطر كروية الاماكن المختلفة نحو ان يكون فيها سهل وجبال
واكام واودية وغياض فكلما تعددت المناظر للعين كثرت الخواطر في الذهن
وتنوعت الهواجس في الصدر . فسافرت في سفينة النار فبلغت فرضة
تسمى « نيوبورت » اي المرسى الجديد في نحو ساعتين ونصف فبت هناك
تلك الليلة وفي الغد سالت عن اقرب الجبال فقيل لي « اذا طلعت هذه
العقبة ظهر لك » . فطلعتها ودللت على جبل يسمى « لندوغو » وهي كلمة
والسية لانه لا يوجد في لغة الانكليز اسم ينتهي بحرف الواو . فسرت
اليه ماشيا اذ لم اجد راحلة تبلغني اليه . فكنت اسال المارين عن
مقدار بعده فكان بعضهم يقول سبعة اميال وبعضهم خمسة وبعضهم ستة .
فسالت عن بلدة استريح فيها فدللت على قرية بعضهم يسميها مدينة
وبعضهم قرية وبعضهم بلدا . وهي عبارة عن ستين بيتا . فسالت عن مطعم
فدللت على بيت مشهور عندهم فاردت ان اكل بيضا لعدم وجود اللحم
والسمك عندهم فقلت لصاحبة المحل « اني اريد بيضا » فقالت « لاي
سبب » قلت « للاكل » قالت « ما ثم بيض في هذا الاوان » مع انه كان

في الصيف . فالححت عليها فبعثت من طوف في القرية حتى جاء
ببيضتين بعد الجهد . فقلت « اقليهما بالسمن » فلم تفهم فاعدت عليها
الكلام فقالت « تريد ان تكسر البيض في السمن » قلت « نعم » قالت
« فما يكون هذا اغلاء » قلت « بل هو قلي » قالت « هذا مما لم افعله في
عمري قط فصفه لي » قلت « تضعين المقلاة اولا على النار ثم تصبين فيها
السمن حتى يذوب ثم تكسرين البيضتين فيه وانا اتولى بعد ذلك امرهما
قالت « فالاولى ان تتولاه من الان وتقليهما كما تشاء » . وانما اوردت هذه
الواقعة اشعارا بجهل هولاء القوم ادنى انواع الطبخ . والمتفنون منهم يقلون
البيض بمائه ومن تحته لباب الخبز * ثم ان هذا الجبل وان يكن منظره
في الحقيقة مما تنسرح فيه العين وينشرح به الصدر بالنسبة الى بلاد
الانكليز المحتتنة إلّا انه بالنسبة الى بلادنا يعد دكا او اكمة * واعلم ان
اهل والس هم اهل شجاعة وبسالة وهم الحريون بان يقال لهم بريتانيون
فانهم لم يبرحوا في منعة واستقلال ولهم لغة خاصة بهم . إلّا ان كبراءهم
واغنياءهم يتكلمون بالانكليزية ولكثرة مكاتب الانكليز فيها الان اقبلوا على
تعلم هذه اللغة غير ان لغتهم الاصلية لم تزل مستعملة وهي تشتمل على
بعض حروف الحلق كاللغات المشرقية . ويقال انها تشبه لغة اهل بريتان
من فرنسا او انها هي بعينها . والتمدن والتادب عند الفلاحين هنا اقل
منهما عند فلاحي انكلترة . وقد كانت في الزمن القديم مستقلة بنفسها فالحقها
بحكومة الانكليز الملك ادورد الاول وذلك في سنة ١٢٨٢ عند موت اميرهم
« لويلن » (٨٧) . لكنهم بقوا بعدها يحاولون الاستقلال الى ان رزق الملك
المشار اليه ولدا في سنة ١٢٨٤ فسماه من دهائه امير والس (٨٨) وبقي
هذا اللقب خاصا بولي العهد في بيت الملك . ويقال ان الملك حين سمى
ابنه امير والس حمله على ذراعيه وقال لروساء والس بلغتهم « اخ دين » ومعناه
هذا بلديكم وملككم فصارت هذه الكلمة شعارا يكتب على ترس امير والس الى
يومنا هذا (٨٩) * وفي ابجدية الاوقات ان اهل والس كانوا يسمون قديما
« صلتس » وهم اسلاف البريتانيين وكانوا اول من سكن بريتانية ولفظة

« بريتانية » تشمل انكلترة وسكوتلاند ووالس وكانت تسمى « البيون » وهم الى الان يانفون من ان يقال لهم انكليز * فاما ارلندة فان الحاقها بانكلترة كان في سنة ١٨١٠ ثم اتحدت والس بانكلترة وعدت منها بامر مجلس المشورة وذلك في سنة ١٥٣٥ * ثم اني رجعت الى برستول وتعرفت باحد افاضل الانكليز الذين اولعوا بحب اللغات لا للتفاخر ولا للتكسب ويقال له دكطر جون نيكلسن . وانما لقب بدكطر لانه كان درس الفلسفة في بلاد النمسا ونال هذه الدرجة فان لفظة الدكطر يوصف بها كل من الطبيب والرباني والفيلسوف على حد سوى (٩٠) . وكان قد تعلم ايضا لغتنا ولكن لم يكن سمعها قط من اهلها فلما كنت انشده منه كان يطرب غاية الطرب . فدعاني الى ان ازوره في محله الكائن في بلدة بنريث من شمالي انكلترة فلما رايت ان مسامرته غنم واجابته حتم وعدته بذلك . ثم لما فرغت مدة دكطر لي من برستول عزم على الرجوع الى القرية المشئومة فسافر قبلي بايام . فسرت لارى بلدة باث فبلغتها في نحو عشرين دقيقة . فاول ما دخلتها رايت امراة تغني وغلاما يضرب بالسنطير المعروف عندنا ولكن على الحانهم . فسالت بعضا عن اسم الالة فلم يعرفها فسالت العازف به فقال اسمه « دلسمر » وهو من اللاتينية مشتق من الحلاوة (٩١) * وباث هذه بلدة ظريفة بناوها من الحجر وموقعها بين اودية ناضرة وتلال بهيجة وهي مشهورة بماء معدني يستحم فيه ولهذا سميت باثا اي حماما . وهي مقر الكبراء والاغنياء ولاسيما المتقاعدون من الضباط وغيرهم ممن كانوا في الهند واهلها ينفرون من الغريب ويسلقونه بالسنتهم وكذا هي سائر بلدان الانكليز غير المطروقة من الغرباء * ثم رجعت الى برستول وسافرت الى جلتنهام فبلغتها في ساعتين . وهذه المدينة معدودة عند الانكليز من اظرف المدن لحسن بنائها فانه من الحجر ولنظافة طرقها وكثرة الاشجار في ضواحيها ولكن ليس فيها محال للهو والقهوة ولا مطاعم حسنة . وقد اردت ان اتغدى في الظهر فلم اجد شيئا عتيدا فاضطررت الى الشواء من الضان واشترط علي ان لا ادخن . ثم اردت ان اسافر الى اكسفورد فقيل لي انه

لا يمكن ذلك إلّا اذا رجعت الى كلوستر . فعدت ولما دخلت البلد اذا بزحام وخلق كثير فسالت عن سبب ذلك فقيل لي انه عيد استيجار الخادمين والخادمات . وذلك ان المخدوم يستاجر خديمه الى اجل فلا يمكن للاجير ان يخليه إلّا لاسباب . ومع هذا الزحام والضجيج فلم يكن من شيء يرنى اليه إلّا بنتا كانت تمشي على خشبتين . وهذه البلدة هي محل صنع الحديد وهي قديمة قذرة كاظمة للقلب * ثم اجتزت بعدة بلدان منها استورد فيها معامل الجوخ ثم الى اكسفورد وقد تقدم ذكر ذلك ثم الى القرية . وكنت قد استاجرت بيتا فيها يشتمل على اربعة مساكن وفرشته على قدر ما اقتضى الحال على « متمكن غير امكن » واستخدمت رجلا يزرع في مبقلته ما لا بد منه من البقول اولها البطاطة . واخذت انشاغل بذلك تنفيسا للكرب وتسلية للهم . فلم البث ان فجعت بولد لي وحيث لم يكن في القرية ولا فيما يليها طبيب يوثق بعلمه - فان المتطببين في بلاد الفلاحين انما هم نفاية اطبآء المدن - اشفقت على الباقي فرحلت من القرية قاصدا لندرة وغادرت البيت كما هو . وكان علي بادي بدء ان اكلم كاتب الجمعية واخبره بما اصابني فلما قابلته غلبني النحيب والبكاء حتى انقطعت عن الكلام . فاستعظم ذلك مني على سني فان الانكليز قلما يبكون على فائت . ثم لما اعلمته بالسبب وشكوت له ما لاقيت في القرية واني اخشى ان اموت قبل نجاز الترجمة راى ان الابقآء على حياتي هو الصواب وان الاوفق لي وللتوراة ان امكث في كمبرج لاكون غير بعيد عن دكطر لي واتفق مدة مكثي هذه في لندرة ان وقع ضباب كثيف دام سبعة عشر يوما حتى احتجنا في بعضها الى ايقاد المصابيح نهارا لتهدي ايدينا الى افواهنا . فرايت الجلاء اجلى واولى فمن ثم سرت باهلي اليها (كمبرج) فبلغتها بعد نحو اربع ساعات . وهذه المدينة لا ملهى بها ولا حظ سوى مشاهدة المدارس والاساتذة والمتعلمين وهم من التكبر والصلف بمكان اخوانهم طلبة العلم في اكسفورد . وبعد وصولي بيوم جرى النزاع واللكام ما بين اهل المدارس واهل البلدة كما جرى في اكسفورد . وفيها تعرفت ببعض فضلاء الانكليز ممن

عنوا بالعربية منهم الفاضل مستر وليمس الذي هو الآن مدرس فيها والفاضل مستر برسطون الذي ترجم خمسا وعشرين مقامة من مقامات الحريري الى الانكليزية (وقد تقدم ذكره) . ومنهم الفاضل مستر جون برطون قرا علي جزءا من المقامات . وكان الذي عرفني به يهوديا كان يعلمه لغته وانه غاب عنه مدة فسالني عنه تلميذه ذات يوم فقلت « لا ادري اين هو وانما لاح لي من سيماء وجهه حين جاءني ان في اماقيه لشرا » ثم لم يلبث ان شهر عنه في البلد انه كان يضاجع بنته وهي دون العشر سنين وكان ذلك دابه معها مدة مديدة فحكم عليه بالنفي المويد * وقد ادبت عند احد اعيانهم وهو احد اعضاء مجلس المشورة العام النائب عن اقليم كمبرج واذ كنا واقفين في المجلس نتحادث لحت من بين القيام شخصا يهم بان يدنو مني ليكلمني فدنوت منه فقال لي « قد طالما اردت ان اسالك عن شيء في بلادكم فهل تمن علي بالجواب » قلت « ما هو» قال « اذا برك الجمل ايستطيع ان يقوم وحله » قلت « لو سالتني عن الظعائن لاخبرتك فاما الجمل فلا ادري » . ثم لما حان وقت تبطيل المدارس قبل عيد الميلاد تذكرت ما وعدت به صديقي دكطر نيكلسن فمن ثم سافرت الى لندرة ومنها الى دارنكطون فبلغتها بعد نحو اثنتي عشرة ساعة قاسيت فيها من البرد والتعب ما لم اقاسه في عمري كله * وهنا ينبغي ان يلاحظ ان السفر في سكة الحديد وان يكن اسرع واسهل إلّا انه في بلاد الانكليز معنت مكمد لان الغريب لا يجد من الركاب من يدل عليه بجرمة السفر والتعب فيكالمه . فترى كل واحد بيده صحيفة الاخبار يطالعها مسافة سفره كلها . واذا وقف الرتل لا يجد شيئا من الماكول والمشروب ما يفشا تسخطه وليست القهوة عندهم إلّا ماء دخن . ولهذا كان اكثر الانكليز يسافرون النهار كله ولا ياكلون شيئا من حوانيت المواقف وانما يتزودون الطعام والشراب من ديارهم وهو في الحقيقة اولى . فاما مواقف فرنسا فان فيها كل ما الفه الانسان في بيته على ان باعة الماكول والمشروب في بلاد الانكليز اشد خلق الله شططا فانهم يتقاضون على فنجان قهوة الدخن نصف شلين * ثم

سافرت من دارنكطون في الساعة الثامنة صباحا فوصلت الى بنريث في الحادية بعد الظهر . ومررنا في خلال ذلك بعدة قرى ومدن من اعظمها برسطون سكانها نحو مائة الف نفس وهي مدينة شغل وتجر شهيرة بملتقى الارتال فيها يمر بها في كل يوم اكثر من مائتي رتل — وهو عبارة عن صف عواجل متناسقة بعضها الى بعض على نحو قطار الابل . وكان البرد وقتئذ عارما والثلج متساقطا . فلما بلغت بنريث سالت عن مقام دكطر نيكلسون فارشدت اليه لكونه شهيرا في البلد . فلما رآني ترحب بي غاية الترحيب وانزلني في داره خير منزل واكرمني بما لا مزيد عليه فجزاه الله عني خيرا * ثم ان اقليم بنريث حسن جدا لانه يحوي جبالا واودية واعظم جباله هلفلن ارتفاعه نحو ثلثة آلاف قدم وهو مخصوص بمعادن الفحم واهل البلد نحو سبعة آلاف . وفي اول يوم من ابريل حشدت الناس في الطرق ومعهم اعلام وءالات طرب فسالت صديقي عنها فقال ان جمعية هنا تسمى جمعية الاد (٩٢) من شانهم ان يجتمعوا في كل ثلاث سنين مرة لمواساة بعضهم بعضا فيصنعون وليمة في هذا اليوم ويتلون ما تقرر عندهم من الترتيب ثم ينصرف كل منهم الى محله . ومثل هذه الجمعيات في بلاد الانكليز لا يعد ولا يحصى . واهل ذلك الصقع يلتحفون بشملة على اكتافهم للتدفي ونعال فلاحيهم من خشب كفلاحي فرنسا وعيشهم اجهد من عيش غيرهم وانحسهم من يعمل في المعادن * ثم عن لي ان اسافر الى سكوتلاندة لارى قاعدتها وهي ادنبورغ اذ كنت غير بعيد عنها فودعت مضيفي وسافرت الى ليفربول فوصلت اليها بعد سفر نحو ست ساعات وهذه المدينة هي من اعمر مدن انكلترة بعد لندرة ومنشستر فلا يزال مرساها مشحونا بالسفن وسفنها مشحونة بالبضائع ومنه تسافر الى جميع الاقطار وهي تقابل مرسيليا في فرنسا كما ان منشستر تقابل ليون في كونها ذات معامل للخز والثياب ولندرة تقابل باريس وفي ليفربول عدة ملاه وملاعب وحوانيت بهيجة وابنية حسنة من اعظمها المحل الذي يقال له قاعة البلد واهل المدينة لا يسخرون من الغريب وذلك لكثرة اختلاطهم بالغرباء . وكان افتتاح سكة الحديد بينها وبين لندرة في

سنة ١٨٣٨ وطول قبوتها ميل وربع وكانت في الزمن القديم محل صيد للسمك ثم صيرها الملك هنري الثامن محلة لاجتماع العساكر وتجريدهم منها لفتح ارلندة * ثم سافرت منها الى منشستر فبلغتها في نحو ساعة وهذه المدينة اشهر مدينة في الدنيا بكثرة المناسج والانوال وعدد الصناع فيها نحو ثمانين الفا فاذا اعتبرت ان معظم الالات يدور بالبخار ظهر لك ان هذا القدر يقوم مقام اربعمائة الف * قال العلامة ماكولي ان منشستر هي اعظم مدينة لاشغال القطن والنساجة وكان القطن مذ خمسين سنة يجلب اليها من ازمير وقبرس وجملة ما ورد اليها في غاية القرن السابع عشر لم يبلغ مليوني رطل اما الان فان هذا القدر لا يكفي لعمل ثمان واربعين ساعة فانظر الى هذا الفرق العظيم الذي نشا عن قوة البخار حتى انه جعلها تفوق في الثروة والغنى على قواعد اوربا جميعا وذلك نحو برلين ومدريد ولسبون . وكان اهلها اذ ذاك نحو ستة آلاف ولم يكن فيها مطبعة ولا عاجلة والان فيها مائة مطبعة وعشرون صانعا للعجلات اه . قلت وقد جلب اليها في السنة الماضية ستة وخمسون الف عكم او بالة من الحزير ومن القطن مليونان ومائة الف عكم . ويقال ان جميع محصول الدنيا من هذا الصنف الاخير يبلغ اربعة ملايين في السنة سبعة اجزاء منها تحصل من اميريكا والجزء الثامن من سائر البلاد . وجملة المعامل الموجودة في بريتانية بموجب خلاصة حديثة العهد خمسة آلاف ومائة وسبعة وسبعون منها اربعة آلاف واربعمائة واثنان وثلثون في انكلترة ووالس وخمسمائة وثلثون في سكوتلاند ومائة وخمسة وخمسون في ارلاند . وعدد ما يدار من الانوال بالبخار مائة الف وسبعة وثلثون الفا وسبعمائة واحد عشر وما يدار بالماء ثلثة وعشرون الفا وسبعمائة واربعة وعشرون . وجملة عدد المستخدمين فيها من الذكور مائتا الف وثلثة وسبعون الفا ومائة وسبعة وثلثون ومن الاناث اربعمائة الف وتسعة آلاف وثلثمائة وستون فالجملة ستمائة الف واثنان وثمانون الفا واربعمائة وسبعة وتسعون . وفي جميع المملكة اربعمائة وستون معملا للحرير واربعمائة وسبعة عشر معملا للكتان وخمسمائة

وخمسة وعشرون معملاً للحبك والف وخمسمائة وخمسة معامل للصوف والفان ومائتان وعشرة للقطن . وفيها اي في معامل القطن من الصناع وغيرهم ثلثمائة الف وتسعة وسبعون الفا ومائتان وثمانية عشر وفي معامل الصوف تسعة وسبعون الفا واحد وتسعون وفي معامل الحبك سبعة وثمانون الفا وستمائة واربعة وتسعون وفي الكتان ثمانون الفا ومائتان واثنان وستون وفي الحرير ستة وخمسون الفا ومائة وسبعة وثلثون . وفي سنة ١٨٥٦ بلغ قيمة المبعوث من بلاد الانكليز في مدة احد عشر شهرا مائة وخمسة ملايين وثمانمائة وخمسة واربعين الف ليرة زاد على سنة ١٨٥٥ عشرة ملايين وبلغ ثمن ما ارسل من هذه البلاد من منسوجات القطن في ثلث سنين احدا وثلثين مليونا ومن الصوف عشرة ملايين . فاما قيمة جميع ما ارسل من بلاد الانكليز فقد بلغ في سنة ١٨٥٦ نحو مائة وستة عشر مليونا وقيمة ما يبعث من فرنسا في كل سنة من الامتعة المصنوعة والمصوغة تبلغ مائة مليون . وقيمة جميع ما يخرج من مملكة بريتانية من اللوازم المتجرية وغيرها يبلغ في العام نحو خمسمائة مليون واثنا عشر مليون ليرة . ويوجد محل في ارلندة يخص احد الانكليز فيه اربعة آلاف شخص مستخدمين في عمل القمصان يصنعونها بادوات النار وهذا القدر بمنزلة سبعة آلاف شخص . وقد صارت منشستر تمد جميع اقطار الدنيا بمصنوعاتها وتكسو الناس والحيوان والديار بمنسوجاتها بعد ان كانت تبعث الثياب الى هولاندة لتصبغ هناك وتعاد اليها لتبيعها وبعد ان كانت تنتظر احد الفارين من فرنسا وغيرها ان ياتي اليها ويبث فيها صنعة من الصنائع . فان هذا الديباج الذي يسمونه « داماسك » (٩٣) اصل صنعه كان في دمشق ثم حاكاهم فيه اهل هولاندة وفي سنة ١٥٧١ هرب منهم جماعة بسبب ظلم حاكمهم وجوره عليهم فجاؤا الى بلاد الانكليز وصنعوه فيها * قال مؤلف المخترعات العجيبة « اما صنعة النسج فقد كانت معروفة في بلاد الصين من قبل ان عرفت في اوربا بدهر طويل . والغزل عندهم والنسج والصبغ انما هو من شغل النساء . واول من صنع ثياب الصوف في بلاد الانكليز رجلان قدما من برابان . ثم قدم من

هولاندة صباغون و بزازون وصناع للحرير وشهروا هذه الصنائع بين الاهلين وذلك في سنة ١٥٦٧م ٠ واذا نظرنا الى احوال انكلترة مذ الفي سنة وجدنا ان ملابس اهلها انما كانت من جلود الحيوان وان ثياب زعمائهم لم تكن الّا من الكرباس الخشن كانما هو مسح حتى ان الفرسان الذين تنوه بهم التواريخ كانوا اذا نزعوا عنهم الدروع اللامعة يشف عنها ثياب الجلد ٠ فلما عرف النسج في الاعصر المتاخرة كان الغزل كما لا يخفى من صنع النسآء ٠ وبقي الحال على ذلك دهرا طويلا الى ان قيض الله اركريت والنفي في روعه استنباط ءالة للغزل تكون دائمة الحركة فوفق الى ذلك ونجح ما امكن» * وقال ءاخر «ولد اركريت في سنة ١٧٣٢ وبقى الى سن ٣٦ من عمره خامل الذكر مشتغلا بالحلاقة ولا يكاد يحصل من حرفته شيئا زائدا على قوت يومه الّا انه كان ذا فكر ثاقب في جر الاثقال فما زال يعمل فكره في اختراع ءالة الغزل حتى تسنى له ما قصده ولكن بعد صعوبات شتى ٠ فلما اشتهر مخترعه اجازت له الدولة ان يستبد بمنافعه الى مدة مديدة فانشا معملا في دربي ولم تمض عليه مدة حتى احرز اموالا طائلة وطار ذكره بين الناس ٠ فحدث باستنباطه هذا في اشغال النسج تغيير عظيم من تنقيص الصناع وترخيص سعر الثياب» (٩٤) اه * وحكي عنه حكاية غريبة وهي انه ذهب الى بعض اعمال انكلترة واوهم اهلها ان الدولة جردته لان يقص شعورهم ليسلموا من عدوى البلاء الذي كان فشا بين جيرتهم ٠ فانقادوا له فلم يبق الّا من قص شعره واتحفه به ٠ فاخذ تلك الخصل وصبغها وانتفع بها انتفاعا جزيلا * قال بعض العلمآء لولا استنباط اركريت لما استطاعت دولة الانكليز ان تقاوم نابوليون الاول مدة خمس وعشرين سنة حتى قهرته في ءاخر الامر وقصرته في جزيرة صنت هيلانه» * واول من اتقن صنعة نسج الحرير في انكلترة جماعة هربوا من فرنسا الى لندرة وذلك سنة ١٢٨٦ ٠ واصل جلب الحرير المصنوع الى بلاد اليونان كان من بلاد فارس وذلك في سنة ٣٢٥ قبل الميلاد وعرف في رومية في ايام طيباريوس وحرم على الرجال دون النسآء ٠ واول من لبس ثوبا منه هليوغابالوس (احد قياصرة الرومانيين)

وذلك في سنة ٢٢٠ للميلاد وكان ثمن الحرير اولا في قيمة الذهب وزنا بوزن ٠ وكان يظن انه ينبت من الارض كشجر القطن ٠ وفي القرن السادس جلب دود القز من الهند الى اوربا ٠ وفي سنة ٧٨٠ اهدى شارلمان (٩٥) حلة منه الى اني ملك مرسية ٠ وفي سنة ١١٣٠ حرض روجر ملك صقلية رعيته على عمله فكانوا يربون دود القز ويغزلون الحرير وينسجونه ٠ ثم اشتهرت صنعته في ايطاليا واسبانيا وجنوب فرنسا وذلك في سنة ١٥١٠ ٠ وفي سنة ١٥٨٩ كثر هنري الرابع دوده وشجره في جميع المملكة ٠ وفي سنة ١٢٨٦ لبس بعض نسآء الاشراف من الانكليز حبرا منه * وقال ڤلتير « لم تقم امة قوية في التجارة والحرب بعد انقراض قرطاجنة كما قامت دولة ڤينيس حتى صارت قدوة في ذلك ٠ نعم ان دولة البورتوكال جازوا الى الهند من عند الرجآء الصالح وظلوا حينا من الدهر ولاة سواحلها واولي شوكة في اوروبا ٠ وان الولايات المتحدة صارت ايضا دولة محاربة رغما عنها حتى عادلت دول اوربا ٠ وان ڤينيس وامستردام وقرطاجنة حازوا من قبلهم من العز والمنعة ما شغل الالسن بالمدح والثنآء ٠ الّا انهم جميعهم عملوا كما يعمل الناس في عصرنا هذا اعني انهم بعد ان حصلوا الثروة بالتجارة اشتروا ضياعا واملاكا واخلدوا الى الرفاهية والراحة ٠ فما احد ابتدا ان يكون محاربا حتى يكون في اخرته تاجرا الّا الانكليز فهم وحدهم الجديرون بهذا النعت فانهم حاربوا احقابا طويلة من قبل ان يعرفوا الحساب ولما انتصروا في وقايع اغنيكورت وكرسي وبوتيروس لم يكونوا يعلمون انهم يقدرون بعدها على تجارة الحبوب او صنع الجوخ العريض فان ذلك لهم انفع من تلك النصر لاجرم انه لا شيء يغني الامة ويشيد عزها كمعرفة الصنايع والتجارة اذ لولا التجارة لما كانت لندرة تفضل باريس في السعة وكثرة السكان ولما قدروا على ان يبثوا في البحر مايتي سفينة حربية ويجروا الرزق العميم على الممالك المتواطئة معهم ٠ الا ترى ان لويس الرابع عشر لما القى الرعب في قلوب اهل ايطالية واستولت جيوشه علي صافوى وبيدمنت وكادوا ان يستولوا ايضا على طورين لم يكن بد للامير يوجين

من ان يتوجه الى اطراف جرمانية لانجاد دوك صافوى . ولكن لما لم يكن له مال يمكنه من ان يفتح بلدا او يضبطه اضطر الى الاستعانة بتجار الانكليز فاجابوه الى ذلك فورا واقرضوه في نصف ساعة خمسة ملايين فرنك . فاستخلص بها طورين وكبت الفرنساوية وردهم عنها مقهورين ثم كتب الى الذين دانوه : « ايها السادة - اني قد تسلمت منكم مالا وقد انفقته فيما يرضيكم » . فكان كلامه هذا حاملا للانكليزي على الكبر والافتخار وله علي ان ينزل نفسه بمنزلة روماني وهو به خليق على ان اصغر اولاد سيد المملكة عند الانكليز لا يانف من ان يكون تاجرا . فان اخا لورد طونسند آثر ان يكون تاجرا في الستي على ان يقلد وظيفة في الديوان . ولما كان لورد ارفورد متوليا تدبير المملكة كان اخوه منشيء معمل في حلب ولم يشا ان يرجع الى وطنه بل مات هناك . وهذا الداب الذي اخذ الان في الندور كان يعد عند امراء جرمانية من المنكرات فلم يقدروا ان يفهموا كيف يكون ابن سيد المملكة داخلا في سلك التجار مع انهم هم كلهم سادة . ولكن كم قد راينا منهم من سيد يوصف بلقب السمو وليس له ملك ولا ثروة غير هذا الجلاء والكبر الاميري . اما في فرنسا فان كل واحد يمكنه ان يصير مركيزا وكل من يقدم اليها من البلاد الاجنبية وآخر اسمه ينتهي بحرفي « اك » او « ايل » وعنده مال ينفق منه فان له ان يقول ليس لي من نظير وما احد من بابتي وينظر الى التاجر بعين التهاون والاحتقار . فاذا سمع التاجر ان الناس يعيبون حرفته ويشينونها اعتراه الخجل ولكن ليت شعري اي الرجلين انفع لدولته اسيد يعرف بالتفصيل متى يقوم ملكه ومتى ينصرف الى مرقده ثم يتخذ لنفسه مظهر عظمة وابهة وهو مع ذلك يرضى لنفسه خطة ذل وعبودية بانتظار الوزير في قصره ام تاجر يقعد في مخدعه ويبث منه اوامر الى سورات وحلب ليغني بلاده ويسعد اهلها » (٩٦) . قلت ومدح ڤلتير التجارة ليس قدحا في العلوم والمعارف وانما هو تحريض على اتساع دائرة التمدن . وشتان ما بين تجار الفرنسيس وبين تجار البلاد المشرقية فان هولاء لا يحسنون الكلام الّا في

المكيول والموزون ولا يعرفون ان يكتبوا سطرا واحدا من دون غلط فهذه الحال ينكرها فلتير وكل ذي ذوق سليم * ثم ان منشستر هذه كانت في القديم مقاما للدرويدس وكان لهم فيها هيكل ومذبح قيل له باللغة القديمة « ميبين » اي حجر وصارت قبل الميلاد مقرا للبريغانتيين فبنوا فيها قلعة سميت « منسنيون » اي مضرب الخيام ثم تصفحت على المتاخرين فقالوا للمدينة « منشستر » . وهولاء الدرويدس كانوا في القديم كهان جرمانية وفرنسا و بريتانية وحكماءهم وكانوا في هذه الاخيرة ينتخبون من اكرم العيال فكانوا يشتغلون بالعلوم ومعرفة الفرائض الدينية و يعبرون كلام الالهة و يفصلون الدعاوي الخطيرة و يتولون تدبير الجيش . ولما غزا قيصر هذه الجزيرة قابلوه بالجيوش والبسالة ذبا عن الوطن فنقم عليهم ذلك بعض ولاة الرومانيين واستاصل شافتهم * وفي هذه المدينة اسواق ظريفة وحوانيت بهيجة وفيها تعرفت بالفاضل الكريم السيد عبد الله الادلبي قنصل الدولة العلية ولم يكن لتعارفنا من سبب سوى حمرة راسينا . فانه اول ما راى طربوشي اقبل الي متبسما باشا ودعاني الى منزله من دون ان ابرز اليه كتاب وصاة على عادة القوم . ولم يكتف بهذا حتى اخذ عنوان مقامي في كمبرج قصد ان يبعث الي بهدية من طرف المدينة وقد فعل جزاه الله خيرا . وله مساع عند الدولة المشار اليها محمودة وذكر حسن عند اهل البلدة وعند اهل الشام ايضا * وفيها رايت الموحي المعروف بالتلغراف وهو على نوعين . الاول المتعارف وهو شبه الساعة الدقاقة في وجهها ابرة من فولاذ موضوعة تحت نصف حلقة وفوقها مسماران صغيران من عظم قد رسم فوقهما الحروف الابجدية - والغالب ان يكون في كل صفحة ابرتان - فمتى حرك الابرة السلك المتصل بها من وراء الصندوق طرقت على كل من الوتدين ولكل حرف طرق معلوم فالالف مثلا لها طرقتان على وتد واحد وللباء ثلث اثنتان على وتد وواحدة على آخر وهلم جرا . والثاني وهو ما اخترع بعده فكان اوفق واسهل وهو آلة كالدولاب فيها قلم دقيق من فولاذ مركب من اجزاء كيمياوية ويمر من تحته سير دقيق من ورق مركب ايضا فيرسم عليه

خطوطا سودا هي في عرفهم حروف . وهناك ايضا ءالة كمنوال الحائك ذات اسنان دقيقة بارزة منه يمر من تحتها الورق فترسم عليه خطوطا . وقيل انه يوجد ءالة ترسم الحروف المكتوبة كما يرسمها كاتبها سواء حتى لو كتب احد بالعربية شيئا ادته كما هو وهذه الالة لم ارها . واكثر الالات استعمالا في بلاد الانكليز انما هي الابرة وفي بلاد اميريكا الدولاب . وبكل منهما يصل الخبر من لندرة الى ايدنبرغ وهي مسافة ثلثمائة ميل في ثانية وسواء كانت المسافة طويلة او قصيرة فالتاثير واحد . فاما تحريك الاسلاك فانه ينشا عن الخاصية الجاذبة من وضع صفيحة من النحاس وقطعة من التوتيا توضعان في الماء فيخرج منها روح يسري في السلك المماس لهما ومنه الى الاسلاك التى ترى عيانا في الطريق . وقد تراها ممتدة في الهواء بجانب سكة الحديد وربما كانت ثلثة او ستة فاكثر وربما بلغ الخبر بعضها الى مكان وبعضها الى مكان ءاخر وسواء كانت سافلة او عالية او على خط مستقيم او منحرف فلا يتخلف حكم الخبر بها . وقد ثبت بالتجربة انها تصح تحت الماء كما تصح في الهواء . وهذه المصلحة يتكفل بها جماعة على حدتها والفائدة منها عامة للجميع ولاسيما الدولة والتجار . فانه اذا اريد الاستخبار عن امر مهم علم في دقيقة واحدة واذا هرب القاتل من بلد الى ءاخر عرف شانه قبل وصوله . وجعل نحو عشرين كلمة نصف ليرة * ثم لما قر بي المقام في لندرة طلبت من مدير الوحى ان ياذن لي في روية الالات وموضع النحاس والتوتيا فورد الي الجواب منه بانه يكره من ان يريها الغرباء ولاسيما الاجانب كل الكراهية ولكن اذا كتبت اليه الجمعية في ذلك يرضى حتى اذا فعلت بعث معي من اراني‌ها جملة وتفصيلا . فاول ما رايت هو الموضع الذي فيه التوتيا والنحاس وهو عبارة عن موضع مظلم كالنفق فيه موائد كثيرة من خشب ذات بيوت صغيرة مقسمة تشتمل على هذين الجوهرين وقد غمرت بالماء ومعهما ملح الكبريت وسلك الحديد وهذا السلك متصل بالسلك الظاهر في الهواء كما تقدم ءانفا . اما التوتيا فتنحل على طول المدى وتتلاشى واما النحاس فيزيد . ثم

اريت موضعا في الحائط مغشى بالخشب يشتمل داخله على اجزاء وخارجه على نحو مسامير بارزة منه . فجاء الرجل بقطعتين من النحاس وادناهما من مسمار واذا بنور بهي ساطع اخرج من طرفيهما . ومن هذا التقابل في الجاذبية تخرج الوان عديدة زهية يبدونها احيانا في الملاهي بما يقصر عن وصفه القلم . ولما وضعت اصبعي على مسمارين منها احسست بارتعاش وجاذبية اخدرت مفاصلي فرفعتهما حالا * ثم صعدنا الى الموضع الذي تتلقى فيه الاخبار من كاتب ديوان الوحي وذلك انه اذا اراد احد ان يبعث خبرا كتبه وسلمه للكاتب او املاه عليه مشافهة فيدونه الكاتب في رقعة ويجعلها في ظرف ويسد اغلاقه ثم يضعه في نحو صندوق فتدفعه القوة الكهربائية الى موضع يكون عنده غلام واقف فياخذه ويسلم الرقعة الى قيم الالة المعدة لتبليغ الخبر فان كان يراد توجيهه مثلا الى باريس سلمه الى قيم آلة باريس وهلم جرا * ثم دخلنا موضع الالات وهي على الصفة التي رايتها اولا غير اني رايت التبليغ هنا على يد النسآء لا الرجال . وكيفية ذلك ان تقعد المراة على كرسي وتمسك بيدها مقبضا من خشب وتحركه حركات مطابقة لاصطلاح الحروف فيتحرك السلك المشرب من روح التوتيا والنحاس فيحرك الابرة في المحل المبلغ اليه الخبر على حسب حركات اليد . وترى البنت تحرك هذه الالة كما يحرك العازف يده على آلة الطرب بغاية ما يكون من الخفة * وبينما كان الرجل يكلمني امام آلة اذ راينا الابرة تطرق على المسمارين ثم حركت البنت المقبض وسكتت ثم تحركت الابرة ايضا وكان ذلك باسرع من ان ينطق المتكلم بعشر كلمات . فقال لي الرجل « اتدري ما سبب حركة الابرة مرتين » قلت « لا » قال « قد ورد خبر من ڤيني يراد تبليغه الى ليڤربول فبلغته البنت وجاءها خبر بوصوله » فبقيت مدهوشا متحيرا واخذت افكر تفكيرا متغلغلا في كيف ان هذا العلم الحري بان يدعى من العلوم الالهية لكونه غير متناه لم يكشف سره من قبل الان حين كان النحويون يجيزون ستة عشر وجها في الصفة المشبهة ويمنعون وجهين ويختلفون في وجه وحين كان العمر يضاع في التعليل والاعتراضات

التجويز الترجيحي كما اشار اليه العالم الاديب الشيخ احمد المسيري بقوله يمدح عزيز مصر على انشاء مدارس للعلوم الرياضية :

« فهذا الفخر في وجه المعالي * وليس بضرب زيد وجه عمرو »

اذا لصرف خواطر القوم الى الاشتغال بما هو اهم وانفع فان وصول الخبر من قاعدة مملكة اوستريا الى ليفربول في اقل من ثانية انفع من تجويز عشرين وجها في مسالة واحدة (٩٦) وهذا هو سر الكيمياء الذي يتعلمه الافرنج الان لا تحويل الحديد ذهبا او الانك فضة فان شئت ان تسميه بالاكسير فانت صادق * والحاصل ان الخبر يبلغ بهذه الالة مسافة الفي ميل كما يبلغ مسافة ميلين على السواء . وعدة الالات في هذا المحل نحو خمسين وعدة المستخدمين فيه مائة وثلثون * قال مولف كتاب المخترعات العجيبة « لم يكن يخطر ببال احد من المتقدمين انه يمكن ايصال فكر من بلد الى آخر مسافة مئات من الاميال في ثوان قليلة وان من يكون واقفا في لندرة يمكنه ان يخاطب آخر في ايدنبورغ ويتلقى منه الجواب كانهما جالسان في غرفة واحدة مع ان بينهما مدى ثلثمائة ميل . فلا جرم ان الوحي انما هو اكبر العجائب التي كشفت في عصرنا هذا . فان السارق مثلا يذهب في احد الارتال السريعة وهو مسرور بسرقته وفراره من يد الشرطة ويطمع في انه اذا بلغ الى احدى المدن الغناء يخفي اثره عن مقتصه ويضيع خبره في تغلغله بين الناس فيعمد الى رتل يمر مسافة خمسين ميلا في الساعة ويكون خبره قد تقدمه في السلك الذي يراه بعينه مرة عن يمينه ومرة عن شماله ويكون الشرطي قد عرفه بسمته وسمته وصفاته وعرف الرتل الذي سافر فيه فما يكاد يخرج منه الا وهو (اي الشرطي) آخذ بتلابيبه فيبقى اللص مدهوشا مبهوتا لا يدري اين يقصد . ثم تفتش صناديقه واوعيته ويستخرج منها المسروق ويرسل هو الى الحبس . فمن ثم كانت فوائد هذه الاسلاك من اعظم الاسباب المويدة لاقامة الحق وتشييد سنن الشرع وتنفيذ احكامه . ولو كان ايصال الخبر على هذا الوجه قد عرض على مسامع اهل القرون الخالية لعدوه من الخزعبلات المفتعلة . الا ان هذه

العلمية لم تنشا عرضا او بغتة بل بعد اعمال فكر وجهد روية في مدد متعاقبة . واصل ما ادى اهل الحكمة والفلسفة الى هذا الاستنباط كان استعمال فرنكلين الاميريكاني للطيارة المعروفة ومذ حينئذ خطر ببال المتبحرين في العلوم انه لا يبعد عن الامكان ايصال خبر بواسطة اداة الى بعض الاماكن الشاسعة . قلت ولد فرنكلين المذكور في مدينة بوصطن من اميريكا في سنة ١٧٠٦ وكان في مبدا امره خامل الذكر ثم اشتغل بالعلم وحسنت حاله وما زال يترقى في المعالي حتى صار من اهل السياسية وذهب الى باريس وحظي عند رجال الدولة حظوة عظيمة حتى انهم لما بلغهم خبر وفاته لبسوا عليه الحداد وله مولفات عديدة فاما خبر طيارته فهو انه صعدها في الهواء في يوم ذي دجن وكان قد ربط مرستها الى وتدين واناط بها مفتاحا فلما غشيها الغمام وجد ان بعض خيوطها قد تنفش وتجافى عن بعض منتصبا فادنى برجته من المفتاح فاحس بشرار البرق اه . قال وفي سنة ١٧٨٧ اجرى لوموند السكوتلاندي عملية تقرب من هذا الكشف وفي سنة ١٧٩٤ نصب ريزر موحى يمكن استعماله وان كان اقل نفعا واتقانا من المستعمل الان فكان التبليغ فيه خاصا بالسلك والعمل كله للشرارة الكهربائية . وكان السلك يجعل في موضع مظلم وحوله صفائح من القصدير عليها حروف مرسومة وقد ركزت على صفائح من زجاج فاذا طار الشرر على هذه لبحري في السلك اضاء الصفائح فتمكن به قراة الحروف . ثم قام فولتي وحسن هذه العملية بعض التحسين ثم رونالدس من همرسميث وارستد من كوبنهاغن وشويجر وموينك وداڤيس واراغو وغيرهم وكل منهم زاد شيئا وحسن شيئا . وفي سنة ١٨٣٧ قام دكطركوك وو يتسطون واخذا رخصة من الدولة لاجراء هذه العملية . وفي سنة ١٨٣٩ استعمل الموحى كما نراه الان في سكة الحديد المسماة السكة الغربية الكبيرة وهو الذي يبلغ الخبر بواسطة طرق الابرة على المسامير * واخبرني من يعرف ويتسطون انه هو الذي اخترع ءالة الطرب المسماة « كنشرتينو » وءالة اخرى من نوع النظارات . ثم اخترع دكطر سطنبيل من مونيش ءالة تنقط الحبر على ورق وعلى قدر ترتيب النقط يكون فحوى

المنقوط . وفي سنة ١٨٤٠ اخترع ويتسطون هذا المنوال الذي يدور ويرسم الحروف . وفي سنة ١٨٤٢ نصب ستروود الاسلاك على دعائم وكانت من قبل تحت الارض وهي غير مماسة لها بل نافذة من حلق من الفخار وبذلك سهل نصب اسلاك غليظة من الحديد بدل النحاس فنقصت المصاريف نحو النصف * وهذه الاسلاك تجري في ثلثي سكك الحديد الممتدة وليس من بلد عامر الّا وتصل اليه الاخبار بها . اه . وقال صاحب ابجدية الاوقات « اول من خطر بباله انشاء الموحى المعروف الان كان دكطر هوك وذلك في سنة ١٦٦٤ . وقيل ان موسيو امنتونس هو ايضا مخترعه في ذلك التاريخ الّا انه لم يجر استعماله الّا في سنة ١٧٩٣ . وقيل ان موسيو شاب هو اول من اخترع الموحى الذي استعملته الفرنسوية في تلك السنة . وفي سنة ١٧٩٦ نصب سلكان فوق ديوان الاميرال» . اه . قلت كانت ولادة روبرت هوك في سنة ١٦٣٥ ووفاته في سنة ١٧٠٢ . ويقال انه هو اول من اخترع آلة لتقويم حركة الساعة واتقن كثيرا من الآلات الهندسية وفكر في الجاذبية الارضية واستنبط في الرياضيات والفلكيات والطب والكيمياء اشياء كثيرة . وكان شرسا حسودا نازع نيوطون انفس مخترعاته * ثم سافرت من منشستر الى ايدنبورغ قاعدة سكوتلاند وهي مدينة بهيجة جدا مبنية من الحجر الصلب على عدة نجوات . وهي شطران احدهما جديد والثاني قديم . اما القديم فان دياره عالية جدا فقد تشتمل الدار على ثماني طبقات الّا ان فيه ازقة قذرة ضيقة جدا . واما الجديد فانه يشتمل على طرق واسعة وديار حسنة وحوانيت عظيمة ومبايت للمسافرين رحيبة . وفيه مدرسة جامعة تحوي نحو ستمائة طالب وهي شهيرة بعلم الطب وفيها مكتبة موقوفة تحوي ثمانين الف كتاب ما عدا كتب خط يد . وهناك قبة جليلة فيها تمثال سر ولطر سكوت شاعرهم الشهير ولها مرقب عال مطل على الخليج الداخل من البحر وسعته عدة اميال . وهذا المطل يكاد ان يكون كمطال جبل لبنان . وقد كان الفاصل بين الشطرين خليجا والان جعل ممرا للارتال * اما ارض سكوتلاند فهي دون ارض انكلتر

في الخصب والريع وذلك لكثرة الجبال فيها إلّا ان اهلها اصحاب جد وداب في الصنائع وشانهم التغرب في جميع البلاد فهم كاهل حلب في الشام وكل سنة يهاجر منهم اكثر من ثمانية عشر الفا . وهم اكثر شقرة وصهوبة من الانكليز وعدتهم نحو ثلثة ملايين ولهم لغة خاصة بهم غير ان لغة الانكليز غلبت عليهم الان . وحاكمهم منهم ولكنه تحت طاعة الدولة . وهم اشد تحمسا في الدين من الانكليز فان اصحاب الفنادق يضعون في كل غرفة للمسافر كتاب العهد القديم والجديد وكثيرا ما ترى نساء يبعن الفاكهة في الطريق وبين ايديهن كتاب الانجيل . وقد طالما حاولت اساقفة الانكليز اقرار كنيستهم فيها وجعلها الاصل كما فعلوا بارلاند فقابلهم الاهلون باشد الاباء والتمنع مع ان اهل ارلاند اكثر من سبعة ملايين . وسبب ذلك انه لما اتحدت سكوتلاند بانكلترة وذلك في سنة ١٧٠٧ كان من جملة الشروط التي اشترطوها ان تبقى رسوم كنيستهم ومناسكها كما كانت فاقرتهم الدولة على ذلك الى يومنا هذا . وهم مثل الانكليز في كونهم يشفتون الغريب فاني حين كنت امر في الطريق كان يجري ورائي جمع غفير من الرجال والنساء والاولاد ينظرون الى طربوشي ويتعجبون حتى اضطررت مرة الى ان اتوارى منهم في دكان * وقد رايت في هذه المدينة القصر الذي كانت تسكنه الملكة ماري استوارت المشهورة بالجمال والنجابة وهو في خفض من الارض وفيه شاهدت صورتها وسريرها الذي كانت تنام عليه وصورة الطلياني الذي اتهمت بحبه وهو يقاربها في الجمال . وصورته باقية في الموضع الذي قتل فيه غيلة وسببه فيما قيل انه لما كان يعزف لها بالكتارة ذات ليلة اذ هجم عليه زوجها من باب خفي فقتله عند الباب الخارج ولم يزل اثر الدم على الخشب القريب من العتبة . ثم رايت صورتها ايضا في القلعة التي حبست فيها بعد ان اتهمها حسادها بالفحش وهي اجمل من صورتها في القصر . ولما كانت محبوسة هناك اخذها الطلق فولدت جامس الاول وهو الذي صير مملكتي سكوتلاند وانكلترة مملكة واحدة . وشاهدت ايضا في القلعة تاج الملك والسيف والصولجان والنيشان وخاتما

من ذهب فصه ياقوتة اكبر من الفولة والشباك الذي تدلت منه فنجت وهو عال جدا . وفيها ايضا كنيسة صغيرة يقال انها اول كنيسة اقيمت فيها فرائض النصرانية في تلك البلاد وكانوا حينئذ يرقّونها . وهذه القلعة مبنية على صخر ارتفاعه ثلثمائة قدم * فاما ما كان من امر الملكة ماري ففي محفوظي انها بعد ان يئست من الملك بعد وقائع طويلة جرت بينها وبين اعدائها فرت من دار المملكة وكتبت الى ابنة عمها وقيل اختها اليصابت ملكة الانكليز تستجير بها . فكتبت اليها ان « اقدمي علي ولك الامان » . فلما قدمت عليها اضمرت لها شرا حسدا لها على جمالها ومحاسنها . فصدق المثل حيث قال « ان من الحسن لشقوة » ثم تجنت عليها امورا كثيرة من جملتها انها قتلت زوجها فاودعتها السجن . ثم خفرت ذمتها معها ونقضت عهدها وعقدت عليها مجلسا حكموا بقتلها فقتلت * ومع ان الانكليز ينوهون باسم الملكة اليصابت لاجارتها مذهب البروتستانط فلا ينفون عنها هذا الغدر الشنيع الذي رضيته لنفسها بعد التامين . فهو طبع يصدا به ذكرها على ممر الدهور * ومن قرا قصة الملكة ماري وهي مسجونة وما لقيت من الضر والنكد فلا يملك عبراته عليها . ولعمري انه لم يشقني شيء الى روية سكوتلاند غير صورتها وقصرها وذكر ايامها * قال بولية ان ماري ملكة سكوتلاند هي بنت يعقوب الخامس ملك سكوتلاند ولدت في سنة ١٥٤٢ ومات ابوها بعد ولادتها بثمانية ايام . وفي سنة ١٥٥٨ تزوجت دوفان (٩٧) فرنسا . ثم صار ملكا باسم فرنسيس الثاني ومات عنها بعد سنة ونصف فرجعت الى سكوتلاند . إلّا ان تمسكها بديانة الملة الكاثوليكية جعلها بغيضة لدى الاهلين . وفي سنة ١٥٦٥ تزوجت ابن عمها هنري لمجرد جماله فقط وكان يغار عليها من داود ريزيو الطلياني كاتب سرها فقتله بمراى منها . وفي سنة ١٥٦٧ هلك هو فاتهمت به . وبعد ثلثة اشهر تزوجت الكونت بوثول . ولم تتدبر في العواقب حيث كان قد اتهم بانه اجهز على زوجها . فشغب عليها فعلها هذا اهل المملكة والزموها ان تعدي عن مذهبها ففرت والتجات بابنة عمها الملكة اليصابت وذلك في سنة ١٥٦٨ . وحيث كانت

اليصابت تحسدها على جمالها القتها في السجن ثماني عشرة سنة . ثم تجنت عليها انها غاوت جماعة من الكاثوليكيين على اهلاكها فقضت عليها بالقتل فماتت وهي متجلدة . وكانت توصف في عصرها بالكياسة والظرافة والفصاحة وبانها اجمل النسآء . وعند وداعها فرانسا قالت كلاما بليغا * قلت وجدت في بعض التواريخ انها نظمت في هذا المعنى ابياتا بالفرنساوية وترجمتها كما ياتي : « وداعا يا فرنسا الانيقة - يا بلادي التي هي عندي الاعز والتي رشحت صباي . وداعا يا فرنسا - وداعا يا ايامي الغراء فيها - ان الفلك الذي فصل حبي لم يحمل الى هنا سوى شطري ولقد بقي لك الشطر الاخر ملكا لك وساتركه لمودتك حتى يتذكرك الاخر » * وقال آخر : قتلت ولها من العمر اربع واربعون سنة وشهران . ولما قدمت الى بلاد الانكليز كان سنها خمسا وعشرين سنة * وقال بولية : وماتت عن ولد ملك على سكوتلاند باسم يعقوب السادس وعلى بلاد الانكليز باسم يعقوب الاول . وقد الف العالم شلر على قتلها تمثيلة من ابلغ ما يكون . اه * ومما ذكر عن هذه الملكة على سبيل الاسهاب هو ان الملكة اليصابت كانت قد حسدتها على صيتها وجمالها فاصمرت قتلها فمن ثم امرت احد كتابها المسمى داريصون بان يكتب امرا بذلك . وكان الامير بيل من اشد الناس عداوة للملكة ماري فسار اليها لينذرها ان تستعد للقتل فقالت له « ما كنت اظن ان اختي الملكة اليصابت تامر بقتلي حالة كوني لست من رعيتها ولكن اذا كان رضاها في موتي فاهلا به . الا وان نفسا لا تسمح لجسمها بان يتحمل ضربة جلاد لغير جديرة بان تتمتع بنعيم الاخرة » . ثم طلبت ان تفاوض قسيسها وكان قد منع من رويتها فاشار عليها بعض النبلاء بان تفاوض احد اساقفة البروتستانط فامتنعت فقال لها امير كنت وكان متحمسا في مذهب هولاء « ان حياتك موت لديننا وموتك حياة له » ثم ذكر لها ما جرى من تغاوي بابنطون فانكرت مواطاتها له في شيء . ثم لما انصرف الامراء من عندها امرت باحضار العشآء سريعا ليمكن لها انهآء علائقها وامورها . فلما حضر تناولت منه قليلا على عادتها فجعل خدمتها وحشمها يبكون وينتحبون وجعلت

من ذهب فصه ياقوتة اكبر من الفولة والشباك الذي تدلت منه فنجت وهو عال جدا . وفيها ايضا كنيسة صغيرة يقال انها اول كنيسة اقيمت فيها فرائض النصرانية في تلك البلاد وكانوا حينئذ يرقونها . وهذه القلعة مبنية على صخر ارتفاعه ثلثمائة قدم * فاما ما كان من امر الملكة ماري ففي محفوظي انها بعد ان يئست من الملك بعد وقائع طويلة جرت بينها وبين اعدائها فرت من دار المملكة وكتبت الى ابنة عمها وقيل اختها اليصابت ملكة الانكليز تستجير بها . فكتبت اليها ان « اقدمي علي ولك الامان » . فلما قدمت عليها اضمرت لها شرا حسدا لها على جمالها ومحاسنها . فصدق المثل حيث قال « ان من الحسن لشقوة » ثم تجنت عليها امورا كثيرة من جملتها انها قتلت زوجها فاودعتها السجن . ثم خفرت ذمتها معها ونقضت عهدها وعقدت عليها مجلسا حكموا بقتلها فقتلت * ومع ان الانكليز ينوهون باسم الملكة اليصابت لاجارتها مذهب البروتستانط فلا ينفون عنها هذا الغدر الشنيع الذي رضيته لنفسها بعد التامين . فهو طبع يصدا به ذكرها على ممر الدهور * ومن قرا قصة الملكة ماري وهي مسجونة وما لقيت من الضر والنكد فلا يملك عبراته عليها . ولعمري انه لم يشقني شي الى روية سكوتلاند غير صورتها وقصرها وذكر ايامها * قال بولية ان ماري ملكة سكوتلاند هي بنت يعقوب الخامس ملك سكوتلاند ولدت في سنة ١٥٤٢ ومات ابوها بعد ولادتها بثمانية ايام . وفي سنة ١٥٥٨ تزوجت دوفان (٩٧) فرنسا . ثم صار ملكا باسم فرنسيس الثاني ومات عنها بعد سنة ونصف فرجعت الى سكوتلاند . إلّا ان تمسكها بديانة الملة الكاثوليكية جعلها بغيضة لدى الاهلين . وفي سنة ١٥٦٥ تزوجت ابن عمها هنري لمجرد جماله فقط وكان يغار عليها من داود ريزيو الطلياني كاتب سرها فقتله بمراى منها . وفي سنة ١٥٦٧ هلك هو فاتهمت به . وبعد ثلثة اشهر تزوجت الكونت بوثوا، ولم تتدبر في العواقب حيث كان قد اتهم بانه اجهز على زوجها . فشغب عليها فعلها هذا اهل المملكة والزموها ان تعدي عن مذهبها ففرت والتجات بابنة عمها الملكة اليصابت وذلك في سنة ١٥٦٨ . وحيث كانت

اليصابت تحسدها على جمالها القتها في السجن ثماني عشرة سنة . ثم تجنت عليها انها غاوت جماعة من الكاثوليكيين على اهلاكها فقضت عليها بالقتل فماتت وهي متجلدة . وكانت توصف في عصرها بالكياسة والظرافة والفصاحة وبانها اجمل النسآء . وعند وداعها فرانسا قالت كلاما بليغا * قلت وجدت في بعض التواريخ انها نظمت في هذا المعنى ابياتا بالفرنساوية وترجمتها كما ياتي : « وداعا يا فرنسا الانيقة - يا بلادي التى هي عندي الاعز والتي رشحت صباي . وداعا يا فرنسا - وداعا يا ايامي الغراء فيها - ان الفلك الذي فصل حبي لم يحمل الى هنا سوى شطري ولقد بقي لك الشطر الاخر ملكا لك وساتركه لمودتك حتى يتذكرك الاخر » * وقال آخر: قتلت ولها من العمر اربع واربعون سنة وشهران . ولما قدمت الى بلاد الانكليز كان سنها خمسا وعشرين سنة * وقال بولية : وماتت عن ولد ملك على سكوتلاند باسم يعقوب السادس وعلى بلاد الانكليز باسم يعقوب الاول . وقد الف العالم شلر على قتلها تمثيلة من ابلغ ما يكون . اه * ومما ذكر عن هذه الملكة على سبيل الاسهاب هو ان الملكة اليصابت كانت قد حسدتها على صيتها وجمالها فاصمرت قتلها فمن ثم امرت احد كتابها المسمى داريصون بان يكتب امرا بذلك . وكان الامير بيل من اشد الناس عداوة للملكة ماري فسار اليها لينذرها ان تستعد للقتل فقالت له « ما كنت اظن ان اختي الملكة اليصابت تامر بقتلي حالة كوني لست من رعيتها ولكن اذا كان رضاها في موتي فاهلا به . الا وان نفسا لا تسمح لجسمها بان يتحمل ضربة جلاد لغير جديرة بان تتمتع بنعيم الاخرة » . ثم طلبت ان تفاوض قسيسها وكان قد منع من رويتها فاشار عليها بعض النبلاء بان تفاوض احد اساقفة البروتستانط فامتنعت فقال لها امير كنت وكان متحمسا في مذهب هولاء « ان حياتك موت لديننا وموتك حياة له » ثم ذكر لها ما جرى من تغاوي بابنطون فانكرت مواطاتها له في شيء . ثم لما انصرف الامراء من عندها امرت باحضار العشآء سريعا ليمكن لها انهآء علائقها وامورها . فلما حضر تناولت منه قليلا على عادتها فجعل خدمتها وحشمها يبكون وينتحبون وجعلت

هي تطيب خواطرهم بالكلام وتسليهم وهي تقول « كفوا عن النواح وافرحوا بانطلاقي من هذا العالم عالم الشقآء » ثم التفتت الى طبيبها وقالت له « ناشدتك الله اما وجدت الآن قوة الحق عظيمة الا ترى انهم قالوا اولا انبي استوجبت الموت لكوني غاويت على قتل الملكة والآن قال لي امير كنت انه لا سبب لقتلي سوى خوفهم مني على ديانتهم . لكنني اعلم ان بعضا من هولاء الناس قد تحروا منفعة انفسهم خاصة بدعوى الديانة » . ثم انها عند الفراغ من العشآء شربت على اسم خدمتها رجالا ونسآء فشربوا هم معها وهم جاثون على ركبهم وقد مزجوا الشراب بالدموع وطلبوا منها العفو عما فرط منهم من التقصير والاهمال فعفت عنهم واستعفتهم هي ايضا . ثم كتبت وصيتها وقراتها عليهم ووزعت حليها وجواهرها وكتبت رسائل وصاة الى ملك فرنسا في حق خدمتها . ثم ذهبت الى الفراش فنامت قليلا وقضت سائر الليلة بالدعآء والاستغفار . فلما كان الغد لبست افخر ثيابها التي كانت تلبسها في الاعياد ودعت خدمتها جميعا وامرت بقراءة وصيتها . ثم حضر احد الامراء وطلب منها ان تستعد للخروج فخرجت على الفور وعليها سمة التجلد والخفر والجد والبشاشة والبشر وعلى راسها غطآء من كتان مسدل الى الارض وبيدها سبحتها . فلما بلغت مقتلها استقبلها جماعة من النبلاء والامراء وخادمها ملفن وهو ينتحب ويتحسر فقالت له « رويدك يا ملفن لا تنتحب فانك عما قليل ترى ماري استوارت معتوقة من قيد الهموم . فقل لاهل سكوتلاند اني اموت على ديني واني باقية على عهدي ومودتي لكل من سكوتلاند وفرنسا . اللهم اغفر لمن ظمئ الى دمي كما يظما الايل الى المآء . اللهم انك تعلم اني طالما قصدت ان تكون سكوتلاند وانكلترة مملكة واحدة فبرئني عند ابني والهمه اني لم آل شيئا يشين مملكة سكوتلاند ووفقه الى ان يسلك مع ملكة انكلترة مسلك صداقة ومودة » . ثم ذرفت مدامعها وودعت ملفن الوداع الاخير فاندفع في البكاء والنحيب ثم التفتت الى الامراء ورغبت اليهم في ان يحسنوا الى خدمتها ويساعدوهم على احراز ما اوصت لهم به وان ياذنوا لهم في ان يقوموا حولها عند قتلها ثم

يرسلوا الى بلادهم . فرضوا بطلبها الاول وابى امير كنت ان تقف خدمتها لديها لوسواس خامرة فقالت له « لا تخش باسا من هذه النفوس البريئة اذ ليس لها غاية سوى ان تتملى مني بآخر وداع ولا ريب ان اختي اليصابت لا تمنعني هذه الطلبة اليسيرة — كيف واني اقرب من انتسب اليها وابي هنري الثامن وزوجي مات ملكا على فرنسا وانا نصبت ملكة على سكوتلاند » فسمحوا لها حينئذ بما طلبت . ثم تقدم امامها الامراء وخادمها ملقن رافع لطرف ردائها حتى انتهوا الى الموضع وكان عليه كرسي اسود عليه مخدة سوداء فلما استوت على الكرسي وهدات الاصوات قرا بيل الامر بقتلها فاستمعت له مصغية . ثم حاول بعض من حضر من اساقفة البروتستانط ان يميلها عن ديانتها فقالت له « اني اموت على الدين الذي ولدت فيه » فطلب منها الامراء ان يصلوا معها فقالت لهم « اني اشكركم اذا صليتم لاجلي فاما صلاتي معكم وانتم على غير مذهبي فاثم علي » ثم اخذ الاسقف البروتستانطي في الصلوة فجثت واخذت تدعو وتصلي باللاتينية فتابعها خدمتها . فلما فرغوا قالت بلسان الانكليز كلاما مضمونه الاستغفار عن الملكة اليصابت وتوفيق ابنها الى طاعة الله وصرف غضبه تعالى عن جزيرة انكلترة وما اشبه ذلك . ثم تقدم الجلاد وطلب منها المسامحة فسامحته . ثم نزع عنها خوادمها رداءها الاعلى واخذن في النواح والنحيب فقبلتهن واحدة فواحدة وطلبت منهن ان يكففن عن النواح . ثم التفتت ايضا الى الخدمة وطلبت منهم مثل ذلك وودعتهم . ثم غطت وجهها بمنديل اسود واستوت على الخشبة وجعلت تنشد فصلا من المزامير ثم اضطجعت وجعلت تقول « رب اني في يديك اضع روحي » فتقدم الجلاد وضرب عنقها فقطع راسها بضربتين فصرخ ذلك الاسقف « هكذا تهلك اعداء الملكة اليصابت » فقال امير كنت « آمين » . ثم صبرت جثتها ونقلت بالاحتفال ودفنت في كنيسة بيتربورو بانكلترة وصنع لها ايضا مأتم حافل في باريس وكتب عند قبرها « هذا ضريح ماري ملكة سكوتلاند بنت ملك وزوجة ملك ونسيبة لملكة انكلترة كانت زينة عصرها ونورا للملك ساطعا وقد حازت من المناقب اعلاها ومن المزايا اسناها

هي تطيب خواطرهم بالكلام وتسليهم وهي تقول « كفوا عن النواح وافرحوا بانطلاقي من هذا العالم عالم الشقآء » ثم التفتت الى طبيبها وقالت له « ناشدتك الله اما وجدت الان قوة الحق عظيمة الا ترى انهم قالوا اولا انني استوجبت الموت لكوني غاويت على قتل الملكة والان قال لي امير كنت انه لا سبب لقتلي سوى خوفهم مني على ديانتهم . لكنني اعلم ان بعضا من هولاء الناس قد تحروا منفعة انفسهم خاصة بدعوى الديانة » .
ثم انها عند الفراغ من العشآء شربت على اسم خدمتها رجالا ونسآء فشربوا هم معها وهم جاثون على ركبهم وقد مزجوا الشراب بالدموع وطلبوا منها العفو عما فرط منهم من التقصير والاهمال فعفت عنهم واستعفتهم هي ايضا . ثم كتبت وصيتها وقرانها عليهم ووزعت حليها وجواهرها وكتبت رسائل وصلاة الى ملك فرنسا في حق خدمتها . ثم ذهبت الى الفراش فنامت قليلا وقضت سائر الليلة بالدعآء والاستغفار . فلما كان الغد لبست افخر ثيابها التي كانت تلبسها في الاعياد ودعت خدمتها جميعا وامرت بقراءة وصيتها .
ثم حضر احد الامراء وطلب منها ان تستعد للخروج فخرجت على السور وعليها سمة التجلد والخفر والجد والبشاشة والبشر وعلى راسها غطآء من كتان مسدل الى الارض وبيدها سبحتها . فلما بلغت مقتلها استقبلها جماعة من النبلاء والامراء وخادمها ملفن وهو ينتحب ويتحسر فقالت له « رويدك يا ملفن لا تنتحب فانك عما قليل ترى ماري استوارت معتوقة من قيد الهموم . فقل لاهل سكوتلاند انني اموت على ديني وانني باقية على عهدي ومودتي لكل من سكوتلاند وفرنسا . اللهم اغفر لمن ظمئ الى دمي كما يظما الايل الى المآء . اللهم انك تعلم انني طالما قصدت ان تكون سكوتلاند وانكلترة مملكة واحدة فبوئني عند ابني والهمه انني لم آت شيئا يشين مملكة سكوتلاند ووفقه الى ان يسلك مع مملكة انكلترة مسلك صداقة ومودة » .
ثم ذرفت مدامعها وودعت ملفن الوداع الاخير فاندفع في البكاء والنحيب ثم التفتت الى الامراء ورغبت اليهم في ان يحسنوا الى خدمتها ويساعدوهم على احراز ما اوصت لهم به وان ياذنوا لهم في ان يقوموا حولها عند قتلها ثم

يرسلوا الى بلادهم . فرضوا بطلبها الاول وابى امير كنت ان تقف خدمتها لديها لوسواس خامرة فقالت له « لا تخش باسا من هذه النفوس البريئة اذ ليس لها غاية سوى ان تتملى مني بآخر وداع ولا ريب ان اختي اليصابات لا تمنعني هذه الطلبة اليسيرة — كيف واني اقرب من انتسب اليها وابي هنري الثامن وزوجي مات ملكا على فرنسا وانا نصبت ملكة على سكوتلاند » فسمحوا لها حينئذ بما طلبت . ثم تقدم امامها الامراء وخادمها ملفن رافع لطرف ردائها حتى انتهوا الى الموضع وكان عليه كرسي اسود عليه مخدة سوداء فلما استوت على الكرسي وهدات الاصوات قرا بيل الامر بقتلها فاستمعت له مصغية . ثم حاول بعض من حضر من اساقفة البروتستانط ان يميلها عن ديانتها فقالت له « اني اموت على الدين الذي ولدت فيه » فطلب منها الامراء ان يصلوا معها فقالت لهم « اني اشكركم اذا صليتم لاجلي فاما صلاتي معكم وانتم على غير مذهبي فاثم علي » ثم اخذ الاسقف البروتستانطي في الصلوة فجثت واخذت تدعوا وتصلي باللاتينية فتابعها خدمتها . فلما فرغوا قالت بلسان الانكليز كلاما مضمونه الاستغفار عن الملكة اليصابات وتوفيق ابنها الى طاعة الله وصرف غضبه تعالى عن جزيرة انكلترة وما اشبه ذلك . ثم تقدم الجلاد وطلب منها المسامحة فسامحته . ثم نزع عنها خوادمها رداءها الاعلى واخذن في النواح والنحيب فقبلتهن واحدة فواحدة وطلبت منهن ان يكففن عن النواح . ثم التفتت ايضا الى الخدمة وطلبت منهم مثل ذلك وودعتهم . ثم غطت وجهها بمنديل اسود واستوت على الخشبة وجعلت تنشد فصلا من المزامير ثم اضطجعت وجعلت تقول « رب اني في يديك اضع روحي » فتقدم الجلاد وضرب عنقها فقطع راسها بضربتين فصرخ ذلك الاسقف « هكذا تهلك اعداء الملكة اليصابات » فقال امير كنت « آمين » . ثم صبرت جثتها ونقلت بالاحتفال ودفنت في كنيسة بيتربورو بانكلترة وصنع لها ايضا ماتم حافل في باريس وكتب عند قبرها « هذا ضريح ماري ملكة سكوتلاند بنت ملك وزوجة ملك ونسيبة لملكة انكلترة كانت زينة عصرها ونورا للملك ساطعا وقد حازت من المناقب اعلاها ومن المزايا اسناها

وانها طالما طلبت مراعاة حقوقها الملكية غير ان الجسور البربري الغاها « الاّ ان هذا التابين لم يلبث ان ازيح من موضعه فبقي قبرها غفلا * اه *
قال بعض من شاهد ايدنبرغ وكلاسكو من الانكليز ان للقسيسين ولفقهآء الشرع في ايدنبرغ يدا طويلة وكلمة نافذة فان الناس تنقاد لهم في اكثر الامور . ولا يكاد الناظر يتوسم البيع والشرآء الاّ في حوانيتها بخلاف كلاسكو ومن يؤم فيها فكانما هو مقيم في الريف وذلك لصفآء هوائها عن الدخان . ومن كل جهة منها يستنشق نسيم البحر وهي مبنية من حجارة منيعة باقية على الدهر . ويمكن ان يقال انه ليس في الدنيا كلها مدينة مثلها على هذا الوضع الانيق . اما اهلها فما برحوا محافظين على عاداتهم ورسومهم القديمة وهي مخالفة لعادات الانكليز جدا * اما كلاسكو فانها اعظم منها في التجارة فانها كلها عبارة عن معامل للثياب المنسوجة وغيرها . وهي وان تكن اقل تجارة من منشستر الاّ ان في هذه بيوتا كثيرة ومحترفات عديدة تختص بتلك اما تجارتها واشغالها في الحديد فعظيمة الى الغاية . واما في انشآء المراكب والالات من الحديد فمن الطراز الاول فانك ترى حولها اتاتين عديدة لا تزال متاججة حتى كان ذلك القطر قطر جحيمي وحتى يخيل للناظر ان خاطر الانسان يرتاح الى النار والدخان والى طقطقة المطارق ارتياحه الى المكث في صقع عذو من ايطالية والى روية الرياض واستماع اصوات العيدان وكان هولاء الدخانيين لا يحسدون احدا سواهم ممن يسكن في الريف المريع ولا يبالون بما تقوله الشعراء من وصف المروج الناضرة والجداول المترقرقة وغير ذلك من مسارح النظر الانيقة فما قاله ملطون حكاية عن الشيطان حين هبط الى دركات الجحيم واستسلم الى ما قدر عليه ورضي بما طرا عليه هناك من شواغل حياته الجديدة وهو « كن يا شر لي خيرا » انما هو صفة هولاء الناس لا تتعداهم فانهم يتبجحون بكثرة مواقدهم وتكاثف دخانهم وكان المدينة حالة كونها تضيء بعمد من النار ليلا وبعمد من الدخان نهارا تذكرة تذكر الناس بخروج بني اسرائيل من مصر . ولا شيء اعجب هنا من ان يرى الرآي تعدد الالواح فوق حوانيتها وهي التي

تكون عنوانا على اسم التاجر وحرفته فان التاجر في لندرة يكتفي بوضع لوح واحد فوق حانوته فاما الطبقة التي فوق الحانوت فانها تكون غالبا مقرا لعياله . اما في كلاسكو فانك ترى حانوتا فوق حانوت ومخزنا فوق مخزن بل اعظم الحوانيت هي التي تكون فوق الطبقة الاولى وقد تكون الدار كلها عبارة عن مخزن بضائع واينما تذهب لتشتري شيئا يقل لك اطلع فوق * قال واني اكره شيئا من قسيسي سكوتلاند وهو انهم لا يزالون يطوفون في البلاد مجتدين بدعوى انهم ينفقون ما يجمعونه في وجوه البر وانشاء الكنائس وجل من يقع غرضا لهم ذوات الثروة من النساء اه * ثم عدت الى كمبرج وبعد ان انهيت ترجمة التوراة وذلك في اقل من عشرين شهرا سرت الى لندرة وفاوضت كاتب الجمعية في ذلك فقال «ان كنت تقيم في هذه البلاد فان الجمعية تعين لك شيئا في مقابلة تصحيح الطبع» فقلت «على شرط ان اقيم بباريس ويبعث الي المطبوع الى هناك فاصححه فاني طالما هممت بان اتعلم اللغة الفرنساوية لما اني ارى في كتب الانكليز جملا وعبارات منها مما يحرص على تعلمها» فقال «لك ذلك» فمن ثم كتبت الى كاتب حاكم مالطة اخبره باني عدلت عن الرجوع اليها ثم تاهبت للسفر الى باريس واعددت خيشومي للغنة وخلدي للفتنة ودريهماتي للمحنة . وهنا اودع القاري وعبراتي منحدرة وزفراتي متصاعدة واعده وعد من يراعي قديم الصحبة ويحفظ اكيد القربة باني اصف له باريس عند استقراري فيها اتم وصف من دون اسهاب ولا حذف فاني جعلت هذه الرحلة مرتبة على الاوقات واخليتها في الجملة عن الاستطرادات ولكن ينبغي قبل ذلك ان افيده فائدة تتعلق بالتوراة مما يعز وجوده في غير هذا الكتاب * فاقول ان اول من ترجمها من اللغة العبرانية الى اليونانية هم الاثنان والسبعون حبرا في عهد بطولومي فيلادلفيوس بالاسكندرية وذلك في سنة ٢٧٧ قبل الميلاد قيل واتموا ترجمتها في اثنين وسبعين يوما وكان كل اثنين منهم في صومعة وعين على كل منهما ترجمتها باجمعها فلما فرغوا منها وجدت جميع النسخ لم تختلف احداها عن الاخرى لا في كلمة ولا في حرف

واقدم توراة بيد النصارى هي الموجودة في الفاتيكان برومية كتبت في القرن الرابع وقيل الخامس ونشرت في سنة ١٥٨٧ والثانية هي الموجودة في متحف الانكليز المسمى برتيش ميوزيوم اهداها احد بطاركة الروم الى شارلس الاول وقيل انها نسخت في حدود التاريخ المتقدم ذكره . واقدم توراة عند اليهود هي الموجودة في توليدو باسبانية وذلك نحو سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد وجملة ما في التوراة من الاسفار ثلاثون ومن الفصول ٩٢٩ ومن الايات ٢٣٢١٤ ومن الكلمات ٥٩٢ ٤٩٣ ومن الحروف ٢٧٢٨١٠٠ وقد تكررت فيها الواو العاطفة ٣٥٥٣٥ مرة والعدد الحادي والعشرون من الفصل السابع من سفر عزرا يشتمل على الحروف الابجدية كلها . وجملة ما في الانجيل من الاسفار ٢٧ ومن الفصول ٢٦٠ ومن الايات ٧٩٥٩ ومن الكلمات ١٨١٢٥٣ ومن الحروف ٨٣٨٣٨٠ وقد تكرر فيه حرف العطف ١٠٦٨٤ مرة * وكان طبع التوراة باللغة الاسبنيولية في سنة ١٤٧٨ . والنمساوية في سنة ١٥٢٢ والانكليزية في ١٥٣٤ . والفرنساوية في ١٥٣٥ والمسكوبية في ١٥٨١ . والرومية في ١٦٣٨ والتركية في ١٦٦٦ . والبورتوكيزية في ١٧٤٨ والطليانية في ١٧٧٦ . والفارسية في ١٨١٥ . ووجدت في بعض الكتب ولست منه على ثقة ان التوراة ترجمت الى العربية في القرن الخامس — * ثم اني ركبت الباخرة اي سفينة النار التى تسافر من لندرة الى بولون بعد نصف الليل الواقع في السادس من كانون الاول وكنت ارجو انها تقلع في تلك الليلة فوقع الضباب الكثيف حتى تعذر السفر الى الصباح . فلما دنونا من المدينة المذكورة صادفنا الجزر في البحر فانتظرنا نحو اربع ساعات حتى جآء المد فبلغنا المدينة في الفجر . فاخرجت امتعتنا وفتحت في ديوان المكس وكان معي عدة صناديق من جملتها صندوقا كتب فلم ياخذوا عليها شيئا . وسمعت بعضهم يقول هذا مرسل اي قسيس مبعوث من طرف الانكليز لهداية بعض الضالين . إلّا انهم وجدوا في احدها رطلا من الشاي فقالوا « اما ان تودي عليه شلينين ونصفا واما ان تتركه هنا » فقلت « لا بل اودي عليه ما تطلبون » وفرحت بذلك غاية الفرح لاني كنت موجسا من انهم

يتقاضون على الكتب كثيرا لاسيما وان كثيرا منها كان جديدا كما جده الجلد * وهنا نصيحة او شبه نصيحة لاخواني من المسافرين وهي ان من تصدى منهم الى فتح صندوقه اولا يلقى المفتش في عرام نشاطه وظمأته الى ان يجد عنده حاجة جديدة فيضبطها منه اظهارا لحذقه في صنعة التفتيش . فاما من ياتي آخر القوم فانه يلقاه قد كل وضجر فاول ما يفتح الصندوق ويتلمسه يطبقه . وربما اجتزا عن ذلك بسوال واحد يلقيه عليه كان يقول له « هل عندك شي يودى عليه مكس » ولا بد بالضرورة ان يكون الجواب بالسلب . غير ان جل الناس يحبون التقدم والتصدر في كل شي فتراهم يتزاحمون على فتح صناديقهم واخراجهم وعيابهم كانما هم في حلبة السباق * وفي بولون هذه وفي سائر فرض فرنسا المقابلة لانكلترة يزدحم الحمالون وخدام المطاعم على المسافرين ولا ازدحام حمارة مصر . وهناك ترى النسآء حالات يغطين شعور رووسهن بمنديل فيبرز من تحته شعيرات من عند افوادهن على زي نسآء اليهود وسحنهن كسحن الرجال . واقبح منهن النسآء اللاي يصطدن السمك او يبعنه فلا يكاد الناظر يعرف منهن علامة الانثوية * واعلم ايضا انه من يدخل فرنسا وغيرها من بلاد الافرنج فلا بد له من ان يبرز جوازه في الثغور (اي الباسبورت) والّا فلا يدعونه يدخل . واقبح من ذلك انه لا يمكن للغريب ان يخرج من بلاد فرنسا الّا اذا ادى في ديوان الجواز عشرة فرنكات . اما من يقدم الى بلاد الانكليز فليس عليه ان يبرز الجواز كما ان الخارج منها ايضا ليس عليه ان يدي شيئا (٩٨) ولذلك يقال ان بلاد الانكليز بلاد الحرية . وسببه عندي والله اعلم ان الانكليز لما كانوا في الزمن القديم متخلفين عن سائر الافرنج في اسباب التمدن والعلوم كما مر بك من جملة مثل ولاسيما في الكلام على منشستر احتاجوا الى ان يتساهلوا مع جيرانهم في اشيآء تستميلهم الى زيارتهم . وذلك ان اول ظهور التمدن والفنون في اوربا انما كان في اسبانية حين كان المسلمون مستولين على الاندلس . قال فلتير: « وكانت ملوك الافرنج جميعا تستخدم الاطبآء من العرب واليهود والتزم البابا يوحنا الثامن ان يدفع للمسلمين في كل سنة

خمسة وعشرين الف رطل من الفضة وذلك سنة ٨٧٧ . وقد دخلوا ايطالية ونهبوا كنيسة مار بطرس وفتكوا بالجيوش الفرنساوية الذين كانوا ساروا الى رومية لاجارة اهلها تحت راية القائد لوتاريوس . وفي القرن التاني عشر كان المسلمون مستولين في اسبانية على احسن البلدان منها بورتوغال ومورسية والاندلس ووالنسية وغرناطة وطرطوسة وامتد ملكهم حتى الى وراء جبال قسطيل وسيرقوسة . اما دار الخلافة فكانت في قرطبة وفيها بنوا المسجد العظيم المشهور قبوه مرفوع على ثلثمائة وخمسة وستين عمودا وهو من مرمر غريب الصنعة بديع الاتقان ولم يزل معروفا الى الان باسم « مسكيتة » (اي مسجد) مع انه حول كنيسة . وكانت الصنائع والفروسية والابهة في عهدهم في مزيد وكان عندهم مواضع شتى للفرج واللهو . اما علم المساحة والفلك والكيمياء والطب فلم يكن إلّا في قرطبة دون غيرها من سائر المدن حتى ان صانكو ملك ليون الملقب بالسمين اضطر الى ان يسافر اليها لياخذ الطب عن رجل كان مشهورا في عصره . فلما استدعى به الملك اجابه مع الرسول قائلا « ان كان للملك حاجة الي فليقدم علي » (٩٩) * وقال بعض المولفين ان المسلمين ملكوا من البلاد في مدة ثمانين سنة بعد الهجرة ما لم يملكه الرومانيون في مدة ثمانمائة سنة * وقال فلتير في موضع آخر: « واول ساعة دقاقة عرفت في فرنسا هي التي اهداها هارون الرشيد الى شارلمان ». * وقال في ابجدية الاوقات: « علم الحساب انما اخذ عن العرب في اسبانية — ووافقه على ذلك فلتير وانكره بعض المولفين العصريين من الفرنساوية — وذلك في سنة ١٠٥٠ ثم شهر في انكلترة في سنة ١٢٥٣ » * وقال صاحب معجم الجغرافية: « ان البابا سلوستروس الثاني — وكان يعرف اولا باسم جربرت — سار الى الاندلس واخذ العلم عن العرب . وكانت ولادته في سنة ٩٣٠ وانتخب بابا في سنة ٩٩٩ وكان ماهرا في علم المساحة وجر الاثقال والفلك وهو الذي بث رقم الحساب العربي في اوربا واول من عمل ساعة ذات رقاص » * وقال فلتير: « اول من اخترع هذه النظارات للعيون اسكندر سبينا وذلك في اواخر القرن الثالث عشر . وكذا اختراع طواحين الريح

كان في ذلك العهد * واصل اختراع الفخار كان في فيانتزي . اما زجاج الطيقان فكان معروفا من قبل ذلك الا انه كان نادرا وكان يعد من الاسراف وكان اشتهار صنعته في بلاد الانكليز في سنة ١١٨٠ من بعض الفرنساوية وكان يتنافس فيها * واول من ابدع مرايا الزجاج اهل فينيسيا وذلك في القرن الثالث عشر * وكان استعمال الساعات معروفا في ايطالية ولكن على ندرة ولم يكن في اوربا كلها من المدن ما يضاهي فينيسيا وجينوى وبولونيا وسيانا وبيزى وفلورانس * ولم تكن البيوت في مدن فرنسا والنمسا وانكلترة كما هي الان وانما كانت سقوفها من التبن المطين وبناؤها من الخشب ولم يكن عندهم هذه المواقد المعروفة الان لايقاد النار وانما كانوا يوقدونها في نحو كانون يجعلونه في وسط البيت فيجتمع حوله المصطلون والدخان متصاعد منه . وكانت اغطية الموائد من الكتان عند الانكليز نادرة جدا ولم يكن النبيذ يباع الا عند العقاقيرية وكان الركوب في مركب ذي عجلتين في طرق باريس الوسخة اسرافا حتى ان فيليب الملقب بالازهر منع النسآء من ذلك وكان اهل بولاند يقتلون اولادهم اذا جآءوا ناقصي الخلقة وكذا يقتلون الذين اسنوا وعجزوا وقس على ذلك سائر سكان البلاد الشمالية . واول من احيا صنعة نقر التماثيل برونلشكي من مدينة فلورانس وكان غيوتو نبها في التصوير وبوكاشيو في اللغة والادب * واول من اخترع مقامات الموسيقى على ما عرفت الان غيدودارتزو واشهر من برع في النظم والتاليف بترارك ودانتي ولم يكن اذ ذاك في البلاد الشمالية سوى الجهل الفاحش والتفاخر بالفتك والقتال . اه . (١٠٠) قلت وحيث جرى في معرض ما اوردناه ذكر الساعة فلا بد من استيفآء الكلام عليها ثم ارجع الى ما كنت بصدده * قال مؤلف كتاب المخترعات العجيبة : « ذكر المورخون من الفرنسيس ان اول ساعة عرفت في بلادهم كانت الساعة التى اهداها الخليفة هارون الرشيد الى شارلمان سلطان فرنسا وذلك في سنة ٨٠٧ وكانت بدعا في ذلك العصر حتى انها اورثت رجال الديوان حيرة وذهولا والظاهر انها كانت من الالات التى يديرها المآء المنحدر وكان لها اثنا عشر بابا صغيرا تنقسم بها الساعات فكلما

مضت ساعة انفتح باب وخرج منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيطن بعدد الساعات وتبقى الابواب مفتوحة وحينئذ تخرج صور اثني عشر فارسا على خيل وتدور على صفحة الساعة * قلت بودي لو اعرف اسم الساعة في ذلك العصر فانبي انكر هذه اللفظة واهل الغرب يقولون منكالة وهي انكر * قال وكان الفرد الكبير ملك الانكليز يامر باتخاذ شمع طول كل شمعة اثنتا عشرة اصبعا ويعلم كلا منها بعلامات متساوية منقسمة الى اربعة وعشرين قسما كناية عن الليل والنهار فكان يامر بايقادها متعاقبة ليلا ونهارا ويجعلها في قرن رقيق شفاف صونا لها من الريح ولم يعلم عمل الساعات الدقاقة الا بعد موته بقرون عديدة . اما تقسيم اليوم الى اربع وعشرين ساعة فمعروف من قديم الزمان . قلت وفي محفوظي ان العلامة الفيومي صاحب المفتاح ذكر ان اهل الحساب اصطلحوا على الاربعة والعشرين قيراطا لكونه اول الاعداد التي لها انصاف وارباع واثمان واثلاث سالمة فلعل هذا هو السبب في تقسيم اليوم والليلة الى هذا العدد وذكر هيرودوطس ان ميقانية الشمس كانت معروفة عند اليونانيين وهم اخذوها عن البابليين فاما الميقانية المائية التي تدل على الاوقات على نسق الرملية فكانت معروفة عند الكلدانيين وعند قدماء الهنود فكانوا يحدرون الماء فيها من اناء الى آخر كما يحدر الرمل في الزجاجة وبذلك يستدلون على اوقات التنجيم الا ان عدم تساوي انحدار الماء وتخالف الهواء كان يجعل حسابهم غير مطرد * اما شكلها فغير معروف بالتفصيل وغاية ما يعلم من امرها ان الماء كان ينحدر في وعاء فيها قطرة قطرة فاذا امتلا الاناء علم مقدار الوقت المفروض * واول من اتقن الساعة المائية حتى صارت من الادوات العلمية دوم كرلوس فالي احد الرهبان الباندكتيين وذلك سنة ١٦٩٠ وزعم بعض انها من مخترعات مرتينلي الطليانبي . قيل واول مولف ذكر اسم آلة تدل على الساعات دانتي الشهير ولد في سنة ١٢٥٦ ومات في سنة ١٣٢١ وشهر ذلك في انكلترة في سنة ١٢٢٨ وكان ايضا مشهورا عند غيرهم وفي زمن ادورد الاول وضعت غرامة على اصحاب الجنايات لاجل عمل ساعة

دقاقة في غرفة وستمينستر لكي يسمعها الذين في المحكمة . وفي زمن هنري الخامس كان لها شان عظيم حتى ان الملك وكل محافظتها وتعهدها الى وليم واربى ديس كنيسة صانت اسطفان وعين له في مقابلة ذلك نصف شلين في كل يوم من ديوان الخزنة . وفي سنة ١٣٣٤ ابرز يعقوب دوندي ساعته المشهورة فكانت تدل على الساعات وعلى سير الشمس في منطقة البروج وعلى مواقع الكواكب السيارة ولقب بهورولوجيوس . وفي اواسط القرن الرابع عشر وضع في كنيسة استراسبورغ ساعة من اكثر الالات تركيبا وتالفا فان صفحتها كانت تبدي الكرة السماوية وسير الشمس والقمر والارض والكواكب ومحاق القمر ونموه وتقويما يدل على اليوم الواقع من الشهر . وكان ربع الساعة الاول يطرقه ولد بتفاحة والثاني شاب بسهم والثالث رجل براس عصا والرابع الاخير شيخ بعكازه . وعند مرور كل ساعة يفتح الباب ملك وينحني مسلما على مريم العذراء ثم يطرق الجرس . وبقربه ملك آخر يحمل ساعة رملية يقلبها عند انتهاء الدقات الاربع . وكان بها ايضا ديك من ذهب يصفق بجناحيه عند اقتراب كل ساعة ويمد عنقه ثم يصقع مرتين (١٠١) وفي اواخر القرن المذكور صنع رجل من جينوى اسمه دروز (١٠٢) ساعة دقاقة ذات حركات غريبة وكانت تشتمل على تمثال رجل اسود وراع وكلب فكان الراعي عند طلق الساعة يعزف على الناي ستة اصوات فيدنو منه الكلب ويحرك ذنبه متملقا . ولما عرضها على ملك اسبانية تعجب منها غاية التعجب فالتمس اليه دروز ان يمد يده وياخذ تفاحة من سلة الراعي فلما فعل انبعث اليه الكلب ينبح نباحا عاليا حتى صار كلب الملك ينبح ايضا . قيل وكان اذا سئل الاسود عن الساعة اجاب بالكلام الفرنساوي ليفهمه الحاضرون * واول من وضع الرقاص في الساعة الدقاقة ريشارد هارس الانكليزي وذلك في سنة ١٦٤١ . اما الساعات الصغيرة التي توضع في الجيب مختصرة عن الكبيرة فالجزم بمعرفة صاحبها صعب والارجح انها من مخترعات هوك . اه * وقيل ان اصل اختراع الساعات كان في نورمبرغ في سنة ١٤٧٧ . وحقق البعض

ان روبرت ملك سكوتلاند قد كان له ساعة وذلك في سنة ١٤١٠ . وكان استعمال الساعات في الارصاد الفلكية في سنة ١٥٠٠ . وقال بعض ان الامبراطور كرلوس الخامس هو الذي كان عنده ما يصدق عليه اسم الساعة وذلك في سنة ١٥٣٠ . واصل جلب الساعات الى بلاد الانكليز كان من جرمانية في سنة ١٥٧٧ . اما الساعات التي توضع في الجيب فمن الناس من نسب اختراعها الى دكطر هوك واهل هولاندة نسبوه الى هيكنس . وكيف كان فان دكطر هوك هو الذي اخترع الساعة الدقاقة ذات الرقاص وذلك في سنة ١٦٥٨ * وقيل ان ساعة الماء عرفت في رومية في سنة ١٥٨ وان البابا بولس الاول اهدى بابان ملك فرنسا ساعة مائية في سنة ٧٦٠ . وقيل ان اصل اختراع الساعة الشمسية كان في سنة ٥٥٠ قبل الميلاد . وقيل انها عرفت في رومية سنة ٢٩٢ من التاريخ المذكور . وفي سنة ٦١٣ نصبت في الكنايس * وفي مدة احد عشر شهرا من العام الماضي جلب الى بلاد الانكليز من هذه الساعات مائتان وخمسة عشر الفا واربعمائة واربع وسبعون ساعة * فقد عرفت مما تقدم ان التمدن في البلاد الافرنجية بدا اولا في اسبانية بالنظر الى العلوم وفي بلاد ايطالية بالنظر الى الصنائع ثم انبثت منها الى فرنسا . واول اشتهارها فيها وبناء قصر فنتنبلو وقصر صان جرمان وتهذيب اللغة الفرنساوية كان في ايام الملك فرنسوي الاول كانت ولادته في سنة ١٤٩٤ ووفاته سنة ١٥٤٧ . ثم لما انتشر مذهب البروتستانط في فرنسا وكانت الدولة تضطهد المتمذهبين به كانوا يضطرون الى الفرار الى البلاد الاجنبية وحسبك بيوم مار برتولماوس دليلا . ولما قام لويس الرابع عشر وكان هو ووزيره الكردينال ريشليو اشد الناس بغضة لاهل هذا المذهب فر كثير منهم الى بلاد الانكليز وكانوا ذوي معارف وعلم وبثوا فيها ذلك . وطاب للانكليز ان يضيفوا من التجا اليهم وان يعفوهم من الجواز وبقيت الحال على هذا المنوال * ثم ان بولون هي مثل غيرها من فرض فرنسا المقابلة لانكلترة في كونها موردا للتجارة بين المملكتين واكثر ديارها منازل للمسافرين وثلث سكانها انكليز . واحسن ما فيها متحفها فيه من غرائب انواع الطير والسمك

وسائر الحيوانات ومن الجواهر المعدنية وانواع الورق الذي كانوا يكتبون عليه في الزمن القديم ومن الصور وآلات الطرب لجميع الامم ما هو عبرة للمعتبر . ومن راى عظام السمك والوحوش الضخمة فلا يكذب شيئا مما قاله الاولون * ثم سافرنا منها فبلغنا باريس ليلا فدهشت لما رايت فاني وجدت جميع الحوانيت مفتوحة في الساعة التي لا يفتح فيها شيء في لندرة غير حانوت المزر . وحين مررنا بالبلفار راينا من الانوار في الديار من فوق وفي محال القهوة من تحتها وفي فوانيس الطرق من بين الاشجار وفي فوانيس العواجل الواقفة عن اليمين والشمال ما خيل لي اني في جنات النعيم . فقلت في نفسي بخ بخ ان هذه مدينة بهجة وانوار تتفتح فيها اكمام المعاني في رياض الافكار . وتنجلي بها عرائس القصائد في اخدار الاشعار . فلاجعلن دابي النظم فيها الليل والنهار . وكلما ارتج علي شيء جئت الى البلفار * ثم لبثنا اربعة ايام في مبيت الى ان تيسر لنا استيجار محل في دار على حدته وكان الضباب في خلالها كثيفا والبرد شديدا . اما البرد فلا ينقص عن برد لندرة كثيرا بل هو اشد وانكى . واما الضباب فكان ابيض بخلاف ضباب لندرة فانه يقع اسحم . فطفقت اشكو من الانتقال من ضباب الى ضباب فقال لي احد اصحابي « ان هذا الضباب انما قدم الينا معك من لندرة فان باريس ليس مضبة ووقوعه فيها نادر جدا » . لكني وجدت قوله بعد ذلك غير الحق فانه وقع ايضا في السنة الثانية وانا مقيم فيها من دون ان يعلق باذيالي من قطر آخر . الّا انه لا يدوم طويلا كما يدوم ضباب لندرة * وقد حان الان ان اشرع في وصف باريس واهلها ولكن لما كان العالم الاديب الشيخ رفاعة الطهطاوي قد الف كتابه النفيس المسمى بتلخيص الابريز في تلخيص باريس وسبقني الى هذا المعنى كان لا بد لي هنا من ان استاذنه في ذكر ما اضرب عنه بالكلية او اشار اليه اشارة فقط مما استغربته منه ثم اجعل ذلك مقياسا للقاري يقيس عليه باريس ولندرة . ولكن قبل الكلام على باريس خصوصا ينبغي ان ابتدي بالكلام على فرنسا عموما فانها حرية بذلك وخصوصا اني قد اجلت القول في اول

هذا الكتاب على انكلترة . فاقول ان فرنسا كانت تسمى في الزمن القديم بالغال ثم سميت بهذا الاسم المتعارف الان نسبة الى الفرنك الذين فتحوها وهم قبائل من البلاد الشمالية . وارض هذه المملكة خصيبة ينبت فيها جميع الاشجار والبقول والحبوب غالبا . وكانت ارضها منذ نحو سبعين سنة مهملة اما الان فقد بذل الجهد في حرثها وتنبيت الغلال فيها حتى صارت قيمة محاصيل الارض وغلالها تبلغ في العام خمسة ءالاف وثلثمائة وسبعة وثلثين مليونا ومائة وثمانية وسبعين الف فرنك يصرف على ذلك ثلثة ءالاف وخمسمائة واثنان وخمسون مليونا فيكون الفآئض الفا وستمائة وخمسة وثمانين مليونا ومائة وثمانية وسبعين الف فرنك . وهي كثيرة المعدن يوجد فيها معدن الذهب لكن على قلة ويكثر فيها الفضة والحديد والرصاص والنحاس والتوتيا وغير ذلك . وعدد اهلها في سنة ١٨٤٥ كان اثنين وثلثين مليونا ونصف مليون منهم مليونان وثلث بروتستانط ويهود . وبلغت قيمة الجلاوب الى فرنسا في سنة ١٨٤٣ ثمانمائة وستة واربعين مليونا وستمائة وستة ءالاف وتسعمائة واربعين فرنكا وقيمة الخارج منها ستمائة وثلثة واربعون مليونا وتسعمئة واحد وستون الفا وستمائة وسبعة وسبعون فرنكا . وفي مدة ثماني عشرة سنة وذلك من سنة ١٨٠٥ الى سنة ١٨٤٣ كان من جملة اهلها مائتا الف مجنون في المارستانات وثلثة ءالاف قتلوا انفسهم ومائة الف نفس بهم علل واخذوا الى ديار المرضى (اي المستشفيات) وثمانمائة الف يعيشون من الصدقات ومائة الف نفس في السجون لاجل جنايات مختلفة . وقال ءاخر وبلغ عدد الاكليروس في سنة ١٨٤٣ اربعة وعشرين الفا منهم ثلثة كردينالات واربعة عشر مطرانا وسبعة وستون اسقفا . ويضاف اليهم نحو ثمانمائة الف وخمسمائة من المترشحين للكنيسة . وعدة اديار النسآء ثلثة ءالاف وعدد الراهبات اربعة وعشرون الفا . وبلغ عدد الاكليروس في زمان الفتنة مائة واربعة عشر الفا من جملتهم اثنان وثلثون الف راهبة . وبلغت جملة ايرادهم اثنين وسبعين مليونا . وبلغ العشور الذي يستوردونه سبعين مليونا فجملة ذلك مائة واثنان واربعون مليونا . وبلغ ايراد الكردينالات

وللاساقفة مليونا وسبعة عشر الفا . وجملة المصاريف على الديانة الكاثوليكية اربعة وثلثون مليونا ومائتان واحد وخمسون الفا وعلى البروتستانط مليون وثلثة وثلثون الفا وعلى اليهودية تسعون الفا * وفي سنة ١٨٤١ بلغ عدد المسافرين في فرنسا ٦٣٣ مليونا منهم ١٤٣ مليونا سافروا في سكة الحديد . وفي سنة ١٨٥٥ بلغ عددهم بليونا (اي الف مليون) منهم مليون وثلثمائة واثنان وسبعون الفا سافروا في الارتال . وبلغ ايراد الكمرك في سنة ١٨٥٦ مائة واثنين وثمانين مليونا ومائتين وستة وتسعين الفا وسبعمائة وثمانية وتسعين فرنكا . وفي سنة ١٨٥٧ بلغ ايراد الدولة نحو سبعين مليون ليرة انكليزية فكان نحو ايراد دولة الانكليز بل اكثر * وفي السنة المذكورة كان لها من العساكر البرية نحو خمسمائة الف واكثر. لها في اي وقت شاءت ان تجهز من الجيوش البحرية نحو سبعين الفا . والمحروث من ارضها لا ينقص عن اثنين واربعين مليون هكتار وملاكها نحو سبعة ملايين من روس العيال * وقرات في بعض الجرنالات ان المجلوب الى بلاد اوستريا في سنة ١٨٥٧ بلغت قيمته مائتين واحدا وثمانين مليونا وتسعمائة واثنين وخمسين الفا وتسعمائة واثنين وعشرين فرنكا والخارج منها مئتان واحد وثلثون مليونا ومائة وثمانون الفا ومائة وتسعة فرنكات والعشر على المجلوب تسعة عشر مليونا ومائة وتسعة وسبعون الفا ومائة وسبعة وسبعون فرنكا وعلى الخارج اربعمائة واربعة وتسعون الفا وسبعمائة وسبعة عشر فرنكا وبهذا يظهر لك الفرق *

وصف باريس

كانت مدينة باريس في سنة ٣٨٠ تسمى باريسي وكانت عرضة لنهب النورمان وفي سنة ١٤٢٠ استولى عليها الانكليز وبقيت تحت يدهم خمس عشرة سنة . وفي سنة ١٤٣٨ رزئت بالطاعون والمجاعة فمات بهما اكثر من خمسين الفا فكانت الذئاب تدخل اسواقها وتغتال من تغتال وفي سنة ١٨٤٠ حصنت بسور طويل يحيط بشاطئ النهر وبقلاع متفرقة وذلك مسافة خمسة عشر فرسخا وربع فرسخ بدئ به في كانون الاول سنة

١٨٤٠ ونجز في شهر ادار سنة ١٨٤٦ وبلغت نفقتد مائة واربعين مليون فرنك او خمسة ملايين ليرة (بل خمسة ملايين وستمائة الف) * قلت قد جرى ذلك كما قصده نابوليون وهو في جزيرة صنت هيلانة * قال ولما دنت منها الاعداء في سنة ١٨١٤ تبادر الناس الى انشآئه على عجل لكنه كان غير محكم ثم اكمل وجعل حوله اربعة عشر برجا * وقال آخر كانت باريس تدعى في القديم « لونس » سميت بذلك في احد الاقوال باسم « لوكوس » موسسها والذي عليه الاتفاق انها من اقدم مدن الغال . ولما غزا قيصر بلادهم كان يقال لها باريسي ولم تكن حينئذ إلّا عبارة عن خصاص مهينة. كالجزيرة في نهر السين مع انه لما اراد فتحها قاومه اهلها مقاومة شديدة لم تكن تخطر بباله حالة كونهم خالين عن اسباب التمدن . ثم اخذت في التمصر والاتساع في عهد ملوك كثيرة ولا سيما في زمن يوليانوس وكلوفيس واعظمهم فيليب اغوسط في سنة ١١٨٤ . ثم قام لويس الملقب بالصغير وانشا فيها مدرسة فاقبل الناس اليها لطلب العلم حتى صار عدد الطلبة اكثر من اهل الصقع الذي بنيت فيه . وهو الذي احاط بها سورا وصروحا . ثم قام فرنسيس الاول وانشا فيها اللوفر فقام هنري الرابع وغير فيه تغييرات جمة . وفي زمان لويس الرابع عشر صارت كانها مدينة جديدة وما قصده نابوليون الاول في تحسينها وتنظيمها استحسنته عائلة البوربون . وزاد عليهم اجعين لويس فيليب فانه ظن ان حفظه ذكر ايام نابوليون يكون ادعى لاستمالة خواطر الناس اليه فمن ثم اتم ما ابتدا به نابوليون فانشا السور واتم الازج او القنطرة المسماة « ارك دي تريونف » (اي قوس النصر) ونصب تمثال نابوليون مرة اخرى على عمود فندوم . وفي عهده دفنت جثة نابوليون * قلت وفي زمن نابوليون الثالث كسيت من الرونق والبهجة ما لا مزيد عليه . وقال غالنياني في كتابه الذي سماه المرشد الى باريس طبع سنة ١٨٤٤ : « اول من ملك فيها من ملوك النصارى كلوفيس وذلك في سنة ٥٢٤ واول من بشر فيها بالانجيل كان ماردينيس وذلك سنة ٢٥٠ واول كنيسة اسست فيها فيما علم كانت

كنيسة ماراسطفانوس في الموضع الذي ترى فيه الان كنيسة « نوطردام » (اي سيدتنا والمراد بذلك مريم اسم عيسى) وفي سنة ٨٥٧ احرقها النورمان ثم بنيت . وقسمت المدينة الى اربعة اقسام ومن ثم يقال لكل جهة منها « كارتيه » . وفي زمن لويس السمين كان ايراد الباب الشمالي اثنى عشر فرنكا لا غير . وهي تبلغ بحسابنا الان ستمائة فرنك . وفي القرن الرابع عشر انشي فيها مدارس للعلم . وفي عهد فيليب اغوسط كثرت فيها الابنية والمغاني والكنائس وبلط بعض الطرق والزم الاهلين تحصينها . وفي سنة ١٢٥٠ انشا روبرت صوربون مدارس لم تزل تعرف باسمه . وفي زمن شارلس المعتوه دخلها الانكليز ثم طردوا منها بعد ان اقاموا فيها ست عشرة سنة وذلك سنة ١٤٣٦ . وفي عهد شارلس السابع خربت من القحط والوبآء والذئاب حتى انها صارت في سنة ١٤٦٦ ماوى لاصحاب الجرائر والنقائص من جميع الاقطار . وفي عهد لويس الحادي عشر بلغ عدد اهلها ثلثمائة الف واكتسبت رونقا وعمرانا فهدم اللوفر القديم وانشاه منشا حسنا وانشا مدرسة يعلم فيها كل نوع من العلوم مجانا . وفي سنة ١٥٣٣ شرع في بنآء « هوتل دوفيل » (اي سرايا المدينة وهي مقر حاكم المدينة والمجلس البلدي) وحسنت عدة من الطرق وانشئت اخرى . وفي سنة ١٥٦٣ انشي التويلري (اي سرايا التويلري وكانت كما هي الان مقر الملك غالبا) . ثم لما قامت الحروب الدينية على ساق تعطلت اسباب التمدن الى ان اقام باعبآء الملك والسياسة هنري الرابع فاصلح ذات البين ومد على الناس ظل السلم والرفاهية وزاد في تبهيج المدينة غاية ما امكن وانشا جلة محال وكبر التويلري * وفي زمن لويس الثالث عشر انشئت طرق عديدة وانشي قصر اللوكسمبور وبستان النباتات وغير ذلك . ثم لما قام لويس الرابع عشر اتم ما كان قصده خلفه وهنري الرابع فانشا اكثر من ثمانين طريقا وحسن القديمة وانشا ساحة فندوم وثلثا وثلثين كنيسة ومارستان السقط ومارستان النغول والمرصد وكبر قصر التويلري ونظمت الماشي وبلط كثير من الرصف وغرست غيضة شانزلزي . وكذلك لويس الخامس عشر لم يال جهدا في

ان افادها نصرة الملك حتى وسعت رقعتها في زمانه ٣٩١٩ فدانا وانشا عدة مدارس وعيونا جارية . وفي ايام لويس السادس عشر انشئت فيها جملة ملاه وكنائس ومنازل سامية واسواق بهيجة فصارت رقعتها ٩٨٥٨ فدانا . وجعل للسور ستون بابا يوخذ منها ضريبة على ما يدخل اليها من الخارج ووسع الطرق واتم « بالبي روايال » (اي السرايا الملكية) بما فيه من الحوانيت الظريفة . وفي زمن الفتنة خرب كثير من الكنائس ثم رممت وانفق عليها اربعة ملايين ليرة . ولما استرد الملك الى لويس الثامن عشر بنى مجلس المشورة العام وانشا اسواقا كثيرة ومستشفيات عديدة ونصب عمود فندوم وانشا خمس عشرة عينا وزين القصر . وفي ايام شارلس العاشر زيدت فيها محاسن كثيرة جلها في الكنائس وانشئت ثلثة جسور . فلما قام لويس فليب فتحت طرق جديدة وربع بناء هوتل دوفيل ونصبت مسلة مصر (ازاء سرايا التويلري في بطحاء فسيحة يقال لها « بلاس دي لا كونكورد » اي ساحة الوفق) واتم انشاء كنيسة لامدلين اي المجدلانية وبلاس دولاكنكورد (المتقدم ذكرها) وعمود النصر . انتهى ملخصا * قال وهي على بعد مائة وخمسة فراسخ من لندرة او مائتين واربعة وخمسين ميلا . ودورتها ثلثة وعشرون الفا وسبعمائة وخمسة وخمسون مترا او خمسة وعشرون الفا وتسعمائة وتسعة وسبعون ياردا (اعنى نحو ثلثة عشر ميلا) . واطول ايامها ست عشرة ساعة وست دقائق واقصرها ثماني ساعات وعشر دقائق . وفيها اكثر من خمسة واربعين الف دار وثلثة عشر الف دكان والف ومائتين وستين طريقا وثمانية وثلثين ممشى واحد وعشرين بلفارا وتسع وتسعين عرصة او فسحة ومائة وثلث وثمانين سقيفة او معبرا مما يقال له « باساج » وسبعة وثلثون رصيفا . وسطح طرقها يبلغ ثلثة ملايين ومائتي الف ذراع مربع وطولها اربعمائة وثمانون الف ذراع او مائة وعشرون فرسخا . ومصاريف تنظيف الطرق تبلغ خمسماية وخمسة وثلثين الف فرنك * ومن قبل سنة ١٧٢٨ كانت الطرق عطلا عن الاسماء ثم بعد ان رقمت غيرت مرارا عديدة . وفي سنة ١٨٤٢ بلغت مصاريف تبليطها وتوسيعها سبعمائة وخمسين الف فرنك . قلت

جميع الطرق كانت من قبل مبلطة فلما صار الاهلون وقت الشغب والفتنة يتخذون حجارتها متاريس امر الان بان تصير رصاصا . ومن سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٧ بلغت مصاريف المدينة ثلثة وتسعين مليونا صرف منها في البناء وتجديد الديار سبعة واربعون مليونا وفي الماء وتصليح الطرق ثلثة وثلثون مليونا وعلى بوى دو بولون خمسة ملايين . وجل هذه المصاريف مما يرد من المدينة . ولم يصرف الميري من عنده اكثر من ستة ملايين . اه * وقبل ايام لويس السادس عشر لم تكن تنور الا مدة تسعة اشهر في السنة وذلك عند غياب القمر فامر بان تنور في كل ليلة . وعدة ما فيها من القناديل ثلثة عشر الفا ومائتان واحد وعشرون قنديلا اكثر من نصفها ينور بالغاز . وفي سنة ١٨٤١ ولد فيها تسعة وعشرون الفا وتسعمائة وثلثة وعشرون طفلا ومات ستة وعشرون الفا وثمان وعشرون نفسا وتزوج ثمانية آلاف وتسعمائة واثنان وستون زوجا وكان عدد النغول تسعة آلاف وثمانمائة وثلثين نغلا وفيها نحو ثمانين الف خادم * وقال آخر كان اهلها في سنة ١٨٥٦ مليونا ومائة واحدا واربعين الفا وثلثمائة وست عشرة نفسا . وفيها من الحرس السلطاني تسعمائة وسبعة عشر حارسا من جملتهم ثمانية وعشرون ضابطا . ومصاريف ديوان الشرطة تبلغ في السنة خمسة ملايين وثلثمائة وخمسة وثلثين الفا ومائتين وخمسة وتسعين فرنكا * وقال الاول ولا يزال في مستشفياتها خمسة عشر الف نفس . وقدر من يدخل فيها ويخرج منها ستون الفا . وفيها تسعة آلاف من فقهاء الشرع وهم اهل علم ودراية ولهم موضع مخصوص لنصح الفقراء مجانا وذلك في يوم السبت . ومائة واربعة عشر كاتبا للصكوك والعقود . وتسعة سجون احدها للمقضى عليهم تبلغ مصاريفه مليونا ومائة وخمسة واربعين الف فرنك . ويعاملون فيه بغاية ما يمكن من الرفق والشفقة . وعدها غيره عشرة . وفيها احدى وعشرون مدرسة ملكية فيها من الطلبة عشرة آلاف وتسعمائة وخمسة وسبعون طالبا وايرادها منهم ثلثمائة وثلثة وثمانون الفا وخمسمائة واربعة واربعون فرنكا . وثلثمائة وسبعة عشر مكتبا مما يقال له « كومونال » فيها

من المتعلمين اثنان وعشرون الفا وخمسمائة وثمانية وثمانون متعلما وايرادها مائتان وسبعة وعشرون الفا وستمائة وثلثة وتسعون فرنكا ومائة واحد عشر معلما يقال لها انستيتوسيون فيها ثمانية آلاف وثلثمائة وثمانية وسبعون طالب علم وايرادها مايتان وخمسون الفا وستماية وعشرون فرنكا والف وسبعة مراب ويقال لها « بنسيونات » فيها ثلثة وعشرون الفا وخمسماية وثمانية وثلثون نفسا وايرادها اربعماية وثلثة وسبعون الفا وسبعماية وثلثة وسبعون فرنكا . وفيها اربع وخمسون جمعية للعلوم وفعل الخير وبث الديانة ما عدا مواضع اخرى . قلت ان كثيرا من هذه المدارس والمكاتب يديره القسيسون فلا ياخذون من المتعلم إلّا نصف المصروف عليه فيمكن للوالد ان يضع ولده في احدها بمصروف ثلاثين فرنكا في الشهر فمن اجل ذلك ترى جميع الاولاد هنا مترشحين للعلوم والصنائع . وللاخوات اللاي هن من جنس الراهبات فضل عظيم مشهور في تربية البنات وتمريض الرجال والنسآء في بيوتهن او بيوت المرضى حتى ان بعضهن يداوي وبعضهن قوابل . وقد يسافرن الى البلاد الشاسعة في فعل الخيرات ولهن لباس مخصوص يعرفن به على تنوعه . فهذه الطريقة انفع من طريقة الراهبات عندنا اذ يحتجبن عن الناس في الدير فلا ينفعن احدا من الناس . وهاتان المزيتان اي التعليم على الوجه الذي ذكرنا والاعتنآء بالمرضى لا توجدان في لندرة على ان التداوي في مستشفيات باريس هو على طرف التمام وفي لندرة يحتاج الى ذرايع ووسايط * قال وفيها ستة وثلثون مارستانا . وقد علم من خلاصة صدرت في سنة ١٨٤٢ ان هذه المارستانات تقوم بمونة اثنى عشر الفا من المرضى والعاجزين رجالا ونسآء . وفي كل سنة يدخلها نحو ثمانين الفا . وان مصاريفها في السنة المذكورة بلغت اربعة عشر مليونا ونصف مليون لكن ايرادها اكثر من المنصرف وهو يتحصل من ضرائب على الملاهي ومن العقار الذي يشترى للمقابر وغير ذلك . ويصرف فيها اي في هذه المستشفيات من اللحم مليونان وخمسماية وستون الفا ومايتان وخمسون رطلا ومن الزبدة ثمانية واربعون الفا وثمانماية كيلوغرام ومن اللبن خمسماية وثلثون الف ليتر . ويوجد

ايضا ما عدا ذلك مواضع عديدة لاغاثة الفقراء وتشغيل البطالين . قلت وقد علم من كتاب طبع في سنة ١٨٥٥ ان هذه المستشفيات تقوم بمونة اكثر من اربعة عشر الف مريض يعالجون فيها واقدمها المارستان المسمى « هوتل ديو » يتداوى فيه في مدار السنة احد عشر الف مريض وتخدم فيه ستون راهبة وعدة اطبائه اثنان وسبعون طبيبا * وقال آخر المحسوب ان نصف اهل باريس صناع وعملة وليس فيها اكثر من الف نفس ممن يحسنون اثبات كونهم سكانا في باريس سلفا عن خلف من عهد لويس الثالث عشر * وقال ءاخر ان ثلثي سكان باريس لا يقدرون على مصروف الجنازة . وكل واحد من ثلثة ءالاف يقتل نفسه ومن كل ثلثة مواليد يكون نغل . وان منهم ثلثين الفا من غير الذين يعيشون من الصدقات يقومون في الصباح ولا يعرفون من اين يحصلون غداهم . ومنهم سبعة عشر الفا سكارى منهمكين في القبائح (١٠٣) * وقال ءاخر وفيها تسعة اسواق كبار للماكولات وخمسة مجازر بلغت مصاريف بنائها وتنظيمها ستة عشر مليونا وخمسمائة وثمانية عشر الف فرنك . وثم المسالخ والمدابغ العديدة وعدد الجزارين اكثر من خمسمائة . وفي كل يوم يذبح في احدها وهو المسمى مجزر مونت مارتر تسعمائة من الثيران واربعمائة من البقر وستمائة وخمسون من العجول وثلثة ءالاف وخمسمائة من الضان * والمونة السنوية من الماكول والمشروب وما هو من قبيل ذلك تبلغ ثلثمائة وخمسين مليونا منها تسعة واربعون مليونا ثمن خمر واثني عشر مليونا ثمن لبن وثمانية وسبعون مليونا ثمن شمع وسكر وبن اي قهوة وما اشبه ذلك ومليونان ثمن ملح وثمانية وثلثون مليونا ثمن خبز واربعون مليونا ثمن لحم وخمسة عشر مليونا ثمن بقول واربعمائة واربعة واربعون الفا ثمن فحم . والمونة من البطاطة في السنة تبلغ ثلثماية وخمسة وعشرين الف كيلوغرام . ومبلغ ما يباع فيها من التبغ في كل سنة سبعماية الف وثمانية ءالاف وسبعماية وثلثة وتسعون كيلوغراما . ومونتهم في كل يوم من الخلر ونحوه مايتا الف كيلوغرام وكل يوم ياتي اليها عشرون عجلة مشحونة بالفضة . وفي بعض

الايام يباع فيها من الدقيق ما قيمته خمسة واربعون الف فرنك . ويرد اليها من الخارج في السنة اثنى عشر الف قارب مشحون بالفاكهة والقمح * وقال ءاخر ومن جملة اسواق الماكولات بباريس السوق المعروفة بالهال اول حجر وضع في اساسها وضعه الامبراطور في سنة ١٨٥٢ تباع فيها البقول والخضرة والفاكهة على انواعها فيرد اليها في كل يوم ثلثماية وعشرون عجلة مشحونة بها وفي اوان الفاكهة يستخدم في نقلها اربعماية وعشرون عجلة ونحوها . ويباع فيها في العام من صنف واحد من البقول مما يتخذ للسلطة بمليون فرنك ونصف مليون ومن صنف من محار البحر يسمى الزويتسر بنحو مليون وسبعماية الف فرنك * قلت والفاكهة والبقول في فرنسا تعظم للغاية كما في انكلترة . فقد يصنعون من قشر ثمر الجوز شبه حقة للنسآء تحوي مقصا وابرة ونحو ذلك * قال ويباع فيها في سوق الزبدة بنحو ستة ملايين ومن البيض بنحو خمسة ملايين وستماية الف فرنك * قلت ومن هنا يعلم ان ما ذكره الشيخ رفاعة بيك من ان اهل باريس يقطعون من البيض بخمسة ءالاف فرنك سهو والظاهر انه اراد خمسة ملايين كيف لا وقد قال انهم يخلطونه في نحو ثلثماية صنف من الطعام * وفيها اي في باريس خمس مشيخات كبار اي الاكاديمات من جملتها الاكادمية الفرنساوية للنظر في تهذيب اللغة وتنقيح اصولها وفروعها فكل من الف كتابا بديعا في التاريخ والادب ينال منها جائزة * وفيها ديار كتب عديدة اكبرها واعظمها المكتبة العمومية فيها مليون من الكتب المطبوعة وثمانون الف كتاب بخط اليد وماية وخمسون الف ميدال اي نيشان ومليون واربعماية الف صفيحة منقوشة وثلثمائة الف راهنامج وفيها رسائل محفوظة من لويس الرابع عشر وكليبر وكلبرت وكتاب واحد من اللورد بيرون . ومن جملة تلك الكتب كتب مطبوعة من عهد فوست وسوفر . وما من ديوان او محترف ميري إلا وفيه الوف من الكتب . وجملة الكتب المطبوعة الموجودة في المكاتب ما عدا المكتبة المذكورة اكثر من مليون ومايتي الف كتاب (١٠٤) . والتي بخط اليد عشرة ءالاف ما عدا ديارا اخرى على حدتها بعضها يحوي

عشرين الفا وبعضها اقل وهو كاف في بيان ما لهذا الجيل من الحرص على العلوم * وفيها مطبعة سلطانية من تاسيس فرنسيس الاول فيها حروف متنوعة يطبع بها كتب باحدى وخمسين لغة . ويطبع فيها في ليلة واحدة ثمانمائة صفحة من قطع الربع . وعدد المستخدمين فيها من ثمانمائة الى تسعمائة . ومصاريفها ثلثة ملايين * وعلى نهر المدينة سبعة وعشرون جسرا منها سبعة معلقة وثلثة من الحديد والحجر وواحد من الخشب والباقي من الحجر من جملتها جسر دولاكنكورد بدي به سنة ١٧٨٧ ونجز في سنة ١٧٩٠ . وبلغت مصاريفه مليونا ومائتي الف فرنك طوله ٤٦١ قدما وعرضه ٦١ . وءاخر يعرف بجسر لويس فيليب بلغت نفقته مليون فرنك . وءاخر اسمه جسر روايل طوله ٤٣٢ قدما وعرضه ٥٢ وءاخر يسمى بون دزار اي جسر الصنائع طوله ٥١٦ قدما وعرضه ٣٠ ومصاريفه تسعمائة الف فرنك . وقد اجري اليها الماء في قني من جملتها قناة مسافتها اربعة وعشرون فرسخا بلغت مصاريفها خمسة وعشرين مليونا واخرى انفق فيها اربعة عشر مليونا ومائتا الف فرنك * وقال ءاخر يوجد فيها سبعمائة وسبعة وعشرون من وكلاء الدعاوي . والف واربعمائة وستة وخمسون من الاطباء والجراحين . واربعمائة وسبعة وتسعون من باعة الادوية اي الكيماويين . وثمانمائة واحد عشر من البنائين . واربعمائة واثنان واربعون من المصورين . وثمانمائة وثمانون من النقاشين على الحجر والحديد ونحوهما . وستمائة وتسعة وثمانون من الخبازين . واربعمائة وسبعة وثمانون من الجزارين . وستمائة واثنان وستون من الصيارفة . والف ومائة وستون من التجار بالكومسيون . والف وثمانمائة وخمسة واربعون من باعة الشمع والصابون والسكر ونحو ذلك . وستمائة وثمانون من صناع الساعات . وثلثة ءالاف وتسعمائة وتسعة وسبعون خمارا . ومائتان وستون من باعة الشريط والقيطان ونحوهما . وسبعمائة وثمانية وثلثون من صناع الزهر من الورق . ومائة وستة وعشرون من المصورين على نور الشمس . ومائة وسبعة عشر من الحمامات السخنة . ومائتان واربعون معملا للورق . وخمسمائة وثلثة

وعشرون موضعا للاكل . والف وخمسة وثلثون موضعا للقهوة . وثلاثة وثلثون محترفا لاشتهار الاعلامات . ومائة وثمانية وعشرون موضعا للتضمين والتعهيد . وفيها سبعة مواقف لسكة الحديد وسبعة وعشرون ماوى الجند من جملتها ماوى يسع خمسة الاف وثمانمائة رجل وثمانمائة فرس . وفيها اثنا عشر حوضا وثمانية وعشرون ملهى اي ثياطرا ولم يكن فيها في ايام لويس الرابع عشر سوى ثلثة * وفي سنة ١٧٩١ صدرت اجازة للاهلين من اهل المجلس المعروف بالاسامبلي بان كل من استطاع منهم ان ينشئ ملهى فهو غير معارض فبلغت ثلثة واربعين . وهناك ايضا محال اخرى للغناء والسهريات والحظ مما يطول شرحه * قال والملهى الطلياني يرد اليه امداد في السنة من خزنة الدولة بمائة الف فرنك . وان كثيرا من الانكليز والنمساويين بل الروس يقصدون ملاهي باريس ليروا فيها من التمثيل ما لم يروه في بلادهم إلّا غير كامل . وكلهم يقر بافضليتها على غيرها . وامداد الاوبرة الفرنساوية سبعمائة وخمسون الف فرنك ما عدا مرتبا ءاخر لها قدره مائة وثلثون الف فرنك * قلت في اول المرفع وفي نصف الصيام يصنعون في هذا الموضع رقصا فتحشد اليه الرجال والنساء بلباس السخرية بحيث لا يعود الرجل يعرف زوجته ولا بنته ويبقون هكذا الى الفجر(١٠٥) . وهذا الموضع يشتمل على نحو خمسين ثريا او نجفة وعدد الالاتية فيه ينيف على خمسين * قال وامداد الاوبرة كوميك اي ملهى الضحك مائتان وستة واربعون الف فرنك . وفيها عشرة منتديات مما يعرف بالكلب وثمانية مراقص اصلية من جملتها مرقص يختص بطلبة العلم فاما المراقص التي تكون مجتمعا للدون فغير جديرة بالذكر . وفيها احدى واربعون كنيسة كبيرة ونحو منها المعابد . واقدم الكنائس واشهرها كنيسة « نوطردام » اول حجر جعل في اساسها وضعه البابا اسكندر الثالث وذلك في سنة ١١٦٣ ولم يتم بناؤها إلّا في عهد شارلس السابع . طولها مائة وستة وعشرون ذراعا وكسور وعرضها ثمانية واربعون وارتفاعها ثلثة وثلثون وعلو برجها ثمانية وستون . وفيها خمسة اسواق للزهر على اجناسه وانواعه . وفيها سوق للكلاب يعرض

فيها للبيع في كل يوم احد مائتان وثمانون كلبا . واخرى للخيل والحمير طولها اربعمائة وثمانون ذراعا وعرضها ثمانية وثمانون . وفيها ساحة للخمر وسعها ستة وعشرون الف ذراع مربع يرد اليها في كل يوم الف وخمسمائة برميل وهي تسع منها خمسة واربعين الفا . قال كالنياني : وبلغ ايراد الخزينة من الدخان سبعة ملايين . وبلغ مكس باريس الوارد اليها مما جعل على الاسواق والحوانيت والمجازر والمخازن والعيار والدفن وغير ذلك خمسين مليونا . وبلغ المصروف عليها خمسة واربعين مليونا من جملتها مصاريف الابنية والمستشفيات وديوان الشرطة والمكاتب والمتاحف والمماشي والزينة في الاعياد . وبلغت مصاريف الدواوين الميرية ١٣٨٩ ٢٠٨ ١٧٢ فرنكا اعظمها مصاريف دين الخزنة للامة وديوان الحرب . وبلغ ايرادها ٣٣٦ ٨٨٠ ٢٤٦ ١ . ودين الامة يبلغ ٩٠١ ٩١٦ ١٩٥ . وبلغت مصاريف العسكر في سنة ١٨٤٤ ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٤٨ . (١٠٦) والوزراء هم وزير الامور الخارجية ووزير الدواوين الحربية ووزير المهمات البحرية والمستعمرات ووزير المصرف والايراد ووزير الزراعة والتجارة ووزير الامور الداخلية ووزير الابنية الميرية ووزير الشرع والعدل ووزير التعليم والمدارس . ومن هولاء الوزراء ومن مجلس المشورة الخاص والعام ومن صاحب الملك تتالف دولة فرنسا * وعدد المستخدمين في دواوين الوزراء الفان وثلثمائة وثمانون مستخدما ووظيفتهم في السنة ستة ملايين فرنك . وعدد المستخدمين في ديوان الشرطة نحو الفين وهو من ترتيب لويس الرابع عشر . قلت وجميع هذه المقادير والاعداد قد زادت الان زيادة رابية * وقال آخر وفي باريس توزع المكاتيب سبع مرات في كل يوم وذلك من الساعة السابعة ونصف صباحا الى الساعة التاسعة مساء . واول من رتب البريد لويس الحادي عشر وفي سنة ١٧٩٢ اطرد ترتيبه كما نراه الان * وقد حان لي هنا ان اقول ان باريس تشبه لندرة في كونها شطرين يفصل بينهما نهر إلّا ان نهر باريس صغير لا يسع المراكب الكبيرة . وتخالفها في احوال كثيرة : احدها ان ديار باريس من الحجر فلا يزال ظاهرها ابيض انيقا بخلاف ديار لندرة فانها

مبنية من الاجر فلا ياتي عليه سنتان او ثلث الّا ويسود من كثرة الدخان والضباب بل المنازل المبنية فيها من حجر تسود ايضا * الثاني ان ديار باريس متناسقة الارتفاع في الغالب متناسقة الظاهر فانها كلها بيضآء متناسقة وضع الشبابيك . اما ارتفاعها فان بعضها يشتمل على سبع طبقات فربما ارتقى فيها الانسان مائة وثلثين درجة حتى يصل الى غرفته فهي من هذا القبيل متعبة . ولكل طبقة فانوس يشعل بالغاز . ولكل دار رتاج كبير لا يزال مفتوحا الى نصف الليل و بواب يتبوا كنا بالقرب منه . فاذا خرج احد السكان اعطاه مفتاح غرفته ومتى رجع اخذه منه . واذا غاب بعد نصف الليل اطن الجرس فيقوم البواب من فراشه ويفتح له . ولابد وان يعطيه شيئا في مقابلة ذلك . هذا اذا كان ساكنا في دار مفروشة فاما اذا اكترى شقة من دار تشتمل على مبيت ومقعد ومطبخ فله ان ياخذ مفتاحه معه . وعند ذلك يحتاج ان يستخدم امراة لتصلح له مسكنه او يستاجرها ساعة او ساعتين في النهار . وربما كانت هذه المراة اجيرة عدة اشخاص فتذهب الى كل منهم في ساعة معلومة . ولا يمكن لغريب بل لاهلي ان يستاجر دارا من بابها بجميع مرافقها وذلك لكبرها وغلائها .فكل دار في باريس عبارة عن قصر . فاما ديار لندرة فلا تزيد غالبا على اربع طبقات ثلاث ظاهرة وواحدة تحت الارض للفحم ولغسل الثياب وما اشبه ذلك وهي غير متناسقة فبعضها عال وبعضها سافل وبعضها كبير وبعضها صغير فمن ثم يمكن لكل واحد ان يستقل بدار على حدتها وما اشبه ذلك * الثالث ان درج ديار باريس متين جدا . ومبلط الغرف التي بنيت من عهد حديث من خشب متين جلي بهي ومبلط الديار القديمة من الاجر الاحمر . وفرش المبلط بالبسط او الزرابي غير مطرد وانما يجتزئون عن ذلك بنحو سجادة يجعلونها امام الموقد . اما في لندرة فان جميع المساكن مفروشة بالبسط ولذلك سببان احدهما ان البسط فيها رخيصة وفي باريس غالية والثاني ان خشب المبلط في لندرة قبيح وسخ فكان لابد من ستره * الرابع ان جميع طيقان باريس تفتح على مصراعين كالباب فيسهل غسلها وتنظيفها باهون سعي وطيقان لندرة

لا يفتح إلّا نصفها الادنى صعدا ويبقى الاعلى مطبقا فلا يمكن تنظيفه فيكون
لابد من استخدام رجل ينظفه من الخارج وهو معنت شاق * الخامس ان
مواقد ديار باريس هي في موازاة البلط ولا يمكن طبخ شيء عليها ، وجل
وقودهم انما هو الحطب لا الفحم المعدني فانهم يكرهونه غاية الكراهية لرائحته
وتوسيخه الثياب ولا يطبخون عليه اصلا . وحين كنا نوقده للاستدفاء على
عادة الانكليز كانت خادمتنا تتانف منه وغير مرة غشى عليها منه . وفي
بعض الغرف والدكاكين يوقدون ما اطفى من الفحم او الفحم مع الحطب
في كوانين عالية من الحجر القيشاني الظريف او من الحديد ، وقد تكون
متصلة بقصبة من حديد نافذة في الحائط ليخرج منها الدخان وقد لا تكون .
وفي الجملة فان مواقد لندرة احسن فانها مجعولة لان يوقد فيها من فحم
الحجر قدر ما تشاء ولان يطبخ عليها وذلك لارتفاعها عن المبلط . هذا في
الديار الصغيرة فاما في ديار الكبراء فتكون ايضا في حيز المبلط كما هي في
باريس والحكمة في ذلك عندهم وعند اولئك ايصال الحرارة الى الارجل فانها
احق الاعضاء بالدفء . والحاصل ان الشتاء داخل الديار في لندرة اهنا
واهون وذلك لاعتنائهم بفرش المساكن والدرج وبكون المواقد قابلة لوقيد
الفحم كما مر وانت خبير بان بناء الحجر يحدث رطوبة اكثر من الاجر *
السادس ان لكل طبقة من ديار باريس مرحاضا ووراءه مصب للماء وفي
ديار لندرة لا يكون إلّا مرحاض او اثنان فهي من هذا القبيل انظف وادنى
الى الصحة * السابع ان مداخن باريس الخارجة من السطوح تكون
غالبا من الحديد وفي لندرة من الخزف فتلك ابهج منظرا * والحاصل انه
لما كان النظر في امور المدينة والديار بباريس موكولا الى ارباب السياسة
كانت الديار وحدها تؤذن بابهة المكان وجلاله فضلا عن الدكاكين
والدواوين الملكية . فكم فيها من رواشن حديد مذهبة ومن جدران مزخرفة
وابواب موزجة مما يستوقف المجتاز . وكذلك الدكاكين فانك تراها
وضيئة بهيجة والحاجات فيها زهية ناضرة فيود الانسان لو يشتري كل ما
فيها . فكان في رقيع المدينة نورا يلقي شعاعه على المرئيات فيكسبها بهجة

وطلاوة وكان القاعد على كرسي في بيته انما هو قاعد على شوك القتاد ابدا يتحامل ويتحرك للخروج ليرى الديار والحوانيت مما يشوق ويروق *
اما اثاث الديار وفرشها فالغالب انه في باريس انفس واغلى . واكثر ما يحمل على العجب منها سررهم التي يرقدون عليها فانهم ينضدون عليها عدة من الفرش حتى انهم يصعدون اليها على درج وذلك مطرد للغني والفقير . وخشبها في الغالب من النوع الذي سماه الشيخ رفاعة الكابلي . ويجعلون فوقها اطارا من خشب مذهب على هيئة التاج ومنه يسدلون الناموسية . ولا بد وان يكون في البيت مرآة كبيرة وساعة دقاقة يضعونها فوق رف الموقد * وتفضل باريس لندرة ايضا في كثرة العيون الجارية في الطرق وفي كثرة الحمامات . واذا شآء الانسان ان يستحم في بيته اوعز الى قيم الحمام في ان يبعث له بمغطس ومآء حميم . وهذا يكاد ان يكون معدوما في لندرة . ومن ذلك الكتابة التي تكون فوق الحوانيت والرواشن . فان جلها مكتوب بمآء الذهب وفي لندرة جلها بالحبر واذا كان بمآء الذهب فلا يلبث ان يسود . ومن ذلك ابواب الدكاكين والقضبان الفاصلة بين الواح الزجاج فانها هنا اكثر رونقا . فاما من حيث السعة والبهجة فدكاكين لندرة اعظم * ومن ذلك الرصف التي على جانبي نهر السان فانها مبلطة نظيفة بحيث يمكن للانسان ان يقعد عندها ويسرح ناظره في النهر . وهو يشتمل على عدة حمامات ومغاسل كالبيوت تغسل فيها النسآء ثياب السكان * ومن ذلك وجود دكاكين اخرى في الطرق للغسالات فانك في كل طريق تجد منها واحدا او اثنين وذلك نادر في لندرة جدا . وانما يغسل النزيل ثيابه عند غسالة الدار التي يسكنها سوآء كانت نظيفة او وسخة وهن غالبا في الريف . ومن الغريب ان غسالات باريس يغسلن الثياب بالمطارق وكل منهن راض * ومن ذلك انه يوجد في باريس مواضع يتخلى فيها الانسان لقضآء الحاجة . ولا يخفى ان وجود ذلك في المدن الغنآء ضروري فان من يخرج من داره ويضطر الى قضآء الحاجة لم يمكنه الرجوع اليها . وذلك في لندرة معدوم . بل مواضع البول فيها على قلتها قذرة رديئة ما عدا

ما صنع فيها حديثا في طريق استراند وهوبرن فهي تعز عن النظير واجدر بهذه الحاجة ان تكون في باريس من المصالح وفي لندرة بالتحريف * وما احسن ما قيل في الفرنساوية من انهم « يجعلون كل مقصد حرفة وكل حرفة مقصدا » * وتفضل باريس لندرة من حيث النظر لا من حيث الفائدة بكثرة العساكر فان فيها وفي ضواحيها نحو مائة وخمسين الفا فلا تزال تسمع منهم الموسيقى وتنظر منهم الملابس الحسنة وهي احسن من ملابس عسكر الانكليز . وقد جرت العادة بان يكون مع العساكر نسآء للخدمة يتبعنهم وهن متزديات بلباسهم * اما المعيشة فحيث كانت المطاعم عندهم كثيرة وكل ما يشتهونه من الماكول والمشروب يجدونه فيها لم يكن احد يتكلف الطبخ في بيته . اما اصحاب العيال الذين يكون لهم مطبخ ومحل للمونة في منازلهم فلا ينتابون تلك المطاعم الّا في الاعياد . وهي نظيفة للغاية واول ما يجلس المستطعم ياتيه الخادم بدفتر فيه اسمآء الطعام وبفوطة فيختار ما يشآ * اما في لندرة فحين يجلس احد في مطعم ياتيه الخادم ويصرخ في في اذنيه «شوآء لحم بقر» - «شواء ضان» - «كرنب» - «جزر» - «بطاطة» . وهنا تنتهي الفهرسة . ولا يقدم له فوطة . واي مطعم دخلت في باريس رايت فيه الرجال والنسآء والاولاد . ولابد من ان يوضع امام الآكل نبخات من الكبريت لاشعال السيكار واخلة لتنظيف اسنانه * والخاصة من اهل باريس ياكلون مرتين فقط الفطور او الغداء وهو في الساعة الحادية عشرة والغداء او العشآء في الخامسة . ويفطرون على شواء الضان والمحار . والعامة ياكلون ثلث مرات * اما طعامهم فانه وان كانوا يتفننون فيه كثيرا فلا يستطيبه الّا سَن الفه . وذلك لانهم يسلقون اللحم اشد السلق ليتخذوا منه نوعا من الرعديد ثم يطبخونه بالشحم بدل السمن فياتي مسيخا . وقد قلت في ذلك :

رب قوم يستمرئون طعاما * فيه شحم الخنزير والدم يهمي
وانا ان اكلت منه لماظا * بات شحم الخنزير ياكل شحمي

وفي الجملة فانه الذ من طعام الانكليز كما ستعرف ذلك في بابه . غير ان

الشواء عند الانكليز الذ منه عند الفرنسيس * وهناك طريقة اخرى للمعيشة وهي ان بعض الديار يصنعون مائدة عمومية يسمونها « تابل دوت » اي مائدة الضيوف فمن شاء ان ياكل فيها لزمه ان يذهب في ساعة معينة ولعلها ارخص من المطاعم العمومية واطيب . وثمن الغداء في هذه نحو فرنك ونصف وثمن العشاء نحو فرنكين . وهو يبتدي غالبا بالشوربة ويختتم بالمثقفة اي السلطة ثم بشيء من الحلو او الفاكهة . وفي البلفار مطاعم لا ينتابها الا الاغنياء والمسرفون فان ثمن العشاء فيها اربعون فرنكا او خمسون * اما القهوة فاذا دخلت محلها جاءك الخادم بكوب سميك كالذي يوكل فيه الشوربة وبسكر جزيل وصب القهوة بمراى منك ثم اتبعها بالحليب المسخن . وقد رايت كثيرا من ذوي السمت والرواء يضعون نصف السكر في الفنجان ويختبنون النصف الاخر * والمطاعم ومحال القهوة في هذه المدينة لا تحصى كثرة . وهناك محال للقهوة تغني فيه الرجال والنساء يدخلها الناس مجانا ولكن بشرط ان يشربوا شيئا يقوم عليهم قيمة شيئين * ومما يعجب منه في باريس الدكاكين التي يباع فيها المربيات والشراب وذلك لنظافتها وانوارها وربما كانت سقوفها من مرايا . وعندهم من اصناف المربيات والمربيات والمعجنات والحلويات ما يزيد على ما عند الانكليز عشرة اضعاف الا انهم مثل الانكليز في ان حلوياتهم جميعها معمولة بالسكر لا بالعسل * واعلم ان ارباب السياسة هنا يتعهدون صحة الرعية فيما يباع من الماكول والمشروب فلا يسمحون للباعة بان يبيعوا شيئا فاسدا او مضرا بالابدان او مغشوشا . وكان الخمر مستثناة من ذلك . فلهذا كان كل ما يوكل ويشرب هنا الذ واذكى مما يوجد بلندرة . بل البقول والفاكهة هنا اطيب والذ . فمن ذلك الخبز وهو الزم ما يكون للمعيشة فانه في غاية الطيبة وهو من محض الحنطة غير مخلوط بشيء من الشب او البطاطة كخبز الانكليز . وقد يصنعون منه شكلا في طول قامة الرجل . واللحم على ان الانكليز يدعون بان لحمهم الطيب . ويعجبني هنا نظافة دكاكين اللحامين فلا يمكن ان تشم منها رائحة كريهة بخلاف دكاكين لندرة . وهم يقفلون دكاكينهم قبل

ان يوقدوا الغاز فانهم يقولون انه يغير طعم اللحم . ومن ذلك الزبدة والجبن ومحار البحر على انواعه والزيت والخل والخردل واللبن . وقد يصنعون منه الرائب والقريشة كالموجود في بلادنا سواء . وكذا الصابون والشمع بل الكبريت وحطب الوقود هنا احسن مما يوجد بلندرة . وعندهم كثير من البقول والفواكه مما لا وجود له في تلك . فاما جعتهم فغير طيبة ولكن هم قلما يشربونها لاستغنائهم عنها بالخمر * اما الهواء فبرد باريس ولندرة صنوان غير انه لما كانت الديار كلها مبنية هنا من الحجر وكانت مواقدها غير صالحة لوقود الفحم المعدني كما مر كان البرد اشق وابلغ وزد على ذلك توالي الامطار شتاء وصيفا . وقد شاهدت جما غفيرا حضروا من باريس الى لندرة وسالتهم عن الهواء فكلهم اجاب بان المطر لم ينقطع مدة اقامته وكان فيها بلندرة صحوا إلّا ان الناس لا يشعرون في باريس بعنت المطر او الثلج لكثرة ما فيها من السقائف والمتنزهات ومحال القهوة مما يذهب بالكرب . اما في لندرة فلن يجد الانسان من ذلك مهربا إلّا في بيته وهذا حسب * وفي باريس عدة مواضع لا نظير لها في الدنيا باسرها . فان ابتدرتني لتقطع علي كلامي بان تقول « وهل رايت الدنيا كلها حتى تحكم بذلك » قلت اني لم ار الدنيا بل رايت محاريث عقول اهل الدنيا اعني اقلام المولفين ممن طوفوا وساحوا في مناكبها فكلهم حكم لهذه المواضع بالاحسنية والافضلية . احدها البلفار وهو طريق واسع طويل ممتد يحيط بباريس كالمنطقة للخصر كلا جانبيه محفوف بالشجر المتوازي الوضع وبالدكاكين الظريفة والديار الشاهقة ومواضع القهوة الانيقة الحافلة . فلا تزال ترى امامها الوفا من الكراسي يجلس عليها الرجال والنساء وهناك يقراون صحف الاخبار ويتفاوضون في ادارة المصالح والاشغال فهي عندهم بمقام المصر اي البورس وقد تكون حيطان المحل كلها مرآة وسقفه كسقوف الكنائس مزخرف منقوش . وفيها متكآت ومقاعد وموائد نفيسة ولا تزال غاصة بالناس الى نصف الليل . وقد يكون لها رواشن او مشربيات فيها مقاعد يرى الانسان منها جميع ما يمر في الطريق . واكثر الملاهي هناك من جملتها موضع للغنا

واللعب . وفي ختام اللعب تضعف انواره ويبرز في محرابه نسا لابسات بزا رفيعا على هيئة الجسم ولونه فيحسبهن الناظر عرايا ويبقين كذلك في اوضاع مختلفة من دون حركة فان برزت احداهن رافعة يدها بقيت كذلك الى ان تدور بهن المائدة التي برزن عليها دورتين ثم يسبل الحجاب وترجع الانوار ثم تضعف ويبرزن بهيئة اخرى . وذلك كله يدوم نحو ربع ساعة . ويقال لهذا المنظر « تابلو ڤيڤان » اي الصور الحية * واحسن محل في هذا البلڤار المحل الذي يقال له بلڤار الطليان فثم ترى النساء يخطرن بالديباج والاستبرق والشيلان الكشميرية والمخمل والخز الرفيع وهن متلعات شافنات والرجال رانين اليهن بافخر اللباس واحسن السمت وثم اظرف المحال للقهوة وفي طرف البلڤار عمود شاهق من المرمر في قنته تمثال ملك من نحاس واقف على كرة وهو يلمع في مقابلة الشمس له كانه ذهب ويقال للملك ملك الحرية وعلى العمود اسماء الذين قتلوا من كبار الامة في سجن باستيل مكتوبة بالذهب وتحته حوض يستقي منه وكان انشاء البلڤار في سنة ١٥٣٦ * الثاني الموضع الذي يقال له « بالي روايال » اي القصر الملوكي وانما سمي كذلك لمجاورته قصرا كان مقر الملوك وهو عبارة عن صفي دكاكين متقابلين فوقها منازل ومطاعم وحمامات ومحال للقهوة وبينهما اشجار وحوض ومقاعد ومماش للناس ففي الدكاكين ترى احسن الملبوس وانفس الحلي والتحف من المعادن والجواهر وهي وان كانت دون دكاكين البلڤار في الكبر الا ان حسن تنضيد ما فيها وبراعة ترصيفه وبهجة ذلك المكان يكسبها سعة في النظر ومن راى كثرة الجواهر والماس في هذا الموضع وفي غيره ايضا حكم بان اهل باريس اغنى من اهل لندرة الا ان الجوهريين من الانكليز لا يبرزون ما عندهم من الجواهر في صفحة الدكاكين وانما يخبئوها في خزانة فلهذا لا يكاد الناظر يرى عندهم من خارج الدكان غير الذهب والفضة . وفي تلك المطاعم جميع ما تشتهيه النفس فاذا قعدت للغداء رايت الرجال والنساء والاولاد يمرحون في تلك الروضة وصفة الحمامات صفة المطاعم وفي الروضة ايضا موضع قهوة عنده كراسي عديدة بعضها عند الحوض وبعضها

تحت الشجر وثم تضرب العسكر بآلات الطرب ثلث مرات في الاسبوع وطول هذه الحديقة سبعمائة قدم وعرضها ثلثمائة وكان انشأ هذا المحل البديع في سنة ١٦٢٩ * الثالث الموضع المسمى «شانزلزى» اي روضة الاصفيآ وهو غيضة طويلة ذات شطرين طولها الى حد الازج اكثر من ثمانمائة ذراع وعرضها في الاقل مائة وستون ولها مقاعد من خشب وكراسي طول جهتي الطريق وبين الشطرين طريق واسع لمرور الخيل والحوافل والعواجل ففي ايام الاعياد ترى هذا المرملان من تلك المراكب فان اهل الثروة يذهبون الى هناك متفاخرين بما فوقهم من اللباس وبما تحتهم من المركوب . وترى النسآء في العواجل المفتوحة متكئات كانماهن على نمارق وفوش والعجب والتيه يلمعان من جبنهن وكثيرا ما تراهن راكبات على هذه الصفة ودخان التبغ خارج من افواههن . ومن العجب ان اهل باريس يخرجون الى هذا الموضع والى «بوى دبولون» من جمعة الالام قصد المباهاة والمفاخرة فيما يلبسون ويركبون فهي عندهم موسم التانق والتظرف ومع ذلك فان الجزارين يتحرجون من بيع اللحم يوم الجمعة اما احتراما له او حيآء من الناس . وفي هذه الغيضة «جردان مابيل» وهو بستان بهيج تتناوبه الرجال والنسآء للرقص فيه خمسة آلاف نور وبستان الشتآء ولا يمكن ان يكون في العالم بستان اجمل منه على صغره فانه راموز الجنة وفيه عين فوارة يصعد المآء منها علو قامات . وفيها قصر للزهور وموضع واسع ترمح فيه الخيل وخيام لا تحصى يباع فيها الشراب والنقل والحلواء . وفيها زمر شتى كزمر باب الرميلة بمصر فمن بين مشعوذ ومغن وعازف ومحدث ومحنبش وغير ذلك . وفيها ثلث قبب مزخرفة ذات بهجة وانوار يجلس في كل منها ست نسآء او خمس من القيان الحسان ويغنين على آلات الطرب وهن كاشفات عن الصدور والاكتاف ولكن لا يكون ذلك إلّا في فصل الصيف فمَن شآء ان يقعد على كرسي ويسمع الغنآء لزمه ان يشرب شيئا من محل القهوة ودفع ثمنه ضعفين واذا انتقل من كرسي الى غيره وجب عليه تجديد الشرب ومَن وقف يستمع فلا تكليف عليه * وهناك من الحياض والتماثيل والملاعب

والملاهي والصروح والاعلام ما ينسى الغريب وطنه • وكان غرس هذه الغيضة في سنة ١٦٧٠ ويقال ان في باريس ثلثة عشر الف شجرة من غرس سنة الى عشر سنين وعشرة الاف شجرة من عشر سنين الى ثلثين سنة واكثر من اربع وثلثين الفا من ثلثين سنة فصاعدا وغالبها من شجر الميس * الرابع الساحة المسماة « بلاس دلاكنكورد » وهي بين الغيضة المذكورة وبين حديقة التولري يجوز الناس من هذه الى تلك ومن تلك الى هذه • وفي هذه الساحة حوضان كبيران وسع كل منهما خمسون قدما وفيهما تماثيل من نحاس تقذف بالمآء صعدا فيقع على شبه جرن عليه تماثيل اربعة اولاد وبطة يخرج المآء من افواهها فيلتقي كلا المآئيين وينحدران الى الحوض وبينهما عمود جلب من مصر عليه حروف باسان قدمآء مصر • قال غالنياني هذه المسلة انتزعت من موضع بمصر امام هيكل طيبس بمصر الذي بنى سنة ١٥٥٠ قبل الميلاد واسمها «لكسور» محرفة عن القصر وكانت احدى اثنتين جاد بهما محمد علي باشا على دولة فرنسا تذكارا لالفتهما ومودتهما • والثانية لم تزل في موضعها ولا بد من انها تجلب وقد انشي لنقل الاولى سفينة مخصوصة في طولون وذلك في سنة ١٨٣٠ وفي سنة ١٨٣٦ نصبت بحضرة الملك لويس فيليب وآله واهل المناصب وبحضرة مائة وخمسين الفا من الاهلين وفي مدة نقلها ونصبها لم يحدث ادنى خلل ولا اذى طولها اثنتان وسبعون قدما ووسعها من اسفلها سبع اقدام ومن اعلاها خمس اقدام وكسر وزنتها خمسمائة الف رطل وآخر ما صرف على تحسين هذه الساحة بلغ تسعمائة الف فرنك * وقال ءاخر انشئت هذه الساحة في سنة ١٧٥٤ ونصب فيها تمثال لويس الرابع عشر على جواد وعلى قاعدته تماثيل القدرة والحزم والعدل والسلم ولم تكد هذه الساحة تتم حتى حصل فيها نائبة عظيمة في يوم عرس لويس السادس عشر ملك فرنسا وهي هلاك مائة واثنين وثلثين نفسا في الزحام • وفيها اي في هذه الساحة قتل الملك المذكور وزوجته ماري انطوانت ومدام رولاند وشارلت كوردي وغيرهم • قلت كان لويس السادس عشر حفيد لويس الرابع عشر وتزوج بنت ملكة اوستريا المسماة ماريا تزازيا

واتهمه الفرنساوية بانه كان ذا ضلع عليهم مع النمسا فتحزب جمهورهم عليه وحكموا عليه بالقتل فلما جيء به الى مقتله قدم غير جزع ولا وجل وكلم الناس بصوت جهير قائلا: «الا يا ايها الفرنسيس اني اموت بريئا من الذنوب التي تجنيتم بها علي واني اسامح جميع اعدآءي واتضرع الى الله تعالى ان تكون فرنسا العزيزة علي» .... فما كاد يتم قوله هذا إلّا وصرخ رئيس اهل الفتنة ويعرف باسم «صانتر» بان تضرب الطبول ويضرب عنقه فلما صعد المكان الذي اعد لقتله ضج القسيسون وهم يصرخون «يا ابن مار لويس اصعد الى السماء» ثم بعد ان ضربت عنقه حملت جثته ودفنت في قبر مليء جيرا وجعل حرس عند قبره الى ان بليت بالمرة . وفي هذه الساحة نحو خمسة وعشرين عمودا لها قبب في اعلاها وهي مضلعة مذهبة ولكل منها جناح ينقل فانوسين مذهبين وهي تظهر للناظر في الليل كانها ابراج نجوم . وطول هذه الساحة مائتان وثمانية واربعون ميترا وعرضها مائة وتسعة وستون . فاما حديقة القصر السلطاني فلا يحكم لها بالفضل لسعتها وعظمها وان تكن انيقة زهية وانما لكونها مجتمعا للناس فتراها مشحونة بالكراسي والمقاعد ينتابها المتكيسون والمتكيسات عند العصر وخصوصا في الاعياد وفيها تماثيل عديدة ومحل ينال فيها الطعام والشراب . ولهذه الحديقة درابزين من حديد جلي يطيف بها رووس رماح مذهبة . وقيل ان الكراسي التي فيها مضمنة بمائة الف فرنك في العام . فاذا لم تقصد هذه الحديقة لتسرح ناظرك في محاسنها فذلك دليل على فساد مزاجك *

الخامس عمود نابوليون الاول صنع على مثال عمود تراجان في رومية من الف ومائتي مدفع من نحاس كان قد غنمها السلطان المشار اليه من عساكر النمسا والروس . وقد نقش خارجه بصور الوقائع التي انتصر فيها وصور آلات الحرب يصعد الناس الى اعلاه لروية المدينة في مائة وست وسبعين درجة . وفي قنته تمثال نابوليون طوله احدى عشر قدما وارتفاع العمود مائة وخمس وثلثون وزنته ثلثمائة وستون الف رطل . ويقال لهذه الساحة «بلاس فندوم» باسم دوك فندوم ابن الملك هنري الرابع لزينة بدي بها

في ايام لويس الرابع عشر . وفي يوم ميلاد نابوليون الواقع في الخامس عشر من آب تاتي الناس باكاليل من زهر ويضعونها على الدرابزين المطيف بالعمود تذكارا لمآثره . ولما دخلت عساكر الدول الاجنبية مدينة باريس كان من همهم بادي بدء ان يزيحوه فلم يقدروا . وكان من قبله تمثال من نحاس للويس الرابع عشر فازيح في سنة ١٧٩٢ . قيل وكان اعظم تمثال صنع فان زنته بلغت ستين الف رطل * السادس السقائف او المعابر المسماة « بالباساج » وهي اسواق مسقفة بالزجاج ومبلطة بالرخام وعلى كلا الجانبين دكاكين بهية متناسقة الوضع يوجد فيها للبيع اغرب التحف واعجب الطرف والغالب ان ما يباع فيها يكون اغلى مما يباع في غيرها . ومنها ما حيطانه مرصعة بالمرايا فيرى المار فيها شخصه ذات اليمين وذات الشمال . وفي زمن الشتآء تغص بالرجال والنسآء فهي ملطا لهم من المطر والبرد * السابع الغيضة المسماة « بوى دبولون » وهي عبارة عن ندحة من الارض واسعة ممتدة كلها شجر وحياض وفيها طرق رحيبة للعواجل يخرج اليها اهل الثروة والجمال في عواجلهم الفاخرة ولا سيما في الاحاد والاعياد والايام الثلثة التي مر ذكرها في جهة الالام . وفي هذه الغيضة حلت عساكر الانكليز عند فشل نابوليون . واعلم ان الغيضة في مفهوم الفرنساوية هي الارض التي تكون اشجارها متماسة الرووس بحيث انك اذا جلست تحتها وقتك من المطر والشمس . فاما عند الانكليز فهي قطعة من الارض يكون فيها شجرات معدودات ومرج تمرح فيه الماشية * فاما ما في باريس من الصروح الفاخرة والمباني السنية فمما لا يعد ولا يحصى ولكني اذكر منها اشهرها فمن ذلك القصر المسمى « باللوفر » وهو منقسم الى عدة اقسام . الاول للتصاوير وهو يشتمل على الف واربعمائة وست صور من صنع اهل ايطاليا واسبانيا وفرنسا وهناك محل آخر يحوي اربعمائة وستا واربعين تصويرة من صنع مصوري اسبانيا خاصة . ومن تلك التصاوير ما يبلغ طوله اكثر من عشر اذرع ومنه ما هو بديع الصفة حتى لا يمكن للناظر ان يكف عن الرنو اليه وجميع سقوف هذه المحال مزخرفة منقوشة . ونرى هناك كثيرا

من الرجال والنسآء يصورون عن بعض الصور المشهورة . وقسمه بخطواتي فكان طوله نحو سبعمائة وثمانين خطوة معتدلة وقست ما يشبهه بلندرة فلم يزد على مائتي خطوة ولم ار هناك إلّا مصورة واحدة . القسم الثاني للرسم وهو يشتمل على الف ومائتين وثمانية وتسعين رسما . الثالث للاشيآء العادية وهو يشتمل على الف ومائة تمثال وصنم . الرابع للتماثيل الحديثة . الخامس المنقوشات . السادس للادوات الحربية كالسفن والمدافع وترى كل سفينة موضوعة في بيت من زجاج على مائدة من خشب نفيس وهناك صور مدن وقلاع بارزة مجسمة . السابع للدراهم . الثامن متحف لبدائع مصر . التاسع متحف الاثوريين . العاشر متحف لبدائع اميركا . الحادي عشر متحف لبدائع الجزائر . ورايت من جملة تلك الغرائب ملابس الملوك وسلاحهم من جملتها عدة اردية مطرزة وغير مطرزة كان يلبسها نابوليون الاكبر وسروج خيله منها سرجان عربيان كان يركب عليهما بمصر . ومن ذلك كتاب في الهندسة كان يطالع فيه دائما وهو بلا جلد وادوات كان يستصحبها في اسفاره . ومن جملة هذه الغرائب ايضا سيف كان لشارلمان وطست غريب الصنعة جيء به من بلاد المسلمين . وكان هذا الموضع في الزمن السابق مقرا لهنري الرابع المشهور بحسن السياسة والتدبير وقبل ان ولي الملك كان على دين البروتستانط فلما رءاه اهل باريس انه يصلح الملك لمآثره الجليلة وانه لا يقوم باعبآء الملك غيره اختاروا توليته بشرط ان يدين بدين الكنيسة الرومانية فاجابهم الى ذلك وقال « لعمري ان باريس تساوي قداسا » . ومع كونه كان بمنزلة والد لاهل فرنسا اجمعين وفي ايامه نسم الناس الراحة ورغد العيش لم يعدم من تصدى لقتله . وكانت ولادة هنري الرابع في سنة ١٥٥٣ ووفاته في سنة ١٦١٠ . وخلفه في الملك ابنه لويس الثالث عشر . وهذا القصر كان دائما منفردا عن قصر الملك المسمى بقصر التولري وكان في عزم الملك لويس فيليب ان يصله به فلم يتهيا له الى ان قام نابوليون الثالث فجعلهما متصلين * قال في معجم الاوقات هذا الصرح الشهير كان مقرا للملك داغوبرت في سنة ٦٢٨ وفي عهد فرنسيس الاول وضع اساس المحل الذي

يقال له الان اللوفر القديم وذلك في سنة ١٥٢٢ وفيه وضع احسن ما امكن
جمعه من الصور والتماثيل وتحف الصنائع المعروفة في الدنيا وجلها جلب
من ايطاليا حين كان نابوليون مستوليا عليها ولكن رد منها كثير على اهله *
ومن ذلك قصر التولري وتفصيل ما فيه يغني عنه قولنا انه مقر لسلاطين
فرنسا وانه فيه سرر مرفوعة واكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي
مبثوثة ومبلطه كله من خشب الجوز المحكم الصنعة والالصاق بنته كاثارين
دمديسي واتمه لويس الرابع عشر ثم سكنه لويس السادس عشر في
سنة ١٧٨٧ وفي سنة ١٧٩٢ اقتحمه الناس والسلاح بايديهم ليقدموا عرضا
للملك وهم على اهبة الفتنة فافضى الامر اخيرا الى ان قضوا عليه بالقتل
كما مر. ثم تبوأه نابوليون قبل ان لقب سلطانا وبعده ايضا ثم عائلة
البربون ولما كان لويس العاشر قارا فيه هجم الناس عليه وغلبوا على عساكره
والجاوه الى النفي وذلك في سنة ١٨٣٠ . وفي سنة ١٨٤٠ هجموا فيه على
لويس فيليب والجاوه الى الفرار فلحق باسلافه . وهو آخر من ملك من
البربون ودام ملكه ثماني عشرة سنة . وقرات في بعض الاخبار انه لما هجم
الناس عليه وجدوا في نفق دهليز القصر المذكور خمسة وثمانين الف زجاجة
مملوة من الخمر الفاخر * ومن ذلك قصر « لوكسمبور » بني في سنة ١٥٩٤ وهو
وان لم يكن بناؤه بديع الصنعة الا انه متين مهندم . وكان مقرا للويس
الثامن عشر ثم جعل في زمن الفتنة سجنا ثم جعله نابوليون مجلسا خاصا
وهو الان كذلك ويحضره السلطان بنفسه . وعنده حديقة عظيمة ينتابها
اهل تلك الناحية وهي اكبر من حديقة السلطان . وفي طرفه رصد الكواكب
بني في سنة ١٦٦٧ وحديقة صغيرة تجتمع فيها الرجال والنسآء في الصيف
للرقص . وهذا الموضع وان يكن عاما الا انه يعرف بمحل طلبة العلم ولاجلهم
يباح فيه للنسآء ان يتخلصن ويتفككن في الرقص وفي غيره يحضرهن الشرطة .
ومن ذلك « هوتل دوفيل » انشئ في سنة ١٦٠٥ على عهد هنري الرابع ولكن لم
تكمل محاسنه كما هو الان الا في سنة ١٨٣٦ . ومن ذلك قصر « كاي درصي »
كان لويس العاشر يريد ان يجعله معرضا لبدائع الصنائع وكان نابوليون

يريد ان يجعله مقرا لسفرآء الدول وهو الآن ديوان المحسابات ولم يتم بناؤه قبل سنة ١٨٣٥ وبلغت نفقته اكثر من اثنى عشر مليون فرنك وبجنبه قصر آخر بني في عهد لويس الخامس عشر وهو من ابهج قصور باريس * ومن ذلك مجلس المشورة العام ابتدي به سنة ١٧٢٢ وكان اول ما نهب في دولة البوربون . ثم جعل مجلسا لنواب الاقاليم وعدتهم خمسمائة . وفي سنة ١٨٢٩ عرض لان يباع بخمسة ملايين ونصف . وجملة ما صرف عليه الى غاية سنة ١٨٤٠ بلغت اربعة وعشرين مليونا ومائتين وثلثة واربعين الفا وثلثمائة واثنين وتسعين فرنكا * ومن ذلك القصر المعروف بقصر الصنائع الظريفة والمحكمة الكبرى بني منها قسم من عهد صان لويس ثم زيد فيها مباني كثيرة حتى صارت من احسن ما يرنى اليه طولها مائتان وست عشرة قدما وعرضها ثماني وعشرون . ودار مجتمع العلمآء ويقال له « الانستتيو » اسسه الكردينال مازارين ووقف عليه مكتبة عظيمة ورزقا يبلغ في كل عام خمسة واربعين الفا . وهولاء العلمآء هم الذين ينقحون كتب اللغة والنحو وينكرون المرذول من الكلام ويثبتون الفصيح فان للفرنساوية اعتنآء عظيما بفن الادب بخلاف الانكليز . ومن ذلك دار السكة اتم انشآوها في سنة ١٧٧١ وهي تحوي اثنى عشر دولابا زنة كل منها ثمانون الف رطل وتضرب في كل دقيقة ستين دينارا وثمانين ريالا . وفيها دنانير من عهد جميع ملوك فرنسا وفيها ايضا يطبع على المصوغات من الفضة والذهب * ومن ذلك قصر في « شانزلزي » بني في سنة ١٧١٨ وكان مقرا لسيدة من عائلة البوربون ثم سكنه نابوليون * ومن ذلك المصر اي مجتمع التجار طوله احدى وسبعون ذراعا في عرض تسع واربعين او مائتان واثنتا عشرة قدما في عرض مائة وستة وعشرين يحيط به ستة وستون عمودا ونصف سقفه من بلور وهو مقبب وصحنه كله مبلط بالرخام يسع الفي رجل بدئ به سنة ١٨٠٨ وبلغت نفقته ثمانية ملايين ومائة وتسعة واربعين الف فرنك وهو من المباني البديعة * قال مولف فرنساوي وله من داخله روشن ينتابه الناس ليشاهدوا منه التجار الذين يجتمعون في الساعة الثانية بعد الظهر للتعاقد والتبايع فاذا سمعهم احد ظن

انه يبين نمور تهمهم * ومن ذلك المصرف اي البنك وانشي في سنة ١٨٠٣
قيمة ما فيه من الكواغد التي بالف فرنك وبخمسمائة مائتان واربعة وثلثون
مليونا . والحاصل في خزينته مائتان ثمانية وعشرون مليونا . وكان راس
المال الذي وضع فيه اول انشائه خمسة واربعين مليونا * قلت لم تتداول
الكواغد التي قيمتها اقل من ذلك القدر إلّا بعد الفتنة وقرات في بعض
الاخبار في هذه السنة ان المخزون في البنك بلغ اثني عشر مليونا وتسعمائة
وثمانين الفا وسبعمائة وخمسين فرنكا . والكواغد المتداولة خمسمائة وخمسة
وثلثين مليونا وستمائة وثلثة وتسعين الفا وستمائة فرنك * ومن الازاج العظيمة
الازج الذي يقال له « ارك دتريونف » اي قنطرة النصر او الظفر صور
عليه الوقائع التي انتصر فيها نابوليون وبلغت نفقته تسعة ملايين وسبعمائة
وثلثة وعشرين الفا واربعمائة فرنك وفرنكين . وءاخر امام قصر الملك من
جهة اللوفر بلغت نفقته مليونا واربعمائة الف . وفي البلفار وغيره ءآزاج
كثيرة اضربنا عن ذكرها * ومن الكنائس العظيمة كنيسة « نوطر دام » اي
سيدتنا وقد مر ذكرها طولها ثلثمائة وتسعون قدما وعرضها مائة واربعة واربعون
وارتفاعها مائة وقدمان وعلو صومعتها مائتان واربع فيها ارغن ارتفاعه خمسة
واربعون قدما وعرضه ست وثلثون يشتمل على ثلثة ءالاف واربعمائة
واربعة وثمانين قصبة . وهي ام كنائس باريس وفيها تتوج الملوك . واول
حجر جعل في اساسها وضعه البابا اسكندر الثالث في سنة ١١٦٣ ولم يتم
انشآوها إلّا بعد ثلثة قرون * ومن ذلك كنيسة « لامدلين » اي المجدلانية
وهي كنيسة ذات بهجة ورونق وصنع بديع داخلها مزخرف بالنقش
والعمد من المرمر النفيس ومبلطها من الرخام وسطحها من حديد ونحاس
طولها مائة ذراع وعرضها اثنتان واربعون ويحيط بها اثنان وخمسون عمودا
ويصعد الى بابها في ثلثين درجة . وكان في عزم نابوليون ان يسميها هيكل
الفخر تذكارا لفخر فرنسا وان يصور على اعمدتها جميع الذين حاربوا معه
من الابطال المظفرين ولذلك بنيت على شبه هياكل اليونانيين ولم يبق
نقاش ولا مصور في المدينة إلّا واشتغل بها . وقال ءاخر اول حجر وضع في

اساسها وضعه لويس الخامس عشر . وكان في قصد نابوليون ان يخصصها للعسكر ولم تتم الا في ايام لويس فيليب وهو الذي خصها بمريم المجدلانية بعد ان كان الناس يظنون انها تخصص لجوبيتر * ومن ذلك الكنيسة التي يقال لها « البنثيون » بنيت في سنة ١٧٦٤ على اسم صانت جينيفيف ثم جعلت مدفنا لمشاهير الفرنساوية في العلم او الحرب وفيها دفن ڤلتيير وجان جاك روسو وغيرهما ثم حولت كنيسة في داخلها مائة وثلثون عمودا وبخارجها نحو من ذلك وبلغت مصاريف نقش قبتها مائة الف فرنك ورقي ناقشها الى مرتبة بارون ودورتها اثنتان وستون قدما ودورة الكنيسة كلها ثلثة آلاف ومائتان وست وخمسون قدما مربعة وطولها مائتان وثمان وثمانون * ومن ذلك كنيسة « صان صلبيس » وهي في حارة النبلاء يقال ان كراسيها مضمنة بستين الف فرنك في العام بنيت في سنة ١٦٤٦ ولها صومعة عالية جدا * ومن ذلك كنيسة « نوطر دام دلوريت » بلغت نفقتها مليونين وخمسين الف فرنك ووظيفة قسيسها في السنة ثلثون الف فرنك وقس الباقي على ما ذكرنا * واهل باريس يذهبون الى الكنائس صباحا وفي المسآء الى الملاهي وهو عند الانكليز من اعجب العجب * ومن المواضع المشهورة المقصودة مارستان السقط (١٠٧) بني في ايام لويس الرابع عشر وهو يحوي ستة آلاف نفر ما بين مرضى وخدمة وتخدم فيه خمس وعشرون راهبة ويسع عشرة آلاف نفس وهو مخصوص بالعساكر وكل من قضى في الخدمة العسكرية ثلاثين سنة فله حق ان يدخله وظيفة مديره اربعون الف فرنك ويعين لمن فيه في كل يوم رطل من اللحم وليتر من الخمر طول حديقته الف واربعمائة واربعون قدما وعرضها سبعمائة وثمانون وعنده مدافع غنمها الفرنساوية من بروسيا والجزائر وعنابة وطول المارستان ستمائة واثنتا عشرة قدما وفيه مكتبة نفيسة وكنيسة طويلة نصب على مشرفتها جميع الرايات التي اخذها نابوليون من جيوش الدول التي انتصر عليها احسبها تبلغ المائتين ومن جملتها عدة رايات من عساكر المسلمين . قال وكان في الكنيسة اربعة آلاف راية وسيف لفريدرك الكبير فلما دخلت عساكر الدول المتفقة الى باريس

صدر امر من وزير الحرب عن لسان يوسف بونا بارته بان تحرق الرايات ويكسر السيف فخشي المامورون تبعة ذلك فلم يحرقوها الّا بعد ان راجعوه في امرها ثلث مرات . قال وفي هذه الكنيسة دفن نابوليون وامراء عسكره ووضع على قبره تاجه ونيشانه وسيفه وصرف في القبر مليون ونصف . قلت لا يخفى ان نابوليون لم يمت في باريس بل مات في جزيرة صانت هيلان غير ان دولة فرنسا في ايام لويس فيليب استاذنت دولة الانكليز في نقل جثته من هناك فاجابت الى ذلك فارسل الملك ابنه في بارجة اسمها « بل بول » ونقلوا جثته اليها وذلك في السادس عشر من اكطوبر سنة ١٨٤٠ وفي الخامس عشر من دسمبر دفنوها في كنيسة هذا المارستان بغاية ما يكون من الاحترام والاحتفال مما لم يشاهد مثله في فرنسا قط . وحضر جنازته مليون من الخلق ومائة وخمسون الفا من العسكر والملك وءاله وجميع الامرآ والنبلاء والعظمآ مع ان جميع اقارب نابوليون كانوا غيابا فمنهم مَن كان منفيا ومنهم مَن كان مسجونا . وكانت ولادة نابوليون في الخامس عشر من اغوسط سنة ١٧٦٩ وقد صار هذا اليوم عيدا تتخذه الدولة في كل سنة . وكانت وفاة نابوليون في الخامس من شهر ماي سنة ١٨٢١ في تلك الجزيرة ولم يخلف الا ولدا ولد له في سنة ١٨١١ ولقب اولا « ملك رومية » وفي سنة ١٨١٥ لقب امبراطورا باسم نابوليون الثاني مع انه لم يكن وقتئذ في فرنسا لانه نقل في الحادثة التي وقعت قبلها الى بلاد اوستريا وبقي هناك الى ان مات وذلك في ١٨٣٢ . والفرنساوية يحجون الى قبر نابوليون كحج المسلمين الى الكعبة * ومن ذلك بستان النباتات تنبت فيه جميع النباتات وتحفظ فيه سائر الحيوانات وهو يشتمل على عدة مواضع : الاول للنبات فيه بيوت من زجاج لتنبيت ما لا ينبت في البلاد الباردة . الثاني مشرفيات فيها اشيآء عديدة تعين على علم حياة الحيوان المسمى عند الافرنج تاريخ الطبيعيات . الثالث مشرفية للتشريح . الرابع مربض الحيوانات ومحل مونتها . الخامس مكتبة تشتمل على كتب في تاريخ الطبيعيات . السادس محل يلقى فيه التدريس في العلوم يسع عشرة آلاف ومائتي شخص . وجملة

انواع النبات التي في البستان اثنى عشر الف نوع والتي في المشرقية خمسة آلاف . وعدد الطيور ستة آلاف . وعدد السمك خمسة آلاف . وعدد الاعضآء للتشريح خمسة عشر الفا . وجلة النباتات المجففة المحفوظة خمسة وثلثون الفا . ومن الشجر والحب اكثر من اربعة آلاف . ولما دخلت عساكر الدول الاجنبية باريس كان من هم الدولة ان تحميه من غوائلهم فبقي مصونا الّا ان كثيرا مما جلب اليه من البلاد الخارجية رد على اصحابه وفيه شجرة من ارز لبنان اهداها طبيب انكليزي اسمه «غرلنصون» الى الدولة . وقد رايت فيه عظام حيوانات عادية طول الواحد منها نحو عشر اذرع وجثة سمكة — وكانها هي الذي يقال له بلغتنا الجمل — طولها من الراس الى الذنب نحو خمس وعشرين ذراعا وفي ظهرها سبع واربعون فقرة كل واحدة كانها رفش ولها ثلث عشرة ضلعا عند راسها كانها ترائبها طول كل ضلع نحو اربع اذرع من كل جانب وراسها نحو قارب وفي فكها الاسفل من كلا طرفيه ثلث وعشرون سنا قدر كل سن كالموزة * وغاية الكلام ان باريس تنفضل لندرة في المباني والمطاعم والمتنزهات ومحال العلم فهي معدن العلوم واللذات ولذلك ترى الوفا من عيال الانكليز الاغنيآء ياتونها مستوطنين وما احد من اغنيآء الفرنساوية يذهب الى لندرة ليتخذها له وطنا وانما يذهب اليها اهل الحرف والصنائع تحصيلا لمعيشتهم * ومن مواسم الحظ والفرج عندهم ثلثة ايام في المرفع وهي التي يسمونها الكرنيفال وقد ذكرناها في الكلام على مالطة فلا ينبغي اعادتها وانما نقول هنا انه في هذه الليالي يدومون في المراقص حتى الصباح وفي يوم خميس السكارى يطوفون بثور مسمن وامامه طائفة الجزارين بلباس السخرية ويغطون الثور بثوب مزركش وعلى راسه اكليل من الزهر . وكانت العادة سابقا ان يقعد على ظهره ولد يسمونه ملك الجزارين ويمسك باحدى يديه سيفا وبالاخرى صولجانا واما الان فانه يقعد في نحو محفة ويتبع الثور بلا سيف ولا صولجان * ومن ذلك عيد راس السنة وهي ثلثة ايام ترى فيها جانبي البلقار مشمولا بالخيام لبيع التحف والطرف التي يتهادي بها . وترى ايضا غيضة شانزلزي

مشحونة بظلال وقبب واخبية فيها جميع انواع الطرب والشعوذة والرقص على الحبال . وترى من بدائع المصنوعات والمخلوقات ما لا تراه في المملكة كلها وقد رايت مرة امراة جميلة ذات لحية وشوارب وعلى قفاها وذراعيها من الشعر ما لم يكن على رجل . وكانها هي التي ذكرها صاحب المعجم حيث قال ارسلت امراة الى باريس لها لحية كثيفة وجميع بدنها مغشى بالشعر . قال وقد علم ان نسآء كثيرة لهن شوارب ولحى وشعر مسترسل على اكتافهن وسواعدهن من جملتهن امراة اتي بها الى حضرة بطرس الاكبر وكانت لحيتها نحو ذراع ونصف . وفي الخامس عشر من اغوسط تصنع الدولة عيدا حافلا يحتشد اليه مئات الوف لروية الانوار وشعب البارود . وفي الجملة فان ايام باريس كلها مواسم واعياد وان ليلها ابهج من نهارها * هذا وعلى قدر ما في باريس من المحاسن الفائقة والارنآء الشائقة فان ضواحيها ابهى واشهى فمن ذلك « صان كلو » وهو على بعد نصف ساعة من باريس فيه قصر يصيف فيه السلطان وغيضة غضة انيقة دورتها اربعة فراسخ . وهذا القصر كان اشتراه لويس الرابع عشر وسكنه نابليون الاول وشارلس العاشر بني في سنة ١٥٧٢ واثاثه اجد من اثاث قصر « فرصاي » وفي الغيضة مياه خرارة ولعلها هي الشلالات * وبالقرب منه قصر فرصاي الذي كان مقرا للويس الرابع عشر وهو يشتمل على تصاوير بديعة لا نظير لها من جملتها صور جميع ملوك الافرنج ممن مات منهم ومن هو حي وصور وقائع نابوليون وصور سائر الملوك والسلاطين . وفي الشقة التي كان يسكنها الملك تحف غريبة كان يستمتع بها هو وءاله وسرير فراشه وهو نحو صيغة . وفيه ملهى كان اذا امر الملك باجراء التمثيل فيه ينور بعشرة ءالاف شمعة ويصرف ءليه في تلك الليلة مائة الف فرنك . وفي القصر ديوان فسيح كان يجتمع فيه رجال دولته ولم يكد مع رحبه يسعهم . وبعد ان تنقضي فرجة الناس من القصر وذلك نحو الساعة الرابعة تطلق مياه الغيضة صعدا وتضرب ءالات الطرب فيقعد الناس على الكراسي للسماع والنظر وهو منظر مسحر فان الحديقة ناضرة زاهية والعيون غزيرة . ووسع الغيضة الكبرى عشرون فرسخا وقد انفق على حوض

فيها مليون ونصف . فاما جملة ما انفق في بنآء القصر وفرشه وفي الغيضة فقد اختلفت الاقوال والذي صح انه بلغ نحو اربعين مليون ليرة انكليزية فاما بلد ڤرصاي فانه كان قبل الفتنة عامرا فكان اهله مائة الف نفس والان ليس فيه اكثر من ثلثين الفا . ومن ذلك صان جرمان وهو على بعد خمس فراسخ من باريس او سفر ساعة في سكة الحديد . وهي بلدة مشهورة من القديم لها غيضة فسيحة ناضرة في ربوة من الارض يسرح الناظر منها في مدى مديد كله خضرة ما بين كروم وبساتين وغياض ورياض وقصور واعلام حتى يود لو يرى في جملتها صخرا من صخور مالطة . وفي هذه البلدة قصر كان في الاصل مقرا لفرنسيس الاول وكان هنري الرابع يستطيب المقام فيه وكذا لويس الثالث عشر والرابع عشر . وفيه اقام جامس الثاني ملك الانكليز ديوانه اثنتي عشرة سنة ثم صار في زمن الفتنة محلا للعساكر ثم جعل الان سجنا لهم . وهذه المواضع يقصدها اهل باريس في ايام الاحاد والاعياد في ارتال لها مقاعد في سطوحها مكشوفة فترى وانت في رتل منها عدة ارتال سابقة ولاحقة . ولا يمكن استيفآء الكلام على هذه المحاسن من دون رويتها عيانا . وكل ما تراه في باريس وضواحيها من المحسنات والمنتزهات فانما تم بعناية صاحب الملك لا بعناية جماعات على حدتها كما هي العادة في لندرة فان الملك هنا لا يغفل شيئا مما يوول الى ابهة الملك وشرف المدينة ورونقها . واذا علم مثلا ان في بعض الشوارع ديارا قديمة متهدمة اشتراها من اصحابها من دون غبن وجدد بناءها . وفي ايام سلطانها الان هدمت حارة كبيرة برمتها ثم بني في مواضعها ديار حسنة شاهقة تضاهي ديار البلقار * فاما في لندرة فان جميع الانشآءات والتنظيمات موكولة الى جماعات من الاهلين وليس على الدولة الا ضرب المكس والطسق وتجهيز الجيوس * اما ملابس اهل باريس فانها في الجملة وضيئة فاخرة واكثر انواع الثياب التي تباع عند البزازين ولاسيما الحرير احسن مما يوجد بلندرة الا الكتان . فاما الملابس المخيطة فليس لعمري من مناسبة بين ما يباع هنا وما يباع في لندرة . فان من يشتري ثوبا مخيطا في هذه يلزمه

ان يستاجر معه خياطا ليصلحه له في كل يوم . ولاهل باريس تدلس زائد في اشيآء كثيرة مما لا يعبا به الانكليز الا ان نسآءها اللواتي يغشن من كد أيديهن يلبسن احذية كاحذية الرجال وذلك منكر في لندرة واذا خرجن في الاسواق خرجن من دون برنيطة ولا شال وهو ايضا من المنكر عند الانكليز . وللاكتفآء عن البرنيطة سببان الاول الزهو والعجب فانهن يعرضن شعورهن واعناقهن للرنو والتعجب والثاني غلاء سعرها حيث كانت اجرة اللاي يصنعنها كثيرة . فان صناع باريس تكسب اكثر من صناع لندرة وبعكس ذلك الرجال وهاتان الصفتان من المنكر ايضا عند نسآء لندرة . ولنسآء الفرنسيس نظافة زائدة على الملبوس والمفروش فكل ما كان لونه البياض يبقى كذلك الى ان يبلى ولكن ليس لهن من الطهارة نصيب . ولهن ايضا عناية بليغة بتنضيص اثاث البيت وبهن تليق الاعمال وفي الواقع فانهن ازكن والقن من سائر نسآء الافرنج . وما من امراة في باريس الا وتعرف شيئا من المداواة . ومن طبعهن التبكير في القيام وتنظيف مراقدهن بخلاف نسآء لندرة فان الغالب عليهن الكسل والتواني والاضحاء في النوم . ولهن ايضا حرص على تربية اولادهن وتنظيفهن فلا تكاد ترى في اسواق المدينة اطفالا يمشون وحدهم او يطوفون في الليل ويعرضون انفسهم لخطر العجلات وسائر المراكب كما ترى في لندرة وهن اللاى يتولين الدخل والخرج فلا يمكن لاحد ان يشترى شيئا من الماكول والمشروب ما عدا الخمر إلّا من ايديهن وان تكن بعولتهن حاضرة * ولهن مزية مشهورة بين الناس في النطق بالمغيبات كما يزعمون واذا استنطقت واحدة منهن لزمك ان تعطيها عشرة فرنكات ولم اسمع عن نسآء لندرة هذه الدعوى الشائعة عن نسآء باريس *

حكاية * وقد اتفق لي مرة ان سرقت لي كراريس من كتاب الفته وعزمت على عدم افشآئه فقلقت لذلك كل القلق ثم رد علي بعضها من لندرة فاخذني الذهول . فلما اطلعت بعض اصحابي على ذلك قال لي عليك « بالسدمبول » فذهبت معه الى واحدة من اعرفهن وكان هو ايضا يريد ان يسالها عن حاجة مهمة له وتبعنا آخر لم يكن له مارب سوى الامتحان

فقط فلما سالناها حضرت امراة اخرى وجلست بين يديها وامسكت يدها اليمنى ثم جعلت فيها كرة صغيرة من بلور وجعلت تحدق النظر في المراة وبعد عدة دقائق غمضت المسئولة عينيها ثم تنفست الصعداء واشارت الينا بالجلوس وعيناها مطبقتان فناولتها قطعة من الورق واخبرتها بما جرى من السرقة فشمتها وقالت « هذه القطعة ارسلت اليك من بلاد بعيدة مع اوراق اخرى يخالف لون بعضها بعضا واصل شرائها كان من تلك البلاد » قلت نعم ولكن اريد ان اعرف من سرقها قالت « اين كان مسكنك حين سرقت » قلت في روبلانش قالت « نعم في الطبقة الثالثة وقد سرقها رجل كان كثير التردداد عليك » قلت من هو وكيف هو قالت « ليس هو بفرنساوي بل غريب مثلك » قلت ما زيه قالت « ليس كزينا ولا كزيك وانما يلبس رداء طويلا » قلت ما سنه قالت « في حد الثلاثين » قلت بل اكثر من ذلك بثماني سنين ففكرت هنيهة ثم قالت « لست اراه إلّا كما قلت لك » فكانت صادقة في كل ما قالت إلّا في السن ويمكن ان يقال ان ذلك الشخص لم يكن يظن فيه ناظره انه جاوز الثلاثين . ويقال ان هولاء المنبئات انما ينبئن كما يضمره السائل فاني كنت اضمرت شخصا كان على تلك الصفة وكان يتردد علي كثيرا وجزمت بانه هو الذي فعل الفعلة . ثم تنصتت لحس معدتي فقالت « ان هذا الشخص الذي سرق الورق صديق لمطران حاول مرة ان يسمك باطلاع ثلثة رجال معه » ثم اني وضعت بيدها خصلة شعر من شعر امراة وكانت وقتئذ مريضة بداء الخفقان وقد قاست من الاوجاع والاطباء ما يطول شرحه فاخذت الشعر وشمته وقالت « هذا شعر امراة مريضة واصل مرضها في المعدة والقلب وقد مس هذا الشعر امراة اخرى » قلت صدقت ولكن لا اعلم ان امراة اخرى مسته قالت « بلى قد لمسته وان صاحبته صارت عرضة للاسقاط والولادة تسع مرات وهي ذات نشاط وحدة فاذا غضبت تخرج عن المعقول ويخشى عليها من اللمم فينبغي ان تداريها وتحوطها وتستعمل لها العلاج الفلاني » . ثم سالها صاحبي القلق بعد ان ناولها اثرا من المسئول عنه فقالت له « انك تقيم في باريس سنتين بعد ثم تسافر

الى بلادك وكذا وقع له . اما الثالث فانه سالها عما في جيبه فقالت له ورق قال على اي شيء يشتمل قالت « انا لا احسن القراءة حتى انبئك بما اشتملت عليه » قال منذ كم قدمت الى باريس وما اشبه ذلك قالت « قد استحوذ علي صداع » ولم نتجاوبه باكثر من ذلك وخرجنا من عندها وهي على تلك الحالة . ثم انى لما رجعت اخبرت المريضة بما وقع فقالت اما الشعر فقد لمسته الخادمة واما الاسقاط والولادة فكما قالت . ويقال انه حين يكثر السؤال على المسئولة تضعف قوتها ويخدر ادراكها . ثم انه لما كانت هذه الحرفة مضادة للديانة وللطب كان القسيسون والاطبآء اشد الناس مقاومة لها . ولقد عجبت كيف ان الدولة تسوغ معاطاتها ان لم تكن حقا فانا اذا اعتقدنا بصدق ما تقوله هولاء النسآء لم يكن بينهن وبين الانبيآء من فرق الّا ان نقول ان انباءهن غير وارد في الالهيات وان يكن تدجيلا وتمويها فلم لم تمنعهن من غبن الناس واختلاس اموالهم وتحكم بخروجهن من الجماعة اخذا بنص التوراة . على ان بعض المتفلسفين في باريس يدعون ايضا بان في الانسان خاصية او جاذبية تسري منه حتى الى الجماد فينفعل بها فضلا عن تاثيره في انسان نظيره وعلى ذلك شاعت الاخبار بان الموائد تميد بلمس عدة رجال لها وان الكراسي تمشي والسكاكين ترقص الى غير ذلك . والذي يخطر لي على قدر ما ادركه انه كان ينبغي امتحان هولاء النسآء وبعد ذلك اما ان يحظرن او يقررن على صنعتهن . وقيل انهن امتحن فوجدن صادقات في امور كثيرة حتى لم يمكن حظرهن وانه انما رخص لهن في التنبيء رجآء ان تظهر وسيلة اخرى لانتقال هذه الحرفة حيث لم يستبعد ذلك على تمادي الزمن . اما ما قيل عن بوسكو فلم ار من شعوذاته ما يصدق كلام الناس فيه فان كل ما صنعه امام الناس لم يصنعه الّا بادوات . وقد شاع عن روبرت هودن انه كان عنده زجاجة وكان يسال الناس اي شراب يبغون منها فكان كل يقترح عليه شيئا فيسقيهم كلهم منها . ثم رايت هذه القناني تباع بثمن غال ولا ادري شانها والله اعلم * اما اخلاق الفرنساوية فالكلام عليها يستغرق زمنا طويلا لان الطبيعة البشرية فيهم

لحمتها من نوع وسداها من نوع . اما اولا فلان سحنهم وبنية اجسامهم متفاوتة جدا فاهل جنوب فرنسا سمر كاهل البلاد الحارة واهل شماليها بيض شقر . والثاني ان ما يظهر منهم للغريب اولا انما هو الانس وحسن المعاشرة فاذا راى ذلك منهم اول وهلة ظن انهم يزدادون من موانسته والفته وان هذا الانس لابد وان يتبعه كرم وصداقة . ويزيد تعجبه من ذلك على الخصوص ما اذا واجههم على هذه الصفة المستحبة بعد مفارقته الانكليز على حالة الانقباض والعبوس ولكن هيهات فان انيسك منهم اليوم اذا رءآك غدا ظننت ان ملاقاتكما انما كانت حلما وعلى فرض استمرار الالفة بينك وبينه فلا يدعوك الى منزله ولا يعرفك باهله * ومن ذلك ان اهل البلاد الباردة كباريس وغيرها تراهم اخف حركة واحفد الى الاشغال من اهل البلاد الحارة او المعتدلة كمرسيلية ونحوها فان الناس هنا لا حركة لهم ولا نبض فمن قدم اليها من باريس وراى بلادة اهلها عجب كل العجب . فاين هم من اهل مالطة الذين يبادرون الى العمل بادنى اشارة . ومن ذلك ان كثيرا منهم ولاسيما اهل باريس يعيشون مع النساء عيش المتعة وياتي لهم بنون وبنات وهم على هذه الحالة ولا يتزوجونهن زواجا شرعيا فكيف يحب الرجل امراة ولا يتزوجها لاسيما وقد ولدت له اولادا ورنبهم * وزواجهم الشرعي هو الذي يعقد في الديوان لا في الكنيسة ومنهم من يعقده في كلا الموضعين وهم المتدينون العابدون * ومن ذلك انهم مائلون بالطبع الى حب النساء ومخالطتهن ومداراتهن ومع ذلك فانهم يدعونهن يعانين الاعمال الشاقة ليكسبن بعض شيء ويمكن هنا ان يقال ان نساءهم مائلات بالطبع الى حب الكسب وليست الراحة عندهن الا بتحصيل المال * ومن هذا القبيل ان الرجال من فرط عشقهم يقتلون انفسهم ويرتكبون اقصى الاخطار لارضائهن ومع ذلك فليسوا يقيمون على ودادهن فتبديلهن عندهم اهون من تبديل اللباس * ومع اعتقادهم بان نساءهم اكيس النساء واظرفهن واحذقهن جميعا فلا يانفون من زواج الحبشيات وغيرهن * ومن ذلك انك ترى ادباءهم وكيسيهم ابدا يترددون على الملاهي والملاعب ليسمعوا فيها ويروا ما سمعوه

وراوه مرارا وانت خبير بان في هذه المواضع يكرر تمثيل الحوادث كثيرا اذ لا يمكن اختراع شيء حديث في كل ليلة ومهما يكن الشيء الممثل بديعا فاذا اعيد زالت طلاوته . ومن ذلك انك لا تزال ترى الخاصة منهم والعامة يتمشون في الحدائق والغياض ومواضع الفرج والغناء حتى تظن ان اهل باريس كلهم سباهلة لا شغل لهم ولا عمل . ومع ذلك فهم يتانقون في المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش فلا ادري في وقت من الاوقات يكسبون المال * ومن ذلك ان لهم عناية بتربية اولادهم اكثر من الانكليز اذ لا يغادرونهم وحدهم في الشوارع والطرق عرضة للاخطار او يهملون تعليمهم حرفة من الحرف تغنيهم عن المكث في المارستان او عن الطر والاختلاس في المسالك كما هي العادة في لندرة غالبا . ومع هذا فانهم عقب ولادتهم يبعثونهم الى الريف ليتربوا عند المراضع والانكليز على خلاف ذلك . ومنها انهم على بلادهم وجنسيتهم اغير من الرجل على امراته فلا يسلمون بان في الدنيا بلادا تشبه بلادهم او جيلا يضارعهم ومع ذلك فانهم يسافرون عنها لغير موجب وحيثما ساروا بثوا وسائل التمدن والعلوم وجادوا بما خصهم الله به من البراعة والحكمة على من لبثوا بينهم وربما كانوا لهم اعداء . لعمري اني ارى طريقة سلطان الصين في منعه مخالطة رعيته بغيرهم اولى اوليس ان الدولة حين تنصب الحرب لدولة اخرى تمنع اخراج كل ما يتعلق بالمهمات الحربية من بلادها الى بلاد تلك الدولة فاي الخارجين انفع لها وافضل الرجل ام الاداة . ومن ذلك انهم حين يكونون متغربين في بلاد الناس يختلطون بهم ويجانسونهم ويخالقونهم حتى يصيروا كانهم منهم واذا تغرب احد بينهم لم يختلطوا به فغاية ما يخصونه به من الاكرام انما هو ان يسالوه من اين قدمت واين تقصد وكيف اعجبتك باريس . ومن ذلك انهم لا يزالون ينقرون عن الحقائق ويودون لو يعلمون كل امر من فصه . وقد حذقوا كل علم وبرعوا في كل فن ومع ذلك فقد غرب عنهم اهم الحقائق وهو ضرورة وجود الدين لكل من السائد والمسود والرئيس والمرؤوس ولو سلم لهم بان الكيسى واهل المعارف والادب غنيون عنه بما فطروا عليه من

حسن الاخلاق او حسنوا به املاءهم من مطالعة الكتب لم نسلم بان الرعاع الذين هم الجمهور الاعظم في كل البلاد غير مفتقرين الى دين يردعهم عن الشرور والمعاصي ويحثهم على فعل الخيرات ولولا ذلك لاكل القوي الضعيف فان قلت كيف ياكله والحكم من ورائه قلت ليس في كل الامور يمكن استحضار الحكم او الاستغاثة به الا ترى انه اذا اجتمع مثلا اثنان في مكان خال وبطش القوي منهما بالضعيف افيكون لصاحب الحكم عين باصرة او اذن سامعة للقصاص فكم من قضية جرت بين الناس وفاتت اجتهاد اهل السياسة والايالة . ولكن اذا كان الناس يستحضرون خالقهم في السر والعلن ويخافون عقابه ويرجون ثوابه كان لهم بذلك اعظم رادع ووازع فاتصاف امة بعدم الدين من اعظم ما يهين شرفها ويخفض قدرها . ومن ذلك انه لم يزل دابهم تغيير الحكومة وتبديل السياسة واربابها ولم يخطر ببالهم قط ان يغيروا هذا الاسلوب السمج الشنيع الذي يجري في عبارات اهل السياسة والاحكام منهم فان فيه من التكرار والمواربة والحشو ما يشهد عليهم امام الله والناس فانهم لا ذوق لهم ولا المام بشيء من الادب . ومن ذلك انهم ينكرون على اهل اللغات المشرقية وخصوصا اللغة العربية كثرة الاستعارات والكنايات مع ان لغتهم تطفح بهما طفحا ولولاهما لضاقت بهم العبارة عن تادية اكثر المعاني وسياتي الكلام على ذلك بالتفصيل . وانما اقول هنا اني لما اردت ان اترجم من قصيدتي التي مدحت بها السلطان نابوليون قولي *

ولا تخلل وقت تواني عسدة * له وانجازها بل قلها سئلا

قال المصحح ان ذلك لا يكون مفهوما بلغتهم ولو جاء بهذه الاستعارة احد مؤلفيهم لحسبت من البلاغة بمكان . ومن طبعهم في التاليف والكلام ان ينتقوا الالفاظ الجزلة الفخمة يكسون بها سخيف المعاني فتسمع منهم قرقعة ولا ترى طحنا وهذا داء فاش فيهم اجمعين . ومن ذلك ان نساء عامة الفرنسيس مع زهوهن واعجابهن اذ الزهو صفة عامة لجميع اناث هذا الجيل تراهن يتعاطين من الاعمال الخسيسة ما تانف منه اخس نساء الانكليز وذلك كتكنيس الطرق وعمل الاعمال وتنظيف الاحذية وصيد السمك والمناظرة

على المراحيض ونحو ذلك ومع ذلك فلا بد من ان تخاطب كل واحدة من هولاء الخسيسات المبتذلات بلفظة « مادام » فاما السيدات المترفات من هذا الجيل فالعزة لله الواحد القهار فان ما نقص من مترفية سادة الانكليز وجلالهم ومجدهم تلقاه فيهن تاما وافيا فهن نسآء صورة وشكلا ورجال امرا ونهيا وحيث قد استوفيت الكلام عليهن في كتاب الفارياق فلا حاجة الى اعادته وانما اقول هنا انهن لا يعترفن بفضل الرجل على المراة فانهن يقلن ان الله تعالى لم يختص الرجل بمزية إلّا وعوض المراة عنها باخرى فجعل بين ذلك توازنا حتى تستتب الالفة والوفاق بينهما فمما اختص به الرجل القوة والشدة ليمكنه تحمل المشاق في تحصيل اسباب معيشته فعوض المراة عنها بالصبر والتجلد لمصالح بيتها وتربية اولادها واختص الرجل ببسطة الجسم والمهابة فعوض المراة عنها بفتنة الحسن والروع فمهما يكن الرجل متسرعا الى السوء تردعه عنه من نظرات المراة دوارع واختص الرجل بطول النظر والفكر في العواقب فعوض المراة عنه بالبديهة العتيدة وبسرعة الجواب المقنع واختص الرجل بالشهامة وعزة النفس فعوض المراة عنه بالتصاون والحياء وهكذا *

ويحكى عن احدى الخواتين انها استاجرت مقعدا في بعض الملاهي حيث اريد اجراء التمثيلة المعروفة « بالبروفات » اي الـبي وكان الناس يتزاحمون الى رويتها لانها كانت اول ليلة فاتفق ان مرض زوجها بغتة فاقبل اليها بعض اصحابها ليبدوا لها التاسف على حرمانها من الذهاب وهي في خلال ذلك تتاوه وتفرك يديها ثم قالت ان هذا المخلوق لم يات في عمره كله إلّا ما يغيظني وسترون الان انه يموت عمدا ليحرمني من الخروج الى الملهى . اه • وفي الجملة فان كل ما تفعله احدى هولاء الخواتين فانه يعجبها واهلها وجيرتها واهل المملكة اجمعين * ولا شيء يعجبني من احوالهم كمعرفتهم لاحوال غيرهم فان هولاء الذين يخرقون على الانكليز وينالون من مالهم لو لبثوا بين الفرنسيس سنين لما اكتسبوا بمخاريقهم خرقة تستر عورتهم او رغيفا يفثا من جوعهم * واعلم ان امة الفرنسيس امة قديمة مشهورة مشهود لها بالفضل والتقدم في المعارف والمساعي العظيمة حتى ان

اهل المشرق اطلقوا اسمهم اعني الافرنج على سائر سكان اوربا وكما ان بلادهم ولاسيما باريس لم تزل مقصدا للناس في الكياسة والحضارة كذلك ما برحت الممالك المشرقية متنابا لهم ولم تكن دولة من دول الافرنج قبل استعمال سفن النار تذكر بالنسبة اليهم . نعم ان الانكليز اشتهروا في الهند منذ اكثر من قرنين إلّا انهم لم يكونوا يجولون في بلادنا ولم يكن يرد اليها منهم غير القناصل ولكن لم تكد خاصية البخار تعرف عند الكيماويين حتى ملات سفائنهم البحار وامتعتهم وبضاعتهم جميع الحوانيت والاسواق وحينئذ عرف انهم ذووا كد واجتهاد فادركوا من تقدمهم في متقادم الزمن . وقد جرت العادة بان سكان الجزر ابدا يكونون ناشطين الى التجارة والاسفار ضرورة انهم لا يستغنون عن البرور الفسيحة إلّا ان الانكليز لا يتطبعون بطباع اهل البلاد التي ينتابونها ولا يتساهلون فيما يجدونه هناك من الاحوال المغايرة لاحوالهم والمباينة لطباعهم بخلاف الفرنساوية فان بلاد الله كلها لهم بلاد والذي زاد هولاء ايضا شهرة ونباهة هو نبغ اناس منهم تفردوا في عصرهم بمآثر ومزايا لم يشاركهم فيها جيل آخر . فمنهم شارلمان في العز والسطوة فانه دانت لعزه ايطاليا وجرمانيا وكان فيصلا عند جميع ملوك اوربا قيل انه كان سعيدا كاغوسطوس ومقداما في الحرب كادريانوس وهو اول من انشا مشيخة للعلوم في باريس وكان هو من جملة اعضائها كان مولده سنة ٧٤٢ . ومنهم لويس الرابع عشر في المجد والكرم كان في شهرته بالغرب نظير هارون الرشيد في الشرق ولد في سنة ١٦٣٨ وفي دولته نبغ كثير من العلمآء والادبآء والفضلاء وذلك كفينيلون مولف تاليماك خطب في الكنائس وهو ابن خمس عشر سنة ولد في سنة ١٦٥١ وكبوسوى الشهير في التاريخ والفصاحة ولد في سنة ١٦٢٧ ومولييير الشاعر البارع ولد في ١٦٢٢ وبوالو وهو ايضا من الشعراء المفلقين ولد في سنة ١٦٣٦ وراسين وهو بمنزلة شكسبير عند الانكليز ولد في سنة ١٦٣٩ ولافونتين وهو وان لم يحظ عند الملك إلّا انه كان من الفضل والعلم بالمكان الاعلى ولد في سنة ١٦٢١ والامير كوندى جعل قائد الجيش وهو ابن اثنتين وعشرين سنة وقهر جيوش اسبانيا والنمسا وهولاندة ولد في

سنة ١٦٢١ ونبغ من قبله هنرى الرابع الشهير في التدبير والايالة وقد مر ذكره ولد في سنة ١٥٥٣ . ومنهم ڤلتير في العلوم ولاسيما في التاريخ والادب وسعة الاطلاع والعبارة ولد في سنة ١٦٩٤ . وڤانتي في التاريخ والادب ايضا ولد في سنة ١٧٥٧ وبوفون في الطبيعيات ولد في سنة ١٥٩٦ وذكرا في الفلسفة ولد في سنة ١٧٤٩ ودولامبير في الهندسة . ولد في سنة ١٠٧) ومونتسكيو في الفلسفة والادب عموم والمعارف ولد في سنة ١٦٨٩ . ونابوليون الاول وناهيك باسمه واصفا على ان الانكليز الان يتنافسون في كل شيء يقال فيه انه فرنساوي فاذا اردت التجار منهم ترويج شيء من سلعهم كتبوا عليه فرنساوي وكذلك اصحاب الملاهي يكتبون في اعلامهم ان ما دام كذا تاعب الليلة في الملهي وموسيو كذا يحكي كذا وما تكون هلة المدام او هذا الموسيو الا منهم وفيهم ولا تكاد ترى شيئا في باريس مروجا باسم الانكليز . ويمكن ان يقال انه لم تستتب في الدنيا واقعة خطيرة الا وكان للفرنسيس فيها يد فانهم هم كانوا سبب الحرب المعروفة بالصليبية في عهد السلطان صلاح الدين . وذلك ان بعض ضباط العساكر الفرنساوية المسمى ببطرس الارميت اي الناسك كان قد سافر الى الارض المقدسة في سنة ١٠٩٣ . واجتمع ببطرك اورشليم فشكا اليه البطرك ما تقاسيه النصارى هناك من جور المسلمين فلما فصل عن المكان اصحبه بكتاب الى البابا اوربان الثاني فجرده البابا لان يطوف على النصارى ويحرضهم على القتال فاخذت بقوله وهاجوا لارسال الجيوش . ثم قام من بعده راهب من بريتاني اسمه ارلوان ثم صان لويس . الا ولولاهم لم تستقل دولة اميركا بامورها كما تراها الان وتفصيله ان دولة الانكليز كانت قد كلفت المستوطنين في اميركا من المكس والضرائب ما لم يكونوا يعهدونه وكان الحامل للدولة على ذلك ما ركبها من الدين بسبب الحروب التي تقدمت ذلك كما يرد تفصيله . فلما بلغت الاوامر الى بستان او بستون تعصب اهلها على ان لا يدفعوا شيئا مما لم تجر به العادة ثم عقدوا مجلسا عاما وراسوا عليهم جورج واشنطون وفوضوا اليه التدبير والامر . وفي سنة ١٧٧٦ شهروا انفصالهم عن الانكليز وبعثوا بنيامين فرنكلين الى ديوان فرنسا ليعرض

ما استقر عليه راي القوم واستنجدوا بالملك لويس السادس عشر فارسل لهم اثنتي عشرة بارجة من طولون فتوجهت البوارج الى رود وهي جزيرة كانت تدخر الانكليز فيها جهاز الحرب فما كادت تصل الى هناك حتى ثارت عليها الرياح العواصف فبادت عن آخرها . ثم ذهب من فرنسا لاعانة الاميركانيين كثير ممن شهروا بالبسالة والنجدة اشهرهم لافايت . وكان قد بلغ من العمر عشرين سنة لا غير فلما وصل الى هناك حظي عند واشنطون حظوة عظيمة ووقتئذ انفقت دولة فرنسا مع دولة اسبانيا بعد ما كان بينهما من التنافر على اعانة الاميركانيين . ثم امدهم الجنرال روشامو بستة الاف من العسكر لاستخلاص جزيرة رود . ثم استخلصوا ايضا مدينة يورك واستاسروا من الانكليز ثمانية الاف وعندها تم انعقاد الهدنة بين الدول وجرى تحريرها في باريس سنة ١٧٨٢ . انتهى ملخصا من فلتير . قلت ثم اضطرمت الحرب بين الانكليز والفرنساوية فقام الاميركانيون مقام من لا ضلع له مع احد الفريقين ثم اشتعلت ايضا بين الانكليز والاميركانيين وذلك في سنة ١٨١٢ فلم تنته الّا بعد ثلث سنين . قال في معجم الاوقات اصل حروب فرنسا التي تغلغلت فيها الانكليز نحو مائتي سنة نشا عن امراء نورماندي وهم ملوك الانكليز فانهم كانوا يضبطون هذا الاقليم كانه وقف لتاج فرنسا حتى فتح وليم الاول انكلتيرة فصارت هذه الولاية ملحقة بها ولكنها انسلخت عنها في عهد الملك يوحنا وذلك في سنة ١٢٠٤ * قال وقد تعددت حروبنا مع الفرنساوية وانتصرنا عليهم نصرات متعددة . وفي عهد هنري الرابع طرد الانكليز من فرنسا وبعد ان خرجت من يدهم بقيت الحروب تعاقب المهادنة والمهادنة تعاقب الحروب مددا طويلة فجملة ما وقع من الحروب بيننا وبينهم ثماني عشرة حربا وقد قضت الانكليز ستا وخمسين سنة في الحرب واثنتين وستين في السلم وصرفوا في حرب سنة ١٦٨٨ ستة وثلثين مليونا . وفي حرب اسبانيا اثنين وستين مليونا . وفي الحرب الثانية معهم اربعة وخمسين مليونا وفي الحرب التي دامت سبع سنين مائة واثني عشر مليونا وفي حرب اميريكا مائة وستة وثلثين مليونا وفي حرب فتنة الفرنساوية اربعمائة واربعة وستين مليونا وفي حرب نابوليون الفا ومائة

وتسعة وخمسين مليونا فتكون جملة المصاريف في مدة مائة وسبع وعشرين سنة وذلك من وقت الفتنة التي جرت في سنة ١٦٨٨ الى آخر مدة نابوليون في سنة ١٨١٥ الفين وثلثة وعشرين مليونا . وقد حسب بعضهم عدد القتلى من الفرنساوية في ست وقائع جرت بينهم و بين عسكر اسبانيا فكانت ستمائة الف ومثلها من اهل اسبانيا وممن كان يتحزب لهم و بقيت اقطار البلاد عرضة للتخريب والمصائب من كل وجه . قلت وقد بلغت مصاريف حرب الهند في هذه الايام الاخيرة تسعة ملايين ونصف مليون * اما نابوليون الاول فانه دان له اكثر ممالك اوربا فقهر بروسيا والروسية والسويد حين تواطاوا مع الانكليز على حربه. ودخل مملكة بروسيا منصورا مظفرا فاجتمعت عليه دول الروسية واوستريا و بروسيا وغيرهم ثم عنوا لطاعته في مدينة درسد وكانت هذه خامس مرة تواطات فيها الدول على خلعه. ثم لم تمض برهة حتى حشد جيشا عظيما وتوجه بهم الى الروسية فلم يجد ممانعا له حتى بلغ مدينة المسكو. فلما اشرف عليها هو وجنده تعجبوا من كثرة ما فيها من الكنائس والقبب المذهبة اذ كان فيها نحو ثمانمائة كنيسة فيها الوف من الاجراس فقال عند رويته ذلك « هذه مدينة المسكوب ثمرة تعبكم وجهادكم من زمن طويل وهي تكون خاتمة مساعيكم واتعابكم » . ثم انهم دخلوها فوجدوها خالية على عروشها فان سلطانها كان قد اخلاها خدعة فظن نابوليون ان نصرته تحققت وان سلطانه قد استتب فلبث فيها اياما ثم لم يشعر ذات يوم إلا والنار تضطرم في اطرافها فاحرقته من ذلك الفشل فاضطر الى اخلائها ولحق به جيش الروس وما كاد يتخلص منهم إلا بعد اخطار شاقة . فلما رجع الى باريس راى اهل الشورى قد تغيرت خواطرهم عليه فاضطر الى ان يخلع نفسه وسار الى جزيرة الالب فخلفه في الملك لويس الثامن عشر لكنه ابدى من سوء التدبير ما امال خاطر بعض رجال الدولة الى نابوليون فجرت بينهم المكاتبة والمراسلة ثم لم يشعر الناس بعد مدة إلا وهو يجول في البلاد و يحرض حزبه على قتال العدو وجعل يعدهم و يمنيهم فمالت قلوب الناس اليه فما برح سائرا حتى دخل باريس ففرحت به رجال الدولة وفر منه لويس

ثم انه جمع جيشا عظيما وتوجه لقتال الانكليز و بروسيا عند فلوروس فانتصر على جيش بروسيا فقتل منهم اثنين وعشرين الفا إلَّا ان عساكر اعدائه كانت اكثر عددا من عساكره باضعاف ثم زحف الى قتال الانكليز عند واطرلو وكاد ان يظفر بهم لولا ان تداركتهم جيوش بروسيا فاحدقوا بعساكره فلم يطيقوا الثبوت ويومئذ تقطعت به اسباب الامال فجعل يتلقى رصاص البنادق والمدافع وهو كاشف صدوره ومع ذلك فلم ينله ضير فرجع منكسر الخاطر مهيض الجناح فحكم اهل الشورى بخلعه فعرض عليهم ان يقاتل العدو في رتبة امير لواء فابوا فصمم على ان يسير الى اميركا حتى اذا سار بشرذمة من حزبه الى رشفورت وكانت سفن الانكليز تطوف هناك امسكوه وتوجهوا به الى جزيرة صانت هيلان وهناك قضى نحبه . اما اتحاد بروسيا مع الانكليز فكان سببه ان نابوليون كان يريد ان يعطي مملكة هنوفر للانكليز في مقابلة صقلية فهاجت حمية ملك بروسيا على نابوليون وبلغ من غيظ زوجته انها كانت تركب وتدور في شوارع المدينة وتحرض الناس على القتال وهي مترديه بلباس الجند ووقتئذ تواطات الدولتان ودولتا الروسية على نابوليون إلَّا انه غلب الجميع حيث دخل قاعدة مملكة بروسيا منصورا مظفرا كما تقدم فاما تواطؤ سائر الدول عليه فانما كان خوفا منه ان يستولي على ممالكهم اذ كان لا يرده شيء عما نواه ووقتئذ سولت دولة الانكليز لملك الدنيمارق ان يواطئها عليه فابى فارسلت بوارجها الى كبونهاغ فاطلقت النيران عليها فهدمت منها ثلثمائة دار واستولت على بوارجها وكانت ثلثا وخمسين بارجة انتهى ملخصا من ڤلتير . ومن ابطال نابوليون المشاهير مورو الذي قهر سلطان النمسا وبدد عساكره حتى اضطر الى طلب المهادنة فاجابه بشرط ان تنفصل دولة النمسا عن دولة الانكليز فانهما كانتا متواطئتين على فرنسا . وسياتي ايضا ذكر نابوليون عند ذكر الامير نلسون الانكليزي وغيره في وصف لندرة . وممن تفرد في البسالة والحماسة من هذا الجيل اي الفرنسيس جان دارك الشهيرة وكانت في الاصل خادمة في بعض الحانات وكانت تركب الخيل بلا سرج لجراءتها وقوتها وتدعي انها تقدر على استخلاص فرنسا من يد

الانكليز . فاحضرت بين يدي دوك دورليان في برج ثم بعد ان علم انها بكر وانه كان يوحى اليها فوض اليها ان تقود جيشا وتسير بهم لاستخلاص اورليان وكانت حينئذ تحت حصار الانكليز فلما بلغت البلد القت خطابا بليغا على من معها من الجيش وحرضتهم على قتال الانكليز فاخذتهم الحمية والحماسة وتقدمتهم الى القتال وبيدها راية فلم تمض ساعات حتى هزمت جيش الانكليز واستنقذت البلدة . قال في ابجدية الاوقات لما كانت الانكليز محاصرين اورليان زعمت جان دارك بان الله اوحى اليها ان تطردهم منها فقلدها شارلس الثامن تدبير الجيش فسارت بهم الى الموضع المذكور وذلك في سنة ١٤٢٩ وضايقتهم حتى اضطرتهم الى ترك الحصار واستردت منهم عدة مدن كانت تحت يدهم وهزمتهم في واقعة باتي المشهورة ولم يكن احد يجد فيها محلا للوم والقذف فانها جرحت عدة مرار ولم تسفك دم احد بيدها ولما انتصرت على الانكليز في الواقعة المذكورة دخل الملك اورليان بسمت الظفر تتوج فحضرت جان دارك تتويجه وهي ممسكة بسيف الملك وعليها لباس الكماة . قال ثم استاسرها الانكليز في حصار كومبان في سنة ١٤٣١ ولخزيهم حكموا عليها بانها ساحرة . فاحرقوها بعد خمسة ايام في روان وهي بنت تسع وعشرين سنة وقيل اثنتين وعشرين . وكانت عادتهم ان يقتلوا المتهمين بالسحر والشعوذة ففي مدة مائتي سنة احرقوا ثلثين الفا من جملتهم « جان دارك » هذه الجميلة الباسلة . وفي سنة ١٨٥١ نصب لها تمثال في اورليان بامر السيدة ماريا . اه . — قصة جان دارك ومن غريب ما حكي عن هذه الفتاة على وجه الاسهاب فضلا عما تقدم ما عثرت عليه في تاريخ بلاد الانكليز ونصه : ان جان دارك لما كانت ذات يوم تماشي اباها في البستان وكان سنها حينئذ خمس سنين ابصرت حولها نورا ساطعا فالتفتت فرات صورة الملك ميخائيل فاشار اليها ان تكون ملبية ومطيعة لما تندب اليه ولما يجب عليها وان الله تعالى يكون لها واقيا ونصيرا . فلما علم ابوها بذلك وكان رجلا شرسا اخذ يعاملها بالعنف والقسوة حتى اضطرت الى مفارقته ودخلت في خدمة امراة ارملة صاحبة فندق . فابدت هناك من صدق

السعي والاقدام على الاعمال ما فطرت عليه فكانت تسافر في قضآء حاجات سيدتها من دون خوف وتركب الخيل وتفعل كل ما تومر به مع غاية ما يكون من العفة . قال العلم سريس كان على طلعتها سيمآء الحيآء ولمحة من الجمال واللطف واللين مع العزيمة والمضآء وكان كلامها رشيدا والصلاح قرين اعمالها كلها . قال الراوي الاول ثم انها رجعت الى ابيها بعد خمس سنين واستانفت رعاية الماشية الى ان بلغت ثماني عشرة سنة وكانت امور فرنسا اذ ذاك على شفا جرف هار من البوار والخراب وكانت الفتاة تسمع بما اصاب اهل بلادها من الذل وملكهم من الهزيمة والفشل وفي غضون ذلك وقعت حرب ما بين الفرنسيس والانكليز عند فرنوى فبلغها ما لحق معارفها من البوس والانكسار فاثر فيها الحزن والاسف كثيرا فصارت تبصر روى وتسمع اصواتا علوية اكثر مما كانت ترى وتسمع من قبل الى ان ارجف الناس بان الانكليز استولوا على اورليان بعد محاصرتهم لها . قال فابصرت حينئذ الملك ميخائيل والقديستين كاثرينا ومرغاريت وهم يحرضونها على ان تخصص نفسها لاستخلاص بلادها من الانكليز فقالت اني فلاحة مسكينة ولا دراية لي بهذه الامور الخطيرة فحقق لها الملك بان الله يوتيها قدرة وحكمة ودراية وان القديستين المذكورتين تصاحبانها اينما سارت وان كل شيء يتم على وفق المراد وكانت البنت تذكر رواية جرت عند الناس مجرى النبوة وهي ان خراب فرنسا كما انه نشا عن امراة شريرة وهي ايزابلا من باڤاريا كذلك يكون خلاص البلاد على يد بنت بريئة سالمة من العيوب وانها تاتي من جهة بواشسنوا . قال ثم كثر ورود الاصوات عليها وحثها اياها على الشروع في العمل اذ كادت امور فرنسا تختل بالكلية وافادتها بانها هي تلك البنت المعنية فاستحوذ عليها الكرب والكآبة وكانت كثيرا ما ترى باكية عند احتجاب الرويا عنها . وكان ابوها وامها يسخران منها ويكذبانها ولهذا ارادا ان يزوجاها منعا لها من الخروج مع الجند فاعرضت عن عرضهما وقالت لهما اني نذرت بكارتي لله تعالى . واتفق وقتئذ ان جماعة من الانكليز مروا بقريتها فنهبوا القرية واحرقوا الكنيسة ففرت مع والديها ثم لما رجعوا ورات ما حل بالقرية اشتد

غيظها وهاج جاشها فامرتها الاصوات بان تذهب الى بعض ولاة ذلك الصقع وتطلب منه ان يوصلها الى الملك فاذا مثلت بين يديه تخبره بانها قد بعثت لكف حصار اورليان ولتتويج الملك في مدينة رام وانها ان لم تفعل ما امرت به تعدم خلاص نفسها . فقصدت واليا وطلبت مواجهته فابى ثم ما زالت تلح حتى اذن لها فلما دخلت عليه ازدرى بها وامر خالها بان يعيدها من حيث جاءت بعد ان تجلد تاديبا لها فقالت له على رسلك ايها الامير ان هذا عمل سيدي ولابد من انجازه قال ومن سيدك قالت رب السماء فايقن بانها مجنونة ثم صرفها فلبثت في تلك الجهة متعبدة ثم جعلت تقول ان الاصوات تلح عليها بالعمل فشاع خبرها في البلد فكان الناس يهرعون الى مشاهدتها ويتعجبون من تقواها وحسن سيرتها فسمع بها احد الامراء وكان به مرض فاستدعى بها لتشفيه فارسلت تقول له ان الاصوات لم تذكر لي اسمك ولم تبعثني اليك . قال وفي جميع هذه الاحوال كانت مالكة هوى نفسها وكانت اقوالها وافعالها على حد سوى فلم تكن تبدي شيئا يخل بها وكان ذهنها يزداد صفاء ونوقدا فعرض عليها احد الرهبان ان يعضدها بامراة زعم انها فعلت امورا خارقة للعادة فقالت له لا حاجة لي بها . ثم انها صممت على المسير الى الملك وقالت على سماع الناس ما احد يغيث ملك فرنسا إلّا انا على اني لو خيرت في امري لاخترت المقام بداري ابي والغزل بازاء امي ولكني قد كلفت هذا الامر فلابد لي من المسير الى الملك ماشية . فالح الناس على الوالي بان يجيبها الى مطلوبها فاحضرها لديه وامر قسيسا بان ينضح عليها الماء ويختبرها فلما فعل القسيس ذلك وثبت له انها ليست ساحرة اخفرها الوالي بنفر من اعوانه فسافرت من عنده في شهر شباط من سنة ١٤٢٩ وكان الملك عن ذلك الموضع مسافة مائة وخمسين فرسخا في اقطار مشحونة بالحرس والخفراء من الانكليز ومحفوفة بالاهوال والمخاوف فركبت الجواد في زي فارس وتقلدت السيف وسكنت من قلوب السائرين معها فجابوا تلك النواحي من دون ان يصادفوا احدا من الانكليز فلما اشرفت على مقر الملك ارسلت من تخبره بقدومها فلما سمع بذلك اندفع في الضحك

مع انه كان وقتئذ في حالة يصدق عليها قول من قال انه يتعلق بحبال الهواء . ثم تشاور وزراء الملك في امرها ثلثة ايام فبعضهم سخر منها وبعضهم اشار بلقائها والملك متوهم لا يدري باي الرايين ياخذ الى ان قر الراي اخيرا على ان يقابلها فتزي بزي رجل من العامة والبس احد خواصه ثيابه اختبارا لها فلما اذن لها في الدخول خرقت صفوف الحشم والتبع حتى وصلت اليه وجثت بين يديه قائلة ملاك الله بالعمر الطويل ايها الملك الحليم فقال لها لست انا الملك وانما هو ذاك واشار الى لابس ثيابه فقالت باسم الملك العليم ليس الملك الا انت انا جان العذراء ارسلني الله اليك لاغيثك واخلص المملكة وعن امره ابين لك انك تلبس التاج في رام فانفرد بها الملك ناحية وبعد ان خاطبها هنيهة قال لوزرائه لعمري لقد اطلعتني على امور لم يكن احد يعرفها الا الله تعالى والا انا . اني اول من صدق بان الله بعثها لانقاذ المملكة (وفي رواية فلتير ان الملك سالها عما جرى بينه وبين محبوبته في الليلة البارحة ولعل ذلك تهكم منه على عادته) قال الراوي ثم رآها الناس في الغد على جواد وهي تركضه وقد اعتقلت رمحا وابدت من الفروسة ما حير الناظرين فهتفوا استحسانا لها وتعجبا منها وكانت مهفهفة القوام ولها شعر فاحم مسترسل على كتفيها غير ان الملك خامره الريب في امرها فامر جماعة من الاطباء والعارفين بالالهيات بان يمتحنوها بالمسائل فالقوا عليها مسائل مشكلة وحاولوا ان يعرقلوها بالكلام ثلثة اسابيع فلم يجد ذلك نفعا فانها اصرت على قولها الاول وهو انما ارسلت لكف حصار اورليان ولتتويج الملك في رام ولم تزد على هذا شيئا فاقترحوا عليها آية مصداقا على ما قالت فقالت ارسلوني مع جيش الى اورليان تعلموا صدق قولي فاستصوبوا كلامها ونصحوها بالماء فبرزت وهي متكمية بالسلاح وقد لبست زي الفرسان واخذت الرمح بيدها ورايتها امامها وكان اهل اورليان قد سمعوا بخبرها وهم في غاية الكرب والبوس فطلبوا من الملك ان يرسلها لاغاثتهم في جيش . ثم طلبت ان تعطى سيفا زعمت انه في قبر في كنيسة القديسة كاترينا التي مر ذكرها فبحث عنه واخرج وسلم لها فتقلدته وسارت مع جماعة من اعيان فرنسا الى المعسكر

فلما بلغته امرت بطرد النسآء المريبات منه وامرت الرجال بالتقوى والتوكل على الله ثم سارت بالجيش الى اورليان وسار صيتها بين يديها وكانت تامر وتنهي على مقتضى امر الاصوات . واتفق مرة انها امرت الجيش بالزحف على البلد من جهة يمين الشط ثم ركبت في فلك بقصد تلك الجهة غير ان احد الضباط الذين كانوا يكذبونها اخذ جهة اليسار فثارت عليهم ريح عاصفة احوجتهم الى الرجوع والى ان يتوجهوا الى الجهة التي امرتهم بها . اما اهل البلد فكانوا على حافة الياس وقد بلغ منهم الضنك والجوع كل مبلغ فاستقبلوها بغاية الاكرام واتخذوا لها وليمة فاخرة فابت ان تاكل منها وآثرت ان تتعشى على الخبز المبلول . اما الانكليز فكان قد بلغهم انها قادمة لمحاربتهم فلما قدمت استخفوا بها لكنهم لما راوا عزيمتها استولى عليهم الخوف لاعتقادهم انها ساحرة ثم قالوا ان كانت لبشرا مثلنا فنحن لا نخشى البشر فاما ان كانت ساحرة فلا طاقة لنا بها فاجتهدت روسآء عسكرهم في ازالة هذا الوهم من خواطرهم فلم يفد ذلك بل صاروا يفرون منها حين تبرز لهم . واتفق انها زحفت عليهم مرة وهي راكبة جوادها الابيض وامامها رايتها البيضآء ووراها جماعة يغنون ثم نصبت سلالم على برج يسمى برج طورنل وارتقت عليه وهي تدعوا الانكليز ان يخلوه فشتمها احد امراء الجيش وعيرها رعاية البقر فقالت له بئس الفارس انت انما انت مقتول هنا ثم امرت الجند بان يهجموا هجمة واحدة إلّا ان الفرنسيس لما كان من طبعهم التقلب صاروا يحسدونها وينصرفون عن امرها فواعدوها الى غد وعزموا على ان يزحفوا من دونها فانصرفت هي لتستريح فما هو إلّا ان القت عنها الدرع حتى نهضت ولبسته وهي تقول البدار الى القتال فان الاصوات امرتني به فلما اقدمت رات الفرنسيس مرتدين على اعتابهم اذ كانوا قد هجموا من دون اذنها وقد هلك منهم كثير فاشتد غيظها وجعلت تحض على صدق الحملة وتقدمتهم هي بنفسها فصدقوا القتال واستخلصوا بعض القلاع ثم سارت الى برج طورنل وتهددت من يخالفها بالعقاب فواطاوها مواطاة رجل واحد وهجموا على البرج فمانعها الانكليز اشد ممانعة فزادها ذلك باسا وعزيمة واعلنت ان الله تعالى

سلم لها اعداء الفرنسيس ثم ركزت سلما عند حضيض البرج واخذت في الارتقاء عليه والرمي عليها متواصل فاصابها سهم نفذ لها في الدرع بين صدرها وكتفها فصرعت في الخندق فاهل الانكليز من فرحهم واعتقدوا انها ماتت ثم حملت الى مقدمة الجيش واخرج منها السهم فافاقت وعاد اليها نشاطها فنهضت وهي تقول ليس ما قطر مني دما بل هو ظفر وقد امرتني الاصوات بانمامه ثم استانفت القتال باشد صولة . فلما بصر بها الانكليز ضعفوا وفشلوا فقتل منهم في ذلك اليوم ستة الاف من جملتهم ذلك الامير الذي سبيها وعدة ايضا ممن انبات بهلاكهم . فعقد القائد صفولك الانكليزي مجلس مشورة وفاوض اصحابه في امر الحروب فقالوا ان الجيش قد استحوذ عليه الرعب فلا يكون فائدة في استمرار القتال فقر رايهم على رفع الحصار فلما كان الغد جمع القائد المذكور جميع الجند واوهم انه يعبئهم للقتال وهو في الواقع منسحب بهم ثم بعث الى الفرنسيس ان يبارزوه بساحرتهم لكن الفتاة رسمت على الجند بان لا يتعرضوا له فانتظر القائد بعض ساعات فلما لم ير احدا احرق البرج وما حوله وانسل بعسكره . فاسرعت الفتاة للقآء الملك في بلوى وكان اهل القرى عند مرورها بهم يتراكضون لرويتها ويتزاحمون لمس قدمها او ثيابها او في الاقل لمس جوادها فاستقبلها اهل الديوان بغاية الاجلال والاكرام وامر الملك لها بمادبة فقالت له ليس الوقت الان وقت القصف واللذات والرقص وما دام الله تعالى قد فسح في اجلي فعلي ان اسعى لفرنسا غير ان هذا الاجل قريب فان الاصوات انذرتني باني اموت بعد سنتين. ثم التمست منه ان يتوجه معها الى مدينة رام لتحضر تتويجه فيها فسار بمن عنده من الجند حتى اذا وصل الى لوار اراد ان يطرد الانكليز من المعاقل والحصون لياسن السير فتقدمت بالجند الى جارجو حيث كان صفولك مخيما بعسكره فقاتلته عشرة ايام حتى استولت على محله عنوة واستاسرته وكانت هي اول من ارتقى في السلم لكنها اصيبت يومئذ بضربة جندلتها في الخندق فصرعت حتى لم تقدر على النهوض وبلغ منها الالم كل مبلغ إلّا انها لبثت تحرض الجند وهي تقول لهم تقدموا يا رجال ولا تفشلوا فان الله سلمهم ليدنا . فدخلت

الحمية في قلوب الجند ثقة بكلامها فهجموا على البلد واستولوا عليه فقتل من الانكليز يومئذ ثلثمائة نفس . فلما بلغ الخبر مسامع الامير تلبوت الانكليزي اخلى جميع البلدان وانصرف الى باريس ثم سارت الفتاة الى بانني فتلبث جندها هناك لينتظروا مددا فقالت لهم دعوا التلبث واقدموا على العدو فليس عليكم إلّا ان تضربوهم والله يسلمهم ليدنا ثم . زحفت عليهم فحاق بهم الفشل من كل وجه مع ان رماتهم كانوا من احذق الرماة فقتل منهم في ذلك اليوم الف ومائتا مقاتل . ثم في الخامس عشر من شهر تموز سنة ١٤٢٩ سارت الى رام ومعها امراء العسكر واعيان القواد والضباط وبعد يومين جرى تتويج الملك فلما انقضى رسم التتويج جثت عند قدميه وعانقتهما وهي باكية ثم قالت اليوم قد تم سعيي ونجز كل ما وعدت به فارجوك ان تسرحني لانطلق الى بيت ابي واعود الى سيرتي الاولى فابى الملك ان يسرحها اذ راى ان نجاة الامة متوقفة عليها وانها قد فعلت في الزمن القصير ما لم يفعله غيرها في الزمن المديد وكان الناس جميعا قد علقوا آمالهم بها واستبشروا بطيب العيش والراحة وتمكن اعتقادهم منها حتى كانوا يرون حول رايتها حيثما سارت اسرابا من الفراش الابيض البهيج وبهذه الراية كانت واقفة بازاء الملك عند تتوجه غير انها من تلك الساعة اي ساعة طلبها التسريح تغيرت احوالها بالكلية فاستحوذ عليها الغم والكآبة وذهب عنها ذلك الراي الرشيد فكانت اذا طلب منها ان تقضي امرا اضطربت افكارها فيه وفشلت واذا امرت هي بشيء ارتابت فيه ورجعت عنه فان الاصوات انقطعت عنها فاعادت الالتماس من الملك وهي جائشة النفس باكية لان يصرفها فابى واشار عليها بان تلبس سلاحها وكانت قد علقته في كنيسة رام فامتثلت امره وبرزت مرة اخرى في زي المحاربين إلّا ان امراء العساكر كانوا اذ ذاك قد اضمروا لها الحسد فصاروا يشنعون عليها ويسيئون معاملتها واغروا العساكر بان ينبزوها بالالقاب لا بل حاولوا هتك حجابها ليفضحوها بين الناس فردتهم اقبح الرد ولم يكن يجالسها سوى النساء المصونات ولا تنام في الفراش إلّا ومعها امراة لتخفرها ثم اشارت على الملك بان يتوجه الى

باريس ليستخلصها من يد الانكليز فسار وعنا له في مسيرة بلدان كثيرة حتى بلغها فامر بالهجوم على المحلة المعروفة بفوبور صنت اونري فجرحت الفتاة في تلك الواقعة وصرعت عدة ساعات ثم قامت وعلقت درعها وطلبت من الملك الانصراف فابى ووعدها بان يرقيها الى رتبة جليلة ويجري عليها وظيفة الارل وان يعفي قريتها من الخراج فاجابت الى ذلك وفي تلك الاثناء قام راهب يسمى ريشارد ومعه امراة تدعي النبوة وجعلا يحثان الناس على امداد الملك بالمال وطلبا من الفتاة ان تساعدهما على ذلك فابت وقالت انما النجاح على اسنة الرماح * وفي سنة ١٤٣٠ ارسلها الملك لطرد الانكليز عن حصار مدينة كامبين وكان عليها دوك برغندي فسارت متجلدة متدرعة بالاقدام والبسالة على عادتها الّا انها لما ارادت الايقاع بالمحاصرين خذلها اتباعها حتى اذا قاربت البلد رماها بعض الرماة فاصابها فصرعت على الارض واستسلمت للامير فندوم فذاع خبر اسرها في جميع تلك الاقطار فاقبل الناس لرويتها ثم باعها الامير المذكور للكسومبورغ وباعها هذا للانكليز بعشرة آلاف فرنك وخذلها الملك فلم يسع في افتكاكها لوما منه وكفران نعمة وخذلها ايضا معارفها واصدقآوها وخاض الناس في حديثها وارتأوا ان تحرق كما تحرق الساحرة وكان اهل باريس اشد الناس اشمئزازا من ذكرها حتى انهم احرقوا مرة امراة لقولها ان جان رسول من السمآء . ثم انه في الثالث عشر من شباط سنة ١٤٣١ اقيمت عليها الدعوى في الديوان فاحضرت فيه ست عشرة مرة والقى عليها القسيسون والاطبآء واهل الاحكام الشرعية وكانوا زهآء مائة كثيرا من المسائل العويصة المعرقلة وبذلوا كل ما في طاقتهم من المكر والدهآء ليتصيدوها بكلمة تدل على ان ما فعلته كان بقوة الشيطان فلم تنطق بشيء مما توقعوا بل اصرت على قولها ان الله تعالى هو الذي قيضها لهذا العمل حتى افحمتهم . ثم سالوها عن الكنيسة فقالت ما زلت مواظبة على العبادة فيها لكني كنت اطيع الاصوات حين كانت تامرني بشيء مخالف لها فحكم عليها اهل الديوان بانها مبتدعة وصوب ذلك اهل مجلس الشورى والاساقفة واهل المدارس وحكموا بحبسها فاخذ الرهبان يترددون

عليها وينذرونها هول يومها . ثم اخرجت يوما وجعل الناس يقبحون عليها فعالها ويشنعون على الملك فثارت حميتها لتبرئة الملك فحكموا عليها بالسجن المؤبد وبان تقتات بالخبز والماء فقط ثم اجبرت على ان تحلف بان لا ترتدي بلباس الرجال ثم كادوا لها مكيدة وهي انهم كانوا ياخذون ثيابها عند ما تنام ويضعون مكانها ثياب رجل فكانت اذا رأتها تلبث في الفراش الى ان تضطر الى القيام فتلبسها ولما كانت ذات يوم في هذا الزي هجم عليها الحرس واستاقوها الى الحاكم فحكم عليها بانها حنثت في يمينها وانها تستحق ان تحرق فاعيدت الى السجن وعاودتها الاصوات فامتلأت طربا وشجاعة إلَّا انها حين اخرجت منه ورأت ما اعد لها من العذاب خارت قواها فجعلت تئن وتتأوه . ثم اضرمت النار وادخلت فيها فجعلت تدعو الى الله وتبتهل حتى ان عدوها الكردينال بوفور لما شاهدها على هذه الحالة لم يطق بعد ان ينظر اليها فقام عجلا هو ومن كان معه من الاساقفة والدموع منحدرة من مآقيهم . وكان احراقها في الثلاثين من شهر ايار من السنة المذكورة في موضع يقال له لابلاس دو لابوسل اي موضع البكر وذري رمادها في نهر السان ثم بعد عشرين سنة قام مطران باريس ومطران رام فنقضا الحكم الذي جرى عليها واثبتا براءتها . اه . قلت وقد وجدت هذه القصة المحزنة في تاريخ بلاد الانكليز فنقلتها بتمامها لغرابتها ثم وجدتها في كتاب آخر مروية بعبارات مخالفة لما تقدم بعض الخلاف ولا غرو فانه لا يكاد راويان يتفقان على رواية واحدة او على راي واحد وكيفما كان فان ما جرى على هذه الفتاة التي تفردت بهذه المزايا الحسنة يبقى معرة وخزيا على اسماء جميع الذين تسببوا في اهلاكها سواء كانوا من الفرنسيس او الانكليز على ان موتها لم يفد الانكليز فائدة كبيرة لان اهل فرنسا اذ ذاك كانوا قد تنشطوا الى مغالبتهم ومقاواتهم بعد ان ذاقوا طعم الفوز والظفر وسرى فيهم روح الحمية للذب عن اوطانهم وبما ذكر تعلم ان الناس في ذلك العصر كانوا متسكعين في ظلام الجهل والوسواس فكانت الاساقفة واهل المدارس اقل كياسة من عامة هذا العصر *
قلت ولولا نابوليون هذا العصر لم يبق للبابا كرسي برومة ولم يقف في

وجه الروس واقف وذلك مستغن عن البيان . ولم يقم احد في بلاد الافرنج كلها من برع في اللغتين العربية والفارسية مثل البارون دساسي . ولم تقم امراة تولف الكتب النفيسة مثل مادام جورج ساند . وليس الان من شاعر في اوربا يقارب طبقة دولامرتين . ولا من مولف ينظر باوجان سو او الكسندر دوماس » . فهذه بعض دراري جيل القرنسيس الغابرة والحاضرة التي بزغت في افق المعالي ولم يكن لها في عصرها ند ولا مثيل . على انه لا ينكر ايضا ان قد نبغ من الانكليز وغيرهم كثير من الفلاسفة والحكماء والعلماء والادباء ممن اشرق بهم الزمان ولهج بحمدهم اللسان . ثم اقول ايضا انه قد ظهر لي على قدر ما ادركته ان كثيرا من المصالح في باريس احسن استتبابا وانتظاما منها في لندرة . اما اولا فاني مكثت في هذه نحو ثلثين شهرا ولم اسمع عن بيت فيها انه احترق إلّا مرة فقط . وفي لندرة لا تكاد النار تخمد عن احراق دار او دكان او معمل ونحو ذلك . ففي سنة ١٨٥٦ وقع فيها وفي ضواحيها ٩٥٧ حريقة منها ٣٩٣ حريقة كانت متلفة جدا . وبلغ عدد الحرائق في فرنسا كلها في مدة ثلث سنين وذلك من سنة اربع وخمسين الى ست وخمسين ٢٢٠٣٨ * نعم ان ديار باريس هي من الحجر وديار لندرة من الاجر غير ان اثاثهما من جوهر واحد . والثاني انه لا يعرف في باريس تداول نقود زائفة او كواغد بنك ملبسة وفي لندرة كثيرا ما يقع ذلك واذا دفعت الى تاجر فيها قطعة من الفضة او الذهب فلا بد وان يختبرها . الثالث ان ارتكاب القتل في باريس بالنسبة الى لندرة نادر جدا لاسيما الان حيث اجازت الدولة للخلعاء والمنفيين ان يرجعوا الى بلادهم بعد انقضاء مدتهم . الرابع نقب الديار والحوانيت والطر والاختلاس من الديار والمحترفات والدواوين ولاسيما المولك فهو على نسبة القتل . الخامس العوارض التي تحدث للمسافرين في الارتال فانها في بلاد الانكليز كثيرة جدا والحق بها ايضا العوارض التي تقع في طرق المدينة بمرور الحوافل والعواجل وسائر انواع المراكب . السادس المضار التي تحدث من بيع السم والاسبت والماكولات المنتنة والمشروبات الكريهة فانها في لندرة بلية من بلايا الله

والحق بذلك رخصة العطارين والصنادلة في بيع الادوية من دون وصف الطبيب وبيع المفاتيح لاي ما كان . وفي باريس يجب على المحتسبين ان يسعروا الاصناف ويختبروا الحليب والخمر والدقيق واللحم والسمك وما اشبه ذلك على حين غفلة من الباعة فاذا وجدوها مغشوشة او فاسدة غرموهم وشهروهم في صحف الاخبار ولا يباح ايضا بيع الفاكهة فجة وذلك كله في لندرة موكول الى ارادة الباعة فلا تكاد تجد شيئا خالصا حتى ان الجنازة في باريس مسعرة من الديوان فاقلها خمسة فرنكات واغلاها ٣٦٧ ٣ كذا في غالنياني . السابع تولية المراتب من يستحقها فان دولة فرنسا لا تولي جاهلا مرتبة الا ما ندر فاما عند الانكليز فتولية المراتب اما تكون بالمحاباة والاختصاص او بتعريضها للبيع وهذا الاخير مستفيض في مراتب العساكر البرية وما زال الناس يمنون انفسهم باصلاح هذا الخلل وما برح كتاب الاخبار ينددون به وينصحون ارباب الامر والنهي لتلافيه . الثامن ترتيب الشرطة حيث يزدحم الناس كالملاهي والمراقص ومواقف سكة الحديد فان اكثر هذه الاماكن في لندرة لا يكون فيها شرطي او يكون وراء الباب فترى الناس يضغط بعضهم بعضا عند دخولهم الملهى . وغير مرة رايت نساء يغشى عليهن في الزحام وغير مرة يموت عدة اولاد ومنهم من يستهزئ ومنهم من يضحك وفي داخل الملهى ترى الاوباش يصفرون ويزيطون ولا وازع يردهم . فاما في باريس فلا يخلو مكان من احد هولاء الشرطة وترى الناس في الملاهي ساكتين منصتين فكانما هم في الكنيسة . ومع ذلك فان الانكليز يفتخرون بقولهم ان « جون بول » لا حاجة له بالشرطة لانه مطبوع على الترتيب وهيهات فان اوباشهم ارذل خلق الله . التاسع تعهد المدينة بما فيه حفظ الصحة وبسط النفس وراحة العباد . فيدخل في ذلك ترتيب المستشفيات فهي في باريس احسن وانظف والمقابر فهي هناك لا تكون الا خارج البلد وفي لندرة كانوا يدفنون الموتى في ساحات الكنائس ولم تبطل هذه العادة الا منذ ثلث سنين فقط . ثم المناصع وهي المواضع التي يتخلى فيها الانسان للبول او لقضاء الحاجة فالاولى في لندرة قليلة جدا على ردآتها والثانية معدومة راسا . ثم

تنظيف الطرق فان طرق لندرة عند وقوع الامطار تكون لكثرة المارين وحلة للغاية وليس من يرى في ذلك مشقة ولا شينا . ثم وجود مقاعد يستراح عليها ففي باريس كلما اعيا الماشي وجد دكة او مصطبة يجلس عليها وفي لندرة لا يمكن للانسان ان يقعد إلّا في بيته او في محل قهوة وبئس ذلك مقعدا . ثم التطريب بآلات الموسيقى ففي باريس تضرب العساكر بهذه الالات في عدة مواضع وخصوصا في الاحاد والاعياد وفي لندرة لا شيء من ذلك وقد عزف بها بعض ايام في احدى الغياض المتنابة فابطلها رئيس المطارنة بدعوى انها مناقضة لنص الانجيل . العاشر وجود الدكاكين في باريس في اي موضع كان سواء كانت للاكل او الشرب او غير ذلك وفي لندرة جميع الحارات التي يسكنها الكبراء والاغنياء خالية من الدكاكين فانهم يرسلون خدمتهم الى الاسواق ليشتروا منها ما يلزم او تاتيهم المونة مرتبة من عند اصحاب الدكاكين . الحادي عشر النظر في امر الومسات فانهن في باريس يمتحن في كل اسبوعين فاذا راى الطبيب احداهن مريضة بالداء المعروف ارسلها الى المستشفى لتتداوي هناك فلا تخرج منه إلّا بعد ان تشفى . فاما في لندرة فقد تطوف الومسة والداء افسد آرابها واحشاءها فيمكن انها في ليلة واحدة تعدي جمعا . ولا جرم انه حيث كانت هذه المفسدة في المدن الجامعة مما لا يستغنى عنه وكانت هولاء المتهالكات على الدينار وقايه لعرض الحرائر كان النظر في احوالهن يعد من المصالح ولاسيما اذا ابيح لهن الطواف اثناء الليل واطراف النهار كما هو الواقع في لندرة . اما في باريس فلا يباح لهن التطواف في الليل بعد الساعة العاشرة . الثاني عشر اباحة استعارة الكتب من المكاتب السلطانية في باريس فان المعروفين عند ناظر المكتبة يمكن لهم ان يستعيروا كتابا ليطالعوه في بيوتهم ويستفيدوا منه وفي لندرة لا يباح ذلك . الثالث عشر سهولة تحصيل العلم والصنائع اما الاول فلكثرة المدارس وحسن ترتيبها ورخصها بالنسبة الى غيرها حتى ان الانكليز يبعثون اولادهم الى باريس ليتعلموا فيها ما يعسر عليهم تحصيله في بلادهم ما الثاني فلان الاب اذا شاء ان يعلم ابنه حرفة هنا اتفق مع احد الصناع

على ان يبقيه عنده ثلاث سنين ففي اول سنة يعطيه شيئاً في مقابلة التعليم وفي الثانية يكون شغل الولد مقابلاً لتعليمه وفي الثالثة يبتدي ان يكسب شيئاً . وفي لندرة يلزم المتعلم ان يبقى عند معلمه سبع سنين ومصروفه في خلال ذلك ثقيل على والده . الرابع عشر الحماية الجنسية فقد اسلفت لك ان حماية الانكليز لا تفيد إلّا لشراء الاملاك . وهناك امور اخر غير هذه تراها في باريس على احسن انتظام وذلك ككيفية تبليغ البريد الرسائل وكيفية ايقاد الغاز وتسعير الماكول والمشروب وترتيب الحمالين مما هو في لندرة مغفل او مضيع * قال بعض الفضلاء التحكم في فرنسا هو خصم المذنب فلا يصح للمفترى عليه ان يصفح عن المفتري وعند الانكليز يلزم المصروف او يطلق الجاني . وعلى كل نوع من الضرب قصاص وعند الانكليز يغرم من دون قصاص . وكل بلد هناك فله صندوق ينفق منه وآخر للايراد وله ديوان مكس على الماكول خاصة فلا تتكلف السكان بشيء . وفي لندرة يجب على السكان اصلاح الطرق وتجهيز الماء والنور وغير ذلك . في فرنسا معاش القسيسين والقيام بمصاريف الكنائس مرتب من خزنة الدولة وهنا موكول الى الرعية . هناك يرتب ديوان للتجار وآخر للجرائر وآخر لاحوال متنوعة وهنا ديوان واحد . هناك طبع التجار مائل الى المناقشة والنزاع على اشياء لا طائل تحتها وهنا جل التجار متكبرون شيمتهم الضبط والرشد . هناك ترى الفقراء اعداء الاغنياء وهنا يهابونهم ويكرمونهم . هناك ترى القوانين والاحكام اقوم واعدل إلّا ان الذين يباشرونها ويجرونها هنا اصلح وافضل . هناك تقضي الناس سائر اوقاتهم خارج منازلهم وهنا يعكس ذلك . هناك يطمع التاجر الكبير في ربح كثير لقلة تجارته وهنا يجتزي بالقليل من الكسب لكثرة تجارته . هناك تختلط الاكابر بالاصاغر وهنا كل ينحاز الى شكله ونده . هناك تفتخر الشبان بالفجور وهنا يأتونه اضطراراً وفي هذا القدر كفاية . قلت وهنا يحق لي ان اقول في الانكليز والفرنسيس ما قاله الآمدي في ابي تمام والبحتري وهو ان الجيد من الانكليز خير من الجيد من الفرنساوية والرديء من هولاء خير من الرديء من اولئك ومآل الكلام ان عامة الفرنساوية افضل وان خاصة

للانكليز اجل وامثل . واعلم ان الفتن والمعامع التي وقعت في فرنسا ولاسيما فتنة سنة ١٧٩٣ قد غيرت كثيرا من اخلاق هذا الجيل فما يقال عنهم من البشاشة والانس والاحتفاء بالغريب فليس على اطلاقه كذلك سمعت منهم . نعم هم ابش من الانكليز ولكن هم دون اهل ايطاليا والبلاد الشرقية بمراحل . وحيث كان لا ينكر ان ياتي من الشر خير تسبب عن تلك الفتن تهذيب القسيسين وتحسين املائهم وقد كانوا من قبل يتطاولون على الرعية ويتسودون عليهم فلزموا مذ ذلك الحين حدهم واخذوا في السلوك على جادة الفضائل والمكارم فصاروا الان قدوة في كل الفضل فمنهم العلماء والبلغاء والمولفون في اي علم كان واشهرهم في ذلك طائفة اليسوعيين . ثم اقتدى الان باهل فرنسا في خفض سلطة القسيسين كثير من الدول فان سلطان الروس عطل مائة وسبعة وثمانين ديرا ونحوه ملك بروسيا ودون بدرو في برتوغال عطل ثلثمائة دير ودولة اسبانيا الفا وثمانمائة وكذلك دولة سردينية فعسى ان يكون هذا الامر نصحا مفيدا لروساء الديانة في الشام ومصر وغيرهما فيصلحوا من شانهم ويتداركوا ما فرط منهم من الخلاف والاثرة والافتئات او يقتدوا بقسيسي بلاد فرنسا في تعليم الرعية وتعاهد احوالهم والاقبال على المآثر التي هم اولى بها من غيرهم لان منع الكنيسة اهلها من الزواج لم يكن الا لغاية تفرغهم للتعليم والافادة والا فان الزواج في نفس الامر غير معيب لكنا نرى الان اهل الكنيسة قد تزوجوا التواني والنزاع وتشاغلوا به اكثر من تشاغل الزوج باهله . ومن الشين ان يكون الراس معتلا ويحمل الجسم على سلوك مذهب الصحة والسلامة جير ان قسيسي الفرنسيس والانكليز بالنسبة الى قسيسي بلادنا فلاسفة فان احدهم لا يكتفي بالبراعة في لغته فقط بل يتعلم ايضا عدة لغات وجملة فروع من العلوم فلا تكاد تذكر له اسم كتاب الا وينبئك عن مولفه وعن موضوعه وعما يحمد منه او يذم وها ان قسيسي بلادنا ليس عليهم الا ان يتعلموا لغة واحدة ومع ذلك فهم لا يحسنون ان يولفوا فيها كراسة واحدة الا مع اللحن والخطا بل المطارنة ايضا تلحن بما يلحن به البقال والزيات . لعمري لو ان مطران باريس كتب مثلا منشورا

ما لحونا لرايته ثاني يوم منشورا برمته في صحف الاخبار مع انتقاده والتنديد بجهل مولفه بل ربما اجروه في بعض ما يمثلونه في الملاهي والمحاضر. وحيث ان الناس شرعوا الآن في التمدن والعلم ولاسيما في البلاد الشامية فاحرى لاهل الكنيسة ان يسابقوهم في هذه الحلبة المفضية الى احراز سبق الفخر والثناء والّا فان اعتبارهم يسقط من عيون الناس ولاسيما عند الذين فاقوا عليهم في المعارف والمناقب المتفرعين عن العلم فان العلم اساس كل محمدة والعالم عند الله والناس افضل من الجاهل . ولعل كلامي هذا ينجع في من يقرع الى الحق ولا ينسبه الى الفضول او اساءة الادب فان النصيحة من الدين * هذا ولما كنت ذات يوم مفكرا في وحشة الغربة ومقاساة تعلم اللغة بعد ان ولى عني نشاط الشباب والاهلية الى الاحتكال اذا باللبيب اللوذعي والفاضل العبقري ذي القسامة والشادة الخوري غبرائل جبارة دخل علي وفي طلعته من البشر والطلاقة ما يترجم عما انطوى عليه من حسن الاخلاق فان الخُلق كثيرا ما يكون دليل الخَلق . ثم بعد ان دارت بيننا كوس المنافثة قال لي اني : اود ان اذهب الى انكلترة فهل لك ان تكون لي رفيقا فانني اجهل لغة القوم واحوالهم والان يذهب الناس اليها من جميع الاقطار لمشاهدة معرض التحف بلندرة وهو المسمى عند الفرنسيس اكسبوزسيون فاجبته الى ذلك وسافرنا من باريس الى كالي وذلك في تاسع شهر جون ومنها الى دوفر * ودوفر هذه اول ما نزل فيها يوليوس قيصر حين غزا بريتانيا وذلك في سنة ٥٥ قبل الميلاد وفيها قلعة قيل انها من بنائه على خلاف ومدفع يعرف بداغرى (من « داغ » طبنجة) جيب الملكة اليصابت اهدته اليها دولة هولاندة وهو مدفع عظيم من نحاس طوله اربع وعشرون قدما . ويومئذ طلب منا ابراز الجواز وذلك لكثرة الذين كانوا يردون الى بلاد الانكلير. ثم سرنا الى لندرة فوجدت اجرة المساكن وثمن الماكول والمشروب على ضعفي ما كنت اعهده وثاني يوم وصولنا وقع من المطر والبرد ما لا يقع في الشتاء — حتى زعمنا الغزالة من طول المدى خرفت — ثم توجهنا الى معرض التحف وكان سبب انشائه ان الفرنسيس كانوا عقدوا مجلسا في باريس

سنة ١٧٩٨ لاجل عرض بدائع الصنائع ثم تكرر ذلك مرارا حتى اغرى الانكليز بعد انهم في انشآء موضع تجلب فيه التحف والغرائب من جميع البلاد وذلك في سنة ١٨٥١ وكان قد استقر الراي اولا على ان يبنوه من الاجر ولكن لما كان مقصودهم به انما هو الى مدة قصيرة ارتأوا ان يبنوه من الزجاج فحسبوا ان نفقته تبلغ سبعين الف ليرة اذا كان ينقل وينتفع به والّا فنحوا مائة وخمسين الفا فتبرع في العطآء لانشآئه اكثر من مئة الف من الانكليز بدي به في جولاي سنة ١٨٥٠ وفتح في اول مايه سنة ٥١ وجعل طوله ١٨٥١ قدما على مقدار عدد السنين وعرضه ٤٠٨ اقدام . وفي اول شهر مايه دخلته الملكة وزوجها . وقد جعل نصفه لبضائع بلاد الانكليز وارلندة وسكوتلاندة والنصف الثاني لسائر الدول وكان يعطى لكل وكيل دولة موضع وهم يعنون بوضع الاصونة والمخادع لصون بصائعهم وتحفهم واذا اشترى احد شيئا منها لم يكن يخرج الّا بعد انقضآء المدة . وكان في بنآئه من الحديد اربعة الاف طن وسبعة عشر فدانا من الزجاج في سقفه ما عدا الف وخمسمائة طاقة وبعد انقضآء مدته بيع بسبعين الف ليرة ونقل الى سدنهام وجمع لتنظيمه وتركيبه هناك نصف مليون ليرة ثم زادت حتى بلغت مليونا وكان يشتغل به من العملة نحو ستة الاف واربعمائة . وكان احقر موضع فيه هو الموضع الذي نضد فيه ما بعث من دولة مصر وسبب ذلك فيما بلغني ان البرنس البرت لما ارسل كتبا الى جميع الدول يخبرهم بهذا المقصد وطلب اليهم ان يرسلوا من بدائع صنائع بلادهم ترجمت لعزيز مصر لفظة الصنائع بالارض اذ كانت صورة الخط فيهما متقاربة تتقاربها في النطق فان مرادف الصنائع في الانكليزية « ارتس » ومرادف الارض « ارث » فلذلك لم يبعث من مصر الّا القطاني وبعض اشيآء اخرى لا طائل تحتها . وقد راينا في هذا المعرض حلى الملكة من جملتها ثلثة حجارة من الماس قدر الكبير منها نحو جوزة تبلغ قيمته فيما قيل ثلثة ملايين . وكان فيه ايضا صوان لحلى ملكة اسبانيا وتحف اخرى بديعة لم ير مثلها قط من جملتها فرو لسلطان الروس قيمته ثلثة الاف ليرة ومرءاة لم يصنع اكبر منها في العالم باسره . واول من صنع المرءاة

كما هي الآن اهل فينيسيا وذلك في سنة ١٣٠٠ وكانت تصنع قبل ذلك من النحاس ولم تعرف في انكلترة إلّا في سنة ١٦٧٣. فانظر الى التمدن كيف يفعل والى الايام كيف يداولها الله بين الناس . وكان فيه آلة تصنع الفين وثمانمائة مغلف للكتب مصمغة مطوية في ساعة واحدة وآلة تصف حروف الطبع بنفسها ونحو مائة وسبعين نوعا من التوراة والانجيل . وكان يجتمع في هذا المحل كل يوم نحو ستين الفا يودي كل شلينا . وكان يوما الجمعة والسبت مختصين بالكبراء والاعيان . ويقال ان الملكة دخلته يوما فاعجبها ثوب مزركش في محل البضائع التركية فسالت قيمه عن ثمنه فقال : عشرون ليرة . فقالت : هذا غال جدا . ويقال ايضا ان الفرنساوية احرزوا قصب السبق في كذا وكذا نوعا من الصنائع . والمشهور عند الناس عموما ان الانكليز في الاعمال القينية امهر منهم والله اعلم * وغاية ما اقول ان كل ما يصنعه الفرنسيس يظهر عليه الرشاقة والمشق والطلاوة وما يصنعه الانكليز يكون جزلا متينا حتى ان هولاء في تصويرهم السخري يصورون الفرنساوية نحافا ضعافا واولئك يصورونهم ضخاما جساما . فاما صنعة الطبع فلا شك انها عند الانكليز اتم واحسن . وهم يقولون ان الاختراع من شان الفرنساوية لكن الاتقان والاحكام من شانهم . ومن الديار العظيمة التى فتحت للمتفرجين اوان المعرض دار دوق نرثمبرلاند وهي دار عظيمة البناء والفرش والاثاث فيها تصاوير نفيسة وتحف غريبة حتى ان اطر مواقدها كانت من فضة بدل الحديد . واعلم ان هذا المعرض لم يفد الانكليز فائدة مال الغرباء فقط بل افاد ايضا اهل الغظاظة منهم حسن المعاشرة والمجاملة نوعا ما فانهم كانوا قبل ذلك على غاية النفور من لحى الغرباء وشواربهم . ثم سرت الى حديقة فكس هال المشهورة ورايت المنطاد وهو المعروف باسم البلون وهو قبة في كبر الخيمة على شكل الاجاصة يصنع من الحرير المدهن ببعض الادهان ويملا داخله غازا وذلك بان يجعلوا باسفله قربة من جلد متصلة بانبوبة من حديد يدخل فيها الغاز من موضعه ويجعلون له مثل الشبكة شاملة له وبها ينوطون اكياسا ثقيلة فكلما امتلا جانب منه من الغاز خفضوا الاكياس

حتى يرتفع فمتى امتلا كله زموا فمه من اسفل وربطوا به نحو ناووس من خشب او غيره ليقعد عليه من يتولى امره ومن شآء ان يسافر معه . ثم يزيحون الاكياس ويطلقونه فيندفع صعدا ومديره تحته . وربما اقتضى لمثله عدة ساعات فاذا اراد مديره ان يخفضه اداره بحبلين متصلين به هما كالعنان له فينزله حيث شآء اللهم اذا كانت الريح عاصفة تغلبه فربما القته على محل غير مقصود . إلّا انهم لا يصعدونه غالبا إلّا في يوم ذي سكون . وما يقال من الناس يصعدون ويسافرون في الباون فليس المراد بذلك انهم يدخلونه فان داخله ملآن من الغاز اذا الم به نور او نار تميز كله فاحرق ما حوله وانما المراد انهم يقعدون تحته وربما اخذوا معهم حصانا ونحوه . وقد رايت منطادا آخر انبسط تحته امراتان وكان راس احداهما تحت قدم الاخرى وقيل انبساطهما على هذه الحالة حجبوهما عن اعين الناظرين بنحو خيمة ثم لم نشعر إلّا وهما في الجو تشيران بالمناديل . وقد ظهر في باريس من ادعى بانه يقدر ان يصنع منطادا من الخشب على شكل سفينة ليكون اوعب للناس واسلم عاقبة وبعد ان تصدى الى ذلك وركب هذه الالواح لم تاذن له الدولة في ان يجرى ذلك فعلا بالقرب من باريس مخافة ان تقع السفينة على الناس فتعطبهم وحيث لم يكن غاز إلّا فيما وليها حبط عمله . وقد رايت هذه السفينة وظهر لي ولغيري عدم امكان اصعادها بالغاز لطولها وضخامتها غير ان منشئها كان ذا لسان ذلق فكان يموه على السامعين احتمال ذلك واظن ان ما خسره في صنعها ربحه من المتفرجين . واصل انشآء المنطاد كان في فرنسا سنة ١٧٨٣ وكان الناس قد ذكروا من قبل ذلك شيئا يشبهه ولكن هذا اول ما عرف . وفي سنة ١٧٨٥ صعد فيه رجلان على ان يسافرا من بلون الى انكلترة فاحترق فهلكا . ومن هذه الادوات ما يصعد في الجو مسافة ثلثة وعشرين الف قدم ومنها ما يدوم في الهواء ثماني عشرة ساعة . واول من صنع المنطاد في انكلترة السنيور لوناردي وذلك في سنة ١٧٨٤ وكانت مادام بوانتفيان تصعد تارة وهي قاعدة على ثور على شكل اوربا وتارة على جواد فكره بعض الناس منها ذلك لكونه من ظلم الحيوان وهو ممنوع فكفت

عنه . فاما كيفية ادخال الغاز في انبوبة المنطاد وكذا في الانابيب التي توصل الانوار في المدن فهو ان يوقد الفحم في موقد مخصوص ويجعل فيه قصب من حديد متصلة بالديار والدكاكين فينحصر روح الفحم في تلك الانابيب فاذا ادنيت نارا من راسها اشتعلت وبقيت كذلك إلّا ان تطفئها . ونورها اشد سطوعا من نار الزيت والنفط والشمع وليس له دخان لكنه قوي مضر بالعين . وقد ارى ان غاز باريس اشد ضياء وبياضا من غاز لندرة ويمكن ان يكون ذلك لصفاء جو تلك وسياتي الكلام على الغاز ومخترعه وفوائده في وصف لندرة ان شاء الله تعالى . ثم خطر ببالي ان اطلب من وزير الامور الداخلية بلندرة حماية جنسية لكوني اقمت في مالطة عدة سنين وفي بلاد الانكليز بضعها فكتبت اليه عرضا فجاء الجواب موذنا بان اكل ذلك الى فقيه من فقها الشرع اذ لا يصح معاطاة امر من الامور الشرعية إلّا بهم كما انه لا يصح معاطاة مصلحة كبيرة من المصالح المتجرية إلّا بواسطة السماسرة . وكان مما لزمني مباشرته في ذلك ان اخرج للفقيه اربع شهادات ممن لهم بيوت وملك من الانكليز توذن بصحة ما اقول ففعلت . واعلم ان الحصول على نوع هذه الحماية لا يتوقف عند الانكليز على عدد سنين يلبثها الغريب في بلادهم وانما هي منة من قبل مخولها ولو ان انسانا لبث في بلادهم عشرين سنة ولم يكن حسن التصرف والسيرة لم يستحقها وجل نفعها انما هو تاهيل صاحبها لان يشتري في بلادهم املاكا كالديار والعقار والسفينة وما اشبه ذلك وعليه ان يحلف ان يتخذ دارهم وطنا له فاذا استوطن غيرها فللقنصل المقيم هناك ان ينكره . اما حماية فرنسا الجنسية فتتوقف على عشر سنين ولكنها تكون بعد ذلك حماية ووقاية لصاحبها في كل مكان وزمان . ثم ان التملك في انكلترة على اربعة انواع . الاول ان يكون شبيها بالاجارة الى مدة معلومة من السنين . الثاني ان يكون الى تسع وتسعين سنة . الثالث الى تسعمائة وتسع وتسعين سنة . الرابع الى الابد والثاني هو الاشهر . وهذه ترجمة الحماية . اني اشهد ان فلانا المقيم الان في طريق كذا في خط كذا الكائن في اقليم كذا من اعمال بريتانية الكبرى

من حيث انه عازم على استيطانها عرض عرضا لي انا سرجورج كري بارونت احد روسآء كتاب الدولة مضمونه انه من بلد كذا ومن رعية الدولة الفلانية وله زوجة واولاد وحرفة كذا وان في عزمه ان يبقى ساكنا في هذه المملكة والتمس مني حالة كوني كاتب الدولة هذه الشهادة المذكورة وحيث اني بحثت عن حقيقة الحال واتاني من البينة ما اعتقدته ضروريا لاثبات صدق ما اودع في ذلك العرض فالان بموجب الاستطاعة والسلطان الذي فوض الي حالة كوني كاتب الدولة في الحكم الفلاني اعطي فلانا المذكور عند اجراء اليمين المذكور في ذلك الحكم جميع الحقوق والاهلية الخاصة بمَن يكون مولودا من اهل بريتانية ما عدا اهلية ان يكون عضوا من اهل الديوان الخاص او عضوا من اعضآء مجلسي المشورة وما عدا الحقوق والاهلية المختصة بمَن يكون مولودا بالطبع من اهل بريتانية خارج الممالك المنسوبة الى التاج البريتانياوي وما يليها . اه . فقد علمت ان اعطآء هذه الحماية لم يتوقف على سني الاقامة وانما هي لنواله كالوسيلة . ثم اني لما رايت ان الفقيه لا يقدر على اخراجها إلّا بعد مدة ولزمني العود الى باريس طلبت منه انه اذا حان انجازه هذه الطلبة يعلم بها كاتب الجمعية ورجوت من هذا ان يبعث بها الي في باريس ثم سافرت وبعد ايام ورد الي خبر بقبول ملتمسي ولزوم حضوري لاجراء اليمين فسافرت الى مدينة هافر فبلغتها بعد نحو سبع ساعات ومنها الى سوثمبطون وكانت ليلة مشئومة فقد ثار علينا النوء حتى كانت السفينة تتقلب في البحر كالسمكة مع ان الوقت كان صميم الحر وكان من همي قبل كل شيء اجراء اليمين . وهذه ترجمتها . انا فلان اعد واقسم صادقا باني اكون امينا ومخلصا الطاعة لسعادة الملكة فكطورية واحامي عنها بغاية جهدي وطاقتي ضد جميع من يتحالف عليها او يهم بسوء عليها سواء كان على شخصها او تاجها او شرفها وابذل غاية جهدي في ان اكشف لسعادتها ولورثتها ولمَن يخلفها جميع الخيانات والخائنين والمتغاوين عليها او عليهم واعد بامانة اني ابذل غاية استطاعتي في ان احفظ واسند واجير خلافة التاج المعبر عنه في الاحكام بحكم كذا الخ .

ثم عدت الى باريس واتفق حينئذ ان تولى السلطان الاني ضبط الامور السياسية وهو يومئذ رئيس مجلس الشورة وقهر مناوئه وحاسده فاشار علي بعض معارفي ان امتدحه بقصيدة فانه ذو المام بالعربية وله اطلاع على لغات كثيرة فنظمت له هذه القصيدة وهي *

من شان اهل الهوى ان يفرطوا الغزلا * قبل المديح والّا يندبوا الطللا
اما النسيب فلا حسناء تشغلني * اذ قلب ذي الحسن عن حسن الوفاء خلا
بلى انا ناسب وجدا بطيف كرى * ما كنت اعرفه من قبل ان وصلا
اتى على غرة والليل معتكر * من صبغ همي وما جنح له نصلا
وهمته غادة جاءت تغررني * فحين صحت به مستنكرا جفلا
ان لم انم لم يزر ايضا وان هو لم * يزر فما ناظري بالغمض مكتحلا
يا حسنه زائرا ما شانه صلف * ولا يرى شانفا كالخود او شكلا
عف نزيه خفيف اللمس يبعله * وكم جميل به خال قد اشتغلا
حلو الشمائل لا طرفا يمل ولا * عتبا يدل ولا مستحقبا بدلا
لا يزدهيه رياش حين ترمقه * كانما هو طاووس به رفلا
ولا يبوح بسر اذ يبين ولا * يكون امعة مع كل من بذلا
رقبت محاسنه حتى استرق بها * قلبي وقد جعل التذكار لي شغلا
دعني وشاني فما ذو الجد تشغله * شكوى الهوى انها شغل لمن هزلا
من رام ماثرة فليمدحن رجلا * بين الرجال يراه وحده الرجلا
لويس نابوليون الراقي منزلة * في الملك ما ان يرى الرائي لها مثلا
من ذا الذي ليس يثني في الانام على * من في المكارم والمجد السني علا
وليت شعري هل في الكون من لغة * تحوي كلاما يوفي حق ما فعلا
لولاه بانت فرنسا في معامع لا * تكاد تطفئها حرب ونحر طلى
لما تفرقت الاراء واحتدمت * نار النوايا وظن الخطب قد عضلا
تدارك الامر لا عيا ولا فشلا * ومن بالعفو لا عجزا ولا مللا
وبات بالملك والتدبير مشتغلا * وبات حاسده باليأس مشتعلا
حق على الناس ان يدعوا له ابدا * فان معروفه كلا لقد شملا

وكيف لا وهي عرش دوله سبب * يديل في غيرها الاملاك والدولا
فكان تدبيره للارض قاطبة * امنا وهذا الذي كل الورى املا
وحرمة الدين لولا عزمه انتهكت * وعرضه صار بعد الصون مبتذلا
فعال من تمسك الدنيا بساعده * والدين خيفة ان يستقبلا زللا
يرى من الامر حزما في اوائله * ما غيره عنه في صيوره وهلا
فما قضى قط الّا وهو ذو ثقة * ولا نوى خطة الّا وقد فصلا
ولا تخلل وعد توافي عدة * له وانجازها بل قلها سئلا
فانما هو يولي العرف مبتدرا * والعفو مقتدرا والمن مرتجلا
فما انا قائل ما قال بعضهم * يرتاح عند سؤال المجتدي ثملا
فان ذي شيمة فيه ملازمة * له وما احد عن شيمه انتقلا
من بشر طلعته بشرى لناظره * ومن تفوهه توكيدها حصلا
تلقاه مبتسما والحرب دائرة * ونافلا وسواه لا يمن بلا
يزين باريس مرآة وهمته * حتى ترى لملوك العصر ذا نبزلا
وكل ايامها تغدو مواسم اذ * لم يبق حسن بها الّا وقد كملا
ما لاح من باعث فيه لها دعة * الّا وبادره من يومه عجلا
له الولاية حتما لاعدال بذا * فان خير ملوك الارض من عدلا
لئن مضى عمه ذاك الهمام فقد * ظلت معاليه في جيد الزمان حلى
اكرم بفرع زكا عن دوحة سبقت * كل الى ظلها الممدود قد والا
لله يوم به مادت عساكره * من حوله كجبال تنبت الاسلا
كانه البدر قد حفت كواكبه * به وما من سها من بينهم ضولا
قد كاد يذهب بالابصار لمع سنا * سلاحهم بيدي النصر قد صقلا
ما ان ترى فيهم عيناك اذ برزوا * الّا فتى فارسا او راجلا بطلا
نالوا من الشرف الاوفى بطاعته * ما لم يذر احدا عن اثرة عطلا
ولو خلوا عن سمات فاسمه لهم * مغن فما احد اجلاله جهلا
في رايه النسر لكن فوق موقعه * من السما رايه المربي على زحلا
قد كان في دارة المريخ حشدهم * لكن لسلم فكل راح ممتثلا

فكنت تسمع من ضرب الطبول ومن * رعد المدافع يوشي صاهلا زجيلا
وزهر نار من البارود قد طلعت * في ليلة ذات دجن نجمها افلا
يرى المجوسي فيها جنة وهدى * على السجود لها اني يقم جدلا
زادت زهورا بجعل اسم الامير بها * كان جمانه فيه قد امتثلا
وعاد والخلق قد طابت خواطرهم * وبالدعاء له كل قد ابتهلا
فالسعد يقدمه والعز يخدمه * والله يعصمه ما سار او قفلا
فلياتين كل ذي ملك يهنيه * ومن دنى بعدا فليبعثن رسلا
وليعلم الناس ان ما خاله جللا * سواه كان عليه هينا جللا
كن يا امير المعالي كيف شئت فمن * يقصد رضى الله لم يحبط له عملا
ومن تحرى سبيل الرشد فاز ومن * اطاع داعي الهوى لم يدرك الاملا
هذي الممالك والاملاك غابطة * هذي التواريخ يدريها الذي عقلا
فاقتد شوارد اجوال برمتها * ورض صعاب امور تلقها ذللا

وقد يسر الله لي نظم هذه القصيدة في يوم واحد الا انه بقيت الصعوبة في تقديمها لاعتاب الممدوح حيث لم تجر العادة عند ملوك الافرنج بان يقراوا قصائد مدح فيهم ولا غيرها ايضا مما يخاطبون به وانما يقرا ذلك كتاب اسرارهم وهم يجاوبون عنها المخاطب بحسبما يرونه صوابا . وفي الجملة فان نظم القصائد سواء بالعربية او غيرها اسهل من تقديمها للممدوح من ملوك الافرنج . وقد كنت مدحت ملكة الانكليز بقصيدة وقدمتها لضابط البلد وهو وكل بها زوجته لتهديها الى بعض الخواتين القائمات بخدمتها وترجمتها ايضا الى لغتهم والى الان لم ياتني عنها جواب ولا اعلم هل وصلت او لا . وكل من تعاطى لغات الافرنج من بلية الترك واشرافهم سلك هذه الطريقة . فاني نظمت قصيدة في ولي باشا سفير الدولة العلية في باريس واخرى في نامق باشا واخرى في محمد علي باشا ولم تنتج احداها سلبا ولا ايجابا بل ضاعت الاوليان واضاعا علي كراسين من ديواني ذهب كل منهما بالكراس الذي اشتمل عليها . ولم يكن مقصودي بهذا المدح سوى نهمة الشعراء المعدية الى تحمير دواوينهم بقولهم وقال يمدح الملك

وقال يمدح الامير . ثم انه لا شيء افظع عند الافرنج من ان يروا في قصائد المدح تغزلا بامراة ووصفها بكونها رقيقة الخصر ثقيلة الكفل نجلاء العينين سوداء الفرع وما اشبه ذلك فشعرهم كلهم ذهني . وافظع منه التشبب بغلام . واقبح من هذا وذاك نسبة شيء من صفات المونث الى المذكر كقول الشاعر — كان ثدياه حقان — * ولما ترجم موسيو دوكات قصيدتي التي مدحت بها المرحوم احمد باشا باي والي تونس وطبعها مع الترجمة كان بعضهم يسالني هل اسم الباشا سعاد وذلك لقولي في مطلعها — زارت سعاد وثوب الليل مسدول — . فكنت اقول لا بل هو اسم امراة فيقول السائل وما مدخل المراة بينك وبين الباشا . وهو في الحقيقة اسلوب غريب للعرب * قال العلامة الدسوقي اعلم انه قد جرت عادة الشعراء انهم اذا ارادوا مدح انسان ان يذكروا قبله الغزل لاجل تهييج القريحة وتحريك النفس للشعر والمبالغة في الوصف وترويح النفس ورياضتها . اه . قلت كما ان الافرنج ينكرون علينا هذه العادة كذلك ينكرون المبالغة في وصف الممدوح فانهم اول ما يبتدئون المدح يوجهونه الى المخاطب ويجعلونه ضربا من التاريخ فيذكرون فيه مساعي الممدوح ومقاصده وفضله على من تقدمه من الملوك بتعديد اسمائهم اما تشبيهه بالبحر والسحاب والاسد والطود والبدر والسيف فذلك عندهم من التشبيه المبتذل ولا يعرضون له بالكرم وبان عطاياه تصل الى البعيد فضلا عن القريب فهم اذا مدحوا ملوكهم فانما يمدحونهم للناس لا لان يصل مدحهم اليهم ومع علمي بهذه الحال لم يمكني مقاومة نزغة النهمة العربية الى تقديم القصيدة المذكورة ولاسيما لما سمعت بان الممدوح يعرف لغتنا فاجتمعت بالفاضل اللبيب والصديق الاديب الخواجا روفائيل كحلا وطالعته في ذلك فقال انا اعرف وسيلة لتقديمها ولكن ينبغي ان تترجمها الى اللغة الفرنساوية فان معانيها لا تضيع بالترجمة اذ هي منسوقة على نسقهم لولا التغزل بالطيف لكنه شيء عدي ولاسيما انك اشرت في مطلع القصيدة الى انكار الغزل قبل المديح . فمن ثم ترجمناها واطلعنا عليها احد ادبائهم فقال بل الاولى ان ترسلوها غير مترجمة فان السلطان عنده تراجمين

يترجمونها له فقدمت كما هي وبعد ايام لم نشعر الّا والبريد يطرق الباب واذا بيك رسالة من كاتب السلطان باسم الخواجا المذكور وباسمي مضمونها ان القصيدة بلغت جنابه العالي وحسن موقعها لديه وانه يشكرنا على ذلك شكرا جزيلا . وللخواجا كحلا المذكور اخلاق حسنة وشيم مرضية واطلاع على لغة القوم حتى انه ينطق بلهجتهم سواءً بل طلعته ايضا كطلعتهم . وممّن تعرفت به ايضا من اهل بلادنا في باريس الخواجا حنا الباردي الذي بعثه عزيز مصر لتعلم اللغة والحساب والادارة وهو ذو مناقب تشهد له بالفضل تعلم اللغة وبرع فيها ونال عند المشار اليه وجاهة وحظوة . والخوري عبد الاحد الكلداني وهو مشهور بالكرم وحسن التصرف وله عند مطران باريس منزلة رفيعة . والخوري نرسيس القازنجي له اطلاع على كثير من اللغات لكنه غير متمكن منها وقد قضى نحو خمس عشرة سنة في تاليف كتاب جامع لاربع لغات او ثلاث والى الان لم يبرز الى الوجود . وقال لي يوما ان فلاسفة باريس لابد وان يخترعوا دواء لمنع الموت ولعل امله هذا هو الذي ثبطه عن انجاز كتابه . فاما الخوري زغيب فانه داخل في سلك التجار فلهذا لم اره . وفي الحقيقة فان باريس لا يحق لها ان تشكو من مخرقي اهل بلادنا ومن مدجليهم . ثم انه في خلال هذه الاوقات استقل السلطان المشار اليه بولاية الملك ولقب بالامبراطور فنزغني نازغ آخر من — وقال يمدح الامير — الى ان اهنئه بقصيدة واقدمها على يد رئيس تراجمين بابه الكنت دكرانج الذي مر ذكره فلما فرغت منها وقرأتها عليه قال ليس من هذه الصفات التي نسبتها الى السلطان ما هو مختص به وحده فانه يصلح لان يخاطب به اي ملك كان وهي مع ذلك عويصة لا يمكن ترجمتها ولو قدمتها كما هي لما استحسن منها غير الخط والشكل فقط فلهذا اضربت عن تقديمها وشكرته على نصحه ولكني لا اضرب عن قيدها هنا حتى يتنفخ بها بطن هذا الكتاب وهي هذه *

للويس نابوليون حق السودد * والملك اذ هو في المعالي اوحد

فلتقدم الاملاك داعية له * بالتهنئات وشانه فليحمدوا

بشرى لذي ملك يزور نديه * ولمن ينبا عدله فيقلد
ولمن يبايعه ويشري نفسه * بولائه فجزاء مد يد يد
نظر الزمان بسعيه ابطاءه * من قبلُ فاستحيا فاقبل يحفد
فجلا لنا في ظرف عام منه ما * لم يجله للناس دهر سرمد
امن الورى في ظله وتنعموا * والى الترفه والترف اخلدوا
حتى خشوا ان البلادة من دوا عيها بالهنية وعيش ارغد
يتهجد العافون امنا وهو من * شفق على اغفائهم يتهجد
اضحى لهم من بعد انواع العنا * عيش بطالع سعده لا يهجد
تنسي الثواكل حزنهن فعاله * فهي التي ما بينهن تعدد
ضبط الامور بحزمه واقتدها * فبما حبانا اليوم ياتينا غد
قيد الاوابد رايه ما حادث * عنه يند ولا قديم يرشد
وضجيعه الفكر المنير يريه ان * اضحى فينهض للامور يفرد
ما بعد ان ظهرت مكارمه يرى * احد يلوم لفائت او يكند
عن حلمه تروي الشهود لغائب * وبفضله كل البرية تشهد
هذى المآثر فاهتدوا بمنارها * يا ايها الثقلان ثم به اقتدوا
هذي المفاخر فاتنا بمثالها * يا من مديح ملوك عصرك تنشد
يستسهل الراوون مطلع صاعد * شرفا ولكن ما كذا من يصعد
ويروق مخر المنشئات لناظر * ما خاض لج اليم وهو يهدد
قل للمشبه قد غويت فهاتنا * بنظيره ان كنت ممن يرشد
لا تدرك الابصار لولا الشمس ما * جرم الهباء ولا يراها ارمد
هبنا اسمه حتى نجل سميه * حبا به ولنا اليه تودد
فات الملوك فخاره فرضوا بان * يدعوا ببعض صفاته كي يسعدوا
ولربما حاكى السراب الماء عن * بعد واظما من اتاه المورد
يا من تولى عرش عز صانه * ذو العرش وهو بما حباك مويد
شرفت تاج الملك حين رضيته * وازداد وهو عليك فخرا يحاسد
فجلت فرنسا طلعة كانت لها * ايام عمك عبلة المستعبد

ما زال مذ عرف الورى املاكهم * يطا الممالك من حماها سيد
فاسلم ففي يمناك غبطة اهلها * وبعزها الارضون طرا تنجد
دم آفقا قدرا ورايك ارشد * ومسابقا فخرا وجدك اسعد

وفي غضون ذلك شرعت في تاليف كتاب الفارياق الذي نشر طبعه الخواجا روفائيل كحلا الموما اليه وبعد ان طبع منه عدة صحائف اقتضى لانجازه سبك حروف جديدة فانتظرت مدة حتى اذا قنطت او كدت اقنط من ذلك وكانت نفسي قد تاقت الى فقع لندرة وقاعها سافرت على نكظ فتعرفت حينئذ بالخواجا ميخايل الخلع فقد كان قدم الى لندرة لمعاطاة التجارة . ومما أعجبني منه كرمه وسعة اطلاعه فقلما يرد ذكر شاعر إلّا ويروي عنه او نكتة ادبية إلّا ويسردها ــ اقام في لندرة عاما ونيفا وسافر عنها وهو يدري جميع احوالها . وقد اهداني نسخة من كتاب كلستان الذي ترجمه اخوه من الفارسية الى العربية فلما تصفحته وتاملته حق التامل ظهر لي ان خبره دون مخبره اذ لم اجد فيه من المعاني المبتكرة ما اوجب احتفال العجم به هذا الاحتفال العظيم فانه عندهم بمنزلة مقامات الحريري عندنا غير ان عربيته فصيحة . فلما قابلته المرة الثانية وجرى ذكر هذا الكتاب قلت له لقد طالما سمعت بذكر كلستان غير انني لم اجده يستحق هذه الشهرة وقد حدثتني نفسي بان انشئ كتابا على نسقه التزم فيه الهزل قال فافعل فانشأت في اليوم القابل هذه الحكايات الاتية ولما قرأتها عليه وقت الاجتماع قال قد افرطت في تحديه وهو فوق ذلك وابى الا التنويه به . هذا ولما كان باب الانشاء قد ارتج علي بلندرة لكثرة قعقعة العواجل والحوافل فيها بحيث لا يمكن لسامعها في اثناء الليل واطراف النهار ان يجمع افكاره او يبتكر معنى حسنا حق لي ان اتبجح بان اثبت هنا ما كتبت محاكيا لصاحب كلستان وهو *

ــ حكاية ــ رايت قوما يتسابقون حشدا . ويتزاحمون حفدا . فمن بين ضاغط جاره . ومهطع كانه يشن الغاره . فقلت تالله ما اجتمعت هذه الجماعة إلّا لامر عظيم . ولا قصدت إلّا مقصد خير عميم . ثم قلت في نفسي . بعد استصواب حدسي :

انهض الى المكرمات مستبقا * ولا يصدنك عائق عنهـا
وان تجد عصبة سعت جهة * فاسع اليها ثم استفد منهـا

فجاريتهم وانا اظن اني اكون اول الفائزين * ومقدام البارزين * فلما بلغت حلقة الرجال * وكانوا ما بين حزقة وطويل وطوال * خرقت صفهم * وحزقت مصطفهم * واذا في وسطهم خطيب * كنت اعرفه مذ عهد غير قريب * فاول ما وقع عليه الطرف * وآنست منه الظرف * قلت له السلام عليك يا خطيب يا امام * فاجابني بديها وعليك السلام *

— حكاية — بينما كنت اطوف في مدينة القاهرة * وانظر ما فيها من المحاسن الباهرة . واحدق في وجوه الشوافن * في الرواشن * اذ لمحت في روشن غادة فاقت النسآء بالظرف والجمال * والصباحة والدلال * فقلت منشدا * وانا على غير هدى :

بالله رقي لمغـــرم دنف * قد اسلمته الى البلى عينه
تصدقي بالوصـال علك ان * تشفيه فلقد دنا حينـه

ثم غشي علي من شدة اللوعه * ثم افقت طمعا ولم ابرح اسير الهوى وطوعه * وناديتها بلسان مبين * الا اني اليك من التائقين العاشقين الخاضعين * فقالت واني لك لمن السافقين الصافقين الصافعين *

— حكاية — كنت امشي في اسواق الاسكندرية * وعرضي لالسنة الناظرين الي كالدرية * اذ كنت لابسا نعلا بالية وثوبا صفيقا * وقد انحل حزامي فكان يكنس البلد طريقا فطريقا * فصادفت عجوزا تلحظني فقلت علام القوم يضحكون * وفيم ينهمكون * فقالت وقد قهقهت * وعن انيابها المتهشمة جلقت * من مكنستك هذه الحرير * وطورك الذي لم ير له نظير * فقلت :

من احب المعروف فليكرم الضـيف بايناسه وابلاغ سوله
ليس يبغي قرى ولا بذل مال * منتهى ما يروم في تاهيله

فقالت اما ان شئت ان نقول لك اهلا وسهلا * فانت ادينا موهل ومسهل والا فلا * ثم هرولت عني وعن عيني اختفت * فاتبعتها اللعنة التي بها التحفت *

ـ حكايـة ـ قصدت الرشيد * لما فيها من الحظ العتيد * والحدائق الناضرة * والمسارح السارة * فلما دخلتها لاح لعيني غلام كالقمر * يخجل الحور بالحور * فتفآلت بنضرته * وعجبت من عدم شهرته * فانشدت بمسمع منه *

لبعض الناس فعل دون ما اسمٍ * وبعضهم له اسم دون فعل

واردت ان افتتح معه الكلام * فاستدلت منه على الحمام * فقال لي بلهجة فصيحة * وعبارة صحيحة * اانت جنب مذ خروجك من البيت او في الحال فقلت

ان كان يمكنك اصطناعي عاجلا * فافعل ولا تسال عن الاسباب

فلربما اخرت معروفا ومـــــا * قدمت غير مساة الاصحاب

فدلني عليه فاذا ابوه قيم فيه فنوه عنده بي * واثنى على ادبي * فلما خرجت من ذلك النعيم * كخروج آدم من الجنة وهو مليم * بش بي الرجل وادبني تلك الليلة الى طعامه . فلبيت دعوته واجزلت له الشكر على انعامه . وسرت اليه وفي امعاي وقوب . وباضراسي القشم رقوب . فلما حظيت بانسه . وحصلت في مجلسه . وضع الخوان . وهو يميد من الطعام بالوان . فاكلنا وشربنا . ولعبنا وطربنا *

ـ حكايـة ـ ما زلت مذ عرفت حلو الاستراط . ومر السراط . اتشوف الى روية دمياط . لما بلغني عنها من كثرة سمكها واطيارها . ورخص اسعارها . وكان بي نهم الى اكل السمك شديد . وقرم الى العصفور ما عليه من مزيد . وقد قال في الاول من اجاد القول جد او هزل

ما ان ندمت على شرآء الحوت في * وقت وان افرغت فيه الكيسا

ان كنت انفق فيه فلسا واحدا * القاه فيه قد استحال فلوسا

فلم اكد ابلغ ساحلها حتى رايت صيادا قد القى شبكته في البحر . وهو مبتئس ولها وفي طلعته سمة الضجر . فتقدمت اليه وسلمت عليه فقلت اجذب الشبكة باسم الله على بختي . وان كنت اعهده يمر دائما من تحتي . فان اشتملت على حيتان صغيرة . اديت اليك قيمتها موفورة . وان حوت الكبيرة . كان لي ان انال منها مجانا حصة وفيرة . فرضي بذلك . وقال حسبي الله

الولي المالك . فلما اخرجها اذا بها قد استوعبت من كبار السمك . ما لم يكن عهد منذ درج وسلك . فجاد علي بحصة . وقد اجرضه من الشرط غصة . فاوقدت جنبه نارا . وبعثت الى السوق من اشترى لي خبزا وعقارا . وملحا وابزارا . وما زلت اشوي والتقم التفافا . واشرف اشتفافا . حتى منيت بالهيضة والزحير . واستحال علي التقدم والتاخر في المآب والمصير *

— حكاية — * وجدت في صدري ضنكا من مجالسة الرجال . ومطارحتهم الحديث والامثال . وقد جبل الانسان على حب التبدل . والتحول والتنقل . فيسام النعيم . اذا طال . ويرى في المثابرة الثبور والوبال . وفي الادمان الدمن والوبال . فتحريت مجالسة الصبيان . والخوض معهم في صار وكان . فلم اكد اخرج من غرفتي حتى رايت زمرة منهم يلعبون بالنقال والاوتاد . ويضجون ضجيج الناس في يوم الجراد . فتوهمت ان بي صمما او لمما حتى لم اسمعهم على قربهم من الغرفة . ولغطهم على تلك الصفة . فدعوت احدهم فحشد الي حفزا . وكلمني ركزا . فسكن روعي عند سماع نغمته الرخيمة . وايقنت ان حاسة سمعي بقيت في سليمة . فحمدت الله تعالى على لطفه بي . وزاد في عشرة الاولاد اربي . — اه *

ثم ورد الي كتاب من الخواجا روفائيل كحلا يوذن باستتباب حروف للفارياق فسافرت الى باريس ولما علمت ان طبعه لا يتم في مدة قصيرة رجعت الى لندرة وكانت صحف الطبع ترسل الي هنا لاصلحها ثم اعيدها وهكذا نجز الكتاب . ثم لما فتح معرض التحف في باريس وذلك في ١٥ ايار سنة ١٨٥٥ سافرت ايضا لاشاهده وهو بناء جليل من حجر لكنه ليس في كبر معرض تحف لندرة ولم يكن يحوى بضائع متنوعة ما حوى ذاك الا ان من حذق الفرنساوية انهم ينضدون الامتعة بنوع انها تبدو للعين رائقة فائقة . وفضلا عن ذلك فان الناس كان همهم في تلك السنة انتقاء مضار الحرب وغوائلها وكان الذين عرضوا بضائعهم فيه خمسة وعشرين الفا منهم عشرة آلاف من الغرباء . وقد رايت فيه حلي السيدة زوجة السلطان

وهي مما يفوق الوصف . ثم عدت الى لندرة ثم سافرت بعدها مرتين الى باريس ثم عدت وكانت عودتي هذه المتممة للعشرين مرة من زيارتي لندرة . وحيث وجدت نفسي هذه المرة قارا فيها وجب علي ان اصف ما فيها مما يحمد ويذم وصفا تاما وافيا . وانما لم اطل الكلام في وصف باريس لما تقدم آنفا من ان الشيخ رفاعة الف رحلته فيها ولان البلدة معروفة عند سكان البلاد الشرقية اكثر من لندرة . ويجب قبل الشروع في الوصف ان تعلم ان ما قيمته من الماكول والمشروب فرنك ففي لندرة شلين غالبنا وان نفقة السفر من لندرة الى باريس في المحل الثاني من الرتل لا تزيد على احد وعشرين شلينا سواء كان على طريق هافر او دياب او بولون او كالي وذلك في ظرف خمس عشرة ساعة بعضها في سكة الحديد وبعضها في سفينة النار . وهذه السفن التي تجري ما بين سواحل انكلتيرة وفرنسا ليست كتلك التي تجري في بحر الروم فانها قذرة وقل ان تجد فيها فرشا للنوم فان قصر المسافة بين الارضين قصرها على ان تكون للتجارة اولى من ان تكون للركاب . واقصر المسافات هي التي يسافر فيها من دوفر الى كالي ولكنها اغلى ما يكون . والاولى لمن يجهل احوال لندرة اذا سافر من باريس ان يجعل قدومه اليها في النهار لانه يصعب عليه في الليل وجدان محل يبيت فيه لما ان الحوانيت والمبايت كلها تقفل في الساعة الثامنة ليلا فاما في باريس فلا يعدم ان يصادف مبيتا في اي وقت واي منزل شاء *

الكلام على لندن او لندرة

كان عدد اهل لندن في سنة ١٨٠١ : ٩٥٨ ٨٦٣ وفي سنة ١٨١١ : ١١٣٨٨١٥ وفي ١٨٥١ : ٢٣٦ ٣٦٢ ٢ وفي ١٨٥٧ : ٠٠٠ ٦٢٥ ٢ . قال بعض المولفين ان دورتها سبعة وخمسون ميلا ونصف ميل وذلك عبارة عن سفر نحو ثلثة ايام اذا كان يسافر في كل يوم قدر عشرين ميلا وتفصيلها من شسويك الى كنتش تون اثنا عشر ميلا . ومن كنتش تون الى ملول سبعة عشر ميلا ونصف . ومن ملول الى شسويك ثمانية وعشرون ميلا . وقال

ءاخر ان لندن اصح مدن العالم هواءً والدليل على ذلك ما ذكر في تعريفات الموت من انه يموت فيها من كل الف خمسة وعشرون وفي غيرها يموت من الالف من ثلثين الى اربعين . وقال ءاخر ان لندن اغنى مدن العالم واكبرها زعم بعض انها كانت مدينة من قبل الميلاد بالف ومائة وسبع سنين وقبل تاسيس رومية بثلثمائة واربع وخمسين سنة وانها كانت مقرا للطرينوبنث ولملوكهم قبل الميلاد باربع وخمسين سنة . وفي سنة ٦١ بعد الميلاد كان الرومانيون يسمونها لنديتيوم وهو اسم لمقر التجار في ذلك العصر ولسوق المعاملات والمبايعات . وزعم بعض انها مشتقة من لود اسم لملك قديم في بريتانية . والاصح انها مشتقة من لين دين اي بلد على بحيرة . وزعم ءاخر انها كانت تسمى في الزمن القديم لندنبورغ كما يقال الان لقاعدة سكوتلاندة ايدنبورغ . وقال ءاخر موقع لندن على نهر تامس على بعد نحو خمسين ميلا من فوهته وقد صدق ما وصفها به ساي بقوله ليست لندن مدينة واحدة وانما هي اقليم مغشى بالبناء . وفي سنة ١٨٤٩ لزم لاهلها من الدقيق مليون وستمائة الف كوارتر (١٠٩) . ومن الغنم مليون . ومن الثيران مائتان واربعون الفا . ومن العجول ثمانية وعشرون الفا . ومن الخنازير خمسة وثلثون الفا . وفي احد اسواقها المسمى ليدن هل بيع من الطيور اربعة ملايين واربعة وعشرون الفا ومن السمك المسمى سمونا ثلثة ملايين . وهذا القدر من الماكول غسل من المشروب بمقدار ثلثة واربعين مليونا ومائتى الف غالن من المزر (١١٠) وبمقدار مليوني غالن من الارواح . وبمقدار خمسة وستين الف قصبة من الخمر (١١١) . وفيها ثلثة عشر الف بقرة للاحتلاب . وثلثمائة وستون الف قنديل يشعل بالغاز ينفد منها في كل اربع وعشرين ساعة ثلثة ملايين قدم مكعب من الغاز . وتمد الاهلون من الماء بنحو ٣٢٨ ٣٣٨ ٤٤ غالنا في كل يوم . ويستعمل لاجل اصطلائهم ولوازم المعامل اكثر من الف سفينة لنقل الفحم فتحمل في العام اكثر من ثلثة ملايين طن . وكثيرا ما روي دخان النار منها على بعد ٣٢ ميلا . وفيها من الخياطين ٧٥١ ٢٣ ومن الاساكفة ٥٧٩ ٢٨ ومن الخياطات وصانعات برانيط النساء اكثر

من اربعين الف ومن الخدمة ١٩٩٧٠١ . وقال ءاخر يوجد في لندرة من اهل ارلاند اكثر مما يوجد في دبلين قاعدة بلادهم ومن اهل سكوتلاند اكثر مما يوجد في ايدنبورغ ومن اليهود اكثر مما يوجد في فلسطين ومن الرومانيين مائة الف نفس وهو اكثر مما يوجد في رومية ومن الجرمانيين ستون الفا ومن الفرنسيس ثلثون الفا ومن الطليانيين ستة ءالاف . وقال بعض المولفين من الفرنساوية ان مدينة لندرة في قول اميان مرسلان (١١٢) قديمة جدا واشتقاقها من لفظة لون بمعنى سفينة وديناس اي مدينة فكانك قلت مدينة السفن . وذهب بعض الى ان اشتقاقها من لون اي غيضة ودن اي مدينة فكانك قلت مدينة في غيضة . قال اما موقعها فهو في اقليم مدلسكس على تسعة وستين الف ذراع من فم نهر تامس وعلى ثلثمائة وتسعة وسبعين الف ذراع من باريس وهي اكثر مدن العالم اهلا رقعتها مائة الف ذراع مربع واهلها ٢٠١٣٠٠٠ منها ٩٥٦٠٧٦ ١ ذكور والباقي وهو ٩٣٦٠٤٤ اناث . قلت وقد تقدم ما زادت به من عدد النفوس فينبغي ان تقيس عليه سائر الزيادات . ويولد فيها في العام نحو خمسة وثمانين الفا ويموت نحو اربعة وسبعين الفا . والمحسوب انه يولد فيها في الاسبوع نحو الف وثمانمائة نفس منهم ٩٦٠ ذكور و٨٤٠ اناث ويموت فيها نحو الف وثلثمائة نفس . وممن ولد فيها من المشاهير ملطون وبوب الشاعران ولورد بيرون الكاتب الشاعر الاديب ودفن فيها من الشعراء الكبار خمسة وعشرون . قال وهي تحتوي على ٢٨٨٠٠٠ دار تغل في العام مائتين وعشرين مليونا من الفرنك وعلى ١٥٠٠٠ شارع وزقاق وتربيعة . وقد اتسعت من مدة خمسين سنة اكثر من ضعفين مما كانت في السابق . ويرد اليها ويصدر عنها من السفائن التجارية نحو خمسة وعشرين الفا في العام فلا يزال في مرساها نحو خمسة ءالاف سفينة واربعة ءالاف اخرى مستخدمة لثمانية ءالاف نواتي واربعة ءالاف صانع . وراس المال الذي اخرج في عمل الاقنية والمجاري وغير ذلك مما يختص بالغاز بلغ ستة وسبعين مليونا وثلثمائة وخمسين الفا من الفرنك . والمصروف على التنوير في العام

يبلغ ستة عشر مليونا . وفي لندن ثمانية مواقف لسكة الحديد وست فياض وثلثمائة واربعون كنيسة ومعبدا للمتاصلة وربما كان المعبد داخل الكنيسة وثلثمائة وسبعون معبدا للمتفرعة وثلثمائة واربعون مكتبا للتعليم واربعة عشر سجنا وثمانية دواوين للشرطة واثنان وعشرون ملهى اي ثياطرا وخمسون سوقا لبيع الماكولات من اللحم والدجاج والبقول ونحوها وسوق القمح فيها كلف ٩٠ الف ليرة وعدد ما يذبح من البقر لطعام اهلها ١٩٠،٠٠٠ راس ومن الغنم ٧٧٦ الفا ومن الخرفان الصغار ٢٥٠ الفا ومن العجول قدرها ومن الخنزير ٢٧٠ الفا يبلغ وزنها في الجملة ثلثمائة وثلثة وسبعين مليونا ومائتين وثمانية آلاف رطل من ارطالهم (١١٣) . فاذا قوم كل رطل بنصف شلين في اجمال بعضه ببعض بلغ ثمنها مائة وسبعين مليونا وسبعمائة وخمسة وخمسين الف فرنك يخص كل انسان على حدته ١٤١ رطلا وهو اكثر مما يخص كل واحد في باريس بضعف مثله والمصروف من السمك ١٢٠ الف طن ومن الزبدة او السمن ١١ الف طن ومن الجبن ١٣ الف طن ومن القمح ٣٦ مليونا من الكوارتر ومن الفحم ثلثة ملايين طن ومن اللبن ٤٠ مليون زجاجة ومن الخمر ٦٥ الف برميل والبرميل عبارة عن ستة اطينان ومن الارواح ٨٠ مليون ليتر ومن المزر والجعة مليونا برميل . قلت وفيها ٤٥٥٧ حانة يباع فيها المزر وسائر انواع الشراب . قال وفيها ١٦٥٠٠ اسكاف و ١٤٥٠٠ خياط و ١٣٢٠٠ نجار و ٦٨٣٠ بناية و ٢٣٢٠ صانعا في الرصاص و ٥٠٤٩ جلفاطا و ٢٦٧٠ صانعا في البرانيط و ٢٦٤٠ في الساعات و ٥٤٠٠ في الخشب و ١٠٩٩ بائع ادوية و ٢١٤٠ صانعا في البراميل و ٣٧٠٠ طباع و ١٠١٠ صناع لعجلات المراكب و ٢١٠٠ حلاق و ٩١٠ من صناع الحلواء و ٤٣٣٠ جزارا و ١٥٩٠ تاجرا في الجبن و ١٠٨٠ في السمك و ١٠٩٠ في التبغ و ٢١٧٠ تاجرا في العواجل والعجلات و ٥٦٦٠ خبازا و ٤٦٤٠ تاجرا في الشمع والسكر والصابون ونحوها و ٤٢٠٠ بزازا و ١٠٤٥٠ بائعا للحليب و ٢٨١٠ للجواهر و ٧٨٠٠ سائق عاجلة وحافلة و ٧٤٢ سفينة نار تجري في نهر تامس كما تجري الحوافل في طرق المدينة وذلك ما بين رشمند وكرافسند وما حولهما .

واشهر المواضع فيها التربيعة المعروفة باسم ترافلكر فيها عمود نلسون مبنيا من المرمر ارتفاعه مائة وست وسبعون قدما انكليزية وفوق العمود تمثالة وعلى جانبي الساحة عينان نضاختان قبالتهما صورة الملك شارلس الاول من نحاس . قلت قال بعض ان عمود نلسون هو من حجر جلب من بورتلاند وكان نصبه في سنة ١٨٤٣ وعليه شرف من نحاس صنعت من مدفع اخذ من الفرنساوية ولخزي الدولة واهل البلاد بقي غير متمم وقد بلغت نفقته ثلثة وثلثين الف ليرة . وممن تبرع في العطاء لانشائه سلطان الروس فانه اعطى خمسمائة ليرة وهو اكثر ما تبرع فيه لهذا الانشاء وعنده تمثال كرلوس او شارلس الاول صنع في سنة ١٦٣٣ اهـ . واعلم ان نلسون المذكور هو الذي ظفر بمراكب الفرنساوية التى سار فيها نابوليون وجنده الى مصر فاحرقها عند ابي قير وذلك في سنة ١٧٩٩ واتلف ايضا بوارج فرنسا واسبانية في الحرب المعروفة بترافلكر عند راس فنستير وذلك في سنة ١٨٠٥ . وكانت سفن الانكليز ثمانيا وعشرين سفينة وسفن الدولتين المذكورتين اثنتين وثلثين ويومئذ قتل وهو عند الانكليز معظم الذكر لا يزالون يلهجون بمساعيه البحرية لهجهم بمساعي الديوك ويلنكطون البرية وكان مولده في سنة ١٧٥٨ . وفي معجم الاوقات ان نصرة الانكليز في الحرب المذكورة هي اعظم نصرة حازوها وكان للفرنساوية من البوارج ثماني عشرة وللاسبنيول خمس عشرة وللانكليز سبع وعشرون وبعد قتال شديد اسر امير البوارج الفرنساوية وغيره وتلف لهم تسع عشرة سفينة غير ان الاميرال نلسون لاقي منيته يومئذ فقام مقامه كولن وود وكان اسم سفينته فكطوري اي نصرة وءاخر اشارة صدرت من نلسون قبل الشروع في القتال قوله ان انكلترة تتوقع من كل انسان ان يقضي الواجب عليه وكان ذلك في الحادي والعشرين من تشرين الاول سنة ١٨٠٥ * قلت وهذا عندهم من الكلام البليغ ولذلك كتبت هذه الجملة على العمود * وفي كتاب آخر يسمى تعليقات ومسائل ان بعض خدم نلسون وكان به غفلة قال كان سيدي اذا باشر الحرب يلبس احسن لباسه المنصبي فكنت انهاه عن ذلك فيقول لي مه فانني اقضي الحرب بافخر لباس لي

فاقول له بل الاولى ان تلبسه بعد ان تفرغ من الحرب * قال واو اني كنت حاضرا يوم ترافلكر لما اصابه ما اصابه بذلك اللباس الذي ترداه * اه * قال المولف الاول وفيها ايضا عمود ءاخر بني تذكرة للحريق الذي وقع في لندرة سنة ١٦٦٦ بلغت نفقته ١٣٧٠٠ ليرة ارتفاعه مائتا قدم وقدمان وهو اجوف يشتمل على ثلثمائة وخمس واربعين درجة وارتفاع شرفته اثنتان واربعون قدما * وآخر نصب في سنة ١٨٣٣ عليه تمثال ديوك يورك ابن الملك جورج الثالث ارتفاعه مائة واربع وعشرون قدما وعلو التمثال اربع عشرة قدما * قال واعظم كنيسة للبروتستانط كنيسة مار بولس في المدينة المذكورة بنيت على هندسة كنيسة مار بطرس برومية ابتدي ببنآئها في سنة ١٦٦٦ ونجز في خمس وثلثين سنة وبلغ جملة ما انفق عليها ٣٧٥٠٠٠٠٠ فرنك جمع ذلك من طسق جعل على الفحم وطولها خمسمائة قدم وارتفاعها اربعمائة واربعة اقدام ووسعها ثلثون فدانا * اه * قلت وسياتي ذكر لهذه الكنيسة * ثم ان هذه المدينة شطران يخترقهما نهر تامس * احدهما ليس فيه شي يزني الناظر فانه عبارة عن ديار وطرق وحوانيت * والثاني وهو الذي تقيم فيه الاشراف والاعيان يشتمل على اشيآء كثيرة بديعة سيمر ذكرها بك ان شآء الله * وهذا النهر مبني عليه عدة جسور * احدها وهو اول ما يراه القادم الى لندرة الجسر الذي يقال له جسر لندن طوله ٩٢٨ قدما وهو مبني من حجر صلب ويشتمل على خمس قناطر علو كل منها سبع وعشرون قدما بدئ به سنة ١٨٢٥ وفتح في سنة ١٨٣١ وانفق فيه نحو مليوني ليرة وعليه فوانيس للتنوير صنعت من مدفع اخذ في حرب اسبانية ولا يزال مزدحما للناس والخيل والحوافل والعواجل حتى ان من يشآء ان يمر فيه من جهة الى اخرى يعرض نفسه للخطر فيلزمه ان يسير على سمت واحد ومن ير ازدحام الناس عنده ولم يكن قد الف احوال البلد يظن ان الناس متاهبون الى الخروج للحرب والقتال اذ يمر عليه في كل دقيقة نحو ثلثين مركبا ما بين عاجلة وحافلة وعجلة وما اشبه ذلك وعنده عمود شاهق من حجر وتمثال للملك وليم الرابع من رخام * الثاني الجسر المسمى صوث ورك طوله ٧٠٨ اقدام وله ثلث قناطر من

حديد بدي به سنة ١٨١٥ وفتح في سنة ١٨١٩ وبلغت نفقته ثمانمائة الف ليرة * الثالث الجسر المسمى بلاك فرير بدئ به في سنة ١٧٦٠ وفتح في سنة ١٧٧٠ وهو يشتمل على تسع قناطر طوله ٩٩٥ قدما وبلغت مصاريفه ١٥٢٨٤٠ ليرة * الرابع جسر واطرلو وهو اعظم جسر في المسكونة بدئ به سنة ١٨١١ وفتح سنة ١٨١٧ وبلغت مصاريفه اكثر من مليون ليرة ما عدا القرض الذي اخذ من الدولة وقدره ستون الف ليرة وهو بديع الصنعة كله من حجر المرمر يشتمل على تسع قناطر سعة كل منها مائة وعشرون قدما وارتفاعها خمس وثلثون وطول الجسر ١٣٨٠ وقد جعل على كل مار به بني فجاء المجموع من ذلك في سنة واحدة ٤٦٧٦ ليرة وعله بعضهم من عجائب الدنيا * قلت وكانت واقعة واطرلو المشهورة في سنة ١٨١٥ * قال بعض المولفين زحف نابوليون على الانكليز ومعه من الجيش احد وسبعون الفا وكان يرجو ان يفشلهم بكثرة العدد اذ لم تكن عساكرهم تنيف على ثمانية وخمسين الفا لكنهم صابروا ودفعوا عساكره من الساعة التاسعة صباحا الى السابعة ليلا فلما راى منهم الجلادة والثبات ابتدات عساكره ان تتراخى ثم اتصل بالانكليز بولو ومعه خمسة عشر الفا وحينئذ امر الديوك ويلنكطون بالاطلاق عليهم فاحتدمت نار القتال بينهم اي احتدام فقتل من الانكليز مائة وعشرون ضابطا والف وستمائة واحد وخمسون نفرا وجرح اربعمائة وستة وثلثون ضابطا وخمسة ءالاف واربعمائة وستة وخمسون نفرا ولكن قتلى الفرنسيس كانوا اكثر ويومئذ اضطر نابوليون الى الرجوع الى باريس ليجند جيشا آخر فلم يوافقه اهل الشورى لانه كان قد تلف معه اربعة جيوش من قبل فاضطر الى ان يخلع نفسه على ما ذكر سابقا (١١٣) * الخامس الجسر الجديد المسمى بالمعلق لانه غير مبني على قناطر له ثلث فتحات واسعات جدا وهو اعلى جسر في الدنيا من هذا الطرز بدئ به سنة ١٨١٤ وفتح سنة ١٨١٩ زنة ما فيه من الحديد ٥٠٨ ٥ اطينان * السادس جسر وستيمنستر بدي به سنة ١٧٣٨ وتم في سنة ١٧٥٠ طوله ١٢٢٨ قدما وعرضه ٤٤ وله خمس عشرة قنطرة وبلغت نفقته ٣٨٩٥٠٠ ليرة ولما شرع في بنائه حسبه المهندسون من

احسن جسور الدنيا . السابع جسر ڤكسهال صنع من حديد صب بدئ به في سنة ١٨١١ وفتح في سنة ١٨١٦ طوله ٧٩٨ قدما وهو يشتمل على تسع قناطر . الثامن جسر همرسميث طوله مائة واثنتان وثمانون قدما وغير ذلك مما ذكره يطول . ومن اعجب ما بني على هذا النهر والاحرى تحته المجاز المعروف بتامس طنل وهو موضع انشئ تحت الماء طوله الف ومائتا قدم ارثوى انشاوه في سنة ١٨٢٥ ثم اغلق لطمو المياه عليه ثم استونف العمل فيه وفتح سنة ١٨٤٣ بلغت نفقته ٦١٤٠٠٠ ليرة وجملة ما يوخذ له من المتفرجين عليه في كل سنة نحو خمسة الاف ليرة وينزل اليه في نحو مائة درجة من حديد ويدفع على ذلك بني واحد انشانه جماعة تعرف بجماعة الطنل ومعنى الطنل القبو او السرب او النفق ويقال ان نقر ذراع واحد منه في بعض المواضع انفق فيه الف ومائتا ليرة وبعضه ١٢٠ ليرة . والفائدة من انشآئه مرور الناس فيه من جهة لندرة الاولى الى جهتها الاخرى فهو بمنزلة الجسر الّا اني ذهبت اليه غير مرة فلم ار فيه الّا المتفرجين . وقيل ان الغرض منه ذكر شرف للدولة ونرى سفن النار تجري منحدرة وصاعدة في هذا النهر مشحونة بالرجال والنسآء كما تجري الحوافل والعواجل في الطرق وحين تمر تحت القناطر تميل قصب الحديد التي هي مداخنها ليمكنها الدخول فاذا جاوزتها اعادتها كانها قطعة واحدة . وعدة المراكب المنسوبة الى هذا النهر بلغت في سنة ١٨٥٠ — ٢٧٣٥ وعدة سفن النار ٣١٨ يستخدم فيها ٣٥٠٠٠ نفس من الرجال والصبيان وفي سنة ١٨٤٨ ورد الى مرساه ١٤٥٤٢ سفينة ورد من المكس عليها الى ديوان المكس ١١١٩٣٧٠٧ ليرات وكانت قيمة الخارج منه ١١٠٠٠٠٠٠ ليرة . وعدة مراكب البر التي تسير في المدينة ما بين كبيرة وصغيرة نحو سبعة الاف وعدة الصنف المسمى هكني كرج ٣٥٠٠ * وعلى الحافلة الكبيرة وهي المعروفة باسم امنيبوس ترى اسماء الحارات والاماكن التي تسير اليها ولابد وان يكون مكتوبا عليها اسم البنك فانها كلها تمر به الّا ما قل وكل منها يسع اثني عشر شخصا بداخلها وتسعة بخارجها . ومن هذه الحوافل نحو ستمائة حافلة اشترتها جمعية واحدة

مع لوازمها من الخيل والعدد باربعمائة الف ليرة فتكون كل واحدة منهما بنحو سبعمائة ليرة وهي بالنسبة الى حوافل باريس معنتة من وجوه . احدها انه ليس في داخلها شيء يتمسك به الانسان فاول ما يدخلها يستمر سائقها في السير فيترنح الداخل يمنة ويسرة وربما وقع على بعض الجلوس وكثيرا ما يعجل البواب الى اطباق الباب على يد الداخل وكثيرا ما ترد شكاوي الركاب في هذا الى القضاة فمنهم من حصل ارشا ومنهم من خاب . الثاني انه اذا كان بين هولاء الستة رجلان سمينان ضاق الموضع بالباقي اذ لا يكاد يسع هذا العدد إلّا باللز والتضام وقد وقع غير مرة نزاع افضى الى الشرع ما بين هولاء السواق وبين الرجال السمان فان السائقة يابى ان ياذن للسمين في ان يتبوا موضعين ويدفع عليهما اجرة واحدة فاما في باريس فبين كل قاعدين فاصل من قضيب نحاس فالقاعد فيها مقعدا لا يكاد يمس جاره وكانما هو قاعد على كرسي بداره . الثالث انه قد يتفق ان يكون اليوم باردا ويبتدر احد الجلوس الى فتح احدى طيقانه من دون ان يسال جاره هل يستطيب ذلك اولا فان كل واحد من الناس عموما ومن الانكليز خصوصا يرى ان في صلاح نفسه صلاح غيره . الرابع ان الداخلين لا يدفعون الجعل عند الدخول كما يفعل في باريس بل عند الخروج فيدفع الخارج الاجرة الى السائق ويذهب في خلال ذلك الوقت عبثا ما بين تصريف الدراهم والقال والقيل والبواب هنا ابدا معرض راسه المطر والشمس اذ لا جنة تقيه بخلاف لبواب في باريس . ولبوابي حوافل باريس شريط من قصب على اطواق ملابسهم وصفحة على صدورهم توذن بمهنتهم ومتى وجد احدهم موضعا فارغا عند باب الحافلة قعد فيه وافاض في الحديث مع جاره وعد نفسه من جملة الركاب بلا محاشة . وهناك فرقان ءاخران بين حوافل لندرة وباريس وهو ان حوافل باريس ليس لها مقاعد على ظهرها فكل ركابها يقعدون في داخلها فلهذا كانت اطول واوسع من حوافل لندرة وهي اشق على الخيل غير ان الفرنسيس لما كان دابهم وولعهم التبديل والتغيير صاروا الان يصنعون حوافلهم نحو حوافل الانكليز في الصغر وفي جعل مقاعد لها على ظهرها . وسواق العواجل

في لندرة ذوو شطط وجفآء فانهم يتقاضون الغريب اكثر من المرسوم لهم من الميري وحيث انهم يعلمون ان اصغر القضايا لا تفصل الّا بحضرة القاضي بعد قال وقيل وانه ليس كل احد يروم التشرف بمجلس الاحكام فلا يالون جهدا في غبن الراكب واخذ شيء منه زائد على المرتب . ومن لومهم ايضا انهم قلما ينبهون الماشين في الطريق قبل ان يدركوهم واذا تكلفوا لذلك نبهوهم بنوع من الشتم . اما في باريس فان للسواقين شبحا في كل خط فمتى حصل بين احدهم وبين المستاجر نزاع فصله الشيخ ومتى دخلت العاجلة اعطاك السائق ورقة مطبوعة فيها عدد عاجلته لتهديك الى معرفته عند الاقتضآء والجعل على المضمار في باريس بعيدا كان او قريبا نحو شلين ولا فرق في عدد الركاب فاما في لندرة فعلى كل ميل نصف شلين اذا كان راكب واحد ولكن اذا كانت المسافة مثلا ميلين وادعى السائق انها ثلثة لم يفصل بينك وبينه غير الباس والبطش فان رءاك اضعف منه الزمك ثلاثة فاما اذا اكتريت بالساعة فسير ساعة في لندرة جعله شلينان وفي باريس افرنكان غير انه يوجد في هذه عواجل مفتوحة تشبه دواجل الامراء والكبراء وربما جرها حصانان وفي لندرة لا وجود لها . ومن الغريب ان الحوافل التي جعلها في لندرة اغلى تكون ابدا مشحونة بالركاب والرخيصة يعرض عنها . وعن بعضهم ان هذه العواجل الكبيرة هي من مخترعات الفرنساوية في زمن فرنسيس الاول ولكن لم يكن منها حينئذ الّا اثنتان وفي سنة ١٥٥٠ كان منها ثلث وواحدة لهنري الرابع ولكن من غير سيور ولم تتقن الّا في عهد يوحنا دو لافال فانه لعظم جثته لم يكن يقدر ان يسافر الّا بها وكانت ملوك فرنسا من قبل ذلك تسافر على الخيل والملكات في محفات والخواتين يركبن وراء الامراء . واول عاجلة رويت في انكلترة كانت في زمن الملكة ماري وذلك سنة ١٥٥٣ وفيه نظر . قال وكان سير مراكب البر في انكلترة بطيئا جدا حتى ان احد المولفين قال ان الخوري آدم على ترهله كان يمشي اسرع منها وكانت كثيرا ما تنشب في الوحل وتنقرقع . وقال آخر لم تكن الحوافل من قبل سنة ١٨٢٨ معروفة عند الانكليز فقدم اليهم في

التاريخ المذكور رجل من فرنسا اسمه شليبير فاستعملها عندهم وللان يوجد لها جمعية ايرادها نصف مليون في العام وراس مالها نحو ثلثة ملايين وعدد الحوافل التى لها رخصة ثلثة آلاف وكل حافلة في لندرة يلزم لها عشرة روس من الخيل وعلف الحصان يقوم في اليوم نحو شلينين . ويوجد ايضا في لندرة ست وسبعون جمعية لضمان الحريق والغرق والمعيشة وغير ذلك وقل ان توجد دار عظيمة او حانوت كبير او شيء آخر نفيس من دون ضمان . وصورتها اذا خاف انسان على داره او سفينته او امتعته من النار او السرقة ذهب الى جمعية منها والزم نفسه ان يدفع لهم في المائة شيئا معلوما الى اجل مسمى فاذا هلك ماله غرمت الجمعية قيمته . فاما ضمان المعيشة فهو ان الانسان يلزم نفسه ان يدفع في كل سنة شيئا حتى اذا مات قامت الجمعية بمونة عياله ولكل سن مبلغ فان الشاب القوي المظنون تعميره يدفع اقل مما يدفع الطاعن في السن وقبل تدوين اسمه في دفتر الضمان يكشف الطبيب عن بدنه ليعلم هل فيه داء خفي او لا فان علم ان به علة لم يقبل او يكلف دفع مبلغ وافر . وللميري ايضا شيء مما تاخذه الجمعية اذ لا يصح انعقاد جمعية شرعية او احداث شيء شرعي في بلاد الانكليز من دون غرم للخزنة وفي المحترفات الكبيرة والديار العظيمة يتخذون اصونة من حديد لصون المال والحلي وكواغد المصرف وغيرها وعن بعض المولفين لم تعقد جمعية ضمان الحريق من قبل مائة وسبعين سنة فكان من يرزا بالنار يجمع له مدد من الناس الى ان انعقدت الجمعية المسمات اليد باليد في سنه ١٦٩٦ ثم اقتدى بها جمعيتان اخريان فلما ان نجحت مساعيهما تابعتهما على ذلك اخرى حتى بلغت الان في المملكة اربعا وسبعين . وفي سنة ١٨٠٥ قومت الاملاك التى ضمنت من خطر الحريق بمائة واحد وثمانين مليون ليرة وفي سنة ٥٥ بلغت ٩٢٧ مليونا . وقد اطفاوا في سنة واحدة ٣٩٠ حريقة وانجوا سبعين نفسا . وفي لندرة ثمانية وثمانون محلا للصيارفة ولكن لا ينبغي ان تفهم من لفظة الصيرفي هنا ما تفهمه منها في البلاد الشرقية فتظن انه يصرف الليرة مثلا بشلينات ويأخذ عليها فلسا

او فلسين وانما الصراف هنا هو من تأتمنه الاغنياء والكبراء على اموالهم فيدفعونها اليه ويأخذون منه فائدتها في العام وكل واحد من هولاء الصيارفة عنده عدة جماعة عظيمة من الكتاب والحساب والخدمة فحرفته عبارة عن ديوان يدخل فيه الناس افواجا افواجا . وفي لندرة من المواضع المنشاة للبر وفعل الخير ما يصعب عده ويعسر حله . قال بعض المطرئين على الانكليز واظنه امرصون الاميريكاني المشهور ان الانكليز اكثر الخلق فعل خيرات واظن ذلك يصدق عليهم من دون مراء وها انا ابين لك بوجيز من القول عظم ما تفعله هذه الامة من البر والاحسان فاذا سمعته فاقض لنفسك بما تراه الحق . فاقول ان في لندرة مارستانات للمجانين والجذم وناقصي الاعضاء والمرضى والجرحى والسقط والصم والبكم والعمي والمحتاجين والاشقياء ولسائر من حلت به نكبة وفدحته مصيبة وللمحرومين من الرزق وللعاجزين من الشيوخ وللايتام وللنغول وللغرقى وللارامل ولارشاد الضالين وتحرير الرقيق والرفق بالحيوان ما عدا محال التعليم والعبادة ونشر الكتاب المقدس وغير ذلك مما يبلغ مئين . ففي مارستان صان برثولوفي ٥٨٠ فراشا وتوزع منه ادوية وغيرها على سبعين الف شخص في كل سنة منهم اربعة الاف بداخله . وفي مارستان آخر ٥٣٠ فراشا وتوزع منه ادوية وغيرها قدر ما يوزع من ذلك . وفي مارستان صان جورج ٣١٧ فراشا ويوزع منه ادوية وغيرها على كثير من المرضى والزمنى . ويوجد مثلها ستة اخرى واخرى غيرها لشفاء الامراض والجراح ومارستان آخر لتربية النغول يربي فيه نحو اربعمائة ولد وآخر لاجل تربية اولاد العساكر البحرية واولاد اهل سكوتلاند وآخر لتربية اولاد العساكر البرية فيها الف ولد ومحال اخرى للايتام اكثر من ان تعد . هذا وللجمعية البشرية مساع جيدة لاستنقاذ الغرقى فانها تستخدم اناسا لاستخراج الغارقين بآلات مخصوصة وتبذل جهدها في مداواتهم وشفائهم وتجود بالجوائز على كل من ينقذ اخاه في البشرية وكذلك يوجد جمعية لاغاثة الذين يصابون بالنار وفي كريست هسبيتال يربي اكثر من الف ولد وقل كذلك في الباقي . اه . قال صاحب الكتاب الذي منه نقلت

جملة المارستانات والمنشآت الخيرية من عند لندرة وما يليها الى حد غرينتش وهي على عشرين دقيقة من لندرة لا تنقص عن اربعمائة واحد وتسعين محلا وتفصيلها كما ياتي *

مارستانات عمومية	عدد ١٢
موزعات مخصوصة لادواء كالجدري والسل ونحوهما	٥٠
موزعات عمومية (وهي المواضع يعطى منها الدواء)	٣٥
جمعيات ومنشاآت لحفظ الحيوة والادب وحسن السيرة	١٢
جمعيات لمنع الجرائر والشر	١٨
جمعيات لاغاثة الذين هم في الضيق والفاقة على العموم	١٤
جمعيات نظيرها على الخصوص	١٢
جمعيات لمساعدة ذوي الكد والكدح	١٤
جمعيات للصم والبكم والعمي	١١
مدارس ومارستانات ومحال للصدقة على العاجزين من الهرم	١٠٣
جمعيات خيرية تجري ارزاقا عمومية وهو عند العامة علوفة	١٦
جمعيات خيرية خاصة بطبقات من الناس مخصوصة	٧٤
مارستانات للايتام ولغيرهم من الاولاد المخذولين	٣١
محال للتربية والتعليم	١٠
محال اخرى مثلها	٠٤
جمعيات للمدارس والكتب الدينية ومساعدة الكنائس وعيادة المرضى	٤٠
جمعيات للكتاب المقدس والمرسلين	٣٥

تبلغ مصاريفها في وجوه مساعيها المتنوعة في كل سنة ٧٣٣ ٧٧٤ ١ ليرة يجمع منها اكثر من مليون من المتطوعين لفعل الخير . وايراد المستشفيات الكبار وعدتها اربعة عشر من الوقف . وبلغ ما جمع لهم في لندرة في عام واحد ٤٦٤ ٣٦٠ ١ * ويقال ايضا ان جملة ما فرق على الفقراء في بلاد الانكليز من سنة ١٨١٦ الى سنة ١٨٤٩ بلغ مائتي مليون ليرة . وفي مارستان صان برتولري يصرف في كل سنة نحو ثلثمائة ليرة ثمن خمر للمرضى ونحو الفي رطل

من زيت الخروع ومائتي غالن من الارواح ثمن الغالن سبعة عشر شلينا واثنا عشر طنا من بزر الكتان والف رطل من السنا وسبعة وعشرون قنطارا من الملح و ٥٠٠٠ يارد من البفت للربائط و ٧٠٠ ٢٩ علقة وطن ونصف من الرب وخمسون رطلا من العشبة في كل اسبوع وقس على ذلك . ومصروف مارستان كرينتش في السنة عشرون الف ليرة . وفي هذه السنة صرف على التعليم في بريتانية ٢٢٣ ٥٤١ ليرة وعلى العلوم والفنون ٨٥٥ ٧٣ . ولما سنت الانكليز تحرير الرقيق في سنة ١٨٣٨ تطوعوا بعشرين مليون ليرة تعويضا لمواليهم . وجميع هذه الجمعيات تنال مددا من الملكة ومن زوجها . وعلى قدر هذه الزمر المتواطئة على البر والاحسان فاذا رايت الفقراء في لندرة توهمت ان ليس احد فيها يعمل الخير فانك ترى نساء يمشين على الثلج حافيات باخلاق ثياب يظهر منها مواضع كثيرة من ابدانهن وكثيرا ما تراهن يلتقطن الجذور من الطرق ونقاية ما يرمى به من الطعام من الديار . وفي سنة ١٨٤٨ كان منهم في المارستانات ٣٢٣ ٥٦ منهم ٩٥٨٧ نغيلا امهاتهم في المارستان و ١٧٥ ٤ امهاتهم في الخارج . ولا يباح للفقير هنا ان يتسول واذا وجده احد الشرطة مادا كفه اخذه واودعه السجن غير ان بعضهم لا يتحرج من ذلك ليلا اذا علم ان الشرطي لن يبصره واكثر من يفعل ذلك النسآء وخصوصا نساء ارلندة فهن يجرين مع المارين ويلحفن في الطلب الحاف الغريم فاذا لم تنل احداهن شيئا من غريمها لعنته وانصرفت . وكذلك لا يباح لاحد ان يكسب مالا بغير الوجه الذي يوهله الى ذلك فلا يسوغ مثلا لاحد ان يتعاطى الطب وهو جاهل به او صنعة من الصنائع من دون ان ياخذها عن آخر ويشهد له استاذه بانه اتقنها ولكن هم في ذلك اقل ضبطا وتحرزا من الفرنسيس واكثر عرضة للتدجيل والمخرقة . وبقي لي هنا ان اقول ان زي الاولاد الذين في المدارس والمارستانات الخيرية بهذه المدينة من اقبح ما يكون فان الاولاد الذين في بلوكوت سكول اعني مدرسة الرداء الكحلي وهي من اشهر المدارس يلبسون اردية من هذا اللون طويلة الى اوساط سوقهم ويتحزمون بالجلد كالرهبان ولهم جوارب صفر

ولا تزال روسهم مكشوفة صيفا وشتآء مع انهم من ابنآء الوسط فاين هم من اولاد مدارس باريس الذين يلبسون لباس ضباط العسكر فتحسب كلا منهم ضابطا او ضويبطا . ويقال ان اللون الكحلي في بلاد الانكليز كان في السابق خاصا بالخدمة والصبيان فلم يكن احد من الخاصة يستليقه لنفسه حتى استعملته ضباط العساكر البحرية اولا فصار مرغوبا فيه ثم استعمله الوكس وهم فرقة من الاشراف من اهل المجلس فصار الان خاصا بالعظمآء والنبلاء . وذكر مولف ابجدية الاوقات جماعة تعرف بجمعية الببل قال من شأن هذه الجمعية في فرنسا وانكلترة جمع الاموال بمقاصد خيالية على اي وجه من السحت كان وغير مرة تقع في العنت وسوء العاقبة وقد انهملت بانكلترة في هذه الايام في راس مال بلغ ثلثمائة مليون ليرة . اه . والحاصل ان في لندرة جمعيات كثيرة للخير والشر وكل ما يدار فيها من المصالح الجسيمة والمساعي الجليلة فانه يكون بواسطة جماعة لا بواسطة الدولة بخلاف مصالح باريس كما سبقت الاشارة اليه . واقدم جمعية للتجارة هي الجمعية المسماة ستيل يارد كان انعقادها في سنة ١٢٣٢ واقدمهن في المساعي المدينية جمعية انشآء المعارف المسيحية كان انعقادها في سنة ١٦٩٨ وفي الستي وحدها احدى وتسعون لجنة اي كومبانية لاصناف التجارة والمبايعة منها اثنتاعشرة لجنة تنعت بالهونورابل اي المكرمة . وفي لندرة نحو سبعة الاف شرطي وهم يتناوبون عس المدينة ليلا ونهارا وفي كل طريق شرطيان منهم في كل طرف واحد وهم على غاية من النظافة والوضآءة ولا يكون مع الشرطي سلاح بخلاف شرطة باريس وانما يكون بيده عصا قصيرة عليها صورة التاج فاذا عصاه احد من ذوي الشرور القاها عليه ايجابا للطاعة فلا يمكن بعدها الخلاف ويكون معه فانوس مضلع فاذا اراد ان يتعرف شخصا عن بعد اداره فوقع النور على وجهه حتى يراه كانه بجنبه . ولا يسمح للشرطي بان يتعاطى الدخان في حال مباشرته الخدمة خلافا لشرطة مرسيلية وغيرها ولا ان يلطا من المطر او الثلج ولا ان يرفع فوق راسه ظلة تقيه منهما او من الشمس . ومن هولاء الشرطة من يتزيا بزي العامة حتى لا يكون

معروفا ويسمى الثقاف ويجب على كل منهم ان يتعهد ابواب الديار والحوانيت ليلا ليعلم هل هي محكمة القفل اولا فاذا راى احدها غير مقفل نبه مالكه عليه وان ينظر الى انوار الغاز في المواضع المذكورة وينبه على اطفائها بعد فوات الوقت وان يمنع من رمي المياه القذرة وغيرها من الشبابيك وييسر المرور في الطرق للماشين والراكبين وان يبذل جهده في فض الجموع ومنع الخصام في الطرق وفي ازالة كل ما يخل بالحياء والادب وليس له ان يدخل البيوت الّا باستدعاء سكانها وقد يدخلها في بعض الاحوال بامر رئيس الديوان وذلك عند التفتيش على اشياء مهمة واذا طلب منه احد ان يدله على طريق او دار فلا يالو جهدا في ارشاده ويجب عليه ان يتعرف اهل الشرور والمساوي ويراقبهم ولاسيما اذا اجتمع منهم اثنان او ثلثة . واذا اراد احد مثلا ان يشتري شيئا من حانوت او يستكري عاجلة فامتنع مالك الشيء من بيعه او اكرائه فللشرطي ان يلزمه بذلك نفيا للمحاباة ويجب حضور واحد او اكثر من الشرطة في جميع المحال التي يكثر انتياب الناس اليها منعا لما عساه ان يحدث من الجلبة والخصام . اما في باريس فان الشرطي يتبوا موضعا في داخل المحل واما في لندرة فانه يقف خارجا او في دهليز المحل وربما دخل ايضا للتفرج كاحاد الناس ولكن حله في ذلك معروف عند المتنابين . ويجب على الشرطي ايضا ان يمنع الفقراء من التكفف في الطرق او من الاضطجاع امام الابواب وفي الاماكن المطروقة . واذا وجد ولدا تائها عن ماواه ارسله اليه فان لم يعلم له ماوى آواه في ديوان الشرطة وكتب اسمه وصفته في صحف الاخبار حتى ياتي احد ينشله واذا بلغه احد الاهلين شكوى عن لص او ذى عدوان تتبع اللص والمتعدي حتى يثقفهما فاذا وجد المذنب ساقه الى الديوان برفق الّا اذا كان شرسا فحينئذ يستدعي بشرطي آخر لاعانته . ويكون معه آلة يصوت بها لاحضار من استدعى به وعليه ايضا ان يرى الكلاب مقيدة ولاسيما في زمن الصيف وان يمنع الرعية من حمل السلاح ظاهرا او خفية ومن اذي الحيوانات وتحميلها ما لا تطيق . ويجب على كل منهم ان يكون معه كتاب فيه اسماء الطرق

المسلوكة والمواضع المشهورة وحد اجرة العواجل حتى يفصل ما بين الغريمين وان يعرف قدر المسافة من طريق الى غيرها . وفي كل يوم صباحا ينظر رئيس الشرطة في ملبوس المستخدمين في هذا الديوان وفيما يلزم ابقاؤه نظيفا فاذا راى احدا منهم قد اهمل نظافة شيء او تصليحه غرمه على ذلك وفي يوم الاربعاء يكون تفتيش عام على الملابس . وجمكية الشرطي في لندرة من ستة عشر شلينا في الاسبوع الى خمسة وثلثين واكثرهم يموت بداء الصدر من طول الوقوف وهم انفع طائفة للمدينة والناس . وفي الجملة فان شرطة لندرة خير من شرطة باريس فان جل هولاء من الفلاحين وهم على غاية من النظافة والتكبر ولاسيما الذين يلبسون برنيطة نابوليون . وفي سنة ١٨٤٨ بلغ عدد الشرطة في انكلترة ووالس ٢٧١٦ جلهم في انكلترة وبلغت مصاريفهم ٩٤٤ ٣٦٣ ليرة منها ٢٠٢ ١٣١ مرتب وظائف لهم و ٧٤٤ ٣٢ لدواع اقتضتها الضرورة وبلغت مصاريفهم في سنة ٥٦ ــ ٠٨١ ٤٣٤ لكن عددهم زاد على ما تقدم . وفي لندرة نحو ثلث كتائب من المشاة وكتيبتان من الفرسان وهولاء الفرسان نخبة من جميع المملكة فهم على غاية من الجمال والاعتدال فاذا رايت منهم نفرا حسبته رئيس عسكر ولهم سراويل من جلد ابيض وجزم طويلة تفوت ركبهم وعامة نساء لندرة من السفلة يذهبن معهم مجانا . وفيها ثمانية عشر ملهى وهو المسمى عندهم ثياطرا اعظمها الملهى الكائن في هاي ماركت يقال انه اكبر ملهى في الدنيا ومثله او اكبر منه ملهى بميلان في ايطاليا يسمى لاسكالا . وكان بنا الملهى الاول في سنة ١٧٩٠ عن رسم رجل من النمسا ثم غير بعض التغيير في سنة ١٨١٨ واكري بعض اكنانه العلياء بثمانية الاف ليرة وبعض مقاعله في الحضيض باربعة الاف . ومن ذلك الاوبرة الطليانية الملوكية في كوفنت كاردن اسس في سنة ١٨٠٨ وفتح في سنة ١٨٠٩ واقتضى لانشائه وتهيئته مبالغ وافرة . وبلغ مصروف محل الغناء في سنة ٤٨ - ٣٤٩ ٣٣ ليرة ومحل الرقص ١٠٥ ٨ ليرات ومحل الموسيقى ٠٤٨ ١٠ ليرة وصرف على الالاتية ٧٠٠٠ ليرة واستخدمت فيه امراة لاعبة من الفرنساوية على ثمانية اشهر بمبلغ ٥٠٠ ١٢ ليرة واجارته في العام سبعة الاف ليرة وحسب ان نفقته في

كل ليلة بلغت ٨٤٥ ليرة قلت وقد احترق الان ثم بني . واقدم ملهى بلندرة هو المسمى دروري لان ثياطر ولكن بناءه غير قديم فانه احرق مرتين وهدم مرة واحدة واخسها المحل المسمى فكطوريا ثياطر كما ان فكطوريا بارك هو اخس الغياض وفكطوريا كفي هوس اخس مخال القهوة . واكثر مواضع اللهو هذه تشرف بحضرة الملكة وحينئذ يمكن للغني والصعلوك ان يراها وزوجها واولادها إلّا ان الغالب انه متى ذهبت الى ملهى ما تنافس الناس في الذهاب اليه فتغلو المقاعد بحيث لا يعود يتبواها إلّا اهل الاستطاعة وربما ارخيت ستارة المحل الذي تقعد فيه وليس حضورها بمانع مما الفه اللاعبون والمتفرجون فقد شاهدت مرة بحضرة زوجها واولادها زمرة اللاعبين مقبلين بعصي عليها اصناف كثيرة خسيسة من جملتها زوج نعال . واعلم ان التمثيل في الملهى يتجاذبه نوعان من التاريخ والادب واعادة الحوادث والوقائع الماضية فتصير كانها مشاهدة بالعيان وفيه تنشد الاشعار الرائقة والقصائد البليغة ويقع من المحاورات الادبية جدا وهزلا ما يسري به عن الثكلى حزنها وكل ما يقال فيه فهو من الكلام الفصيح الذي تستعمله علماوهم وادباوهم فان اعظم شعراء الافرنج الفوا فيه وما من خطيب مصقع او اديب بارع إلّا ودون شيئا من هذه المحاورات . ومن طريقة اللاعبين فيه ان يخصصوا كل شخص منهم بحال فمن كان مديد القامة جهير الصوت ابتع خصصوه بان يمثل الامور التي فيها الحماسة والوعيد والتذمير ومن كان لطيفا رخصا خص بما شانه الاستشفاع مثلا والملاطفة والتملق ومن كان حزقة خص بالامور السخرية المضحكة وقس على ذلك ولو عرفت قدر ما يسرده هولاء اللاعبون عن ظهر القلب لاعظمته جدا فان كلا منهم يحفظ من القصص والنوادر ما يكون اكبر حجما من ديوان المتنبي ولا يكاد احدهم يتلعثم في عبارة . وقد يوارون شخصا بيده الكتاب الذي تحفظ منه تلك الحكايات في مكان حتى اذا ذهل المتكلم عن شيء رده ولكن وقوع ذلك نادر . ويقال ان هولاء الفصحاء في ملعبهم اولوا عي في غيره . وفي هذه المواضع من الالات والادوات والمناظر ما يحير الناظر لانه على قدر اختلاف الوقائع والحوادث ينبغي ان

يكون اختلاف الادوات اللازمة لتمثيلها . مثال ذلك اذا اريد تمثيل ما جرى بين السموءل وبين الحارث بن ظالم حين طلب منه ان يسلمه الدروع التي كان اودعها عنده امرؤ القيس نصبوا مكانا شبيها بالقلعة وجاؤوا بدروع وسيوف وشخصين ممثلين امرء القيس والسموءل فيكون هذا لابسا لباس اللازم لبيته المشتغل بامور نفسه وذاك بلباس البطل المحارب المزمع على السفر ويشرع الشخص الممثل لامرء القيس في ان يخاطب الآخر بانه قام له هم في النفس اضطره الى مفارقة الوطن ومباينة السكن فان المعالي لا تدرك إلّا بجهد النفس والمخاطرة واذالة المصون من النفائس والرغائب وما اشبه ذلك من الكلام الحكمي وينشد في خلال ذلك ابياتا يتمثل بها كقول المتنبي مثلا

تريدين ادراك المعالي رخيصة   ولا بد دون الشهد من ابر النحل

او قول الآخر

يغوص البحر من طلب اللآلي   ومن رام العلى سهر الليالي

ويتاوه في اثناء الخطاب ويحرك راسه وينظر نظر المبتئس الشافق الى ان يفرغ من الانشاد والناس منصتون لا تسمع لاحد منهم نامة ثم ياتي بالادرع والسلاح ويسلمها للسموءل فياخذها منه وبعد ان يتوادعا وينشد كل منهما ابياتا دعآء لصاحبه على ما يقتضيه المقام يدخل السموءل حصنه ويرخى الحجاب . وبعد قليل يرفع وياتي الشخص الممثل به الحارث بلباس فاخر يدل على صفته ومعه جند واعوان شاكي السلاح ويطلب الدروع من السموءل وهو متهدد له ومتوعد ويتمثل بابيات تدل على شدة بطشه وسطوته بين اقرانه كقول الفرزدق مثلا

وكنا اذا الجبار صعر خده   ضربناه حتى تستقيم الاخادع

او كقول المتنبي

الخيل والليل والبيداء تشهد لي   والرمح والسيف والقرطاس والقلم

فيجيبه السموءل من حصنه بالمنع وينشد ابياتا تدل على وفائه وصدق نيته وشرف نفسه ثم تدور بينهما المحاورة الى ان يقنط الحارث من اخذ الدروع

فيعمد الى ابن السمول فياخذه ويذبحه بمرأى منه وهنا يرخى السجف . ثم بعد قليل يظهر السمول وبيده الدروع فيذهب بها الى اقارب امرء القيس ويسلمها لهم وينشد ابياته المشهورة وهنا يتم الفصل * وهذا التمثيل على نوعين . الاول تمثيل ما يحزن من نحو الحروب واخذ الثار ويقال له عندهم تراجدي والثاني وهو عكسه ويقال له كومدي . وكلاهما يعدان من الادبيات غير ان النوع الثاني يكثر فيه التوريات والمواريات والتجنيس . ولغة الانكليز فيما اظن اطوع على ذلك من غيرها وان اللغات في هذه الملاعب وان اختلفت وفضل بعضها بعضا الّا ان الحركات والاشارات جميعها واحدة . واشهر اللاعبين عند الافرنج اهل ايطالية ولعل ذلك بالنظر الى الانشاد والغنآ فان اللغة الطليانية اطوع على ذلك من غيرها لكثرة ما فيها من الحركات وهم اول من احيا طريقة التراجدي وذلك القرن السادس عشر ولكنهم كانوا يحفظون النغم عن ظهر القلب كما هي العادة عندنا الان ثم اقتدى بهم اهل فرنسا لكن الحلوق وقتئذ كانت مثل العقول غليظة جافية . واول من الف في هذا الفن من اليونان اوروبيدوس وذلك قبل الميلاد باربعمائة وثمانين سنة . فاما في تمثيل المحزنات ونحوها وفي خفة الحركات واللباقة فالمزية لاهل فرنسا والانكليز تبع لهم . فاما في المضحكات فهولاء هم المتبوعون وذلك لسعة لغتهم كما مر . ومن العجب هنا انه معما يظهر في وجوه الانكليز من العبوس والانقباض فان لسانهم ادعى الى البسط والضحك من السنة سائر الافرنج . ومن الطليانيين من ينشد في هذه المواضع ابياتا بل قصائد على البديه بان يختار احد الحاضرين لفظة يجعلها قافية ويقول للاعب انشد ابياتا على هذا الروي فينشده دون توقف وقد سمعت احد الانكليز ينشد ابياتا زعم انه مرتجلها وذلك بان يصف مثلا احد الحاضرين بانه لابس لباسا بلون كذا او ان بيده عصا او انه متكيء وعند التحقيق علم انه انما كان راويا لها فقط على ان ارتجال الشعر عند اي جيل كان من الافرنج هين لان كلامهم كله مجزوم اي خال عن الاعراب وليس بين الكلام المتعارف عند خاصتهم وبين كلام الكتب من فرق كبير الّا ان يقال ان مهابة الجمع تقحم

الشاعر غير ان من الف روية الجموع في كل ليلة تساوى عنده قلوبهم وكثرهم فمثله كمثل العائم في البحر يستوي عنده قاموسه وضحضاحه وعلى كل حال لهم المزية الكبرى في كثرة الحفظ وفي حسن الاداء . ثم انه كما يتعلم من هذه المشاهد كثير من المحامد والمكارم والفصاحة والخطابة كذلك يتعلم المترددون عليها ولاسيما النسآء كثيرا من الحيل والاسباب الموصلة الى الوصال وتبديل البعولة بالعشاق لما يرين من فتور الزوج وحرارة العاشق المثلين نصب اعينهن وخصوصا تكلف العجب والتيه من اللاعبات على الرجال فانهن يبدين من هذه الحركات والصفات ما يغري كل امراة بمحاكاتهن وكذلك اللاعبون يبدون من الحماسة والتجبر ما يشوق كل امراة الى ان يكون لها بعل او عاشق نظيره ولاسيما حين يلبسون الديباج ويتقلدون السيوف ويامرون وينهون . واعظم ما يعجب النسآء من تلك المناظر هو ان يرين الرجال يتضاربون بالسيوف ونحوها او ان ياخذوا ثارهم ممن افترى على حرمهم . وقد تلبس الرجال في هذه الملاعب ملابس النسآء والنساء ملابس الرجال واحسن ما تبدو المراة به ما اذا لبست لباس الكمي وعلى راسها خوذة وفي المواقع فان كل ما يلبسن هناك يليق بهن . ومن اعجب ما يرى من احوال هولاء اللاعبين واللاعبات هو ان الشيخ منهم يتفتى في زيه واطواره وكلامه حتى لا تحسبه الا فتى والفتى يتشيخ بحيث تحسبه هما هرما فلو ظهروا في المرة الاتية ما عرفت منهم احدا بل يغيرون ايضا اصواتهم ولهجتهم وسحنتهم وشعورهم ويتخادبون ويتعارجون ويتمارضون ويتناومون ويتعامون ويتساكرون ويتباكون ويتضاحكون ويتحامقون ويتجانون ويحاكون الملوك والسلاطين والقضاة والعلمآء والاطبآء والفقهآء والمتحذلقين والحمقى وكل صنف من الناس . ومن اعظم ما اضحكني من محاكاة التشاوب تمثيلهم اميرا من امراء باريس قد قدم الى لندرة واستوخم هواها فكان كلما قال كلمة تثآب وتناعس اشارة الى ان هواء البلاد قد ثقل عليه وان جميع الانكليز ذووا وجوه كالحة . ومن يرهم اول وهلة فربما حسدهم او تمنى ان يكون في زمرتهم اذ يراهم مغازلين للنسآء الحسان ومتردين باللباس الفاخر وربما اكلوا

في الملعب الطعام القذي وشربوا الشراب اللذيذ الا انه عند التروي يعلم ان حرفتهم لمن اشقى الحرف لان اللاعب يلزمه ان يعيد لعبته عدة ليالي متتالية كما هي وكذا المغني والمنشد والشيء اذا تكرر تكرج وربما لزمهم في الليالي الباردة ان يلبسوا الثياب الرقيقة. وفي الصيف عكس ذلك . وبعد فانهم يعلمون من انفسهم انهم ان هم إلَّا مستاجرون وان استبرقهم إلَّا عارية وهي عار . وحيث قد جرت العادة بان ابتداء اللعب يكون غالبا في الساعة السابعة وختامه بعد الحادية عشرة كان كثير من العابهم سخيفا فلو قصروا الوقت واجادوا اللعب لكان اولى . وهذا كالتزام بعض المولفين عندهم لنوع يسمى نوفل ان يجعلوا الكتاب ثلثة مجلدات فيسفسفون ويدنقون ويأتون بالغث والسمين . وقد رايت غير مرة امراة تبرز في ثياب رثة ثم تغسل وجهها وتمشط شعرها والناس يغربون من ذلك في الضحك واعرف اناسا كثيرين يحرمون انفسهم من لذة الاكل والشرب حتى يمكنهم مشاهدة هذه الملاهي ولا يملون من ان ينظروا تمثيل واقعة واحدة عدة مرار . وفي الواقع فان نصف تمثيلهم انما هو هزء بالمتزوجين . وكذلك اكره من تمثيلهم انهم يجعلون المراة الضعيفة الصوت تنشد اشعارا فيها حماسة ووعيد وكذا يجعلون الانسان مشتركا اي يحدث نفسه فيقول المحب مثلا وقد اعيته الحيلة في وصال محبوبته « كيف افعل الان وقد سدت علي مذاهب الامال فلم يبق لي الا هذه الوسيلة وهي كذا وكذا » . وكذلك استحمق بروز المراة مثلا في الملعب وبيدها كنارة او آلة اخرى للطرب ولا تعزف بها وانما يعزف عنها بعض العازفين من تحت الملعب وهي مع ذلك تمر يدها على الالة وتوهم الناس ان الصوت خارج من آلتها . وبودي لو كانت العرب نقلت عن اليونانيين شيئا من هذه المحاورات كما نقلوا عنهم الفلسفة او انهم الفوا فيها ولا يبعد عندي ان شعراء العرب حين كانوا ينشدون الاشعار في عكاظ كانوا يجرونها على وجه يكسبها حوكا في النفوس مع اقترانها بالحركات والاشارات ولا شك ان في هذا التمثيل معها يكتسب كلام الشاعر رونقا اكثر مما لو بقي في الكتب او انشد بمجرد انشاد . ولا شك ان مبدا الملاهي عند اليونانيين كان

مثل اجتماع العرب في عكاظ ثم توسعوا بها فان جميع العلوم والفنون بل الاديان نفسها تكون في مبداها ضعيفة . ومن انواع هذه الالعاب اللعب الذي يقال له بنطوميم وهو لعب بالاشارة والحركة من دون محاورة ولا يلعب فيها الرجال والنسآء الا بما يضحك ويسر . والواقع ان للاشارات شجونا وفنونا اكثر من الكلام ولا تكاد تدخل تحت حد وتعريف ولا تنتهي الى مدى . واحسن هذه الاضاحيك ما موقع بعد عيد الميلاد وصفتها ان يبرز رجلان او اكثر بلباس سخرية وآخرون عليهم لباس مذهب في هيئة الجسم ونسآء بايديهن شبه عصا الساحر وهن بلباس الرقص فكلما ضربت المراة بالعصا على الحائط خرج منه شيء او انشق او على صندوق انفتح واستحال الى هيئة اخرى . وقد جيء مرة بقفص كبير فيه صورة ديكين فضربته امراة بالعصا فاذا هو قد استحال الى عاجلة مليحة مزخرفة فسارت فيها . وربما انقلب المكان كله بسقفه وحيطانه واثاثه فاستحال بيتا بديع الاستحكام وربما رايت كل ما فيه يدور ويتحرك او يصعد في الجو ويغيب عن النظر . ومن احسن ما رايته في هذه المواضع على كثرة ترددي اليها تمثلهم فتح الاسبنيوليين مدينة بيرو في اميريكا واجتماع اهلها في هيكل لهم يسمّى هيكل الشمس للاستغاثة بها على العدو فجعلوا دائرة جهة المشرق شبيهة بالشمس ولها شعاع بهي وبين يديها مذبح عليه شعلة نارسنية ثم قام كاهنهم يحضهم على القتال ثم اندفعت الرجال والنسآء يرتلون للشمس ترتيلا مطربا وكانوا جمعا عظيما حتى كاد المكان يتزلزل لاصواتهم ثم جعلوا محلا ياتي عليه ضو القمر وجآء نحو ستين جارية من الحسان بلباس الكماة وعلى روسهن اكاليل وكان يرى لهن ظل في ضو القمر ثم اطلعوا شجرة نخل من وسط الملعب ثم رمت بما كان يرى في جنتها شبيها بالسعف فصارت كالشرائط فامسكت كل جارية بشريطة وجعلن يرقصن بالتقابل والتدابر والتزاوج والانفراد وبكل شكل من الاشكال بما يدهش الناظر . ومن ذلك انه برز في الملعب مئة وثلثون جارية بلباس الرقص الشفاف وبعد ان رقصن هنيهة ارخي الحجاب ثم فتح واذا بهيكل سنيع يتلالا بالانوار الملونة البهيجة الساطعة

وقد وقف عشر جوار من هذا الجانب وعشر من الجانب الاخر باثواب من الخز شفافة بلون القرنفل وبدت روس ست جوار من فوق حيز فصفقت الناس تعجبا واستحسانا ثم اصعدت هولاء الستة وظهر صف آخر من فوقهن بثياب من قصب مرصعة بحجارة تلمع وعدتهن اثنتا عشرة جارية فزاد تعجب الحاضرين فلما تكامل الاصعاد اذا بالجواري الست متكئات كل اثنتين منهن متقابلتان ثم اصعد ثلث جوار ووقفن بين الصفين بلباس مذهب وبايديهن صوالج تلمع ثم زادت الانوار تدبجا وسنا وزاد تعجب الناس ثم اصعدت ثلث جوار اخر ووقفن فوق الصف الثاني وبايديهن صفائح لماعة ثم ادلي ثمان جوار من كل جانب اربع فكن يدرن متدليات في الهواء المنير وبعضهن اعلى من بعض ثم اصعدت جارية واقفة على شبه قبة مرصعة بقطع من جواهر تتالق كانها الثريا التي تعلق في السقف وهي في داخل الهيكل وبيدها صولجان فكانت آعلى من الجميع وكانت ثيابها تتالق تالق القبة وكان على حائط الهيكل صورة امراتين ايضا بصفة هولاء الجواري فلم يمكن الناظر يميزهما من النساء وحينئذ بلغ العجب اقصاه واخذ اصحاب البنطوميم يلعبون والنساء على تلك الحالة . وقد يصعدون النساء والاشجار من اسفل الملعب اصعادا وينزلونهن من السقف انزالا ويجعلون جميع العجب والحيطان تتحرك بنفسها ويمثلون الشمس والقمر والبحر والشجر والجبال والضباب والثلج والمياه وسائر المخلوقات والمصنوعات . ومرة اخرى راينا سفينة في بحر او شيء شبيه بالبحر ثم اخذت الامواج ترتفع وتتلاطم حتى علت على السفينة فغرقت فيها اصلا . ويطلعون قببا مذهبة محفوفة بالانوار المتالقة والبرق يحفها ثم تنشق عن روس نسآء ثم تاخذ في النزول والنسآء في الظهور الى ان تغيب القبب بالكلية وتبرز النسآء في الملعب ويلبسون الرجل هيئة ديك والمراة هيئة دجاجة وترى شيئا يستحيل طاوسا يمشي وآخر بقرة تتحرك وغير ذلك بما يقصر الوصف عنه . ومما اعجبني تمثيل عرس بعض ملوك الهند بان زينوا فيلين احدهما كبير والاخر صغير وعلى كل منهما قبة مزخرفة فدخل الملك في قبة الفيل الاكبر ودخلت الملكة في قبة

مثل اجتماع العرب في عكاظ ثم توسعوا بها فان جميع العلوم والفنون بل الاديان نفسها تكون في مبداها ضعيفة . ومن انواع هذه الالعاب اللعب الذي يقال له بنطوميم وهو لعب بالاشارة والحركة من دون محاورة ولا يلعب فيها الرجال والنساء الا بما يضحك ويسر . والواقع ان للاشارات شجونا وفنونا اكثر من الكلام ولا تكاد تدخل تحت حد وتعريف ولا تنتهي الى مدى .

واحسن هذه الاضاحيك ما موقع بعد عيد الميلاد وصفتها ان يبرز رجلان او اكثر بلباس سخرية وآخرون عليهم لباس مذهب في هيئة الجسم ونساء بايديهن شبه عصا الساحر وهن بلباس الرقص فكلما ضربت المراة بالعصا على الحائط خرج منه شيء او انشق او على صندوق انفتح واستحال الى هيئة اخرى . وقد جيء مرة بقفص كبير فيه صورة ديكين فضربته امراة بالعصا فاذا هو قد استحال الى عاجلة مليحة مزخرفة فسارت فيها . وربما انقلب المكان كله بسقفه وحيطانه واثاثه فاستحال بيتا بديع الاستحكام وربما رايت كل ما فيه يدور ويتحرك او يصعد في الجو ويغيب عن النظر .

ومن احسن ما رايته في هذه المواضع على كثرة ترددي اليها تمثلهم فتح الاسبنيوليين مدينة بيرو في اميريكا واجتماع اهلها في هيكل لهم يسمى هيكل الشمس للاستغاثة بها على العدو فجعلوا دائرة جهة المشرق شبيهة بالشمس ولها شعاع بهي وبين يديها مذبح عليه شعلة نارسنية ثم قام كاهنهم يحضهم على القتال ثم اندفعت الرجال والنساء يرتلون للشمس ترتيلا مطربا وكانوا جمعا عظيما حتى كاد المكان يتزلزل لاصواتهم ثم جعلوا محلا ياتي عليه ضو القمر وجاء نحو ستين جارية من الحسان بلباس الكماة وعلى روسهن اكاليل وكان يرى لهن ظل في ضو القمر ثم اطلعوا شجرة نخل من وسط الملعب ثم رمت بما كان يرى في جمتها شبيها بالسعف فصارت كالشرائط فامسكت كل جارية بشريطة وجعلن يرقصن بالتقابل والتدابر والتزاوج والانفراد وبكل شكل من الاشكال بما يدهش الناظر . ومن ذلك انه برز في الملعب مئة وثلثون جارية بلباس الرقص الشفاف وبعد ان رقصن هنيهة ارخي الحجاب ثم فتح واذا بهيكل سنيع يتلالا بالانوار الملونة البهيجة الساطعة

وقد وقف عشر جوار من هذا الجانب وعشر من الجانب الاخر باثواب من الخز شفافة بلون القرنفل وبدت روس ست جوار من فوق حيز فصفقت الناس تعجبا واستحسانا ثم اصعدت هولاء الستة وظهر صف آخر من فوقهن بثياب من قصب مرصعة بحجارة تلمع وعدتهن اثنتا عشرة جارية فزاد تعجب الحاضرين فلما تكامل الاصعاد اذا بالجواري الست متكئات كل اثنتين منهن متقابلتان ثم اصعد ثلث جوار ووقفن بين الصفين بلباس مذهب وبايديهن صوالج تلمع ثم زادت الانوار تدبجا وسنا وزاد تعجب الناس ثم اصعدت ثلث جوار اخر ووقفن فوق الصف الثاني وبايديهن صفائح لماعة ثم ادلي ثمان جوار من كل جانب اربع فكن يدرن متدليات في الهواء المنير وبعضهن اعلى من بعض ثم اصعدت جارية واقفة على شبه قبة مرصعة بقطع من جواهر تتالق كانها الثريا التي تعلق في السقف وهي في داخل الهيكل وبيدها صولجان فكانت اعلى من الجميع وكانت ثيابها تتالق تالق القبة وكان على حائط الهيكل صورة امراتين ايضا بصفة هولاء الجواري فلم يمكن الناظر يميزهما من النساء وحينئذ بلغ العجب اقصاه واخذ اصحاب البنطوميم يلعبون والنساء على تلك الحالة . وقد يصعدون النساء والاشجار من اسفل الملعب اصعادا وينزلونهن من السقف انزالا ويجعلون جميع الحجب والحيطان تتحرك بنفسها ويمثلون الشمس والقمر والبحر والشجر والجبال والضباب والثلج والمياه وسائر المخلوقات والمصنوعات . ومرة اخرى راينا سفينة في بحر او شيء شبيه بالبحر ثم اخذت الامواج ترتفع وتتلاطم حتى علت على السفينة فغرقت فيها اصلا . ويطلعون قببا مذهبة محفوفة بالانوار المتالقة والبرق يحفها ثم تنشق عن روس نساء ثم تاخذ في النزول والنساء في الظهور الى ان تغيب القبب بالكلية وتبرز النساء في الملعب ويلبسون الرجل هيئة ديك والمراة هيئة دجاجة وترى شيئا يستحيل طاوسا يمشي وآخر بقرة تتحرك وغير ذلك بما يقصر الوصف عنه . ومما اعجبني تمثيل عرس بعض ملوك الهند بان زينوا فيلين احدهما كبير والاخر صغير وعلى كل منهما قبة مزخرفة فدخل الملك في قبة الفيل الاكبر ودخلت الملكة في قبة

الآخر وامام الفيلين ووراءهما جمع لا يحصى . ومرة اخرى مثلوا حالة المتزوج مع امراته بعد عقد الزواج بيوم واحد وذلك ان رجلا غضوبا تزوج امراة مثله وكان كل منهما يعلم حال صاحبه وكان في نوبة غضبه يركس من امتعة البيت ما يمكن ركسه ويكسر ما يمكن كسره والرجل يدعو خادمه ويعبث به ويوذيه وكذلك المراة تفعل بخادمتها فلم تات عليهما ليلة إلّا وقد اتلفا جميع ما في الدار فكنا نرى اوراق الكتب تتناثر في الجو والقماش يمزق والكراسي والموائد تركس وكان مرة اخرى يوتى لرجل آخر غضوب بطبق فيه طعام فيرمي به في الملعب فحيث انتهى الطبق يطلع راس انسان من كوة في الملعب ويدخل فيه . واعلم ان الرقص في هذه الملاهي مخالف للرقص المعهود في المراقص فانه هنا اكثر خفة وصنعة وموازنة فقد ترقص المراة على روس اصابعها عدة دقائق وتمشي كذلك القهقري وقد تتخلع وتتفكك تخلع الراقصات في بلادنا تقريبا بحيث لا يبدين شيئا مخلا بالحيا إلّا انه كثيرا ما يرفعن سيقانهن في وجوه الناس وحين يدرن دورا متتابعا يرى الرائي افخاذهن المستترة تشف من الخز ومع ذلك فلا يعد هذا مخلا بالحياء وكذا التقبيل فان الرجل يلثم المراة في فمها وخديها ولا حرج . وتعلم الرقص في بلاد الانكليز اصله من بلاد ايطاليا وذلك في سنة ١٥٤١ * ونقلت من كتاب معجم الاوقات ان مبدا هذه التمثيلات في بلاد الانكليز كان لاشياء روحية دينية واول تمثيلة اجريت متقنة كانت على عهد الملكة اليصابت وان اول تمثيلة اجريت متسقة ومنتظمة كانت في رومية بحضرة البابا ليو العاشر وذلك سنة ١٥١٥ * اه * وفي لندرة اثنان وعشرون موضعا يرى فيها صور البلاد والمدن والاشخاص من وراء الزجاج ويقال لها بانورامه . اعظمها المحل الذي يسمى كولسيوم يصعد الى قبته في درج او في قبة صغيرة مزخرفة على شكل بيوت الصين لا تسع اكثر من اثنين فاذا استقرا فيها حركت بآلة من تحتها كآلة سفينة النار فتنبعث صعدا فاذا بلغ الانسان القبة وهي ذروة المحل راي صورة لندرة او باريس بكل ما فيها من الديار والطرق والانوار والمواضع المرتفعة والمنخفضة حتى يظن ان المرئي شيء محسوس

ويخيل له ان المسافة التي بينه وبين اطراف المدينة بعيدة كمسافة المصور ويرى ايضا القمر يسير والنجوم تنقض وتزمهر والثلج يتساقط ويسمع زمزمة الرعد وغير ذلك مما يدهله ❊ ومن المواضع الشهيرة دار الاختبارات العلمية وهو موضع يشرح فيه خواص الاشيآء وكيفية العلوم والصنائع والالات فيها جرس كبير ينزل الناس فيه في حوض مآء وهناك مآء رايت الناس يغمسون فيه اصابعهم وينزعونها بعجلة لان فيه خاصيته الارجاف الكهربائية . واعظم بنآء في لندرة بل في الدنيا كلها مجلس المشورة دام بناوه عشرين سنة وساحته اكثر من ثمانية جريان فيه اكثر من ١١٨٠ حجرة و١٩ ديوانا و١٢٦ مرقى وهو يشبه كنيسة لكنه من دون كوى وعلى مدار حيطانه زجاج ملون عليه صور ملوك الانكليز اول حجر وضع في اساسه كان في السابع والعشرين من نيسان سنة ١٨٤٠ وطول مجلس الامراء فيه سبع وتسعون قدما وعرضه خمس واربعون وارتفاعه كذلك فيه عرش تجلس عليه الملكة وكرسيان عن يمينه وشماله احدهما لزوجها والثاني لولدها وارتفاع مجلس نواب الاقاليم خمس واربعون قدما وعرضه كذلك وطوله اثنتان وستون وهو يفتتح في شهر شباط ويغلق في تموز فتكون مدة انعقاده ستة اشهر وقبل الشروع في المذاكرة والنظر في المصالح تقام الصلوة وكذا هي العادة عند الانكليز قبل كل امر ذي بال ولاسيما قبل القتال وحين تحضر الملكة لفتحه او لاغلاقه يقدم لها احد ارباب المناصب الشريفة خطابا وهو جاث على ركبتيه فتاخذه منه وتتلوه ايذانا بما ذكر وقبل حضورها بساعتين تفتش اسرابه ودهاليزه جريا على العادة من سنة ١٦٠٥ وذلك ان اهل مجلس المشورة حين كانوا مجتمعين يوما وكان دين البروتستانط قد استتب حديثا حاول بعض من الكاثوليكيين ان يحرق المجلس واهله ببارود كان قد خزنه تحت اسسه فانتبه لهذه المكيدة بعض الحاضرين وفسدت على الرجل حيلته . وقد فرضت كنيسة الانكليز المتاصلة صلوة معينة لذلك اليوم وهو الخميس من شهر نوفمبر وفيه يخرج رعاع الناس بتصاوير وتماثيل كثيرة يمثلون بها ذلك الرجل والبابا وغيرهما ممن يحسبه الانكليز عدوا لهم وبعد ان يطوفوا بها المدينة بضجة وزاط

يحرقونها عند برج لندن ويسمون هذا اليوم كي فكس . واعلم ان اهل المجلس ينقسمون الى سادة ومسودين ويقال للاول مجلس السادات والثاني مجلس العامة وهولاء السادة قد يكونون من اصحاب الوظائف العالية سواء كانت دينية او دنياوية وعدتهم اربعمائة واثنان وستون منهم ستة وعشرون من مطارنة الانكليز واربعة من مطارنة ارلندة وثمانية وعشرون من اشرافها وما حكم به هولاء السائدون لاينقضه اصحاب المجلس الادنى الا في امور مخصوصة ولكل منهم ان يحتج عن نفسه حين تقام عليه الدعوى ويبدي الاسباب التي يستصوبها خطأ واذا لزم اثبات ما قرره يكتفى منه بمجرد قوله على شرفي وفي غير ذلك يحلف واذا قضى اهل المجلس الادنى بشيء فلابد وان يعرضوه على المجلس الاعلى وللملكة ان تبطل حكم المجلسين ولكن قلما تتجرا على ذلك ولكل من الوزراء ٥٠٠٠ ليرة في السنة ولاحد الدوكات من رزقه في كل يوم الف ليرة وكان للمتكلم ثمانية الاف ليرة ودار يسكنها وعدة اهل المجلس الادنى ستمائة وثمانية وخمسون ينتخبهم اهل اقالم انكلترة وهي اثنان وخمسون اقليما واهل المدن والمدارس ولابد من ان يكون لنائب الاقليم ايراد ستمائة ليرة في العام من رزقه ولنائب المدينة ثلثمائة والحكمة في ذلك ان يكونوا قادرين على التفرغ للنظر في مصالح الرعية . واول مجلس مشورة عرف للانكليز كان في عهد هنري الثالث سنة ١٢٦٦ وفي سنة ١٣٤٠ انقسم الى عال ودون كما تقدم ومصاريف المجلس تبلغ في السنة نحو ٢٣٠ ١٦٢ ليرة منها مصروف الطبع يبلغ ٩٥٤ ٧٥ * وعروض الحال التى تقدم لمجلس المشورة يبلغ عددها في السنة نحو ١٠٠٢١٨ ٥ وعدد التواقيع او الامضآء ٩٣٣ ٦٨٧ ١ * ومن المباني العظيمة في لندرة المتحف البريتاني وهو الموضع الذي فيه التحف الغريبة والاشيآء العادية والحجارة المعدنية ويقال له بريتش موزيوم بني من سنة ١٨٢٣ الى سنة ١٨٥١ واصل انشائه ان رجلا من الاشراف اسمه هانس سلون توفي سنة ١٧٥٣ واوصى بعشرين الف ليرة لمشتري تحف توضع في محل مخصوص للتفرج عليها فاعجب ذلك مجلس المشورة وفي ذلك التاريخ جمع ٣٠٠٠٠٠ بامر المجلس لانشآء ذلك الموضع . وفيه من الغرائب

حجر يقال انه سقط من الجو في ولاية الساك حين كان الامبراطور مكسميليان عازما على ان يوقع بالجيوش الفرنساوية وذلك في سنة ١٤٩٢ فحفظ في كنيسة انسسهم الى اوائل هوشة الفرنساوية ثم نقل بعد ذلك الى مكتبة كلهار زنته مائتان وسبعون رطلا انكليزيا . ويوجد فيه ايضا حجارة اخرى سقطت من الجو بعضها سقط في سنة ١٧٩٠ وبعضها بعد ذلك باربع سنين وبخمس . وفيه جميع الحيوانات مصبرة وصور تماثيل وكسى اهل البلاد الاجنبية وآلات طربهم واثاثهم والعصافير المصبرة والطيور والوزغ والاسماك والاصداف والعظام والقرون والجماجم واسنان الفيلة والبيض . ومن هذه الحيوانات ما انقرض نسله من جلتها سلحفاة جلبت من الهند وقد دفع في ثمنها الف ليرة . وفيه موضع آخر لجميع اصناف الجواهر المعدنية واخر لاصناف الدراهم والدنانير القديمة رايت في جملها دنانير ضربت على عهد هارون الرشيد بالخط الكوفي وهي كبيرة رقيقة . وفيه موضع آخر للكتب تبلغ اكثر من ٤٦٠.٠٠٠ كتاب واذا اعتبرتها بحسب الاجزاء تبلغ اكثر من سبعمائة الف وهذا القدر يساوي مقدار كتب برلين وڤيني ولكن دون القدر الموجود في باريس ومونيخ . وهذه الكتب موضوعة على رفوف تشغل مسافة خمسة عشر ميلا من جملتها خزائن الكتب التي كانت لملوك الانكليز تبرعوا بوقفها على المحل المذكور منها كتب مجلدة بالمخمل كانت للملكة اليصابت ولجامس الاول ولشارلس الاول وغيرهم وكتب كانت لجورج الثالث وهي ثمانون الفا . واعظم موضع في هذه المكتبة هو ما وقفه الملك جورج الرابع يبلغ ثمنه ١٣٠.٠٠٠ ليرة فيه توراة قديمة طبعت في منستر سنة ١٤٥٥ وخرافات لقمن الحكيم طبعت في ميلان سنة ١٤٨٠ واول نسخة طبعت من اشعار اوميروس طبعت في فلورنس سنة ١٤٨٨ ونسخة اشعار ڤرجيل في ڤينيس سنة ١٥٠١ وفيها اصونة قيمة ما فيهما من الكتب ربع مليون . وهذه المكتبة يدخلها الناس باذن من ناظرها لاجل المطالعة والمراجعة وفي كل نصف سنة يتجدد الاذن ولا يؤذن للمطالع ان ينسخ كتابا منها برمته وانما ينسخ منه جملا ولا ان يستصحبه ولا ان يطلب كتابين في تذكرة واحدة وقد بلغ عدد المطالعين في سنة واحدة

سبعين الفا وعدد كتب الخط ثلثون الفا وثمن خزانتين منها فقط ٢٥٠٠٠٠ في جملتها كتاب توراة كتب لشارلمان وكتاب صلوات للملكة اليصابت غيشاوه من صنع الابرة عملته بيدها . وقد ضمن بعض الكتب بلندرة بثلثة آلاف ليرة وبيعت نسخة من بوكانشيو بالفين ومائتين وستين ليرة وقومت نسخة من توراة سكلن بخمسمائة ليرة وكسور . وفيها ثلثمائة وسبعة عشر كتابا باللغة السريانية . قلت لم يذكر المؤلف عدد الكتب العربية جريا على عادة اهل بلاده من عدم المبالاة بلغتنا وان يكن قد دون بها من العلوم والفنون ما لم يدون في لغة شرقية قط وحين كنت اذهب الى هذا الموضع للمطالعة لم يتهيا لي ان اعرف اسمآء الكتب العربية بجملتها لان اكثرها مكتوب بالحروف اللاتينية ومعلوم ان الاسم العربي لا يظهر بها حق الظهور . ومما رايت فيها من الكتب الجليلة ادب الكاتب لابن قتيبة والنوابغ للزمخشري ومدح الشيء وذمه للجاحظ وديوان ابي تمام وهو يقارب ديوان المتنبي . وهذا المتحف هو من بعض ما تمكن رويته مجانا بلندرة يفتح ثلثة ايام في الاسبوع وهي الاثنين والاربعا والجمعة ويستمر ذلك من السابع من سبتمبر الى اول شهر ماي ولا يدخله من الاولاد من كان سنه دون ثماني سنين وعند بابه عسكريان بالسلاح اعتبارا للمحل . ومن ذلك متحف آخر يعرف بمتحف الخدمة المتحدة بني في سنة ١٨٣٠ وهو يشتمل على تحف نفيسة من جملتها سيف كان يتقلده اكرامول المشهور وجثة الحصان الذي كان يركبه نابوليون الاول في حرب واطرلو يقال له مارنغو ذو اللحية وفيه ايضا صورة تلك الواقعة ولوح من وجه السفينة التي انتصر فيها نلسون * وآخر يعرف بمتحف خصائص الجيولوجيا بني في سنة ١٨٣٥ وفتح في سنة ١٨٥١ بلغت نفقته ٣٠٠٠٠ ليرة وهو يشتمل على الجواهر المعدنية مما يتكون في بلاد الانكليز وغيرها من البلاد وعلى الالات المتعلقة بهذا العلم * وآخر يعرف بمتحف المرسلين يشتمل على اشيآء كثيرة مما يتعلق بعلم حياة الحيوان وعلى مشاهير آلهة الوثنيين واشيآء اخرى عديدة جلبها هولاء المرسلون من البلاد التي جالوا فيها * وآخر يعرف بمدرسة الجراحين بني

في سنة ١٨٣٥ وبلغت نفقته ٤٠٠٠٠ يفتح لأهل المدرسة ولمن يكون له اجازة من احدهم وذلك في ايام معلومة من الاسبوع وهو يشتمل على ثلثة وعشرين الف قطعة من الاجسام المصبرة ومن الاعضاء والاراب وعلى جثة جبار من اهل ارلندة طولها ثماني اقدام مات وهو ابن اثنتين وعشرين سنة وذلك سنة ١٧٨٢ ولما مات قيست فكانت ثماني اقدام وربعا ٠ وفيه جثة رجل حزقة من صقلية طولها عشرون اصبعا ٠ قلت ومن مشاهير القصار فيليطوس الكوسي كان من صغره اذا خرج يضع في جيبه كرات من الرصاص خيفة ان تطيره الريح وكان شهيرا ايضا في عصره بالعلم ونظم الشعر ٭ وءاخر يسمى اليبيوس الاسكندري كان طوله قدما وخمس اصابع ونصف اصبع وكان له شهرة ايضا بالمنطق والفلسفة ٠ قال وفيه جثة جبار ءاخر من ارلندة طولها ثماني اقدام وسبع اصابع ونصف وقدر زراع من جثة جبار فرنساوي كان طولها سبع اقدام واربع اصابع وجثة فيل جلب من الهند وكان يوذي الناس لداء اعتراه فكان لابد من قتله برشق من الرصاص ولما اريد قتله اناخ على صوت قائده ليصوب بعض المقاتل في جسمه فلم يمت إلّا بعد ان اطلق عليه مئة رصاصة ٠ وثم جثث اجنة اسقاط واختان توامان ولدتهما امهما وهي بنت سبع عشرة سنة من دون مقاساة الم ولم تزل اجسامهما متحدة وفيه شكل احشاء نابوليون مظهرة لانتشار الداء الذي اودي به ٠ وءاخر يقال له متحف صون بالقرب منه بني في سنة ١٨١٢ يشتمل على اربع وعشرين مقصورة فيها تماثيل وتصاوير وحجارة ثمينة وغير ثمينة وتحف وكتب من جملة تماثيله تمثال احد ءالهة المصريين المسمى ازيس ثمنه الفا ليرة وفيه فرد موصع (طبنجة) كان الملك بطرس الاكبر اخذه من قائد الجيوش التركية في ازوف سنة ١٦٩٦ ثم اهداه السلطان الكسندر الى نابوليون عند الهدنة التي وقعت في تلسيت سنة ١٨٠٧ واستصحبه نابوليون الى جزيرة صنت هلين ثم جاد به على بعض ضباطه فانتقل اخيرا الى هنا ٠ ومن ذلك الموضع الذي يقال له روشن الامة بني في سنة ١٨٢٤ وبلغت نفقته ٩٦٠٠٠ وهو يشتمل على ثلثمائة وتسعين صورة منها ٢٨ صورة قومت

بمبلغ ٥٧٠٠٠ ليرة و١٦ صورة ثمنها ٧٥٠٠ ليرة وهو دون نظرائه في بلاد اوربا .
ويوجد ايضا مواضع اخرى عدتها خمسة عشر محلا لجماعات للجغرافية والبناء ومعرفة المعادن والتصوير ولالقاء الخطب وغير ذلك . ومن المباني الجليلة المصرف وهو البنك انشئ في سنة ١٦٩٤ وظيفة ناظره في السنة اربعة آلاف ليرة وللوكيل ثلثة آلاف ليرة ولكل من المباشرين وهم اربعة وعشرون رجلا الفا ليرة وعدد المستخدمين فيه ١٠١٦ منهم ٨١٤ من الكتاب سنويتهم من الخمسين ليرة الى الالفين فجملة مرتبهم في السنة مائة وتسعون الف ليرة وايراده من تصريف حوالات ديوان الجباية والاسقاط على الحوالات المتجرية ومن فائدة قرض الدولة ومن مصالح اخرى ميرية وراس ماله الذي يودي عليه فائدة ٠٠٠ ٠٠٠ ٧٧٤ ليرة وجملة الفائدة ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٥ ولا يسمح بان كواغله تزيد على ٠٠٠ ٠٠٠ ١٤ وقيمة ما يتداول منها في ثلثة اشهر تزيد على ثمانية عشر مليونا واذا اعيد اليه كاغد ابطل واعدم رائسا . ومن هذه الكواغد ما تساوي قيمة الف ليرة واظن ان اغلى كواغد فرنسا لا يساوي اكثر من الف فرنك . وفيه سبائك ذهب منها ما وزنه ستة عشر رطلا وقيمته ثمانمائة ليرة . وفيه عدة موازين من جملتها ميزان يزن من سبائك الفضة من خمسين رطلا الى ثمانين وآخر يزن في كل دقيقة ثلثا وثلاثين ليرة وقد جعل بحيث يزن الدينار الرائج ويرميه في صندوق والزائف في صندوق آخر . وفيه آلة لطبع الكواغد ورسم اعدادها من الواحد الى مئة الف بغاية ما يكون من الضبط والاحكام . وبجانب هذا المحل الدار التى تجتمع فيها التجار فتحتها الملكة في سنة ١٨٤٤ وبلغت نفقتها ١٨٠٠٠٠ ليرة وفي وسطها تمثال الملكة وعلى حيطانها رواميز ما عند اصحاب الصنائع والتجار من الادوات والتحف وامامها ساحة مبلطة فيها تمثال ويلنكطون من نحاس راكبا على فرس فوق عمود من المرمر . قال صاحب المعجم كواغد البنك التى تدوولت بين الناس في سنة ١٨٥٥ بلغت ٦٢٧ ٦١٦ ١٩ ليرة وفي بعض الاحايين زادت على هذا القدر وقيمة السبائك التى فيه بلغت في سنة ٥٣ - ٦٦٢ ٥٢٧ ٢٠ وفي سنة ١٨٢٨ تفرع عنه في المملكة عدة فروع . ومن ذلك ديوان المكس بني

من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨١٧ وفي سنة ١٨٤٩ بلغ عدد المستخدمين فيه الفين ومائتين وثمانية وعشرين يصرف عليهم من الجوامك ما يبلغ في السنة ٢٧١٢١٣ ليرة ودونه ديوان مكس ليفربول كان فيه من المستخدمين في ذلك التاريخ الف ومئة واحد واربعون نفسا وايراد ديوان المكس الاول في العام اكثر من سائر الدواوين وفيه مقصورة طولها ١٩٠ قدما وعرضها ٦٦ * ونقلت من بعض صحف الاخبار ان الايراد الحاصل منه في العام يبلغ خمسة وعشرين مليون ليرة وان ما دخل اليه من التبغ اي الدخان في سنة ١٨٤٨ بلغ ١٣٤ ٣٠٥ ٢٧ رطلا ومقدار ما دفع عليه من المكس ٢٣٢ ٣٦٥ ٤ ليرة وعدد من ثقفوا مدخلي الصنف المذكور من دون مكس ١١٥ ٢ وفي سنة ١٨٥٠ بلغ المجلوب منه نحو ثلثة واربعين مليون رطل ونصف مليون * اما اسم التبغ فيقال انه منقول عن اسم اقليم في اسبانية الجديدة باميريكا . واول ما علم امره كان في سنة ١٦٩٤ وفي سنة ١٥٢٠ استعملته الاسبنيول في يوكاتان واكثروا منه وفي سنة ١٥٦٥ جلب الى بلاد الانكليز فكان يصنع فيها اولا لاجل ارساله الى الخارج وفي سنة ١٥٨٤ شهر استعماله في ازلنطون ثم منع وفي سنة ١٦١٤ ضرب عليه اداء على كل رطل نحو سبعة شلينات وفي عهد شارلس الثاني منع تنبيته وغرسه ثم ابيح . وفي لندرة ستة وعشرون منتدى ويقال لها الاكلب وهي ديار رحيبة يجتمع فيها اغنيآء الانكليز وجلتهم للمذاكرة والمعاملة والمطالعة والاكل والشرب منها ما يجتمع فيه ثلثمائة ومنها الف واكثر ولا يدخل فيها احد الّا بشهادة بعض من اهلها واداء الدخول من تسع ليرات الى اثنتين وثلثين ليرة . وفي كل سنة يدفعون ايضا شيئا لمصاريف خدمتها وفرشها وانوارها وذلك من خمس ليرات الى اثنتى عشرة ليرة وكلها حديثة عهد بالبنآء وهذه المحال لا يدخلها النسآء واذا رضي احد من اهل هذه المواضع عن احد من الغربآء ادخله في زمرتها اكراما له * وفيها عدة كنائس عظام اقدمها وستمينستراببي وكانت في الاصل ديرا للرهبان البانذكتيين اسست في سنة ٦١٦ ثم وسعت وجددت على ما تراها الان في عهد هنري الثالث وابنه ادورد الاول وفيها تتوج ملوك الانكليز وملكاتهم

من عهد ادورد الملقب بالمعترف الى الملكة فكطوريا وقد جلست على الكرسي الذي تتوج عليه الملوك وهو كرسي عال قديم مغشى بالجلد ككراسي الكنائس والاديار في الزمن القديم خال عن الزخرفة مطلقا وكثير من ملوك الانكليز واشرافهم وعلمائهم قد دفنوا فيها من جملتهم هنري الثالث وماري ملكة سكوتلاند وكنكراف الشاعر صنع له بها قبر حسن فبلغت نفقته عشرة الاف ليرة صرفت من هانريتة زوجة الدوك (او دتشس) مارلبورو * وفيها قبر لسر اسحاق نيوطون كلف خمسمائة ليرة وآخر لشكسبير * ولما سئل بوب الشاعر ان يكتب تابينه كتب ما ترجمته هكذا: اهل بريتانية يحبونني ويحفظون صيتي سالما من اسم بربر او بنصون . يعني ان هذين الرجلين كانا لا يحسنان الرثآء والتابين مع كونهما كانا يتعرضان له . ومن ذلك كنيسة صان بول (اي ماربولس) وقد تقدم ذكرها اول حجر وضع في اساسها كان في سنة ١٦٧٥ وآخر حجر في سنة ١٧١٠ وذلك بعد خمس وثلثين سنة في عهد راز واحد واسقف واحد فبلغت نفقتها ٩٥٤ ٧٤٧ ليرة وشلينين وتسعة بنس جمعت من مكس جعل على الفحم ولذلك يقال انها تردت بلباس اسود كما تراها الان . قلت بل جميع مباني لندرة متردية بهذا الرياش حتى ان مجلس المشورة مع كون البنآء فيه متصلا يظنه الناظر قد مضى عليه احقاب من الدهر . قال وشكلها على شكل صليب لاتيني وطولها من الشرق الى الغرب خمسمائة قدم وعرضها مائة وطول صومعتها مائتان واثنتان وعشرون قدما وارتفاعها من الحضيض الى ذروة الصليب اربعمائة واربع اقدام وعدد قضبان درابزينها المحيطة بها الفان وخمسمائة بلغت نفقتها ١١٢٠٠ ليرة وليرتين ونصف شلين ودورتها ثلثة ارباع ميل . قلت جميع التربيعات والحدائق والغياض بلندرة ومعظم الديار محاطة بدرابزين من حديد لعل ثمنها يوازي ثمن مدينة باسرها . قال وداخل الكنيسة مبلط بالرخام الاسود والابيض وسقفها عقد من دون زخرفة ولها قبة عظيمة دورتها من داخل ثلثمائة وست عشرة قدما واذا طلعت الى اعلى القبة من داخل الكنيسة خطوت ستمائة وست عشرة درجة . ومن شان هذه القبة انه اذا وقف رجل في جهة منها ووقف اخر

في جهته المقابلة له واسر اليه كلاما بان يضع فمه على حائط القبة سمعه الاخر . وفي داخل الكنيسة تماثيل الملوك والمشاهير من الانكليز وابطالهم عندها تماثيل ملئكة بصورة نسآء تقدم لهم الاكاليل اشارة الى انهم ماتوا شهداء في سبيل الله وثم ايضا تماثيل نسآء بارزة نهودهـا ولها اربعة ابواب في كل جهة باب وقدام الباب الاكبر اثنا عشر عمودا من اسفل وثمانية في الطبقة الثانية ولكل من الباقي اربعة اعمدة ولها قبتان متقابلتان في كل منها ساعة دقاقة وفي يوم معلوم من السنة يهيئون موضعا فيها لترتيل الاولاد فتبلـغ نفقته ثلثمائة ليرة وفي اليوم الثاني يزاح وهذه الكنيسة هي اكبر كنيسة للبروتستانط في الدنيا وهي دون كنيسة رومية وتشبه بعض الملاهي في انها لا تفتح الّا في ساعة معلومة من النهار ولا يمكن روية جميع ما فيها الّا باداء نحو خمسة شلينات . وفي لندرة كنائس كثيرة منها ثلث عشرة كنيسة يبلغ مصروفها في في السنة اكثر من عشرين الفا وايراد رئيس اساقفة كنتربوري في السنة خمسة وعشرون الف ليـرة وايراد رئيس اساقفة يورك خمسة عشر الفا ٭ وليس لمطران باريس من الايراد ثلث ما لاسقف لندرة وجملة ما يصرف على الكنائس نحو ... ٥٠٠ ليرة وايراد اسقف لندرة في السنة خمسة عشـر الف ليرة ولكن خليفته لا يكون له الّا عشرة آلاف فقط وايراد باقي الاساقفة من اربعة آلاف ليرة فصاعدا فهم بمثابة وزراء الدولة فان سنوية اول لورد في ديوان الوزارة البحرية اربعة آلاف وخمسمائة ليرة . ثم انه كما ان هولاء الرعاة المتبتلين الى الله تعالى ماثلوا الوزراء والامراء في اخذ الارزاق والوظائف كذلك ماثلوهم في الرفعة والشان والانفراد عن الرعية فان مواجهة رئيس اساقفة الانكليز اصعب من مواجهة البرنس البرت زوج الملكة وقد اضطررت مرة الى ان اكتب اليه في امر ما فورد الجواب منه في رقعة قـدر نصف الكف وكان خطابه بضمير الغائب ونفى فيه ما لم يكن محله النفي احترازا من ان اكلفه بخطاب آخر ولكن اي لوم عليه اذا لم يجاوب احدا لان رئيس الكنيسة الذي ايراده خمسة وعشرون الف ليرة في السنة ليس عليه ان يجاوب من ليس له صلدي واحد من كل ليرة تدخل خزانته

الرسولية وقد كان الخوري ميخائيل شاهيات حضر الى هذا الطرف وكتب ثلث رسائل احداها الى البرنس البرت والثانية الى اللورد بلمرسطون والثالثة الى المطران المشار اليه فجآءه الجواب من الاولين ومن الاخير لم يرد سلب ولا ايجاب واقسم لو ان يهوديا غنيا من امستردام وفد عليه في عاجلة ورواء لاحتفل به واكرمه غاية الاكرام ولكن ليت شعري ما معنى كلام ماربولس بقوله : اما الذين يرومون الغنى فانهم يقعون في المحنة والفخ وفي شهوات كثيرة سفيهة ضارة تغرق الناس في العطب والهلاك لان حب المال اصل كل شر وهو الذي اشتهاه قوم فضلوا عن الايمان وطعنوا انفسهم برزايا كثيرة فاما انت يا رجل الله فاهرب من هذه الاشيآء واقتف البر والتقوى والايمان والمحبة الخ . وبقوله : ومن حيث ان لنا القوت والكسوة فلنقتنع بهما . وبقوله : اما التقوى مع القناعة فانها مكسب عظيم . اه . ورب معترض هنا يقول ان الكنيسة الان ليست كالكنيسة في مبدا النصرانية اذ لم يكن للنصارى وقتئذ دولة ولا سطوة فاما الان فان عزها يرجع الى عز الدولة وان رئيس الاساقفة الان يلزمه ان يكون من اهل مجلس المشورة وان يزور الوزراء ويكون مزورا منهم وان يصنع مآدب للاشراف ويتكلف نفقات كثيرة فلا بد له والحالة هذه من رزق وافر يجري عليه ومن صرح وعاجلة وخدم واواني فضة ونفيس اثاث . قلت اذا كان الاسقف تزوره ارباب الدولة وتدعوه الى الولائم مع اقتصاد حاله او بالحري مع تقشفه كان ذلك ادعى الى كرامته وتعظيمه فاما تكلفه للنفقات والولائم وغير ذلك فانه شاغل له عن اداء ما يجب عليه من تعهد الرعية وتفقد احوالهم وهذا هو اصل معنى الاسقف . فان قيل ان امور الكنيسة الان قد استتبت وانتظمت فلم يبق حاجة الى تكليف الاسقف او رئيس الاساقفة بالنظر فيها والتعهد لها قلت اذن هو اقرار على انفسهم بعدم لزومهم على انني لا اتعرض لمثل هذه المسائل فان لكل كنيسة اساقفة ومطارنة وحيث ان ماربولس قد ذكر اسم الاسقف فلابد من وجود مسماه ولكني ارى شينا على من يعير غيره شيئا وهو متلبس به فان الانكليز ينسبون الكنائس الشرقية الى العظمة والتبذخ والسرف والشطط

مع ان روية بطاركة انطاكية ممكنة لكل احد ولا يخفى ان انطاكية في الدين اشرف من لندرة . ومن المباني العظيمة بيت الهند اي بيت الجماعة التي بيدها تدبير مملكة الهند بني في سنة ١٧٩٩ وفي سنة ١٨٣٣ حصل فيه تغييرات جمة وحينئذ صدر امر من مجلس المشورة باقرارها على حالها . وفيه متحف واصنام من فضة وذهب جلبت من تلك البلاد وكتب وسلاح ودنانير وغير ذلك . ونقلت من بعض الكتب ان جمعية الهند استتبت للتجارة في تلك البلاد سنة ١٦٠٠ ثم صارت تاجرة ومحاربة معا فطردت الجمعية الفرنساوية وذلك سنة ١٧٥٠ حتى تغلبت على اكثر البلاد . وقال آخر ان اول سعي ابدته الانكليز فيما يخص الهند كان تجهيز ثلث سفائن وذلك في سنة ١٥٩١ ولكن لم يصل منها إلّا واحدة فقط ثم بعد سفر ثلث سنين رجع الربان في سفينة اخرى لان الملاحين غلبوه على سفينته فلما ان رجع اخبر الاهلين بما جرى له وبما راى فجذبهم الحرص لارسال سفن اخرى تجارية وتم انعقاد ذلك في سنة ١٦٠٠ فجمعوا اثنين وسبعين الف ليرة جهزوا بها اربعة مراكب ونالوا اربهم واستمروا يتجارون ويتاجرون هكذا . وفي سنة ١٦٩٨ عقدت جمعية اخرى ثم التحمت بالاولى فصارتا جمعية واحدة وذلك في سنة ١٧٠٢ ثم بني بيت الهند في سنة ١٧٢٦ وفي سنة ١٧٩٩ وسع وكبر وفي سنة ١٧٨٤ استقر ديوان جماعة الهند * اه * قال ڤلتير ان براهمة هذا العصر ما زالوا على مذهب اسلافهم الذميم من اغراء النسآء باحراق انفسهن بعد موت بعولتهن والعجب ان هولاء الناس الذين لا يستحلون دم الانسان او البهيمة يرون ان ابر المناسك هو احراق نسآئهم ولكن هذا شان الوساوس والاضاليل ابدا تاتي بافعال متناقضة . ومن زعمهم انهم يقولون ان برهام هو ابن الله نزل الى الارض واتخذ ازواجا كثيرة فلما مات تطوعت احب ازواجه له الى ان تحرق نفسها رجآء ان تلحقه في نعيم السمآء ومذ ذلك الوقت سرت هذه العادة السمجة ولكن ليت شعري كيف يتاتى للنسآء ان يعرفن بعولتهن وقد صار بعضهم خيلا وبعضهم فيلة وبعضهم بوما وكيف يمكن لهن ان يميزن الحيوان الذي دخل فيه روح الميت غير ان هذا الاشكال لا يعسر على هولاء الكهان

فان التناسخ عندهم انما يكون للعامة فقط فاما ارواح الخاصة فمن حيث انها كانت من جملة الملئكة الذين مردوا فلا بد من انها تسعى في التنقي والتطهر وكذا ارواح النسآء اللاي يحرقن انفسهن تنعم بالنعيم السماوي حتى يجدن بعولتهن على حال الطهارة والغبطة . وهذا المذهب القبيح قد عرف عندهم منذ اربعة الاف سنة مع كونهم قوما ودعآء لا يتجراون على قتل الجرادة ولكن لا يمكنهم ان يجبروا الارملة على الاحتراق لان سر الشريعة انما هو ان تتقدم المراة الى ذلك عن طيب نفس والتي تكون اقدم عند زوجها لها ان تابى الاحتراق وكذا التي بعدها الى الاخيرة (١١٥) ويحكى ان سبع عشرة امراة دخلن النار مرة بعد موت رجل واحد وكان من الرجاة ثم من بعد استيلاء المسلمين على بعض بلادهم قل استعمال هذه العادة . ثم قلت ايضا بمخالطة الافرنج لهم الا ان هذا المنظر السيء المحزن قل ان فات واحدا من حكام مدراس و بنديشري فقد قال مستر هلول ان ارملة لم يزد سنها على تسع عشرة سنة احرقت نفسها بمرءى من زوجة الادميرال رسل وكانت بديعة في الحسن ولها ثلثة اولاد ولم تلن لدموع الباكين عليها ولم تقبل طلبتهم فاقسمت عليها السيدة المذكورة لتعدلن عنما نوته شفقة على اولادها فما كان منها الا ان قالت ان الله الذي خلقهم لا يتركهم ثم شرعت في تنضيد الحطب بيديها فلما احتدمت النار دخلت فيها حتى احترقت وهي صابرة متجلدة . وراى احد الانكليز مرة اخرى فتاة حسنآء سائرة الى النار فلما كادت تضرمها اجتذبها قسرا وساعده على ذلك بعض اصحابه ثم سار بها الى منزله وتزوجها فكان ذلك عند الهنود بمنزلة انتهاك المحارم . قال ولكني اقول ما بال الرجال لا يحرقون انفسهم ليلحقوا بازواجهم ولم وقعت هذه القرعة على هذا الجنس الضعيف الهيوب افكان ذلك لان الرواية لم تذكر ان بعض الرجال تزوج ابنة برهام بل ذكرت ان برهام تزوج امراة هندية نعم ان قدمآء البراهمة كانوا يحرقون انفسهم ولكن انما كان ذلك ليتخلصوا من مضض الهرم وطوله بل بالحري ليعجب منهم الناس ولعل كالانوس لم يكن يدنو من النار لولا ان الاسكندر كان ناظرا اليه ولو ان

شرح البراهمة حكم بان المراة لا تحرق نفسها إلّا ومعها واحدة من العجائز لبطلت هذه العادة من قبل الان * اه * قلت زعم الذين لهم معرفة بلغة البراهمة ويسمونها صانسكريت انها افصح اللغات واوسعها اساليب في التعبير وانها ام للغة اليونان فلا يبعد اذا ان تكون محاسن هذه اللغة هي التي مهدت الطريق للبراهمة حتى سادوا على العامة فان اهل البلاد الشرقية ابدا عبيد الفصاحة والبلاغة . فاما قول ڤلتير انهم قوم ودعاء لا يتجراون على قتل الجرادة فما وقع في هذه الايام الاخيرة يناقضه وهو كثيرا ما يتعصب لهم ولاهل الصين ايضا . فاما عدد المسلمين في بلاد الهند فقيل خمسة عشر مليونا وقيل اكثر . قال في الابجدية اول من كشف السفر الى الهند على طريق الرجاء الصالح ڤاسكو دي كاما وذلك في سنة ١٤٩٧ ثم بعد ان استولت عليه دولة هولندة ضبطته دولة الانكليز ثم رد ثم قر الراي على انه يبقى في ملكها وذلك في سنة ١٨١٤ * وذكر في تاريخ مصر انه في حدود العشرين بعد التسعمائة ظهرت الفرنج البرتقان على بلاد الهند استطرقوا اليها من بحر الظلمات من وراء جبال القمر بمنبع النيل وغاصوا في ارض الهند فوصل اذاهم وفسادهم الى جزيرة العرب وبنادر اليمن وجدة فلما بلغ السلطان الغوري ذلك جهز اليهم خمسين غرابا مع الامير حسين الكردي وارسل معه عسكرا عظيما من الترك والمغاربة وجعل له جدة اقطاعا وامره بتحصينها الى ان قال ثم توجه بعساكره الى الهند في حدود احدى وعشرين وتسعمائة فهربت الفرنج من البنادر حين سمعوا بوصوله * اه * وعلم من خلاصة حديثة من مجلس المشورة ان مساحة بلاد الهند تبلغ ٥٧٦ ٤٦٦ ١ ميلا مربعا لدولة الانكليز منها ٨٣٧ ٤١٢ وللاهلين ٩١٠ ٦٢٧ ولفرنسا والبورتوڤال ٢٢٤ ١ وعدد سكانها ٢٩٧ ٨٨٤ ١٨٠ تحت حكومة دولة الانكليز منهم ٩٠١ ٩٩٠ ١٣١ وتحت حكومة الاهلين ٣٧٦ ٢٤٧ ٤٨ ولدولتي فرنسا والبورتوڤال ١٤٩ ٥١٧ * وعلم ايضا من خلاصة اخرى ان عدد ضباط الانكليز فيها يبلغ ٢٤٩ ٥ وعدد عساكر الانكليز وغيرهم من الافرنج ١٤٩ ٤٣ وعدد عساكر الاهلين ومن جملتهم الشرطة ٥٩٦ ٢٨٨ فاذا اضفت اليهم عدد العساكر القائمة التي جرى عليها شروط

بين الاهلين والدولة يبلغ العدد ٣٩٨ ٩١٨ وفي الجملة فكل عسكري واحد من الانكليز لخمسة عشر من الهنود . ونقلت صحف الاخبار ان عدد من دخل في طاعة دولة الانكليز من الهند وما يليها بلغ مئة وثلثة وستين مليونا من النفوس وجميع ما فيها من الانكليز خمسون الفا منهم ثلثون الفا في الخدمة العسكرية والعساكر المستخدمة في دولة الهند تنيف على مائتى الف وقد زادوا الان بسبب الغيرة من دولة الروسية ففي سنة ١٨٢٧ بلغوا ثلثمائة الف منهم ١٥ ٧٨٢ مدافعية و٢٦ ٠٩٤ من فرسان الهنود و٢٣٤ ٤١٢ من المشاة منهم ايضا و٤ ٥٧٥ مهندسا وعدد العسكر الملكي ٢١ ٩٣٤ فجملة ذلك ٣٠٢ ٧٩٧ وان ايراد دولة الهند يبلغ في السنة نحو ١٥ مليونا وكل عسكري يبعث من انكلترة الى هناك يكلف الدولة خمسمائة ريال وان جميع ادوات الحرب وجهاز العساكر تصنع في انكلترة ثم ترسل الى تلك البلاد وان حاكم الهند له في السنة مائتان وخمسون الفا من صنف الروبي ولكل من اهل ديوان المشورة مائة الف وللقاضي خمسة وعشرون الفا ولكل من كتاب الديوان خمسة وعشرون الفا ومثلها لناظر الملح * اه * ومن العجب ان اهل هذه الدار الذين يحكمون على هذه المبالغ من الناس والبلاد والعساكر ليس يبالون بان يعينوا عسكريا واحدا امام الباب كما يفعل لسائر الدواوين الميرية ولو كانت هذه الدار في باريس لكنت ترى عندها جوقا من العسكر يحرسونها ليلا ونهارا (١١٦) . وفي اخبار العالم ان ايراد الدولة من دولة الهند يبلغ ستة عشر مليونا ومصاريف العساكر تبلغ عشرة ملايين وقدرهم نحو مائتين وخمسين الفا . وفيه ان دولة الانكليز متسلطة الان على بر واحد وعلى مئة جزيرة متصلة بالارض وخمسمائة قب او راس والف بحيرة والفي نهر وعشرة آلاف بضع اي جزيرة غير متصلة بالارض واذا اضطرت الى الحرب جهزت خمسمائة الف عسكري والف سفينة حربية ومائة الف بحري وان دول الاثوريين والرومانيين والفرس والعرب وقرطاجنة واسبانية لم تحصل على هذا العز والبسطة والسعة وانه ليس من اطيلة او اسكندر المقدوني او نابوليون او تيمور او هولاكو من بلغ ما بلغت اليه من الفخر

والسطوة . قلت في سنة ١٨٥٠ بلغت البواخر اي سفائن النار المختصة ببلاد الانكليز وارلندة وسكوتلاندة الفا ومئة واحدى وثمانين سفينة وفي سنة ١٨٥٢ بلغ جملة ما دون منها في مراسي تلك البلاد كلها الفا ومائتين وسبعا وعشرين سفينة . ثم ان اول من فكر في استنباط اداة لاصعاد المآء بواسطة النار كان مركيز ورسستر وذلك في سنة ١٦٦٣ وهو الذي ينسب اليه ايجاد تبليغ الاخبار من بلد الى بلد بواسطة خارجية ولكن الظاهر ان فكره هذا لم يهم اهل عصره لان يتعلقوا بالاسباب الموصلة اليه . وقال ءاخر لاشك في ان مركيز ورسستر هو مخترع آلة البخار وذلك في زمن شارلس الاول وفي سنة ١٦٦٤ الف كتابا سماه عصر الاختراع وذكر فيه استنباطات عديدة على سبيل الاختصار والغموض الّا ان اهل عصره لم يبالوا بذلك وكذلك ذكر بالتدقيق بعضا من مخترعاته . واول تجربة اجراها كانت في مدفع وذلك بان ملا نحو ثلثة ارباعه مآء ثم سد خرقه وفمه ثم ادناه من النار اربعا وعشرين ساعة فانفلق بدفع شديد فدله ذلك على ان قوة البخار هي اعظم مما يدركه الانسان وروي عنه انه قال قد جعلت المآء ينبعث من الجدول ارتفاع اربعين قدما والانآء الذي فيه بخار يرفع اربعين انآء ملئت مآء باردا الّا ان الناس لم ينتبهوا لذلك الّا في ءاخر ذلك القرن . ثم اخترع القبطان صفري ءالة لرفع المآء في سنة ١٦٩٤ فهذان الرجلان هما مخترعا هذه الطريقة وقد نسبت الفرنساوية استنباط ذلك الى احد فلاسفتهم المسمى دكطر بابان وذلك سنة ١٦٩٥ والحق ان عمليته لم تجر عندهم الا بعد مدة طويلة . واول ما اجريت عملية القبطان المذكور كان في معادن كورنوال ثم قام مستر نيوكومن ومستركين فتزجرالد وهدون بلور وواط وبلطون وبعد ذلك قام القبطان شانك فانشأ سفينة لتسافر الى كندة في مدة حرب الاميركانيين ونجح وفي سنة ١٦٨١ اخترع بابان ءالة من هذا النوع ثم قام صفري فصنع اداة لاصعاد المآء وذلك سنة ١٦٩٨ وفي سنة ١٧٨١ اخترع واط السكوتلاندي ءالة مزوجة ثم قام غيرهم كثيرون وكل منهم زاد شيئا او انقن ءالة . وقال الفاضل لارندر انه يمكن اصعاد البخار من طاستي مآء

باوقيتين من الفحم وفي حال تبخيرها تكثر فتصير مائتين وستة عشر غالونا من البخار فيمكن والحالة هذه ان ترفع بقوة آلة معها سبعة وثلاثين طنا ارتفاع قدم واحد . ويقال ان جملة القطع التي تركب في آلة النار تبلغ ٥٤١٦ قطعة . واول تجربة عملت على نهر تامس كانت في سنة ١٨٠١ . واول سفينة نار انشئت في انكلترة كانت في سنة ١٨١٥ وفي ارلندة سنة ١٨٢٠ . واول سفينة نار سافرت الى بلاد الهند كان في سنة ١٨٢٥ . وكان انشاء سفائن النار الحربية في انكلترة سنة ١٨٣٣ * واعلم ان اول من عرف فن الابحار اي ركوب البحر هم اهل فينيقية وذلك منذ الف وخمسمائة قبل الميلاد . واول سفر طويل عرف منهم كان سفرهم الى افريقية وذلك سنة ٦٠٤ قبل التاريخ المذكور . ثم عرف في الاسكندرية الى ان صار كانه من خصائص الرومانيين . ثم عبر من اهل ڤينيسيا وجينوى الى اهل البورتوكال واسبانية ومنهم الى انكلترة وهولاندة ولم يكن اليونانيون يعرفون الابحار في بحارهم الضيقة الّا على الطوف وهو عبارة عن خشبات يشد بعضها الى بعض الى ان عرفوا ركوب البحر في السفائن من دأناوس المصري حين قدم عليهم هاربا من اخيه راماسيس وذلك سنة ١٤٨٥ قبل الميلاد . وهذا الطوف الذي يستعمله النوتيون الان هو دون ما كان يستعمله اليونانيون فان ذاك كان مجعولا بحيث يمكن تدبيره وادارته عند هيجان البحر . واول ما عرف للانكليز مراكب حربية ملكية مرتبة تحت ديوان معين كان في عهد هنري الثامن سنة ١٥١٢ . وكانت عدة البوارج في زمان الملكة اليصابت ثمانيا وعشرين . وفي سنة ١٨١٤ كان لبريتانية الكبرى تسعمائة سفينة . وفي سنة ١٨٣٠ كان لها ٦٢١ سفينة . وفي سنة ١٨٤١ كان مجموع سفائنها الكبيرة والصغيرة ١٨٣ . وفي سنة ١٨٥٠ بلغت خمسمائة من جملتها مائة واحدى وستون باخرة اي سفينة نار . وفي سنة ١٨٥٤ زاد هذا القدر فبلغ خمسمائة وستا وعشرين ما عدا سفائن اخرى كانت تستعمل في مصالح اخرى . وفي سنة ١٨٥٥ بلغ مجموعها ستمائة سفينة وسفينتين . وعدد ما اتلفت او غنمت من سفائن لدول في فتنة الفرنساوية الى غاية سنة ١٨٠٢ كان ٣٤١ من سفن الفرنسيس

ومن سفن هولاندة ٨٩ ومن سفن اسبانية ٨٦ ومن دول اخرى ٢٥ فجملتها ٥٤١ سفينة . وعدد ما اتلفته او غنمته في حربها مع دولة فرنسا الى غاية سنة ١٨١٤ كان ٥٦٩ سفينة منها ٣٤٢ لفرنسا و١٢٧ لاسبانية و٦٤ لهولاندة و١٧ للروسية و١٩ للاميريكانيين فجموع ذلك كله ١١١٠ سفن . فاما بوارج فرنسا فيمكن ان يقال انها بلغت اعلى شانها في سنة ١٧٨١ ولكن باد كثير منها في حربها مع الانكليز . وفي سنة ١٨٥٤ بلغ مجموعها ٦٩٧ منها ٤٠٧ سفينة نارية . وفي التيمس ان عدد سفن النار التي سجلت وانشئت من سنة ١٨٤٣ الى سنة ١٨٥٧ بلغ ١٨٠٥ سفن وفي سنة ٥٧ كان من هذه السفن في خدمة البلاد ومصالح البلاد الاجنبية ٨٨٩ ومن سفن الريح ١٨٤٢٩ سفينة . ووجدت في التيمس بعد فراغ هذا الكتاب نقلا عن جرنال اميركاني ان لدولة الانكليز

من بوارج النار التي تحمل من ستين مدفعا الى مائة واحد واربعين وقوتها من مائتي حصان الى سبعمائة عدد	٥٢
ومن بوارج الريح التي تحمل من ستين مدفعا الى مائة وعشرين	٤٤
ومن فرقيطات النار التي تحمل من عشرين مدفعا الى اربعة وخمسين وقوتها من مائة وخمسين الى الف	١٩
ومن فرقيطات الريح التي تحمل من ٣٢ مدفعا الى ٥٤	٩١
ومن اغربة النار التي تحمل من خمسة مدافع الى عشرين وقوتها من خمسين حصان الى ثلثمائة وخمسين	١٥٦
ومن اغربة الريح التي تحمل من عشرة مدافع الى عشرين	١٠٥
ومما يسمى كن بوت مما يحمل من ٢٠٠ طن الى ٨٠٠ ويحمل من ثلثة مدافع الى ستة وقوته من ٢٠ حصانا الى ٣٥٠	٢٠٠
فالجملة	٦٦٧

ولدولة فرنسا من الصنف الاول	٣٣	ومن الصنف الخامس	١٣٨
ومن الصنف الثاني	٢٣	ومن الصنف السادس	١٣٨
ومن الصنف الثالث	٢٨	ومن الصنف السابع	٢٠٠
ومن الصنف الرابع	٥٤	فالجملة	٦٠٥

ولدولة هولاندة من الصنف الاول	١٠
ومن الصنف الثاني	٠٩
ومن الصنف الثالث	٣٠
ومن الصنف الرابع	٢١
ومن الصنف الخامس	٠٧
ومن الصنف السادس	١٢
ومن الصنف السابع	٣٦
فالجملة	٨٩

ولدولة اسبانية من الصنف الثاني اذ ليس لها من الاول	٠٦
ومن الصنف الثالث	٠٢
ومن الصنف الرابع	١٠
ومن الصنف الخامس	١٥
ومن الصنف السادس	٢٣
فالجملة	٥٦

ولدولة اوستريا من الصنف الاول	١٠
ومن الصنف الرابع	٦٠
ومن الصنف الخامس	٥٠
ومن الصنف السادس	١٢
ومن الصنف السابع	٢٠
فالجملة	٤٤

ولدولة اميريكا من الصنف الثاني	٠٦
ومن الصنف الثالث	٠٦
ومن الصنف الرابع	١٢
ومن الصنف الخامس	١٢
ومن النصف السادس	٢١
فالجملة	٥٧

ثم رايت بعد ذلك ان لدولة فرنسا ما ينيف على السبعمائة ولدولة الانكليز ستمائة وتسعون سفينة غير ان بحرية هذه اكثر فانها لا تنقص عن خمسة وثمانين الفا وبحرية فرنسا نصف هذا القدر والله اعلم . فاما احداث البارود فكان سنة ١٣٣٦ وذلك قبل استعمال المدافع بعشر سنين ولا يعرف محدثه وانما يظن انه من مخترعات راهب من بروسية اسمه مخائيل شوارتز والحق انه كان معروفا عند اهل الصين من قبل تاريخ الميلاد باحقاب كثيرة الّا ان استعمالهم له كان للصلاح لا للتدمير وذلك كتمهيد الطرق ودك التلال وحفر القني وان يكن قد ظهر من ادوات سلاحهم ما يحقق انه مجعول له الّا انه لم ينقل عنهم انهم استعملوه قط في حرب . واول ما استعمل في الحروب فيما علمناه كان في الحرب التي وقعت بين الانكليز والفرنسيس وذلك في سنة ١٣٤٦ * وقد نبغ في الانكليز عن قريب ضابط من ضباط العسكر اسمه ورنر اداه الاجتهاد والتبحر الى ان اخترع شيئا يقدر به على اتلاف

اي سفينة كانت من مسافة ثلثة ارباع ميل من دون مماسة البارود اياها. وقد جرب ذلك بحضرة مامورين من طرف الدولة عند مدينة بريطون وصحت تجربته لا بل زعم انه يتلف المركب من مسافة خمسة اميال . قلت فلا يبعد اذا ما ذكره لوقيان وغالن عن ارشميدس من انه احرق مراكب الرومانيين في حصار سيراقوسة بواسطة الزجاج وذلك قبل تاريخ الميلاد بسنة ٢١٢ * قال وقد اراد الضابط المذكور ان يبيع هذا السر للدولة لكنه اشط في الطلب فلم تشتره منه . قال وقد نبغ ايضا شنبين الكيماوي من برلين في هذا الفن واحدث شيئا يفعل فعل البارود بل اكثر وهو ان يغمس القطن في اجزاء متساوية من النطرون والكبريت ثم ينشف فياتي كالبارود في الثقل والدفع واسلم عاقبة منه . وقيل انه باع هذا السر في بلاد الانكليز باربعين الف ليرة إلّا ان دولتي فرانسا وانكلترة ابتا استعمال القطن في البنادق بدل البارود وذلك لكثرة سخونته فان البندقية اذا ملئت منه مرات تشتد بها السخونة بحيث انها تنطلق بنفسها من قبل ان تقفس ويقال انه استعمل ايضا نوع من النبات يسد مسد البارود . وفي سنة ١٥٤٤ استعملت فرسان الانكليز الغادري اي الطبنجة وزعم بعض ان استعمال المدافع كان في سنة ١٣٣٨ . وزعم آخر انها عرفت في حرب كريسي وذلك في سنة ١٣٤٦ . وقيل ان الانكليز استعملوها في حصار كالي سنة ١٣٤٧ وقيل نها استعملت في الموضع المذكور في سنة ١٣٨٣ اه . وقال فلتير ان برنس اوالس المعروف بالاسود لسواد درعه وريشته انتصر على فليب ثلوى ملك فرنسا عند نهر سم وكان من اقوى الاسباب التي اعانته على ذلك استعمال بعض مدافع كانت مع عسكره فان المدافع لم يشهر استعمالها قبل تلك الواقعة إلّا بنحو اثنتي عشرة سنة ولم يعلم من كان المخترع لها . اه . قلت فيليب المشار اليه ولي الملك في سنة ١٣٢٨ . واكبر مدفع في الدنيا فيما علم مدفع نحاس صنع في بلاد الهند سنة ١٦٣٥ . وفي برج في جرمانية مدفع طوله ثماني عشرة قدما ونصف قدم ووسع قطريه قدم ونصف ووزن حبته مائة وثمانون رطلا وملئه من البارود اربعة وتسعون رطلا ويعلم من نقش

رسم عليه انه صنع في سنة ١٥٢٩ . وحبة المدفع الصغير تذهب مسافة اربعمائة يارد وابعد مدى لها انما من خمسمائة الى ستمائة وهو عبارة عن نصف ميل ومن المدفع الكبير من ميل ونصف الى ميلين * ومن ذلك اي من المباني العظيمة بيت ضابط البلد في الستي ويقال له منشن هوس بني في سنة ١٧٣٩ وبلغت مصاريفه ٧١٠٠٠ ليرة وبعض اثاثه من مائة سنة وبعض من ستين . وهذا الضابط تنتخبه الجماعة المنوط بها تدبير هذه المحلة في كل سنة وذلك في التاسع من تشرين الثاني ويوم انتخابه يجعل في الطرق حواجز لمنع مرور الحوافل وتغص المدينة بالزحام فيضغط الناس بعضهم بعضا فلا يبقى احد من اهل البطالة إلّا ويخرج للتفرج او بالحرى للتلزز فيخرج الضابط من الديوان المسمى كلدهال في موكب عظيم ويجلس في عاجلة مذهبة فاخرة تجرها ستة افراس ثمنها في الاصل الف وخمس وستون ليرة وكل سنة يصرف على زينتها مائة ليرة ويجلس معه قاضي القضاة بقباء احمر وهو متقلد سيفه وشعار سلطته وتقف في ذلك اليوم شرطة الديوان لمحافظة الطرق وتمشي صفوف شتى وهم يحملون اعلاما مختلفة وآخرون يضربون بآلات الطرب وآخرون ينفخون في الابواق وآخرون متكمون بالدروع على منوال المجاهدين الاقدمين وتوضع امامه آلات الحرث على عجلة مزينة مما تنبت الارض وسفينة ذات قلوع تجرها ستة افراس ويسير معه اصحاب المراتب السنية والمناصب العلية وضابط البدل المعزول وعند وصولهم الى محل معلوم تلاقيه سفراء الدول ووزراء الدولة والقضاة واركان مجلس الشورى وغيرهم من ذوي الشان حتى اذا رجع الى مقره دعا اولئك النبلا الى وليمة فاخرة تشتمل على الفين وستمائة وسبعة وثلثين صحفة كبيرة وصغيرة ولابد من ان يوضع امامه صحفة فيها نوع من السمك الصغير اشارة الى انه ضابط نهر تامس الذي هو عند الانكليز اعز من نهر قنجس عند الهنود . وعلى ذكر الوليمة يحسن هنا ايراد ما وجدته مكتوبا في اوراق تسمى تعليقات ومسائل من ان ضابط نرويش من اعمال انكلترة صنع مادبة فاخرة في عهد الملكة اليصابيت سنة ١٥٦١ ودعا اليها جماعة من اشراف ذلك الصقع وكبرائه

فبلغت مصاريفهما ليرتين و ١٣ شلينا و ١١ بنسا فكان ثمن الوزة فيهما بثلث شلين وفخذ الضان بربعه وكذا ثمن الدجاجة وثمن اثنتي عشرة بيضة وثمن ستة عشر رغيفا ثلث شلين وثمن برميل من الجعة شلينان ونصف وءاخر صغير شلين واحد وثمن اربعة ارطال من السكر شلين ونصف وفواكه ولوز سبعة بنس وثمن كالنين من خمر ابيض شلين وثمن اثنين من الكلارت شلين وقس على ذلك . ثم ان الولائم التى يصنعها اهل الستي تكون فاخرة جدا تشتمل على صحاف من الذهب واكواب من الفضة وسنوية الضابط ثمانية ءالاف ليرة ولكنه يصرف في مدة ولايته اكثر من هذا القدر . وايراد تلك الجماعة ... ١٥٦ ليرة يستوردونها من ضرائب على الفحم والاسواق والديار والسماسرة . وهذه الجماعة ينتخبهم الاهلون الذين لهم عقار وديار . ومن خصائص الضابط مدة ولايته ان يتولى امور المدينة غير معارض وقد نازع الملك جورج الرابع في هذه السلطة وحاول ابطالها غير ان الانكليز كما ذكرنا سابقا لا يحبون تغيير العادات القديمة فمن ثم بقي الحال كما كان . واذا اتفق موت الملك في ايامه فله ان يجلس في ديوان الشورى الخاص ويوقع قبل اربابه . وله ايضا ان يغلق باب الموضع المعروف بتمبل بار وهو اول خط المدينة في وجه الملكة حين تذهب الى المدينة ولكن ليس بقصد ردها عن الدخول بل بقصد ادخالها جريا على العادة . وتفصيل ذلك ان صاحب الملك اذا اراد التوجه الى المدينة يصل الى ذلك الباب فيجده مغلقا فينفخ بين يديه رجل في البوق ويقرع الباب ءاخر ويقع بينه وبين الضابط محاورة وكلام هنيهة ثم ينفتح الباب ويدنو الضابط من صاحب الملك ويقدم له سيف المدينة فياخذه منه الملك ثم يعيده اليه ثم يدخل ومعه الضابط سائر بركابه . وهذا الباب هو مبتدا خط الستي بني في سنة ١٦٧٠ وعليه تمثال الملكة اليصابت والملك جامس الاول وكرلوس الاول وكرلوس الثاني وهو لا يغلق إلا في ذلك اليوم غير ان توجه صاحب الملك الى المدينة لا يقع إلا نادرا وذلك كان يذهب الى كنيسة ماربولس ليهدي الشكر لله على فتح او ظفر بالعدو او ليفتتح بناء عموميا كدار مجتمع التجار او دار الصرف ونحو

ذلك . والحاصل ان تدبير هذا الخط الذي يقال له ستي وهو عبارة عن اول ما انشي في لندرة من الابنية والحوانيت والمحترفات مفوض بالاستقلال الى الضابط والى اولئك المديرين ومصاريف محكمة هذا الخط تبلغ ١٢١٨٢ ليرة في العام ومصاريف شرطته ١٠١١٨ ومصاريف محل فيه اسمه نيوكات ٩٢٢٣ ومصاريف الحبس فيه ٧٦٠٢ ومصاريف حبس المديونين ٤٩٥٥ ومصاريف النهر ٣١١٧ وشعار المدينة هو سيف ماربولس وصليب مارجرجس . وفي العام الماضي كان الضابط بهوديا . وقيل ان الضابط الذي نصب في هذه السنة كان نفرا من العسكر . ومن الغريب هنا ان هذا الضابط يعزل في كل سنة وخدمته يبقون الى ما شآء الله وسياتي بقية الكلام على الستي . ومن ذلك كلدهال وقد تقدم ذكره وهو ديوان احكام الستي فيه توقيع بخط شكسبير الشاعر اشتراه المديرون بمائة وسبع واربعين ليرة وبالقرب منه دار عظيمة ايضا لختم ما يصاغ من الذهب والفضة فيها الكاس التى شربت بها الملكة اليصابت عند تتويجها . ومن ذلك البرج الذي يقال له تور اف لندن اي برج لندن وهو اعظم برج في بريتانية وهو حصن للمدينة ومقر لصاحب الملك عند عقد هدنة ونحوها وسجن للمجرمين من ارباب الدولة لا يعلم متى كان انشآوه وانما يظن انه بني في سنة ١٠٧٨ وفيه امتحن كي فكس الذي عمل على احراق مجلس المشورة على ما تقدم ذكره والملكة مريم ملكة اسكوتلاند ويوحنا ملك فرنسا وكرلوس دوك اورليان وابو لويس الثاني عشر والملكة انة اوحنة بوليان ضرب عنقها سنة ١٥٣٦ والملكة كاثارين هاورد زوجة الملك هنرى الثامن والسيدة رشفورد وسر توماس موز ورئيس الاساقفة كرانمر ورئيس الاساقفة لود وسبعة اساقفة آخرون وغير ذلك وقتل فيه هنرى الخامس وادرود الخامس وغيرهما وهو يشتمل على الدروع والسلاح التى كانت تستعمل في الزمن القديم وعلى مدافع ثمينة من جملتها مدفع اخذ من نابوليون الاول وكان هو قد اخذه من مالطة وهو بديع الصنعة ومدفعان عظيمان اخذا من البلاد الاسلامية طول كل ثلثة وعشرون شبرا وفيه دروع جامس الاول وهنرى الرابع وادورد الرابع والملكة اليصابت وغيرهم وتاج يقال له تاج

صنت ادورد صنع لتتويج كرلوس الثاني ثم توارثته جميع الملوك من بعده
وهو التاج الذي يصنعه رئيس الاساقفة على راس صاحب الملك عند المذبح ٠
وفيه ايضا تاج جديد صنع للملكة وهو شبه طربوش من مخمل احمر يحيط
به اطار من فضة مرصع بالماس زنته رطل وثلثة ارباع وفي التاج ياقوتة
غير مجلوة يقال انها كانت في تاج الملك ادورد الملقب بالاسود وقيمة التاج
كله ٩٠٠ ااا ليرة ٠ وفيه تاج لامير والس من ذهب غير مرصع بالجواهر ٠
وءاخر لزوج الملكة مرصع بالماس والدر وغيرهما من الجواهر ٠ وفيه صولجان
يسمى صولجان العدل او صولجان الحمامة لان فيه حمامة طوله ثلث اقدام
وسبع اصابع وهو من ذهب مرصع بالماس وغيره ٠ وءاخر للملكة عليه صليب
بديع الصنعة مرصع بالماس ٠ وءاخر يسمى صولجان الملك عليه تفاحة
مرصعة بالياقوت والزمرد والماس طوله قدمان وتسع اصابع وعليه ايضا صليب
من ذهب مرصع بالجواهر المتنوعة ٠ وءاخر يسمى قضيب صنت ادورد من
ذهب مطرق طوله اربع اقدام وسبع اصابع في اعلاه دائرة وصليب ويقال
ان في الدائرة قطعة خشب من صليب المسيح ٠ وفيه ايضا سيوف العدل
الكنائسية والمدنية وركب (جمع ركاب) من ذهب تستعمل يوم تتويج الملك
او الملكة ووعاء للماء المبارك في شكل نسر وملعقة من ذهب للمناولة وقت
التتويج وطست من فضة مذهب يستعمل يوم عمودية ولد الملك وغير ذلك
من التحف مما يطول شرحه ٠ وقيمة ما فيه من السلاح بلغت في سنة ٤٩
٦٤٠٠٢٣ ليرة وقيمة المهمات الحربية في انكلترة وغيرها مما هو تحت حكومتها
ستة ملايين من الليرات ٠ قلت لما رايت هذا الموضع اخبرني الدليل بان
الياقوتة الحمراء التي في مقدم تاج الملكة وهي نحو البيضة الصغيرة تساوي
خمسين الف ليرة وثمن التاج كله مليون وثمن التيجان الاخرى مليونان والله
اعلم ٠ وقد جرت العادة بان تاج الملكة يودع في هذا الحصن وعند الحاجة
اليه يوخذ منه ثم يرد اليه وقد سرق مرة مع سائر الجواهر وذلك في سنة ١٦٧٨ ٠
واعجب من جميع ما ذكرت ان هذا البرج الاميري الملكي السلطاني التاجي
لا تمكن رويته الا بعد اداء شلين واحد ٠ وفي لندرة اربعة قصور لصاحب

الملك اعظمها وهو الذي تسكنه الملكة في الشتآء القصر المسمى باكنهام في اصطبله عاجلة اي كروسة تساوي نحو ثمانية آلاف ليرة وطول حديقة القصر ٣٤٥ قدما . قال فيه بعضهم قد لزم لترميمه وتصليحه خمسون الف ليرة مع انه لا يصلح لسكنى الملوك وبني فيه قنطرة من رخام صرف فيهما ثمانون الف ليرة مع انه لا يمكن ابقاوها حيث هي وقبلا صرف على القصر ٢٢٦ ٧٦٣ ليرة ما عدا ما لزم له من الفرش والاثاث وقد كان يمكن ان يبنى بهذا المبلغ قصر جديد فاخر من اصله خير من هذا القصر الذي ان هو الا عبارة عن مواضع ملفقة وبعد ان صرف ذلك المبلغ المذكور على القنطرة لزم الان صرف مبلغ عظيم الى نقلها . وصرف ايضا على قصرها الذي تسكنه في الصيف في وندزر وهو على مسافة نحو اربع ساعات من لندرة عشرة آلاف ليرة وذلك لاجراء المآء اليه وثاني مرة صرف عليه ستة آلاف وخمسمائة ليرة لوقايته من النار وقد تبين من دفاتر المصروف انه من سنة ١٨٢٤ الى سنة ١٨٣١ بلغ المصروف على هذا القصر ٥١٦ ٤٩٨ ١ ليرة فاذا اضفتها الى المبلغ اللازم الان بلغت جملة ذلك ٠٠٠ ٥١٥ ١ ما عدا ما يصرف على الغياض والشجر الملحقة به وبلغ مصروف الاثاث ٠٠٠ ٢١٦ ومصروف التحف ٣٠٠٠ * اهـ * ويقال انه يصرف في السنة على ترميم القصور والمباني الميرية ٧٨٠ ١٧٠ قال فهذان مليونان صرفا على قصرين هما سخرة وهزء لاهل اوربا جميعا . والقصر الثاني ويسمى قصر صان جامس اصله مارستان للبرص ثم صار مقرا للملك هنري الثامن ومنه تصدر الان الاوامر الملكية وهو مبني من الآجر وما تحته طائل ونحوه الباقي . وفي تاريخ بلاد الهند انه لما مات هنري الخامس احبت زوجته الملكة كاثارين رجلا والسيا من العسكر الذين يحرسون الملك اسمه اوين تودهر فتزوجته سرا فهو ابو ملوك الانكليز من بعد وكانت وفاتها في سنة ١٤٣٧ واول اولاده قيل له اولا ادمند اول اف رتشهوند ثم عرف باسم هنري السابع . وهذه الملكة الجالسة الان على كرسي الملك اسمها الكسندرة فكطورية بنت دوك كنت ولدت في الرابع والعشرين من شهر ايار سنة ١٨١٩ ووليت الملك في العشرين من حزيران سنة ١٨٣٧ وتوجت في الثامن

والعشرين منه سنة ٣٨ وتزوجت ابن عمها البرنس البرت من سكس في العاشر من شباط سنة ١٨٤٠ ولها منه ثمانية اولاد اربعة ذكور واربعة اناث وبكر اولادها هي السيدة فكطوريا اديلا ماري لويسة ولدت في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٨٤٠ والثاني البرت ادورد برنس والس ودوك سكسوني ودوك كورنوال واول شستر وكاريك وبارون بنفرو ولورد ايلس ولد في ٩ تشرين الثاني سنة ١٨٤١ . ويقال انه لم يقم قبلها ملكات على الملك بالاستحقاق سوى اربع . وكان لاهل سكارية كراهة لتمليك النساء زائدة حتى انه حين كان يتولى عليهم ملكة كانوا يسمونها ملكا . واول ملكة عرفت لها الولاية في الدنيا سميراميس ملكة اثور وذلك في سنة ٢٠١٧ قبل الميلاد وهي التي حسنت بابل وكبرتها حتى صارت اعظم مدينة في العالم . وللملكة فكطوريا اخلاق جيدة واحترام ليوم الاحد عظيم يحكى عنها ان بعض الوزراء ذهب مرة الى قصرها في وندزر في ليلة السبت متاخرا وهو عندنا ليلة الاحد فعرض لها ان معه اوراق مهمة تتوقف على مطالعتها قال ولكن لا اكلفك الليلة تصفحها فانها طويلة وقد فات الوقت ولكن في صباح غد فقالت له كيف في صباح غد وهو يوم الاحد قال لانها من مصالح الحكم قالت اجل يجب مداركتها ولكن سأتصفحها بعد الخروج من الكنيسة فلما كان الغد ذهبت الى الكنيسة وذهب الوزير ايضا فلما انقضت الصلوة قالت له كيف اعجبتك الخطبة قال لقد اعجبتني جدا فقالت لست اكتم عنك الان اني اوعزت البارحة الى القسيس في ان يحرر الخطبة على محافظة يوم الاحد وقد سمعت ما سمعت ولكن تعال غدا في اية ساعة شئت قال في الساعة التاسعة قالت من حيث هي اوراق مهمة كما ذكرت فتعال في هذه الساعة تجدني مستعدة وكان كذلك . اه . وهذه الساعة باعتبار ايام البلاد هنا باكرة جدا . ومن ذلك عدم الاسراف في الملابس وعدم التفات الى الابهة فانها لا تتميز بلباسها عن كرائم خوادمها . واسراف الملابس منع في بلاد الانكليز في عهد ادورد الرابع سنة ١٤٦٥ ثم في عهد اليصابت في سنة ١٥٧٤ . واشهر من عرف فيه سر ولطر والتي كانت كسوته تساوي ٦٠٠٠ ليرة وكان له دروع من الفضة وله سيف مرصع بالماس

والياقوت والدر وكان دوك باكنهام صفي الملك جامس يلبس حلته مرصعة بالماس ترصيعا غير وثيق بحيث اذا شاء ينفضها فتلتقطها خواتين القصر ولا باس هنا بايراد جملة من الكلام مفصلة نذكر فيها ايراد الممالك وما خصص للملوك منها . فنقول ان المرتب للملكة في السنة ثلثمائة وثمانون الف ليرة ولكن لا يدخل في كيسها من ذلك كله غير ستين الف ليرة الباقي يصرف في ابهة الديوان وملاهيه ولزوجها ثلثون الفا فاذا لزم لها زيادة مصروف على القدر المذكور اخذ من الخزنة على سبيل القرض الى ايراد العام القابل وهكذا وبلغت وظائف الحشم والخدام وحساب التجار في سنة واحدة ٨٠٠ ١٣٧١ وبلغ ايراد الدولة من المكس والضرائب والاتاوة في العام الماضي ٠٦٦ ٣٤٨ ٧١ والمصاريف ٤٧٧ ٣٠٧ ٨٨ وفي سنة ١٨٤٨ كان ايراد الدولة ٦٩٣ ٩٣٣ ٥٢ ومصروفها ٣٤٠ ٥٦٣ ٥٢ . وخرجت خلاصة من مجلس المشورة في مبلغ ما صرف في عامي الحرب وذلك من ١٢ ادار سنة ٥٤ الى ٣١ ادار سنة ٥٦ مضمونها انه في سنة ١٨٥٤ بلغ الايراد من جميع موارده ٠٠٠ ٠٩١ ٦٤ وبلغ المصروف ٠٠٠ ٢٣٦ ٧٠ . ونقلت من كتاب آخر انه في سنة ١٨٤٢ بلغ الايراد من ديوان المكس ٣٧٤ ٥١٥ ٢٣ ومن التبغ والمسكرات ٨٤٧ ٦٠٢ ١٤ ومن المولك اي البوسطة ٥٤٠ ٤٩٥ ١ ومن اتاوة الارض ٤٣٠ ٢١٤ ١ ومن اشياء متفرقة ٤٠٢ ٤٢٠ ١١ فجملة ذلك نحو ٦٤٤ ٢٤٨ ٥٢ * وكانت اتاوة فرنسا على الارض ٠٠٠ ٢٠٠ ٢٣ وسائر الضرائب والمكس ٠٠٠ ٥٠٠ ١٧٠. واتاوة الروسية ٠٠٠ ٩٩٠ ٣ وسائر الضرائب ٠٠٠ ٦٦٧ ٣٠. واتاوة اوستريا ٠٠٠ ٧٩٥ ٨ وسائر الضرائب ٠٠٠ ٠٠ ٧ ٧ * ومن ضمن تلك المتفرقات التي وردت الى خزنة دولة الانكليز في سنة ١٨٥٦ ما اخذ على التركات ٨٧٣ ٨٥٠ ٢ وعلى الخيل ٨٩٨ ٣٤٠ وعلى العقود والصكوك ٢٣٤ ٢٢٥ ١ * وفي سنة ١٨٥٢ اخذ على نحو احدى وسبعين مليون رطل من الشاي مبلغ ٤٣٣ ٩٠٢ ٥ ليرة وفي سنة ٥١ اخذ على نحو اربعة وخمسين مليون رطل منه ٦٤١ ٤٧١ ٥ * (١١٧) * ويصرف في كل سنة من خزنة دولة الانكليز على اشخاص مرتزقين لا عمل لهم نحو اربعة ملايين ليرة . وفي بعض صحف الاخبار ان ضريبة الايراد وحملة

تبلغ ستة عشر مليونا والمراد بالايراد هنا ما يدخل للناس من كسبهم وسعيهم وارزاقهم . وكان ايراد ديوان المكس في ايام الملكة اليصابت عشرين الف ليرة وفي ايام شارلس الثاني ثلثمائة وتسعين الف ليرة وكان جيع ايراد الملكة اليصابت ستمائة الف ليرة وايراد شارلس الاول ثمانمائة الف وكان ايراد دولة الانكليز في زمان وليم الفاتح ٤٠٠ ٠٠٠ وفي زمان هنرى الرابع ٩٧٦ ٦٤ وفي زمان الملكة ماري ٤٥٠ ٠٠٠ وفي زمان جامس الاول ٦٠٠ ٠٠٠ وفي زمان شارلس الاول ٨١٩ ٨٩٥ وفي سنة ٥٠ بلغ ٨ ٠٠٠ ٨١٠ ٥٢ وفي سنة ٥٢ - ٣٠٠ ١٧٨٧ ٠٦٢ قال فلتير وكانت املاك سليمان بن داود تساوي ٥٠٠ ٠٠٠ ١٢٩ ١ * فقد رايت مما تقدم ان ايراد دولة الانكليز ومصاريفها ياتي نحو ايراد دولتين او ثلاث من الدول العظام فان ايراد دولة فرنسا كان شانه ان لا يزيد على اربعين مليونا وايراد دولة اوستريا خمسة عشر مليونا ونصف مليون ومصروفها يزيد على سبعة عشر مليونا وايراد الدولة العلية نحو اثني عشر مليونا إلّا ان نصف ايراد دولة الانكليز يذهب في فائدة الدين وجملته على ما ذكر صاحب التيمس سبعمائة وثمانين مليون ليرة . واعلم هنا انه اذا قيل ان دولة الانكليز مديونة فلا تتوهم من ذلك انها ضعيفة فان نفع هذا الدين يوول الى رعيته حتى ان جل الدائنين لا يريدون استيفآء دينهم مرة واحدة لانهم ياخذون فائدة في كل سنة وهو مامون لهم ما دامت الدولة قائمة . ومعلوم ان غنى الدولة يكون عن غنى رعيتها وسعادتها من سعادتهم . والظاهر ان جميع الدول مديونة فدين سلطنة اوستريا يبلغ مائة وعشرين مليونا وفائدته في كل سنة اربعة ملايين ونصف ودين الدولة العلية يبلغ نحو اربعين مليون ليرة ودين دولة فرنسا لعله زاد الان عما ذكر ضعفين . وهذا الدين على الدول هو من قبيل لجام للرعية يكبحهم عن المعامع والفتن فان الدائنين الذين هم بالضرورة وجوه اهل البلاد واغنياوها لا يرضون بانقلاب الدول مخافة ان يوول الحكم الى الرعاع فيحرموا منه . ونقلت من بعض الكتب ان ملك الانكليز وراثة ولمجلس المشورة ان ينقله من عيلة الى اخرى وانه بعد ان خلع جامس الثاني نفسه عن الملك وذلك في سنة ١٦٨٨ صار الملك محصور

في الملوك الذين على دين البروتستانط ولما لم يكن لشارلس الاول خلف نقل الملك الى نسل جامس الاول وهم من البروتستانط ايضا وهذه العيلة المتولية الان هي من نسل صوفيا بنت ملك هنوفر . والواجب على الملك يوم تتويجه ان يحلف على محافظة ثلثة امور . الاول سياسته بحسب القوانين والاحكام . الثاني اجراء الحكم بالرحمة . والثالث اقرار مذهب الدولة وهو دين البروتستانط . وللملك خصائص ومزايا ينفرد بها عن غيره بحسب ما ارتقى اليه من الشان والشرف منها ان له قدرة على ان ياذن بالحرب والصلح وان يبعث من قبله سفراء الى الدول ويرضى بسفرائها وان يعفو عن ذوي الجنايات وان يخص من شاء بالشرف والالقاب وان ينصب القضاة والحكام ويولي الوظائف العسكرية برا وبحرا لمن يراه اهلا وان يرفض ما يقدم له اهل المجلس من الدعاوي والقضايا ليوقع عليها وهو راس الكنيسة التي عليها رجال الدولة وهو الذي يولي الدرجات والمراتب للاساقفة الّا انه لا يمكنه تنفيذ هذه الامور الّا على يد الوزراء فهم المطالبون بكل ما يصدر عنه من الاوامر ولهذا يقال ان الملك لا يخطئ . وله ايضا خصائص اخرى منها انه لا يغرم شيئا فقد لاحد الامة وان دينه يقدم على دين غيره ولا تقام عليه دعوى ولكن لكل من الرعية حق في ان يعرض له على يد وزيره ما يدعي به من الاملاك . ولعيلة الملك ايضا مزايا امتازت بها فيحق لزوجته ان يقال لها ملكة وان يحترم مقامها ولو بعد وفاة زوجها ولها استطاعة على ان تشتري وتبيع ما تشاء باسمها وان تحيل ما يرد عليها من الدعاوي الى اي ديوان دولة شاءت . ولابن الملك البكر حق من يوم ولادته ان يدعى امير والس ومن منصبه ان يدعى دوك كورن وال وارل شستر . وجميع اولاد الملك ينعتون بالنعت الملكي فيقال مثلا جنابه الملكي او حضرته الملكية * وفي لندرة ست غياض اعظمها الغيضة التي يقال لها هيدبارك وبارك معناه غيضة وهي ندحة عظيمة من الارض عبارة عن ٣٨٧ فدانا باسفلها قنطرة بلغ مصروفها ٤٧٠٦٩ ليرة وباعلاها قنطرة اخرى انفق فيها ثمانية الاف وكانت اولا في غيضة صان جامس فنقلت وبلغت مصاريف نقلها احد عشر الفا وفي هذه

الغيضة نرى اشراف لندرة وعظمآءها في احسن المركوب والملبوس والتجشم وخصوصا من شهر نيسان الى تموز واكثر النهلا يسكنون هناك . قال فيها بعض الفرنساوية صور لنفسك سهلا فسيحا ذا اشجار و برك وحقول ومرج تمرح فيه الثيران والشاء اسرابا اسرابا كانك في اقليم دوفنشير الانيق فتلك صفة هيدبارك . ثم صان جامس بارك وهو المتصل بقصر الملكة ومع ان المظنون من وصفه ونعته انه يكون منتاب ذوي الفضل والشان فهو مجمع الخدمة والحرافيش والاولاد . ثم كرين بارك - وريجنت بارك - و باترسي بارك - وفكطوريا بارك وهو اخسها كما ان فكطوريا ليباطو هو اخس الملاهي . وما عدا هذه الغياض فثم حديقتان احداهما لتنبيت النباتات كبستان النباتات في باريس غير ان دخولها مقصور على اصحابها او على من يوذن له منهم . والثانية للحيوانات الحية والميتة والاداء على دخولها شلين . وفي ضواحي لندرة ايضا متنزهات ينتابها الناس في الصيف وذلك كرنشمونـد وكيو وهمستد وكرافزند وهمبطون كورت واحسنها كرستل بالس في سدنام وهو القصر الذي نقل من غيضة هيدبارك وهو يعز عن النظير . وقد جان الان ان اتكلم على احوال لندرة الخصوصية مهيدا لذلك بمقالة قالها بعض الفرنساويين ثم اشرح جميع ما يتعلق بها . قال اما لندرة فان كل ما فيها انما جعل للتمتع به داخل الديار واما باريس فان طيب عيشها انما هو في الاسواق والشوارع وان الاولى تحير الناظر باحتشان حالاتها و بكثرة ما فيها من الدكاكين و بترفه الاشراف والعظمآء واسرافهم وان الثانية تسحره بتفنن شونها واختلاف المشاهد فيها وبما يتنعم به اهلها من العيش الذي يحكي عيش التوز المتنقلين من حال الى حال وفي الجملة فان لندرة تحكي خلية العسل و باريس تحكي منهلا عذبا لكل وارد وما احسب جود الانكليز الذي يصفهم به اهل باريس الا من هذه الجالة التي لا تفاوت فيها . اهـ . وقال آخر ليس في لندرة مطاعم انيقة ومحال قهوة فاخرة كما في باريس فيلزم الغريب ان ياكل في المنزل الذي يسكنه او في بيوت الاكل وهي عبارة عن مواضع مظلمة لا تانق في فرشها ولا في مطابخها واذا دخلت احدها مما يتردد اليه وجوه الناس احضر لك

الخادم في وقت الغداء خمس صحاف مغطاة باغطية منضضة فتحسب ان فيها شيئا يفتح منك اللهى فاذا كشفت عن احداها ظهر لك الشواء ويليه البطاطة ثم الخلر على حدتها ثم خسة وفي الخامسة زبدة مذابة مع ءانية الاباريز فاذا شئت التفنن احضروا لك سمكا مسلوقا اما الشراب فالجعة لانك لو اردت ان تشرب الخمر لزم ان يكون دخلك في العام دخل امير في غيرها . اه . قلت قد اشرت في وصف باريس الى بعض ما بينها وبين لندرة من الفرق في السكنى والمعيشة والان استوفى ذلك بناء على ما قال الفرنساوي من ان طيب العيش في لندرة انما هو داخل الابواب وفي باريس بخلاف ذلك . فاقول ان اهل الاستطاعة في لندرة كالتجار وغيرهم يستاجرون بيوتا ويستقلون بها وذلك لصغرها خلافا لديار باريس فلهذا كان صاحب العيلة يوثر التنعم في بيته مع اهله على الخروج . اما الغربآء الذين ينزلون في الديار فيكون لاحدهم حجرة او حجرتان فيمكنهم ان ينالوا طعامهم صبحا ومسآء في منزلهم وذلك بان يشتروا هم ما يريدون اكله ويامروا الخادمة بطبخه ويعطوها شيئا زهيدا في مقابلة خدمتها وذلك اولى من انهم ياكلون في المطاعم بل هو انظف وارخص وفي هذه الخطة تفضل لندرة باريس فان الغربآء في هذه لا ينزلون الا في منازل كبيرة مشاهرة فيضطرون وقت الاكل الى الخروج الى احد المطاعم فان الاكل في المنازل غال جدا . وهناك مزية اخرى وهي ان النزيل هنا يستاجر الحجرة في الاسبوع وفي باريس يستاجرها مشاهرة وان كان مياومة لزم ان يدفع الضعف ضعفين وايضا فان صاحب الدار في لندرة يعطي النزيل مفتاح داره ليمكنه ان يدخل ويخرج ايان شآء وفي باريس لابد من قرع الباب بعد نصف الليل ليفتح له البواب غير ان النزيل في ديار لندرة لا يمكنه ان يخلو بالنسآء في حجرته وفي باريس لا حرج في ذلك وهذا شذوذ عن الاصل المتقدم ان قلنا بانه من طيب العيش الا ان اكثر المنازل هنا يقوم بخدمتها نسآء حسان يغنين النزيل عن الخروج . ولاصحاب هذه المنازل غالبا عادة ذميمة وهي انهم يستولون على مفاتيح عديدة متنوعة يفتحون بها صناديق السكان حتى اذا علموا ان ليس

فيها ما يقوم باجرة المسكن انذروهم بالخروج . وهناك طريقة اخرى للسكنى في كلتا المدينتين وهي ان من شآء ان يمكث طويلا يستاجر حجرة او حجرتين في دار من غير اثاث ويوثثهما هو كما احب ولكن يلزمه في لندرة ان يفتح الباب لقاصله وينور له في الدرج وفي باريس لا يلزمه ذلك . هذا ولما كان ارباب الحكومة في لندرة لا يعنون بما فيه تحسين المدن وتنظيم ديارها كانت ديار لندرة بالنسبة الى ديار باريس حقيرة جدا اذ كل انسان يبني داره كما تقتضيه حاله فمنها ما كان مشتملا على طبقتين فقط ومنها على ثلاث طبقات من دون مراعاة رونقها وهندمتها ومساواتها ويمكن ان يقال ان الديار هنا لما كانت عرضة للحريق كان هم صاحب الملك مجرد الانتفاع بالبنآء دون الزخرفة وناهيك ان في لندرة ٢٦٠ ٢ دارا مشرفة على السقوط وما عدا ذلك فان من يكون قاعدا في حجرة يرى مبلطها يهتز به كلما مرت عجلة من تحتها او مشى ماش فيها . فمحاسن لندرة كلها مقصورة على الحوانيت فاذا رفعت نظرك ما فوقها قابلك سواد الحيطان وحقارة الطوب وتفاوت الطيقان وخساسة المداخن البارزة من السطوح من الخزف وصنعة البنآء وما اشبه ذلك . واعظم ما يشعر الناظر بهذا ما اذا قدم من باريس فانه يرى الفرق عظيما جدا وخصوصا اذا اتفق قدومه في يوم الاحد حين تكون الحوانيت مغلقة فيحسب نفسه انه في قرية صغيرة . الّا ان في داخل الديار هنا مرافق لا توجد في باريس منها حسن المواقد وقد سبقت الاشارة اليه وكونها مشتملة على صهاريج المآء على طيبه وفي باريس يلزم الساكن ان يشتري المآء من السقائين على ردآئه . ومنها قلة درجها وذلك نتيجة كونها غير شاهقة ولعل صاحب العيلة اذا استاجر دارا من بابها يهنئه العيش هنا اكثر مما يهنئه في باريس على كثرة ما يوجد في هذه من البدائع فان الغيور على عرضه لا يهون عليه اذا كان نازلا في الدرج ليخرج الى حرفته ان يرى آخر صاعدا مجاورا له . ولهذا تقول الانكليز ان هنآءهم جوي وان ديارهم ادعى الى السكون والهنآء من ديار غيرهم واذا سكن هنا في الدار اثنان او ثلثة واتفق تلاقيهما في الدرج فما احد يكلم صاحبه واذا زاره

اخوه او اخته واطالا المكث عنده الى نصف الليل فما يدعوهما الى المبيت عنده . فاما قوله باحتشان حالاتها و بكثرة دكاكينها و بترفه الاشراف والعظمآء فيها فاحتشان حالاتها هو كون جميع الازمنة والامكنة فيها متساوية اما في الازمنة فليس عند الانكليز في ايام السنة كلها يوم للحظ واللهو فلا تعرف فيها راس السنة من ذنبها وليس عندهم ايام للبطالة ما عدا ايام الاحاد سوى عيد ايام الميلاد و يوم الجمعة الكبيرة ولكن يوم البطالة هنا هو يوم الانقباض والاكتئاب اذ لا ترى شيئا يقر العين فقد اسلفنا ان جميع الحوانيت تكون يومئذ مغلقة . ومن العجب هنا انه يوذن لباعة التبغ في فتح دكاكينهم يوم الاحد ولا يوذن لباعة الخبز واللحم فكان التبغ الزم للمعيشة من غيره . ثم لا مثابة للناس ينبسطون بها سوى التردد على تلك الغياض وهي خالية من المطاعم والمشارب وآلات الطرب على قلة ما فيها من المقاعد وهي في الغالب بعيدة عن سكنى العامة والوسط وانما هي مجعولة لحظ الكبراء القاطنين في الديار المجاورة لها فان كل شيء هنا معني به اسم العلية والسادة وقد مرت الاشارة الى هذا . نعم ان في صباح الاحد في لندرة لذة لا تقدر ولا تنظر بالنسبة الى نحس الايام الاخر وهي قلة قرقعة العجلات وسائر المراكب فقد كنت احسب نفسي في صباح كل احد انني ساكن في الريف فاما في سائر الايام فان توالي هذه القرقعة داهية من اعظم الدواهي فمن لم يتعود عليها لن يهنئه نوم ولا قعود ولن يمكنه ان يجمع افكاره في راسه فاذا مشى اثنان في الطريق لزم المتكلم ان يصرخ باعلى صوته ليسمعه الاخر فاعوذ بالله من ذلك . فاما كثرة الحوانيت فقد تقدم ذكرها في اول الكلام على لندرة وبقي هنا ان اقول ان في جميع حوانيت لندرة تجد ما يلزم للملبوس والمفروش ناجزا عتيدا فاذا دخلت مثلا حانوت اسكاف وجدت عنده عشرة آلاف زوج نعال معرضة للمبيع فاخترت منها ما شئت وقس على ذلك سائر اصناف الملبوس . ومن شآء ان يفرش صرحا في ثلث ساعات وجد كل ما يخطر بباله من الادوات والاواني ونحو ذلك حوانيت باريس فاين هذا من البلاد التي لا تجد فيها حاجتك الّا بعد ان توصي عليها فاذا حضرت وجدتها على غير المراد فتغصك

ذلك وافضى بك الى القيل والقال . واعظم طريق في هذه المدينة هو ريجنت سركوس ويذكر غالبا باسم ريجنت ستريت وهو على خط منحن نحو نصف دائرة طوله ١٧٣٠ ذراعا وهو يشتمل على دكاكين فاخرة بهية اكثرها مشرف بشعار الملك وذلك ان الملكة او احد اولادها اذا اشترت شيئا من صاحب الدكان ساغ له ان يضع عليه صورة الاسد ووحيد القرن وادى الى الميري شيئا عليه في كل سنة وثم ترى الثياب الفاخرة من كل صنف ولون وصقع ومكان . وقد يكون طول لوح الزجاج في عرض الحانوت نحو ست اذرع فاكثر وعرضه نحو ذراعين فيكون العرض كله من اعلاه الى اسفله لوحين او ثلثة وثمن اللوح نحو عشر ليرات . وديار هذا الطريق مبيضة الخارج او يقال نصفها ابيض ونصفها اسود وثم ايضا ترى نسآء لندرة يتخطرن بالديباج والثياب الفاخرة ويجررن اذيالهن على الارض جرا ولاسيما ليلة الاحد وهي ليلة السبت عندهم فاذا رايت واحدة منهن جزمت بانها اجمل من رايت ثم ترى اخرى فتجزم بانها اجمل من تلك وهلم جرا وكذلك هن في كافنت ستريت وفي هاي ماركت . والواقع ان هذه الليلة في جميع اسواق لندرة هي ليلة البهجة والقصوف والفرح وهي ابهج الليالي اما عند العلية فلعلهم ان اليوم القابل هو يوم الانقباض فينصبون فيها الى اللهو والخلاعة في جميع الاماكن المقصودة واما عند السفلة والفعلة فلكونهم ياخذون اجرتهم في مساء كل سبت فمتى انصرفوا من المشاغل اقبلوا على الحانات والاسواق لشراء مونة يوم الاحد فترى جميع الدكاكين غاصة بالرجال والنسآء . وكثيرا ما تفق ان الرجل حين يقبض اجرته يذهب الى الحانات وينفقها فيها فيرجع الى اهله صفر اليدين فيقوم النقار بينه وبين زوجته او ان يعطيها لزوجته فتذهب هي وتنفقها في المسكرات ففي هذه الليلة ترى النسآء يتضاربن بعضهن مع بعض او مع بعولتهن او مع غيرهم وكذا شان الرجال . وكثيرا ما رايت النسآء يغلبن الرجال ويجررنهم بنواصيهم وكثيرا ما ترى امراة مشرومة الانف او ملقوفة العين او مخلوعة اليد او صرعى في الطريق من الخمر او الضرب كل ذلك من بركات هذه الليلة . ولولا ان اصحاب الحانات مشروع

عليهم ان يقفلوا حوانيتهم في نصف الليل ومن خالف ذلك يغرم خمس ليرات لبقوا و بقين على الجن والروم والجمعة الى الصباح . والواقع ان العملة من الانكليز وذوي الحرف اقرب الى مزية الكرم منهم الى البخل فانهم في تلك الليلة ينفقون انفاق من لا يخاف الفقر ويشترون قطع لحم كبيرة و يتخذون حلواء من الفاكهة وغيرها . وفي يوم الاحد يشربون القهوة بفناجين مخصوصة وبالسكر الابيض المكرر وهلم جرا . واما عند اصحاب الدكاكين فلعلمهم ان يوم الاحد ليس فيه بيع ولا شراء فيطيلون المكث في دكاكينهم رجاء ان يكسبوا شيئا زائدا يكون عوضا من بطالة الاحد فلهذا ترى للطرق والاسواق في تلك الليلة بهجة لا تراها في سائر الليالي وكذلك ليلة عيد الميلاد و بعض ليال قبلها فان الدكاكين تبقى فيها مفتوحة و بعضها يكون مزينا وفيها تسمع آلات الطرب من جهات شتى وترى الناس في اقبال وادبار ومرح وارتياح .
ودون الطريق الذي مر ذكره في الغنى والرونق طريق اكسفورد إلّا انه اطول واقوم وهو يفضي الى هيدبارك طوله ٢٣٠٤ اذرع وقد ترى في هذا الطريق وفي غيره عشرين دكانا للبرانيط ومثلها للنعال ومثلها للكتب ونحوها للخز ولا ترى من مطعم واحد او نصف محل للقهوة . ثم الطريق الذي يقال له استراند طوله ١٣٦٩ وهو اكثر الطرق ملاهي وفيه فرع من المولك الكبير عنك جرس ذي مادة كهربائية يدل على اوقات البلدة المعروفة بكرينتش وعليه تضبط مواقف سكك الحديد الساعات والاوقات وفي الساعة الحادية بعد الظهر يهبط عن مركزه بنفسه . ثم بيكاديلي طوله ١٦٩٤ ذراعا ثم نيوروود اي الطريق الجديد طوله ٥١١٥ ولكنه ليس من الطرق المنتابة ونحوه ستي رود وطوله ١٦٩٠ . ثم نيوبوند ستريت فيه دكان جوهري راس ماله خمسمائة الف ليرة وتحت يده من الصاغة والصائغيين ما يزيد على خمسمائة رجل وهو اغنى جميع صاغة المملكة وكثيرا ما تستخدمه ملوك الافرنج من جميع الاقطار في صوغ آنية لقصورهم . ثم هوبرن وهو اوسع الطرق لكنه غير طويل فيه دكانان للبز والحرير لا ينقص عدد المستخدمين في احدهما عن مائة نفس . وهلوي ول ستريت وهو مشهور بالدكاكين التي يباع فيها كتب

الفسق وصور النسآء وما اشبه هذا . وثم طرق اخرى حسنة ايضا ولكنها ليست نظير هذه . وعدد الطرق المبلطة في لندرة يبلغ ٥٠٠٠ وتمتد اكثر من الفي ميل ويوجد فيها نحو خمسين طريقا باسم كين ستريت اي طريق الملك ومثلها كوين ستريت اي طريق الملكة ونحو ستين طريقا باسم وليام ستريت ومثلها جون ستريت واكثر من اربعين طريقا باسم نيوستريت . وجميع اسواق لندرة وشوارعها وازقتها تنور بجمال النسآء عامة الليل . وناهيك انه في ابرشية واحدة وهي ابرشية ماري لابن من جملة نحو ستين ابرشية يوجد عشرون الف مومسة منهن الفان ومائتان لهن بيوت خاصة بهن وحيثما تكثر انوار الغاز يكثر ترددهن . ولكثرة الانوار في الدكاكين والطرق تكون المدينة في الليل ادفا منها في النهار وكذلك مدينة باريس . والغاز في طرق لندرة يوضع في فوانيس على عمد قائمة من حديد فهي من هذا القبيل احسن من باريس لان كثيرا من فوانيس هذه تجعل في الحائط الا انه ليس في طرق لندرة شجر ولا محال للقهوة على نسق ما في باريس لان الشرطة هنا لا ياذنون لاحد في ان يضع كرسيا في الطريق ويقعد عليه . واعلم ان اختراع الغاز هو من اعظم البركات التي يتنعم بها الانسان في الليل ومن اقوى الوسائل المعينة على الامن والسلامة ولاسيما في المدن الكبار فان لندرة منذ مائة سنة كانت ممنية باللصوص والنهاب في مسالكها بعد العتمة حتى ان السالك فيها كان يعرض نفسه اما للقتل واما للسلب وكانت الاولاد تحمل بايديهم مشاعل ويجرون بها بين يدي المارين وياخذون منهم شيئا في نظير ذلك كما تاخذ الان الاولاد الذين ينظفون السكك . وفي ايام الملكة ماري كان العسس يتخذون اجراسا يضربون بها للتنبيه والتحذير وذلك لقلة الانوار وفي سنة ١٧٦٢ وضعت الفوانيس واوقدت بالزيت فقلت اللصوص . واول من جرب استخراج الغاز قسيس اسمه كلاطون وذلك في سنة ١٧٣٩ الا ان تجربته هذه لم يعمل بها . وفي سنة ١٧٩٢ تصدى الى هذه العملية رجل من كرنوال اسمه مردوك وفكر في انه اذا صان الغاز المستخرج من الفحم او الحطب في وعآء ثم اجراه في قصب من الحديد يكون مغنيا

من المصباح والشمع . وفي سنة ١٧٩٨ أتم تجربته هذه واجراها في بعض المعامل في برمنغهام إلّا انه كان يعرض لها بعض الخلل احيانا . وفي سنة ١٨٠٢ انتبه الناس الى احكام ذلك وتعميم منفعته وبعد هذا التاريخ بسنة واحدة نـــور ملهى ليسيوم في لندرة بنور الغاز وفي ســـنة ١٨٠٤ وما بعدها وسع مردوك دائرة مشروعه هذا في منشتر . وزعم الفرنسيس انهم هم مخترعوه إلّا ان هذا النور لم يعرف عندهم إلّا في ســنة ١٨٠٢ وكان ذلك في باريس وقد عرفت ان مردوك صنعه قبل هذا الوقت بعدة سنين ومن سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٢٢ اشتهر استعمال الغاز واعجب جميع الناس حتى ان راس المال الذي جمع لتنوير لندرة فقط بلغ مئة مليون ليرة وشغلت قصبات الغاز في ايصال النور الى محال مختلفة مسافة مئة وخمسين ميلا ثم اشتهر بعد ذلك بسنين قليلة في سائر مدن المملكة لتنوير الطرق والحوانيت والديار وهو على بقائه وعدم نقصه خلافا لنور الشمع والزيت ارخص سعرا واخف كلفة فان رطل الشمع الدون مثلا يساوي ثلثة ارباع الشلين ومدة اتقاده لا تزيد على اربعين ساعة وان غالونا من الزيت يساوي شلينين وينير في ساعة واحدة ما تنير ستمائة شمعة والشمع العسلي اغلى من الشحم بثلثة اضعاف والف مكعب من الغاز يساوي تسعة شلينات فيتحصل من ذلك ان ما قيمته مائة من الشحم العسلي يكون خمسة وعشرين من الشحم وما قيمته خمسة من الزيت يكون من الغاز ثلثة . وبالجملة فانه من الزم الاشياء ولا يعلو عليه نور إلّا نور الشمس واذا اوقدت نورا منه فلا ينطفيء الا اذا اطفاته وذلك بان تدير لولبه الى جهة الشمال فاذا اردت ايقاده ادرته الى اليمين وادنيت النار من فوهته فيبقى كذلك الى ما شآء الله . وكيفية تنوير الطرق في لندرة هو ان يرتقي الرجل في سلم الى الفانوس وفي باريس يجعل الرجل النور في عود طويل ثم يدنيه من فوهة الفانوس من دون ان يرتقي اليه ولا يخفى ان ذلك اسهل واسرع . فاما قوله بترفه الاشراف والعظمآء واسرافهم فقد سبقت الاشارة الى ذلك عند الكلام على اخلاقهم واحوالهم . وانما نقول هنا ان هولاء الاماجد يسكنون في حارات معلومة من المدينة فرارا من الزحام

ومن اختلاطهم بالاوباش فترى بقعة فسيحة عظيمة في لندرة ليس فيها سوى ديار متصافة متصاقبة وهي بالنظر الى وسط المدينة مظلمة موحشة اذ ليس فيها حوانيت ولا مطاعم ولا ملاهي ولكنها نظيفة سالمة تكاثف الاحوال وضغط السائرين وقرقعة العجلات . ومع ما هم فيه من البهجة والنعيم فيها وللانفراد فلابد وان يكون لكل منهم دار في الخلاء يسكنها في الصيف ففي هذا الصقع الجليل تسطع انوار السيادة والسعادة من ابراجهم العلوية وهناك ترى الخدم والحشم والخيل المطهمة والعواجل النفيسة وهناك تميد الموائد بما عليها من الاطعمة الفاخرة المجلوبة من جميع البلدان وهناك تتيه الكلاب على كثير من بني آدم ممن يتضورون جوعا ويهلكون من الوسخ والبرد والعرى ومن اكل اللحوم المنتنة في ازقة لندرة القذرة فليس بين الجنة والجحيم في هذه المدينة بعد ما بين الجنة والجحيم في الاخرة . وهاك مثالا على سقر لندرة . قال في بعض الصحف ان مائة وثمانين نفسا ما بين رجل وامراة وولد يسكنون في اربع وثلثين حجرة . وفي اخبار الكون كان يمكث في حجرة واحدة من اربعة عشر نفسا الى عشرين ليلا ونهارا وفي حجرة اخرى رجلان مع امرائيهما وارملتان وثلث بنات ورجل عزب وثلثة اولاد فجملتهم اربعة عشر نفسا قد جعلوا انفسهم عيلة عيلة كل عيلة تبوات زاوية من الحجرة . وفي موضع آخر يسمى ساحة فلنشر حجرتان لا تزيدان على سبع اقدام عرضا في عشر طولا وقد اشتملت على ثمانية وعشرين نفسا ما احد منهم يعرف القراءة وليس تحتهم وطآء سوى التبن الّا واحدا منهم ولا غطآء لهم في الليل سوى ثيابهم التي يلبسونها في النهار ومع ذلك فان هذين المحلين اذا قيسا بغيرهما من البيوت المجاورة لهما كان لهما حرمة واعتبار فانه وجد فيها مائتان وثمانية انفس من الاولاد المراهقين ولم يدخل منهم المكتب سوى ثمانية وثلثين فقط وهم غارقون في الفساد والخساسة والقذر والوبآء وفي هي هوبرن ثلثون بيتا يسكن فيها مائة وثلث وثلثون عيلة كل ثلث عيال او اربع في حجرة واحدة وقد تناهوا في السكر والسفاهة وفي كل نوع من الرذائل . اه . وكثيرا ما ترى النسآء يمشين في الشتآء حافيات ويلتقطن الجذور وفتات الخبز وغير مرة

وايت رجلا على ذراعه طفل وامرانه بجانبه صفراء متجردة على عتبة احدى الديار في اشد ليالي الشتآء بردا . وقد سمعت ان كثيرا من النسآء يلدن في الطرق لعدم ماوى لهن وفي كل سنة يبقى الوف من ذوي الحرف معطلين ففي سنة ٤٩ كان الف واربعمائة خياط وتسعمائة اسكاف بلا عمل وكان الف وسبعمائة اسكاف يعملون بنصف الاجرة وكذا الصاغة وصناع الجلود وقس على ذلك . والحاصل انه لا فقير اشقى من فقير لندرة كما انه لا غني اترف من غنيها . هذا وكما ان طرف لندرة من جهة الشمال موسوم بحضرة الكبراء كذلك كان طرفها الجنوبي مختصا باهل الضعة والخمول فلا ترى هنالك شيئا يرنيك غير حسن النسآء فان الله تعالى جعل هذا النصيب عاما . واما قول الاخر انه ليس في لندرة مطاعم انيقة فهو في محله الّا انه لم يذكر سبب ذلك وهو جهل الانكليز بصنعة الطبخ كما تقدم اما في البيوت فيمكن للواحد ان يعتذر عنهم بقوله انهم لا يتانقون في الطبخ حرصا على الوقت ان يضيع في الحشو والتكبيب وما اشبه ذلك الّا انه لا يمكن الاعتذار عن اصحاب المطاعم العمومية الذين لا شغل لهم الّا اطعام الناس . وما عدا ذلك فان المنتقد لم يذكر انه لا شيء في لندرة مما يوكل او يشرب الّا وهو مغشوش مخلوط مشوب . اوليس من العار على اهل هذه المدينة مع كونهم اغنى الناس واقدرهم واتجرهم ان يرخصوا لواحد من الاجانب في ان يفتح دكانا في اعظم الطرق ويبيع فيه نحو الجبن ولحم الخنزير والخردل واللبن ولاخر في ان يبيع الثلوج والحلواء ولاخر في ان يبيع الخل والزيت ولاخر في ان يفتح محل قهوة تغني فيه نسآء بلده ونحو ذلك مما يمكن لكل احد ان يصنعه فهل لهذا من تاويل اخر سوى انكم يا اهل لندرة خرق حمق او غشاشون غبانون . وفي الواقع فان كل شيء يصنعه اهل فرنسا هو مفخرة للانكليز فان الحرير الفرنساوي للسيدات من الانكليز نصف جمالهن والنصف الاخر من الشريط والجوارب والكفوف والقيطان ونحوه ونصف ادبهن هو التكلم باللغة الفرنساوية والنصف الثاني العزف على البيانو . وطباخو امراء الانكليز انما هم فرنساوية وكذا شرابهم وجل تحفهم واهل الحوانيت يكتبون على كل شيء انه فرنساوي

كما مر ذكر ذلك فما معنى اتساع لندرة اذا وكثرة دكاكينها وسعة طرقاتها وتعدد مراكبها وزحامها وضجيجها وجلبتها وليس فيها من يحسن عمل الخردل وليس في مطاعمها مرقة في الشتآء ولا سلطة في الصيف ولا ارز ولا عدس ولا حمص ولا فول ولا مكرونة وانما هو الشواء والبطاطة والبطاطة والشواء او شيء من البقل مسلوق سلقا . ومن الغريب انهم اذا طبخوا البطاطة مع اللحم سموه اداما ارلانديا وملاوه من الفلفل والابازير حتى يحرق اللسان عن ان يذوق شيئا بعله واذا جلس احد فيها للغداء راى بينه وبين جيرانه حاجزا من الخشب حتى لا يقع التعارف بينهم وهو اشبه بحاجز الحيوانات التي يجمعونها في بستان النباتات وترى كلا منهم قد جلس للطعام وبيده صحيفة اخبار يطالعها واذا اراد اخذ شيء من بين يديك تلقفه من غير ان يستاذنك فيه كما تفعل الفرنساوية وغيرهم على ان كثيرا من هذا المطاعم قد ياكل الناس فيها وهم وقوف فكانما هم يهود ياكلون خروف الفصح فاما محال القهوة فمجتمع الارذال فترى فيها واحدا راقدا وآخر سكران وآخر وسخا واذا طلبت فنجان قهوة خلطوا القهوة بالحليب والسكر في محل لا تراه وقدموه لك هكذا فلا تدري ما وضع فيه فيا الفى الف ونصف الف الف من الناس متى تعيشون في هذه الدنيا الصغيرة عيشة مائتين ونصف مئة من سكان القرى في فرنسا وايطالية وبر الشام وبر مصر بان تاكلوا خبزكم غير مخلوط بالبطاطة والشب وجبس باريس ولحمكم طريئا سليما لا من حيوان اصابه داء فذبح ولا مما يرد اليكم من اميريكا موضوعا في الثلج ولا ما خم وانتن فتحشون به المصارين والحوايا . فلعمر الله ان كان هذا الغش نتيجة التمدن والترقي في العلوم فللجهل خير فان اهل بلادنا والحمد لله على جهلهم ما يعرفون شيئا من هذه الفنون الكيماوية والاخلاط الغير المتناهية التي توجب على الشاري ان يستصحب معه مرآة من المرايا المكبرة ليرى بها تلك الاجزاء والمركبات فيما يوكل ويشرب في وطنكم هذا السعيد اوما كفى ان هواءكم مخلوط بالدخان وشتاءكم يدوم ثمانية اشهر تقتضي بالاصطلاء على نار الفحم الحجري وما ادراك ما الفحم الحجري وبخوض الوحول واستنشاق الضباب

حتى زدتم على هذا البلاء الطبيعي بلاء صناعيا تعافه الحيوانات فان الكلاب والسنانير تابى اكل هذه الجباجب التي تحشونها باحوتمهن . ثم اقول اولم يكف ان نساجيكم وخياطيكم واساكفتكم وصباغيكم وسائر اهل الصنائع منكم يغشون ويموهون و يلبسون و يدلسون و يشبهون و يضلون و يغوون فما يدرى الحرير عندكم من القطن ولا الجديد من القديم المصبوغ ولا المخيط من الملصق وان الموسات يتطاولن على الرجال ويشممنهم المسبت ويسرقنهم — (المراد بالمسبت هنا الدواء الذي يقال له كلوروفورم او اثيرقيل ان خاصيته كانت معروفة عند الكيماويين الاقدمين وذلك من سنة ١٦٨١ واول من عثر عليه في التاريخ المذكور كنطل واول من عرف خاصيته في الاسعاط توماس مرطون من بصطن في اميريكا ثم استعمله دكطر سمصون في ايدنبرغ ومن بعده دكطر جامس روبنصون في انكلترة ثم شهر في سائر الممالك ونشا عنه الموت بعض الاحيان وفائدته تغييب الموجع عن الحس بما يولمه حتى انه يمكن للجزاح ان يقطع عضوا منه او يحرقه ولا يشعر به وقد استعملته الملكة عند ولادتها غير مرة) — وان منهن من حبست اكثر من مئة مرة ودامت في السجن اكثر من اثنتى عشرة سنة وان منكم نباشين للقبور يسرقون اكفان الموتى ويبيعونها وان الاولاد يختلسون في كل طريق مظلم وفي كل زحام وان سفلتكم عارون عن الادب والحياء ودابهم التعدي على الغريب والاساءة اليه وان كثيرا من بيوتكم القديمة وحيطانكم العهيدة تتهدم وتسقط على الناس فتهلكهم وانه قد يمكث الانسان عندكم شهرا ولا يرى الشمس الّا مرة او مرتين وان ربيعكم ابرد من شتائكم وصيفكم امطر من خريفكم وان لا فرجة عندكم ولا مشهد ولا موسم ولا ملهى الّا ويغص باللئام الطغام والاوباش والاوغاد والسفلة الارذال الم يكف هذا كله حتى عمدتم على افساد ما خلقه الله من الماكول والمشروب طيبا مريئا افليست لكم السنة تذوق هذا الرجس وتنطق بالحق وحلوق تستبشع ذلك الخبث من الطعام كما تستفظع حروف الحلق فان كان لفتكم وصدفكم عنها هو سبب استطيابكم لهذا الخبيث فمناها بضعفي ما في لغتنا منها اهكذا علمكم اهل الشرق ان تخبزوا الخبز مخلوطا

باصناف شتى اهكذا علمكم اهل فرنسا ان تطبخوا هذه اللحوم المنتنة في مطاعمكم وتخفوا فسادها بكثرة الفلفل والافحاء اهكذا علمكم باسكت الرومي في سنة ١٦٥٢ ان تصنعوا القهوة مخلوطة بجميع انواع الحبوب فما معنى كثرة دكاكين الكتب والمولفات التي لا عدد لها عندكم في كل فن وصنعة وانتم لا تحسنون ان تطبخوا بضيعة من اللحم ببويقة من البقل فكل لحم مشوي وكل بقل مسلوق ويا ليت كان ذلك اللحم لحما وذلك البقل بقلا . فاعجب ايها القاري من ان هولاء الناس الذين يملكون ما ينيف على الف ومائتي سفينة نار منها ما هو اكبر من فلك نوح وعندهم اكثر من مئة وستين صحيفة للاخبار منها ما يطبع في كل يوم ومنها في كل اسبوع لا يعرفون ان ياكلوا وليس لهم ذوق يعرفون به الطيب والخبيث من الطعام ويرضون بان ياتيهم رجل من فرنسا او ايطالية ليبيعهم الخردل والخل والجبن مما يجلبه من بلاده وليس منهم في تلك البلاد احد يعلم اهلها شيئا من صنعة الطبخ فكل شيء دخل في حلوقهم طاب استراطه وكل ما عرض للبيع في حوانيتهم حل بيعه وشراوه بحيث يودى عليه مكس للدولة . واني لاعجب كيف انهم لا يختبزون خبزا من البطاطة وحدها او من الشعير وحده او من الاسماك كما في ايسلاند وكيف لا يتجرون في طين الارض القريبة من المسكوب الذي يقال فيه انه يختمر مع الدقيق * وقد حان لي الان ايضا ان اختم الكلام على لندرة فيما يوول الى الماكول والمشروب واذكر ما فاقت به سائر مدن العالم فيما يطبع فيها من صحف الاخبار والكتب . فاقول ان اول جرنال في الدنيا باسرها هو الجرنال المسمى تيمس ومعنى هذه اللفظة الاوقات ومعنى الجرنال يومية وهي لفظة فرنساوية والمشهور ان هذه الصحيفة تحوي جميع اخبار المسكونة الا اني رايت فيها عيبا كبيرا وهو عدم اشتمالها على اخبار البلاد الشرقية وسائر الممالك الاسلامية فاذا كان فيها خبر عنها فانما هو مخصوص بالتجارة ولها عدة كتاب وكاتب مقدمتها يعد من اعظم ادباء الانكليز وظيفته في السنة اكثر من الف ليرة وهذا الجرنال هو لسان الامة والدولة ويليه الجرنال المسمى مورنن بوسط والهرالد والدالي نيوز والستار

والغلوب والجرنال المسمى مورنن ادفرتيزر ومعناه معلن الصباح وهو لسان العامة وكانه نقيض الاول . وفي لندرة اكثر من مائة وستين جرنالا للاخبار الطارئة والادبيات والعلوم ووزن ما يطبع منها في كل يوم وكل اسبوع يبلغ في الاسبوع من مئة وثلثين طنا الى مئة وخمسين . وفي باريس مائة وسبعون صحيفة للاخبار إلّا ان كتابها مقيدون عن الجري في مضمار الكلام فليس لهم حرية كما لكتاب الانكليز فان هولاء يشهرون في اخبارهم كل ما استحسنوه واستقبحوه وليست هذه الرخصة لاصحاب جرنالات فرنسا وكذلك يشهرون كل ما حدث في مجلس المشورة من المذاكرات والمفاوضات بان يبعث كل رئيس جرنال كاتبه الى المجلس ويكتب ما يقال فيه حرفا حرفا ولهم في ذلك طريقة غريبة يسمونها اليد القصيرة فان الكلام يكتب مختصرا بنوع من الاشارة ولولا ذلك لم يكن ممكنا للكاتب ان يستوعب جميع الاقوال . وكل ما حدث في قصر الملكة طبعوه حتى انهم لا يتحاشون من ان يكتبوا انها حبلى وانها تلد في الشهر الفلاني . وفي بعض هذه الصحف ان الملكة اهدت الى احد العسكر منديلا من حرير وفيه رقعة مضمونها انه مكفوف بيد ابنتها الكبيرة ولو كان مثل ذلك يشاع في بلادنا لا صبح مشغلة للالسن وقد سبقت الاشارة اليه . وافحش ما يكون من تلك الجرنالات الجرنال المسمى يول بري قرات فيه في نمرة ١٦ ما نصه ان كان الله قد قصد ان منحه في هذا الامر تكون غير مستعملة فلم منحنا اياها وان كان انما قصد ان تكون مستعملة من المتزوجين فقط فلم آتاها غير المتزوجين ايضا ام يقول قائل لا خشية له من الله انه انما اعطانا اياها ليبلونا بها افليس هذا يفضي الى ان نجعل الله ممتحنا إلّا اني لا ابرئ المتزوجين في استعمالهم هذه المنح في غير محلها اما الاقتران الطبيعي بين الرجل والمراة وهما غير متزوجين وليسا من عائلة واحدة فحلال وشرعي والحاصل ان شرائعنا الادبية حائدة عن الصواب وان الفضيلة على ما تفهمها العامة شين وتدليس - الى ان قال - فكل امراة غير متزوجة يحل لها على مذهبي ان تخالط ايا شاءت من الرجال من دون خوف من ان توسم بالعار والفضيحة او الخروج عن الادب ولو جرت

العادة بان تعيش الرجال مع النسآ من دون زواج لاغناها ذلك عن كثير
من الشرور التي تحدث بين المتزوجين كالسم والقتل ونحوه بل عن كثرة
المومسات وعما يقاسين من الموبقات والرذائل فاما حظر المراة عن التلذذ مع
الرجال وعند ذلك ادبا وفضيلة فتدليس وتدجيل . وكتب في بعض الجرنالات
من بعض العامة الى كاتب الجرنال ما نصه : اسمح لرجل مسكين ان يقول
كلاما وجيزا على امر موجب لشكوى الانكليز فاقول انا معاشر اهل انكلترة
ما برحنا معنيين بما لقينا من مصاريف الحرب الاخيرة ومن المكوس التي لا
تطاق ومع ذلك فقد خطر الان ببال بعض اهل الدولة طريقة اخرى لافقار
الرعية وهي امداد مملكة اجنبية بمال يسمى جهاز ابنت الملكة وناهيك
ان ملكتنا لما تزوجت احضرت الى رعيتها رجلا لا ثروة له وان ملك بلجيك
رتب له وظيفة تجري عليه من اهل هذه المملكة وما ذلك الّا لكونه تزوج
بنت الملك جورج فصارت بلادنا موردا لصيادي البخت والجدة وانها لتبقى
كذلك ما دام جلب المال هينا على طالبيه او ليس لملكتنا من الايراد الجزيل
ما يقدرها على ان تقوم بمونة ذريتها ولو انها قترت على نفسها قليلا لامكنها ان
تجهزهم ان لم يوجد من كرام الناس من يتزوجهم لمجرد المحبة وكيف كان فمن الظلم
الواضح ان يكلف اهل بلادنا اغنيآء بلاد اجنبية الا ترى ان لي زوجة وعشرة
اولاد وان ايرادي كله لا يزيد على مائة وعشر ليرات اودي منها لتنظيف
البلدة شيئا ولاجل الفقراء شيئا وللكنيسة شيئا ولغيرها شيئا فهل اذا اردت
ان ازوجهم يجهزهم اهل الشورى عني الخ ، اه . وثمن هذه الجرنالات كلها
مع ما فيها من الاخبار والفوائد ومع حسن طبعها وورقها لا يفي بثمن الورق
فقط لان اصحابها انما يكسبون من الاعلامات التي يطبعونها للتجار وغيرهم
فعلى كل سطرين او ثلثة من هذه الاعلامات خمسة شليتات ولا بد وان يكون
على الصحيفة طابع الميري وهو كناية عن الرخصة ويودي عليه بني واحد
وفي سنة ١٨٥٠ بلغ عدد هذه الطوابع في انكلترة ٦٥ ٧٤١ ٢٧١ وفي سنة ١٨٥١
بلغ عدد الجرنالات المطبوعة في لندرة مائة وتسعة وخمسين جرلانا اشتملت
على ٥٦٠ ٨٩١ اعلاما وبلغ عدد جرنالات انكلترة كلها مائتين واثنين وعشرين

اشتملت على ٨٧٥٦٣١ اعلاما وكان في سكوتلاند مائة وعشرة جرنالات اشتملت
على ١٤١ ٢٤٩ اعلاما وفي ارلندة جرنالان ومائة تضمنت ٢٣٦١٢٨ اعلاما والاداء
على كل اعلام في جرنالات انكلترة وسكوتلاند شلين ونصف يدفعها صاحب
الجرنال للميري وفي ارلندة شلين واحد . واول طبع بالبخار ظهر في مطبعة
جرنال التيمس وذلك سنة ١٨١٤ . واول جرنال طبع في بلاد الانكليز كان في
اكسفورد وذلك في سنة ١٦٦٥ وكان ديوان الملك يومئذ هناك لاجل الطاعون
الذي وقع في لندرة فلما رجع الى لندرة سمي ذلك الجرنال كازتة وذلك بعد
التاريخ المذكور بسنة واحدة وبقي هذا الاسم خاصا بالجرنال المشتمل على
اخبار الدولة والمصالح الملكية فلا معول فيها الا عليه فهو بمنزلة المونيتور في
باريس . واصل اسم الكازتة هو انه في سنة ١٦٢٠ طبع في صحيفة في ڤينيس
اخبار مختلفة وكانت تشرى بقطعة من الدراهم تسمى كازتة فلزمها هذا الاسم
وكان اشتهار الجرنال في فرنسا سنة ١٦٣١ وفي جرمانية سنة ١٧١٥ وفي دبلين
سنة ١٧٦٧ واول جرنال اشتهر في هولاندة كان في سنة ١٧٣٢ وفي اميريكا
سنة ١٧١٩ وعدد جرنالاتها ثمانمائة منها خمسون جرنالا تطبع في كل يوم
وجملة نسخها اربعة وستون مليونا واول ما يصح تسميته بجرنال في بلاد
الانكليز لاشتماله على اخبار عمومية هو ما طبع في سنة ١٦٦٣ وبقي كذلك
نحو ثلث سنين ثم خفي بظهور الكازتة وفي زمان الملكة اليصابت وذلك
سنة ١٥٨٨ شهر ايضا شيء مثله ولكنه لم يكن على هذا النسق . اه . ومن
اعجب العجب كثرة اوراق التعريف والاعلام في هذه المدينة في كل موضع
يباح فيه الصاقها وقد يستخدم بعض التجار خدمة مخصوصين ليطوفوا بها
ويوزعوها على المارين مجانا وما احد يريد ان ياخذها . ومنها ما يطبع بحروف
فاحشة الكبر حتى يمكن قراتها من مسافة بعيدة . اما صناعة الطبع فقد
اختلفت الاقوال في مخترعها فبعض المورخين نسبه الى منتز وبعضهم الى
استرازبورغ وهارلم وبعضهم الى ڤينيس ورومية وبعضهم الى فلورنسة وباسيل
وفي رواية ادريان جونيوس ان مخترع الطبع هو يوحنا كستر من هارلم طبع
على خشب كتابا فيه حروف وصور على وجه واحد وذلك في سنة ١٤٣٨

قال وفي سنة ١٤٤٢ انشا يوحنا فوست مطبعة في منتز وطبع فيها كتابا . وزعم بعض ان اول كتاب طبعه كان كتاب المزامير . وقال آخر لا شك ان الطبع على قطع الخشب كان معروفا عند اهل الصين وذلك قبل تاريخ النصارى باحقاب عديدة وكذلك كان معلوما عند الرهبان في بلاد الانكليز وفي غيرها من بلاد اوربا فانهم كانوا ينقلون الكلام من ورقة الى اخرى على الخشب ولكن كان ذلك قليلا فاما استعمال هذه الحروف مصفوفة واحدا بعد واحد فلم يعرف الّا في متاخر الزمن . قال ولم يكن احد في الزمن القديم يشتغل بالعلم وبترجمة الكتب والنسخ الّا الرهبان فهم الذين ادخلوا التمدن والمعارف في بلاد الافرنج وكانت رومية وبلاد اليونان معدن الكتب والعلوم وكان الصكصونيون آبآء الانكليز يسافرون مسافات بعيدة في طلب العلم وتحصيل بعض تلك الكتب النادرة ويشترونها بثمن غال وعند رجوعهم يترجمونها الى اللغة الصكصونية وكانت الناس تتنافس فيها لندرتها غاية المنافسة وكان للاشقف ولفريد نسخة من كتاب الانجيل مكتوبة بحروف من ذهب على ورق ارجواني فكان يضعها في صوان من ذهب مرصع بالجواهر النفيسة وما عدا هولاء الرهبان فلم يكن احد من العامة من يحسن الكتابة غير افراد قليلين وناهيك ان توقيع ويليترد ملك كنت على مجلة كان علامة الصليب وامر كاتبه بان يكتب تحتها ان الملك انما رسم تلك العلامة بدلا من اسمه لجهله الكتابة قال ولولا تخريب الدانيزيين وتدميرهم لكان العلم بين الصكصونيين قد تقدم كثيرا الّا ان ملوك البحر اولئك كانوا على جانب عظيم من الجهل والجفاء وكانوا وهم على اصناميانهم ينظرون الى الصكصونيين المسيحيين كانهم مرتدة لانهم كانوا اولا مثلهم عبدة اوثان ولهذا كانوا يرون ان فروض دينهم توجب عليهم ابادة اديار الرهبان وكتبهم وما كانوا يعرفون شيئا من جهة السماء سوى انهم يشربون فيها المزر في جماجم اعدائهم وياكلون من عراق جزيل لا ينقص للاكل منه شيئا مهما اكل فمن ثم اتلفوا كتبا كثيرة كانت كلفت الصكصونيين اتعابا عظيمة في تحصيلها ولو انها بقيت لنا لكنا ندري منها امورا كثيرة نجهلها في تاريخ جميع البلاد . قال

واتفق في القرن الخامس عشر ان شابا اسمه جهون غانسفليش ويعرف بغاتنبرغ من صقع سلفيلوش سافر الى استراز بورغ وكانت مشهورة حينئذ بانها سوق الكتب فاخذ يفكر في احداث طريقة لتكثيرها فخطر بباله انه اذا صنع حروفا تتركب وتنحل يبلغ بها اربه ثم رجع الى ماينس واجتمع برجل اسمه فوست فتواطا على ابطال نسخ الكتب لما فيه من المشقة بطريقة الطبع بتلك الحروف فسبكاها كما خطر لهما وكان ذلك في سنة ١٤٤٠ الّا ان عملهما هذا لم ينتج فائدة الّا بعد عشر سنين ويظن ان تلك الحروف كانت من رصاص قد اضيف اليه بعض اجزاء كيماوية لجعلها صلدة قابلة للعمل المراد ثم دخل في شركتهما بطرس شوفر ثم طبع غاتنبرغ عدة كتب من جملتها التوراة المعروفة الان بتوراة مازرين وقد راج بيعها واشتهارها كثيرا حتى انه كان يقال ان طبعها من عمل الشيطان وفي سنة ١٨٣٧ نصب له مثال على قبره اكراما له وارسلت نواب من جميع دول الافرنج لتحضر مشهده ولما تفرق الذين كانوا مستخدمين في مطبعته ذهب بعضهم الى سوبياكو في ايطالية فاشتهرت هذه الصناعة فيها في سنة ١٤٦٥ ثم سرت الى باريس وذلك في سنة ١٤٦٩ وبعد سنة اشتهرت في اسبانية وبعد نحو خمسين سنة عمت جميع اوربا . ويظهر مما قاله باداي احد مشاهير الطباعين في باريس في اوائل القرن الخامس عشر وكذا مما قاله شيكولوكر الانكليزي ان الامهات والابهات في تلك الحروف لم تختلف كثيرا عن المستعمل منها الان وكانت العادة اذ ذاك ان سبك الحروف مختص بالطباعين فقط وفي سنة ١٦٣٧ صدر حكم من ديوان الانكليز بان لا يزيد عدد الطباعين على اربعة نفر وانه اذا مات منهم احد لا يقوم آخر في محله الّا باذن رئيس اساقفة كنتربوري وفي سنة ١٦٩٣ حين صدرت المجلة باقرار حقوق الاهلين بطل هذا الحكم . وكانت الكتب سابقا تفحص وتمتحن قبل ان تطبع ثم يكتب على صفحة عنوانها تطبع . وفي سنة ١٧٩٥ اطلقت الحرية في الطبع من دون فحص وامر بان تطبع اسماء الطباعين في اوائل الكتب واواخرها . واول من شهر الطبع في بلاد الانكليز كاكسطون وذلك نحو سنة ١٤٧٤ وكان قد سافر الى البلاد الواطئة

وحصل معارف كثيرة . واول كتاب طبعه كان تاريخ طروة ترجمه من اللغة الفرنسوية وكان جامعا لثلاث خصال جليلة وهي كونه مولفا وطباعا وناشرا وبسعيه ومعارفه حصل له في ادب لغة الانكليز تقدم عظيم . الا ان هذه الصناعة الجليلة كانت غير عامة المنفعة عندهم وخصوصا انهم كانوا يشترون الحروف من بلاد اوربا القارة ولاسيما من هولاندة الى ان قام كسلون في اوائل القرن الماضي وسبك حروفا حسنة وكثر الادوات . وفي سنة ١٧٢٠ استخدمته الجمعية المعروفة بجمعية انتشار المعارف المسيحية في سبك حروف عربية ثم اشتهر صيته في الافاق حتى صار اهل البلاد القارة يستمدون منه فلما مات باعت زوجته ما كان عنده من الحروف لجمعية العلوم في باريس فكانوا يطبعون بها اجل المولفات في الادب والعلم . ثم قام دكظر فري وسبك حروفا في جميع اللغات المشرقية ويقال انه سبك في مسبك برسكيف اربعمائة شكل من الحروف الابجدية وان برونبكائدة رومية مع شهرتها ليس فيها اكثر من ذلك وسبك ايضا في معمل ريد وفي باريس ابدع ما يمكن صوغه من الحروف في العالم باسره حتى ان بعضها لا يمكن قراءته الا بالزجاجة المكبرة وكيفما كان فان طباعي الانكليز في عصرنا هذا لا يعلو عليهم احد ثم ان احد النمساويين واسمه هوكونك راى ان الطبع بالبخار غير مستبعد فعرض رايه على اهل بلاده فاعرضوا عنه فتقدم الى بلاد الانكليز واسعفته جماعة منهم باجراء ما قصده فصنع آلة صغيرة طبع بها الف صحيفة في ساعة واحدة بمساعدة ولدين فقط فلما تحقق صحة استعمالها عزم على اتخاذ آلة كبيرة لطبع الاخبار فرآها صاحب جرنال التيمس فواطاه على ان يصنع له آلتين مثل تلك ولكن اكبر منها . وفي سنة ١٨١٤ طبع في ذلك الجرنال اعلام بانه مطبوع بقوة البخار . ثم قام جماعة وحسنوا هذه الالة فكان يطبع بها على الوجهين في كل ساعة من ثمانمائة صحيفة الى تسعمائة وكانت الالة المفردة تطبع على وجه واحد في كل ساعة الفا واربعمائة صحيفة ثم قام مسترلتل واخترع آلة مزوجة يطبع بها في الساعة تطبع من عشرة الاف صحيفة الى اثني عشرة الفا . وفي بلاد اميريكا مطبعة

في الساعة عشرين الف صحيفة ما بين جرنال وغيره . وفي الحقيقة فان جميع ما اخترع من الصنائع في هذا العام هو دون صناعة الطبع . نعم ان الاقدمين بنوا اهراما ونصبوا اعلاما وشادوا هياكل وحصنوا معاقل وحفروا خلجانا واقنية للماء ومهدوا مسالك للعساكر إلّا ان صنائعهم تلك بالنسبة الى صنعة الطبع ان هي الادرجة ترق فوق درجات الهمجة فانه بعد اشتهار الطبع لم يبق احتمال لاضاعة المعارف التي ذاعت وشاعت او لفقد الكتب كما كانت الحال حين كانت تكتب بالقلم وقد قيل ان المعرفة مقدرة فان المتصفين بالمعارف وهم الاقل هم الذين يتولون الامور ويوسسون الجمهور وهم الاكثر . اه . اما احداث الورق فقال فلتير انه كان في القرن الحادي عشر إلّا انه كان مشهورا في الصين من عهد لا يعلمه إلّا الله وهو ابيض رقيق يتخذونه من البمبو المغلى او من قصب السكر قال وقد عرف استعمال الزجاج عندهم من الفي سنة . وقال آخر ان احداث الورق في الصين عرف في سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد وفي سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد كان يصنع من القطن وفي سنة ١٤١٩ صار يصنع من الخرق . واول من صنع الورق الابيض الخشن في بلاد الانكليز رجل نمساوي وذلك في سنة ١٥٩٠ وقبل وليم الغالت كان الانكليز يشترونه من فرنسا وهولاندة فكانوا يصرفون كل سنة في ثمنه مائة الف ليرة فلما تقدم بعض الفرنساوية الى هذا البلاد للاستئمان علموا الانكليز صنعة الورق وكانوا من قبل ذلك يصنعون ورقا خشنا اسمر . وفي سنة ١٦٩٠ صنعوا الورق الابيض باليد واتخاذه بالالة كان من مخترعات لويس روبرت ثم باعها لطباع اسمه ريدو فجاء بها هذا الى بلاد الانكليز ومن ثم شهر استعمالها وفي سنة ١٨٤٠ صنع بها طاحية بلغ طولها ١٣٨٠٠ قدما وعرضها اربع اقدام . اما الورق المنقوش الذي يلصق على الحيطان فكان احداثه في اسبانية وهولندة في سنة ١٥٥٥ فاما اليابيروس وهو الورق المتخذ من القصب فكان يصنع في مصر والهند الى ان عمل الرق وذلك في سنة ١٩٠ قبل الميلاد وكان بتولومي قد منع اخراجه من مصر وعليه كتب تاريخ يوسيفوس وهي نسخة جليلة ثمينة اخذها

ونابوليون من جملة ما اخذ وبعث بها الى باريس وفي سنة ١٨١٥ ردت الى موضعها . والذي صرف على الطبع والورق لاستعمال اهل انكلترة بلغ في سنة واحدة ٤٥٠٨٧٥ ليرة *

فصل في الستي

قد تقدم الكلام على هذا الخط من حيث اشتماله على اعظم المباني الكائنة في لندرة فان المصرف والمولك والمصر وديوان الضابط ودارة ودار الصياغة وكنيسة ماربولص جميعها فيه وهو في الواقع لندرة القديمة وما بني من بعده فهو حادث وبقي الآن هنا ان اقول ان هذا الخط الفريد هو مركز الاشغال العظيمة والمبايعات الجسيمة لاغنياء تجار الانكليز فما من بناء فيه الّا وهو مصدر للحركة والعمل وما احد يخطو فيه الا للكسب والشغل ولا يتحرك به لسان الا للنفع والفائدة ولا تطلع عليه شمس ولا يوقد فيه نور الا للسعي ولا يخلج صدر مخلوق خاطر الا للتحصيل والاقتناء فترى كل واحد من اهله فاتحا عينيه وفمه لاكل الدنيا وما فيها وكثيرا ما ترى في مسالكه محدثين يحدثون انفسهم فيما هم فيه من المباشرة للاعمال فهنا تجد الغلام شيخا في معرفة الادارة والشيخ غلاما في النشاط والاستعداد والشاب قبيلا وجمهورا وكيفما توجهت واينما سلكت رايت نهم الخلق وحرصهم شاغلا لحواسهم الباطنة والظاهرة بالحرث والادخار وليس من قطر في الدنيا الّا ويمده اهل هذا الخط بالبضائع والمهمات وهو وان خلا عن الحوانيت الرحيبة البهيجة مما يرى في سائر شوارع لندرة الا ان الارباح التي تجنى هنا في يوم واحد لا تجنى في غيره في شهر لان العقود الخطيرة والمراسلات الجزيلة انما تصدر عن هذا المشغل الحافل ولا يخفى ان التاجر الذي يراسل تجار البلاد الاجنبية ويبعث لهم ويجلب من عندهم يربح اكثر من التاجر الذي يعقد في حانوته وينتظر شاري شقة من الحرير او ثوب من الخز . ومن هولاء التجار من يكسب في السنة نحو مليون ليرة كذا قيل . ومنهم من له عدة سفن تجري في البحر من بلد الى بلد ومنهم من يستخدم في ادارة

مصالحه مائة شخص وقد ذكرنا سابقا ان واحدا من هولاء له معمل في ارلندة به اربعة آلاف من الرجال والنساء لعمل القمصان وان تاجرا مات عن سبعة ملايين ليرة ولابد لكل منهم من ان يكون له كتاب وحساب وصيرفي وما اشبه ذلك والغالب ان يكون له محترف يشتمل على ثلث حجرات احداها للاشغال الخاصة به والثانية للكتاب والثالثة مشتركة لهم ولوضع الرواميز والمتاع ونحوه ولا شك ان تجار لندرة عموما وتجار هذا الصقع خصوصا اغنى من جميع تجار اوربا الا انهم دونهم في الظرف والكياسة وعبارتهم ركيكة بخلاف تجار فرنسا فانهم مشاركون لذوي العلم والدراية وعبارتهم وان تكن دون عبارة علمائهم الا انها بالنسبة الى كلام تجار الانكليز عالية كما ان عبارة هولاء بالنسبة الى عبارة تجار بلادنا في غاية الفصاحة ولعمري ان تاجرا يكتب لق لي لا وقمضه اي الامضاء والسالسي اي الثالثة ومنقول اي مقول واعرض عن هذا الشيء اي عوض هذا الشي والخصارة نبتدي بحسابا جديدا و بخيرا وعافية والسارة وغت علينا وخطوفا على وفولابث ونحو ذلك لجدير بان يستحي من حرفته . ومن العجب هنا ان العالم قد يسهو احيانا ويغلط ومثل هولاء التجار لا يغلطون ابدا في تادية عبارة واحدة على حقها فقد قرات اكثر من الفي رسالة وردت منهم فلم ار فيها ولا جملة واحدة تدل على فكر لهم وروية فلمثل هذه الحال يدخر قول الانكليز في التوبيخ الا تستحي من نفسك . نعم ان التاجر لا يطلب منه ان يكون شاعرا او رئيس ديوان الانشاء ولكن عاد عليه ان يصرف ادراكه كله في معرفة الثوب الخشن من الرفيع وان يرتدي بلباس الغفول عن اشرف ما ميز الله به الانسان عن البهيمة وهو النطق بل ليت هولاء يكتبون كما ينطقون فاني لا احسب عجزهم في الكلام بالغا الى هذا الحد ولعمري ان صاحب الذوق السليم يمكنه ان يكتب عبارة رائقة من دون ان يدرس كتاب سيبويه او فقه اللغة للثعالبي والمتفصح من هولاء من يخلط العربية بالتركية او الطليانية فيكتبون مركب يالكان وعلام مورد و برمق وجنابير وماكنة وبريمو ويالبتهم يكتبونها على حقها فياليت شعري ما سبب هذا العدول عن

لغتهم الى لغة العجم وما سبب هذا القصور عن تادية عبارتهم بالفاظ متعارفة او عن سبك معانيهم في كلام معجب مفصح وما عسى ان يقال في تاجر فرنساوي يكتب رسالة ويحشوها بالالفاظ القبيحة والاغلاط الفاحشة في التركيب ورسم الخط وما يكون قدره عند اقرانه ومعارفه وعند اصحاب الجرنالات وخصوصا ما يطبع منها للضحك والتهكم الا فليحمدوا البلاد التي خلت عن هذه الصحف وعن رعاية حرمة العلم . ثم ان تنافس الانكليز في حصولهم في خط السيتي سواء كانوا تجارا فيه او كتابا او غير ذلك هو كتنافس القبط في استخدامهم في القلعة وقد ذكرت سابقا ان جميع الحوافل مكتوب عليها اسم البنك لانها جميعها ترد اليه الا ما ندر وبهذا تعلم ما يكون ثم من الزحام والتوارد وفي الحقيقة فان دوي المراكب في مسالك هذه البقعة لما يذهب بالصبر وما اظن احدا من سكانها ان يمكنه ان يعمل فكره في شيء الا فيما هو بين يديه من الشغل . وفي هذا المورد الوخيم قدر الله علي ان اولف هـذا الكتاب لا في مروج ايطالية النضيرة ولا في رياض الشام الانيقة فاخال ان بين كل كلمتين منه دخانا متصاعدا وظلاما متكاثفا وكنت كلما خرجت من حجرتي الى هذا الموضع اوجس ان يصيبني سوء اما من تزاحم الناس او البهائم او من رداءة الطعام الذي يوكل في مطاعمها فاذا عدت الى منزلي اجد نفسي كاني نجوت من خطر غرق او نار ومن يخرج من هذا الحبس الى جهة ريجنت ستريت كان كمن خرج من لندرة الى باريس لانه يرى هناك بعض الناس يمشي على مهل فيستشعر ان من الخلق من يخرج للتفرج والتنعم وبعضهم يدخن بالتبغ وهو ماش وبعضهم يتكلم وهو ضاحك او مبتسم وقد يسمع بعض الات الطرب فيانس بان هناك ما ينفس عن القلب ويوذن بالسرور وبان من اوقات العمر ما يخصص للراحة واللذة بخلاف شوارع السيتي فان الله تعالى لم يخلقها الا للسعي والشغل الشغل الشغل ليس الا الشغل العمل العمل ان دين القوم العمل فهم لا يستريحون منه الا اذا استراح هو منهم وناهيك ان فيه دارا واحدة تشتمل على خمسمائة محترف وعدة سماسرته تبلغ نحو الف ومع ان

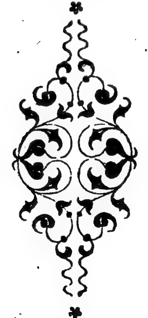
موقع هذا الخط سافل بالنسبة الى سائر اخطاط المدينة وطرقه ضيقة و بيوته حقيرة فان اجلاله عند الانكليز جعله ارفع واشرف من غيره حتى انهم اذا شخصوا منه الى محل اعلى منه يقولون انا نهبط الى موضع كذا وليس في هذا الخط كله ملهى ولا نزهة ولاشيء آخر يبسط النفس فلن ترى فيه الا وجوها كالحة وزحام عواجل وحوافل ومحامل وعجلات مقبلة ومدبرة وطرقا ضيقة وحلة وجدرانا سودا ومسالك غاصة بالناس *

هذا الكتاب هدية مني الى   مولاي مولى الفضل خير الدين

ان كان يقبله فتلك صنيعة   تكسو صنيعي حلة التزيين

في ٨ ج سنة ١٢٧٩

كان الفراغ من طبع هذا التاليف البديع
في شوال المبارك سنة ثلث وثمانين
بعد المائتين والالف بمطبعة
الدولة التونسية صانها
وايدها رب البرية
آمين



* بيان ما وقع من الخطا في هذا الكتاب وصوابه *

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٠٢	٠٦	المهحمل	المهمل
٠٢	١٨	ماثورة	ماثوره
٠٣	١٦	المتسانف	المستانف
٢٤	٢١	والغزلات	والغزالات
٢٧	٠٢	وللام	اللام
٢٧	٠٣	للام	اللام
٣١	١٤	والغسلاث	والغسالات
٣٦	١٥	القدسين	القديسين
٤٧	٢٢	اغتلاها	اغتالها
٥٠	١٢	الشكلى	الثكلى
٥٦	٠٦	تبلبل	تتبلبل
٧١	٠٥	دون	رون
٧١	٠٨	طغى	طفى
٧٨	٠٤	وانحاء	وانحاء
١٠١	١٦	فينسيس	فينيس
١٠٩	٢٦	ترا	نزا
١٢٠	٠٧	الصباع	الصباح
١٤٧	١٤	الحامل	الخامل
١٥٥	١٥	سنخت	سنجت
١٦١	٢٠	ادرود	ادورد
١٧١	١٠	وكثفت	وكسفت
١٨٧	٢٠	بزر	برز
١٨٨	٢١	جخرا	جحزا

صحيفة	سطر	خطا	صواب
١٨٨	٢٦	والفح	والفج
١٩٣	٧	والقاني	والقانوني
٢٠٩	٧	الترحيب	الترحب
٢١٩	١٤	المستعل	المستعمل
٢٢٠	٠٥	لمصاريف	المصاريف
٢٢٠	٠٦	لممتدة	الممتدة
٢٢٠	٢٢	لطب	الطب
٢٢٠	٢٣	يد	اليد
٢٢٠	٢٥	لمطل	المطل
٢٢٠	٢٦	خليجا	وخليجا
٢٢٥	٠٢	خامرة	خامرة
٢٣٢	٠٦	شمة	شمعة
٢٣٩	٢٦	شاترلزي	شانزلزي
٢٤٧	٢٤	تشيه	تشبه
٢٧١	١٦	ورتبهم	وربتهم
٢٧٤	٢٠	يغيضني	يغيظني
٢٧٦	١٦	الصارى	النصارى
٢٧٧	٠٨	الجزال	الجنرال
٢٧٧	٠٨	روشامو	روشامبو
٢٩١	٢٦	ما	اما
٢٩٢	٢٠	يعكس	بعكس

هذا ما عثرنا عليه من الخطا والتحريف وان فاتنا شي لم ننبه عنه
فنرجو المساحمة ممن يعثر عليها غيرنا والله يغفر عثرات الجميع *




VETUS & TESTAMENTUM
NOVUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY



